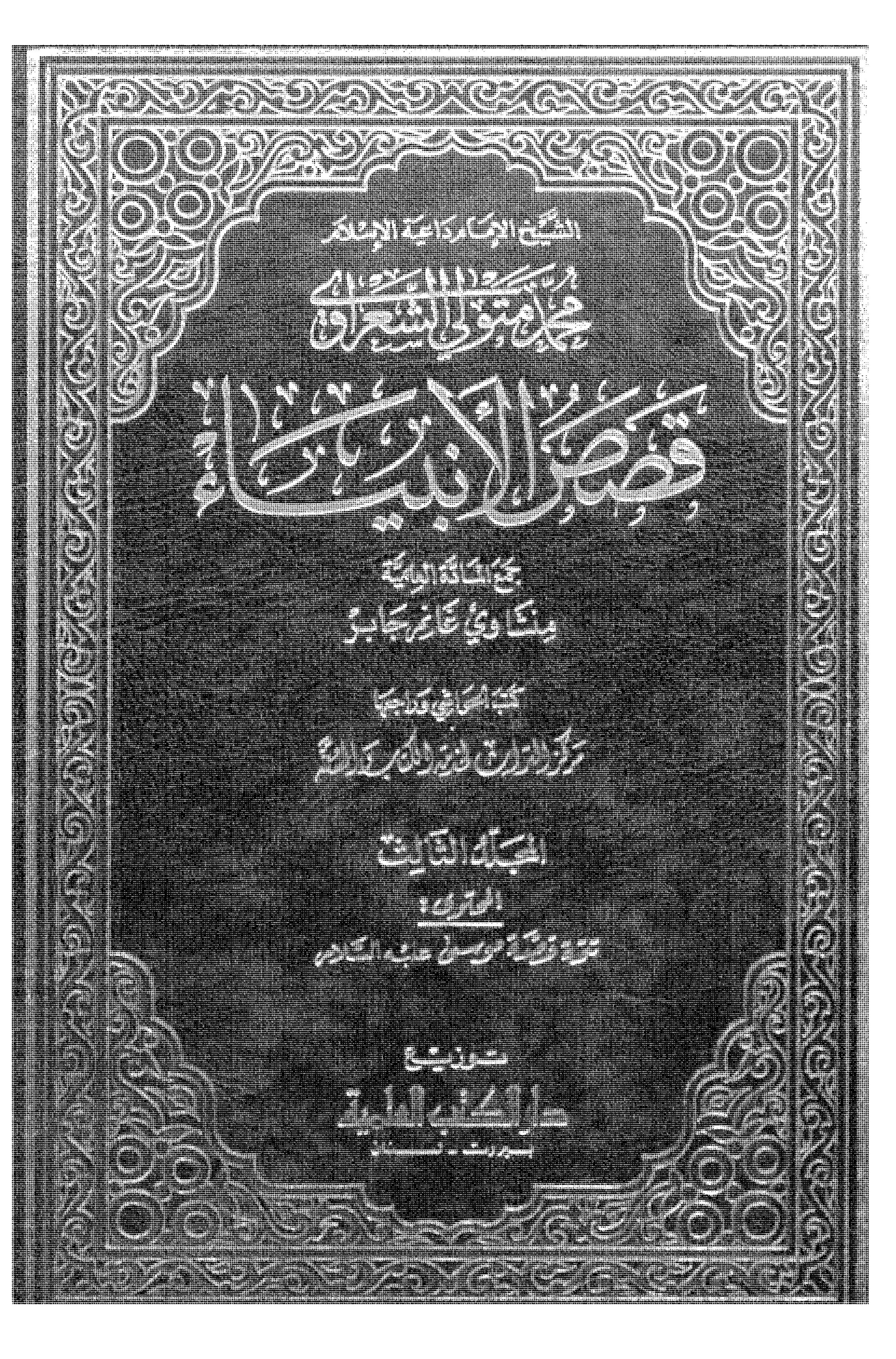

الشيخ الإمام داعية الإسلام
محمد متولي الشعراوي
قصص الأنبياء
المجلد الثالث

الشيخ الإمام داعية الإسلام

محمد متولي الشعراوي



قصص الأنبياء

جمع المادة العلمية

منشاوي غانم جابر

كتب الحواشي وراجعها

مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة

الجزء الثالث

المحتوى:

تتمة قصة موسى عليه السلام

مكتبة التراث الإسلامي



مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

* وحى الله إلى أم موسى *

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

«الوحى» فى عموم اللغة معناه: إعلام بطريق خفى.

لكن الوحى الشرعى: هو إعلام من الله لرسوله بمنهجه لخلقه، هذا هو الوحى الشرعى، بخلاف الوحى فى اللغة ؛ لأنه قد يكون المُوحِى هو الله، يُوحى إلى الملائكة كما قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(١) [الأنفال: ١٢]. كما يُوحى سبحانه إلى الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم؛ كما فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣].

إذن . . هناك وحى للملائكة ، ووحى للأنبياء والرسل ، وهناك وحى للمؤمنين ، كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي

---

(١) قال الطبرى : أما قوله ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ انصركم ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقول: قوّوا عزمهم ، وصححوا نياتهم فى قتال عدوّهم من المشركين.
وقد قيل: إن تثبيت الملائكة المؤمنين، كان حضورهم حربهم معهم، وقيل : كان ذلك معونتهم إياهم بقتال أعدائهم، وقيل: كان ذلك بأن الملك يأتى الرجل من أصحاب النبىّ ﷺ يقول: سمعت هؤلاء القوم، يعنى المشركين، يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن، فيحدِّث المسلمون بعضهم بعضا بذلك، فتقوى أنفسهم، قالوا وذلك كان وحى الله إلى ملائكته. [تفسير الطبرى : ٩/١٩٧]

وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١]. وكما أوحى سبحانه إلى أمّ موسى ، وإلى السيدة مريم، ليس هذا فقط؛ بل أوحى الله سبحانه إلى النحل . كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] .

ليس هذا فقط ؛ بل أوحى الله إلى الجماد أيضا فقال سبحانه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾[1] [الزلزلة] .

فهذا كله إعلام من الله إلى كل الأجناس.

وقد يكون الإعلام من الشيطان ؛ كما فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[2] [الأنعام: ١٢١] .

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أى إنها تحدّث أخبارها بوحى الله ﴿لَهَا﴾، أى إليها. والعرب تضع لام الصفة موضع«إلى». قال العجّاج يصف الأرض:

وحى لها القرارَ فاستقرّت ... وشدّها بالراسيات الثُّبّت

وهذا قول أبى عبيدة : ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أى إليها. وقيل : ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أى أمرها؛ قاله مجاهد. وقال السدّى : ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أى قال لها. وقيل : سخرها. وقيل : المعنى يوم تكون الزلزلة، وإخراج الأرض أخبارها؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصى ، وما عمل على ظهرها من خير وشر . [تفسير القرطبى: ١٤٩/٢٠]

(٢) عن أبى زُميل قال : كنت قاعدا عند ابن عباس، وحج المختار بن أبى عبيد، فجاءه رجل فقال : يا ابن عباس زعم أبو إسحاق أنه أوحى إليه الليلة: فقال ابن عباس : صدق، فنفر وقلت: يقول ابن عباس صدق! فقال ابن عباس : هما وحيان؛ وحى الله ووحى الشيطان - فوحى الله إلى محمد ﷺ ووحى الشيطان إلى أوليائه ثم قرأ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [تفسير ابن كثير ١٦٢/٢]

وقد يكون الوحى بين الضالين من بعضهم لبعض،كما فى قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

إذن.. فالوحى على إطلاقه: إعلام بطريق خفى، إلى أى مخلوق، فى أى موضوع (١).

---

(١) الوحى: الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام، والكلام الخفى، وكل ما القيته إلى غيرك ووحى إليه وأوحى: كلمه بكلام يخفيه من غيره ، ووحى إليه وأوحى: أومأ وفى التنزيل العزيز ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم: ١١] وقال :

فأوحت إلينا والأنامل رسلها

وقال الفراء فى قوله، فأوحى إليهم : أى أشار إليهم ، قال: والعرب تقول أوحى ووحى وأَوْمَى وومى بمعنى واحد،ووحى يحى وومى يمى الكسائى:وحيت إليه بالكلام أحى به وأوحيته إليه،وهو أن تكلمه بكلام تخفيه من غيره،وقول أبى ذؤيب:

فقال لها ، وقد أوحت إليه   الا لله أمك ما تعيفُ

أوحت إليه أى كلمته ، وليست العقاة متكلمة إنما هو على قوله:

قد قالت الأنساع للبطن الحقى

وهو باب واسع ، وأوحى الله الى أنبيائه. ابن الاعرابى : أوحى الرجل إذا بعث برسول ثقة إلى عبد من عبيده ثقة ، وأوحى أيضاً إذا كلّم عبده بلا رسول، وأوحى الإنسان إذا صار ملكاً بعد فقر ، وأوحى الإنسان ووحى وأحى إذا ظلم فى سلطانه ، واستوحيته إذا استفهمته. والوحى : مايوحيه الله الى أنبيائه . ابن الانبارى فى قولهم: أنا مؤمن بوحى الله، قال : سمى وحيًا لأن الملك أسره على الخلق وخص به النبى ﷺ ، المبعوث إليه؛ قال الله عز وجل :﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ ، فهذا أصل الحرف ثم قُصِر الوحى للإلهام، ويكون للأمر ، ويكون للإشارة ، قال علقمة :

يوحى إليها بأنقاض ونقنقة

وقال الزجاج فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ [المائدة : ١١١] وقال بعضهم: ألهمتهم كما قال عز وجل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾=

وأما الوحى الشرعى: هو من الله تعالى للذى اصطفاه من رسله بمنهج يهدى به خلقه، فالوحى إلى أم موسى من المرتبة الرابعة ، لكن هل الوحى إلى أم موسى كان نفثا فى الروع وإلهامًا؟ يجوز. وهل كان بواسطة رؤيا؟ يجوز. وهل كان بواسطة ملك كلّمها وأرشدها إلى هذا الفعل؟[1].

= [النحل :٦٨] وقال بعضهم : أوحيت إلى الحواريين أمرتهم: ومثله:

وحى لها القرار فاستقرت

أى أمرها ، وقال بعضهم فى قوله : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة:١١١] أتيتهم فى الوحى إليك بالبراهين والآيات التى استدلوا بها علي الإيمان فآمنوا بى وبك. قال الأزهرى : وقال الله عز وجل :﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ قال: الوحى ههنا إلقاء الله فى قلبها ، قال : وما بعد هذا يدل ، والله أعلم، على أنه وحى من الله على جهة الإعلام للضمان لها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧] وقيل : إن معنى الوحى ههنا الإلهام، قال : وجائز أن يلقى الله فى قلبها أنه مردود إليها وأنه يكون مرسلا، ولكن الإعلام أبين فى معنى الوحى ههنا . قال أبو إسحاق : وأصل الوحى فى اللغة كلها إعلام فى خفاء، ولذلك صار الإلهام يسمى وحياً؛ قال الأزهرى : وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحياً والكتابة تسمى وحياً. وقال الله عز وجل : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ معناه إلا أن يوحَى إليه وحيا فيعلمه بما يعلم البشر أنه أعلمه ، إما إلهاماً أو رؤيا، وإما أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل على موسى، أو قرآناً يتلى عليه كما أنزله على سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وكل هذا إعلام، وإن اختلفت أسباب الإعلام فيها. وروى الأزهرى عن أبى زيد فى قوله عز وجل: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من أوحيت، قال : وناس من العرب يقولون وحيت إليه ووحيت له وأوحيت إليه وله، قال : وقرأ جُؤَيَّةُ الأسدى قل أحى إلى من وحيت ، همز الواو. ووحيت لك بخبر كذا أى أشرت وصوت به رويداً قال أبو الهيثم : يقال وحيت إلى فلان أحى إليه وحياً ، وأوحيت إليه أوحى إيحاء إذا أشرت إليه وأومأت .

[لسان العرب : ١٥/٣٧٩، ٣٨١]

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ أى ألهمناها وقذفنا فى قلبها، وليس ذلك هو الوحى الذى يوحى إلى الرسل، وقيل : كان ذلك=

. . . .

= رؤيا فى منامها. وقيل : كان ذلك بملك أرسله الله يعلمها بذلك . وقد أجمع العلماء على أنها لم تكن نبية ، وإنما كان إرسال الملك إليها عند من قال به ، على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى ، كما فى الحديث الثابت فى الصحيحين وغيرهما [1] ، وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما فى الحديث الثابت فى الصحيح فلم يكن بذلك نبيا [2] . و «أنْ» فى ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ هى المفسرة ؛ =

---

(١) عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله عز وجل أن يبتليهم فبعث إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، قد قذرنى ناس . قال فمسحه فذهب عنه ، فأُعطى لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا . فقال: أى المال أحب إليك ؟ قال: الإبل - أو قال : البقر - هو شك فى ذلك : إن الأبرصَ والأقرعَ قال أحدهما : الإبل ، وقال الآخر : البقر - فأُعطى ناقةً عشراءَ ، فقال : يبارك لكَ فيها . وأتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب هذا عنى ، قد قذرنى الناس . قال فمسحه فذهب ، وأُعطى شعرًا حسنًا. قال : فأى المال أحب إليك؟ قال : البقرُ . قال : فأعطاه بقرة حاملاً ، وقال يبارك لك فيها . وأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس . قال : فمسحه ، فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطاه شاةً والدًا ، فأُنتج هذان وولَّد هذا ، فكان لهذا وادٍ من إبلٍ ، ولهذا وادٍ من بقر ، ولهذا وادٍ من الغنم ، ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين تقطعت به الجبال فى سفره فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك - بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيرًا أتبلَّغ به فى سفرى . فقال له : إنَّ الحقوق كثيرة . فقال له : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال : لقد ورثت لكابر عن كابر .

فقال : إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلى ما كنت . وأتى الأقرع فى صورته وهيئته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، فرد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلى ما كنت . وأتى الأعمى فى صورته فقال : رجل مسكين وابن السبيل وتقطَّعت به الجبال فى سفره ، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى . وقال له : قد كنت أعمى فرد الله بصرى ، وفقيرًا فقد أغنانى ، فخذ ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله . فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك ، وسخط على صاحبيك » . أخرجه البخارى [٣٤٦٤، ٦٦٥٣]

(٢) عن مُطَرِّف. قال: قال لى عمران بن حصين : أحدثك حديثا عسى الله أن ينفعك به : إن =

المهم أن الذى أوحى بذلك إلى أم موسى هو الله سبحانه وتعالى. . أوحى إليها بماذا؟

الأمـر الأول : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ .

والأمر الثانى: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ .

ومن النواهى : قول الله تعالى لأم موسى: ﴿ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي ﴾ .

وهناك خبران وبشارتان: فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ آية واحدة جمعت بين أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين، فى إيجاز معجز.

معنى ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ أى: فى مدة أمانك عليه، أما إن خفت عليه من أى شىء ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ ، وساعة تلقى أمٌّ ابنها فى اليم، يأتى على بالها فى هذه اللحظة أنه سيضيع أو يغرق أو يُعرّض للخطر؛ فلذلك طمأنها ربها وقال لها: ﴿ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي ﴾ أى : لاتخافى عليه؛

= لأن فى الوحى معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية ، أى بأن أرضعيه ، وقرأ عمر ابن عبد العزيز بكسر نون «أن» ، ووصل همزة «أرضعيه» فالكسر لالتقاء الساكنين، وحذف همزة الوصل على غير القياس ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ من فرعون بأن يبلغ خبره إليه ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ وهو بحر النيل ، ﴿ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي ﴾ أى: لا تخافى عليه الغرق أو الضيعة، ولا تحزنى لفراقه ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ عن قريب على وجه تكون به نجاته ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ الذين نرسلهم إلى العباد.

[فتح القدير : ٤/ ١٥٤، ١٥٥]

= رسول الله ﷺ جمع بين حجة وعمرة . ثم لم ينه عنه حتى مات . ولم ينزل فيه قرآن يحرمه . وقد كان يسلم على حتى أكتويت . فتركت . ثم تركت الكى فعاد .

أخرجه مسلم [١٢٢٦/ ١٦٧]

لأنه سيذهب إلى تربيةٍ خير من تربيتك أنت فى هذا البيت الفقير؛ لأنه سيتربى فى بيت الملوك، ولاتحزنى للفراق فاطمئنى؛ لأنه سيعيش عيشة طيبة، وسيربّى تربية صحيحة ، لأن عين الله ترعاه وتحرسه . فكونه بعيداً عنك لايحزنك؛ لأن هذا الفراق سيعوّضك خيرا، بل ويعوض الأمة كلها خيرا ؛ لأنه سيقضى الله به على طاغية، ويحيى به منهج الله فى الأرض. ففى الأمان أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم، وعندما يوحى الله لها أن تلقيه فى اليم سيرِد على ذهنها خاطر الخوف على ابنها والحزن لفراقه، فقال لها ربها لا تخافى عليه ولا تحزنى؛ لأنه سيكون أفضل من وجوده معها، وسيربى فى بيت الملك، ولأن الله سيردُّه إليها، وهذه بشارة، ولن يردَّه إليها فقط؛ بل سيجعله من المرسلين أيضاً.

إذن. . معنى ذلك أن الله يقول: أنا أحافظ عليه ليس من أجلك يا أم موسى، ولكن لأن له مهمةً عندى، وهى أنى سأجعله رسولاً. ظلت أم موسى ترضعه عدة أشهر فى أمان بعيداً عن العيون، وحين ذلك رأى أحدُ رعيةِ فرعون القابلة [1] وهى خارجة من بيت أم موسى، فوقع فى ذهنه أن أحدا فى البيت فى حالة ولادة، فأبلغ الأمر لمن يهمه الأمر ، وجاء رجال فرعون ليفتشوا البيت، وأحسّت أمه بالخطر فخافت عليه، فلفته فى خِرقة ولم تجد ما تخبئه فيه إلا الفرن، وكان مسجورا بالنار[2] ومن لوعتها

---

(١) القابلة من النساء : معروفة . والقَبَل : لطف القابلة لإخراج الولَد. التهذيب : قبلت القابلة المرأة إذا قبلت الولد ؛ أى: تلقته عند الولادة .

[لسان العرب : ١١/٥٤٣، ٥٤٤]

(٢) سجره يسجره سجرا وسجورا وسجَّره: ملأه . وقوله تعالى : ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾[الطور :٦] جاء فى التفسير : أن البحر يسجر فيكون نار جهنم . وسجر يسجر وانسجر : امتلأ . وكان علىّ بن أبى طالب عليه السلام يقول : المسجور =

وخوفها عليه لم تنتبه إلى أن الفرن فيه نار ، إلا بعد انصراف الجند ولم يجدوا شيئا، فتذكرت أنها وضعته فى الفرن فارتجفت، وذهبت لترى ما حدث له ، فوجدت النار بردا وسلاما عليه، ولم يحدث له مكروه، فاطمأنت إلى أن الله حافظ هذا الوليد، ولن يحدث له سوء، وأن وعد الله حق.

قضية الوحى إلى أم موسى وردت فى القرآن مرتين، فظن المستشرقون أن القرآن يكرر الآيات دون داعٍ، وجاءوا بقول الله تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ وهنا هذا الوحى لم يذكر أن أرضعيه؛ لأن الرضاع فى وقت الأمان ، لكن الوحى هنا جاء فى وقت الخوف ، وكلمة ﴿اقْذِفِيهِ﴾ دليل الاستعجال واللهفة ، فليس فيها حنان ؛ لأنه ليس هناك وقت للعواطف، فتقذفه فى التابوت، ثم تقذف التابوت فى البحر ، ثم أمر الله البحر أن يلقى التابوت إلى الساحل أمام قصر فرعون.

إذن. . مادام لم يذكر كلمة ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ فى هذه الآية، فهذا دليل على أن الحديث هنا عن الموقف ساعة الخوف عندما أمرها الله بإلقائه فى اليم بالفعل، فكأن الوحى الأول تمهيد لما سيحدث لتستعد نفسيا للعمل ، وذلك مثلما يكون هناك بعض « الدور» فى أطراف القرية، واللصوص يأتون فى الليل ليسرقوا المواشى، فيراهم رجل وهم يحومون حول بيت جاره بالليل، فيذهب إليه فى الصباح ويخبره بما رأى وينصحه أن يحتاط

= بالنار أى : مملوء . والمسجور فى كلام العرب المملوء . والسجر : إيقادك التنور تسجره بالوقود سجراً . وسجر التنور يسجره سجراً : أوقده وأحماه، وقيل : أشبع وقوده. [لسان العرب : ٤/ ٣٤٥، ٣٤٦]

للأمر، فيعدّ سلاحه ويسهر على مواشيه حتى لايسرقها اللصوص، وهذا يكون بالنهار فى رتابة وهدوء، ولكن ساعة يأتى اللصوص بالفعل ويحاولون سرقة المواشى، فى هذه اللحظة يصيح هذا الرجل مناديًا على جاره أن يسرع لإنقاذ ماشيته من خطر اللصوص، فيصرخ بأعلى صوته : اللصوص هجموا على البيت وسيسرقون المواشى.. ما كنت أحذرك منه حدث، أطلق عليهم النار...إلخ

ولذلك تجد فى الكلام الأول اطمئنانا، وذلك فى قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ تجد الكلام يغلب عليه طابع الهدوء والاطمئنان؛ لأنه ليس فى وقت الحدث.

ولكنه تمهيد وإعداد لما قبل الحدث، لكن الكلام فى الآية الأخرى جاء وقت الحدث، فكأنه يقول لها: هيا ضعى الولد فى التابوت، واقذفيه فى اليمّ قبل أن يقتله جنود فرعون، ألقيه بسرعة؛ ولذا تجد الأسلوب فى سرعة واستعجال؛ ، فالوقت لا يسمح بالإطناب[1] .قال تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ واعلم أن الحق سبحانه لم يقل ماذا أوحى إلى أم موسى ، ولكن قال: ﴿مَا يُوحَىٰ﴾، فهذه العجلة فى اللفظ تدل على أن هذا الكلام كان ساعة وقوع الحدث نفسه، بدليل أنه لم يذكر كلمة الرضاعة ، وجاء بكلمة ﴿اقْذِفِيهِ﴾ ، مما يدل على السرعة والخوف

---

(١) الإطناب: البلاغة فى المنطق والوصف، مدحا كان أو ذمًا. وأطنب فى الكلام: بالغ فيه. والإطناب : المبالغة فى مدح أو ذم والإكثار فيه .

[لسان العرب : ١/٥٦٢]

والهلع[1]؛ لأن الأم بطبيعتها لا تقذف ابنها ، ولكن تضعه بحنان ، وأما هنا فالوقت ليس وقت الحنان ، والمشاعر ، وعواطف الأمومة.

وقال تعالى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ فالله قد طمأنها عليه حتى لا تخاف، لأنه حين يلقيه اليم بالساحل فهذا أمان له؛ لأن قاع النهر دائما مكان للحيوانات المائية الضخمة، لكن الشاطئ يكون عادة للأسماك الصغيرة، فيخاف عليه إن ظل فى عمق الماء أن يؤذيه شيء من هذه الأحياء البحرية؛ من حوت أوغيره، لكن فى الساحل لا يوجد إلا السمك الصغير الذى لاخطر منه.

---

(١) قال البقاعى فى قوله تعالى : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ﴾ اى القى ابنك ﴿فِي التَّابُوتِ﴾ وهو الصندوق ، فعلوت من التوب الذى معناه الرجوع تفاؤلا به، وقال الحرالى : هو وعاء ما يعز قدره ، والقذف مجاز عن المسارعة إلى وضعه من غير تمهل لشىء أصلا، إشارة إلى أنه فعل مضمون السلامة كيف ما كان. والتعريف ؛ لأنه نوع من الصناديق أشد الناس معرفة به بنو إسرائيل ﴿فَاقْذِفِيهِ﴾ اى: موسى عليه السلام عقب ذلك بتابوته، أو التابوت الذى فيه موسى عليه السلام ﴿فِي الْيَمِّ﴾ اى البحر وهو النيل.

ولما كانت سلامته فى البحر من العجائب؛ لتعرضه للغرق بقلب الريح للتابوت، أو بكسره فى بعض الجدر أو غيرها، أو بجريه مستقيما مع أقوى جرية من الماء إلى البحر الملح وغير ذلك من الآفات ، أشار إلى تحتم تنجيته بلام الأمر عبارة عن معنى الخبر فى قوله ، جاعلا البحر كأنه ذو تمييز ليطيع الأمر : ﴿فَلْيُلْقِهِ﴾ اى التابوت الذى فيه موسى عليه السلام أو موسى بتابوته ﴿الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ اى شاطئ النيل سمى بذلك؛ لأن الماء يسحله، اى ينشره إلى جانب البيت الذى الفعل كله هربا من شر صاحبه ، وهو فرعون، وهو المراد بقوله : ﴿يَأْخُذْهُ﴾ جوابا للأمر؛ اى موسى ﴿عَدُوٌّ لِي﴾ ونبّه على محل العجب بإعادة لفظ العدو فى قوله : ﴿وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ فإنه ما عادى بنى إسرائيل بالتذبيح إلا من أجله. [نظم الدرر : ١٢/ ٢٨٦ ، ٢٨٧]

كما أنه على الساحل يكون قريبا من مرأى العين؛ لأن الله يريد أن ينقذه من هذا ليدخل فى حضانة من يربيه.

وحدث ذلك بالفعل؛ حيث كان فرعون يجلس على شاطئ النيل أمام قصره، ومعه زوجته السيدة آسية، وكان له بنت وحيدة ، قالوا: إنها كانت مبروصة (أى عندها برص)[1] ورأت فى الرؤيا أن شفاءها سيكون على يد شيء يخرج من البحر، تأخذ من ريقه وتدهن البرص فيشفى جلدها منه، فلما ألقاه اليم بالساحل رأوا تابوتا عائما على الشاطئ، ولما أخذوه وفتحوه وجدوا فيه الغلام (موسى عليه السلام) وكان نبى الله موسى أسمر اللون، ليس فيه نضارة الجمال؛ لأن شعره متجعد وأنفه كبير[2] ، فلم يكن طفلا

---

(١) برص : البرص : داء معروف ، نسأل الله العافية منه ومن كل داء ، وهو بياض يقع فى الجسد ، برِصَ بَرَصًا ، والأنثى برصاء ؛ قال :

من مبلغ فتيان مرّة أنه   هجانا ابن برصاء العجان شبيب

ورجل أبرص ، وحية برصاء : فى جلدها لُمَعُ بياضٍ ، وجمع الأبرص بُرص . وأبرص الرجل إذا جاء بولدٍ أبرص ويصغَّر أبرص فيقال : بريص ، ويجمع برصانًا. [لسان العرب : ٧/ ٥]

(٢) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «مررت ليلة أُسرى بى على موسى ابن عمران عليه السلام . رجل آدم طوال جعد. كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق. إلى الحمرة والبياض. سَبِطَ الرأس». وأُرِىَ مالكاً خازن النار، والدجال. فى آيات أراهن الله إياه. ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾[السجدة:٢٣] . قال : كان قتادة يفسرها أن نبى الله ﷺ قد لقى موسى عليه السلام.

أخرجه مسلم [١٦٥/٢٦٧]

قال النووى : قوله ﷺ : «موسى آدم طوال كأنه من رجال شنوءة ، وقال : عيسى جعد مربوع» أما (طوال) فبضم الطاء وتخفيف الواو ، ومعناه : طويل وهما لغتنان، وأما (شنوءة) فشين معجمة مفتوحة ثم نون ثم واو ثم همزة ثم هاء وهى قبيلة معروفة، قال ابن قتيبة فى أدب الكاتب : سموا بذلك من قولك:رجل فيه شنوءة، أى تقزز، قال : ويقال : سموا بذلك؛ لأنهم تشانئوا وتباعدوا ، وقال الجوهرى :=

جميلا يفرح به من يراه؛ ولذلك يمتن ربه عليه بقوله سبحانه: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ أى: إن هذه المحبة لم تكن من ذاتك يا موسى؛ لأن ذاتك لم يكن يؤلف فيها، ولكن المحبة نزلت عليك من عند ربك سبحانه.

فساعة رأته السيدة آسية فرحت به ، وانشرح صدرها له، فقالت لفرعون: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾[القصص: ٩] ففرعون انقبض قلبه، كأنه كان يشعر بأن شيئا سيحدث له من وراء هذا الغلام، فقال لها: لكِ أنتِ، أما أنا فلا (١) . فهو قرة

= الشنوءة : التقزز ، وهو التباعد من الأدناس ، ومنه ، أرد شنوءة ، وهم حى من اليمن ينسب إليهم (شنئى) ، قال : قال: ابن السكيت ربما قالوا: (أرد شنوّة) بالتشديد غير مهموز وينسب إليها (شنوى).

وأما قوله ﷺ : (مربوع) فقال أهل اللغة : هو الرجل بين الرجلين فى القامة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الحقير، وفيه لغات ذكرهن صاحب المحكم وغيره: مربوع ومرتبع ومرتبع - بفتح الباء وكسرها - وربع وربعة، وربعة الأخيرة بفتح الباء والمرأة ربعة، وأما قوله ﷺ فى عيسى ﷺ أنه (جعد) ووقع فى أكثر الروايات فى صفته (سبط الرأس)؛ فقال العلماء : المراد بالجعد هنا جعودة الجسم وهو اجتماعه واكتنازه وليس المراد جعودة الشعر وأما الجعد فى صفة موسى عليه السلام فقال صاحب التحرير : فيه معنيان أحدهما : ما ذكرناه فى عيسى عليه السلام - وهو اكتناز الجسم، والثانى : جعودة الشعر، قال : والأول أصح؛ لأنه قد جاء فى رواية أبى هريرة فى الصحيح أنه رَجِلُ الشعر، هذا كلام صاحب التحرير والمعنيان فيه جائزان، وتكون جعودة الشعر على المعنى الثانى ليست جعودة القطط، بل معناها أنه بين القطط والسبط، والله أعلم. [شرح النووى على مسلم : ١/ ٥٠٤]

(١) قال ابن الأثير : فلما أرادت أمه وضعه حزنت من شأنه، فأوحى الله إليها ، أى ألهمها : ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧] .

فلما وضعته أرضعته ثم دعت نجاراً فجعل له تابوتاً وجعل مفتاح التابوت من داخل وجعلته فيه وألقته فى اليم، فلما توارى عنها أتاها إبليس ، فقالت فى نفسها : ما =

عين لآسية ، لا لفرعون. وهذا الموقف هو الذى قال فيه رسول الله ﷺ : «والله لو قال فرعون وقرة عين لى لهداه الله على يديه كما هداها، ولكنه رد هذا الخبر ولم يقبله» (١).

إذن، هناك رغبة من زوجة فرعون أن يوجد هذا الطفل معهما، وفرعون كان رافضا، ولكن ما الذى جعله يرضى رغم خوفه على حياته وملكه؟

قالوا إن بنت فرعون تدخلت، وقالت: لماذا لا يكون هذا الغلام هو الذى رأيت فى الرؤيا أن الله سيشفينى بريقه؟ ثم مدّت يدها وأخذت من ريق موسى ووضعت على جلدها ، فكلما دهنت جزءًا من جلدها بريقه شفى من البرص فى الحال، فما كان منها إلا أن تمسكت به ، فأصبحت بنت فرعون وزوجته ترغبان فى بقاء هذا الطفل، وهنا ضعُف فرعون أمام امرأته وابنته، وهذا يدلنا على أن الزوجة والولد هما الوسيلتان القويتان للسيطرة على الرجال؛ولذلك يقول ربنا سبحانه:﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣] فالولد مبخلة، مجبنة، والصاحبة تقول له كذا وكذا فتضيع شهامته(٢).

= الذى صنعت بنفسى ! لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلى من أن القيه بيدى إلى حيتان البحر ودوابه. فلما القته ﴿قَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ واسمها مريم ﴿قُصِّيهِ﴾ يعنى قُصّى اثره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١] أنها اخته ، فاقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة ويخفضه أخرى ، حتى أدخله بين أشجار عند دور فرعون، فخرج جوارى آسية امرأة فرعون يغتسلن ،فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية، وظنّنّ أن فيه مالاً، فلما فتح ونظرت إليه آسية وقعت عليها رحمته وأحبته،فلما أخبرت به فرعون وأتته به قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ . فقال فرعون يكون لك ، وأما أنا فلا حاجة لى فيه. [الكامل فى التاريخ : ١/ ١٧١، ١٧٢]

(١) جزء من حديث الفتون السنن الكبرى [١١٣٢٦] وسيرد بطوله فى صفحة [١٣٢٤].

(٢) قال المراغى فى قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾[الجن:٣] أى وانهم كما نفوا عن أنفسهم الإشراك بالله نزّهوا ربهم عن الزوجة والولد ؛ لأن =

وهناك حكاية تُحكى بين أبى نواس والخليفة الرشيد[1]، وهى أن واحدًا استشفع بأبى نواس عند الخليفة ليقضى له أمرا، فكلم أبو نواس الخليفة فلم يقضها، وانتظر أن يقضيها فلم يفعل ، فخاف أن يقابل الرجل ويعتذر له عن عدم قضاء طلبه، وهو صاحب مكانة عند الخليفة، فأحسّ الرجل بحرج أبى نواس، فقال : سألتمس وسيلة أخرى.

وبعث إلى زبيدة زوجة الخليفة من يستشفع بها، فقالت له: طلبك مجاب. وبالفعل أجيب الرجل إلى طلبه فى الحال، فذهب إلى أبى نواس وأخبره بأن طلبه قد أجيب، فاستغرب أبونواس وقال له: ماذا فعلت؟ قال له: رفعت طلبى إلى زوجة الخليفة فقضى فى الحال، فأثر هذا الأمر فى نفس أبى نواس، كيف لم يستطع قضاء أمرٍ وتقضيه النساء؟ فذهب إلى الخليفة وداعبه معاتباً ، وقال له: كيف أستشفع عندك فلا تقضى لى حاجتى، وعندما يرفعها لك غيرى تقضيها له فى الحال؟ فلم يردّ الخليفة عليه، فقال له أبو نواس:

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرًا   مثل الشفيع الذى يأتيك عريانًا

فالزوجة والولد هما من وسائل الضغط على مرادات الإنسان .

= الصاحبة تتخذ للحاجة إليها ، ولأنها من جنس الزوج كما قال : ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] ، والولد للتكثر والاستئناس به، والحاجة إليه حين الكبر وبقاء الذكر والشهرة ، كما قال :

وكم أب علا بابن ذُرا شرفٍ   كما علت برسولِ الله عدنانُ

والله سبحانه منزه عن ذلك، تعالى ربنا علوا كبيرا.

والخلاصة : علا ملك ربنا وسلطانه أن يكون ضعيفا ضعف خلقه الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة أو ملامسة يكون منها الولد . [تفسير المراغى : ٩٦/٢٩]

عن خولة بنت حكيم: الولد محزنة مجبنة مجهلة مبخلة. [كنز العمال : ٤٤٥/٦]

(١) يقصد به الخليفة العباسى هارون الرشيد ، وكان محبًا للعلم والعلماء .

* ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك *

لما أراد الله سبحانه وتعالى أن ينجي موسى -وهو طفل- من القتل، على يد جنود فرعون ، الذين كانوا يقتلون كل طفل ذكر يولد لبني إسرائيل، أوحى إلى أمه كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(1).

إذا جئت لأى أم وقلت لها: إذا خِفتِ على ابنك فألقيه فى البحر.. هل تصدقك؟ طبعا لا؛ لأنها تعرف أنها عندما تلقيه فى البحر فإنها تلقيه إلى موت محقق . وكون هذا الابن مهددًا بأن يأخذه جنود فرعون ويقتلوه، لا يجعل الأم تلقى بابنها فى البحر. لماذا؟ لأنه قد لا يعثر عليه جنود فرعون ، فهى تستطيع أن تأخذه إلى مغارة فى الجبل، أو تهرب به بعيدا عن الناس ، فلا يعثر عليه أحد.

إذن.. فبقاء الابن مع أمه يجعله يواجه موتًا مظنونًا ؛ لأن هناك احتمالا ألا يعثر عليه جنود فرعون ، ولكن إلقاءه فى البحر يجعله يواجه موتا محققا ، ولكن أم موسى ألقت بابنها فى البحر ، وهذا يعطى لنا الفرق بين : وارد الرحمن، وهاجس النفس ، وخاطر الشيطان.

فالوارد من الرحمن لا يجد فى النفس ما يوقفه ؛ لأنه مادام واردًا من

---

(1) قال ابن القيم : جمعت هذه الآية أمرين ونهيين وخبرين ووعدين، ومن هذا النوع فى القرآن كثير، بل القرآن كله حسن وأحسن، وليس هذا موضع استقصاء الأحسن ، وفى أشعار العرب من هذا كثير . [بدائع التفسير : ٣/٣٤٩]

الله سبحانه وتعالى فلا يجرؤ خاطر آخر أن يزاحمه، وما ورد من الله لاتخطر على العقل أبدا أية مناقشة له، فلا يأتى هاجس آخر إلى عقلها ليقول لها مثلا: راجعى نفسك أو لاتتسرعى فى التنفيذ. أو يأتى أى فكر آخر سواء كان من النفس أو من الشيطان؛ ولذلك فإن أم موسى عندما أوحى الله إليها بأن تلقى بابنها فى البحر، قامت فى الحال وألقته.

والوحى من الله سبحانه وتعالى يأخذه الإنسان الموحَى إليه قضية مسلمة، وإن كانت أكبر من العقل والمنطق وكل شىء فى عرف البشر. والأكثر من ذلك أن موسى وهو طفل جعله الله سبحانه وتعالى هو الذى يسعى إلى فرعون، وليس فرعون هو الذى يبحث عنه . وتأملْ عظمة القدرة الإلهية، فرعون يسعى ليقتل كل طفل ذكر يولد لبنى إسرائيل ، فتأتى قدرة الله جل جلاله وتجعل الطفل هو الذى يسعى إلى فرعون ؛ أى يسعى إلى قاتله، وبدلا من أن يأمر بقتله يتخذه ولدا، ويكون على يد هذا الولد هلاك فرعون وقومه؛ ذلك أن الحق سبحانه وتعالى وضع فى قلب فرعون حبًّ من سيأتى هلاكه على يديه فقال جل جلاله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [1] [طه: ٣٩].

ساعة رأى فرعون الطفل ، أنزل الله تبارك وتعالى فى قلبه الحب له ، وجعل الله فرعون هو الذى يربِّى موسى ويحافظ عليه[2]؛ ليكون موسى هو النبى الذى سيأخذ فرعون إلى الهلاك ؛ بل إن الله سبحانه وتعالى

---

(١) قال ابن كثير ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ أى عند عدوك جعلته يحبك ، وقال سلمة ابن كهيل : أى حببتك إلى عبادى . [تفسير ابن كثير ٣/ ١٤٤]

(٢) قال ابن كثير : كانوا يقتلون الغلمان من بنى إسرائيل ؛ حذرًا من وجود موسى ، فحكم الله - وله السلطان العظيم والقدرة التامة - ألا يربى إلا على فراش فرعون ، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له . [تفسير ابن كثير ٣ / ١٤٤]

أعطى أوامره للماء أن يأخذ التابوت الذى وضع فيه موسى، وهو طفل، إلى قصر فرعون ، وظل الماء يحمل التابوت حتى أوصله سالمًا إلى قصر فرعون ، وعندما التقطه آل فرعون، كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٩] هذه هى علّة الالتقاط الحقيقية بالنسبة لفرعون ؛ ليكون موسى قرة عين وابنًا له ، ولكن القرآن الكريم يقول: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[1] [القصص: ٨] فهل هذه علّة الالتقاط؟ وهل يأخذ فرعون طفلا ويربيه فى قصره ويشمله برعايته ؛ ليكون عدوًا له؟ نقول: لا؛ لأن هذه لم تكن علة الالتقاط؛ بل كانت عاقبة الالتقاط أو ما انتهى إليه الأمر ؛ ليصبح موسى عدوا لفرعون. ولو خطر على بال فرعون لحظة واحدة أن الطفل الذى التقطه سيكون عدوا له لذبحه فى الحال ، كما كان يذبح الأطفال الآخرين ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يرينَا عجز البشر أمام قدرة الله ، فجعل فرعون الذى كان بمكره يذبح كل طفل ذكر يولد لبنى إسرائيل ، هو الذى يربّى من سيكون على يديه هلاكه.

(١) قال ابن القيم قوله : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص: ٨] فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به؛ ليكون لهم عدواً وحزناً، وذكر فعلهم دون قضائه؛ لأنه أبلغ فى كونه حزناً لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذى يذبح فرعون الأبناء فى طلبه هو الذى يتولى تربيته فى حجره وبيته باختياره وإرادته ويكون فى قبضته وتحت تصرفه. فذكر فعلهم به فى هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر. [بدائع التفسير : ٣/٣٤٩]

إذن . . فقول الحق تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾[1] [يونس: ٨٨] فـ «اللام» هنا ليست لام العلة ، ولكنها لام العاقبة ؛ أى أن الله سبحانه وتعالى أعطى فرعون وقومه أموالا كثيرة ؛ لينفقوها فى الخير ، ولكنهم بدلا من ذلك أنفقوها فى الشر والكفر ، ففرعون وقومه أخذوا نعمة الله واستخدموها فى نشر الكفر ومبارزة الله بالمعاصى .

وهذا يردّ على بعض المسرفين على أنفسهم، الذين يقولون : إن الضلال من الله سبحانه وتعالى ؛ لأنه أعطاهم المال والنعم كى يَضلُّوا، ولو أنه لم يعطهم هذه النعم لاهتدوا.

---

(١) قال المراغى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى وقال موسى بعد أن أعد قومه بنى إسرائيل للخروج من مصر على قدر ما يستطيع من الإعداد الدينى والدنيوى، وغرس فى قلوبهم الإيمان وحب العزة والكرامة ونحو ذلك، وتوجه إلى الله أن يتم أمره: ربنا إنك أعطيت فرعون وأشراف قومه وكبرائه زينة من حلى وحلل وآنية وماعون وأثاث ورياش وأموالا كثيرة من صامت وناطق أى من ذهب وفضة وزروع وأنعام يتمتعون بها وينفقون منها فى حظوظهم وشهواتهم و ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ أى لتكون عاقبة ذلك إضلال عبادك عن السبيل الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل وصالح العمل. وقد جرت سنة الله بأن كثرة الأموال تورث الكبرياء والخيلاء والبطر والطغيان وتخضع رقاب الناس لأربابها كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:٦].
وقد أثبت البحث والتنقيب فى نواويس قبور المصريين التى كشفت حديثا، وفيما حفظ فى دور الآثار المصرية وغيرها من العواصم الأوربية ، ما يشهد بكثرة تلك الأموال ووجود أنواع من الزينة والحلى لم تكن لتخطر على البال ، ويدل على أرقى أنواع المدنية والحضارة التى لا تضارعها مدنية العصر الحاضر مع ما بلغه العلم والرقى العقلى فى الإنسان . [تفسير المراغى : ١١/ ١٤٧ - ١٤٨]

نقول لهم: إن الله جل جلاله أعطاهم هذه النعم والأموال فتنة واختباراً لينظر هل سينفقونها فى الخير، أم فى الكفر والضلال ؟

ونحن لابد أن ننتبه إلى قول الحق: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ فلو قال إنسان لامرأة : إن خفت على ابنك الرضيع هذا ألقيه فى البحر، فلابد لهذه المرأة أن ترد على مثل هذا القائل بعنف[1] ، لكن أم موسى تلقت هذا الوحى من الله ، والتلقى من الله لا يصادمه شيطان ولا فكر بشر ؛ ولذلك فالإلهام من الله يتجلى فى قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ ، ومادام الله هو الذى ألهمها فإن خاطر الشيطان لا يجىء، ولذلك قامت أم موسى بتنفيذ أمر الله. ويطمئنها الله فيقول لها: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ حيث ينبّه الحق أم موسى إلى أنه لن يردّه إليها لمجرد أنه قرة عين فقط، ولكن لأن لموسى أيضا مهمة أخرى.

وفى لقطة أخرى ،يقول الحق عن مسألة الوحى لأم موسى:﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[2]

---

(١) وذلك لشدة الرحمة التى وضعها الله فى قلوب الأمهات على أولادهن.
فعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قدم على النبى ﷺ سبىٌ ، فإذا امرأة من السبى قد تحلّب ثديها تسعى ، إذا وجدت صبيًا فى السبى أخذته ، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبى ﷺ : « أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ » قلنا : لا ، وهى تقدر على أن لا تطرحه ، فقال : « الله أرحم بعباده من هذه بولدها » . أخرجه البخارى [٥٩٩٩] واللفظ له، ومسلم [٢٧٥٤] .

(٢) يقول العلامة السعدى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ أى: ولتربى على نظرى وفى حفظى وكلاءتى ،وأى نظر وكفالة ، أجلب وأكمل ،ومن ولاية البر الرحيم ، القادر على إيصال مصالح عبده ودفع المضار عنه ؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة ، إلا ، والله تعالى هو الذى دبر ذلك لمصلحة موسى لله. [تيسير الكريم الرحمن : ٢/ ١٣]

[طه: ٣٨ - ٣٩] إن الحق هنا فى هذه اللقطة يصف وقت تنفيذ العملية التى أوحى بها. فهناك فرق بين التمهيد للعملية قبل أن تقع ، كما حدث فى اللقطة السابقة، حيث قال لها الحق: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ كان ذلك هو الإعداد ، ثم جاء وقت التنفيذ، فقال الحق لموسى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ ، إنها سلسلة من الأوامر المتلاحقة، التى تدل على أن هذه العملية كانت فى وقت قتل جنود فرعون أطفالَ بنى إسرائيل.

إن هذا الأمر يظهر لنا أن لله جنودًا من الجمادات لا تعى إلا عن الله، وأنها وعت الأمر الإلهى بأن تصون موسى وتحفظه، تلقَّى ﴿الْيَمِّ﴾ الأمر من الله وَوَعِيَهُ وعلم أنه عندما يُلقَى موسى فى البحر فلابد أن يلقيه إلى الساحل لأمره تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ .

إنها أوامر للمسخر من الجمادات التى لا تَعصى[1]، لكن كيف تكون أوامر الحق لعدو الله؟ يلبسها الله كخاطرٍ ملحٍ فى رأس فرعون ؛ لينفذ مراد الله ، فتقول له امرأته- كما جاء فى الآية الكريمة-: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا

---

(١) قال ابن كثير : وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله :﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] أى : لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنه بخلاف لغاتكم. وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات.

[تفسير ابن كثير : ٣ / ٤١]

وعن عبد الله بن مسعود قال : «كنا نعد الآيات بركةً، وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فقلّ الماء، فقال : «اطلبوا فضلةً من ماء فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده فى الإناء، ثم قال : «حيَّ على الطهور المبارك، والبركة من الله»، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. أخرجه البخارى [٣٥٧٩] .

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩] لقد دخل أمر الله كخاطر. ولقد التقطه آل فرعون ليكون قرة عين لامرأة فرعون ؛ فهل ساعة الالتقاط كان فى بالهم أن يكون موسى عدوا أم قرة عين؟ إنها لام العاقبة التى تتضح فى قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

إن الإنسان يكون فى مراده شيء ، ولكن الله عز وجل يريد شيئاً آخر، فالإنسان فى تخطيطه أنه يقوم بالعملية لأمرٍ ما ، لكن الله تعالى يريد شيئا آخر ، وهو الذى أوحى للإنسان أن يقوم بهذه العملية. إن ذلك يتجلى بوضوح فى علة التقاط آل فرعون لموسى، كانت امرأة فرعون تريده قرة عين له ولها ، ولكن الله أراده أن يكون عدوا لفرعون، وذلك المثال هو توضيح شامل للفرق بين لام العاقبة ولام الإرادة.

إننا عندما نرى أحداثاً مثل هذه الأحداث فلا نقول : هذا ما أراده الله، ولكن لنقل: العاقبة فيما فعلوا خلاف ما خططوا.

* وأصبح فؤاد أم موسى فارغا *

يقول تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [القصص:١٠] كل واحد منا له صدر، والصدر فيه القلب، والقلب فيه الفؤاد[2]. والقلب لا يسمى فؤادا إلا إذا كان فيه قضايا تحرك حركته، وكلمة «فارغ» معناها: ليس فيه شيء ينفع، وليس فيه قضية تضبط التصرف، فأم موسى أصبح فؤادها فارغاً من الشيء الذي يضبط التصرفات؛ لأنها لم تكن قادرة على تحمل هذا الموقف الصعب، لولا أن ربط الله على قلبها وصبَّرها.

---

(١) قال القاسمي: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ أى خاليا من العقل، لما دهمها من فرط الجزع، وأطار عقلها من الدهش، لما بلغها وقوعه في يد فرعون ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أى بأمره وقصته، وأنه ولدها ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى لولا أن الهمناها الصبر. شبه بربط الشئ المنفلت ليقر ويطمئن، ومعنى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى المصدقين بوعد الله، وهو قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾[القصص: ٧].

قال الزمخشري: ويجوز، وأصبح فؤادها فارغا من الهمّ، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه. إن كادت لتبدى بأنه ولدها: لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت. لولا أنَّا طمأنَّا قلبها وسكنَّا قلقه الذى حدث به من شدة الفرح والابتهاج، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله، لا بتبنى فرعون وتعطفه.

[محاسن التأويل: ١٣/٤٦٩٧-٤٦٩٨]

(٢) الفؤاد: القلب، وقيل: وسطه، وقيل: الفؤاد غشاء القلب، والقلب حبته وسويداؤه. [لسان العرب: ٣/٣٢٩]

والإنسان حين يدرك شيئاً يدركه بآلة إدراك، فإما أن يسمعه أو يراه أويلمسه أو يشمه أو يتذوقه ، فمثلاً لو كنت سائراً فى بستان، ورأيت وردة جميلة أعجبتك فأنت ساعة نظرت إليها استقر فى نفسك وجدانٌ تجاهها، فإذا أردت أن تقطفها فهذا يسمى نزوعاً، فالذى يضبط قضية النزوع هذه هو: هل ستقطف هذه الوردة من بستان مملوك لغيرك؟ فتجد عندك قضية فى قلبك، وهى أن هذا ليس من حقك لأنها ليست ملكك.

إذن. . فى القلب قضية، وهى ألا تتعدّى على ما ليس لك، وإن كنت تريد وردة فعليك بشرائها أو زراعتها، فهنا أنت قد أدركت ووجدت فى نفسك إعجاباً واستقراراً، وأردت أن تنزع لكى تملك، لكن الذى منعك من قطفها قضية مستقرة فى قلبك وهى أن هذا الشىء ليس من حقك، وأن صاحبها قد يعاقبك أويقاضيك. . . إلخ.

فأم موسى كان قلبها فارغاً من القضية التى تجعلها تصبر، ولا تذكر سيرة هذا الولد لأى إنسان، لكن لأنها أم - والأم تخشى على ابنها من أقل خطر- فكادت تبدى قلقها، لولا أن ربط الله على قلبها؛ فالربط على القلب حتى يصبح الأمر عقيدة لا تطفو على السطح، ولذلك يقول سبحانه فى قضية أصحاب الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾(1) [الكهف: ١٣، ١٤] إذن. . الرباط على القلب معناه:

---

(١) قال ابن كثير : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ وصبرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ومفارقة ما كانوا فيه. [تفسير ابن كثير : ٣/ ٧٣]

والرباط : المواظبة على الأمر. وربط الله على قلبه : أى ألهمه الصبر وشدّه وقوّاه . [لسان العرب : ٧/ ٣٠٢]

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟» قالوا : بلى يا رسول الله . قال : «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط». =

الاحتفاظ بالقضايا التى تتدخل فى النزوع، فإن كان لا يصح أن تفعل فلا تفعل، وإن كان يصح أن تفعل فافعل ، فقلب أم موسى كان فارغاً من القضايا التى تضبط التصرف ؛ قضايا الانضباط ، لكن حين نسمع إنساناً يتكلم كلاماً فارغاً لافائدة منه نقول: دعك منه ، فهذا كلامه فارغ. فمعنى كلامه فارغ أى: ليس وراءه فائدة أو نفع. وقد تجد إنساناً لا يتكلم إلا فى الموضوعات التافهة والقضايا غير المفيدة، ودائماً تجده يخالف الحقائق، فتقول : هذا إنسان عقله فارغ ؛ أى: ليس فيه شىء نافع أو مفيد ، فالفارغ هو الذى ليس فيه شىء؛ لأنه لا يوجد شىء فارغ، فإما أن يكون به أية مادة أو به هواء إلا أن تفرغه منه[1].

والحق سبحانه يقول عن بعض خلقه: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣] أى لا شىء فيها[2]، ونحن فى تعبيرنا الدارج حينما نسمع واحدا يحب الكذب، ويدّعى أن عنده كذا وكذا، وسيبنى كذا ويشترى كذا، تجد الناس

= أخرجه الترمذى [٥١] وقال : حديث حسن صحيح . وصحّحه الألبانى فى صحيح الترمذى [٤٦] .

(١) فارغ : الفراغ : الخلاء ، فرغ يفرَغ ، ويفرُغ فراغًا، :﴿أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ خاليا من الصبر. [لسان العرب : ٨/ ٤٤٤-٤٤٥]

(٢) قال الشوكانى فى قوله تعالى :﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ الهواء فى اللغة : المجوف الخالى الذى لم تشغله الأجرام ، والمعنى : أن قلوبهم خالية عن العقل والفهم ؛ لما شاهدوا من الفزع والحيرة والدهش ، وجعلها نفس الهوى مبالغة ، ومنه قيل للأحمق والجبان: قلبه هواء ، أى لا رأى فيه ولا قوة . وقيل : معنى الآية أنها خرجت قلوبهم عن مواضعها فصارت فى الحناجر . وقيل : المعنى : أن أفئدة الكفار فى الدنيا خالية عن الخير . وقيل المعنى : أفئدتهم ذات هواء ، ومما يقارب معنى هذه الآية قوله تعالى:﴿أَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص : ١٠] أى خاليًا من كل شىء إلا من همّ موسى . [فتح القدير : ٣/١١٦]

يتعجبون ويقولون : كيف سيفعل كل هذا! إنه لا يملك الهواء، أى إنه حتى الهواء ليس عنده، وهذه مبالغة فى نفى وجود مالٍ عنده؛ لأن الهواء جعله الله مجّاناً لكل خلقه، ولأن قوام حياة الإنسان كما هو معلوم هو الطعام والشراب والهواء، فالطعام تستطيع أن تصبر عليه من ثلاثة أيام إلى ثلاثين يوماً ، حسب مقدار الشحم الموجود فى الجسم، وتصبر على الماء ثلاثة أيام على الأكثر ، حسب مقدار المائية التى عندك، ولكن الهواء لا تستغنى عنه لحظة ، فمعنى ذلك: أن هذا الإنسان ليس عنده طعام ولا شراب، ولا حتى عنده ما يكفيه مدة قليلة.

فقول الله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى بلغ من فراغ قلبها أنها كادت أن تقول: هذا ابنى. لولا أن ربط الله على قلبها، فالله ربط على قلبها لتكون من المؤمنين؛ لأن الإيمان يمنعكِ من الضار ويجلب لك النافع، وإن كان الضار فيه شهوة عاجلة لكِ، فهذا ابنكِ حقا، وأنتِ ملهوفة عليه، لكنك لو أظهرتِ ذلك لفرعون أو أحد من حاشيته سيقتلونه فى الحال، فالله لا يريد منك ذلك حتى يظل ابنك حيا، ولكن أم موسى مع تثبيت الله لها، وصبرها على فراق ابنها، لم تطق أن تترك وليدها فى الماء تتقاذفه الأمواج، فأمرت أخته أن تراقبه من بعيد حتى تأتيها بالخبر.

قال تعالى:﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[1] [القصص:١١] . قُصِّيه أى : تتبّعى خط سيره ، وانظرى أين

---

(١) قال القاسمى : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ أى اتبعى أثره لتنالى خبره. ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ ﴾ بضم النون وسكونها . أى : عن بُعد ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى: أنها تتعرف حاله . [محاسن التأويل : ١٣/٤٦٩٨]

يذهب؟وماذا يحدث له؟. وقوله تعالى: ﴿قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ﴾ دليل على سرعة الحدث، فلم يقل: إنها قالت لها قصّيه فلما قصّته بصرت به. لا.. بل قال: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ﴾ وهذا هو الإيجاز المعجز؛ لأن المتحدث هو الله، وكلمة «بصُر» مثل «رأى» ولكنها أقوى منها. ومعنى ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ : أنها رأته دون أن يراها أحد أو يعرف أنها رأته.

واقرأ قول الله تعالى فى قصة السامرى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦] فـ «بصُر» أى: رأى شيئا دون أن يعرف أحد أنه رآه، وتتجلى حكمة وذكاء أخت موسى فى أن أمها قالت لها : قصّيه، ولم تقل لها: إياك أن يراك أحد ، أو توارى عن الأنظار، ولكن هى من نفسها قدّرت الموقف، ولم تعطِ فرصة لأحد أن يراها وهى تتبعه، وفى هذا يقول الشاعر :

إذا كنت فى حاجة مرسلاً فأرسل حكيماً ولا توصِه

فأخت موسى لم تكن محتاجة إلى من ينصحها أن تتوارى عن عيون القوم وهى تتبع أثر أخيها ، عرفت ذلك من نفسها .

* فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنًا *

يقول الحق سبحانه : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص:٨] «اللقط» أو «اللقطة»:[1] هى أن تجد شيئًا بدون طلب له ،أن تكون سائرًا فى الطريق مثلا وتجد شيئًا دون أن تبحث عنه، فاللقطة أن تجد شيئًا لم تطلبه، و«اللقيط»: هو الرضيع الذى تجده ملقىً فى أى مكان فى الشارع، .. إلخ. فآل فرعون التقطوا موسى، أى وجدوه أمام قصرهم على الشاطئ فأخذوه.. لِمَ ؟ قالت زوجة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ وجاءت بحيثية أخرى وهى أنهما ليس عندهما أولاد ذكور ،فيكون لهما ولدًا مع ابنتهما الوحيدة.

إذن. .علة الالتقاط عندهم أن يكون قرة عين لامرأة فرعون، ويصبح ولدًا يسند البنت. هذه علة الالتقاط عندهم، فهل علة الالتقاط ظلت وبقيت كما أرادوها هم؟ لا ؛ لأن الله أراد شيئًا آخر، فهم فى الحقيقة التقطوه، لا ليكون لهم قرة عين أو يكون لهم ولدًا ، ولكن التقطوه ليكون لهم عدوًا، فهم أرادوا شيئًا وأراد الله شيئًا آخر، فقوله تعالى:

---

(١) اللقط : أخذ الشىء من الأرض. واللقطة : اسم الشىء الذى تجده ملقى فتأخذه. [لسان العرب : ٧/ ٣٩٢]

واللقيط لغة : ما يلقط من الأرض. ثم استعمل للصبى المطرود. وفى الشرع : مولود طرحه أهله خوفا من الفقر، أو فرارا من التهمة بالزنا .

[تيسير القدورى فى الفقه الحنفى:٦٣]

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ فهل هم التقطوه ليكون لهم عدوًا وحزنًا؟ لا. اللام في﴿ لِيَكُونَ ﴾ ليست لام الغاية أو السببية، ولكن اسمها لام العاقبة ، أي كان يفكر لعمل شيء ، فجاءت العاقبة شيئًا آخر.

كما أنَّ الحق سبحانه يريد أن يبين لنا غباء آل فرعون وطمس بصيرتهم؛ لأنَّك يا فرعون قد ادّعيتَ أنك إله، ونُبِّهت إلى أن ولدًا سيأتي ليقتلك، ويكون ذهاب ملكك على يديه، وبعد ذلك تسمح لنفسك أن تربِّي طفلاً في بيتك، وأنت لا تعلم ماذا سيفعل معك؟ كان الأصوب أن تتخلص منه حسب منطقك ومعرفتك، ومنطق الكهنة الذين حذروك وأمروك بقتل الأطفال الذكور.

لماذا لم يتحركوا -حينما أخذت هذا الطفل لتربيته في بيتك- ليقولوا لك: هذا الطفل هو الذي سيقتلك؟ ولكن لأنهم كذابون، ولا يعلمون الغيب، فلم يقولوا شيئًا، وصدق الله إذ يقول : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٦] (١) .

---

(١) قال البقاعي في قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ أي كله ، وهو مالم يبرز إلى عالم الشهادة ، فهو مختص سبحانه بعلمه ؛ فلذلك سبّب عنه قوله : ﴿ فَلا يُظْهِرُ ﴾ أي بوجه من الوجوه في وقت من الأوقات ﴿ عَلَىٰ غَيْبِهِ ﴾ أي : الذي غيّبه عن غيره ، فهو مختص به ﴿ أَحَدًا ﴾ لعزة علم الغيب ، ولأنه خاصة الملك .

[نظم الدرر ٢٠/ ٥٠٠].

وقال الشوكاني :﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ ﴾ قرأ الجمهور بالرفع على أنه بدل من ربي ، أو بيان أو خبر مبتدأ محذوف ، والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها من عدم الدراية ، وقرىء بالنصب على المدح . وقرأ السدّي : « علم الغيب » بصيغة الفعل ونصب الغيب ، والفاء في : ﴿ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ لترتيب عدم الإظهار على =

وفى قول الله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فالحزن (بفتح الحاء والزاى) معناه الحُزن، مثل العَدَم والعُدْمْ ، وسَقَم وسُقْم ، وبَخَل وبُخْل ... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ فقد أخطأوا فى أخذ موسى وتربيته ليكون لهم قرة عين، مع أنه سيكون عليهم

= تفرده بعلم الغيب ، أى لايطلع على الغيب الذى يعلمه ، وهو ما غاب عن العباد، أحدا منهم . [فتح القدير : ٣٠٧/٥]

قال الفخر الرازى: ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ﴾ ليس فيه صيغة عموم فيكفى فى العمل بمقتضاه أن لا يظهر تعالى خلقه على غيب واحد من غيوبه فنحمله على وقت وقوع القيامة فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد فلا يبقى فى الآية دلالة على أنه لايظهر شيئًا من الغيوب لأحد ، والذى يؤكد هذا التأويل أنه تعالى إنما ذكر هذه الآية عقيب قوله : ﴿إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ [الجن:٢٥] يعنى لا أدرى وقت وقوع القيامة ، ثم قال بعده ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ أى وقت وقوع القيامة من الغيب الذى لا يظهره الله لأحد وبالجملة فقوله ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ﴾ لفظ مفرد مضاف ، فيكفى فى العمل به حمله على غيب واحد ، فأما العموم فليس فى اللفظ دلالة عليه ، فإن قيل فإذا حملتم ذلك على القيامة ، فكيف قال ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ مع أنه لا يظهر هذا الغيب لأحد من رسله ؟قلنا بل يظهره عند القرب من إقامة القيامة ، وكيف لا وقد قال : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥] ولا شك أن الملائكة يعلمون فى ذلك الوقت قيام القيامة، وأيضًا يحتمل أن يكون هذا الاستثناء منقطعًا ، كأنه قال عالم الغيب فلا يظهر على غيبه المخصوص وهو قيام القيامة أحدًا، ثم قال بعده لكن من ارتضى من رسول :﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧] حفظة يحفظونه من شر مردة الإنس والجن ، لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام جوابًا لسؤال من سأله عن وقت وقوع القيامة على سبيل الاستهزاء به ، والاستحقار لدينه ومقالته . [التفسير الكبير : ١٦٨/٣٠-١٦٩]

وبالا وهلاكاً فالتقاط موسى وتربيته فى قصر فرعون لا يتناسب والمقدمات التى عرفوها، حيث إنهم كانوا يعرفون أنَّ وليدًا سيخرج إلى الدنيا تكون نهاية ملك فرعون على يديه، وهذا الرضيع الذى وجدوه ملقىً فى البحر فى تابوت، لم يفكروا فى أن أهله فعلوا ذلك ، لِيُنَجُّوه من قتل فرعون، ولم يدرْ بخلدهم أن يكون هذا الرضيع هو الذى سيكون هلاك فرعون وزوال ملكه على يديه ، بل من فرط جهلهم أنهم أخذوه واعتنوا به ، وفى قصر فرعون ذاته . لم يسعفهم سحرهم ولا ألوهية فرعون المزعومة كيف.. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] .

* وحرمنا عليه المراضع *

يقول تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾(1)[القصص: ١٢] فالتحريم هنا ليس كتحريم بعض الأشياء التى حرّمها الله علينا ؛ لأن هذا طفل لم يبلغ سن التكليف، ولكن المعنى: منعناه من أن يقترب من أية امرأة تأتى لترضعه؛ حتى يبحثوا له عن مراضع فتأتى أمه لترضعه، وهذا كله بقدر الله.

والمراضع جمع مرضع، واللغة فيها مرضع ومرضعة. قال تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾(2) [الحج: ٢]

---

(١) قال ابن كثير : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ أى تحريما قدريا وذلك؛ لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدى أمه؛ ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه؛ لترضعه وهى آمنة بعد أن كانت خائفة. [تفسير ابن كثير : ٣/٣٦٨]

(٢) عن عمران بن حصين قال : كنا مع النبى ﷺ فى سفر فتفاوت بين أصحابه فى السير، فرفع رسول الله ﷺ صوته بهاتين الآيتين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:١، ٢] فلما سمع ذلك أصحابه حثوا (1) المطى وعرفوا أنه عند قول يقوله ، فقال: «هل تدرون أى يوم ذلك؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال : «ذلك يوم ينادى الله فيه آدم، فيناديه ربه فيقول : يا آدم ابعث بعث النار؟ فيقول : أى رب وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فبئس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة . فلما رأى رسول الله ﷺ الذى بأصحابه ، =

---

(١) حثوا : أى حضّوها على الجد فى السير .

والمرضع هى التى من شأنها أن ترضع، أى أن فى ثديها لبناً لكن المرضعة: هى التى يكون ثديها فى فم طفل ترضعه، فالمرضع صالحة لأن ترضع ولكنها لا ترضع الآن، فالذهول عن التى ترضع أى أن طفلها يكون ملتقماً ثديها وتذهل عنه.

فلما رأت أخت موسى أنه لا يرضع من أحد قالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢] فلما قالت ذلك، سمعها هامان فسألها إن كانت تعرف شيئاً عن هذا الطفل، قالت: لا، ولكنهم ناصحون، محبون للملك ومخلصون له[1].

فردَّه الله إلى أمه، قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣] فردَّه الله سبحانه إلى أمه كى تفرح وتقرّ عينها به ولا تحزن على فراقه، ولتعلم بجزئية بشرها الله بها فتحققت، وأن ما بشَّرها الله به سيتحقق كما تحقق جزء منه، حينما امتثلت لأمر الله بوضعه فى التابوت، وإلقائه فى اليم. ووعدها سبحانه برده إليها وجعله من المرسلين، فوَّفى الله بما وعد به.

= قال: «اعملوا وأبشروا، فوالذى نفس محمد بيده، إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء إلا كثرتاه؛ يأجوج ومأجوج، ومن مات من بنى آدم وبنى إبليس» قال: فسرى عن القوم بعض الذى يجدون، قال: «اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير أو كالرقمة فى ذراع الدابة».

أخرجه الترمذى [٣١٦٩] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٥٣٤].

(١) قال ابن كثير: قال ابن عباس: لما قالت لهم ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها، وقالوا لها: وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه؟ فقالت لهم: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعته، فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم، ذهبوا معها إلى منزلهم، فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه، ففرحوا بذلك فرحًا شديدًا. [تفسير ابن كثير: ٣/٣٦٨]

وكلمة ﴿فَرَدَدْنَاهُ﴾ إلى أمه تدل على أن الأسباب فى يد المسبِّب، فالله رده لأن الله يجرى الأمور وفق إرادته ومشيئته ويحول بين المرء وقلبه، ولتعلم أن وعد الله حق فى قوله: ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧] فحفظه الله وردَّه إليها، كما وعدها من قبل، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك.

ثم يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] الأشُد : هو القوة، وهو أن يصل الإنسان إلى قمة نموه ونضجه الجسمى، وهو ما بين ثمانى عشرة سنة إلى عشرين سنة، أما الاستواء: فهو نضج العقل، فلما بلغ سيدنا موسى قمة النضج الجسمى والعقلى، آتاه الله حكما وعلماً ، وكذلك يجزى الله المحسنين. والمحسن: هو من يزيد فى طاعة الله وعبادته من جنس ما افترضه الله عليه.(١)

---

(١) قال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ فيه تسعة أقاويل :

أحدها : أربعون سنة ، قاله الحسن .

الثانى : أربع وثلاثون سنة ، قاله سفيان .

الثالث : ثلاث وثلاثون سنة ، قاله ابن عباس .

الرابع : ثلاثون سنة ، قاله السدى .

الخامس : خمس وعشرون سنة ، قاله عكرمة .

السادس : عشرون سنة ، حكاه يحيى بن سلام .

السابع : ثمانى عشرة سنة ، قاله ابن جبير .

الثامن : خمس عشرة سنة ، قاله محمد بن قيس .

التاسع : الحلم . قاله ربيعة ومالك .

والأشد : جمع ، واختلف هل له واحد أم لا ، على قولين :

أحدهما : لا واحد له ، قاله أبو عبيدة .

الثانى : له واحد ، وفيه وجهان : =

= أحدهما : شد ، قاله سيبويه .

الثـانى : شدة ، قاله الكسائى .

﴿وَاسْتَوَىٰ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدهـا : اعتدال القوة ، قاله ابن شجرة .

الثـانى : خروج اللحية ، قاله ابن قتيبة .

الثالـث : انتهى شبابه ، قاله ابن قتيبة .

الرابـع : أربعون سنة ، قاله ابن عباس .

﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فى الحكم أربعة أقاويل :

أحدها : أنه العقل ، قاله عكرمة .

الثـانى : النبوة ، قاله السدى .

الثـالث : القوة ، قاله مجاهد .

الـرابع : الفقه ، قاله ابن إسحاق .

[تفسير الماوردى : ٤/ ٢٤٠-٢٤١]

وقال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ أى مثل ذلك الجزاء الذى جزينا أم موسى لما استسلمت لأمر الله ، وألقت ولدها فى البحر ، وصدّقت بوعد الله ، نجزى المحسنين على إحسانهم . والمراد : العموم .

[فتح القدير : ٤/١٥٨]

* لا تقتلوه عسى أن ينفعنا *

إن الله سبحانه وتعالى سخَّر الكافر ليعين على الإيمان،(١) ففرعون مثلاً يقتل الأطفال، لأن العرّافين قالوا له : إن نهاية ملكه ستكون على يد رجل من بنى إسرائيل. فيؤتى بموسى إلى باب قصره فى تابوت فلا يقتله ويربّيه وتقول زوجته له : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

كيف يقتل كل الأولاد إلا هذا الولد؟ ثم يبعث الله أخت موسى كى تعرف مكانه، بعد أن كادت الأم أن تظهر الحقيقة من فرط خوفها عليه ، وتراه أخته، وترضعه أمه، ويربّيه فرعون. كل هذا خدمة من كافر- وهو

---

(١) عن أبى هريرة قال : شهدنا مع رسول الله ﷺ حنيناً. فقال لرجل ممن يُدعى بالإسلام «هذا من أهل النار» فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة . فقيل: يا رسول الله، الرجل الذى قلت له آنفاً: «إنه من أهل النار» فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً. وقد مات. فقال النبى ﷺ: «إلى النار» فكاد بعض المسلمين أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل : إنه لم يمت. ولكن به جراحاً شديداً! فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه. فأخبر النبى ﷺ فقال: «الله أكبر! أشهد أنى عبد الله ورسوله» ثم أمر بلالاً فنادى فى الناس: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة. وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». أخرجه مسلم [١١١]

قال ابن القيم : وعندما هاجر رسول الله ﷺ وأبو بكر الصديق رضى الله عنه من مكة إلى المدينة. كانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثى ، وكان هاديا ماهرا بالطريق، وكان على دين قومه من قريش وأمناه على ذلك وسلما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث. [زاد المعاد فى هدى خير العباد : ٣/٥٢]

فرعون- لقضية الإيمان دون أن يدرى ، وفى ذلك يقول الشاعر:

إذا لم تصادف فى بَنِيك عناية فقد كـذب الرائى وخـاب المؤمـلُ

فموسى الذى ربّاه جبريل كافر وموسى الذى رباه فرعون مرسـلُ

يتحدث هنا عن موسى السامرى الذى ربّاه جبريل[1]، ثم صنع العجل الذى عبده بنو إسرائيل.

---

(١) قال السيوطى : أخرج ابن جرير، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما هجم فرعون على البحر وأصحابه - وكان فرعون على فرس أدهم حصان، هاب الحصان أن يقتحم البحر، فمثل له جبريل على فرس أنثى، فلما رآها الحصان هجم خلفها، وعرف السامرى جبريل - لأن أمه حين خافت أن يذبح خلفته فى غار وأطبقت عليه - فكان جبريل يأتيه فيغذوه بأصابعه، فى واحدة لبناً، وفى الأخرى عسلا، وفى الأخرى سمنا، فلم يزل يغذوه حتى نشأ، فلما عاينه فى البحر عرفه، فقبض قبضة من أثر فرسه. قال أخذ من تحت الحافر قبضة ، وألقى فى روع السامرى : إنك لا تلقيها على شيء فتقول: كن كذا إلا كان، فلم تزل القبضة معه فى يده حتى جاوز البحر ، فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحر، أغرق الله آل فرعون .

قال موسى لأخيه هارون ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] ومضى موسى لموعد ربه، وكان مع بنى إسرائيل حلى من حلى آل فرعون ، فكأنهم تأثموا منه، فأخرجوه لتنزل النار فتأكله ، فلما جمعوه قال السامرى : بالقبضة هكذا ، فقذفها فيه وقال : كن عجلا جسداً له خوار فصار ﴿عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ [طه: ٨٨] فكان يدخل الريح من دبره، ويخرج من فيه يسمع له صوت! فقال : ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] فعكفوا على العجل يعبدونه .

فقال هارون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه]

[الدر المنثور: ٥/ ٥٩٢ ، ٥٩٣]

* قرت عين لى ولك *

قول امرأة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[1] [القصص: ٩]

كلمة «قرّة» القاف والراء ترد فى اللغه بمعان، منها قرّ فى المكان: أى ثبت فيه، إذن قرة وقرور بمعنى ثبات. «قرة عين» يعنى: ثبات للعين. ومرة تأتى كلمة قر بمعنى البرد مثل قول الشاعر:

أوْقِد فإن الليل ليل قر — والريح يا غلام ريح صِرٌّ[2]

عسى يرى نارك من يمرُّ — إن جلبتْ ضيفًا فأنت حرٌّ[3]

فالقر يأتى بمعنى الثبات، أو بمعنى البرد، فأيهما يتناسب والمقصود بالآية الكريمة؟ مادام المعنى هو الثبات والاستقرار فى المكان، ننظر كيف تستقر العين وتثبت فى المكان؟ ثبات العين أو استقرارها فى المكان إما أن يكون ثباتا حسيا، وإما أن يكون ثباتا معنويا، والثبات المعنوى أن تستقر العين عند الشىء ولا تتطلع إلى غيره؛ ولذلك يقولون : فلان ليس له

(١) قال ابن كثير : ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص : ٩] قالت امرأة فرعون : عسى أن ينفعنا. وقد حصل لها ذلك، وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه، وهم لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه، من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة. [تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٦٨]

(٢) قرّ: برد شديد ، ريح صر : شديدة البرودة ، والمعنى : أوقد نارك ؛ ليراك من يمر فيأتيك ضيف إن أردت .

(٣) هذا قول حاتم الطائى . كان إذا جنّ الليل يوعز إلى غلامه أن يوقد النار فى يفاع من الأرض ؛ لينظر إليها من أضله الطريق فيأوى إلى منزله . [ديوان المروءة : ٩١]

تطلعات أى أنه مقتنع بما عنده[1].

الحق سبحانه وتعالى يخاطب رسوله ﷺ فيقول: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١] ولذلك فأنت حينما تكون سائرا فى الطريق مع شخص ما، وتتحدث معه ثم ينصرف ببصره بعيدا وتقول له : أين أنت؟ فالثبات إن كان معنوياً معناه أن تكتفى وتتمتع بما أنت فيه، ولا تتطلع عينك إلى شىء آخر. وهذا هو الثبات المعنوى.

وهناك ثبات حسى بأن تثبت العين عند منظر تراه، لأنها لا ترى أجمل من هذا المنظر. ولو كان القر بمعنى البرد، فقرة العين تعنى برودتها، وهذا شىء تحتاجه العين، ولذلك كانوا حينما يدعون على ظالم يقولون : أسخن الله عينك[2] لماذا ؟ لأن الحرارة تميل دائما بطبيعتها إلى الاستطراق، فإذا كنت جالساً فى حجرة باردة وأوقدت فيها ناراً وأغلقت الباب، تجد البرد يذهب تدريجياً، ويبدأ الدفء يعمّ الحجرة ويقضى على البرد.

إذن. . فالحرارة إشعاعية وتستطرق فى المكان. لكن حكمة الله تتجلى فى خرق هذه القاعدة فى الإنسان ، فالإنسان على الرغم من أن جسمه

---

(١) وفى الحديث عن عبدالله بن قرط، عن النبى ﷺ قال : «إن أعظم الأيام عند الله تبارك وتعالى يوم النحر، ثم يوم القر » أخرجه أبو داود [١٧٦٥] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [١٥٥٢].

والقر : هو الغد من يوم النحر، سمى به لأن أهل الموسم يوم التروية وعرفة والنحر فى تعب من الحج، فإذا كان الغد من يوم النحر قروا بمنى. شرح السنة [٧/ ١٩٩].

القر : البرد عامة، بالضم، وقال بعضهم : القر فى الشتاء ، والبرد فى الشتاء والصيف. والقر : القرار فى المكان . [لسان العرب : ٥/ ٨٣]

(٢) قال ابن سيدة : أى لم ينقطع بكاؤها واستحرارها بالدمع؛ لأن للسرور دمعة باردة، وللحزن دمعة حارة. [لسان العرب : ٥/ ٨٦]

كله متصل ببعضه، يغلفه جلد واحد، تجد أن درجة حرارته العامة سبعة وثلاثون درجة، فإن زاد عن ذلك أو نقص فهو غير طبيعى، ومع ذلك هناك أجهزة فى الجسم لاتؤدى وظيفتها إلا إذا كانت درجة حرارتها أربعين درجة مئوية مثل الكبد. أما العين فلاتزيد حرارتها عن تسع درجات، لأنها لو زادت عن ذلك تنصهر العين؛ ولذلك يقولون : أقرّ الله عينك ، أى جعلها باردة وسليمة؛ لأنها لو سخنت تمرض. فالجسم كله له درجة حرارة عامة، والكبد له درجة حرارة خاصة به، والعين كذلك، والأذن كذلك، فلماذا لم تستطرق حرارة الجسم فى أجزائه وتصبح حرارة واحدة؟ هذه حكمة الخالق وقدرته أنه جعل كل عضو فى الجسم أو جهاز من أجهزته محتفظاً بحرارته، فلا يعطى ذاك ولا يأخذ منه، وهذا من مظاهر إعجاز الخالق سبحانه.

إذن. . إن كانت «قرة العين» من القر وهو البرد، فهى بمعنى أقر الله عينك حتى لا تسخن أو تمرض.

ولذلك فالمرأة العربية التى دخلت على الخليفة وقالت: أقر الله عينك، وأتم عليك نعمتك. فبعد أن أعطاها ما تريد وانصرفت، قال لجلسائه: والله ما فطنتم إلى ما تريد، إنها تقصد به أقر الله عينك[1] أى: سكّنها وجمّدها، وأتم عليك نعمتك، أى: تزول؛ لأن أية نعمة لاتتم وتستمر. . لماذا؟ لأن الإنسان ابن الأغيار، فلا يثبت على حال. ومادام ابن أغيار وتمت له النعمة ماذا يحدث له؟ هو ابن الأغيار ووصل القمة، وليس له ثبات، فلابد أن ينزل؛ ولذلك يقولون: ترقب زوالا إذا قيل تمّ.

وكان هناك من يمدح أحد الخلفاء بقوله:

---

(١) وأقر الله عينك : أى صادفت ما يرضيك فتقر عينك من النظر إلى غيره.
[لسان العرب: ٥/ ٨٦]

شخص الأنام إلى كمالك فاستعذ من شر أعينهم بعيب واحد

إذن.. قرة عين إما أن تكون بالمعنى المعنوى، الذى تثبت عنده العين ولا يكون لها تطلعات بعده، وإما أن تكون بالمعنى الحسى، الذى تثبت العين عند منظرٍ تراه.

والحق سبحانه يعطينا هذه الصورة فى قرة العين فى قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (١٩)﴾ [الأحزاب] مثلما نقول نحن: فلان عينه (لايجة).. لماذا؟ هذا يحدث إما من الخوف أو من القلق أو من الاضطراب، وهذا كله ينافى سكون العين واستقرارها. وكلمة ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ تفيد أنهم همّوا بقتله باعتبار أنه واحد من الأطفال الذين قد يكون هلاك فرعون على أيديهم، فزوجة فرعون طلبت أن يتركوه لها؛ لعله ينفعها أو تتخذه ولدا مع ابنتها الوحيدة.

ومعنى ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ أى: لا يشعرون أنه سينفعهم أو يضرهم؛ لأنهم لا يعلمون الغيب[1].

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا ابتداء كلام من الله تعالى؛ لا يشعرون أن هلاكهم بسببه، وقيل: هو من كلام المرأة، أى وبنو إسرائيل لا يدرون أنا التقطناه، ولايشعرون أن هلاكهم بسببه. [تفسير القرطبى: ١٣/٢٥٣]

وقال ابن الجوزى فى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: فيه أربعة أقوال:

أحدها: لا يشعرون أنه عدو لهم، قاله مجاهد.

والثانى: أن هلاكهم على يديه، قاله قتادة.

والثالث: لا يشعر بنو إسرائيل أنا التقطناه، قاله محمد بن قيس.

والرابع: لا يشعرون أنى أفعل ما أريد، لا ما يريدون، قاله محمد بن إسحاق.

[زاد المسير: ٦/٨٨، ٨٩]

❊ إرجاع موسى إلى أمه ❊

وكلمة ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ الفعل «رجع» مرة يأتى لازما ومرة يكون متعديا، وقوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾(1) [طه: ٨٦] فالفعل لازم. وأما قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ﴾ فالفعل متعدٍ.

إذن الفعل «رجع» مرة يأتى لازما ومرة يأتى متعديا، فإن كان الرجوع بالذات فهو رجع ، لكن إن كان الرجوع بشئ من الغير ، فيقال: رجَّعه وأرجعه. فالرجوع أن تعود إلى حال كنت عليه أولا ، فإن كان هذا من عندك فأنت الذى رجعت، وإن كانت أمور أخرى هى التى جعلتك ترجع، يقال: رجَّعك ، ومثلها أرجعك فحين يكون الرجوع منك يقال: رجعتَ، وحين يكون الرجوع ليس منك ، ولكن بدافع غير واضح يقال رجعكَ ؛ لأن الرجوع فى ظاهره منك ، ولكن دوافعه ليست منك؛ لكن أرجعك أى دفعك إلى الرجوع رغما عنك (2) .

---

(1) لما ذهب موسى لميقات ربه، أخبره تعالى بما كان بعده من الحدث فى بنى إسرائيل، وعبادتهم العجل الذى عمله لهم ذلك السامرى. فرجع موسى فى غاية الغضب والحنق عليهم. هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم ، وتسلم التوراة التى فيها شريعتهم وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله، فرجع إليهم غضبان أسفا، والأسف : شدة الغضب. وقال مجاهد : أسفا أى : جزعا. وقال قتادة والسدى : أسفًا : حزينا على ما صنع قومه من بعده . [ابن كثير : ١٦٢/٣]. بتصرف.

(2) رجع يرجع رجعًا ورُجُوعًا ورُجْعَى ورُجْعانًا ومرجعًا ومرْجعةً : انصرف . وفى التنزيل العزيز : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ أى الرجوع والمرجع ، مصدر على فُعْلى وفيه : =

ومعنى ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ أى تثبت؛ لأن قرة العين وقرورها، أى: ثباتها. لأن التطلعات إما أن تكون تطلعات حسية أو تطلعات معنوية، فمثلا واحد قد يتطلع إلى آمال يريد تحقيقها ثم تحققت له فنفسه تستقر؛ لأنه لم يعد يتطلع إلى شئ بعد أن حقق طموحاته، فاستقرت نفسه عند هذا الشئ، فالمعنويات تقول: لم تعد عينه تتطلع إلى شئ بعد هذا المنصب.

ومن الناحية الحسية، إذا نظر الإنسان إلى شئ جميل لا يتحول بعينه عنه، ولذلك فالعرب يقولون عن الشئ الجميل: هذا قيد النواظر. أى: أن الذى يراه لا يتحول عنه؛ لأنه لم يجد أحسن منه، فقرّة العين شئ حسن تستقر عنده العين، ولا تطلب مزيداً فى الحسن عليه. والحق سبحانه وتعالى يعدد نعمه على موسى فيذكر له أنه أعاده إلى أمه حتى تفرح ولا تحزن، وأنه قتل نفساً فنجاه الله من الغم، قال تعالى: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾(1) [طه: ٤٠] لأن موسى بعد أن وكز الرجل بيده ومات، خاف أن يلحق به القوم فيقتلوه، فأنجاه الله إلى مدين.

= ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أى رجوعكم.

وقوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ يعنى: العبد إذا بعث يوم القيامة وأبصر وعرف ما كان ينكره فى الدنيا يقول لربه: ارجعون أى رُدُّونى إلى الدنيا، وقوله ارجعون واقع ههنا ويكون لازما كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ ومصدره لازما الرجوع، ومصدره واقعا الرجع. يقال: رَجَعْته رَجْعًا فرجع رُجُوعًا يستوى فيه لفظ اللازم والواقع. ورجع فعل قاصر ومتعدٍ، تقول: رجع زيد، وترجَعْته أنا. [لسان العرب: ٨/ ١١٤، ١١٥]

(١) عن سعيد بن جبير، قال: سألت عبدالله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾، فسألته عن الفتون ما هو؟ قال: استأنف النهار يا ابن جبير، فإن لها حديثا طويلا، فلما أصبحت غدوت على ابن عباس؛ لأنتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله عز وجل وعد إبراهيم ﷺ أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكا، فقال بعضهم: إن بنى إسرائيل =

. . . .

= ينتظرون ذلك، ما يشكُّون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب عليهما السلام، فلما هلك قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم عليه السلام، فقال فرعون : فكيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشفار، يطوفون فى بنى إسرائيل فلا يجدون مولودا ذكرا إلا ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا : توشكون أن تفنوا بنى إسرائيل فتصيروا أن تباشروا من الأعمال والخدمة الذى كانوا يكفونكم. فاقتلوا عاما كل مولود ذكر فيقلُّ نباتهم، ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحدا، فينشأ الصغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولن يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك. فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى فوقع فى قلبها الهم والحزن - وذلك من الفتون يا ابن جبير - مادخل عليه في بطن أمه مما يراد به. فأوحى الله جل ذكره إليها ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فامرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت وتلقيه فى اليم. فلما ولدت فعلت ذلك. فلما توارى عنها ابنها، أتاها الشيطان فقالت فى نفسها : ما فعلت بابنى؟ لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلى أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه، فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْضَة مستقى جوارى امرأة فرعون. فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت فقال بعضهن : إن فى هذا مالا، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه. فحملنه كهيئته ولم يخرجن منه شيئا حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلاما، فألقى عليها منه محبة لم يلق منها على أحد قط، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شىء إلا من ذكر موسى. فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت لهم : أقِرّوه، فإن هذا الواحد لايزيد فى بنى إسرائيل، حتى آتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لى كنت قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم أَلُمْكم، فأتت فرعون فقالت : قرة عين لى ولك، فقال فرعون : يكون لك فأما لى فلا حاجة لى، فقال رسول الله ﷺ : «والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها، ولكن الله حرمه ذلك». فأرسلت إلى من حولها؛ إلى كل امرأة لها لبن تختار له ظِئرا، فجعل كلما =

= أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن ويموت، فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئرا تأخذه منها، فلم يقبل. فأصبحت أم موسى والهًا، فقالت لأخته : قصّى أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكرا، أحى ابنى أم أكلته الدواب، ونسيت ما كان الله وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب - والجنب : أن يسمو بصر الإنسان إلى الشيء البعيد وهو إلى ناحية لا يشعر به - فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤورات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها، فقالوا : مايدريك ما نصحهم ؟ هل تعرفونه ؟ حتى شكوا فى ذلك - وذلك من الفتون يا ابن جبير - فقالت : نصيحتهم له، وشفقتهم عليه رغبتهم فى صهر الملك ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته فى حجرها، نوى إلى ثديها، فمصه حتى امتلأ جنباه ريا، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرا، فأرسلت إليها فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع، قالت : امكثى ترضعى ابنى هذا، فإنى لم أحب شيئا حبه قط، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى لا آلوه خيرا فعلت، فإنى غير تاركة بيتى وولدى، وذكرت أم موسى ما كان الله وعده، فتعاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز موعوده. فرجعت إلى بيتها من يومها، فأنبته الله نباتا حسنا، وحفظ لما قد قضى فيه، فلم يزل بنو إسرائيل وهم فى ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أريرينى ابنى، فوعدتها يوما تزيرها إياه فيه.

وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤورها وَقَهَارِمَتِها : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية وكرامة، لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أمينا يحصى كل ما يصنع كل إنسان منكم. فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته وأكرمته وفرحت به، ونحلت أمه بحسن أثرها عليه ، ثم قالت : لآتينّ فرعون فلينحلنه وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله فى حجره، فتناول موسى لحية فرعون، فمدها إلى الأرض. قال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه، إنه زعم أن يَرُبَّك ويعلوك ويصرعك؟! فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه - وذلك من الفتون يا ابن جبير - بعد =

....

= كل بلاء ابتلى به وأريد به فتونا. فجاءت امرأة فرعون [تسعى إلى فرعون]. فقالت : ما بدا لك فى هذا الغلام الذى وهبته لى، فقال : ألا ترينه، إنه يزعم سيصرعنى ويعلونى، قالت : اجعل بينى وبينك أمرا يعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤ، واجتنب الجمرتين، عرفت أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب ذلك إليه فتناول الجمرتين فنزعوهما منه مخافة أن يحرقا يديه، فقالت المرأة : ألا ترى؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد هم به، وكان الله بالغا فيه أمره. فلما بلغ أشده، وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة حتى امتنعوا كل الامتناع.
فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة، إذ هو برجلين يقتتلان أحدهما فرعونى والآخر إسرائيلى، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى، فغضب موسى عليه السلام غضبا شديدا لأنه تناوله وهو يعلم منزله من بنى إسرائيل، وحفظه لهم، لايعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع إلا أم موسى، إلا أن يكون الله سبحانه أطلع موسى عليه السلام من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره، ووكز موسى الفرعونى فقتله، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلى، فقال موسى حين قتل الرجل : هذا من عمل الشيطان، إنه عدو مضل مبين، ثم قال : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فأصبح فى المدينة خائفا يترقب الأخبار، فأتى فرعون فقيل له : إن بنى إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون، فخذ لنا بحقك ولا ترخص لهم. فقال : ابغونى قاتله من شهد عليه، فإن الملك وإن كان صفوه مع قومه، لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبتا، إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلا من آل فرعون آخر. فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه، وكره الذى رأى فغضب الإسرائيلى، وهو يريد أن يبطش بالفرعونى، فقال للإسرائيلى لما فعل أمس واليوم : إنك لغوى مبين، فنظر الإسرائيلى إلى موسى عليه السلام بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس، الذى قتل فيه الفرعونى، فخاف أن يكون بعد ما قال له إنك لغوى مبين، أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده، وإنما أراد الفرعونى، فخاف =

= الإسرائيلى وقال : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس؟ وإنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فتتاركا، وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى، من الخبر حين يقول : أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسًا بالأمس، فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم، يمشون على هيئتهم يطلبون موسى، وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره الخبر - وذلك من الفتون يا بن جبير - فخرج موسى متوجها نحو مدين، لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له علم إلا حسن ظنه بربه تعالى، فإنه ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ يعنى ذلك : حابستين غنمهما - فقال لهما : ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ فقالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم، وإنما ننتظر فضول حياضهم فسقى لهما، فجعل يغترف فى الدلو ماء كثيرا حتى كان أول الرعاء، وانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى عليه السلام، فاستظل بشجرة وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفَّلاً بطانا، فقال : إن لكما اليوم لشأنا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه، قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين، ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا فى مملكته، فقالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين، فاحتملته الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته؟ قالت : أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلا قط أقوى فى ذلك السقى منه، وأما الأمانة، فإنه نظر إلى حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال : امشى خلفى، وانعتى لى الطريق، فلم يفعل هذا الأمر إلا وهو أمين. فَسُرِّيَ عن أبيها وصدقها، وظن به الذى قالت، فقال له : هل لك: ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ففعل فكانت على نبى الله موسى ثمانى سنين واجبة،وكانت سنتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته، فأتمهما عشرًا. =

= قال سعيد : فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم، قال : هل تدرى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت : لا، وأنا يومئذ لا أدرى، فلقيت ابن عباس فذكرتُ ذلك له، فقال: أما علمت أن ثمانٍ كانت على نبى الله واجبة، لم يكن نبى الله ﷺ لينقص منها شيئا، ويعلم أن الله كان قاضيا عن موسى عدته التى وعده فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك، فقال : الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت : أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر الناس والعصا ويده ما قص الله عليك فى القرآن، فشكا إلى الله سبحانه ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون ليكون له ردءًا، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه الله سؤله وحل عقدة من لسانه، وأوحى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون عليه السلام، فانطلقا جميعا إلى فرعون، فأقاما على بابه حينا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا : إنا رسولا ربك، قال : فمن ربكما؟ فأخبراه بالذى قص الله عليك فى القرآن، قال : فما تريدان؟ وذكره القتيل فاعتذر بما قد سمعت، قال أريد أن تؤمن بالله، وترسل معى بنى إسرائيل، فأبى عليه وقال: ائت بآية إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هى حية عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها فاقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل ثم أخرج يده من جيبه، فرآها بيضاء من غير سوء - يعنى من غير برصٍ ثم ردها فعادت إلى لونها الأول، فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا له : هذان ساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما، ويذهبا بطريقتكم المثلى - يعنى ملكهم الذى هم فيه والعيش - فأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب، وقالوا له: اجمع لهما السحرة، فإنهم بأرضك كثير، حتى يغلب سحرك سحرهما، فأرسل فى المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا : بم يعمل هذا الساحر، قالوا يعمل بالحيات، قالوا: فلا والله ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات، والحبال والعصى الذى نعمل، وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم : أنتم أقاربى وخاصتى، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتم. فتواعدوا يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى. قال سعيد : فحدثنى ابن عباس : أن يوم الزينة، اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء. =

= فلما اجتمعوا فى صعيد، قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين - يعنون موسى وهارون استهزاءًا بهما- فقالوا : يا موسى - لقدرتهم بسحرهم - إما أن تلقى، وإما أن نكون نحن الملقين، قال : بل القوا، ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ فرأى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة، فأوحى الله إليه أن ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيما فاغرة فاها، فجعلت العصا تَلَبَّس بالحبال حتى صارت جُرُزا على الثعبان تدخل فيه، حتى ما أبقت عصا ولا حبلا إلا ابتلعته، فلما عرف السحرة ذلك، قالوا : لو كان هذا سحرا لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من الله، آمنا بالله وبما جاء به موسى، ونتوب إلى الله مما كنا عليه. فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك الموطن وأتباعه، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون : ﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ وامرأة فرعون بارزة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون، ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه وإنما كان حزنها وهمها لموسى. فلما طال مكث موسى بمواعد فرعون الكاذبة، كلما جاءه بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده، وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل الله عز وجل على قومه : ﴿ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ ﴾، كل ذلك يشكو إلى موسى، ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويوافقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه، أخلف موعده، ونكث عهده. حتى أمر موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلا، فلما أصبح فرعون، فرأى أنهم قد مضوا، أرسل فى المدائن حاشرين فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى الله تعالى إلى البحر ، إذا ضربك عبدى موسى بعصاه، فانفرِقْ اثنتى عشرة فرقة ؛ حتى يجاوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقى بعد من فرعون وأشياعه، فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصا، فانتهى إلى البحر، وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه، وهو غافل، فيصير عاصيا لله.

فلما تراءى الجمعان تقاربا، قال قوم موسى، إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك فإنه لم يكذب ولم تكذب، قال : وعدنى ربى إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة، حتى أجاوزه ثم ذكر بعد ذلك العصا، فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه، وكما وعد موسى، فلما=

= أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحركما أمره، فلما جاوز موسى البحرقال أصحابه : إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا هلاكه، ثم مروا بعد ذلك ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قد رأيتم من العبر، وسمعتم ما يكفيكم. ومضى فأنزلهم موسى منزلا وقال لهم : أطيعوا هارون فإنى قد استخلفته عليكم، فإنى ذاهب إلى ربى، وأجَّلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه [أراد] أن يكلمه فى ثلاثين يوما، وقد صامهن : ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريحُ فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئا فمضغه، فقال له ربه حين أتاه : لم أفطرت؟ -وهو أعلم بالذى كان-، قال : يارب إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح، قال : أو ما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك؟، ارجع فصم عشرا، ثم ائتنى، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ساءهم ذلك، وكان هارون قد خطبهم وقال إنكم خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع، ولكم فيهم مثل ذلك، وأنا أرى أن تحتسبوا مالكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استُودِعتموها، ولا عارية، ولسنا برادِّين إليهم شيئا من ذلك، ولا ممسكيه، لأنفسنا، فحفر حفيرا، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال : لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر، جيران لبنى إسرائيل، ولم يكن من بنى إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا فقضى له أن رأى أثرا فأخذ منه قبضة، فمر بهارون فقال له هارون عليه السلام : يا سامرى ألا تلقى ما فى يدك؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طوال ذلك، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر، فلا ألقيها بشىء إلا أن تدعو الله إذا ألقيت أن يكون ما أريد، فألقاها ودعا له هارون، فقال أريد أن تكون عجلا، فاجتمع ما كان فى الحفرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد فصار عجلا أجوف ليس فيه روح له خوار.

قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط، إنما كانت الريح تدخل من دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك. =

= فتفرق بنو إسرائيل فرقا، فقالت فرقة : يا سامرى، ما هذا وأنت أعلم به؟ قال : هذا ربكم، ولكن موسى أضل الطريق، فقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا، وإن لم يكن ربنا إنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة : هذا عمل الشيطان، وليس بربنا، ولن نؤمن به، ولانصدق، وأشرب فرقة فى قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون : يا قوم إنما فتنتم به، وإن ربكم الرحمن، هكذا قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا؟ هذه أربعون قد مضت. فقال سفهاؤهم : أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه، فلما كلم الله موسى عليه السلام وقال له ما قال، أخبره بما لقى قومه من بعده، فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا، قال لهم ما سمعتم فى القرآن وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له، فانصرف إلى السامرى فقال له: ما حملك على ما صنعت، قال : قبضت قبضة من أثر الرسول وفطنت إليها، وعميت عليكم، فقذفتها ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ ، ولو كان إلها لم نخلص إلى ذلك منه، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون، فقالوا: - لجماعتهم- ياموسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا ما عملنا، فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك، لا يألوا الخير، خيار بنى إسرائيل ومن لم يشرك فى العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض واستحيا نبى الله ﷺ من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل، فقال : ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ﴾ وفيهم من كان الله اطّلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمان به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾.

فقال : يا رب سألتك التوبة لقومى فقلت : إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى فليتك أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة، فقال له : إن توبتهم أن يقتل =

= كل رجل منهم كل من لقى من والد وولد ، فيقتله بالسيف لا يبالى من قتل فى ذلك الموطن، ويأتى أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون، واطلع الله من ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا، وغفر الله للقاتل والمقتول. ثم سار بهم موسى ﷺ متوجها نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذى أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يقروا بها، فنتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصطفُّون، ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر، وذكر من ثمارهم أمرا عجيبا من عظمها فقالوا : ياموسى إن فيها قوما جبارين، لاطاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون - قيل ليزيد هكذا قرأه ؟ قال : نعم من الجبارين آمنا بموسى، وخرجا إليه، فقالوا : نحن أعلم بقومنا، إن كنتم إنما تخافون [من] ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم، ولا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون. ويقول أناس : إنهما من قوم موسى، فقال الذين يخافون بنو إسرائيل : ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فأغضبوا موسى عليه السلام، فدعا عليهم وسماهم كما سمَّاهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما رأى منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ، فاستجاب الله تعالى له، وسماهم موسى فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين أظهرهم حجرا مربعا، وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فى كل ناحية ثلاثة أعين، وأعلم كل سبط عينهم التى يشربون منها، فلا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذى كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى ﷺ، وصدق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس حدث هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل، فقال :كيف يفشى عليه ولم يكن علم به، ولا ظهر=

ومعنى ﴿وَفَتَنَّاكَ﴾ : أى عرّضناك لأشياء ومواقف كثيرة ونجيناك منها(1).

فموسى ولد فى عام القتل للأطفال فأنجاه الله بإلقائه فى اليم.

وحينما جذب فرعون من لحيته، وحاول أن يقتله أنجاه الله من شره.

وكذلك حينما قتل الرجل من أعدائه ، وخرج من المدينة خائفاً يترقب أنجاه الله إلى أرض مدين.

وحينما سافر إلى أرض مدين عمل أجيراً. والأجير دائمًا مشغول بالعمل حتى يحصل على قوت يومه، وموسى نفسه قبل أن يلتقى بشعيب قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(2) [القصص: ٢٤] فلما التقى بشعيب رحّب به وهنّأه على نجاته من فرعون، وعرض عليه أن يزوجه

= عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك، فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى، فقال له : يا أبا إسحاق هل تذكر يوما حدثنا عن رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلى أفشى عليه أم الفرعونى؟ قال : إنما أفشى عليه الفرعونى ما سمع من الإسرائيلى شهد على ذلك وحضره. أخرجه النسائى فى الكبرى [١١٣٢٦]

(1) قال الشوكانى فى قوله تعالى :﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ الفتنة تكون بمعنى المحنة ، وبمعنى الأمر الشاق ، وكل ما يبتلى به الإنسان، والفتون يجوز أن يكون مصدرًا كالثبور والشكور والكفور ، أى ابتليناك ابتلاءً ، واختبرناك اختبارًا ، ويجوز أن يكون جمع فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجور فى حجرة وبدور فى بدرة ، أى خلصناك مرةً بعد مرةً مما وقعت فيه من المحن التى سبق ذكرها قبل أن يصطفيه الله لرسالته . ولعل المقصود بذكر تنجيته من الغمّ الحاصل له بذلك السبب وتنجيته من المحن هو : الامتنان عليه بصنع الله سبحانه له ، وتقوية قلبه عند ملاقاة ما سيقع له من ذلك مع فرعون وبنى إسرائيل . [فتح القدير : ٣/ ٣٦٧]

(2) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافيا فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه، وإن بطنه للاصق لظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى=

إحدى ابنتيه، على أن يأجره ثمانى سنوات وإن أتم عشر سنوات فهذا كرم من موسى . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾(1) [القصص: ٢٧].

فموسى قد غاب عن أمه وعن وطنه وعمل أجيراً وتزوج وأنجب ولدا، واشتاقت نفسه إلى أن يرى أمه ووطنه، وخلال عودته حدثت له اختبارات الرسالة.

قال تعالى: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٤٠] جئت على قدر: أى على قدر من اصطفائك، وإلا فما الذى حرك قلبك إلى أن تعود إلى أمك وتسلك طريقاً وعرا غير مأهول، فى ظروف صعبة من البرد وعدم وضوح الطريق وغير ذلك، من الذى فعل ذلك كله؟

= من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة. [تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٧٠]

وقال البغوى فى قوله تعالى :﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ ﴾ طعام،﴿ فَقِيرٌ ﴾ قال أهل اللغة اللام بمعنى « إلى » يقال : هو فقير له ، وفقير إليه، يقول : إنى لما أنزلت إلىّ من خير ، أى : طعام ، فقير محتاج ، كان يطلب الطعام لجوعه . [تفسير البغوى : ٦/ ٢٠١]

(1) عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ : «سألت جبريل : أىّ الأجلين قضى موسى؟ قال : أكملهما وأتمهما.» أخرجه أبو يعلى فى مسنده [٢٤٠٨] ، واللفظ له ، والحاكم فى المستدرك [٢/ ٤٠٨] وصححه ، وذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة [١٨٨٠].

وعن سعيد بن جبير قال : «سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى؟ فقلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله. فقدمت سألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما. إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل».أخرجه البخارى [٢٦٨٤].

إنه قدر الله تعالى[1] ؛ لأن الله أراد لك أن تعود حتى إذا وصلت إلى الوادى المقدس طوى جاءك الاصطفاء، ونزلت عليك الرسالة ؛ ولذلك يقولون: جاءته الخلافة؛ أو جاءت له قدرا. واقرأ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾[1] أى أن هذا الذى حدث أنا الذى قد صنعته ؛ لأنى سأرسلك رسولا بمنهجى إلى فرعون وإلى قومك .

هنا العلماء أرادوا أن يعددوا الأشياء التى طلبها موسى من ربه ، قالوا: إنها ثمانية فى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾[3] [طه] وقالوا : إن ربنا سبحانه أعطاه هذه المطالب الثمانية

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ اى معزز الجانب مكفى المؤونة فى عشرة أتقى رجل منهم وأصلحهم ، وهو نبيهم عليه السلام ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ أى بعد أن قضيت الأجل المضروب بينك وبين شعيب من الإجارة، جئت بأهلك على وفق ما سبق فى قضائى وقدرى؛ أن أكلمك وأستنبئك فى وقت بعينه قد وقّته لذلك . فما جئت إلا على ذلك القدر، غير مستقدم ولامستأخر . فالأمر له تعالى . وهو المسيّر عباده وخلقه فيما يشاء .

قال أبو السعود : وقوله تعالى ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ تشريف له عليه الصلاة والسلام ، وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الأخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولاً . [تفسير القاسمى : ١١/ ٤١٨٠]

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ قال ابن عباس : أى اصطفيتك لوحيى ورسالتى . وقيل : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ﴾ خلقتك ؛ مأخوذ من الصنعة . وقيل قوّيتك وعلمتك ؛ لتبلغ عبادى أمرى ونهى . [تفسير القرطبى : ١١/ ١٩٨]

(٣) قال الفخر الرازى:

اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون وكان ذلك تكليفاً=

. . . .

= شاقاً فلا جرم أن سأل ربه أموراً ثمانية، ثم ختمها بما يجرى مجرى العلة لسؤال تلك الأشياء.

المطلوب الأول قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥] واعلم أنه يقال: شرحت الكلام أى: بيّنته وشرحت صدره أى: وسعته والأول يقرب منه؛ لأن شرح الكلام لا يحصل إلا ببسطه. والسبب فى هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه فى موضع آخر وهو قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: ١٣] فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة، وقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ فأفهم عنك ما أنزلت على من الوحى، وقيل: شجعنى لأجترىء به على مخاطبة فرعون.

ثم الكلام فيه يتعلق بأمور أحدها: فائدة الدعاء وشرائطه وثانيها: ما السبب فى أن الإنسان لا يذكر وقت الدعاء من أسماء الله تعالى إلا الرب؟ وثالثها: ما معنى شرح الصدر ورابعها: بماذا يكون شرح الصدر؟ وخامسها: كيف كان شرح الصدر فى حق موسى عليه السلام؟ ومحمد ﷺ؟ وسادسها: صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحاً أم لم يكن منشرحاً؟ فإن كان منشرحاً كان طلب شرح الصدر تحصيلا للحاصل وهو محال، وإن لم يكن منشرحاً فهو باطل من وجهين؛ الأول: أنه سبحانه وتعالى بيّن له فيما تقدم كل ما يتعلق بالأديان من معرفة الربوبية والعبودية وأحوال المعاد وكل ما يتعلق بشرح الصدر فى باب الدين فقد حصل، ثم إنه سبحانه تلطف له بقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣] ثم كلّمه على سبيل الملاطفة بقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] ثم أظهر له المعجزات العظيمة والكرامات الجسيمة، ثم أعطاه منصب الرسالة بعد أن كان فقيراً وكل ما يتعلق به الإعزاز والإكرام فقد حصل، ولو أن ذرة من هذه المناصب حصلت لأدون الناس لصار منشرح الصدر فبعد حصولها لكليم الله تعالى يستحيل أن لا يصير منشرح الصدر والثانى: أنه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الأشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة إليه فإن من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لا يصلح للقضاء على ما قال عليه السلام: «لا يقضى القاضى وهو غضبان» (١) فكيف يصلح للنبوة التى أقل مراتبها القضاء؟ فهذا مجموع الأمور التى لابد من البحث عنها فى هذه الآية. =

---

(١) أخرجه البخارى [٧١٥٨] عن أبى بكرة بلفظ: « لا يقضين حكَم بين اثنين وهو غضبان » .

= أما البحث الأول: وهو فائدة الدعاء وشرائطه فقد تقدم فى تفسير قوله: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] إلا أنه نذكر منها ههنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول: اعلم أن للكمال مراتب ودرجات وأعلاها أن يكون كاملا فى ذاته مكملا لغيره، أما كونه كاملا فى ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته، وكل ما كان كذلك كان كاملا فى الأزل ولكنه يستحيل أن يكون مكملا فى الأزل؛ لأن التكميل عبارة عن جعل الشىء كاملا وذلك لا يتحقق إلا عند الكمال، فإنه لو كان حاصلا فى الأزل لاستحال التأثير فيه، فإن تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع فلا جرم أن سبحانه، وإن كان كاملا فى الأزل إلا أنه يصير مكملا فيما لا يزال، فإن قيل إذا كان التكميل من صفات الكمال فحيث لم يكن مكملا فى الأزل فقد كان عارياً عن صفات الكمال فيكون ناقصاً وهو محال، قلنا: النقصان إنما يلزم لو كان ذلك ممكناً فى الأزل لكنّا بيّنا أن الفعل الأزلى محال فالتكميل الأزلى محال فعدمه لا يكون نقصاناً، كما أن قولنا: إنه لا يقدر على تكوين مثل نفسه لا يكون نقصاناً؛ لأنه غير ممكن الوجود فى نفسه، وكقولنا: إنه لا يعلم عدداً مفصلاً كحركات أهل الجنة؛ لأن كل ماله عدد مفصل فهو متناه، وحركات أهل الجنة غير متناهية فلا يكون له عدد مفصل، فامتنع ذلك لا لقصور فى العلم، بل لكونه فى نفسه ممتنع الحصول. إذا ثبت هذا فنقول: إنه سبحانه وتعالى لما قصد إلى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين؛ لأن الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات فأجلس على المائدة بعض المعدومات دون البعض لأسباب؛ أحدها: أن المعدومات غير متناهية فلو أجلس الكل على مائدة الوجود لدخل ما لا نهاية له فى الوجود، وثانيها: أنه لو أوجد الكل لما بقى بعد ذلك قادراً على الإيجاد؛ لأن إيجاد الموجود محال، فكان ذلك وإن كان كمالا للناقص لكنه يقتضى نقصان الكامل فإنه ينقلب القادر من القدرة إلى العجز، وثالثها: أن لو دخل الكل فى الوجود لما بقى فيه تمييز فلا يتميز القادر عن الموجب والقدرة كمال والإيجاب بالطبع نقصان، فلهذه الأسباب أخرج بعض الممكنات إلى الوجود فإن قيل: عليه سؤالان أحدهما: أن الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية ولا نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى، فتكون أيضاً الضيافة ضيافة للأقل، وأما الحرمان فإنه عدد لما لا نهاية له، وهذا =

= لا يكون وجوداً ، الثاني: أن البعض الذى خصه بهذه الضيافة إن كان لاستحقاق حصل فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل؟ وإن كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثاً وهو محال ، كما قيل:

يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرماً.

وإنه لا يليق بأكرم الأكرمين والجواب: عن الكل أن هذه الشبهات إنما تدور فى العقول والخيالات؛ لأن الإنسان يحاول قياس فعله على فعلنا؛ وذلك باطل؛ لأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. إذا عرفت هذا فهذا الوجود الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الضيافة العامة والمائدة الشاملة وهو المراد من قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ثم إن الموجودات انقسمت إلى الجمادات وإلى الحيوانات، ولاشك أن الجماد بالنسبة إلى الحيوان كالعدم بالنسبة إلى الوجود؛ لأن الجماد لا خبر عنده من وجوده فوجوده بالنسبة إليه كالعدم وعدمه كالوجود، وأما الحيوان فهو الذى يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة إليه؛ ولأن الجماد بالنسبة إلى الحيوان آلة؛ لأن الحيوانات تستعمل الجمادات فى أغراض أنفسها ومصالحها وهى كالعبد المطيع المسخر والحيوان كالمالك المستولى. فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية فكما أن إحسان الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض كذلك اقتضيا وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض، فلا جرم جعل بعض الموجودات أحياء دون البعض.

والحياة بالنسبة إلى الجمادية كالنور بالنسبة إلى الظلمة، والبصر بالنسبة إلى العمى والوجود بالنسبة إلى العدم، فعند ذلك صار بعض الموجودات حياً مدركا للمنافى، والملائم، واللذة والألم، والخير، والشر، فمن ثَمَّ قالت الأحياء عند ذلك يارب الأرباب، إنا وإن وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفتنا بذلك، لكن ازدادت الحاجة؛ لأنا حال العدم وحال الجمادية ما كنا نحتاج إلى الملائم والموافق وما كنا نخاف المنافى، والمؤذى، ولما حصل الوجود والحياة احتجنا إلى طلب الملائم ودفع المنافى فإن لم تكن لنا قدرة على الهرب والطلب والدفع والجذب لبقينا كالزمن المقعد على الطريق عرضة للآفات وهدفا لسهام البليات فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التى بها نتمكن من الطلب تارة والهرب أخرى، فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الأحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة =

= وتخصيص بعض المعدومات بالوجود. فقال القادرون عند ذلك إلهنا الجواد الكريم إن الحياة والقدرة بلا عقل لا تكون إلا لأحد القسمين إما للمجانين المقيدين بالسلاسل والأغلال، وإما للبهائم المستعملة فى حمل الأثقال وكل ذلك من صفات النقصان وأنت قد رقَّيتنا من حضيض النقصان إلى أوج الكمال فأفض علينا من العقل الذى هو أشرف مخلوقاتك وأعز مبدعاتك الذى شرفته بقولك «بك أهين وبك أثيب وبك أعاقب» حتى تفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة فأعطاهم العقل وبعث فى أرواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية. فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الأربعة: الوجود، والحياة، والقدرة، والعقل. فالعقل: خاتم الكل والخاتم يجب أن يكون أفضل ألا ترى أن رسولنا ﷺ لما كان خاتم النبيين كان أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والإنسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان أفضلها، فكذلك العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذى الجلال كان أفضل الخلع وأكملها، ثم نظر العقل فى نفسه فرأى نفسه كالجفنة المملوأة من الجواهر النفيسة بل كأنها سماء مملوأة من الكواكب الزاهرة وهى العلوم الضرورية البديهية المركوزة فى بدائه العقول وصرائح الأذهان، وكما أن الكواكب المركوزة فى السموات علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر، فكذلك الجواهر المركوزة فى سماء العقل كواكب زاهرة يهتدى بها السائرون فى ظلمات عالم الأجسام إلى أنوار العالم الروحانية وفسحة السموات وأضوائها. فلما نظر العقل إلى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك الجواهر وعلى جميع تلك الخلع فاستدل بتلك الأرقام على راقم، وبتلك النقوش على ناقش. وعند ذلك عرف أن النقاش بخلاف النقش والبانى بخلاف البناء، فانفتح له من أعلى سماء عالم المحدثات روازن إلى أضواء لوائح عالم القدم، وطالع عالم القدم الأزلية والجلال وكان العقل إنما نظر إلى أضواء عالم الأزلية من ظلمات عالم الحدوث والإمكان فغلبته دهشة أنوار الأزلية فعميت عيناه فبقى متحيراً. فالتجأ بطبعه إلى مفيض الأنوار، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ فإن البحار عميقة والظلمات متكاثفة، وفى الطريق قطاع من الأعداء الداخلة والخارجة وشياطين الإنس والجن كثيرة، فإن لم تشرح لى صدرى ولم تكن لى عونا فى كل الأمور انقطعت، وصارت هذه الخلع سبباً لنيل الآفات لا للفوز بالدرجات. فهذا هو المراد من قول: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ ثم قال: ﴿ وَيَسِّرْ لِى أَمْرِى ﴾[طه:٢٦] ؛ =

. . . .

= وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال، والأقوال، والحركات، والسكنات فما لم يصر العبد مريداً له استحال أن يصير فاعلا له، فهذه الإرادة صفة محدثة ولابد لها من فاعل، وفاعلها إن كان هو العبد افتقر فى تحصيل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى، ولزم التسلسل بل لابد من الانتهاء إلى إرادة يخلقها مدبر العالم فيكون فى الحقيقة هو الميسر للأمور وهو المتمم لجميع الأشياء، وتمام التحقيق أن حدوث الصفة لابد له من قابل وفاعل فعبّر عن استعداد القابل بقوله: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وعبر عن حصول الفاعل بقوله : ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وفيه التنبيه على أنه سبحانه وتعالى هو الذى يعطى القابل قابليته والفاعل فاعليته؛ ولهذا كان السلف رضى الله عنهم يقولون: يا مبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها. ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع على أن جميع الحوادث فى هذا العالم واقعة بقضائه وقدره وحكمته وقدرته. ويمكن أن يقال أيضاً كأن موسى عليه السلام قال: إلهى لا أكتفى بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الأمر وتحصيل الغرض ؛ فلهذا قال: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أو يقال: إنه سبحانه وتعالى لما أعطاه الخلع الأربع: وهى الوجود والحياة والقدرة والعقل فكأنه قال له: يا موسى أعطيتك هذه الخلع الأربع فلابد فى مقابلتها من خدمات أربع لتقابل كل نعمة بخدمة. فقال موسى عليه السلام: ما تلك الخدمات؟ فقال: وأقم الصلاة لذكرى فإن فيها أنواعاً أربعة من الخدمة القيام والقراءة والركوع والسجود ، فإذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة. ثم إنه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهى خلعة الرسالة قال:﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ حتى أعرف أنى بأى خدمة أقابل هذه النعمة فقيل له: بأن تجتهد فى أداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب فقال موسى يا رب، إن هذا لا يتأتى منى مع عجزى، وضعفى، وقلة آلاتى وقوة خصمى فاشرح لى صدرى ويسر لى أمرى. الفصل الثانى: فى قوله: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ اعلم أن الدعاء سبب القرب من الله تعالى وإنما اشتغل موسى بهذا الدعاء طلباً للقرب فنفتقر إلى بيان أمرين؛ إلى بيان أن الدعاء سبب القرب ثم إلى بيان أن موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء. أما بيان أن الدعاء سبب القرب فيدل عليه وجوه ؛ الأول: أن الله تعالى ذكر السؤال والجواب فى كتابه فى عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية. أما الأصولية فأولها فى البقرة : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]: وثانيها: فى بنى إسرائيل: =

= ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥] وثالثها: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥] ورابعها: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٢]. وأما الفروعية فستة منها في البقرة على التوالي أحدها: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٥] وثانيها: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٧] وثالثها: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢١٩] ورابعها: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] وخامسها: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وسادسها: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وسابعها: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ١] وثامنها: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٣] وتاسعها: ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: ٥٣] وعاشرها: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ ﴾ [النساء: ١٧٦] الحادية عشر: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] إذا عرفت هذا فنقول: جاءت هذه الأسئلة والأجوبة على صور مختلفة، فالأغلب فيها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال: لمحمد ﷺ: ﴿ قُلْ ﴾وفي صورة أخرى جاء الجواب بصيغة «فقل» مع فاء التعقيب وفي صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب وهو قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ وفي صورة رابعة ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ ﴿ قُلْ ﴾ ولا لفظ فقل؛ وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] ولابد لهذه الأشياء من القائد فنقول: أما الأجوبة الواردة بلفظ قل فلا إشكال فيها؛ لأن قوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ كالتوقيع المحدد في ثبوت نبوة محمد ﷺ وكالتشريف المحدد في كونه مخاطباً من الله تعالى بأداء الوحي والتبليغ. وأما الصورة الثانية وهي قوله: ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥] فالسبب أن قولهم: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ [طه: ١٠٥] سؤال إما عن قدمها أو عن وجوب بقائها وهذه المسألة من أمهات مسائل أصول الدين فلا جرم أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يجيب بلفظ الفاء المفيد للتعقيب كأنه سبحانه قال: يا محمد، أجب عن هذا السؤال في الحال ولا تقتصر فإن الشك =

....

= فيه كفر ولا تهمل هذا الأمر لئلا يقعوا فى الشك والشبهة، ثم كيفية الجواب أنه قال: ﴿ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه: ١٠٥] ولا شك أن النسف ممكن لأنه ممكن فى حق كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكناً فى حق كل الجبل وذلك يدل على أنه ليس بقديم ولا واجب الوجود؛ لأن القديم لا يجوز عليه التغير والنسف، فإن قيل: إنهم قالوا أخبرنا عن إلهك أهو ذهب أم فضة أم حديد ؟ فقال: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] ولم يقل فقل هو الله أحد، مع أن هذه المسألة من المهمات قلنا: إنه تعالى لم يحك فى هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعى سبق كلام فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف ههنا فإنه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء. وأما الصورة الثالثة فإنه تعالى لم يذكر الجواب فى قوله: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٢] فالحكمة فيه أن معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التى شرحناها فيما سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب، وذلك يدل على أن من الأسئلة ما لا يجاب عنها، وأما الصورة الرابعة وهى قوله: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ ولم يذكر فى جوابه قل ففيه وجوه؛ أحدها: أن ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وأنه من أعظم العبادات فكأنه سبحانه قال: يا عبدى؛ أنت إنما تحتاج إلى الواسطة فى غير الدعاء، أما فى مقام الدعاء فلا واسطة بينى وبينك يدل عليه أن كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات قال لرسوله ﷺ اذكر لهم تلك القصة كقوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٢٧] ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَىٰ ﴾ [مريم: ٥١] ، ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ﴾ [مريم: ٥٤]، ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ﴾ [مريم: ٥٦]، ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحجر: ٥١] ، ثم قال فى قصة يوسف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣] ، وفى أصحاب الكهف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف: ١٣] ؛وما ذاك إلا لما فى هاتين القصتين من العجائب والغرائب، والحاصل كأنه سبحانه وتعالى قال: يا محمد، إذا سئلت عن غيرى فكن أنت المجيب، وإذا سئلت عنى فاسكت أنت حتى أكون أنا القائل، : وثانيها أن قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ يدل على أن العبد له أن يسأل وقوله: ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ يدل على أن=

= الرب قريب من العبد، وثالثها: لم يقل: فالعبد منى قريب، بل قال: أنا منه قريب، وهذا فيه سر نفيس فإن العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو هو فى مركز العدم وحضيض الفناء، فكيف يكون قريبا؟! بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى فإنه بفضله وإحسانه جعله موجوداً وقربه من نفسه فالقرب منه لا من العبد؛ فلهذا قال: فإنى قريب. ورابعها: أن الداعى ما دام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى فإنه لا يكون داعيا لله تعالى فإذا فنى عن الكل وصار مستغرقا بمعرفة الله الأحد الحق امتنع أن يبقى فى مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات إلى غير الله تعالى فلا جرم رفعت الواسطة من البين، فما قال: فقل: إنى قريب بل قال: فإنى قريب فثبت بما تقرر فضل الدعاء وانه من أعظم القربات، ثم من شأن العبد إذا أراد أن يتحف مولاه أن لا يتحفه إلا بأحسن التحف والهدايا فلا جرم أول ما أراد موسى أن يتحف الحضرة الإلهية بتحف الطاعات والعبادات اتحفها بالدعاء فلا جرم قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ والوجه الثانى: فى بيان فضل الدعاء قوله عليه السلام: «الدعاء مخ العبادة». ثم إن أول شىء أمر الله تعالى به موسى عليه السلام: العبادة؛ لأن قوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ [طه: ١٤] إخبار وليس بأمر إنما الأمر قوله: « فاعبدنى» فلما كان أول ما أورد على موسى من الأوامر هو الأمر بالعبادة لا جرم أول ما اتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ . والوجه الثالث: وهو أن الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما أنه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة والصوم فكذلك أمر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] ، ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]. ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]. ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]. ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقال ﷺ: «ادعوا بياذا الجلال والإكرام»(١)=

---

(١) أخرجه الترمذى [٣٥٢٥] عن أنس بلفظ : أن النبى ﷺ قال : « الِظُّوا بياذ الجلال والإكرام » ، وقال : حديث غريب .
=

= فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة. قال بعض الجهال الدعاء على خلاف العقل من وجوه، أحدها: أنه علام الغيوب يعلم ما فى الأنفس وما تخفى الصدور، فأى حاجة بنا إلى الدعاء! وثانيها : أن المطلوب إن كان معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الدعاء، وإن كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه. وثالثها : الدعاء يشبه الأمر والنهى وذلك من العبد فى حق المولى سوء أدب . ورابعها : المطلوب بالدعاء إن كان من المصالح فالحكيم لايهمله ، وإن لم يكن من المصالح لم يجز طلبه. وخامسها: فقد جاء أن أعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله تعالى ، وقد ندب إليه والدعاء ينافى ذلك ؛ لأنه اشتغال بالالتماس والطلب ، وسادسها : قال عليه السلام رواية عن الله تعالى : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين»(١). فدل على أن الأولى ترك الدعاء، والآيات التى ذكرتموها تقتضى وجوب الدعاء. وسابعها : أن إبراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله : «حسبى من سؤالى علمه بحالى» استحق المدح العظيم، فدل على أن الأولى ترك الدعاء . والجواب عن الأول : أنه ليس الغرض من الدعاء الإعلام ، بل هو نوع تضرّع كسائر التضرعات، وعن الثانى : أنه يجرى مجرى أن نقول للجائع والعطشان: إن كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة إلى الأكل والشرب ، وإن كان معلوم اللا وقوع فلا فائدة فيه . وعن الثالث : أن الصيغة وإن كانت صيغة الأمر إلا أن صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك . وعن الرابع : يجوز أن يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء . وعن الخامس : أنه إذا دعا إظهاراً للتضرع ، ثم رضى بما قدره الله تعالى فذاك أعظم المقامات ، وهو الجواب عن البقية إذا ثبت أنه من العبادات ، ثم إنه تعالى أمره بالعبادة وبالصلاة أمراً ورد مجملا ، لاجرم شرع فى أجلّ العبادات وهو الدعاء . الوجه الرابع : فى فضل الدعاء أنه سبحانه لم يقتصر فى بيان فضل الدعاء على الأمر به ، بل بيّن فى آية أخرى أنه يغضب إذا لم يُسأل ، فقال: =

= وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٧٩٧] . وأخرجه أحمد فى المسند [٤/ ١٧٧] عن ربيعة ابن عامر .

والِظُّوا : أى الزموا هذا الذكر فى دعائكم ، يقال ألظَّ بالشىء : إذ الزمه وثابر عليه .

(١) أخرجه الترمذى [٢٩٢٦] عن أبى سعيد بلفظ : « من شغله القرآن عن ذكرى ... » وقال: حديث حسن غريب . وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٥٦٢] ، وانظر السلسلة الضعيفة [١٣٣٥] .

= ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣].. وقال عليه السلام: «لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت ولكن يجزم فيقول: اللهم اغفر لى»(١) فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ [طه: ٢٥] الوجه الخامس: فى فضل الدعاء قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] وفيه كرامة عظيمة لأمتنا؛ لأن بنى إسرائيل فضّلهم الله تفضيلا عظيما فقال فى حقهم: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٤٧] وقال أيضاً: ﴿ وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠] ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا: لموسى عليه السلام: ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ [البقرة:٦٨] ، أن الحواريين مع جلالتهم فى قولهم: ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٥٢] سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء، ثم إنه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة فى أمتنا، فقال مخاطباً لهم من غير واسطة: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ وقال: ﴿ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضلية لهذه الأمة ، وكان موسى عليه السلام قد عرفها لاجرم فقال: «اللهم اجعلنى من أمة محمد ﷺ» فلا جرم رفع يديه ابتداء ، فقال: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ واعلم أنه تعالى قال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ثم إنه تعالى جعل العباد على سبعة أقسام؛ أحدها: عبد العصمة: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] وموسى عليه السلام: كان مخصوصاً بمزيد العصمة: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ فلا جرم طلب زوائد العصمة ، فقال: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ وثانيها عبد الصفوة: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾ [النمل: ٥٩] وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بمزيد الصفوة: ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ [الأعراف: ١٤٤] فلا جرم أراد مزيد للصفوة ، فقال: =

---

(١) أخرجه البخارى [٦٣٣٩] عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : أن رسول الله ﷺ قال : «لايقولن أحدكم اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم المسألة فإنه لا مستكره له » . وأخرجه مسلم [٩/٢٦٧٩] .

= ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وثالثها عبد البشارة : ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨] وكان موسى عليه السلام مخصوصاً بذلك: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣] فأراد مزيد البشارة فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ورابعها عبد الكرامة: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ [الزخرف: ٦٨] وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بذلك: ﴿لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ [طه: ٤٦] فأراد الزيادة عليها فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وخامسها: عبدالمغفرة: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، وكان موسى عليه السلام مخصوصاً بذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ [القصص: ١٦] فأراد الزيادة فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وسادسها عبد الخدمة: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بذلك: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ فطلب الزيادة فيها فقال: ﴿اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وسابعها عبد القربة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ وموسى عليه السلام كان مخصوصاً بالقرب: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] فأراد كمال القرب فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ .

الفصل الثالث: في قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وفيه وجوه: أحدها: أنه تعالى لما خاطبه بالأشياء الستة التي أحدها: معرفة التوحيد : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا﴾ [طه:١٤] ، وثانيها أمره بالعبادة والصلاة: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[طه:١٤]، وثالثها: معرفة الآخرة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ [طه: ١٥] ورابعها حكمة أفعاله في الدنيا: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧] ، وخامسها عرض المعجزات الباهرة عليه: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣] ، وسادسها إرساله إلى أعظم الناس كفراً وعتواً فكانت هذه التكاليف الشاقة سبباً للقهر فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجز فعرفه أن كل من سأله قرب منه فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ فأراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أو يقال خاف شياطين الإنس والجن فدعا ليصل بسبب الدعاء إلى مقام القرب فيصير =

= مأموناً من غوائل شياطين الجن والإنس وثانيها: أن المراد أنه أراد الذهاب إلى فرعون وقومه فأراد أن يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف أن من دعا ربه قرّبه له وقربه لديه فحينئذٍ تنقطع الأطماع بالكلية فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وثالثها: الوجود كالنور والعدم كالظلمة وكل ما سوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شيء هالك إلا وجهه، فالكل كأنهم في ظلمات العدم وإظلال عالم الأجسام والإمكان فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ حتى يجلس قلبي في بهي ضوء المعرفة وسادة شرح الصدر، والجالس في الضوء لا يرى من كان جالساً في الظلمة فحين جلس في ضوء شرح الصدر لا يرى أحداً في الوجود فلهذا عقّبه بقوله: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ فإن العبد في مقام الاستغراق لا يتفرغ لشيء من المهمات ورابعها: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ فإن عين العين ضعيفة فأطلع يا إلهي شمس التوفيق حتى أرى كل شيء كما هو، وهذا في معنى قول محمد ﷺ: « أرنا الأشياء كما هي» واعلم أن شرح الصدر مقدمة لسطوع الأنوار الإلهية في القلب، والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلام، فالله تعالى أعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهي ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ فلا جرم نسج موسى على ذلك المنوال فطلب المقدمة الأخرى فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ولما آل الأمر إلى محمد ﷺ قيل له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] والعلم: هو المقصود، فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد ﷺ لا جرم أعطى المقدمة، ولما كان محمد كالمقصود لا جرم أعطى المقصود.. فسبحانه ما أدق حكمته في كل شيء . وسادسها: الداعي له صفتان إحداهما: أن يكون عبداً للرب: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وثانيتهما: أن يكون الرب له: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أضاف نفسه إلينا وما أضافنا إلى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملا من هذين الوجهين فأراد موسى عليه السلام أن يرتع في هذا البستان فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وسابعها: أن موسى عليه السلام شرّفه الله تعالى بقوله: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] فكان موسى عليه السلام قال: إلهي لـمّا قلت: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ صرت قريباً منك ولكن أريد قربك مني فقال: موسى أما سمعت قولي: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ فاشتغل بالدعاء =

. . . .

= حتى أصير قريباً منك فعند ذلك قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ . وثامنها: قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وقال لمحمد ﷺ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] ثم إنه تعالى ما تركه على هذه الحالة بل قال: ﴿وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٦] فانظر إلى التفاوت فإن شرح الصدر: هو أن يصير الصدر قابلا للنور، والسراج المنير: هو أن يعطى النور فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد ﷺ كالتفاوت بين الآخذ والمعطى، ثم نقول: إلهنا إن ديننا -وهى كلمة لا إله إلا الله- نور، والوضوء نور، والصلاة نور، والقبر نور، والجنة نور، فبحق أنوارك التى أعطيتنا فى الدنيا لا تحرمنا أنوار فضلك وإحسانك يوم القيامة. الفصل الرابع : فى قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر فقال: «نور يقذف فى القلب»، فقيل: وما أمارته، فقال: التجافى عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل النزول، ويدل على أن شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] واعلم أن الله تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور. أحدها: وصف ذاته بالنور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] وثانيها: الرسول ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] وثالثها: القرآن ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ورابعها: الإيمان ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٢]. وخامسها: عدل الله ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] . وسادسها: ضياء القمر ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً﴾ [نوح: ١٦] وسابعها: النهار ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. وثامنها: البينات ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]. وتاسعها: الأنبياء ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] . وعاشرها: المعرفة ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]. إذا ثبت هذا فنقول كأن موسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك. وثانيها: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ، بالتخلق بأخلاق رسلك وأنبيائك. وثالثها: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ، باتّباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك. ورابعها: =

= ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ ، بنور الإيمان والإيقان بإلهيتك. وخامسها: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ بالاطلاع على أسرار عدلك فى قضائك وحكمك. وسادسها: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾، بالانتقال من نور شمسك وقمرك إلى أنوار جلال عزتك كما فعله إبراهيم عليه السلام ؛ حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس إلى حضرة العزة. وسابعها: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ من مطالعة نهارك وليلك إلى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك وثامنها: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك فى أرضك وسمواتك. وتاسعها: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ فى أن أكون خلف صور الأنبياء المتقدمين ومتشبها بهم فى الانقياد لحكم رب العالمين. وعاشرها: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ بأن تجعل سراج الإيمان فى قلبى كالمشكاة التى فيها المصباح، واعلم أن شرح الصدر عبارة عن إيقاد النور فى القلب حتى يصير القلب كالسراج وذلك النور كالنار، ومعلوم أن من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء: زند، وحجر، وحراق، وكبريت، ومسرجة، وفتيلة، ودهن. فالعبد إذا طلب النور الذى هو شرح الصدر افتقر إلى هذه السبعة؛ فأولها لابد من زند المجاهدة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] . وثانيها حجر التضرع: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وثالثها حراق منع الهوى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠] ،ورابعها كبريت الإنابة: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] ملطخاً رءوس تلك الخشبات بكبريت توبوا إلى الله، وخامسها مسرجة الصبر: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] ،وسادسها: فتيلة الشكر: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]. وسابعها: دهن الرضا ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] أى: أرْضَ بقضاء ربك فإذا صلحت هذه الأدوات فلا تعول عليها بل ينبغى أن لا تطلب المقصود إلا من حضرته: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢] ثم اطلبها بالخشوع والخضوع ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ فعند ذلك ترفع يد التضرع وتقول: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ فهنالك تسمع: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] ثم تقول: هذا =

. . . .

= النور الروحانى المسمى بشرح الصدر أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه:

أحدها: الشمس تحجبها غمامة، وشمس المعرفة لا يحجبها السموات السبع: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وثانيها: الشمس تغيب ليلا وتعود نهارًا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. أما الشمس المعرفة فلا تغيب ليلا: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ [المزمل: ٦]، ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]. بل أكمل الخلع الروحانية تحصل فى الليل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: ١].

وثالثها: الشمس تفنى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، المعرفة لا تفنى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

ورابعها: الشمس إذا قابلها القمر انكسفت أما هاهنا فشمس المعرفة، وهى معرفة أشهد أن لا إله إلا الله، ما لم يقابلها قمر أشهد أن محمداً رسول الله؛ لم يصل نوره إلى عالم الجوارح.

وخامسها: الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيضها: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وسادسها: الشمس تحرق والمعرفة تنجى من الحرق، جُزْ يا مؤمن فإن نورك قد أطفأ لهبى.

وسابعها: الشمس تصدع والمعرفة تصعد: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وثامنها: الشمس منفعتها فى الدنيا والمعرفة منفعتها فى العقبى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ﴾ [مريم: ٧٦].

وتاسعها: الشمس فى السماء زينة لأهل الأرض، والمعرفة فى الأرض زينة لأهل السماء.

وعاشرها: الشمس فوقانى الصورة تحتانى المعنى، وذلك يدل على الحسد مع التكبر. والمعارف الإلهية تحتانية الصورة فوقانية المعنى، وذلك يدل على التواضع مع الشرف.

وحادى عشرها: الشمس تعرف أحوال الخلق وبالمعرفة يصل القلب إلى الخالق. =

= وثانى عشرها: الشمس تقع على الولى والعدو، والمعرفة لا تحصل إلا للولى؛ فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه الصفات النفيسة لا جرم قال موسى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وأما النكت:

فإحداها: الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦] . والمعرفة استوقدها للبقاء فالذى خلقها للفناء لو قرب الشيطان منها لاحترق: ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾ ، والمعرفة التى خلقها للبقاء كيف يقرب منها الشيطان ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ .

وثانيتها: استوقد الله الشمس فى السماء وإنها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك، وأوقد شمس المعرفة فى قلبك أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك ؟ وثالثتها: من استوقد سراجاً فإنه لا يزال يتعهده ويمده والله تعالى هو الموقد سراج المعرفة: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾ [الحجرات: ٧] أفلا يمده وهو معنى قوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

ورابعتها: اللص إذا رأى السراج يوقد فى البيت لا يقرب منه، والله قد أوقد سراج المعرفة فى قلبك فكيف يقرب الشيطان منه؟! فلهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

وخامستها: المجوس أوقدوا ناراً فلا يريدون إطفاءها، والملك القدوس أوقد سراج الإيمان فى قلبك فكيف يرضى بإطفائه؟ واعلم أنه سبحانه وتعالى أعطى قلب المؤمن تسع كرامات.

أحدها: الحياة: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] . فلما رغب موسى عليه السلام فى الحياة الروحانية قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ . ثم النكتة: أنه عليه السلام قال: «من أحيا أرضًا ميتة فهى له» (١). فالعبد لما أحيا أرضًا فهى له؛ فالرب لما خلق القلب وأحياه بنور الإيمان، فكيف يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب؟! :﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام:٩١] . وكما أن الإيمان حياة القلب فالكفر موته: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢١]. =

(١) أخرجه البخارى معلقًا عن عُمَر ، كتاب الحرث ـ باب : من أحيا أرضًا مواتًا .

. . . .

= وثانيها: الشفاء: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] .فلما رغب موسى فى الشفاء رفع الأيدى قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ . والنكتة: أنه تعالى لما جعل الشفاء فى العسل بقى شفاء أبداً. . فهاهنا لما وضع الشفاء فى الصدر فكيف لا يبقى شفاء أبداً؟!

وثالثها: الطهارة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات:٣]، فلما رغب موسى عليه السلام فى تحصيل طهارة التقوى قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

والنكتة : أن الصائغ إذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لا يدخله فى النار؛ فهاهنا لما امتحن الله قلب المؤمن فكيف يدخله النار ثانياً؟! ولكن الله يدخل فى النار قلب الكافر: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧] .

ورابعها: الهداية ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١. فرغب موسى عليه السلام فى طلب زوائد الهداية فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ والنكتة: أن الرسول يهدى نفسك، والقرآن يهدى روحك، والمولى يهدى قلبك. فلما كانت الهداية من الكفر من محمد ﷺ؛ لا جرم تارة تحصل وأخرى لا تحصل : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] . وهداية الروح لمّا كانت من القرآن؛ فتارة تحصل وأخرى لا تحصل: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ أما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فإنها لا تزول؛ لأن الهادى لا يزول: ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وخامسها: الكتابة: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] . فلما رغب موسى عليه السلام فى تلك الكتابة قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وفيه نكت.

الأولى : أن الكاغدة ليس لها خطر عظيم ،وإذا كتب فيها القرآن لم يجز إحراقها؛ فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته ، فكيف يليق بالكريم إحراقه ؟

الثانية: بشر الحافى أكرم كاغدا فيه اسم الله تعالى ، فنال سعادة الدارين، فإكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك. =

= والثالثة: كاغد ليس فيه خط إذا كتب فيه اسم الله الأعظم عظم قدره ، حتى إنه لا يجوز للجنب والحائض أن يمسه، بل قال الشافعى رحمه الله تعالى: ليس له أن يمس جلد المصحف، وقال الله تعالى: ﴿لا يَمَسُّهُ إلا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩] فالقلب الذى فيه أكرم المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ﴾ كيف يجوز للشيطان الخبيث أن يمسه والله أعلم.
وسادسها: السكينة: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلما رغب موسى عليه السلام فى طلب السكينة قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ والنكتة: أن أبابكر رضى الله عنه كان مع رسول الله ﷺ - وكان خائفاً- فلما نزلت السكينة عليه قال: « لا تحزن ». فلما نزلت سكينة الإيمان ، فرجوا أن يسمعوا خطاب: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠] . وأيضاً لما نزلت السكينة صار من الخلفاء: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] أى: أن يصيروا خلفاء الله فى أرضه.
وسابعها: المحبة والزينة: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ والنكتة: أن من ألقى حبة فى أرض فإنه لا يفسدها ولا يحرقها ، فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة فى أرض القلب فكيف يحرقه؟!
وثامنها: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ والنكتة: أن محمداً ﷺ ألف بين قلوب أصحابه ثم إنه ما تركهم فى غيبة ولا حضور: «سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». فالرحيم كيف يتركهم.
وتاسعها: الطمأنينة: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وموسى طلب الطمأنينة فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ والنكتة: أن حاجة العبد لا نهاية لها؛ فلهذا لو أعطى كل ما فى العالم من الأجسام فإنه لا يكفيه؛ لأن حاجته غير متناهية؛ والأجسام متناهية والمتناهى لا يصير مقابلا لغير المتناهى، بل الذى يكفى فى الحاجة غير المتناهية الكمال الذى لا نهاية له، وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى؛ فلهذا قال: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ . ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين، فاعرف صفات قلوب =

. . . .

= الكافرين لوجوه ؛ أحدها: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] .

وثانيها: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] .

وثالثها: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠] .

ورابعها: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] .

وخامسها: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوه﴾ [الإسراء: ٤٦] .

وسادسها: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] .

وسابعها: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] .

وثامنها: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤] .

وتاسعها: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [محمد: ١٦]. إلهنا وسيدنا بفضلك وإحسانك أغلق هذه الأبواب التسعة من خذلانك عنا، واجبرنا بإحسانك، وافتح لنا تلك الأبواب التسعة من إحسانك بفضلك ورحمتك إنك على ما تشاء قدير.

الفصل الخامس: في حقيقة شرح الصدر، ذكر العلماء فيه وجهين: الأول: أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا لا بالرغبة ولا بالرهبة. أما الرغبة فهى: أن يكون متعلق القلب بالأهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم، وأما الرهبة: فهى أن يكون خائفاً من الأعداء والمنازعين فإذا شرح الله صدره صغر كل ما يتعلق بالدنيا فى عين همّته فيصير كالذباب والبق والبعوض، لا تدعوه رغبة إليها ولا تمنعه رهبة عنها، فيصير الكل عنده كالعدم، وحينئذٍ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى؛ فإن القلب فى المثال كينبوع من الماء، والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير، فإذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل، فأما إذا انصب الكل فى موضع واحد قوى؛ فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها، حتى يصير قلبه نفوراً عنها، فإذا حصلت النفرة توجه إلى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية.

الثانى: أن موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج إلى تكاليف شاقة: منها: ضبط الوحى، والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى.

ومنها: إصلاح العالم الجسدانى فكأنه صار مكلفاً بتدبير العالمين. والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر؛ الا ترى أن المشتغل بالإبصار يصير ممنوعاً عن =

= السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعاً عن الإبصار والخيال ، فهذه القوى متجاذبة متنازعة، وأن موسى عليه السلام كان محتاجًا إلى الكل، ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق؛ فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالا من القوة ، لتكون قوته وافية بضبط العالمين. فهذا هو المراد من شرح الصدر ، وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة:

المثال الأول: اعلم أن البدن بالكلية كالمملكة، والصدر كالقلعة، والفؤاد كالقصر، والقلب كالتخت، والروح كالملك، والعقل كالوزير، والشهوة كالعامل الكبير الذى يجلب النعم إلى البلدة، والغضب كالاسفهسالار الذى يشتغل بالضرب والتأديب أبدًا، والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع. ثم إن الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك؛ فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الأخلاق الذميمة جنوده؛ فأول ما أخرج الروح وزيره وهو العقل فكذا الشيطان أخرج فى مقابلته الهوى، فجعل العقل يدعو إلى الله تعالى والهوى يدعو إلى الشيطان، ثم إن الروح أخرج الفطنة إعانة للعقل فأخرج الشيطان فى مقابلة الفطنة الشهوة؛ فالفطنة توقفك على معايب الدنيا ، والشهوة تحركك إلى لذات الدنيا. ثم إن الروح أمد الفطنة بالفكرة ؛ لتقوى الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعائب على ماقال عليه السلام. « تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة »[1] . فأخرج الشيطان فى مقابلة الفكرة الغفلة، ثم أخرج الروح الحلم والثبات؛ فإن العجلة ترى الحسن قبيحًا والقبيح حسنًا ،والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا. فأخرج الشيطان فى مقابلته العجلة والسرعة؛ فلهذا قال عليه السلام: « ما دخل الرفق فى شىء إلا زانه ولا الخرق فى شىء إلا شانه »[2] :ولهذا خلق السموات والأرض فى ستة أيام=

---

(١) ذكره العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء [٣٨٧٩] وقال : رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب العظمه من حديث أبى هريرة بلفظ: « ستين سنة » بإسناده ومن طريقه ابن الجوزى فى الموضوعات، ورواه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ :« ثمانين سنة » وإسناده ضعيف جدًا ، ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ: « خير من قيام ليلة » .اهـ.

(٢) أخرجه مسلم [٢٥٩٤] عن عائشة زوج النبى ﷺ ، بلفظ : « إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا يُنزع من شىء إلا شانه » .

. . . .

= ليُتَعَلَّمَ منه الرفق والثبات فهذه هى الخصومة الواقعة بين الصنفين . وقلبك وصدرك هو القلعة ، ثم إن لهذا الصدر الذى هو القلعة خندقًا وهو الزهد فى الدنيا وعدم الرغبة فيها، وله سور وهو الرغبة الآخرة ومحبة الله تعالى، فإن كان الخندق عظيمًا والسور قويًا عجز عسكر الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت. وإن كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوى قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها ويبيت فيها جنوده من الهوى، والعُجْب، والكبر، والبخل، وسوء الظن بالله تعالى، والنميمة، والغيبة؛ فينحصر الملك فى القصر ويضيق الأمر عليه فإذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح الأمر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت أنوار هداية رب العالمين، وذلك هو المراد بقوله: ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾.

المثال الثانى: اعلم أن معدن النور هو القلب واشتغال الإنسان بالزوجة والولد والرغبة فى مصاحبة الناس والخوف من الأعداء؛ هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب إلى فضاء الصدر. فإذا قوَّى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم فى الدارين صغروا فى عينه ولا شك فى أنهم من حيث هم عدم محض؛ على ما قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] . فلا يزال العبد يتأمل فيما سوى الله تعالى إلى أن يشاهد أنه عدم محض؛ فعند ذلك يزول الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى، وإذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور، فذلك هو انشراح الصدر.

الفصل السادس فى الصدر: اعلم أنه يجىء والمراد منه القلب: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [الزمر: ٢٢]، ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾، ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [العاديات: ١٠] ، ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] . وقد يجىء والمراد الفضاء الذى فيه الصدر: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] واختلف الناس فى أن محل العقل هل هو القلب أو الدماغ ؟ وجمهور المتكلمين على أنه القلب ، وقد شرحنا هذه المسألة فى سورة الشعراء فى تفسير قوله: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] وقال بعضهم: =

= المواد أربعة: الصدر والقلب والفؤاد واللب. فالصدر: مقر الإسلام : ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الزمر:٢٢] والقلب: مقر الإيمان: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُم﴾ [الحجرات: ٧] . والفؤاد: مقر المعرفة: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم:١١] ، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦] . واللب: مقر التوحيد: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

واعلم أن القلب أول ما بُعث إلى هذا العالم بُعث خاليًا عن النقوش كاللوح الساذج، وهو فى عالم البدن كاللوح المحفوظ، ثم إنه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد إلى آخر قيام القيامة لهذا العالم الأصغر، وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة ، ثم إن العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها فى بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الإدبار أخرى ، فربما وصلت سفينة النظر إلى جانب مشرق الجلال فتسطع عليه أنوار الإلهية ويتخلص العقل من ظلمات الضلالات . وربما توغلت السفينة فى جُنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحيثما تكون السفينة فى ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة إلى التماس الأنوار والهدايات فيقول هناك: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾.

واعلم أن العقل إذا أخذ فى الترقى من سفل الإمكان إلى علو الوجوب كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومقارفة المجردات والمفارقات ، ومعلوم أن كل ماهية فهى إما هى معه أو هى له ، فإن كانت هى معه امتلأت البصيرة من أنوار جلال العزة الإلهية فلا يبقى هناك مستطلعًا لمطالعة سائر الأنوار فيضمحل كل ما سواه من بصر وبصيرة . وإن وقعت المطالعة لما هو له حصلت هناك حالة عجيبة ، وهى أنه لو وضعت كرة صافية من البلور، فوقع عليها شعاع الشمس، فينعكس ذلك الشعاع إلى موضع معين، فذلك الموضع الذى إليه تنعكس الشعاعات يحترق؛ فجميع الماهيات الممكنة كالبلور الصافى الموضوع فى مقابلة شمس القدس ونور العظمة ومشرق الجلال ، فإذا وقع للقلب التفات إليها حصلت للقلب نسبة إليها بأسرها فينعكس شعاع كبرياء الإلهية عن كل واحد منها إلى القلب فيحترق القلب ، ومعلوم أنه كلما كان المحرق أكثر ، كان الاحتراق أتم فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾حتى أقوى على إدراك =

= درجات الممكنات فأصل إلى مقام الاحتراق بأنوار الجلال ، وهذا هو المراد بقوله عليه السلام: « أرنا الأشياء كما هى». فلما شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال «لا أحصى ثناءً عليك» .

الفصل السابع: فى بقية الأبحاث إنما قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ولم يقل رب اشرح صدرى؛ ليظهر أن منفعة ذلك الشرح عائدة إلى موسى عليه السلام لا إلى الله، وأما كيفية شرح صدر الرسول ﷺ والمفاضلة بينه وبين شرح صدر موسى عليه السلام فنذكره إن شاء الله فى تفسير قوله : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١] والله أعلم بالصواب.

المطلوب الثانى: قوله: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ والمراد منه عند أهل السنة: خلقها وعند المعتزلة: تحريك الدواعى والبواعث بفعل الألطاف المسهلة ، فإن قيل: كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى، فأى فائدة فى هذا السؤال ؟ قلنا: يحتمل أن يكون هناك من الألطاف ما لا يحسن فعلها إلا بعد هذا السؤال ففائدة السؤال حسن فعل تلك الألطاف.

المطلوب الثالث: قوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه: ٢٧، ٢٨] وفيه مسائل :

المسألة الأولى: اعلم أن النطق فضيلة عظيمة ويدل عليه وجوه.

أحدها : قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] ولم يقل وعلمه البيان لأنه لو عطفه عليه لكان مغايرًا له ، أما إذا ترك الحرف العاطف صار قوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ كالتفسير لقوله:﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴾ كأنه إنما يكون خالقًا للإنسان إذا علمه البيان ؛ وذلك يرجع إلى الكلام المشهور من أن ماهية الإنسان هى الحيوان الناطق.

وثانيها: اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان ، قال زهير:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدمِ

وقال على : «ما الإنسان لولا اللسان إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة». والمعنى: أنا لو أزلنا الادراك الذهنى والنطق اللسانى لم يبق من الإنسان إلا القدر الحاصل فى البهائم،وقالوا: المرء بأصغريه قلبه ولسانه. وقال ﷺ: « المرء مخبوء تحت لسانه ».=

= وثالثها: أن فى مناظرة آدم مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة إلا بالنطق؛ حيث قال: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣] قال: ورابعها: أن الإنسان جوهر مركب من الروح والقالب. وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد أبدًا صور المغيبات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الأجسام وواسطته فى تلك الاستفادة هى الفكر الذهنى وواسطته فى هذه الإفادة هى النطق اللسانى، فكما أن تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل: « تفكر ساعة خير من عبادة سنة». فكذلك الواسطة فى الإفادة يجب أن تكون أشرف الأعضاء فقوله: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ إشارة إلى طلب النور الواقع فى الروح ، وقوله: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ إشارة إلى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل ، وعند ذلك يحصل الكمال فى تلك الاستفادة الروحانية، فلا يبقى بعد هذا إلا المقام البيانى وهو إفاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون إلا باللسان . فلهذا قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٧] . وخامسها : وهو أن العلم أفضل المخلوقات على ما ثبت، والجود والإعطاء أفضل الطاعات ، وليس فى الأعضاء أفضل من اليد ؛ فاليد لما كانت آلة فى العطية الجسمانية قيل: « اليد العليا خير من اليد السفلى » فالعلم الذى هو خير من المال لما كانت آلة إعطائه اللسان وجب أن يكون أشرف الأعضاء ، ولا شك أن اللسان هو الآلة فى إعطاء المعارف فوجب أن يكون أشرف الأعضاء ، ومن الناس من مدح الصمت لوجوه: أحدها: قوله عليه السلام: «الصمت حكمة، وقليل فاعله » ويروى أن الإنسان تفكر أعضاؤه اللسان ويقلن اتق الله فينا فإنك إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا. وثانيها: أن الكلام على أربعة أقسام منه ما ضرره خالص أو راجح ، ومنه ما يستوى الضرر والنفع فيه، ومنه ما نفعه راجح، ومنه ما هو خالص النفع ، أما الذى ضرره خالص أو راجح فواجب الترك ، والذى يستوى الأمران فيه فهو عيب ، فبقى القسمان الأخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر ، فالأولى ترك الكلام .

وثالثها: أن ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفى؛ فإن كل مايتناوله الضمير يعبر عنه اللسان بحق أو باطل، وهذه خاصية لا توجد فى سائر الأعضاء؛ العين لا تصل إلى غير الألوان =

= والصور ، والآذان لا تصل إلا إلى الأصوات والحروف، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء بخلاف اللسان فإنه رحب الميدان ليس له نهاية ولا حد، فله فى الخير مجال رحْب وله فى الشر بحر سحْب، وأنه خفيف المؤنة سهل التحصيل، بخلاف سائر المعاصى فإنه يحتاج فيها إلى مؤن كثيرة لا يتيسر تحصيلها فى الأكثر؛ فلذلك كان الأولى ترك الكلام .

ورابعها : قالوا ترك الكلام له أربعة أسماء: الصمت، والسكوت، والإنصات، والإصاخة. فأما الصمت: فهو أعمها؛ لأنه يستعمل فيما يقوى على النطق وفيما لا يقوى عليه؛ ولهذا يقال: مال ناطق وصامت. وأما السكوت: فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام. والإنصات: سكوت مع استماع، ومتى انفك أحدهما عن الآخر لا يقال له: إنصات قال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] . والإصاخة: استماع إلى ما يصعب إدراكه كالسر والصوت من المكان البعيد . واعلم أن الصمت: عدم ولا فضيلة فيه بل النطق فى نفسه فضيلة والرذيلة فى محاورته ، ولولاه لما سأل كليم الله ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾.

المسألة الثانية: اختلفوا فى تلك العقدة التى كانت فى لسان موسى عليه السلام على قولين:

الأول: كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى إزالته .

الثانى: السبب فيه أنه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهمّ فرعون بقتله وقال: هذا هو الذى يزول ملكى على يده. فقالت آسية: إنه صبى لا يعقل؛ وعلامته أن تقرب منه التمرة والجمرة. فقربا إليه فأخذ الجمرة فجعلها فى فيه. وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال: لم تحترق اليد ولا اللسان؛ لأن اليد آلة أخذ العصا وهى الحجة واللسان آلة الذكر فكيف يحترق، ولأن إبراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمروذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقى فى التنور فكيف يحترق هنا ؟! ومنهم من قال: احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والممالحة.

الثالث: احترق اللسان دون اليد؛ لأن الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله يا أبت.

والرابع: احترقا معًا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة .

المسألة الثالثة: اختلفوا فى أنه عليه السلام لم طلب حل تلك العقدة على وجوه: =

= أحدها: لئلا يقع فى أداء الرسالة خلل ألبتة.
وثانيها: لإزالة التنفير؛ لأن العقدة فى اللسان قد تفضى إلى الاستخفاف بقائلها وعدم الالتفات إليه.
وثالثها : إظهارًا للمعجزة فكما أن حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزًا فى حقه، فكذا إطلاق لسان موسى عليه السلام معجز فى حقه.
ورابعها: طلب السهولة لأن إيراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون فى جبروته وكبره عسر جدًا ، فإذا انضم إليه تعقد اللسان بلغ العسر إلى النهاية ، فسأل ربه إزالة تلك العقدة تخفيفًا وتسهيلاً .
المسألة الرابعة: قال الحسن رحمه الله: إن تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] وهو ضعيف؛ لأنه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لسانى بل قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ فإذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله ، والحق أنه انحل أكثر العقد وبقى منها شىء قليل لقوله ـ حكاية عن فرعون : ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢] أى: يقارب أن لا يبين. وفى ذلك دلالة على أنه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد فى لسانه. وأجيب عنه من وجهين:
أحدهما : المراد بقوله: ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أى لا يأتى ببيان ولا حجة .
والثانى: أن كاد بمعنى قرب ولو كان المراد هو البيان اللسانى؛ لكان معناه أنه لا يقارب البيان، فكان فيه نفى البيان بالكلية وذلك باطل؛ لأنه خاطب فرعون والجمع وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفى البيان أصلا بل إنما قال ذلك تمويهًا ؛ ليصرف الوجوه عنه قال أهل الإشارة: إنما قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ ؛ لأن حل العقد كلها نصيب محمد ﷺ. وقال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فلما كان ذلك حقا ليتيم أبى طالب لا جرم ما دار حوله. والله أعلم .
المطلوب الرابع: قوله﴿وَاجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ [طه: ٢٩] واعلم أن طلب الوزير إما أن يكون لأنه خاف من نفسه العجز عن القيام بذلك الأمر فطلب المعين، أو لأنه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية =

= عظيمة فى أمر الدعاء إلى الله؛ ولذلك قال عيسى ابن مريم: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] وقال لمحمد ﷺ: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤] .وقال عليه السلام: « إن لى فى السماء وزيرين وفى الأرض وزيرين ؛ فاللذان فى السماء جبريل وميكائيل ، واللذان فى الأرض أبو بكر وعمر » . وهاهنا مسائل :

المسألة الأولى: الوزير من الوِزر ؛ لأنه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه، أو من الوَزَر وهو الجبل الذى يتحصن به ؛ لأن الملك يعتصم برأيه فى رعيته ويفوض إليه أموره، أو من الموازرة وهى المعاونة ، والموازرة مأخوذة من إزار الرجل وهو الموضع الذى يشده الرجل إذا استعد لعمل أمر صعب . قاله الأصمعى، وكان القياس : «أزيرًا» فقُلبت الهمزة إلى الواو .

المسألة الثانية: قال عليه السلام: « إذا أراد الله بملك خيرًا قيض له وزيرًا صالحًا ، إن نسى ذكره ، وإن نوى خيرًا أعانه، وإن أراد شرًا كفّه » . وكان أنوشروان يقول : «لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ، ولا أكرم الدواب عن السوط ، ولا أعلم الملوك عن الوزير ».

المسألة الثالثة: إن قيل: الاستعانة بالوزير إنما يحتاج إليها الملوك، أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والوحى من الله تعالى إلى قوم على التعيين فمن أين ينفعه الوزير ؟ وأيضا فإنه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكًا له فى النبوة ، فقال: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:٣٢] فكيف يكون وزيرًا ؟! .

والجواب عن الأول : أن التعاون على الأمر والتظاهر عليه -مع مخالصة الود وزوال التهمة- له مزية عظيمة فى تأثير الدعاء إلى الله تعالى، فكان موسى عليه السلام واثقًا بأخيه هارون فسأل ربه أن يشد به أزره ؛ حتى يتحمل عنه ما يمكن من الثقل فى الإبلاغ.

المطلوب الخامس: أن يكون ذلك الوزير من أهله ، أى من أقاربه .

المطلوب السادس: أن يكون الوزير الذى من أهله هو أخوه هارون ، وإنما سأل ذلك لوجهين؛ أحدهما: أن التعاون على الدين منقبة عظيمة ، فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة إلا لأهله ، أو لأن كل واحد منهما كان فى غاية المحبة لصاحبه والموافقة له، وقوله: هارون فى انتصابه وجهان؛ أحدهما: أنه مفعول الجعل على تقدير : اجعل هارون أخى =

= وزيرًا لى . والثانى:على البدل من ﴿ وَزِيراً ﴾ وأخى نعت لهارون أو بدل، واعلم أن هارون عليه السلام كان مخصوصًا بأمور منها: الفصاحة لقوله تعالى عن موسى: ﴿ وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ [القصص: ٣٤] ومنها: أنه كان فيه رفق، قال: ﴿ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي ﴾ [طه: ٩٤] ومنها : أنه كان أكبر سنا منه .

المطلوب السابع: قوله: ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ [طه: ٣١] وفيه مسائل :

المسألة الأولى: القراءة العامة (اشدد به وأشركه) على الدعاء ، وقرأ ابن عامر وحده: (اشدد وأشركه) على الجزاء والجواب ، حكاية عن موسى عليه السلام ، أى أنا أفعل ذلك ، ويجوز لمن قرأ على لفظ الأمر أن يجعل (أخى) مرفوعا على الابتداء: (اشدد به) خبره ويوقف على هارون .

المسألة الثانية: الأزر القوة ، وآزره قوّاه ، قال تعالى : ﴿ فَآزَرَهُ ﴾ أى أعانه قال أبو عبيدة ﴿ أَزْرِي ﴾ أى ظهرى وفى كتاب الخليل (الأزر) : الظهر .

المسألة الثالثة: أنه عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل هارون وزيرًا له طلب منه أن يشد به أزره ، ويجعله ناصرًا له ؛ لأنه لا اعتماد على القرابة .

المطلوب الثامن: قوله: ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ والأمر هاهنا النبوة ، وإنما قال ذلك؛ لأنه عليه السلام علم أنه يشد به عضده وهو أكبر منه سنا وأفصح منه لسانًا ، ثم إنه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ [طه: ٣٣، ٣٤] والتسبيح يحتمل أن يكون باللسان ، وأن يكون بالاعتقاد، وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به ، وأما الذكر: فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء، ولا شك أن النفى مقدم على الإثبات . أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ [طه: ٣٥] ففيه وجوه : أحدها : إنك عالم بأنا لا نريد بهذه الطاعات إلا وجهك ورضاك ، ولا نريد بها أحدًا سواك.

وثانيها: ﴿ كُنتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ : لأن هذه الاستعانة بهذه الأشياء ؛ لأجل حاجتى فى النبوة إليها . =

وفوقها ثمانية أخرى ذكرها فى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ (٤٠) ﴾

[طه] فموسى طلب من الله ثمانية أشياء فأعطاه الله ضعفها، وذلك حتى يجمع الله بين العطاء بسؤال والعطاء من غير سؤال؛ لأنك حين تقول : أنا سألت الله فأعطانى ، فهذا يدل على قدرة الله فى إجابة طلبك، لكن حين يعطيك الله من عنده فوق ما تطلب ، وبدون أن تطلب، فهذا يدل على أنه تعالى عنده مفاتيح النعم، وخزائنه لاتنفد ؛ فإن سألت سيعطيك، وإن لم تسأل فلن ينساك.

= وثالثها: إنك بصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا . وإنما قيد الدعاء بهذا إجلالا لربه عن أن يتحكم عليه وتفويضًا للأمر بالكلية .

[التفسير الكبير : ٢٢/٣١-٥٠]

* ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها *

ثم تمضى الأحداث فيقول الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾(1)[القصص: ١٥] ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ أى: فى وقت

---

(١) قال ابن الجوزى : قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ ﴾ فيه قولان:
أحدهما: أنها مصر. والثانى: مدينة بالقرب من مصر.
قال السدىّ: ركب فرعون يوما وليس عنده موسى، فلما جاء موسى ركب فى إثره فأدركه المقيل فى تلك المدينة.
وقال غيره: لمّا توهم فرعون فى موسى أنه عَدُوُّه أمر بإخراجه من مدينته، فلم يدخل إلا بعد أن كبر فدخلها يوما ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ وفى ذلك الوقت أربعة أقوال:
أحدها :أنه كان يوم عيد لهم، وكانوا قد اشتغلوا فيه بلهوهم. قاله علىّ عليه السلام.
والثانى: أنه دخل نصف النهار. رواه جماعة عن ابن عباس، وبه قال سعيد ابن جبير.
والثالث : بين المغرب والعشاء. قاله وهب بن منبه.
والرابع : أنهم لمّا أخرجوه لم يدخل عليهم حتى كبر، فدخل على حين غفلة عن ذكره ؛ لأنه قد نسى أمره . قاله : ابن زيد.
قوله تعالى﴿ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ ﴾ أى: من أصحابه من بنى إسرائيل ﴿ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ أى من أعدائه من القبط، والعدو يذكر للواحد وللجميع . قال الزجاج : وإنما قيل=

القيلولة؛ لأن قوم موسى كانوا مضطهدين، وهناك بعض المدن يمنعون من دخولها؛ لأن بها أكثرية من أعدائهم، وكان موسى واحدا منهم، ولكن الله جعل موسى يعزم على دخول المدينة - وهى «منف» (١) - فأراد أن

= فى الغائب «هذا» و«هذا» على جهة الحكاية للحضرة : والمعنى : أنه إذا نظر إليهما الناظر قال: هذا من شيعته وهذا من عدوه.

قال المفسرون: وكان القبطى قد سخّر الإسرائيلى ؛ ليحمل حطبا إلى مطبخ فرعون ﴿فَاسْتَغَاثَهُ﴾ أى: فاستنصره ﴿فَوَكَزَهُ﴾ قال الزجاج: الوَكْزُ: أن يضربه بجمع كفّه وقال ابن قتيبة ﴿فَوَكَزَهُ﴾ أى لكزه، يقال : وكزته ولكزته ولهزته إذا دفعته، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى قتله ؛ وكل شىء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه . وللمفسرين فيما وكزه به قولان:

أحدهما : كفه، قاله مجاهد.

والثانى : عصاه ، قاله قتاده.

فلما مات القبطى ندم موسى؛ لأنه لم يرد قتله، وقال : ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أى: هو الذى هيَّج غضبى حتى ضربت هذا ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ﴾ لابن آدم ﴿مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ عداوته، ثم استغفر﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أى: بقتل هذا، ولا ينبغى لنبى أن يقتل حتى يؤمر. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالمغفرة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس: عونا للكافرين. وهذا يدل على أن الإسرائيلى الذى أعانه موسى كان كافرا. [زاد المسير: ٦/ ٩١-٩٢]

(١) منف Memphis : يجرى النيل فى الشرق بجوار التلال ، وفى الغرب ، يحدّ فرع منه الهضبة. ويقع بين الاثنين سهل متسع حيث تلتقى مصر العليا بمصر السفلى . فى حوالى سنة ٣٠٠٠ ق.م. بنى مينا حصن « الحائط الأبيض » قرب مدينة كانت مقر عبادة « بتاح » ، وبذلك سيطر مينا على القطرين . ومنذ ذلك التاريخ ، أقام الملوك فى تلك المنطقة السيطرة على البلاد ، وبنى كثير منهم أهراماتهم بقرب «الحائط الأبيض » . وبهذه الطريقة ظهر حى جديد ليخدم هرم بيبى Pepi الأول ، وفى النهاية أطلق اسم هرمه « من نفر » على مجموعة المساكن التى بنيت حول معبد بتاح، وغدت « من نفر » باللغة الإغريقية ، ممفيس . (وبالعربية منف) . =

يدخلها فى وقت غفلة من أهلها، واختار وقت القيلولة لأن الناس يقيلون فيه فى بيوتهم، فلما دخلها وجد فيها رجلين يتشاجران أحدهما من شيعته أى من بنى إسرائيل ، والآخر من القبط[1].

ومعنى استغاث: أى طلب الغوث، فاستغاثه الإسرائيلى على القبطى فوكزه موسى، أى ضربه بِجُمْع يديه، فجاء قدر القبطى مع الوكزة، فلم يمت من الوكزة ، ولكنه مات عندها لا بها فجاء أجله[2] ؛ ولذلك

= ظلت منف المدينة الأولى فى مصر إبان الدولة الحديثة وفى الحقبة المتأخرة حتى بنيت مدينة الإسكندرية . كانت العاصمة الإدارية والمقر المفضَّل لقصور الملوك .

واحتفظ الفراعنة بحريمهم فيها وبنوا فيها كثيرًا من القصور . واتسعت رقعة معبد بتاح ، ببناء كثير من هياكل آلهة عدة.

وكانت منف الحصن القوىّ الذى كان على الغزاة من الإثيوبيين والفرس والأشوريين أن يستولوا عليه قبل السيطرة الحقيقية على مصر . وكانت تصنع بها أسلحة القتال ، وتبنى فيها سفن الأسطول . وكانت البضائع الواردة من جميع فروع النيل ، تأتى إلى مينائها بكميات ضخمة حتى وجدت خزانة آمون فى طيبة أنه من الضرورى وجود توكيل لها هناك . ومنذ عصر الملوك المسمّين باسم تحوتمس ، عُبد بها بعل Baal وعشتارت Astarte وهما من أرباب سوريا . والتقى هيرودوت بكثير من تجار طرابلس Tyre والجنود الكاريين Carial وكثير من الأجانب الآخرين ، بتلك المدينة . وإذا لم تعكس جبانة سقارة صورة العظمة التى أوضحتها النصوص العديدة، لتلك المدينة ، صار من العسير علينا أن نبرهن على الصورة التى رسمناها لها . أما الآن ، فلم تعد منف ، التى تقع على مسافة ٢٨ كم جنوب القاهرة ، سوى منخفض منبسط يظلله النخيل . وفى الجزء الشمالى منها بعض خرائب تناثرت فيها قطع الآجر والأحجار فتبين موضع « الحائط الأبيض » . وبقرب قرية ميت رهينة بعض أحجار من خرائب معبد بتاح ، كما يوجد هناك تمثال ضخم سقط على جنبه وتراكمت فوقه طبقة ترابية تحميه ؛ يذهب السائحون إلى هناك ليروه .

[معجم الحضارة المصرية القديمة : ٣٢١] .

(١) راجع معنى كلمة : « قبطى » فى المجلد الثانى من هذا الكتاب صفحة [١٢٤٤] .

(٢) قال الرازى : احتج بهذه الآية من طعن فى عصمة الأنبياء عليهم السلام من وجوه : أحدها: أن ذلك القبطى إما أن يقال: إنه كان مستحق القتل أو لم يكن كذلك، فإن=

= كان الأول فلم قال : ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ ولم قال : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ [القصص: ١٦] ؟ ولم قال فى سورة أخرى ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] ؟ وإن كان الثانى وهو أن ذلك القبطى لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنبا.

وثانيها : أن قوله ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ يدل على أنه كان كافرا حربيا فكان دمه مباحا فلم استغفر عنه؟ والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز؛ لأنه يوهم فى المباح كونه حراما.

وثالثها : أن الوكز لا يقصد به القتل ظاهرا، فكان ذلك القتل خطأ، فلم استغفر منه؟ والجواب عن الأول لم لا يجوز أن يقال : إنه كان لكفره مباح الدم.

أما قوله ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ ففيه وجوه :

أحدها: لعل الله تعالى وإن أباح قتل الكافر إلا أنه قال : الأولى تأخير قتلهم إلى زمان آخر، فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله : ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ معناه إقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان.

وثانيها : أن قوله هذا إشارة إلى عمل المقتول ، لا إلى عمل نفسه فقوله : ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أى عمل هذا المقتول من عمل الشيطان، المراد منه بيان كونه مخالفا لله تعالى مستحقا للقتل.

وثالثها : أن يكون قوله هذا إشارة إلى المقتول، يعنى أنه من جند الشيطان وحزبه، يقال : فلان من عمل الشيطان، أى من أحزابه.

أما قوله : ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] فعلى نهج قول آدم عليه السلام : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] والمراد أحد وجهين، إما على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى، والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه، وإن لم يكن هناك ذنب قط، أو من حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب.

أما قوله : ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أى فاغفر لى ترك هذا المندوب، وفيه وجه آخر، وهو أن يكون المراد :﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ حيث قتلت هذا الملعون، فإن فرعون لو عرف ذلك لقتلنى به﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أى فاستره على ولا توصل خبره إلى فرعون ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾ أى ستره عن الوصول إلى فرعون ، ويدل على هذا التأويل أنه =

يقولون: فلان قضى لى المصلحة، وذهب إلى المسئولين، وقضى حاجتى، مع أن الواقع أنه لم يفعل شيئا؛ لأنه لا يقضى فى الأرض حتى يقضى فى السماء، ولكن ربنا أراد أن يكرم واسطتك، فجعله يذهب ليتوسط فى الساعة نفسها التى قضى الله فيها، فيكون قضى الله المصلحة معه لا به.

لما ضرب موسى الرجل فمات، حزن وقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾(١) عرف أن هذا العمل من فعل الشيطان؛ لأنه عدو مضل واضح الضلال، فاستغفر ربه وأناب إليه.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

= على عقبه قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] ولو كانت إعانة المؤمن ههنا سببا للمعصية لما قال ذلك.

وأما قوله: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] فلم يقل إنى صرت بذلك ضالا، ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافرا فى حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرا فى ذلك الوقت، واعترف بأنه كان ضالا أى متحيرا لا يدرى ما يجب عليه أن يفعله وما يدبره فى ذلك. أما قوله إن كان كافرا حربيا فلم استغفر عن قتله؟ قلنا كون الكافر مباح الدم أمر يختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حراما فى ذلك الوقت، أو إن كان مباحا لكن الأولى تركه على ما قررنا، قوله ذلك القتل كان قتل خطأ، قلنا لا نسلم فلعل الرجل كان ضعيفا وموسى عليه السلام كان فى نهاية الشدة، فوكزه كان قاتلا قطعا. ثم إن سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه أن يخلص الإسرائيلى من يده بدون الوكز الذى كان الأولى تركه، فلهذا أقدم على الاستغفار. على أننا وإن سلمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنا بينا أنه لا دليل البتة على أنه كان رسولا فى ذلك الوقت فيكون ذلك صادرا منه قبل النبوة، وذلك لانزاع فيه. [التفسير الكبير: ٢٤/ ٢٣٤ - ٢٣٥]

(١) قال الزمخشرى: فإن قُلْتَ: لِمَ جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسمَّاه ظلما لنفسه واستغفر منه؟ قلتُ: لأنه قتله قبل أن يؤذن له فى القتل، فكان ذنبا يستغفر منه. وعن ابن جريج: ليس لنبى أن يقتل ما لم يؤمر. [الكشاف: ٣/ ١٦٠]

الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦] ساعة يخطئ الإنسان ويفعل ذنبا ويعرف أنه أذنب لا يكابر فيه ، بل يبادر على الفور ويقول: أنا ظلمت نفسى وحكمك الحق يارب فاغفر لى. ولذلك ما الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس ؟ هذا عصى وهذا عصى ، فلماذا قبل الله توبة آدم ولم يقبل من إبليس ؟ قالوا: لأن آدم أقر بأنه أذنب وتاب إلى الله وندم على فعله وقال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف: ٢٣].

لكن إبليس رفض أمر الله وعلل رفضه للأمر بقوله: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(١) [الأعراف: ١٢] .

إذن . . الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس أن إبليس رد الحكم على الله، لكن آدم لم يرد حكم الله، بل اعترف أن حكم الله حق، ولكنه ظلم نفسه(٢) .

ولذلك فإن الإنسان الذى يقترف ذنبًا ثم لما يعارض بحرمته يجعله لنفسه

---

(١) يقول ابن القيم : عارض إبليس النص الصريح، وقابله بالرأى الفاسد القبيح، ثم أردف ذلك بالاعتراض على العليم الحكيم، الذى لاتجد العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيلا، وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى، لم كرمته على وغور هذا الاعتراض أن الذى فعلته ليس بحكمة ولا صواب ، وأن الحكمة تقتضى أن يسجد هو لى. [إغاثة اللهفان ٢/ ٢٠١]

(٢) الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس : أن الله تعالى بلى العدو بالذنب فأصر واحتج وعارض الأمر، وقدح فى الحكمة، ولم يسأل الإقالة، ولم يندم على الزلة. وبلى الحبيب بالذنب فاعترض وتاب وندم، وتضرع واستكان وفزع إلى مفزع الخليقة، وهو التوحيد والاستغفار، فأزيل عنه العتب وغفر له الذنب، وقبل منه المتاب، وفتح له من الرحمة والهداية كل باب، ونحن الأبناء، ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن كانت شيمته التوبة والاستغفار فقد هدى لأحسن الشيم.
[إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان: ٢/ ٢٠٣]

ويحاول أن يجد المبررات لنفسه ، نقول له: لا تذهب إلى رد الحكم على الله؛ لأن رد الحكم على الله فعل إبليس، ولكن سلم بالحكم وقل: ظروفى لاتساعدنى عليه،أو قل : الله يتوب على ، ففى هذه الحالة تكون مؤمنا عاصيا قابلا للتوبة، لكن إن رددت الحكم على الله تربى نفسك على الكفر(1). فقل : الحكم صحيح ، ولكن أنا غير قادر على نفسى.

(1) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] أى منعنى من السجود فضلى عليه؛ فهذا من إبليس جواب على المعنى. كما تقول: لمن هذه الدار؟ فيقول المخاطب: مالكها زيد. فليس هذا عين الجواب، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب. ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فرأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوها وصعودها وخفتها، ولأنها جوهر مضىء. قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أول من قاس إبليس فأخطأ القياس. فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس. قال ابن سيرين: وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس. وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا فى درجة واحدة من حيث هى جماد مخلوق. فإن الطين أفضل من النار من وجوه أربعة:

أحدها: أن من جوهر الطين الرزانة والسكون، والوقار والأناة، والحلم، والحياء، والصبر. وذلك هو الداعى لآدم عليه السلام بعد السعادة التى سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية. ومن جوهر النار الخفة، والطيش، والحدة، والارتفاع، والاضطراب. وذلك هو الداعى لإبليس بعد الشقاوة التى سبقت له إلى الاستكبار والإصرار؛ فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء؛ قاله القفال.

الثانى: أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسك أذفر، ولم ينطق الخبر بأن فى الجنة ناراً وأن فى النار تراباً.

الثالث: أن النار سبب العذاب، وهى عذاب الله لأعدائه؛ وليس التراب سببا للعذاب.

الرابع: أن الطين مستغن عن النار، والنار محتاجة إلى المكان ومكانها التراب.

قلت: ويحتمل قولا خامسا وهو أن التراب مسجد وطهور؛ كما جاء فى صحيح الحديث. والنار تخويف وعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر: ١٦] وقال ابن عباس: كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس فعصى ربه، وهو أول من قاس برأيه. والقياس فى مخالفة النص مردود.

[تفسير القرطبى: ٧/ ١٧٠ ، ١٧١]

موسى عليه السلام لما استغفر ربه غفر له؛ لأنه سبحانه هو الغفور الرحيم ؛ لأن الإنسان إذا أصابته غفلة ، واقترف ذنبًا ولم يفتح الله له باب التوبة والمغفرة، لكان الذى يخطئ ويعمل ذنبا واحدا فى حياته ، ييأس ويعمل كل الذنوب؛ لأنه وقع فى الخطأ ولا توبة له.

إذن.. مشروعية التوبة من الله، والمغفرة لمصلحة الناس تعطى صاحب الذنب أملاً فى أنه لم يطرد من رحمة الله(١) .

ولو لم يكن باب التوبة مفتوحا لاستشرى الفساد، وعمت الجرائم، وهذا من رحمة الله بخلقه، وفى القرآن الكريم نجد قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨] فهل الله يتوب على العبد فيتوب، أم أن العبد يتوب إلى الله فيقبل الله توبته؟ قال العلماء : معنى تاب عليهم أى شرع لهم التوبة ؛ ليتوبوا بالفعل ، فيقبل توبتهم ويتوب عليهم.

لما غفر الله تعالى لموسى وقبل توبته ، عاهد موسى ربه ألا يكون ظهيرا للمجرمين، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً

---

(١) عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» . أخرجه مسلم [٢٧٥٩]

وعن أبى هريرة قال: سمعت النبى ﷺ قال: «إن عبداً أصاب ذنباً وربما قال: أذنب ذنبًا فقال: رب أذنبت ذنباً وربما قال: أصبت فاغفر فقال ربه: أعَلِم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدى ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً أو أذنب ذنباً فقال: رب أذنبت أو أصبت آخر فاغفره فقال: أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدى ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنباً، وربما قال: أصاب ذنباً فقال: رب أصبت أو أذنبت آخر فاغفره لى قال: أعلم عبدى أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى ثلاثاً فليعمل ماشاء ». أخرجه البخارى [٧٥٠٧] واللفظ له، ومسلم [٢٧٥٨].

﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[1] [القصص: ١٧] أى يا رب، بما أنعمت علىّ بالمغفرة وعذرتنى وتبت علىّ، أعاهدك يا ربى أننى لن أكون معينا للمجرمين .

وأصبح بعد هذا الحادث خائفا يترقب قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾[2] [القصص: ١٨] ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ : أى يرقب انفعالات الناس المقبلين عليه؛ لأنه يخشى أن يؤذوه انتقاما للقبطى الذى مات فى المشاجرة.

---

(١) قال الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ : يجوز أن يكون قسمًا جوابه محذوف، تقديره: أقسم بإنعامك علىّ بالمغفرة لأتوبن ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وأن يكون استعطافًا؛ كأنه قال: ربّ اعصمنى بحق ما أنعمت علىّ من المغفرة، فلن أكون إن عصمتنى ظهيرا للمجرمين. وأراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته وتكثيره سواده، حيث كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد، وكان يسمى ابن فرعون. وإما مظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم ، كمظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى القتل الذى لم يحل له. وعن ابن عباس: لم يستثن فابتلى به مرة أخرى. يعنى لم يقل: فلن أكون إن شاء الله ظهيرًا للمجرمين.
وهذا نحو قوله ولا تركنوا إلى الذين ظلموا، وعن عطاء أن رجلا قال له: إن أخى يضرب بقلمه ولا يعدو رزقه، قال: فمن الرأس يعنى من يكتب له قال خالد بن عبدالله القسرى، قال: فأين قول موسى وتلا هذه الآية، وفى الحديث ينادى مناد يوم القيامة أين الظلمة، وأشباه الظلمة، وأعوان الظلمة، حتى من لاق لهم دواة أو برى لهم قلما. فيجمعون فى تابوت من حديد فيرمى به فى جهنم، وقيل معناه بما أنعمت على من القوة فلن أستعملها إلا فى مظاهرة أوليائك وأهل طاعتك، والإيمان بك ولا أدع قبطيا يغلب أحداً من بنى إسرائيل . [الكشاف: ٣/ ١٦٠]

(٢) قال الرازى : اعلم أن عند موت ذلك الرجل من الوكز أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفا من أن يظهر أنه هو القاتل فيطلب به، وخرج على استتار ﴿فَإِذَا الَّذِى اسْتَنصَرَهُ﴾ وهو الإسرائيلى ﴿بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يطلب نصرته بصياح وصراخ، قال له موسى ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ قال أهل اللغة : لغوى يجوز أن يكون فعيلاً بمعنى أى : إنك لمغوٍ لقومى، فإنى وقعت بالأمس فيما وقعت فيه=

لما أصبح موسى فى المدينة خائفا يترقب انفعالات الناس المقبلين عليه؛ خشية أن ينتقموا منه، وجد الرجل الإسرائيلى الذى استغاثه بالأمس يستصرخه.

كلمة استصرخ من الصراخ، ونحن نعرف أن الصراخ استنجاد؛ ليخلصك من مأزق، فمثلاً لو أن إنسانا كان فى بيته، وفاجأه لص أو شبّ حريق فى بيته، تجده يصرخ طالبا النجدة، فالصراخ استنجاد لمن ينقذه؛ ولذلك نجد فى قول الحق سبحانه وتعالى عن إبليس وأتباعه ﴿ما أنا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢](١) .

كلمة أصرخ معناها أزال سبب صراخه، فإبليس فى الآخرة لا يستطيع أن يزيل صراخ أتباعه من العذاب؛ لأن هناك همزة اسمها همزة الإزالة، تقول: صرخ فلان أى استنجد بأحد فأصرخه فلان أى أزال صراخه.

= بسببك، ويجوز أن يكون بمعنى الغاوى. واحتج من قدح فى عصمة الأنبياء بذلك، فقال : كيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ والجواب من وجهين :

الأول : أن قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظا جفاة، الا ترى الى قولهم بعد مشاهدة الآيات ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فالمراد بالغوى المبين ذلك.

الثانى : أنه عليه السلام إنما سماه غويا؛ لأن من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يرومه من ضرره يكون خلاف طريقة الرشد.

[التفسير الكبير : ٢٤/ ٢٣٦]

(١) ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ أى ما أنا بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، وما أنتم بنافعىّ بإنقاذى مما أنا فيه من العذاب والنكال.

[تفسير ابن كثير : ٢/ ٥١٠]

وفى لسان العرب : المصرخ : المغيث. [لسان العرب : ٣/ ٣٣]

فإبليس يقول لأتباعه لا أنا أستطيع أن أزيل صراخكم، ولا أنتم تستطيعون أن تزيلوا صراخى، فهم جميعا سيصرخون ولا مصرخ لهم.

لما وجد موسى الرجل الذى طلب نصرته بالأمس يستصرخه قال له موسى: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص: ١٨] أنت تريد أن تغوينى لأكرر خطأ الأمس، ومع ذلك حر لنصرته ولم يترك خصمه يفتك به، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾[1] [القصص: ١٩].

وعندئذ جاء الرجل المؤمن من آل فرعون من آخر المدينة يسعى إلى موسى ليحذره، وقال له: ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[2] فكأن الرجل ينصحه بالهرب قبل أن يقتله فرعون

---

(١) قال ابن الجوزى فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ﴾ اى: بالقبطى ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ ﴾ هذا قول الإسرائيلى من غير خلاف علمناه بين المفسرين؛ قالوا: لما رأى الإسرائيلى غضب موسى عليه حين قال له: ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ورآه قد هَمَّ أن يبطش بالفرعونى، ظن أنه يريده، فخاف على نفسه ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى ﴾ وكان قوم فرعون لم يعلموا مَنْ قاتل القبطى، إلا أنهم أتوا إلى فرعون فقالوا: إن بنى إسرائيل قتلوا رجلا منا فخذ لنا بحقنا، فقال: ابغونى قاتله ومن يشهد عليه لآخذ لكم حقكم، فبيناهم يطوفون ولايدرون من القاتل وقعت هذه الخصومة بين الإسرائيلى والقبطى، فلما قال الإسرائيلى لموسى ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى ﴾ انطلق القبطى إلى فرعون فأخبره أن موسى هو الذى قتل الرجل. [زاد المسير: ٦/ ٩٣]

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ ﴾ قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون، ذكره الثعلبى وقيل طالوت؛ ذكره السهيلى. وقال المهدوى عن قتادة: شمعون مؤمن آل فرعون، وقيل: =

وقومه، ولم يجد موسى بدا من الخروج، ولكن كان ذلك لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى.

قال سبحانه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (1)[القصص: ٢١] أى خرج من المدينة متخفيا؛ خشية أن يراه أحد؛ لأن قوم فرعون كانوا يضطهدونهم دون أن يفعلوا شيئا، فما بالك إن اعتدوا وقتلوا منهم واحدًا؟

أراد موسى أن يهرب من مصر كلها، ويتوجه إلى بلاد مدين، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(2) [القصص:٢٢].

= شمعان، قال الدارقطنى: لا يعرف شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون. وروى أن فرعون أمر بقتل موسى، فسبق ذلك الرجل بالخبر فـ ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ أى: يتشاورون فى قتلك بالقبطى الذى قتلته بالأمس. وقيل يأمر بعضهم بعضًا.

(1) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ فخرج موسى من المدينة حال كونه خائفا من الظالمين مترقبا لحوقهم به وإدراكهم له، ثم دعا ربه بأن ينجيه مما خافه قائلا ﴿ربِّ نجنى من القوم الظالمين﴾ أى: خلصنى من القوم الكافرين وادفعهم عنى، وخل بينى وبينهم. [فتح القدير: ٤/ ١٦٠]

(2) قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لما خرج موسى عليه السلام فارا بنفسه منفردا خائفا، لاشىء معه من زاد ولاراحلة ولاحذاء، نحو مدين للنسب الذى بينه وبينهم؛ لأن مدين من ولد إبراهيم، وموسى من ولد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم، ورأى حاله وعدم معرفته بالطريق، وخلوه من زاد وغيره أسند أمره إلى الله بقوله﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وهذه حالة المضطر.

قلتُ: روى أنه كان يتقوت ورق الشجر، وما وصل حتى سقط خُفّ قدميه. قال=

كلمة ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ﴾ أى: جهة، ولكنه أراد الهرب، خشية أن يفتك به فرعون وملؤه، فسلك هذا الطريق فقاده إلى بلاد مدين؛ لأن الله أراد له ذلك؛ لأنه لو كان يقصد بلاد مدين بالذات لما قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، فكأنه رأى أمامه طريقا فسار فيه؛ لأنه لم يكن عنده وقت للتفكير إلى أى بلد يذهب، وأى طريق يسلك.

= أبو مالك : وكان فرعون وجّه فى طلبه وقال لهم : اطلبوه فى ثنيات الطريق ، فإن موسى لا يعرف الطريق ، فجاءه ملك راكبًا فرسا ومعه عنزة ، فقال لموسى : اتبعنى فاتبعه فهداه إلى الطريق ، فيقال : إنه أعطاه العنزة فكانت عصاه . ويروى أن عصاه إنما أخذها لرعى الغنم من مدين . وهو أكثر وأصح . قال مقاتل والسدى : إن الله بعث إليه جبريل ؛ فالله أعلم . وبين مدين ومصر ثمانية أيام ؛ قاله ابن جبير والناس. وكان ملك مدين لغير فرعون . [تفسير القرطبى : ٢٦٦/١٣]

* هروب موسى من مصر *

خرج موسى من مصر هربا من فرعون، وانطلق فى طريقه تجاه فلسطين حتى وصل إلى ماء مدين، فى هذه اللحظة التى وصل فيها ماء مدين، أراد الله أن يضع حلا لمشاكل الدنيا بين الرجل والمرأة، وجاء هذا الحل قبل أن يكون موسى رسولا، حتى نعرف أن الفطرة السليمة يهديها الله. وموسى الذى صنعه الله على عينه لابد أن يكون مهديا.

المستشرقون يعيبون علينا أننا فى كل شئ نقول: عمر قال كذا، وعمر فعل كذا، والقرآن وافقه فى كذا.(1) ويسألون لماذا لا تقولون الرسول قال كذا،

---

(1) عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه». وقال ابن عمر : ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه، وقال فيه عمر ، أو قال ابن الخطاب فيه ـ شكٌ خارجة ـ إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر. أخرجه الترمذى [٣٦٨٢] وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٩٠٨] : صحيح .

وعن ابن عمر رضى الله عنه قال: لما توفى عبد الله بن أبى، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه ثم سأله أن يصلى عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلى. فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه؟ فقال رسول الله ﷺ : «إنما خيرنى الله فقال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ [التوبة:٨٠] وسأزيده على السبعين » قال : إنه منافق. قال : فصلى رسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ [التوبة : ٨٤].

أخرجه البخارى [٤٦٧٠]

والمواقف التى وافق فيها القرآن عمر بن الخطاب كثيرة فلتراجع فى مصادرها.

والقرآن وافقه فى كذا؟ لماذا عمر؟ نقول لهم: أنتم أغبياء؛ لأن رسول الله ﷺ لن يظل مع قومه، ورسول الله ﷺ معصوم، وهو سيسلم الأمانة إلى غير معصومين، والفطرة السليمة تهتدى إلى قضايا الحق.

عمر يقول أحيانا رأيه وهو مع الرسول، فيأتى القرآن موافقاً لعمر؛ لنعرف أن واحدا من أتباع رسول الله ﷺ يهتدى إلى الحق وينزل القرآن موافقا له.

والقضية التى تشغل العالم الآن هى قضية الجنسين: الرجل والمرأة، وهذه القضية هى رأس الحربة التى توجه دائما للإسلام، لماذا؟ لأنهم يريدون أن تظهر المرأة مفاتنها وتختلط بالرجال، فى سن المراهقة أقوى أوقات ثورتها، فيشغلون الناس بها، القرآن أتى ليوضح هذا فى قصة موسى، وهو مهاجر من مصر هربا من القتل، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾(1) [القصص: ٢٣] فموسى عليه السلام عندما وصل البئر التى يشرب منها أهل مدين ويسقون أنعامهم، وجد عندها عددا من الرجال يسقون أنعامهم، ووجد بعيدا عنهم امرأتين تذودان.

فمعنى قوله: ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣] أى تمنعان الماشية أن تقترب من الماء، وهى عملية لافتة للنظر؛ لقد جاءتا لتسقيا، فلماذا تمنعان الماشية عن

---

(١) قال القرطبى: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ مشى موسى عليه السلام حتى ورد ماء مدين، أى: بلغها. وورود الماء معناه: بلغه، لا أنه دخل فيه. ولفظة (الورود) قد تكون بمعنى الدخول فى المورود، وقد تكون بمعنى الاطلاع عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل فيه فورود موسى هذا الماء كان بالوصول إليه. و﴿يَسْقُونَ﴾ معناه: ماشيتهم و﴿مِن دُونِهِمُ﴾ معناه: ناحية إلى الجهة التى جاء منها، فوصل إلى المرأتين قبل وصوله إلى الأمّة، ووجدهما تذودان، ومعناه: تمنعان وتحبسان.
[تفسير القرطبى: ٢٦٧/١٣ ، ٢٦٨]

الماء؟ كان طبيعيا أن يسألهما موسى ما خطبكما؟ يعنى ما حكايتكما؟ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (١)[القصص: ٢٣] جملتان فقط قالتاهما الفتاتان، لا نسقى حتى ينصرف الرعاة، وأبونا شيخ كبير؛ ولذلك فالفتاة فى الإسلام لاتخرج من بيتها إلا لعلة، والفتاتان خرجتا لأن أباهما شيخ كبير وبقيتا بعيدا عن الرجال؛ إذن فالضرورة هنا على قَدرِها. وليس الخروج للعبث، أو لمقابلة الرجال، أو غير ذلك.

هنا يأتى دور المجتمع الإيمانى فى قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(٢) [القصص: ٢٤] ساعة وجد

---

(١) قال الشوكانى أى: قال موسى للمرأتين: ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس؟ والخطب هو الشأن. قيل: وإنما يقال: ما خطبك لمصاب أو مضطهد أو لمن يأتى بمنكر؟ ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أى: إن عادتنا التأنى حتى يصدر الناس عن الماء وينصرفوا منه حذرا من مخالطتهم، أو عجزا عن السقى معهم.

[فتح القدير: ٤/ ١٦١]

(٢) قال القرطبى : إن قيل كيف ساغ لنبى الله الذى هو شعيب ﷺ أن يرضى لابنتيه بسقى الماشية؟ قيل له: ليس ذلك بمحظور والدين لا يأباه؛ وأما المروءة فالناس مختلفون فى ذلك، والعادة متباينة فيه، وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو غير مذهب الحضر، خصوصا إذا كانت الحالة حالة ضرورة.

وقال فى تأويل قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ إلى ظل سَمُرَة ؛ قاله ابن مسعود. وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله: ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وكان لم يذق طعاما سبعة أيام، وقد لصق بطنه بظهره؛ فعرض بالدعاء ولم يصرح بسؤال؛ هكذا روى جميع المفسرين أنه طلب فى هذا الكلام ما يأكله؛ فالخير يكون بمعنى الطعام كما فى هذه الآية، ويكون بمعنى المال كما قال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ وقوله ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ ويكون بمعنى القوة كما قال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ويكون بمعنى العبادة كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ قال ابن عباس: وكان=

فتاتين اضطرتا للخروج للضرورة قضى لهما حاجتهما على الفور لتعودا إلى بيتهما، ولقد كنت فى مكة وكان معى صديق عزيز، ونحن فى الطريق أوقف صاحبى السيارة التى كنا نستقلها إلى الكلية، ونزل منها، وذهب إلى بيت وأخذ لوح عجين مغطى بقماش ووضعه فى السيارة فسألته ماذا يفعل؟ قال: لوح العجين الذى وضع أمام الباب، والباب مغلق معناه أن صاحب البيت غير موجود، ولا يوجد فى البيت إلا النساء، ولذلك فمن الواجب الإيمانى أن تأخذ لوح العجين إلى الخباز ثم تعيده إلى مكانه بعد أن يتم خبزه، هذا هو المعنى الإيمانى فى قوله تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾.

يأتى بعد ذلك أن الفتاة التى تخرج للضرورة يجب ألا تستمرئ هذا الأمر ، فإذا وجدت طريقا يحميها من الخروج فلابد أن تلجأ إليه.

ابنتا شعيب حينما عادتا لم تخفيا الأمر عن الأب حتى يفتح أمامهما باب الخروج، بل سارعتا تحكيان القصة للأب، ولم يأخذ الأب القصة هكذا، بل رأى أنه لابد أن يتأكد ويعرف بنفسه هذا الشاب الذى ساعد ابنتيه. وما هى نواياه؟ ولذلك طلب من إحدى ابنتيه الخروج لتطلب من موسى أن يحضر إلى البيت ليقابل الأب، ولأن موسى لا يريد منها سوءًا، مشى أمامها حتى وصل إلى بيت شعيب، وكان أول شئ يريد شعيب أن يعرفه قصة هذا القادم، ليختبره ويعرف نواياه؟

= قد بلغ به الجوع، واخضر لونه من أكل البقل فى بطنه، وإنه لأكرم الخلق على الله. ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدميه. وفى هذا معتبر وإشعار بهوان الدنيا على الله. وقال أبوبكر بن طاهر فى قوله: ﴿ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ أى إنى لما أنزلت من فضلك وغناك فقير إلى أن تغنينى بك عمن سواك. قلت: ما ذكره أهل التفسير أولى؛ فإن الله تعالى إنما أغناه بواسطة شعيب.

[تفسير القرطبى : ١٣/ ٢٦٩ - ٢٧٠]

قص عليه موسى القصة ، وشعيب اطمأن له ، والفتاتان وجدتا فى موسى مخرجًا ؛ لكى لاتخرجا لسقى الماشية ، ولو كانتا تريدان الخروج لما اقترحتا هذا؛ ولذلك قالت إحدى الفتاتين كما يقص علينا القرآن: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ (1)[القصص: ٢٦] إذن فالمرأة حين ترى طريقة تنهى بها خروجها من البيت واختلاطها بالرجال ، تسارع وتقترحها.

الأب النبى الحكيم رأى أن اشتغال موسى عنده ودخوله البيت وخروجه لا يصح، وخير طريقة أن يزوجه إحدى ابنتيه، فتصبح الأولى زوجته والثانية محرمة عليه، لذلك قال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧] ولكن موسى رجل فقير لا يملك شيئاً فكيف سيدفع المهر؟ المهر يؤدى على أى وضع؛ ولذلك قال شعيب: ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧] وهذا يعنى أن المفاصلة فى المهر مباحة، وأن المهر يمكن أن يؤدى عملا بدلا من المال.

خصوم الإسلام يريدون أن يجعلوا المرأة نصف المجتمع، ولابد أن تخرج وتشارك الرجل، مع أن هناك مؤتمرا عقدته نساء أمريكا أوصى بأن تعود المرأة إلى بيتها. فنساء أمريكا يطالبن بعودة المرأة إلى بيتها، ونساؤنا ـ هنا ـ يقلن : لابد أن تخرج المرأة لتبنى المجتمع. ومع أن المرأة تبنى المجتمع وهى فى بيتها مع زوجها وأطفالها أفضل مما تبنيه وهى فى أرقى المناصب؛ فطفولة الإنسان هى أطول طفولة بين المخلوقات ـ حوالى خمس عشرة سنة ـ وهذه الطفولة

(1) قال ابن الجوزى : أى: اتخذه أجيرا، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ أى: خير من استعملت على عملك من قَوِىَ على عملك وأدى الأمانة .

[زاد المسير: ٦/ ٩٥]

طوال هذه السنوات تؤثر فيها الأم فى كل شئ فى الدين، فى القيم، فى الأخلاق، فى الأمانة، وفى كل خلق كريم.

ولذلك عندما تقول المرأة: أريد أن أخرج للعمل، نقول لها :أنت أمّ فاشلة؛ فالأمهات اللاتى خرجن للعمل ووصلن إلى أعلى المناصب لم يخرجن لنا عظيما واحدا، وكل عظماء الدنيا من الأمهات اللاتى جلسن فى البيوت لتربية أولادهن.

* ولما ورد ماء مدين *

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[1] [القصص: ٢٣] قصة قصيرة موجزة، لكنها تحدد مهمة المرأة ومهمة

---

(١) فى غرر التبيان: ﴿امرأتين تذودان﴾ هما: صفورا، و ليا. وقيل: وشرفا، وقيل: صفورا وصفير ابنتا شعيب عليه السلام، وقيل: هما بنات تيرون ابن أخى شعيب .
[غرر التبيان : ٣٨]

وفى مفحمات الأقران للسيوطى: هما ليا وصفورا وهى التى نكحها. أخرجه ابن جرير عن شعيب الجبائى قال: وقيل شرفاً، وأبوهما شعيب عند الأكثر، وأخرج ابن أبى حاتم عن مالك بن أنس أنه بلغه أن شعيباً هو الذى قصّ عليه موسى القصص.
[مفحمات الأقران : ٣٥]

وقال ابن كثير : قال : وقد اختلفوا فى هذا الشيخ من هو؟ فقيل: هو شعيب عليه السلام وهذا هو المشهور عند كثيرين، وممن نصَّ عليه الحسن البصرى ومالك ابن أنس، جاء مصرّحا به فى حديث،ولكن فى إسناده نظر. وصرح طائفة بأن شعيبا ـ عليه السلام ـ عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى ـ عيه السلام ـ وتزوج بابنته.

وروى ابن أبى حاتم وغيره عن الحسن البصرى: أن صاحب موسى ـ عليه السلام ـ هذا اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبى صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخى شعيب وقيل: ابن عمه. وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب. وقيل: رجل اسمه يثرون. وهكذا هو فى كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين. أى: كبيرها وعالمها. وقال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله: اسمه يثرون. قال أبو عبيدة: وهو ابن أخى شعيب. [قصص الأنبياء لابن كثير : ٣٤٩]

المجتمع، ومتى تكون الضرورة، وكيف تقدر بقدرها ؟ موسى عليه السلام ورد ماء مدين ، وكلمة﴿ وَرَدَ﴾ ليس معناها الشرب، ولكن معناها الوصول عند الماء، فالورود لا يقتضى الشرب،(1) هذه هى التى أوضحت لنا قول الله تعالى:﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾(2)[مريم: ٧١] ؛لأن بعض أهل العلم قالوا: الورود على النار هو دخولها، لكن الورود هو الذهاب إلى مكان الماء وليس الشرب .

فلما جاء موسى العين، أو البئر التى كان يشرب منها أهل مدين، وجد عليها أمة، أى: جماعة من الناس، يسقون أنعامهم ومواشيهم، ووجد امرأتين تذودان، ومعنى ذاد الشيء :أى منعه أن يفعل كذا (3) ، فالغنم تندفع نحو الماء وهما تمنعانها ؛ حتى يسقى الناس أنعامهم.

---

(1) وَرَدَ الماءَ وَغَيْرَهُ وَرْدًا وَوُرُودًا، ووَرَدَ عليه: أشرف عليه، دخله أو لم يدخله .
ومنه قول زهير: فلما وردن الماء زرقا جمامه وضعن عصى الحاضرالمتخيم
وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾ فسره ثعلب فقال: يردونها مع الكفار فيدخلها الكفار ولا يدخلها المسلمون؛ والدليل على ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. وقال الزّجاج: هذه آية كثر اختلاف المفسرين فيها، وحكى كثير من الناس أن الخلق جميعا يردون النار فينجو المتقى ويترك الظالم، وكلهم يدخلها. [لسان العرب : ٣/ ٤٥٦ ، ٤٥٧]

(2) قال ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية: يقول تعالى ذكره: وإن منكم أيُّها الناس إلا وارد جهنم، كان على ربك. يا محمد - إيرادهموها قضاءً مقضيا، قد قضى ذلك وأوجبه فى أم الكتاب . [تفسير الطبرى ١٦/ ١٠٨]
وقد فصّل ابن جرير أقوال الفريقين فى تفسيره [١٦/ ١١٢]، مرجِّحا القول الأول، فقال: وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال: يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون فينجيهم الله ويهوى فيها الكافرون .

(3) الذَّوْدُ: السَّوق والطرد والدفع. تقول: ذدتُّه عن كذا، وذاده عن الشيء ذَوْدًا وذِيَادًا.
[لسان العرب : ٣/ ١٩٨]=

ولما رأى موسى هذا الأمر استغرب؛ إذا كان الناس جاءوا إلى البئر ليسقوا أنعامهم، فلماذا تمنع هاتان المرأتان أغنامهما من الاقتراب من الماء؟

فسألهما وقال لهما: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ [1] أى: ما حكايتكما؟ ولماذا تفعلان ذلك ؟

فأخبرتاه أنهما لا تسقيان حتى يصدر الرعاء، هنا كلمة ﴿يُصْدِرَ﴾ وفيه أيضا أصدر يُصْدِر، كلمة صدر أى هو بذاته، وورد هو بذاته، وأصدر: أى أرسل غيره، وأورد : أى أرسل غيره أيضا .

موسى وجد على البئر أمة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد من دونهم امرأتين تذودان الماشية، وتمنعانها أن تذهب إلى الماء، فسألهما عن حالهما ، فأخبرتاه أنهما لا تسقيان ، حتى يسقى الناس وينصرفوا ويتركوا البئر.

إذن . . الصدَر (بفتح الدال) ضد الورد[2]، ولذلك نحن نقول الصادر

= وقال الطبرى فى تفسيره : يعنى بقوله تذودان تحبسان غنمهما، يقال منه: ذاد فلان غنمه وماشيته: إذا أراد شيء من ذلك يَشذّ ويذهب، فَرَدَّه ومنعه».

[تفسير الطبرى : ٢٠/ ٥٥]

(١) قال ابن كثير : قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلاعشرة رجال، فإذا هو بامرأتين تذودان. قال : ما خطبكما؟ فحدّثناه ، فأتى الحجر فرفعه، ثم لم يستق إلا ذَنوبا واحدا حتى رويت الغنم.

[تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٨٣]

(٢) والصدر، بالتحريك : الاسم، من قولك صدرت عن الماء وعن البلاد. وفى المثل : تركته على مثل ليلة الصدر؛ يعنى حين صدر الناس من حجهم. وأصدرته فصدر أى رجعته فرجع، والموضع مصدر ومنه مصادر الأفعال. وصادره على كذا والصدر: نقيض الورد . صدر عنه يصدر صدراً ومصدراً ومزدراً؛ الأخيرة مضارعة؛ قال : =

والوارد، فلان يصدر ويورد فالذى يذهب إلى العين فهو وارد العين ليحضر الماء، ولكن الذى أحضر الماء ورجع من العين يسمى صدر عنها، أى: صدر عن العين، فكلمة يصدر معناها يرجع ، والرعاء : جمع راعٍ.

وكلمة: ﴿ لانَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ أعطت حكما .

﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ أعطت حكما ثانيًا .

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ أعطت حكما ثالثًا .

= ودع ذا الهوى قبل القلى؛ ترك ذى الهوى، متين القوى ، خير من الصرم مزدراً ، وقد أصدر غيره وصدره، والأول أعلى. وفى التنزيل العزيز: ﴿ حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ قال ابن سيدة : فإما أن يكون هذا على نية التعدى كأنه قال حتى يصدر الرعاء إبلهم ثم حذف المفعول ، وإما أن يكون يصدر ههنا غير متعد لفظاً ولا معنى؛ لأنهم قالوا صدرت عن الماء فلم يعدوه. وفى الحديث : يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى(1) الصدَر، بالتحريك: رجوع المسافر من مقصده والشاربة من الورد. يقال : صدر يصدر صدوراً يعنى أنه يخسف بهم جميعهم فيهلكون بأسرهم خيارهم وشرارهم، ثم يصدرون بعد الهلكة مصادر متفرقة على قدر أعمالهم ونياتهم، ففريق فى الجنة وفريق فى السعير. [لسان العرب : ٤/٤٤٨]

وقال ابن جرير فى تفسيره [١٠/ ٥٥] : وقوله :﴿ قَالَتَا لا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾ يقول جل ثناؤه: قالت المرأتان لموسى: لا نسقى ماشيتنا حتى يصدر الرعاء مواشيهم؛ لأنا لا نطيق أن نسقى، وإنما نسقى مواشينا ما أفضلت مواشى الرعاء فى الحوض.

---

(١) عن عبد الله بن الزبير ؛ أن عائشة قالت : عبث (١) رسول الله ﷺ فى منامه ، فقلنا : يارسول الله ! صنعت شيئاً فى منامك لم تكن تفعله. فقال «العجب إن ناساً من أمتى يؤمون بالبيت برجل من قريش. قد لجأ بالبيت . حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم» فقلنا : يا رسول الله ! إن الطريق قد يجمع الناس. قال «نعم فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل يهلكون مهلكاً واحداً . ويصدرون مصادر شتى . يبعثهم الله على نياتهم».

أخرجه مسلم [٢٨٨٤] .

---

(١) عبث : قيل معناه : اضطرب بجسمه ، وقيل ، حرّك أطرافه كمن يأخذ شيئًا أو يدفعه.

فعندنا ثلاثة أحكام: ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أى هناك ضرورة أخرجتنا وجعلتنا نعمل العمل الذى ليس منوطًا [1] بالمرأة؛ لأن هذا عمل منوط بالرعاة، ولكننا خرجنا لأن أبانا شيخ كبير.

إذن .. خرجتا عن مهمتهما إلى مهمة الرجل لأن الرجل عاجز عن العمل لكبر سنه وشيخوخته، فهنا أخذنا أن الضرورة هى التى أخرجتهما، وإذا كانت الضرورة قد أخرجتهما، فليس معنى هذا أن تنسى المرأة أنها امرأة، وليس معنى أنها خرجت أن تختلط بالرجال، وتدخل على البئر، وتزاحم الرجال على الماء، لا.. لكن عليها أن تعزل نفسها، وتأخذ الضرورة بقَدَرِها، إذن لا تخرج المرأة لتقوم بعمل الرجل إلا للضرورة، تلك واحدة.

وإذا خرجت تأخذ الضرورة بقَدَرِها ؛ وهذه الثانية.

وإذا رأى المجتمع الإسلامى، أو حتى الإنسانى، امرأة خرجت لتقوم بعمل يجب أن ينتبه المجتمع إلى أنه ليس عندها عائل، فعليه أن يقضى لها حاجتها حتى تعود إلى بيتها.

فأخذنا من هذه الآية ثلاث قضايا: لا تخرج المرأة لعمل الرجل إلا للضرورة، فالضرورة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[2] ، ونأخذ الضرورة بقدرها ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ ، والمجتمع الإيمانى عليه أن يساعد أصحاب هذه الحالات ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾[3].

(١) جاء فى « المعجم الوسيط»: «ناط الشىء بغيره، وعليه نَوْطًا: عَلَّقَهُ. يقال: ناط القربة بنياطها، وناط الأمرَ بفلان، ونيط عليه الشىء: عُهِدَ به إليه» [٢/١٠٠١] .

(٢) ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أى : فهذا الحال الملجىء لنا إلى ما ترى.

[تفسير ابن كثير : ٣/٣٨٣]

(٣) قال ابن كثير: قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾. قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا=

قال تعالى: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾(١) كأنه كما حدثت القصة طوال رحلته لم يتيسر له الحصول على الطعام، وكان يأكل من بقل الأرض حتى نحل جسمه، وأصبح مهزولا، وضعف من قلة الأكل. ومع أنه على هذه الحالة من الضعف، فهو عندما رأى المرأتين فى هذا الموقف قام وسقى لهما، وقضى مصلحتهما، ومعنى ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يريد من الضعيف أن يتجه إلى المعونة، وحين يتجه إلى المعونة فلن يفعل هو بقوته، وإنما يفعل

= فَرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجىء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة، ثم استقى لهما وسقى غنمهما، ثم ردَّ الحجر كما كان، قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة، وإنما استقى ذنوبًا واحدًا فكفاهما.[قصص الأنبياء : ٣٤٧]

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ ﴾ أى: انصرف إليه فجلس فيه من شدة الحر وهو جائع. قيل: كان هذا الظل ظل سمرة هنالك، وهى شجرة من شجر الطلح وفيه دليل على جواز الاستراحة فى الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة.

﴿ فَقَالَ ﴾ أى ثم قال لما أصابه من الجهد والتعب مناديًا لربه ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ ﴾ أى خير كان ﴿ فَقِيرٌ ﴾ أى محتاج إلى ذلك واللام بمعنى إلى، قال الأخفش: يقال هو فقير له وإليه، قال ابن عباس لقد قال موسى رب.. إلخ، وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلىّ شق تمرة، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع. وعنه قال: ما سأل إلا الطعام؛ وعنه قال: سأل فلقًا من الخبز يشد بها صلبه من الجوع، ويحتمل أن يريد أنى فقير من الدنيا؛ لأجل ما أنزلت إلىّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين؛ لأنه كان عند فرعون فى ملك وثروة، قال ذلك رضاء بالبدل السنى، وفرحًا بالعوض الهنى، وشكرًا لله الغنى. وقال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية، وتكلم بلسان الافتقار، لما ورد على سره من الأنوار.
[فتح البيان : ١٠/١٠٥، ١٠٦]

بمعونة الله، فلا يقول: أنا ضعيف، ولا أستطيع أن أساعد أحدا. ولكن عليه أن يساعد على قدر استطاعته، بدليل أن نبى الله موسى عليه السلام فعل ذلك مع ضعفه وتعبه من السفر الطويل، وأنا أتصور أنه بعد أن سقى للبنتين رجع إلى الظل مرهقا متعبا، بدليل أنه قال : ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

قوله: ﴿رَبِّ﴾ دعاء بما يناسب الإجابة ؛ لأنه كان يستطيع أن يقول : يا الله، لكن كلمة «الله» تعنى المعبود الذى له أوامر، لكن الرب هو متولى التربية(١)، ولذلك جاء بالصفة التى تناسب الموقف، أى: يا رب، أنت الذى خلقتنى وأوجدتنى فى هذا الكون، ومادمت كذلك فأنا جائع أريد الطعام. ومعنى: ﴿لِمَا أَنزَلْتَ﴾ أى أن هذا الرزق من عندك أنت، وإن جاءنى الآن أحد بطعام فأنت الذى أنزلته إلى؛ لأن الإنسان حين يسلسل النعمة مع أسبابها ينتهى إلى أن الله هو فاعلها؛ فأنت حين تأخذ الرغيف من المخبز، وتتأمل من أين جاء هذا الرغيف، تجده جاء من الدقيق الذى جاء من المطحن، والدقيق جاء من القمح الذى زرعه الفلاح وتعهّده بالرى والسماد حتى نضج، فحصده، ودرسه، وذراه لفصل الحبوب عن التبن... إلخ. أى أنك فى النهاية ستصل إلى أن الله هو الذى أنبت هذا الحب، بعد أن رماه الفلاح فى الأرض(٢).

---

(١) قال ابن القيم : الإله هو الذى تألهه القلوب محبة، وإنابة، وإجلالا، وإكراما، وتعظيما، وذلا، وخضوعا، وخوفا، ورجاء، وتوكلا، والرب هو : الذى يربى عبده، فيعطيه خلقه، ثم يهديه به إلى مصالحه، فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ما سواه.

[إغاثة اللهفان : ١/٢٧]

(٢) قال البقاعى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾[الواقعة: ٦٣، ٦٤] =

ولذلك ساعة تقول: الحمد لله، يسمونها صيغة العموم؛ لأنك إن حمدت إنسانًا أسدى إليك معروفًا ،كان الحمد فى الحقيقة راجعًا إلى الله؛ لأنه لم يعطك شيئا من عنده ولكن مما أعطاه الله، إذن الحمد لله بكل صوره وبكل توجهاته، حتى ولو كان ظاهره للأسباب، فالحق سبحانه وتعالى هو الذى يملك زمام الأمر كله، ولكنه جعل الأسباب بأيدينا، بدليل أنه أحيانا يجعل الأسباب لا تعطى شيئا.

حدث مرة أن إحدى الدول زرعت مساحات كبيرة من القمح، وكان المحصول يبشر بالخير، وقالوا: إنهم فى هذا العام سيفيض عندهم القمح

= بعض ما قيس به: أن من قدر على هذه الوجوه من الإبداءات قدر على الإعادة، بل هى أهون فى مجارى عاداتكم.

ولما كان علمهم بأمر النبات الذى هو الآية العظمى لإعادة الأموات أعظم من علمهم بجميع ما مضى، وكان أمره فى الحرث وإلقاء البذر فيه أشبه شىء بالجماع وإلقاء النطفة، ولذلك سميت المرأة حرثا، وصل بما مضى مسببًا عنه قوله منكرا عليهم : ﴿أَفَرَأَيْتُم﴾ : أى أخبرونى هل رأيتم بالبصر أو البصيرة ما نبهناكم عليه وفيما تقدم تسبب عن تنبهكم لذلك أنكم رأيتم ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أى تجددون حرثه على سبيل الاستمرار بتهيئة أرضه للبذر وإلقاء البذر فيه.

ولما كانوا لا يدّعون القدرة على الإنبات بوجه، وكان القادر عليه قادرا على كل شىء، وهم يعتقدون فى أمر البعث ما يؤدى إلى الطعن فى قدرته كرر الإنكار عليهم فقال : ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ أى تنبتونه بعد طرحكم البذر فيه وتحفظونه إلى أن يصير مالا ﴿أَمْ نَحْنُ﴾ خاصة ، وأكد لما مضى بذكر الخبر المعلوم من السياق فقال : ﴿الزَّارِعُونَ﴾ أى: المنبتون له والحافظون ، فالآية من الاحتباك بمثل ما مضى فى أختها قريبا سواء.

ولما كان الجواب قطعا : أنت الفاعل لذلك وحدك ؟ قال موضحاً لأنه ما زرعه غيره بأن الفاعل الكامل من يدفع عما صنعه ما يفسده، ومن أراد إفساده لم يقدر أحد على منعه. [نظم الدرر : ١٩/ ٢٢٣]

ويصدِّرونه إلى الخارج، ولكن قبل أن ينضج المحصول نزلت الأمطار والسيول ، فأتلفت مساحات القمح واضطروا إلى استيراد القمح بدلا من تصديره، وحدث ذلك دون أن يتوقعه أحد؛ فالأسباب أحيانا لاتعطى، فنبى الله موسى حينما يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] أى: حتى ولو كان هذا الإنزال على يد أحد من البشر.

وبينما هو يناجى ربه طالبا العون والمساعدة جاءه الفرج من عند الله، قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(١)[القصص: ٢٥] أى: جاءته إحدى الابنتين تمشى فى حياء(٢)، فعندها حياء فى المجئ وحياء فى المشى، فأخبرته أن أباها يدعوه إلى مقابلته؛ ليجزيه على شهامته وسقى الغنم لهما، فموسى لبى الطلب ولم يرفض الدعوة؛ لأن بابًا من الرزق سيفتح له وهو فى حالة صعبة، هنا لم يذكر القرآن الكريم كيف مشى موسى إلى بيت شعيب، وكيف دلّته ابنته على الطريق. موسى لم يكن يعرف الطريق، والفتاة هى التى ستدله عليه، ومادامت ستدله لابد أن تسير أمامه، وحينما تأتى الرياح من الخلف فإنها تكشف الجسم أو تحدد معالمه ، فلما سارت أمامه لتدله على الطريق ، حوّل موسى وجهه بعيدا عنها، وقال لها : سيرى

---

(١) قال الطبرى فى تفسير الآية: يقول تعالى ذكره: فجاءت موسى إحدى المرأتين اللتين سقى لهما تمشى على استحياء من موسى قد سترت وجهها بثوبها.

وقوله : ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ : ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان، ولسنا فى مملكته. [تفسير الطبرى : ٢٠/ ٦٠ -٦١]

(٢) قال ابن جماعة فى قوله تعالى : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ هى : صفورا ، وهى أكبرهما. [غرر التبيان: ٣٩١]

خلفي ودليني على الطريق بقذف الحصى،[1] فلما وصل إلى بيت شعيب وحكى له القصة ، وهروبه من مصر وتربُص القوم به طمأنه وقال له: ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

ثم يقول تعالى: ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾[2] [القصص: ٢٦] وهذه الآية أعطتنا حكما جديدا بعد الأحكام الثلاثة التي ذكرناها سابقا، فمع أن الضرورة هي التي اضطرت البنتين إلى الخروج، وأخذتا هذه الضرورة بقدرها ولم تزاحما الرجال، والمجتمع

(١) قال ابن كثير لما قالت : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ قال لها أبوها : وما علمك بذلك؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال لي : كوني من ورائي، فإذا اختلف عليّ الطريق فاقذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه.
وعن ابن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة؛ أبو بكر حين تفرّس في عمر، وصاحب يوسف حين قال : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ [يوسف: ٢١] وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ .
[تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٧٢]

(٢) قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: قالت إحدى المرأتين اللتين سقى لهما موسى لأبيها حين أتاه موسى، وكان اسم إحداهما صَفُّورا، واسم الأخرى: لَيَّا، وقيل: شرفا : إن خير من تستأجره للرعي القوي على حفظ ماشيتك والقيام عليها في إصلاحها وصلاحها، الأمين الذي لا تخاف خيانته فيما تأمنه عليه. وقيل: إنها لما قالت ذلك لأبيها استنكر أبوها ذلك من وصفها إيَّاه، فقال لها: وما علمك بذلك؟ فقالت: أما قوته فما رأيت من علاجه ما عالج عند السقي من البئر. وأما الأمانة فما رأيت من غض البصر عني» . [تفسير الطبري: ١٠/ ٦١]
قال الزمخشري: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ كلام حكيم جامع لا يُزَاد عليه؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعني: الكفاية والأمانة، في القائم بأمرك فقد فرغ بالك، وتمَّ مرادك. وقد استغنت بسياق هذا الكلام الذي سياقه سياق المثل، والحكمة أن تقول استأجره لقوته وأمانته». [الكشاف : ٣/ ١٦٣]

المسلم يساعدهما فى ذلك، فالبنت حينما وجدت الإنسان الأمين طلبت من أبيها أن يستأجره، وهذا دليل على أنها لم تهوَ الخروج، وتريد أن تجد من يعفيها من هذه المهمة، بعكس الحال عند كثير من النساء اليوم، التى تبذل الواحدة منهن كل ما تستطيع من أجل الخروج ومزاحمة الرجال، يسر الله لهن من يكفيهن مشقة الخروج، وشرح صدورهن للالتزام بالمهمة التى من أجلها خُلقن.

هذه الفتاة المؤمنة بمجرد أن وجدت الفرصة أرادت أن تستقر فى البيت[1]، وطلبت من أبيها أن يستأجره ليقوم بهذا العمل بدلاً منها. وتجد أنها ذكرت شرطين لابد من توافرهما فى الأجير، فقالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] فلابد أن يتوافر فيه شرطان: قوة على العمل، وأمانة فى الأداء ، ولكن من أين جاءت هذه الفتاة بهذا الحكم؟

---

(١) قال البقاعى : قال تعالى : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ﴿وَقَرْنَ﴾ أى اسكنّ امكثن دائماً ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ ، فمن كسر القاف وهم غير المدنيين وعاصم جعل الماضى قرر بفتح العين ، ومن فتحه فهو عنده قرر بكسرها، وهما لغتان.

ولما أمرهن بالقرار ، نهاهن عن ضده مبشعا له، فقال : ﴿وَلا تَبَرَّجْنَ﴾: أى تظاهرن من البيوت بغير حاجة محوجة ، فهو من وادى أمر النبى ﷺ لهن بعد حجة الوداع بلزوم ظهور الحصر ﴿تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾ أى المتقدمة على الإسلام وعلى ما قبل الأمر بالحجاب ، بالخروج من بيت والدخول فى آخر ، والأولى لا تقتضى أخرى كما ذكره البغوى ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنها ما بين نوح وإدريس عليهما السلام، تبرج فيها نساء السهول - وكن صباحاً وفى رجالهن دمامة لرجال الجبال وكانوا صباحا وفى نسائهن دمامة ، فكثر الفساد، وعلى هذا فلها ثانية. [نظم الدرر : ١٥/ ٣٤٤، ٣٤٥]

تخبرنا القصة أنها حكمت هذا الحكم لأن موسى حينما وجد الناس يسقون، ووجد المرأتين تذودان لم يذهب ويجترئ على الرعاة ويزاحمهم، ولكنه تركهم وشأنهم وتلفت حوله، فوجد بعض الخضرة والحشائش فعرف أنها لا تنمو إلا فى وجود الماء فبحث عنها، فاهتدى إلى وجود بئر أخرى فى هذا المكان، ولكنها كانت مردومة بحجر، فأخذ يزحزح هذا الحجر من فوق البئر حتى كشف عن الماء وسقى للبنتين، وكان هذا الحجر كبيرا لا يقوى على حمله عدد من الرجال، فعرفت البنت أنه قوى، وحينما سارت أمامه لتدلَّه على بيت أبيها وهبّت الريح، طلب إليها أن تمشى خلفه، فعرفت أنه أمين؛ فلذلك قالت لأبيها: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾(1) .

الأب كان عنده حزم؛ لأن موسى سيدخل بيته ويرعى غنمه، والبيت فيه بنتان، وموسى غريب عنهما ،فوجد الأب أن أفضل حل أن يزوجه إحداهن.

فقال شعيب لموسى: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ

---

(1) قال الطبرى : لما رجعت الجاريتان إلى أبيهما سريعا سالهما فأخبرتاه خبر موسى ، فأرسل إليه إحداهما فاتته ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] فقام معها وقال لها امضى فمشت بين يديه فضربتها الرياح ، فنظر إلى عجيزتها، فقال لها موسى : امشى خلفى ودلّينى على الطريق إن أخطأت، فلما أتى الشيخ ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٥، ٢٦] وهى الجارية التى دعته ، قال الشيخ هذه القوة قد رأيت حين اقتلع الصخرة، أرأيت أمانته ما يدريك ما هى ؟ قالت : إنى مشيت قدامه فلم يحب أن يخوننى فى نفسى وأمرنى أن أمشى خلفه . [تاريخ الطبرى : ١/ ٢٨٠]

أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1][القصص: ٢٧] وهذه الآية جاءت بمبدأ جديد[2] أيضا، فنحن نسمع بعض الناس يقولون: اخطب

---

(١) قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: ﴿قَالَ﴾ أبو المرأتين اللتين سقى لهما موسى لموسى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ يعني بقوله: ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي﴾: على أن تثيبنى من تزويجها رعى ماشيتى ثمانى حجج من قول الناس : آجرك الله فهو يأجرك ، بمعنى : أثابك الله ؛ والعرب تقول: أجرت الأجير أجره، بمعنى : أعطيته ذلك، كما يقال : أخذته فأنا آخذه . وحكى بعض أهل العربية من أهل البصرة أن لغة العرب : أجرت غلامى فهو مأجور، وآجرته فهو مؤجر، يريد: أفعلته. قال : وقال بعضهم : آجره فهو مؤاجر، أراد فاعلته؛ وكأن أباها عندى جعل صداق ابنته التى زوّجها موسى رعى موسى عليه ماشيته ثمانى حجج ، والحجج : السنون. وقوله : ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ يقول : فإن أتممت الثمانى الحجج عشرًا. فإحسان من عندك، وليس مما اشترطته عليك بسبب تزويجك ابنتى ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ باشتراط الثمانى الحجج عشرًا عليك ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فى الوفاء بما قلت لك».

تفسير القرطبى [٢٠/٦٥]

وعن على بن رباح قال : سمعت عتبة بن النذر يقول : كنا عند رسول الله ﷺ فقرأ : ﴿طسم﴾. حتى إذا بلغ قصة موسى قال : « إن موسى ﷺ أجر نفسه ثمانى سنين أو عشرا، على عفة فرجه وطعام بطنه». أخرجه ابن ماجة [٢٤٤٤] وقال الألبانى فى ضعيف ابن ماجة [٥٣٣] : ضعيف جدا.

(٢) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ الآية: فيه عرض الولى بنته على الرجل، وهذه سنّة قائمة؛ عرض صالح مدين ابنته على صالح بنى إسرائيل، وعرض عمر ابن الخطاب ابنته حفصة على أبى بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبى ﷺ؛ فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح اقتداء بالسلف الصالح. [تفسير القرطبى : ١٣/ ٢٧١]

كبرياء الناس لا تجعل الواحد منهم يقول لشاب فيه كل المواصفات الحسنة تعالَ أزوجك ابنتى، وإن كان هناك قليل من الناس يقولونها، وهذه فى الحقيقة تحل مشكلة؛ لأن من الجائز أن تجد إنسانا سوىّ الدين، سوىّ الخلق، ولكنه لا يملك شيئا من حطام الدنيا، وهناك من هو صاحب مركز اجتماعى كبير، فيتهيب هذا الشاب أن يتطلع إلى مصاهرة هذا الرجل، وليس من الضرورى أن يقول الرجل الغنى للشاب الفقير صاحب الخلق : تعالَ أزوجك ابنتى ولكن يمكنه أن يقول له : أنت لم تتزوج حتى الآن أنت شاب على خلق، وأىّ بنت تتمناك، فالشاب عندما يسمع هذا الكلام يتشجع ويأخذ الثقة فى نفسه، ويتجرأ على الدخول فى هذا الأمر ، وهذا يحل إشكالات كثيرة فى المجتمع وتصير أسوة فى الناس، فلا يوجد شاب فيه مواصفات الخير كزوج، ويتهيب أن يخطب بنت إنسان صاحب مركز كبير، ولذلك فالحق سبحانه وتعالى أباح أن نعرض للمرأة التى توفِّى عنها زوجها وقعدت حزينة عليه، بأن يقال لها: اصبرى ولا تحزنى، عسى الله أن يعوضك خيرا فأنت إنسانة طيبة القلب وعلى خلق، وكثيرون يتمنونك؛ وهذا يسمى تعريضًا بالخطبة. يقول تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ [البقرة: ٢٣٥] (١).

فهنا قول الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ

---

(١) قال القرطبى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ﴾ أى لا إثم، والجناح: الإثم، وهو أصحُّ فى الشرع وقيل : بل هو الأمر الشاق، وهو أصح فى اللغة؛ قال الشماخ :
إذا تعلو براكبها خليجا تذكر ما لديه من الجناح.
وقوله :﴿عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم﴾ المخاطبة لجميع الناس، والمراد بحكمها هو الرجل الذى فى نفسه تزوج معتدة، أى: لا وزر عليكم فى التعريض بالخطبة فى عدة الوفاة. والتعريض ضد التصريح. [تفسير القرطبى ٣/ ١٨٧ ، ١٨٨]

أن تأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تأجرنى أى : تكون أجيرا عندى لمدة ثمان سنوات، فإن أكملتها عشر سنوات فهذا كرم منك، ولن أشق عليك فى العمل، وحين تعايشنى، ستعرف أنك عايشت رجلاً من الصالحين تحب ألا تفارقه، وستكمل العشر سنوات برغبتك وإرادتك، فوافق موسى على هذا العرض وقال : ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾(1) [القصص: ٢٨]

أى: هذا الاتفاق بينى وبينك سواء قضيت ثمانيًا أو عشرًا فلا عدوان علىَّ، وهنا العلماء أخذوا من هذه الآية حكما آخر فقالوا: هل يعنى هذا الكلام أن موسى سينتظر عشر سنين ثم يبنى بالبنت رغم أنهما اتفقا وأشهدا الله على هذا الاتفاق؟ قال العلماء: لا ليس المقصود ذلك، ولكن تسمية المهر هى المطلوب، أما قبضه فيمكن أن يؤخر، أو يُقَدَّم جزء منه ويؤخر جزء، لكن لابد من تحديده، فتسمية المهر هى الشرط، أما قبضه فليس مهمًا، بدليل أنه اشترط أن يزوجه ابنته على أن يعمل عنده ثمان سنوات أو عشرًا واتفقا على ذلك، وبنى موسى بالفتاة قبل أن يقضى جزءا من هذه المدة.

قال العلماء: إن موسى رغم أنه كان جائعا حينما وصل إلى مدين

---

(1) قال الطبرى: يقول تعالى ذكره :﴿قَالَ﴾ موسى لأبى المرأتين ﴿ذَلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ أى: هذا الذى قلت من أنك تزوجنى إحدى ابنتيك بما أوجب له على نفسه. وقوله: ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ﴾ يقول : أىّ الأجلين من الثمانى الحجج والعشر الحجج ﴿قَضَيْتُ﴾ يقول: فرغت منها فوفَّيْتُكَهَا رعى غنمك وماشيتك ﴿فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ يقول: فليس لك أن تعتدى على فتطالبنى بأكثر منه ا.هـ [تفسير الطبرى : ٢٠/ ٦٥]

وطلب من ربه أن يرزقه، فإن القرآن لم يشر إلى هذا الرزق، وهذا الطعام الذى كان يشتاق إليه؛ ولذلك قال أهل السيرة: إن موسى عندما دخل جاءه شعيب بطعام ووضعه أمامه ، وقال: هيا كُلْ، فقال موسى: أستغفر الله - مع أنه جائع- فقال له شعيب: لماذا لا تأكل؟ قال موسى إنّا أهل بيت لا نبيع عمل الآخرة بملء الأرض ذهبا، وكأنك تريد أن تعطينى أجر ما سقيت، فقال شعيب: لا، إنا أهل بيت نطعم الطعام، ونقرى الضيف قال موسى : الآن نأكل [1].

---

(١) وأخرج ابن عساكر عن أبى حازم قال : لما دخل موسى عليه السلام على شعيب عليه السلام إذا هو بالعشاء فقال له شعيب عليه السلام : كُل . قال موسى عليه السلام : أعوذ بالله ! قال ولم ...؟! الست بجائع ؟ قال : بلى . ولكن أخاف أن يكون هذا عوضا لما سقيت لهما، وانا من أهل بيت لا نبتغى شيئًا من عمل الآخرة بملء الأرض ذهبا قال :لا والله ... ولكنها عادتى وعادة آبائى ، نقرى الضيف، ونطعم الطعام. فجلس موسى عليه السلام فأكل . [الدر المنثور : ٦/٤٠٧]
وانظر هامش صفحة [١٣٨٥] .

* فلما قضى موسى الأجل.. *

ثم يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾(1) [القصص: ٢٩] الأجل هو الثمان سنوات أو العشر. والحق سبحانه أطلق على الزوجة: أهلَ الرجل(2)، ونحن نقول: إن أهلي معي،

---

(١) قال الطبرى: يقول تعالى ذكره: فلما وفَّى موسى صاحبه الأجل الذى فارقه عليه، عند إنكاحه إياه ابنته، وذكر أن الذى وفَّاه من الأجلين أتمهما وأكملهما، وذلك العشر الحجج، على أن بعض أهل العلم قد رُوِىَ عنه أنه قال: زاد مع العشر عشرا أخرى.
[تفسير الطبرى : ٦٧/٢٠]

ثم قال: وقوله ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ يقول تعالى ذكره: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ شاخصا بهم إلى منزله من مصر ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ يعنى بقوله : ﴿آنَسَ﴾ : أبصر وأحس .

وقوله : ﴿لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ يقول موسى لأهله: تمهلوا وانتظروا، إنى أبصرت نارا ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا﴾ يعنى من النار ﴿بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ يقول: أو آتيكم بقطعة غليظة من الحطب فيها النار، وهى مثل الجِذْمَة من أصل الشجرة .
[تفسير الطبرى : ٦٩/٢٠]

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ يقول: لعلكم تسخنون بها من البرد، وكان فى شتاء.

[تفسير الطبرى : ٧٠/٢٠]

(٢) أهل الرجل: أخصّ الناس به . [لسان العرب :٢٩/١١]

وقال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ والمراد بالأهل هنا : امرأته =

أو إن الجماعة معى؛ وذلك لأن الزوجة تقضى للرجل ما لا يقضيه غيرها، وتزيد شيئا لا يصح أن يقضيه غيرها، فقامت مقام الأهل أو الجماعة.

ومعنى ﴿ آنَسَ﴾ أبصر ورأى أو أحسّ بشئ يؤنس، من الأنس.

﴿الطُّورِ ﴾ هو جبل الطور بجنوب سيناء، ومعنى ﴿امْكُثُوا﴾ أى انتظروا فى هذا المكان.

وقوله : ﴿إِنِّى آنَسْتُ نَارًا﴾ معناه أنه يخبرها، وأنها لم ترها، ولو كانت نارا مادية من صنع البشر لاستوى الأهل معه فى الرؤية، فكأن هذه حالة خاصة به.

وكلمة ﴿لَّعَلِّى﴾ تفيد الرجاء؛ لأنهما كانا تائهين لا يعرفان أين يذهبان؟ ولا أين الطريق؟، فهذا هو الخبر الذى يسألان عنه، وكان الجو باردا يستلزم البحث عن جذوة من النار يستدفئان بها، فمأرب موسى وأهله فى تلك اللحظة شيء يهديهما الطريق ويعرفهما أين هما، وشيء يدفئهما من البرد، فجاءهما الحق سبحانه بهذين الأمرين معا برؤية هذه النار . وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه: ﴿إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّى آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فهنا لم يقل ﴿امْكُثُوا﴾ ، لماذا؟ بالله عليكم حين تكون المرأة تسير مع زوجها فى الليل فى صحراء ليس فيها أحد،وهما تائهان ويرتجفان من البرد، فحين يقول لها : لقد رأيت نارا، وسأذهب إلى مكانها لأعرف

= والجمع لظاهر لفظ الأهل ، أو للتضخيم . وقيل : المراد بهم : المرأة والولد والخادم .
ومعنى ﴿امْكُثُوا﴾ : أقيموا مكانكم وعبّر بالمكث دون الإقامة ؛ لأن الإقامة تقتضى الدوام ، والمكث ليس كذلك .

[فتح القدير : ٣/ ٣٦٠] ، وانظر هامش صفحة [١٤٠٦ ، ١٤٠٧]

الخبر وأسأل عن الطريق، فهل ستتركه يذهب بسهولة ويتركها وحدها فى هذا المكان؟

لابد أنها ستجادل معه، ولن تسمح له أن يتركها وحدها، وستبدى خوفها وقلقها من انتظارها فى هذا المكان الموحش وحيدة، ولا شك أنه سيأخذ وقتا حتى يقنعها بذلك، فالمسألة لم تكن مجرد كلمة تقال، ولكنها أخذت وقتا فى المراجعة والإقناع .

ولذلك قال فى آية أخرى : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا﴾ [النمل: ٧] على سبيل اليقين، ولكنه راجع نفسه بعد ذلك، وتوقع أنه ربما ذهب إلى النار فوجدها انطفأت، فقال ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم﴾ [القصص: ٢٩] على سبيل الرجاء. والنار التى سيأتى بها أنواع، فإن كانت النار مشتعلة سيأتى بشعلة، وإن كان اللهب انتهى يأتى بجذوة أوجمرة من النار؛ ولذلك قال : ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[1] ،والاصطلاء: هو

(١) قال ابن كثير : ﴿ لعَلِّي آتيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أى : تستدفئون بها من البرد.

[تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٧٤]

وقال الماوردى فى قوله تعالى : ﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : بخبر الطريق الذى أراد قصده هل هو على صوبه أو منحرف عنه.

الثانى : بخبر النار التى رآها هل هى لخير يأنس به أو لشر يحذره.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ فيها اربعة أوجه :

أحدها: الجذوة أصل الشجرة فيها نار، قاله قتادة.

الثانى : أنها عود فى بعضه نار وليس فى بعضه نار، قاله الكلبى.

الثالث : أنها عود فيه نار ليس له لهب، قاله زيد بن أسلم.

=

التدفئة، فهو بذلك جاء بكل الاحتمالات، فلما وصل موسى إلى النار ماذا حدث؟.

= الرابع : أنها شهاب من نار ذو لهب، قاله ابن عباس . قال الشاعر [1] :

وألقى على قبس من النار جذوة   شديد عليها حميها والتهابها

﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ أى تستدفئون .   [تفسير الماوردى : ٤/ ٢٥٠]

---

(١) روح المعانى [٢٠/ ٧٢] والشاعر هو ابن مقيل .

* موسى فى الوادى المقدس *

الله تعالى يقول :﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (٩) إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) ﴾ [طه] «هل» أداة استفهام ، والاستفهام طلب الفهم ، ولكن الله تعالى يعلم الحكاية كلها، وليس فى حاجة إلى الاستفهام من أحد ، ولكن هذا أسلوب تشويق وهو: إلقاء صيغة الاستفهام[1]، مثلما تقول لشخص ما: هل بلغك ما حدث لفلان؟ فيقول لك بلهفة: ماذا حدث؟ فأنت شوّقته إلى سماع

(١) يقول صاحب « الجنى الدانى » :

هل : حرف استفهام ، تدخل على الأسماء والأفعال ، لطلب التصديق الموجب لاغير ، نحو : هل قام زيدٌ ؟ وهل زيد قائم ؟ فتساوى الهمزة فى ذلك .

والأصل فى « هل » أن تكون للاستفهام ، كما ذُكِر . وقد ترد لمعانٍ أخر :

الأول : النفى ، نحو قولك : هل يقدر على هذا غيرى ؛ أى : ما يقدر . ويعيّن ذلك دخول « إلا » ، نحو : ﴿ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧] .

الثانى : أن تكون بمعنى « قد » . ذكر هذا قوم من النحويين منهم ابن مالك . وقال به الكسائى والفراء وبعض المفسّرين ، فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ [الإنسان: ١] .

الثالث : أن تكون بمعنى « إنّ » ، وزعم بعضهم أن « هل» فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥] بمعنى « إنّ» .

الرابع : أن تكون للتقرير والإثبات . ذكره بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ وفى قوله : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ . وذكر بعض النحويين أن «هل» لم تستعمل للتقرير ،وأن ذلك مما انفردت به الهمزة . =

الخبر، «والقبس» هو الشعلة التى تؤخذ من النار، ولكنها مرة تكون ذات لهب فتسمى شهاب قبس، لأنك أخذت من اللهب، ومرة تجد النار قد انتهى لهيبها وبقيت الجمرات فتأخذ جذوة.

وحينما عاد موسى عليه السلام بأهله من أرض مدين ووصل إلى هذا المكان فى طور سيناء رأى النار ﴿فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ وذهب وحده إلى النار، ولم يكن يعلم هل سيدرك لهبا ، أم أنه سيصل إليها بعد أن ينطفئ اللهب وتبقى الجمرات؟ فمرة تجده يقول: ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧] ومرة يقول: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] وحاجته إلى النار كانت شديدة، لأن الليلة كانت ممطرة والجو بارد وهم غرباء عن المكان. وكان مع نبى الله موسى زوجته، وابنه، وخادمه، وكانوا جميعًا فى حاجة إلى التدفئة ؛ ولأنهم غرباء كانوا فى حاجة إلى دليل يهديهم إلى الطريق الذى يسلكونه إلى مصر، وذلك قوله : ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (1) [طه: ١٠].

= الخامس : أن تكون للأمر ، كقوله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] فهذا صورته صورة الاستفهام ، ومعناه الأمر ، أى : انتهوا ، والله أعلم .

[الجنى الدانى فى حروف المعانى : ٣٤١-٣٤٦ بتصرف]

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ قال أهل المعانى: هو استفهام إثبات وإيجاب؛ معناه أليس قد أتاك؟ وقيل: معناه وقد أتاك؛ قاله ابن عباس. وقال الكلبى: لم يكن أتاه حديثه بعد ثم أخبره. ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال ابن عباس وغيره: هذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر، وكان =

وهذه اللقطة عولجت في القرآن في مواطن متعددة.. فمرة قال: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]

= قد أخطأ الطريق، وكان موسى عليه السلام رجلا غيورا: يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيرة منه، لئلا يروا امرأته؛ فأخطأ الرفقة - لما سبق في علم الله تعالى - وكانت ليلة مظلمة. وقال مقاتل: وكانت ليلة الجمعة في الشتاء. وهب بن منبه: استأذن موسى شعيبا في الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله وغنمه، وولد له في الطريق غلام في ليلة شاتية باردة مثلجة، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته، فقدح موسى النار فلم تورِ المقدحة شيئا، إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق، ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾: أي أقيموا بمكانكم. ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾: أي أبصرت. قال ابن عباس: فلما توجه نحو النار فإذا النار في شجرة عناب، فوقف متعجبا من حسن ذلك الضوء، وشدة خضرة تلك الشجرة؛ فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة، ولا كثرة ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار. وذكر المهدوي: فرأى النار - فيما روى - وهي في شجرة من العلَّيق، فقصدها فتأخرت عنه، فرجع وأوجس في نفسه خيفة، ثم دنت منه وكلمه الله عز وجل من الشجرة. الماوردي: كانت عند موسى نارا: وكانت عند الله تعالى نورا. وقرأ حمزة: «لأهلهُ امكثوا» بضم الهاء، وكذا في «القصص». قال النحاس: وهذا على لغة من قال: مررت بهو يا رجل، فجاء به على الأصل، وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله في هذين الموضعين خاصة. وقال: ﴿امْكُثُوا﴾ ولم يقل أقيموا؛ لأن الإقامة تقتضي الدوام، والمكث ليس كذلك. و ﴿آنَسْتُ﴾ أبصرت، قاله ابن الأعرابي. ومنه قوله: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] أي علمتم. وآنست الصوت سمعته، والقبس شعلة من نار، وكذلك المقباس. يقال: قبست منه نارا أقبس قبسا فاقبسني أي أعطاني منه قبسا، وكذلك اقتبست منه نارا، واقتبست منه علما أيضا أي استفدته، قال اليزيدي: أقبست الرجل علما وقبسته نارا؛ فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته. وقال الكسائي: أقبسته نارا أو علما سواء. وقبسته أيضا فيهما. ﴿هُدًى﴾ أي هاديا. [تفسير القرطبي: ١١/ ١٧١، ١٧٢]

وفى آية أخرى لم يقل ﴿ امْكُثُوا ﴾ ، وقال: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل: ٧] .

ومرة يقول ﴿ لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩] .

هذه من الأشياء التى يشكك فيها خصوم الإسلام؛ حيث يقولون على أى وجه قال موسى هذا القول؟ وهل قال ﴿ امْكُثُوا ﴾ أم لم يقل؟ وهل قال سآتيكم أم ﴿ امْكُثُوا ﴾ سآتيكم؟ وهل قال « بجذوة» أم «بشهاب قبس»؟ وهل قال ﴿ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ ؟ أو قال ﴿ آتِيكُم بِخَبَرٍ ﴾ ؟

نقول لهم بالله عليكم فى مثل هذا الموقف وفى مكان منقطع.. رجل ومعه زوجته، وابنه، وتابعه وقد اكفهر[1] الجو من حولهم، يقول لهم الرجل إنى رأيت نارا وأريد أن أذهب إليها فهل يتركونه؟! لن يتركوه يذهب فى هذا الجو المخيف فهو يريد أن يطمئنهم ويقنعهم بأن يتركوه يذهب .إذن .. عليه أن يأتى لهم بأساليب مختلفة لإقناعهم بذلك، ففى البداية أخبرهم أنه رأى نارا، ثم قال سآتيكم منها بقبس، ومعنى ذلك أنه سيذهب وهم ينتظرون. فمرة يقول لهم: إنه سيأتيهم منها بخبر، ومرة يقول: بجذوة من النار، ومرة بشهاب قبس.

---

(١) المكفهر من السحاب: الذى يغلظ ويسود ويركب بعضه بعضاً، والمكرهف مثله. وكل متراكب: مكفهر ووجه مكفهر: قليل اللحم غليظ الجلد لا يستحى من شىء، وقيل: هو العبوس، ومنه قول ابن مسعود: إذا لقيت الكافر فالقه بوجه مكفهر أى بوجه منقبض لا طلاقة فيه، يقول: لا تلقه بوجه منبسط. ويقال: رأيته مكفهر الوجه. وقد اكفهر الرجل إذا عبس، واكفهر النجم إذا بدا وجهه وضوءه فى شدة ظلمة الليل؛ حكاه ثعلب؛ وأنشد:

إذا الليل أدجى واكفهرتِ نجومه ... وصاح من الأفراط هام جوائم

[لسان العرب: ٥/ ١٥١]

إذن.. تعددت الكلمات لأن الموقف لا يمكن أن ينتهى بكلمة؛ لأنهم لن يتركوه يذهب بسهولة.

فالحق سبحانه ذكر كل هذه اللقطات فى آيات كثيرة حتى يجمع القصة كلها، ومعنى﴿ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أى: أجد أحدا يهدينى بأن يدلنى على الطريق الذى سيوصلنى إلى غايتى.

ثم يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢)﴾ [طه] قال المفسرون إنه لما أتاها وجد نورا يتلألأ فى شجرة وهذا النور الذى يتلألأ فى الشجرة لا خضرة الشجرة تؤثر عليه فتبهته، ولا النور يطغى على خضرة الشجرة فيضعفها.. مسألة عجيبة لأن الضوء الشديد حين يسقط على الخضرة يبهت لونها والخضرة الشديدة تبهت الضوء، ولكن هذا لم يحدث مع النور الذى رآه موسى عليه السلام على الشجرة [1].

---

(١) قال البغوى فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أى شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها، أطافت بها نار بيضاء تتقد كأضوأ ما يكون، فلا ضوء النار يغير خضرة الشجرة، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار.

قال ابن مسعود: كانت الشجرة سمرة خضراء.

وقال قتادة، ومقاتل، والكلبى: كانت من العوسج.

وقال وهب: كانت من العليق.

وقيل: كانت شجرة العناب، روى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما.

قال أهل التفسير: لم يكن الذى رآه موسى ناراً بل كان نوراً، ذكر بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه ناراً.

وقال أكثر المفسرين: إنه نور الرب عز وجل، وهو قول ابن عباس، وعكرمة، وغيرهما.

قال سعيد بن جبير: هى النار بعينها، وهى إحدى حجب الله تعالى، يدل عليه: ماروينا عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال: «حجابه النار لو كشفها =

وقوله ﴿إِنِّي آنَسْتُ﴾ هناك كلمتان متقابلتان «آنست» «وتوجست» فمعنى «آنست» أى: شعر بشئ يؤنس به، ويُفرح، ويطمئن. و«توجست» أى: شعرت بشئ يخيف؛ ولذلك يقولون توجست شرا، والقرآن يقول: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨)﴾ [طه] فمرة أنس، ومرة توجس. فالأنس: شعور بشئ مؤنس مفرح، والتوجس: شعور بشئ مخيف، ومتعب[1].

= لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1].

وفى القصة أن موسى أخذ شيئاً من الحشيش اليابس وقصد الشجرة وكان كلما دنا نأت منه النار، وإذا نأى دنت، فوقف متحيراً، وسمع تسبيح الملائكة، وألقيت عليه السكينة. [تفسير البغوى: ٥/ ٢٦٥، ٢٦٦]

(١) الإنس خلاف الجن، والإنس خلاف النفور، والإنسى منسوب إلى الإنس، يقال ذلك لمن كثر أنسه ولكل ما يؤنس به ولهذا قيل إنسى الدابة للجانب الذى يلى الراكب. =

---

(١) عن أبى موسى الأشعرى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام. يخفض القسط ويرفعه. يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل. حجابه النور. [وفى رواية، أبى بكر: النار] «لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» أخرجه مسلم [١٧٩/ ٢٩٣].

ومعنى «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» السبحات جمع سبحة. قال صاحب العين والهروى وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين: معنى سبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه. أما الحجاب فأصله فى اللغه: المنع والستر. وحقيقة الحجاب إنما تكون للأجسام المحدودة، والله تعالى منزه عن الجسم والحد. والمراد هنا المانع من رؤيته. وسمى ذلك المانع نورا أو نارا لأنهما يمنعان من الإدراك فى العادة لشعاعهما. والمراد بالوجه الذات. والمراد بما انتهى إليه بصره من خلقه جميع المخلوقات. لأن بصره سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات. ولفظة (من) لبيان الجنس، لا للتبعيض. والتقدير: لو أزال المانع من رؤيته وهو الحجاب المسمى نورا أو نارًا، وتجلى لخلقه لأحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته. [محمد فؤاد عبد الباقى: صحيح مسلم]

نبى الله موسى لما أتى هذا المكان وهو فى دهشة من منظر النور الذى رآه ﴿نُودِىَ يَا مُوسَىٰ﴾ ،وهذا معناه أن الذى يناديه يعرفه جيدا، ومادام يعرفه جيدا ، فلعله اطمأن حينما سمع من يناديه باسمه، مع أنه أخذ يبحث عن مصدر النداء فلم يعرف.

بعد ذلك قال له الحق سبحانه ﴿إِنِّى أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢] فحينما سمع موسى ذلك لم يتعجب مما رأى من النور والخضرة الذى لم يطغَ أحدهما على الآخر ، ولم يتعجب من سماع الكلام دون أن يرى من يكلمه، لأن هذا شئ من عند الله تعالى، ولا يقاس بأحداث البشر، فاطمأن على أنه فى حضرة ربه الأعلى سبحانه وتعالى .وساعة يتكلم الحق عن ذاته

= وإنسى القوس للجانب الذى يقبل على الرامى. والإنسى من كل شىء ما يلى الإنسان والوحشى ما يلى الجانب الآخر له، وجمع الإنس أناسى قال الله تعالى: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ [الفرقان:٤٩] وقيل ابن إنسك للنفس، وقوله عز وجل: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْداً﴾ [النساء:٦] أى أبصرتم أنسًا به، وآنست ناراً. وقوله ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا﴾ [النور:٢٧] أى تجدوا إيناسا. والإنسان قيل سمى بذلك لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بإنس بعضهم ببعض ولهذا قيل الإنسان مدنى بالطبع من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه، وقيل سمى بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه، وقيل هو إفعلان وأصله إنسيان سمى بذلك لأنه عهد إليه فنسى. [مفردات ألفاظ القرآن: ٢٤]

وقال ابن منظور: أوجس القلب فزعاً: أحس به. وفى التنزيل العزيز: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات: ٢٨] قال أبو إسحق: معناه فأضمر منهم خوفاً، وكذلك التوجس وقال فى موضع آخر: معنى أوجس وقع فى نفسه الخوف الليث ،: الوجس فزعة القلب. والوجس: الفزع يقع فى القلب أو فى السمع من صوت أو غير ذلك. والتوجس: التسمع إلى الصوت الخفى، قال ذو الرمة يصف صائداً:

إذا توجس ركزاً من سنابكها ... أو كان صاحب أرض أو به الموم

وأوجست الأذن وتوجست: سمعت حساً. [لسان العرب: ٦/٢٥٣]

سبحانه يأتى بالضمير المفرد: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ لكن ساعة يتحدث عن فعله سبحانه يأتى بضمير الجمع مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] .

إذن حينما يكون الحديث عن الذات يفرد، لكن حينما يكون الحديث عن الفعل يرد جمعًا، ولكن «نون الجمع» مثل ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ تسمى نون العظمة، لكن فى الذات قال: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص:٣٠] ولم يقل: إننا نحن الله، ففى الذات توحيد، وفى الصفات جمع كبير من الصفات وكل صفة لها مجالها.

وكلمة ربك فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ تفيد الإيناس، لأن كلمة الله مطلوبها عبادة وتكليف لأن الله مطاع فيما يأمر، لكن الرب «عَطَّاء» [1]حتى للكافر، فخاطبه بصفة الرب الذى يتولى التربية، فخلقه من عدم، وأمره من عدم، فالألوهية تطلب منك أن تفعل، وتقيد حركتك، بينما الربوبية كلها عطاء فالحق سبحانه خاطب موسى عليه السلام بالربوبية والعطاء فقال: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ لم يقل إننى الرب المطلق ولكن قال له أنا ربك أنت، وذلك لأن الرسل لهم تربية خاصة تختلف عن باقى الخلق جميعا ؛

(١) يقول صاحب اللسان : العطاء والعطيّة ، اسم لما يُعطى ، والجمع عطايا وأعطية ، وأعطيات جمع الجمع . . . ويقال : إنه لجزيل العطاء ، وهو اسم جامع ، فإذا أُفرِد قيل العطية ، وجمعها العطايا وأما الأعطية فهو جمع العطاء . . . ورجل معطاء : كثير العطاء ، والجمع معاطٍ . قال الجوهرى : ورجل معطاءٌ كذلك و ومفعالٌ يستوى فيه المذكر والمؤنث . [لسان العرب : ١٥/ ٦٩]
أما « عطّاء» فهى أيضًا صيغة مبالغة ، مثل معطاء ، ولكنها هنا - على وزن «فعّال».

ولذلك قال له فى آية أخرى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى ﴾ وقال أيضًا : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه: ٤١] فهو سبحانه يعطيك من التربية بما يناسب مهمتك عنده.

وأول أمر وجهه الحق سبحانه لموسى فى هذا الموقف أن يخلع نعليه، وعلّة ذلك أنه بالوادى المقدس الذى اسمه «طوى» (١) . وفى آية أخرى

---

(١) قال الجوهرى: طوى اسم موضع بالشام، تكسر طاؤه وتضم ويصرف ولا يصرف، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة، ومن لم يصرفه جعله اسم بلدة وبقعة وجعله معرفة؛ قال ابن برى: إذا كان طوى اسماً للوادى فهو علم له، وإذا كان اسماً علماً فليس يصح تنكيره لتباينهما، فمن صرفه جعله اسماً للمكان، ومن لم يصرفه جعله اسماً للبقعة قال: وإذا كان طُوى وطِوى، وهو الشىء المطوى مرتين، فهو صفة بمنزلة ثُنى وثِنى، وليس بعلم لشىء، وهو مصروف لا غير كما قال الشاعر:

أفى جنب بكر قطعتنى ملامة؟ لعمرى ! لقد كانت ملامتها ثِنى

وقال عدى بن زيد:

أعاذل، إن اللوم فى غير كنهه علىّ طوى من غيِّك المتردد

ورأيت فى حاشية نسخة من أمالى ابن برى: إن الذى فى شعر عدى: على ثنى من غيك. ابن سيده: وطوى وطوى جبل بالشام، وقيل: هو واد فى أصل الطور. وفى التنزيل العزيز ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ؛ قال أبو إسحق: طوى اسم الوادى، ويجوز فيه أربعة أوجه: طوى، بضم الطاء بغير تنوين وبتنوين، فمن نونه فهو اسم للوادى أو الجبل، وهو مذكر سمى بمذكر على فعل نحو حطم وصرد، ومن لم ينونه ترك صرفه من جهتين: إحداهما أن يكون معدولاً عن طاو فيصير مثل عمر المعدول عن عامر فلا ينصرف كما لا ينصرف عمر، والجهة الأخرى أن يكون اسماً للبقعة كما قال فى البقعة المباركة من الشجرة، وإذا كسر فنوّن فهو طوى مثل مِعًى وضلع، مصروف، ومن لم ينون جعله اسماً للبقعة، قال: ومن قرأ طوى، بالكسر، فعلى معنى المقدسة مرة بعد مرة كما قال طرفة، وأنشد بيت عدى بن زيد المذكور آنفاً، وقال: أراد اللوم المكرر علىَّ. وسئل المبرد عن واد يقال له طوى: أتصرفه؟قال: نعم=

يقول: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص:٣٠] وهذا ليس تكرارا فى القرآن، ولكن كل آية تعطى لقطة، فلو جمعنا اللقطات تعطينا القصة كاملة فالوادى المقدس اسمه: «طوى»، وفى الآية الثانية حدد المكان أكثر وبين أنه فى: ﴿شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾. فهذا تحديد للمكان ولكن لماذا أمره بخلع نعليه ؟ قالوا لأنـه مادام واديـا مقدسا لا يصح أن تفصل جسمك بشئ يفصلك عن هذا الوادى مع أنه يمكنك أن تصلى فى نعلك مادام طاهرا ولكن هنا الوادى مقدس أى مطهر [(١)] ولذلك بعض الناس

= لأن إحدى العلتين قد انخرمت عنه. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ويعقوب الحضرمى: طوى وأنا وطوى اذهب، غير مجرى، وقرأ الكسائى وعاصم وحمزة وابن عامر: طوى، منوناً فى السورتين. وقال بعضهم طوى مثل طوى، وهو الشىء المثنى. وقالوا فى قوله تعالى: ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]؛ أى طوى مرتين أى قدس، وقال الحسن: ثنيت فيه البركة والتقديس مرتين.

[لسان العرب: ١٥/ ٢٠-٢١]

(١) قال ابن جرير: واختلف أهل العلم فى السبب الذى من أجله أمر الله موسى بخلع نعليه، فقال بعضهم: أمره بذلك، لأنهما كانتا من جلد حمار ميت، فكره أن يطأ بهما الوادى المقدس، وأراد أن يمسه من بركة الوادى.

وقال آخرون: كانتا من جلد بقر، ولكن الله أراد أن يطأ موسى الأرض بقدميه، لتصل إليه بركتها.

وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال: أمره الله تعالى ذكره بخلع نعليه ليباشر بقدميه بركة الوادى، إذ كان واديًا مقدسا.

وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب؛ لأنه لا دلالة فى ظاهر التنزيل على أنه أمر بخلعهما من أجل أنهما من جلد حمار ولا لنجاستهما، ولا خبر بذلك عمن يلزم بقوله الحجة، وإن فى قوله ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢] بعقبه دليلا واضحا، على أنه إنما أمره بخلعهما لما ذكرنا. [تفسير الطبرى: ١٦/ ١٤٣، ١٤٤]=

كانـوا يمشون حـفاة فـى المدينة المنورة لعلهم يصادفوا موطئا لقـدم الرسول ﷺ[1].

ثم أخبره أنه اختاره لمهمة فقال تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣] فالله تعالى اختاره، وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته؛ ولذلك حين نزل القرآن على رسول الله ﷺ نظر الكفار إلى القرآن فلم يجدوا فيه عيبا، فلا عيب فيما يدعو إليه من مُثل وأخلاق فاضلة، ولا عيب فى أسلوبه، وهم أمة الأسلوب والفصاحة، فحينما لم يجدوا فيه عيبا قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2] [الزخرف: ٣١] فهم لا يشكّون فى القرآن ولكنهم يحسدون محمداً

= وقال الشوكانى: أمره الله سبحانه بخلع نعليه؛ لأن ذلك أبلغ فى التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم وحسن التأدب. وقيل: إنهما كانا من جلد حمار غير مدبوغ. وقيل: معنى الخلع للنعلين: تفريغ القلب من الأهل والمال، وهو من بدع التفاسير. [فتح القدير: ٣/ ٣٦٠]

(١) عن عاصم الأحول عمن حدثه قال: « كان ابن عمر إذا رآه أحد ظن أن به شيًا من تتبعه آثار النبى ﷺ » . أخرجه أبو نعيم فى الحلية [١/ ٣١٠] واللفظ له وابن سعد فى الطبقات الكبرى [٤/ ١٤٤] .

وعن نافع قال: « لو نظرت إلى ابن عمر رضى الله تعالى عنه إذا أتبع أثر النبى ﷺ لقلت هذا مجنون» ، أخرجه أبو نعيم فى الحلية [١/ ٣١٠] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: « ما كان أحد يتبّع آثار النبى ﷺ فى منازله كما كان يتبعّه ابن عمر » أخرجه ابن سعد فى الطبقات الكبرى [٤/ ١٤٥] واللفظ له، واللالكائى فى أصول الاعتقاد [٧/ ١٣٣٧/ رقم ٢٥٤٧] بلفظ: « ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من عبد الله بن عمر » .

وانظر ترجمة ابن عمر فى سير أعلام النبلاء [٣/ ٢٧٣] .

(٢) الوليد بن المغيرة، قال: أينزل على محمد وأُترك، وأنا كبير قريش وسيدها؟ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف؟ فنحن عظيما القريتين ، فأنزل الله =

أن نزل عليه هذا الكتاب، مع أن هذا أمر لا دخل لهم به لأن الله تعالى يصطفى من خلقه ما يشاء لما يشاء ولا دخل حتى للمصطفى فيها فالاختيار من الله تعالى .

وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾(1) لم يقل له: «اسمع» لأن

= تعالى فيه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]
[السيرة لابن هشام: ١/ ٤٥٣]

(١) قال الرازى فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ۞ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ قرأ حمزة ﴿وَأَنَّا اخْتَرْنَاكَ﴾ ، وقرأ أبى بن كعب ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ وها هنا مسائل .

المسألة الأولى: معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذى خصصتك به وهذه الآية تدل على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق لأن قوله ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ يدل على أن ذلك المنصب العلى إنما حصل لأن الله تعالى اختاره له ابتداء لا أنه استحقه على الله تعالى.

المسألة الثانية: قوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه فقوله ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله ﴿فَاسْتَمِعْ﴾ يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الأول نهاية الرجاء ومن الثانى نهاية الخوف.
[التفسير الكبير: ٢٢/ ١٩]

وقال البقاعى: فى قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ أى للنبوة ﴿فَاسْتَمِعْ﴾ أى أنصت ملقيا سمعك معملا قلبك للسماع ﴿لما﴾ أى اخترتك للذى، وقدم استمع اهتماما به ﴿يُوحَىٰ﴾ أى يقال لك منى سرا مستورا عن غيرك سماعه وإن كان فى غاية الجهر، كما يفعل الحبيب مع حبيبه من صيانة حديثهما عن ثالث بما يجعل له من الخلوة إعلاما بعلو قدره وفخامة أمره. [نظم الدرر: ١٢/ ٢٧٦، ٢٧٧]

الإنسان يسمع ما يهمه وما لا يهمه؛ لأن الأذن ليست كالعين يمكن إغلاقها عن الشئ الذى لا تحب أن تسمعه، ولكن «استمع» معناها: أن تتكلف السماع. إذن هناك سمع وهذه ليس لك فيها خيار، واستمع: تكلف أن يسمع؛ ولكن تسَمَّع أى طلب السماع وأرهف أذنه من أجله؛ ولذلك فلأن الدين من عند الله ، والله يعلم أنه ستعمّ بلوى وتعمّ أجهزة فى حياة الناس، فمثلا أنا لا أحب أن أسمع الغناء تجدنى فى الشارع مضطراً لسماعه؛ لأنه ينبعث من أجهزة عالية الصوت منتشرة فى الشوارع والمحلات ؛ لذلك تجد الرسول ﷺ فيما يُروى عنه لا يقول من سمع أومن استمع ولكن يقول: «من تسمّع إلى قينة» (١) ؛لأنه تكلف السماع ففتح الراديو أو التليفزيون على المحطة أو القناة التى تغنى فيها فلانة أو فلان فهو مسئول عن ذلك بعكس الذى يسير فى الشارع ويسمع هذه الأشياء بدون رغبته(٢).

---

(١) ذكره الألبانى فى ضعيف الجامع [٥٤١٠] بلفظ: «من استمع قينة صُبّ فى أذنيه الآنك يوم القيامة». وقال: موضوع، وعزاه لابن عساكر عن أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٢) قال ابن القيم: ومن مكايد عدو الله ومصايده، التى كاد بها من قلّ نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين، سماع المكاء، والتصدية، والغناء بالآلات المحرمة، الذى يصد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنا، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى، كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحسنه لها مكراً منه وغروراً، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجوراً، فلو رأيتهم عند ذياك السماع وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان، وتكسّروا فى حركاتهم ورقصهم ، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان ؟ ويحق لهم ذلك، وقد خالط خماره =

= النفوس، ففعل فيها أعظم ما تفعله حميا الكؤوس، فلغير الله،بل للشيطان، قلوب هناك تمزق، وأثواب تشقق، وأموال في غير طاعة الله تنفق، حتى إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيله، وأجلب عليهم برجله وخيله، وخز في صدورهم وخزاً، وأزّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزاً، فطوراً يجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة كالذباب ترقص وُسيط الديار، فيا رحمتا للسقوف والأرض من دكّ تلك الأقدام، ويا سوأتاه من أشباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام، بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وجداً، ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زنداً، حتى إذا تلي عليه قرآن الشيطان، و ولج مزمور سمعه، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت، فيا أيها الفاتن المفتون، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون، هلا كانت هذه الأشجان، عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد، عند قراءة القرآن المجيد؟ وهذه الأحوال السنيات، عند تلاوة السور والآيات؟ ولكن كل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله، والجنسية علة الضم قدراً وشرعاً، والمشاكلة سبب الميل عقلاً وطبعاً، فمن أين هذا الإخاء والنسب؟ لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب، ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللاً ؟ ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠]

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي في خطبة كتابه، في تحريم السماع: الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ونسأله أن يرينا الحق حقاً فنتبعه، والباطل باطلاً فنجتنبه. وقد كان الناس فيما مضى يستتر أحدهم بالمعصية إذا واقعها، ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها، ثم كثر الجهل، وقل العلم، وتناقص الأمر، حتى صار أحدهم يأتي المعصية جهاراً، ثم ازداد الأمر إدباراً، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين - وفقنا الله وإياهم - استزلهم الشيطان ، واستغوى =

= عقولهم فى حب الأغانى واللهو، وسماع الطقطقة والنقير،واعتقدته من الدين الذى يقربهم إلى الله وجاهرت به جماعة المسلمين وشاقّت سبيل المؤمنين، وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين، ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ [النساء: ١١٥] فرأيت أن أوضح الحق، وأكشف عن شبه أهل الباطل، بالحجج التى تضمنها كتاب الله، وسنة رسوله، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم فى أقاصى الأرض ودانيها، حتى تعلم هذه الطائفة أنها قد خالفت علماء المسلمين فى بدعتها. والله ولى التوفيق.

ثم قال: أما مالك فإنه نهى عن الغناء، وعن استماعه، وقال: «إذا اشترى جارية فوجدها مغنية فله أن يردها بالعيب». وسئل مالك رحمه الله: عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء؟ فقال: «إنما يفعله عندنا الفساق».

قال: وأما أبو حنيفة: فإنه يكره الغناء، ويجعله من الذنوب، وكذلك مذهب أهل الكوفة: سفيان، وحماد، وإبراهيم، والشعبى، وغيرهم، لا اختلاف بينهم فى ذلك، ولا نعلم خلافاً أيضاً بين أهل البصرة فى المنع منه.

وأما الشافعى: فقال فى كتاب «أدب القضاء»: «إن الغناء لهو مكروه، يشبه الباطل والمحال. ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته».

وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه، وأنكروا على من نسب إليه حله، كالقاضى أبى الطيب الطبرى ، والشيخ أبى إسحاق ، وابن الصباغ . قال الشيخ أبو إسحاق فى « التنبيه » : ولا تصح الإجارة على منفعة محرمة كالغناء، والزمر، وحمل الخمر، ولم يذكر فيه خلافاً.

وقد تواتر عن الشافعى أنه قال: «خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة، يسمونه التغبير، يصدون به الناس عن القرآن».

قال سفيان بن عيينة: «كان يقال: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون» (١). ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين. =

(١) انظر « قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة » ص [٥٣] .

ومعنى﴿ فَاسْتَمِعْ ﴾ أى هيئ كل جوارحك لأن تسمع، لأن الأحاسيس مختلفة. هناك أذن تسمع، وهناك عين تبصر ، وأنف يشم، ولسان يتكلم، ويد تلمس ﴿ فَاسْتَمِعْ ﴾ أى جنِّد كل جوارحك وأعضائك للسماع واستحضر قلبك ونفذ المطلوب الذى ستسمعه.

وكلمة: ﴿ يُوحَىٰ ﴾ أى يأتيك عن طريق الوحى. إذن الوحى الذى هو إعلام بخفاء ؟؟ بخير أو شر، معناه فى الشرع: هو إعلام من الله إلى رسول أرسله بمنهج سماوى . والحق سبحانه لا يكلّم بشرا إلا عن طريق الوحى. لأن البشرية فى دنوها والألوهية فى علوها لا يمكن بحال أن تتلقى الأولى عن الثانية؛ لذلك يجعل الحق سبحانه وسائط ، فيصطفى من الملائكة رسلاً لحمل الوحى، والمَلَك المصطفى لا ينزل على أى بشر بل ينزل على بشر اصطفاه الله لهذا الأمر. فالمصطفى من الملائكة يتلقى من الله ويبلغ للمصطفى من البشر، لذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١]

ولذلك ربنا سبحانه وتعالى حينما تجلى للجبل جعله دكًا قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾(١) [الأعراف: ١٤٣] فإذا

= وأما مذهب الإمام أحمد؛ فقال عبد الله ابنه: «سألت أبى عن الغناء؟ فقال: الغناء ينبت النفاق فى القلب، لا يعجبنى» ثم ذكر قول مالك: «إنما يفعله عندنا الفساق».
قال عبد الله: «وسمعت أبى يقول: سمعت يحيى القطان يقول: لو أن رجلاً عمل بكل رخصة، بقول أهل الكوفة فى النبيذ، وأهل المدينة فى السماع، وأهل مكة فى المتعة، لكان فاسقاً». [إغاثة اللهفان: ١/ ٢٥٤ - ٢٦٠] بتصرف.

(١) عن أنس: «أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال حماد: هكذا وأمسك سليمان بطرف إبهامه على أنملة إصبعه اليمنى، وقال: فساخ الجبل ﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾. أخرجه الترمذى [٣٠٧٤] وقال: حديث حسن غريب=

كان موسى صعق من رؤية المتجلى عليه فكيف لو رأى المتجلِّى سبحانه؟ إذن ربنا لا يكلم أحداً ولا يراه أحد أبدا فى الدنيا وهذه عظمته سبحانه، فلو أحسه الناس بأية حاسة ما استحق أن يكون إلها؛ لأن من خلقه سبحانه ما لا يُحَسُ مثل الروح التى إذا خرجت من الجسد يموت ويتعفن، فهل علمت أين كانت الروح فيه؟ هل شممتها أو أبصرتها أو سمعتها أو لمستها؟ لا،إذن الروح وهى مخلوقة لله لم تستطع أن تدركها بأية حاسة من حواسك، فإذا كانت الروح المخلوقة لم تستطع أن تدركها فكيف تدرك خالقها؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا. فمن عظمته تعالى أنه لا يُرى، ولا يُحس، كثير من الناس يتمسحون بالحق ويقول لك الواحد منهم أنا أعرف الحق وأقول كلمة الحق ولكن إذا سألته ما شكل الحق أو لونه؟ لا يعرف! كذلك العدل معنى من المعانى، فإذا كانت هناك مخلوقات لله لا يمكن للعقل أن يدركها، ولا للحواس أن تحسها فكيف تدرك خالقها؟ إذن من عظمته سبحانه وتعالى أنه لا يُدرَك (١).

= صحيح، واللفظ له، وأحمد فى المسند [٣/ ١٢٥] والحاكم فى المستدرك [١/ ٢٥، ٢/ ٣٢١] وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٥٨].

(١) قال الشيخ الحكمى:

وأنــه يـرى بـلا إنـكـار	فى جنة الفردوس بالأبصار
كـل يـراه رؤيـة العيـان	كما أتى فى محكم القرآن
وفـى حـديث سيد الأنام	من غير ما شك ولا إيهام
رؤيـة حـق ليس يمترونها	كالشمس صحوا لاسحاب دونها
وخـص بالـرؤية أولـياءه	فضيلـة وحجـبوا أعداءه

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾[القيامة] وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] وقال تعالى فى شأن =

= الكفار: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]. فإذا حجب أولياؤه فأى فضيلة لهم على أعدائه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) ﴾ [المطففين]. وهذه الآيات صريحة الدلالة على رؤية المؤمنين ربهم تبارك وتعالى لا تقبل تحريفاً، ولا تأويلاً ولا يردها إلا مكابر، قد ختم الله على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله. [معارج القبول: ١/ ٣٠٥، ٣٠٦]

وقد وردت أحاديث كثيرة فى رؤية المؤمنين ربهم عز وجل، نورد بعضاً منها:

عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوساً عند النبى ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، قال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون فى رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وصلاةٍ قبل غروب الشمس فافعلوا». أخرجه البخارى [٧٤٣٤]

وعن جرير بن عبد الله قال: قال النبى ﷺ : «إنكم سترون ربكم عياناً». أخرجه البخارى [٧٤٣٥]

وعن عبد الله بن قيس أن رسول الله ﷺ قال: «جنَّتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنَّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرْ على وجهه فى جنة عدن». أخرجه البخارى [٤٨٧٨، ٤٨٨٠، ٧٤٤٤]. واللفظ له، ومسلم [١٨٠]

وعن صهيب عن النبى ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب. فما أعطوا شيئاً أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل». أخرجه مسلم [١٨١/ ٢٩٧] واللفظ له، والترمذى [٢٥٥٢]، وابن ماجة [١٨٧].

وعن أبى هريرة أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : «هل تضارّون فى القمر ليلة البدر»؟ قالوا: لا يا رسول الله قال: «فهل تضارّون فى الشمس ليس دونها سحاب» ؟ قالوا: لا ، يا رسول الله قال: =

= «فإنكم ترونه كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها شافعوها أو منافقوها» شكّ إبراهيم «فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فى صورته التى يعرفون فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه ويضرب السراط بين ظهرى جهنم، فأكون أنا وأمتى أول من يجيزها، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ، اللهم سلّم سلّم؛ وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان»؟ قالوا: نعم يا رسول الله قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بقى بعمله ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه، ثم يتجلّى حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار، من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله فيعرفونهم فى النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحبة فى حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار هو آخر أهل النار دخولاً الجنة، فيقول: أى رب اصرف وجهى عن النار فإنه قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه ثم يقول الله هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألنى غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره، ويعطى ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه عن النار فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أى رب قدمنى إلى باب الجنة فيقول الله له: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسألنى غير الذى أعطيت أبداً؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك فيقول: أى رب ويدعو الله حتى يقول: هل عسيت أن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك لا أسألك غيره ويعطى ما شاء من عهود ومواثيق فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام إلى باب الجنة انفهقت له الجنة فرأى ما فيها من الحبرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول: أى رب أدخلنى الجنة فيقول الله: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت؟ فيقول: ويلك يا ابن آدم ما أغدرك فيقال: أى رب لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا =

= ضحك منه قال له: ادخل الجنة فإذا دخلها قال الله له: تمنه فسأل ربه وتمنى حتى إن الله ليذكره يقول: كذا وكذا حتى انقطعت به الأماني قال الله ذلك لك ومثله معه» أخرجه البخاري [٧٤٣٧] واللفظ له، ومسلم [١٨٢]

وعن أبي الزبير؛ أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن الورود. فقال: نجئ نحن يوم القيامة عن كذا وكذا انظر أي ذلك فوق الناس. قال: فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد. الأول فالأول. ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول: من تنظرون؟ فيقولون: ننظر ربنا. فيقول: أنا ربكم. فيقولون: حتى ننظر إليك. فيتجلى لهم يضحك. قال: فينطلق بهم ويتبعونه. ويعطى كل إنسان منهم، منافق أو مؤمن، نورا. ثم يتبعونه. وعلى جسر جهنم كلاليب وحسك. تأخذ من شاء الله.ثم يطفأ نور المنافقين . ثم ينجو المؤمنون.فتنجو أول زمرة وجوههم كالقمر ليلة البدر.سبعون ألفًا لا يحاسبون.ثم الذين يلونهم كأضوأ نجم في السماء. ثم كذلك.ثم تحل الشفاعة ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة. فيجعلون بفناء الجنة. ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء حتى ينبتوا نبات الشيء في السيل. ويذهب حراقه. ثم يسأل حتى تجعل له الدنيا وعشرة أمثالها معها. أخرجه مسلم [١٩١/ ٣١٦].

قال : ابن قدامة الحنبلي :

والمؤمنون يرون الله تعالى في الآخرة بأبصارهم ، ويزورونه ، ويكلمونه ، قال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] ، وقال: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥] . فلما حجب أولئك في حال السخط ، دل على أن المؤمنين يرونه في حال الرضى ، وإلا لم يكن بينهما فرق . وقال النبي ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته (١) . حديث صحيح متفق عليه . وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية ، لا للمرئي بالمرئي ، فإن الله تعالى لا شبيه له ولا نظير .

عن عليه ابن عبدالله الجبرين :

اتفق السلف وأهل السنة من الخلف على إثبات رؤية الله تعالى رؤية حقيقية عيانًا بالأبصار ، مع تنزيه الرب تعالى عن مشابهة الخلق في شيء من خصائصهم وصفاتهم . =

(١) أخرجه البخاري [٥٥٤] .

. . . .

= وهذه الرؤية تكون فى يوم القيامة ، وفى الجنة كما يشاء الرب سبحانه .

وتكون فى الموقف للمؤمنين ومن معهم ممن يظهر الإيمان ، ففى حديث أبى سعيد المتفق عليه يقول عليه السلام : « هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر » . قالوا : لا . قال : « فإنكم ترون ربكم كذلك » . ثم ذكر أنه يتبع كل أحد ما يعبده ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها ، فيأتيهم الله فيقول : ما تنظرون ؟ فيقولون : ننتظر ربنا ، فيقول : أنا ربكم فإذا رأوه خروا سجدًا ، ثم ذكر أن المنافق الذى كان يسجد رياء ، يستطيع السجود . وقد ذكر هذا فى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم: ٤٢] . وتكون الرؤية فى الجنة خاصة بالمؤمنين ، فمنهم ينظر إلى الله تعالى بكرة وعشيًا ، ومنهم من يزوره ويراه فى مثل يوم الجمعة ، ويسمى يوم المزيد ، فالرؤية من أعلى نعيم أهل الجنة ، فلهذا عوقب الكفار بالحجاب عن ربهم .

ثم هى رؤية بالأبصار حقيقة ، كما نطقت بذلك السنة ، وأوضحه القرآن .

وقد ذكر المؤلف عليه أدلة كافية - ففى الآية الأولى : وصف الوجوه السعيدة بالنضارة ، وهى البهاء والجمال ، ثم صرح بأنها تنظر إلى ربها ، وأضاف النظر إلى الوجوه لأنها محل الأعين ، وفى الآية الثانية : ذكر أن الكفار محجوبون عن ربهم. فلما حجب هؤلاء فى الغضب ، أفاد أن الأبرار ينظرون إلى الله فى الرضى ، فلو كان المؤمنون لا يرونه لكانوا محجوبين أيضًا عن ربهم .

وأما الأحاديث فى إثبات الرؤية فكثيرة جدًا ، استوفاها ابن القيم رحمه الله تعالى فى حادى الأرواح وغيره ، وأشهرها حديث جرير المذكور : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » وهذا تشبيه للرؤية بالرؤية ، أى : أنها حقيقة لا التباس فيها ولا توهم ، كما أنهم لا يشكون فى رؤية القمر .

لا تضامون ، أى : لا يلحقكم ضيم ، وهو الضرر والمشقة ، وروى بفتح التاء وتشديد الميم ، أى لا ينضم بعضكم إلى بعض حالة الرؤية ، والأول أشهر .

والمنكرون للرؤية هم الجهمية ، ومن قلدهم كالمعتزلة ، وبعض المرجئة ، قالوا : إن إثباتها يستلزم التشبيه ، وإثبات الجهة ، وذلك من شأن المحدثات والمركبات ، ثم تكلفوا فى رد دلالة النصوص بما يشهد العقل ببطلانه ، فأهل السنة يثبتون جهة العلو لله كما سبق ، ولا يلزم منها الحدوث والتجدد لشيء من صفات الله تعالى ؛ أما أدلتهم النقلية فأقواها قوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] . يجاب =

ثم يقول سبحانه ﴿إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى﴾ [طه:١٤] أى: أنا الله صاحب الأمر والنهى . لماذا قال الله له ذلك؟ لأنه سيكلفه والتكاليف دائما شاقة على النفس، فعطاء الألوهية تكليف بينما عطاء الربوبية نعم وخيرات ينهل منها العبد فى الدنيا، وكلمة «لا إله إلا الله» هى المنتهى وهى الينبوع الذى يصدر عنه كل السلوك الإيمانى وهى كلمة التوحيد التى قال عنها الرسول ﷺ: «خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله» (١) ومادام لا إله إلا هو سبحانه ، فلا يصح أن نتلقى عن أحد غيره ولا نعتمد إلا عليه ولا نشغل بالنا إلا بذكره سبحانه.

ولذلك يريد الحق سبحانه وتعالى من خلقه أن يكونوا عقلاء فيقول تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨] فإن كنت عاقلاً فلا تتوكل على أحد غير الله، لأن الذى تتوكل عليه قد يموت، ويتركك فى أية لحظة ،فتوكل على الحى الذى لا يموت والشاعر يقول:

= عنها بأن الرؤية أخص من الإدراك ، فالمعنى لا تحيط به ، إذا رأته لعجزها عن إدراك كنهه، فتكون الآية دليلاً على الإثبات ، واستدلوا بقوله تعالى لموسى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ لما قال : ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ . فيقال : إنه لا يظن بموسى عليه السلام أن يسأل مالا يجوز على الله ، فهو لما سأل الرؤية منعه ، لضعف البشر فى الدنيا عن الثبوت لذلك ، ولهذا لما تجلى الله تعالى للجبل اندك ، وروى أنه غار فى الأرض ، ففى الآخرة يمد الله عباده بقوة يقدرون معها على رؤية ربهم .

[التعليقات على لمعة الاعتقاد : ١١٠-١١٣]

(١) عن طلحة بن عبيد الله بن كريز قال: إن رسول الله ﷺ قال: أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له». أخرجه مالك فى الموطأ [٦١].

اجعل بربك كل عزك يستقر ويثبتُ   فإذا اعتززتَ بمن يموتُ فإن عزّك ميّتُ

وكلمة: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ معناها أنك لن تتلقى أوامر من أحد غيرى، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢] أى لو كان هناك آلهة مع الله ، كان لابد أن يبحثوا عنه ؛ ليقاوموه أو ليتودّدوا إليه حتى يعطيهم جزءا من الكون، ولكن لم تحدث لا هذه ولا تلك. فليس فى الكون إله غيره سبحانه ، وعلى ذلك فلا تتلقى أوامرك إلا منه سبحانه. . لماذا؟ لأنه يُشترط فيمن يعطى الأوامر أن يأخذ المأمور أوامره منه ، وهو على ثقة أن الآمر لا ينتفع بشئ منه،لكن لو قال لك اعمل كذا وأحسست أنه سينتفع من هذا العمل فإن هواه سيتدخل،لكن ربنا لن ينتفع بشئ من عبادتنا،أو طاعتنا ؛ لأن كل هذه الأوامر والتكاليف لمصلحتنا نحن ؛ لأن الله له صفات الكمال قبل أن يخلق الخلق فليس فى حاجة إلى أحد، ولذلك يختلف قانون الله عن قوانين البشر ؛ لأن فى تقنين البشر قد يدخل الهوى فى المقنن ، فإن كان من العمال يميزهم عن «الرأسمالية» (1)، وأن كان رأسماليا يحدث العكس؛ لأنه بشر وله أهواء وبعد ذلك يكتشف الناس أن القانون أصبح قاصرًا أو غير صالح لمسايرة حركة المجتمع فيقومون بتعديله.

إذن يشترط فى المشرِّع ألا ينتفع بما يشرع، وهذه لا توجد إلا عند الله تعالى إذن فقوله تعالى:﴿فَاعْبُدْنِى﴾ أى: أطع أوامرى، واجتنب النواهى؛ لأنه ليس لى مصلحة فى ذلك ولكنها مصلحتك أنت.

---

(١) وعن « الرأسمالية » يقول المعجم الفلسفى لمجمع اللغة العربية :

رأسمالية : .Capita;isme (F) Capitalism (E)

نظام اقتصادى أساسه أن تكون وسائل الإنتاج ملكا لغير من يعملون فيه ، ومن أهم خصائصه التنافس الحر لتحقيق أكبر ربح ممكن .   [المعجم الفلسفى : ٩٠]

وقلنا إن الناس يظنون أن العبادة هى الصلاة والصوم والزكاة والحج، وهذا خطأ؛ لأن العبادة هى كل حركة فى الكون تؤدى إلى واجب (١). فالإنسان حين يريد أن يصلى لابد أن يستر عورته، وستر العورة يحتاج إلى قماش تصنع منه ثوبا يستر العورة فتأتى بالقماش من التاجر الذى يبيع القماش، وهذا التاجر جاء بالقماش من المنسج أو مصنع النسيج، والمصنع أخذ خيوط القماش من مصانع الغزل، ومصانع الغزل أخذت القطن من المحالج، والمحالج أخذته من الفلاحين الذين يزرعون القطن، والفلاحون هم الذين زرعوا بذور القطن وتعهدوها بالماء والحرث والسماد حتى نضجت وصارت قطنا جمعوه ووضعوه فى أكياس، وأرسلوه إلى المحلج وهذه البذور قبل زراعتها كشفت عليها معامل الأبحاث وعلماء الزراعة لاختيار أجود أنواع البذور التى تعطى كميات وفيرة وتيلة طويلة.. وهكذا فأنت لكى تستر عورتك احتجت إلى كل هذه العملية الطويلة وهذا المجهود لمئات وآلاف البشر، إذن كل عمل يتصل بالواجب فهو واجب.

---

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: العبادة هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة؛ وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه. وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه؛ وذلك أن العبادة لله هى الغاية المحبوبة له والمرضية له، التى خلق الخلق لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وبها أرسل جميع الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم.

[مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٠/١٤٩، ١٥٠]

لذلك الحق سبحانه وتعالى حين يدعو الناس لصلاة الجمعة يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩] فكأنه سبحانه أخرجهم من عمل وهو البيع والشراء فلم يكونوا عاطلين أو خاملين وقال: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ ولم يقل الشراء؛ لأن البيع فيه مكسب ، والنفس تحب أن تكسب المال وتحرص عليه، لكن المشترى إذا لم يجد السلعة عندك سيجدها عند غيرك، فالبيع أولى بالتنبيه على تركه عند النداء لصلاة الجمعة، والبائع عادة ما يبيع سلعة لمستهلك بعد أن اشتراها من منتج، والمنتجات أنواعها مختلفة؛ فقد تكون منتجات زراعية أو صناعية أوحيوانية. فالحق سبحانه أخرجنا من عمل لنذهب إلى الصلاة لنؤدى فرض الله علينا. وبعد ذلك إذا قضيت الصلاة أمرنا ربنا بالانتشار فى الأرض، وأن نبتغى من فضله فلا نتكاسل عن العمل ونظل فى المسجد كسالى وعاطلين؛ لأن الإسلام دين عمل ومخالفة الأمر فى ترك البيع والذهاب لأداء الصلاة مثل مخالفة الأمر فى السعى فى الأرض والابتغاء من فضل الله بعد أداء الصلاة، فهذا أمر وهذا أمر، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠] فكل حركة الحياة مأخوذة مع بعضها وكلها عبادة؛ ولذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما رأى رجلاً منقطعا للعبادة فى المسجد سأل عمن يقوم بالإنفاق عليه، فقالوا له: أخوه فلان، فقال: أخوه أعبَدُ منه. لأنه عمل عملا يسعُ غيره.

ونحن ذكرنا العملية الطويلة الخاصة بمجرد ستر العورة ولم نذكر الأشياء الأخرى مثل الذى يفتح (الحنفية) ليتوضأ ، بالطبع هو لم يفكر كيف وصله هذا الماء النقى فى مواسير و(حنفيات) فهذه إمكانات غنىّ تطوع،

وصانع جاء وأخذ يركب هذه الأدوات، وعلماء ومعامل تعمل فى تطوير (الحنفيات) وكيف تكون مُحكمة الإغلاق لا يتسرب منها الماء، وكيف يكون قطر الماسورة ووضع (الحنفيات) فى مكان منخفض عن الخزان.. وهكذا كل هذه السلسلة من الأعمال والفنيين من أجل أن تتوضأ فقط، فلا تحتقر أى عمل لأن كل الأعمال يخدم بعضها بعضا، لكن المهم نيّتك من هذا العمل. الكافر يعمل وفى نيته أن يرزق نفسه، فلو أن المؤمن كان مثله فماذا يكون الفرق بينهما؟ لا شئ ،ولكن المؤمن يعمل ليقوت نفسه وييسر لإخوانه شيئا، فلا تعمل لنفسك فقط ولكن اعمل لغيرك أيضا فمثلا سائق التاكسى الذى يرزقه الله فى الصباح فى ساعتين أو ثلاثة مثلاً فيكتفى بهذا الرزق ، ويركن السيارة باقى النهار،هذا الإنسان مخطئ لأنه يجب أن يعمل ليس على قدر حاجته وحاجة من يعول فقط وإنما يعمل على قدر طاقته مادام قادرا على العمل ويجعل من هذا العمل شيئا للفقراء والمرضى والمحتاجين الذين لا يقدرون على العمل فأنت حين تعمل اعمل وفى ذهنك غير القادر على العمل وبذلك يصبح العمل عبادة فتعمل على قدر طاقتك لا على قدر حاجتك ثم تأخذ حاجتك من ناتج الطاقة.. صحيح أنه بثمن ولكنك يسّرت السبيل للمستهلك.

إذن فالعبادة هى كل حركة تؤدى خدمة فى الكون بحيث تكون خالصة لله. الحق سبحانه وتعالى يقول لنبيّه موسى عليه السلام: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ ومع أن العبادة متعددة إلا أن الله تعالى خص الصلاة بالذات فى هذا الأمر الإلهى ومعنى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ إقامة الشئ أن تجعله قائما على أسس؛ أى تكون صلاة محكمة تامة الوضوء وسليمة الأركان، وقلنا إن الله تعالى خصّ الصلاة بهذه المنزلة لأنها هى العبادة التى لا تسقط عن صاحبها مادامت فيه حياة؛ لأن الإنسان لا يزكّى إلا إذا

كان عنده مال بلغ النصاب ومال عليهم الحول ولا يصوم إلا إذا كان صحيحًا غير مسافر ، ولا يحج إلا إذا كان مستطيعًا، لكن الصلاة ليس لها عذر يسقطها أبدا، تصلى قائما، فإن لم تستطع تصلى قاعدا، فإن لم تستطع تصلى مضطجعًا، فإن لم تستطع فأومئ برأسك، فإن لم تستطع فأومئ بعينيك، فإن لم تستطع فأخطرها على قلبك مادام لك وعى.

إذن فالصلاة لا تسقط أبدا [1] ، وتتكرر دائما. فرضها الله فى اليوم خمسًا.

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى﴾ [طه: ١٤]. فيه سبع مسائل:
الأولى: اختلف فى تأويل قوله: ﴿لِذِكْرِى﴾ فقيل: يحتمل أن يريد لتذكرنى فيها، أو يريد لأذكرك بالمدح فى عليين بها، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل وإلى المفعول. وقيل: المعنى؛ أى حافظ بعد التوحيد على الصلاة. وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هى تضرع إلى الله تعالى، وقيام بين يديه؛ وعلى هذا فالصلاة هى الذكر. وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكرا فى قوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]. وقيل: المراد إذا نسيت فتذكرت فصلِّ كما فى الخبر «فليصلها إذا ذكرها» [1]. أى لا تسقط الصلاة بالنسيان.
الثانية: روى مالك وغيره أن النبى ﷺ قال: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه: ١٤]
وروى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث حجاج بن حجاج - وهو حجاج الأول الذى روى عنه يزيد بن زريع - قال حدثنا قتادة عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يرقد عن الصلاة أو يغفل عنها قال: «كفارتها أن يصليها إذا ذكرها » ، [2] تابعه إبراهيم =

---

(١) أخرجه مسلم [٣١٦/٦٨٤] عن أنس بن مالك بلفظ : « إذا رقد أحدكم عن الصلاة ، أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها ، فإن الله يقول : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى﴾ وأخرجه البخارى [٥٩٧] .

(٢) أخرجه النسائى فى الكبرى [١٥٨٥] .

= ابن طهمان عن حجاج، وكذا يروى همام بن يحيى عن قتادة. وروى الدارقطنى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من نسى صلاة فوقتها إذا ذكرها»، فقوله: «فليصلها إذا ذكرها» دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل، كثرت الصلاة أو قلت. وهو مذهب عامة العلماء. وقد حكى خلاف شاذ لا يعتد به، لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء.

قلت: أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، ونص على أوقات معينة، فقال: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. الآية وغيرها من الآى. ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار، أو بالعكس لم يكن فعله مطابقا لما أمر به، ولا ثواب له على فعله وهو عاص؛ وعلى هذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته. ولولا قوله عليه الصلاة والسلام: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها» لم ينتفع أحد بصلاة وقعت فى غير وقتها، وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء؛ لأن القضاء بأمر متجدد وليس بالأمر الأول.

الثالثة: فأما من ترك الصلاة متعمدا، فالجمهور أيضا على وجوب القضاء عليه، وإن كان عاصيا، إلا داود، ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعرى الشافعى، حكاه عنه ابن القصار. والفرق بين المتعمد والناسى والنائم، حط المأثم؛ فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون. والحجة للجمهور قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. ولم يفرق بين أن يكون فى وقتها أو بعدها. هو أمر يقتضى الوجوب. وأيضا فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسى، مع أنهما غير مأثومين، فالعامد أولى. وأيضا قوله: «من نام عن صلاة أو نسيها» والنسيان الترك؛ قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] و ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]. سواء كان مع ذهول أو لم يكن؛ لأن الله تعالى لا ينسى. وإنما معناه تركهم. و ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]. أى نتركها. وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره. قال تعالى: «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى» (١) وهو تعالى لا ينسى فيكون ذكره بعد =

---

(١) جزء من حديث قدسى أخرجه البخارى [٧٤٠٥]، عن أبى هريرة بلفظ: « .. فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ... » وأخرجه مسلم [٢/٢٦٧٥].

= نسيان وإنما معناه علمت. فكذلك يكون معنى قوله «إذا ذكرها» أى علمها. وأيضا فإن الديون التى للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت، ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها، وهى مما يسقطها الإبراء كان فى ديون الله تعالى ألا يصح فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه. وأيضا فقد اتفقنا أنه لو ترك يوما من رمضان متعمدا بغير عذر لوجب قضاؤه فكذلك الصلاة. فإن قيل فقد روى عن مالك: من ترك الصلاة متعمدا لا يقضى أبدا. فالإشارة إلى أن ما مضى لا يعود، أو يكون كلاما خرج على التغليظ؛ كما روى عن ابن مسعود وعلى: أن من أفطر فى رمضان عامدا لم يكفره صيام الدهر وإن صامه. ومع هذا فلابد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء، وإتباعه بالتوبة، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء. وقد روى أبو المطوس عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «من افطر يوما من رمضان متعمدا لم يجزه صيام الدهر وإن صامه» (١) وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ؛ وهو حديث ضعيف أخرجه أبو داود. وقد جاءت الكفارة بأحاديث صحاح، وفى بعضها قضاء اليوم؛ والحمد لله تعالى.

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: «من نام عن صلاة أو نسيها» الحديث؛ يخصص عموم قوله عليه الصلاة والسلام: «رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ» والمراد بالرفع هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه، وليس هذا من باب قوله: «وعن الصبى حتى يحتلم» وإن كان ذلك جاء فى أثر واحد؛ فقف على هذا الأصل.

الخامسة: اختلف العلماء فى هذا المعنى فيمن ذكر صلاة فائتة وهو فى آخر وقت صلاة، أو ذكر صلاة وهو فى صلاة، فجملة مذهب مالك: أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى، بدأ بالتى نسى إذا كان خمس صلوات فأدنى، وإن فات وقت هذه. وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتى حضر وقتها، وعلى نحو هذا مذهب أبى حنيفة والثورى والليث؛ إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا: الترتيب عندنا واجب فى اليوم والليلة إذا كان فى الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت. فإن خشى فوات الوقت بدأ بها، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عندهم. وقد روى عن الثورى وجوب الترتيب ، ولم يفرق بين القليل والكثير. وهو تحصيل مذهب =

---

(١) أخرجه أبو داود [٢٣٩٦] بلفظ : « من أفطر يومًا من رمضان ، فى غير رخصة رخّصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر » وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود [٥١٧].

الشافعى. قال الشافعى: الاختيار أن يبدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه. وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب فى صلاة ستين سنة فأكثر. وقال: لا ينبغى لأحد أن يصلى صلاة وهو ذاكر لما قبلها لأنها تفسد عليه. وروى الدارقطنى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال عليه الصلاة والسلام: «إذا ذكر أحدكم صلاة وهو فى صلاة مكتوبة فليبدأ بالتى هو فيها فإذا فرغ منها صلى التى نسى» (١) وعمر بن أبى عمر مجهول (٢).

قلت: وهذا لو صح كان حجة للشافعى فى البداءة بصلاة الوقت. والصحيح ما رواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله: أن عمر يوم الخندق جعل يسب كفار قريش، وقال : يا رسول الله والله ما كدت أن أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب ؛ فقال رسول الله ﷺ : « فوالله إن صليتُها » (٣) فنزلنا البطحان (٤) فتوضأ رسول الله ﷺ ، وتوضأنا فصلى رسول الله ﷺ العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب(٥). وهذا نص فى البداءة بالفائتة قبل الحاضرة، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيق غير ممتد فى الأشهر عندنا، وعند الشافعى كما تقدم. وروى الترمذى عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه: إن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق، حتى ذهب من الليل ما شاء الله تعالى ، فأمر بالأذان بلالاً فقام فأذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى =

(١) ضعيف: أخرجه الدارقطنى [١٥٤٣] بلفظ : « إذا نسى أحدكم الصلاة فذكرها وهو . . . ».

(٢) هو عمر أبى محمد الشامى الدمشقى ، ويقال : هو أبو أحمد بن على الكلاعى .

روى عيب ، ومكحول الشامى ، وأبى الزبير المكىّ ، روى عنه : بقيّة بن الوليد .

قال أبو أحمد بن عدى : عمر بن أبى عمر الدمشقى منكر .

وقال أبو بكر : وهو من مشايخ بقية المجهولين ، وروايته منكرة ، والله أعلم .

[تهذيب الكمال فى أسماء الرجال : ٢١/ ٤٧٤-٤٧٥]

(٣) إن نافية ؛ أى ما صليتها.

(٤) بطحان [بالضم أو الصواب الفتح وكسر الطاء] : موضع بالمدينة .

(٥) أخرجه البخارى [٥٩٦, ٥٩٨, ٦٤١, ٩٤٥, ٤١١٢] ، وأخرجه مسلم [٦٣١/ ٢٠٩] واللفظ له .

. . . .

= العصر، ثم أقام فصلى المغرب، ثم أقام فصلى العشاء [1]. وبهذا استدل العلماء على أن من فاتته صلوات، قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها فى وقت واحد. واختلفوا إذا ذكر فائتة فى مضيق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال:

يبدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة، وبه قال مالك والليث والزهرى وغيرهم كما قدمناه.

الثانى: يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعى وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبى وابن وهب من أصحابنا.

الثالث: يتخير فيقدم أيتهما شاء، وبه قال أشهب.

وجه الأول: كثرة الصلوات ولا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة مع الكثرة؛ قاله القاضى عياض. واختلفوا فى مقدار اليسير؛ فعن مالك: الخمس فدون، وقد قيل: الأربع فدون لحديث جابر؛ ولم يختلف المذهب أن الست كثير.

السادسة: وأما من ذكر صلاة وهو فى صلاة؛ فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به يقول، يتمادى مع الإمام حتى يكمل صلاته. والأصل فى هذا ما رواه مالك والدارقطنى عن ابن عمر قال: «إذا نسى أحدكم صلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام، فإذا فرغ من صلاته فليصل الصلاة التى نسى، ثم ليعد صلاته التى صلى مع الإمام» لفظ الدارقطنى؛ وقال موسى ابن هرون: وحدثناه أبو إبراهيم الترجمانى، قال: حدثنا سعيد به. ورفعه إلى النبى ﷺ ووهم فى رفعه، فإن كان قد رجع عن رفعه فقد وفق للصواب [2]. ثم اختلفوا؛ فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: يصلى التى ذكر، ثم يصلى التى صلى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات؛ على ما قدمنا ذكره عن الكوفيين. وهو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين. وذكر الخرقى [3] عن أحمد بن حنبل أنه قال: من ذكر صلاة وهو فى أخرى فإنه يتمها ويقضى المذكورة، وأعاد التى كان فيها إذا كان الوقت واسعا، فإن خشى خروج الوقت وهو فيها اعتقد=

---

(١) أخرجه الترمذى [١٧٩] وقال : حديث عبد الله ليس بإسناده بأسٌ ، إلا أن لم يسمع من عبد الله ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٢٦] .

(٢) أخرجه الدارقطنى [١٥٤٤] بلفظ : « إذا نسى أحدكم صلاته . . . » .

(٣) هذه النسبة إلى بيع الخرق والثياب .

= ألا يعيدها، وقد أجزأته ويقضى التى عليه. وقال مالك: من ذكر صلاة وهو فى صلاة قد صلى منها ركعتين سلم من ركعتين، فإن كان إماما انهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت. هذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظر من أصحابه كذلك؛ لأن قوله فيمن ذكر صلاة فى صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسلم. ولو ذكرها فى صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلم، وصارت نافلة غير فاسدة ولو انهدمت عليه كما ذكر، وبطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضف إليها أخرى.

السابعة: روى مسلم عن أبى قتادة قال: خطبنا رسول الله ﷺ فذكر حديث الميضأة بطوله، وقال فيه ثم قال: «أما لكم فىّ أسوة » ثم قال: «أما إنه ليس فى النوم تفريط إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجئ وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لها فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها » وأخرجه الدارقطنى هكذا بلفظ مسلم سواء [(١)]، فظاهره يقتضى إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتى؛ ويعضد هذا الظاهر ما أخرجه أبو داود من حديث عمران بن حصين، وذكر القصة وقال فى آخرها: «فمن أدرك منكم صلاة الغداة من غد صالحا فليقض معها مثلها» [(٢)].

قلت: وهذا ليس على ظاهر، ولا تعاد غير مرة واحدة، لما رواه الدارقطنى عن عمران بن حصين قال: سرينا مع رسول الله ﷺ فى غزاة - أو قال فى سرية - فلما كان وقت السحر عرّسنا، فما استيقظنا حتى أيقظنا حر الشمس، فجعل الرجل منا يثب فزعا دهشا، فلما استيقظ رسول الله ﷺ أمرنا فارتحلنا، ثم سرنا حتى ارتفعت الشمس فقضى القوم حوائجهم، ثم أمر بلالا فأذن فصلينا ركعتين، ثم أمره فأقام فصلينا الغداة، فقلنا: يا نبى الله ألا نقضيهما لوقتهما من الغد؟ فقال لهم رسول الله ﷺ «أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم» [(٣)]. وقال الخطابى: لا أعلم أحدا قال بهذا وجوبا، ويشبه أن يكون الأمر به استحبابا ليحرز فضيلة الوقت فى القضاء. والصحيح ترك العمل لقوله عليه السلام: « أينهاكم الله عن الربا ويقبله =

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم [٦٨١] ، وأخرجه الدارقطنى [١٤٢٧] .

(٢) جزء من حديث أخرجه أبو داود [٤٣٨] ، وقال الألبانى فى ضعيف أبى داود [٨١] : شاذ.

(٣) أخرجه الدارقطنى [١٤٢٦] .

بينما تخرج الزكاة كل محصول أو كل عام والصوم شهر فى السنة، والحج مرة فى العمر، ولكن الصلاة تتكرر فى اليوم الواحد خمس مرات؛ وذلك حتى تذكّرك دائما أن لك ربًا خلقك وأوجدك من قبل أن تكن شيئًا، فأنت تقف أمام خالقك خمس مرات فى اليوم والليلة. وإذا افترضنا أن آلة مصنوعة بمعرفة مهندس، وهذه الآلة تعرض على المهندس الذى صنعها خمس مرات فى اليوم، فلابد أن هذه الآلة لن يصيبها عطب أبدا؛ لأنها عرضت على صاحبها خمس مرات فى اليوم الواحد، إذا كانت الورش والآلات فى المصانع يعملون لها مواعيد للصيانة على فترات كل أسبوع، أو كل شهر، أو عدة شهور مثلا، فما بالك بصنعة تعرض على صانعها كل يوم خمس مرات؟ لابد أنها لن تتعطل أبدا ؛ ولذلك كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ؛ ليقف بين يدى خالقه سبحانه وتعالى.

وكان ﷺ يقول « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » [(١)].

= منكم» [(١)] ولأن الطرق الصحاح من حديث عمران بن حصين ليس فيها من تلك الزيادة شىء، إلا ما ذكر من حديث أبى قتادة وهو محتمل كما بيّناه.

قلت: ذكر الكيا الطبرى فى «أحكام القرآن» له أن من السلف من خالف قوله عليه الصلاة والسلام: «من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك» [(٢)] فقال: يصبر إلى مثل وقته فليصل؛ فإذا فات الصبح فليصل من الغد. وهذا قول بعيد شاذ. [تفسير القرطبى: ١١/ ١٧٧ - ١٨٢]

(١) أخرجه النسائى فى الكبرى [٨٨٨٧، ٨٨٨٨]، وأحمد فى المسند [٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥] وكلاهما عن أنس بن مالك بلفظ: «حبِّب إلىّ من الدنيا النساء، والطيب وجعل قرة عينى فى الصلاة».

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخارى [٥٩٧] ، ومسلم [٣١٤/٦٨٤] واللفظ له .

إذن . . فالصلاة أهميتها أنها تذكّرك بالله كل يوم خمس مرات(١) ، وتذكرك بنفسك أيضا ، فمثلا يكون رئيس العمل أو الوزير موجودا فإذا جاء وقت الصلاة قمنا جميعا إلى المسجد، فى هذه الحالة أى واحد دخل المسجد قبل الوزير أو المسئول الكبير يمكن أن يجلس قبله فى الصف الأمامى؛ لأن هناك مساواة بين الجميع أمام الله وفى بيت الله، وبعد ذلك تراه وهو ذليل أمام الله، وهو يرى أنك رأيته ذليلا أمام الله فلا يتعالى عليك بعد ذلك أبدا ؛ لأنك رأيته يبكى عند الكعبة أو فى مسجد الرسول ﷺ أو وهو واقف فى الصلاة فهذا استطراق عبودية ،ومن أخطر ما يُمْنى به المسلمون أن كل واحد يجعل له مكانا فى المسجد يصلى فيه، وأحيانا يحرسه بسجادة فيضع سجادته ثم يتأخر عن غيره، ويظل مكانه شاغراً حتى يأتى ليجلس فيه، ولو أن الناس أحسنوا لرفعوا السجادة وجلسوا مكانها ؛ لأن الصف الأول لا يكون بالحجز ، فتأتى متأخرا عن الناس وتجلس فى الصف الأول؛ لأن ربنا كتبها عنده بتوقيت الإقبال على المسجد؛ لأنه يريد أن يجعلها استطراق عبودية فالصغير يرى الكبير، والضعيف يجلس بجوار القوى، والغنى بجوار الفقير والرسول ﷺ يقول « الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين» (٢) .ونحن قلنا سابقا إن الصلاة نظرا لعظم أهميتها، وعلو مكانتها فرضت بما يناسب

---

(١) عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أرايتم لو ان نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يُبقى من درنه؟» قالوا: لا يُبقى من درنه شيئاً. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله به الخطايا».
أخرجه البخارى [٥٢٨] واللفظ له، ومسلم [٦٦٧].

(٢) أخرجه الديلمى فى فردوس الأخبار [٣٦١١] عن على بن أبى طالب بلفظ : «الصلاة عماد الدين والجهاد سنام العمل ، والزكاة بين ذلك » . وذكره الألبانى فى ضعيف الجامع مختصراً [٣٥٦٦] .

أهميتها فكل العبادات فى الإسلام فرضت بالوحى إلا الصلاة فرضت من فوق سبع سماوات، ولما قربه الله إليه حين فرض عليه الصلاة جعلت الصلاة تقربا إلى الله من عباده، إلى أن تقوم الساعة، ومعنى ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ أى لتذكرنى؛ لأن دوام ورتابة النعمة قد تنسيك المنعم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦)﴾ [طه] الحق سبحانه يعلِّم نبيه ﷺ أن يوطِّن نفسه على أن الساعة آتية لا محالة. هذه الساعة هى عمر الكون، بينما أعمار المخلوقين فى الكون متفاوتة، فالموت يأتى للإنسان، ومن مات قامت قيامته. إذن الساعة نوعان: ساعة لكل واحد على قدر عمره لا يعرف متى تأتى، وساعة للكون كله هى القيامة الكبرى. فالحق سبحانه نبه رسوله ﷺ إلى أن الساعة آتية، وإذا كانت الساعة آتية فإياك أن تقول إنى سأموت الآن قبل أن تقوم الساعة بعدة قرون؛ لأن الزمن ملغىٌّ عندك فالزمن لا يضبطه إلا الموت، ولكن حيث لا يوجد حدث لا يوجد زمن، فأنت حين تنام لا تستطيع أن تعرف كم من الوقت تستغرق فى النوم، فالنائم لا يشعر بالزمن، وكذلك الميت لذلك يقول الحق سبحانه عن الساعة: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦] ولذلك نام أهل الكهف فى كهفهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا، ولما استيقظوا قالوا ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ والذى أماته الله مائة عام ثم بعثه قال﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (١)، وهذا تقدير النائم العادى أنه ينام يومًا أو بعض يومٍ وهى أقصى مدة ينامها الإنسان.

---

(١) عن على رضى الله عنه قال : خرج عزير نبى الله من مدينته وهو رجل شاب، فمر على قرية وهى خاوية على عروشها، قال: أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ثم بعثه، فأول ما خلق عيناه فجعل ينظر إلى عظامه ينضم بعضها إلى =

إذن يجب أن نفهم أن الساعة نوعان؛ ساعة لكل صاحب أجل، فمن مات قامت قيامته، وساعة للكون كله، وهى القيامة الكبرى والحق سبحانه أخفى ساعة الفرد كما أخفى ساعة الكون، فلم يقل لك متى ستموت حتى تحذر أن تلقى الله على معصية، فتستعد للموت فى كل لحظة، كما أنك لا تعرف موعد الساعة الكبرى، فلا تأخذ نعم الله وتتمتع بها وتظن أنك هربت بها من الله؛ لأنك ستعود إليه فى النهاية. ومعنى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ [طه: ١٥] لم يقل «مأتىٌّ بها مع أن الله هو الذى يأتى بها، ولكن قال « آتية » فكأن القيامة شئ مضبوط على الموعد وسيأتى وحده فى موعده وكلمة ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] كاد بمعنى «قرب»، تقول كاد زيد يجئ أى قرب زيد أن يجئ . فهو لم يأت بعد فمعنى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أقرب من أننى أخفيها وهى مخفيّة؛ لأنك لا تعرف موعدها. أو أن لها معنى آخر وهو أن كلمة (خفى) الشئ مثل مرِضَ فلان، مرّضت فلانا (بتشديد الراء) والفرق بين مرض فلان، ومرّضت فلانا أن الأول مرض أى أصابه مرض، لكن مرّضه الطبيب أو المعالج ليزيل منه المرض، فمرة تأتى بالفعل وحين تشددها تدل على إزالة الأصل، فحين نأتى بالمادة ونضعّف حرفا من حروفها، فمعنى هذا أننا نزيلها ولذلك يقول الحق سبحانه فى سورة يوسف: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥] قوله :﴿حَرَضًا﴾ أى هالكا فكأن حرض بمعنى

= بعض، ثم كسيت لحماً، ونفخ فيه الروح وهو رجل شاب. فقيل له : كم لبثت؟ قال: يوماً أو بعض يوم. قال: بل لبثت مائة عام. قال : فأتى بالمدينة وقد ترك جاراً له إسكافاً شاباً فجاء وهو شيخ كبير.

أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٢٨٢]، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى ، وانظر الدر المنثور [٢/ ٢٦] ، وتفسير ابن كثير [١/ ٢٩٧].

هلك ولكن حين يقول الله لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥] هنا كلمة ﴿حَرَضًا﴾ معناها هلك ولكن ﴿حَرِّضِ﴾ (بالتشديد) تعنى إزالة الهلاك، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله حرِّض المؤمنين ، أى أزِل هلاكهم أمام الكفار بالجهاد؛ لأنهم إن لم يجاهدوا سيهلكون ويقضى عليهم الكفار، فأزل حرضهم من قتال الكفار لهم، فالفعل إذا كان ثلاثيا نضعّفه فيعطى عكس معناه. فمثلا مرض : أصابه المرض ولكن مرضّه (بالتشديد) أى أزال عنه المرض[1].

كذلك بالنسبة للهمزة فى مثل قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥] فالقاسط كافر وسيدخل النار، ومع ذلك يقول الله تعالى فى آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢] فهنا المقسطون مؤمنون. إذن «قاسط» معناها جائر بالكفر، «والمقسط» هو العادل، وكلمة «قسط» من معانيها جار وأقسط أى أزال الجور، «فالمقسط»

---

(١) التحريض : التحضيض . قال الجوهرى : التحريض على القتال الحث والإحماء عليه. قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ قال الزجاج : تأويله حثهم على القتال، قال: وتأويل التحريض فى اللغة أن تحث الإنسان حثا يعلم معه أنه حارض إن تخلف عنه، قال: والحارض الذى قد قارب الهلاك. قال ابن سيده: وحرضه حضّه. وقال اللحيانى : يقال حارض فلان على العمل وواكب عليه وواظب وواصب عليه إذا داوم القتال، فمعنى حرِّض المؤمنين على القتال حثهم على أن يحارضوا أى يداوموا على القتال حتى يثخنوهم.

وحرض يحرض ويحرض حرضًا وحروضًا : هلك ويقال : كذب كذبة فأحرض نفسه : أى أهلكها وجاء يقول حَرَضَ أى : هالك وناقة حرضان : ساقطة . وجمل حرضان : هالك وكذلك الناقة بغير هاء . وقال الفراء فى قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ يقال : رجل حرض وقوم حرض وامرأة حرض ، يكون موحدًا على كل حال ، الذكر والأنثى والجمع فيه سواء .

[لسان العرب : ٧/ ١٣٣، ١٣٤]

هو الذى أزال الجور، لكن «قسط» يستعمل منها القسط والميزان. لكن المصدر يختلف فكلمة «قسط» أى عدل وقسط وقسوطًا بمعنى جار، فإذا قلنا «أقسط» فمعناها أزال الجور، فهو لم يعدل فقط ولكنه وجد جورا فأزاله، لكن «قسط» أى عدل من أول الأمر، وهذه تسمى همزة الإزالة . إذن الفعل الثلاثى إن أردنا أن نعطى معنى ضده ونزيله فإما أن نضعِّفه أو نأتى له بهمزة. كذلك كلمة معجم (المعجم يوضح لنا المعانى) فهو معجم؛ لأنه أعجم الكلمات أى أزال عجمتها، إذن عجم الأمر أخفاه، وأعجمه أوضح معناه.

وكلمة﴿ أُخْفِيهَا ﴾ أخفاها أى أزال خفاءها بأن يظهرها واضحة للعيان، فهنا كلمة ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه: ١٥] أى قرب أن يُذهب خفاءها وخفاء الشئ لايذهب إلا بإعلانه أو أخفاها بمعنى أنه حجبها حتى عن نفسه مبالغة فى الكتمان؛ لأنه يريد أن يعطى فيها عنصر المفاجأة فكلمة «خفى»[1] بمعنى استتر وأخفاه أى : أزال خفاءه مثل أعجمه : أزال عجمته، ولذلك زيد بن حارثة خادم الرسول ﷺ لما علم به أهله جاءوا إلى النبى ﷺ وطلبوا منه أن يعطيه لهم؛ فخيرّه النبى بين أن يبقى معه أو أن يذهب مع أبيه وعمه ، فقال زيد: والله ما كنت لأختار على

---

(١) يقول الراغب الأصفهانى :

خفى الشىء خُفيةً استتر ، قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ والخفاء ما يستتر به كالغطاء وخفيته : أزلتُ خفاه وذلك إذا اظهرته وأخفيته : أوليته خفاءً وذلك إذا سترته ، ويُقابل به الإبداء والإعلان ، قال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾.

[مفردات ألفاظ القرآن : ١٥٣-١٥٤]

رسول الله أحدًا (١) ،فأراد الرسول أن يكافئه على ذلك فسمّاه زيد ابن محمد تكريما له، وفرح زيد لهذا الاسم، ولكن الله تعالى أراد أن يكرمه تكريما خاصا فبعد أن كان اسمه منسوباً للنبى ﷺ جعل الله اسم

(١) كان حكيم بن حزام بن خويلد ، قدم من الشام برقيق، فيهم زيد بن حارثة وصيف، فدخلت عليه عمته خديجة بنت خويلد، وهى يومئذ عند رسول الله ﷺ فقال لها: اختارى يا عمة أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك. فاختارت زيداً، فأخذته ، فرآه رسول الله ﷺ عندها، فاستوهبه منها، فوهبته له ، فأعتقه رسول الله ﷺ وتبناه وذلك قبل أن يوحى إليه، وكان أبوه حارثة، قد جزع عليه جزعاً شديدا، وبكى عليه حين فقده فقال :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحىٌّ فيرجى أم أتى دونه الأجل

فوالله ما أدرى وإنى لسائل ... أغالك بعدى السهل أم غالك الجبل(١)

ويا ليت شعرى هل لك الدهر أوبة ... فحسبى من الدنيا رجوعك لى بجل(٢)

تذكّرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل(٣)

وإن هبّت الأرواح هيجن ذكره ... فياطول ما حزنى عليه وما وجل(٤)

سأعمل نص العيس فى الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبل(٥)

حياتى أو تأتى على منيّتى ... فكل امرئ فانٍ وإن غره الأمل=

(١) غالك الجبل: أى أهلكك على حين غفلة منك، ومنه الاغتيال: وهو أخذ القتيل على حين غفلة .

(٢) أوبة : عودة ورجوع ، من آب يئوب إذا عاد ورجع .
بجل : كلمة بمعنى حسب ، وفى الحديث أن النبى ﷺ القى ثمرات كن فى يده وقال : بجلى من الدنيا أى حسبى منها .

(٣) أفل : يقال أفلت الشمس أفولاً إذا غابت وغربت . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

(٤) الأرواح : جمع ريح وهى الهواء إذا هب من جهات متعددة ، وهى علامة الرحمة فإن أفردت كانت علامة العذاب قال تعالى : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

(٥) نص : ضرب سريع من ضروب سير الإبل .
العيس :جمع أعيس، وهى النوق التى يخالط بياضها شقرة «حمرة» وهى من أكرم النوق عند أهلها .

زيد الاسم الوحيد فى المسلمين الذى يذكر فى القرآن ، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] فهذا تكريم ليس بعده تكريم؛ لأن زيد شق عليه أن يعود اسمه كما كان زيد بن حارثة، بعد أن كان منسوبا إلى رسول الله ﷺ ، فأراد الله أن يعوضه عن ذلك، ويضع الأمور فى نصابها ، فيبطل التبنى وينسب الإنسان إلى أبيه. فقال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾(١) [الأحزاب: ٥] فكلمة ﴿أَقْسَطُ﴾ أى أعدل عند الله وليس عند البشر؛ لأن الرسول ﷺ أراد أن يكرمه بهذا الموضوع فالحق قال : ﴿أَقْسَطُ﴾ أى أكثر عدلا فكأن رسول الله ﷺ كان عادلاً أيضا ، ولكن الله أعدل منه وقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥] أى أن كل نفس ستحاسب على عملها ، وتأخذ عليه الجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ولولا هذا الجزاء الأخروى لكان المنحرفون الذين أسرفوا على أنفسهم وعربدوا فى الوجود ، أكثر حظا من المؤمنين الملتزمين بمنهج الله.

ثم يقول تعالى: ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦] لأن الذى لا يؤمن بالآخرة يتمنى ألا تكون هناك آخرة

= ثم قدم عليه، وهو عند رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ : «إن شئت فأقم عندى، وإن شئت فانطلق مع أبيك» فقال : لا ، بل أقيم عندك، فلم يزل عند رسول الله ﷺ حتى بعثه الله عز وجل ، فصدّقه وأسلم وصلى معه ، فلما أنزل الله عز وجل ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب :٥] قال : أنا زيد بن حارثة .

[سيرة ابن هشام : ١/٣١٩-٣٢٠]

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ . أخرجه البخارى [٤٧٨٢]

ولا حساب وأن يكون هذا الكلام كذبا ويجادل فى أن الدين من وضع البشر ، وأنه أفيون الشعوب، والكلام الذى يردّده الملحدون فى كل عصر. فنبهه إلى أن الكفار سيصدّونه عن هذا الأمر، ويجادلونه بالباطل بأنهم لن يبعثوا وأنه ليست هناك آخرة أو حساب أو جزاء، وأن الأجسام بعد أن تبلى عظامها لا يمكن أن تعود إلى الحياة مرة أخرى.. فإياك أن تسمع لهم أو تصدقهم(١).

---

(١) قال الشوكانى : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ تعليل ما قبلها من الأمر، أى إن الساعة التى هى وقت الحساب والعقاب آتية، فاعمل من عبادة الله والصلاة.

ومعنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾: مختلف فيه. قال الواحدى: قال أكثر المفسرين : أخفيها من نفسى، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وقتادة . وقال المبرد وقطرب : هذا على عادة مخاطبة العرب يقولون إذا بالغوا فى كتمان الشئ: كتمته حتى من نفسى، أى لم أطلع عليه أحداً، ومعنى الآية : أن الله بالغ فى إخفاء الساعة ، فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب. وقد روى عن سعيد بن جبير أنه قرأ : «أخفيها» بفتح الهمزة، ومعناه: أظهرها. وكذا روى أبو عبيد عن الكسائى عن محمد بن سهل عن وفاء بن إياس عن سعيد بن جبير. قال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا . قال القرطبى: وكذا رواه ابن الأنبارى فى كتاب الرد قال: حدثنى أبى حدثنا محمد بن الجهم، حدثنا الفراء حدثنا الكسائى فذكره . قال النحاس: وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثورى عن عطاء ابن السائب عن سعيد بن جبير أنه قرأ : ﴿أُخْفِيهَا﴾ بضم الهمزة. قال ابن الأنبارى:

قال الفراء : ومعنى قراءة الفتح: أكاد أظهرها ، من خفيت الشئ: إذا أظهرته أخفيه.

قال القرطبى: وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون : ﴿أُخْفِيهَا﴾ بضم الألف معناه : أظهرها؛ لأنه يقال : خفيت الشئ وأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار. قال أبو عبيدة : خفيت وأخفيت بمعنى واحد. قال النحاس : وهذا حسن، وقد أنشد الفراء وسيبويه ما يدل على أن معنى أخفاه أظهر، وذلك قول امرئ القيس :

فإن تكتموا الداء لا نخفه   وإن تبعثوا الحرب لا نقعد   =

= أى وإن تكتموا الداء لا نظهره. وقد حكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أنه بضم النون من تخفه، وقال : امرؤ القيس :

خفاهن من أنفاقهن كأنما خطاهن ودق من غشى مخلب

أى أظهرهن . وقد زيف النحاس هذا القول وقال : ليس المعنى : على أظهرها ، ولا سيما و«أخفيها» قراءة شاذة، فكيف ترد القراءة الصحيحة الشائعة. وقال ابن الأنبارى : فى الآية تفسير آخر، وهو أن الكلام ينقطع على : ﴿أَكَادُ﴾ وبعده مضمر، أى أكاد آتى بها، ووقع الابتداء بأخفيها لتجزى كل نفس بما يسعى ، ومثله قول عمير بن ضابئ البرجمى:

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى تركت على عثمان تبكى حلائله

أى وكدت أفعل. واختار هذا النحاس . وقال أبو على الفارسى : هو من باب السلب وليس من الأضداد ، ومعنى أخفيها : أزيل عنها خفاءها، وهو سترها، ومن هذا قولهم: أشكيته، أى أزلت شكواه. وحكى أبو حاتم عن الأخفش أن ﴿أَكَادُ﴾ زائدة للتأكيد، قال: ومثله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ ، ومثله قول الشاعر :

سريع إلى الهيجاء شاك سلاحه فما أن يكاد قرنه يتنفس

قال : والمعنى : أكاد أخفيها؛ أى أقارب ذلك، لأنك إذا قلت : كاد زيد يقوم، جاز أن يكون قام وأن يكون لم يقم ، ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه الآية على هذا . وقوله : ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ متعلق بآتيه، أو بأخفيها، و«ما» مصدرية، أى لتجزى كل نفس بسعيها. والسعى وإن كان ظاهراً فى الأفعال، فهو هنا يعم الأفعال والتروك؛ للقطع بأن تارك ما يجب عليه معاقب بتركه مأخوذ به.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ أى لا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، والتصديق بها، أو عن ذكرها ومراقبتها ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ من الكفرة، وهذا النهى وإن كان للكافر بحسب الظاهر، فهو فى الحقيقة نهى له ﷺ عن الانصداد، أو عن إظهار اللين للكافرين فهو من باب : لا أرينك ها هنا، كما هو معروف. وقيل : الضمير فى : ﴿عَنْهَا﴾ للصلاة وهو بعيد، وقوله : ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ معطوف على ما قبله ، أى من لايؤمن، ومن اتبع هواه : أى هوى نفسه بالانهماك فى اللذات الحسية الفانية ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أى فتهلك ؛ لأن انصدادك عنها بصد الكافرين لك مستلزم للهلاك ومستتبع له. [فتح القدير :٣/٣٦١- ٣٦٢]

ثم يرد الحق سبحانه وتعالى على مزاعمهم وتكذيبهم فيبيّن لهم أنه تعالى أنشأهم من غير عظام، فإذا كانت العظام موجودة فهذا أسهل فى الخلق من عدم وجودها حتى فى عرف البشر، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] فالحق سبحانه يعطى لنبيّه موسى مناعة ضد كلام الكفار؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم، ويتمنون أن تكون الساعة كذبا ،فلا يكون هناك حساب أو عقاب؛ حتى لا يعاقبوا على إسرافهم وانحرافهم وإطلاقهم العنان لشهواتهم.

كلمة ﴿تَرْدَىٰ﴾ : أى تهلك من الردى وهو الهلاك .هنا نجد الحيثيات الأولى فالبلاغ الأول ذكر البداية إيمانا بالله، والنهاية إليه بالبعث، فالقضية منه وإليه، والخلق منه وإليه. هو خلقهم وإليه يرجعون.

* وما تلك بيمينك يا موسى؟! *

أراد الله تعالى الرؤوف الرحيم أن يؤنس عبده ونبيه موسى فقال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه:١٧]
ما: استفهام، والتاء: إشارة لشئ مؤنث، والكاف: لخطاب موسى. أى: ما هذا الذى معك ياموسى[1]؟.

---

(١) قال الطبرى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ يقول تعالى ذكره: وما هذه التى فى يمينك يا موسى؟ فالباء فى قوله: ﴿بِيَمِينِكَ﴾ من صلة تلك، والعرب تصل تلك وهذه كما تصل الذى؛ ومنه قول يزيد بن مفرغ:

عدس ما لعبَّاد عليك إمارة أمنت وهذا تحملين طليق [1]

كأنه قال: والذى تحملين طليق.

ولعل قائلا أن يقول: وما وجه استخبار الله موسى عما فى يده؟ ألم يكن عالما بأن الذى فى يده عصا؟ قيل له: إن ذلك على غير الذى ذهبت إليه، وإنما قال ذلك عز ذكره له إذ أراد أن يحوِّلها حيَّة تسعى، وهى خشبة، فنبهه عليها، وقرَّره بأنها خشبة يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، ليعرفه قدرته على ما يشاء، وعظم سلطانه، ونفاذ أمره فيما أحب بتحويله إيَّاها حية تسعى، إذا أراد ذلك به ليجعل ذلك لموسى آية مع سائر آياته إلى فرعون وقومه. [تفسير الطبرى: ١٦/ ١٥٣، ١٥٤]

وقال الزمخشرى فى الكشاف [٢/ ٤٣٠]: وقالوا: إنما سأله ليبسط منه ويقلل هيبته.

---

(١) البيت ليزيد بن مفرغ الحميرى، يخاطب بغلته، حين هرب من عبيد الله بن زياد وأخيه عباد، وكان ابن مفرغ يهجوهما إذا تأخر عليه العطاء، وله قصة مشهورة. وعدس: زجر للبغل، و اسم له. ويروى نجوت فى مكان: أمنت (اللسان: عدس). وهذا: اسم إشارة، وقد وصل بجملة تحملين، فصار من الأسماء الموصولة فى قول بعض النحويين. هذا: مبتدأ. وجملة تحملين: صلة؛ وطليق: خبر المبتدأ. أى والذى تحملينه طليق، ليس لأحد عليه سلطان.

أنت إذا سألت أحدا وقلت له: ماهذا الشيء الذى معك؟ يقول لك معى كتاب، أوقلم، أومصحف، أو أى شيء معه، فلما قال الحق تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ كان الجواب الذى هو على قواعد اللغة أن يقول له عصا. ولكنه يعلم أن الذى يخاطبه يعلم أن التى معه عصا، ولكن هذا كلام الإيناس؛ لأن الموقف صعب على موسى، فأراد الله أن يؤنسه، ومقام الإيناس إذا كان من الله لعبده ، فلابد أن يستغل العبد هذا الإيناس، فلا يرد ردا مقتضبا. كما يقولون: (كلمة ورد غطاها)؛ فموسى لأنه يكلم ربه ويريد أن يطيل أُنسه به قال : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾[1] [طه: ١٨] مع أن الله لم يسأله عن عمله بهذه العصا، ولكن موسى أطال فى الإجابة؛[2] لأن هذا مقام الأنس فى الخطاب مع الله، ولا ينهيه إلا زاهد فى الله - حاشا لله- فكلمة ﴿هِيَ﴾ فى الجواب غير مطلوبة ﴿عَصَايَ﴾ لم يقل له لمن هذه العصا، ولم يقل له ماذا تفعل بها؛ حتى يقول له إنه يتوكأ عليها ويهش بها على الغنم، وأن له فيها مآرب أخرى، والعصا لها تاريخ طويل فهى أولا لازمة للتأديب والرياضة، ولازمة من لوازم الأسفار.

---

(١) قال الطبرى فى تفسير الآية: «يقول تعالى ذكره مخبرا عن موسى: قال موسى مجيبا لربه، ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ يقول: أضرب بها الشجر اليابس فيسقط ورقها، وترعاه غنمى».

[تفسير الطبرى : ١٦/ ١٥٤]

(٢) قال الزمخشرى :

«ذكر على التفصيل والإجمال المنافع المتعلقة بالعصا، كأنه يحس بما يعقب هذا السؤال من أمر عظيم يحدثه الله تعالى، فقال: ما هى إلا عصا لا تنفع إلا منافع بنات جنسها، وكما تنفع العيدان؛ ليكون جوابه مطابقا للغرض الذى فهمه من فحوى كلام ربه». ا.هـ. [الكشاف ٢/ ٤٣٠]

فموسى حينما تكلم مع ربه ذكر بعض فوائدها فقال: ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٨] وذلك حين يكون ماشيا أو متعبا؛ وذلك لأن المشى عنده حركتان فهو يحتاج إلى طاقة لحركة المشى بقدميه، ويحتاج إلى طاقة أخرى؛ لأن القدمين تحملان بقية الجسم، فالمشى يحتاج إلى طاقة، وحمل الجسم يحتاج إلى طاقة أخرى، فحينما يتوكأ على العصا أثناء المشى تحمل عنه بعض ثقل الجسم وتساعد فى المشى، فهى بذلك تعطى طاقة فى حمل الجسم، فإذا تعب وأصبحت قدماه لا تقويان على حمل الجسم، فإنه يعتمد على العصا، فتساعده فى حمل الجسم، فإن كان عنده بعض القوة يستطيع أن يمشى قليلاً ، وإن لم يكن عنده يجلس.

* آيات موسى التسع *

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾(1) [الإسراء: ١٠١] الكفار طلبوا من الرسول بعض الآيات والمعجزات مثل: أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً ، وأن يكون له بيت من زخرف ، وأن تكون له جنة من نخيل وعنب، وغير ذلك (2)، فالحق سبحانه وتعالى بينّ لهم أن غيرهم طلبوا آيات، وجاءتهم ومع ذلك كفروا؛ لأن المسألة كلها تعنت وتهرب . فالله تعالى آتى موسى

---

(١) قال الشوكانى: ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ قرأ ابن عباس ، وابن نهيك : « فسأل » على الخبر، أى سأل موسى فرعون أن يخلّى بنى إسرائيل، ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه. وقرأ الآخرون: ﴿فَاسْأَلْ﴾ على الأمر، أى سلهم يا محمد حين ﴿جَاءَهُمْ﴾ موسى، والسؤال سؤال استشهاد؛ لمزيد من الطمانينة والإيقان؛ لأن الأدلة إذا تضافرت كان ذلك أقوى، والمسئولون هم مؤمنوا بنى إسرائيل، كعبد الله بن سلام وأصحابه. [فتح القدير: ٣/ ٢٦٨]

(٢) الآيات التى طلبها الكفار من الرسول ﷺ هى فى قوله تعالى: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (٩٣)﴾ [الإسراء] وعن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال: « عرض علىّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا، فقلت: لا يارب، ولكنى أشبع يوما، وأجوع يوما، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك ». أخرجه الترمذى [٢٣٤٧] وقال: حديث حسن، وضعّفه الألبانى فى ضعيف الترمذى [٤٠٨].

عليه السلام تسع آيات واضحات مشهورة؛ لأنها كلها كانت على مشهد من الناس ورأوها ومع ذلك لم يؤمنوا.

من هذه الآيات: الحية التى انقلبت عصا ، ويده يدخلها فى جيبه تخرج بيضاء، وأخذ الله تعالى آل فرعون بالسنين ونقص الأموال والثمرات ، فكذبوا فابتلاهم الله بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، وهذه تسع آيات.

بعض المفسرين يقولون: نبى الله موسى جاء بآيات كثيرة وليس تسعاً فقط ، وذلك مثل:

الحجر الذى ضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وعملية نتق الجبل فوقهم كأنه ظُلَّة، والمنّ والسلوى كل هذه آيات أنزلها الله لنبيه موسى.

هنا علينا أن نفهم النص، الله سبحانه يقول : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ** ﴾ [الإسراء: ١٠١] وهى الآيات الخاصة بفرعون(١).

هنا الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا** ﴾ [الإسراء: ١٠١] .

كيف يكون السؤال لبنى إسرائيل الذين جاءهم موسى بالبينات؟ سؤالهم متعذر لأنهم ماتوا والموجود ذريتهم، ولكن السؤال لهؤلاء هو عين السؤال

---

(١) قال ابن كثير: وقد أوتى فرعون آيات أخر كثيرة، مما أتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر هاهنا التسع آيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، فكانت حجة؛ عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحوداً.

[تفسير ابن كثير: ٣/ ٦٧]

لذريتهم الذين تناقلوها فيما بينهم إلى أن وصلت إليهم ، كما قال الله مخاطباً بنى إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٤٩] مع أن هؤلاء اليهود لم يشهدوا هذه الأحداث ، ولكنها وقعت لآبائهم وأجدادهم،لولا أن الله نجّى آباءهم وأجدادهم من الهلاك ،لما وجدوا هم أنفسهم ،فكأنه سبحانه نجّاهم؛ لأن نجاة آبائهم نجاة لهم. لماذا يسأل رسول الله ﷺ بنى إسرائيل؟ لأنهم الأمة التى لها علاقة بوحى الله ولها اتصال بالرسل، واتصال بالكتب المنزّلة على الرسل ، كالتوراة والإنجيل ، ولكن مشركى قريش ليس لهم صلة بذلك .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى، حينما يرى أن الكفار كذبوا رسول الله ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾(1) [الرعد: ٤٣] فالذى عنده علم الكتاب يعلم هذا ؛ لأن الكتاب الذى معهم فيه البشارة بوجوده ﷺ وبعثه آخر الزمان (2) ؛ ولذلك فهم

---

(١) عن ابن عباس قال: قام رسول الله ﷺ بالموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عراة غرلاً، ثم قرأ : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] قال: «أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإنه سيؤتى برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: رب أصحابى، فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك. فأقول: كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٧ - ١١٨] إلى آخر الآية ، فيقال: هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم . أخرجه الترمذى [٣١٦٧] وقال: حديث حسن صحيح ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٥٣٣].

(٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضى الله عنهما أن هذه الآية التى فى القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ . قال فى التوراة : يا أيها النبى=

يعرفونه كما يعرفون أبناءهم حتى أن واحدا منهم قال : والله إننى أعرفه كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى محمداً أشد، فهذا السؤال لبنى إسرائيل سؤال استشهاد وحجة ؛ لأنهم كذّبوا بالآيات وقالوا : لن نؤمن لك حتى تأتى بكذا وكذا، فالقرآن يبيّن لهم أن الآيات التى طلبوها ، أقل بكثير من الآيات التى أعطاها الله موسى عليه السلام ، ومع ذلك كذب بها فرعون وقومه .

إذن فمجىء الآيات التى يطلبونها لا دخل لها فى أن يؤمنوا أو لايؤمنوا؛ لأن الأسئلة والآيات التى طلبوها هى من باب التعنت والجحود قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] ثمود لم يكذّبوا بالآيات فقط ، ولكنهم عقروا الناقة ، فهذه الآيات كلها كلام تعنُّت وجدل؛ لأنهم لا يريدون أن يؤمنوا .

موسى رغم كل هذه الآيات التى جاء بها قال له فرعون : ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ وكلمة «مسحور» هل هو الساحر أم سحره غيره؟ قالوا : هناك اسم مفعول ويرد بمعنى اسم الفاعل لحكمة مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾(١) [الإسراء: ٤٥] فهل الحجاب ساتر أم مستور ؟ قال

= إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ، ونذيرًا وحرزًا للأميين . أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل . ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينًا عميًا ، وآذانًا صما ، وقلوبًا غُلْفًا . أخرجه البخارى [٤٨٣٨]

(١) عن أسماء قالت: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] جاءت العوراء أم جميل، ولها ولولة، وفى يدها فهر، وهى تقول: مذمم أبينا، أو أتينا- الشك من أبى موسى- ودينه قلينا، وأمره عصينا، ورسول الله جالس وأبو بكر إلى جنبه- أو قال معه- قال: فقال أبو بكر : لقد أقبلت هذه، وأنا أخاف أن تراك. فقال: « لن =

العلماء: إن المعنى حجاب ساتر ، ولكن اسم المفعول جاء بمعنى اسم الفاعل ؛ لأن الله يؤكد الستر، فيقول إن الحجاب ليس ساترا فقط ولكنه مستور أيضا فإذا كان الحجاب نفسه مستورا فمعنى ذلك أن الستر أحكم ، ومثل: «الظل الظليل» أى: المظلل ، لأنه ظلٌّ مركب فكأن الظل مظلل وكلمة « المسحور» بمعنى المخبول أى أثّر فيه السحر فصار مخبولا مجنونا، وهذه الكلمة قالها الكفار لرسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴾ [الفرقان: ٨] ونفس الكلمة قالها فرعون لموسى عليه السلام .

مرة يقولون مسحور، وهذا كلام غير منطقى ؛ لأنه إن كان قد سحَر الذين آمنوا به ، فلماذا لم يسحر باقى الكفار وتنتهى المسألة؟ .

وإن كان مسحورا ؛ فالمسحور هو المخبول الذى تتأتى منه حركات دون أن تمر على العقل الواعى الذى يختار بين البدائل، فليس له سيطرة إرادة على نفسه ولا سيطرة خلق ، والرسول لم يكن كذلك. قال تعالى :﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [1] [القلم] والمجنون لا يكون على خلق عظيم أبدا ، وحتى فرعون تناقض مع نفسه فى هذه القضية ،

= ترانى». وقرأ قرآنا اعتصم به ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ قال: فجاءت حتى قامت على أبى بكر، ولم تر النبى ﷺ ، فقالت يا أبا بكر، بلغنى أن صاحبك هجانى. قال أبو بكر: لا وربِّ هذا البيت ما هجاك، فانصرفت وهى تقول: قد علمت قريش أنى بنت سيدها.

أخرجه أبو يعلى فى مسنده وبه راوٍ مجهول [٥٣]

(١) عن عبد الواحد بن سليم قال: قدمت مكة، فلقيت عطاء بن أبى رباح، فقلت له: يا أبا محمد، إن أهل البصرة يقولون فى القدر، قال: يا بنى أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: =

فهو يتّهم موسى بأنه مسحور ، وحين يخرُّ السحرة ساجدين ويؤمنون بموسى ، تجد فرعون يقول لهم: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] فهذا دليل على التخبط ؛ لأن الساحر لا يسحره أحد.

وكان ردُّ موسى عليه السلام على فرعون : ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّى لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (١) [الإسراء: ١٠٢] وكلمة ﴿هَٰؤُلاءِ﴾ تشير إلى الآيات الكثيرة التى أنزلها الله على

= فاقرأ « الزخرف»، قال: فقرات: ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ (٤)﴾[الزخرف] فقال: أتدرى ما أم الكتاب؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه كتاب كتبه الله قبل أن يخلق السموات، وقبل أن يخلق الأرض فيه: إن فرعون من أهل النار، وفيه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]

قال عطاء: فلقيت الوليد بن عبادة بن الصامت صاحب رسول الله ﷺ ، فسألته ما كانت وصية أبيك عند الموت؟ قال: دعانى أبى فقال لى : يا بنى اتق الله واعلم أنك لن تتقى الله حتى تؤمن بالله وتؤمن بالقدر كله خيره وشره، فإن مت على غير هذا دخلت النار.

إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر، ما كان وما هو كائن إلى الأبد». أخرجه الترمذى [٢١٥٥] وقال : حديث غريب من هذا الوجه . وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [١٧٤٩].

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لأَظُنُّكَ﴾ قال أكثر المفسرين: الظن هاهنا بمعنى العلم، على خلاف ظن فرعون فى موسى، وسوّى بينهما بعضهم، فجعل الأول بمعنى العلم أيضاً.

وفى « المثبور » ستة أقوال:

أحدها: أنه الملعون، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك.

والثانى: المغلوب، رواه العوفى عن ابن عباس. =

موسى ؛ لتكون حجة على فرعون وقومه ، فأنت يا فرعون تعلم أن هذه الآيات منزلة من عند الله، وأن موسى ليس بساحر أو مجنون ، فهو يعلم ذلك فى قرارة نفسه. قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[1] [النمل: ١٤] فهو على يقين من صدق موسى ، وأن هذه الآيات من عند الله ، ولكنه يعلم أنها ستزلزل سلطانه .

وكلمة: ﴿بَصَائِرَ﴾[2] معناها أن هذه الآيات تعطى بصيرة للناس تفتح بصائرهم، وتجعلهم يقبلون على ذلك الرسول الذى جاء بآية معجزة من جنس ما نبغ فيه القوم .

والمثبور هو: الممنوع عن أى خير أو الهالك ، وهذا القول من موسى لفرعون دليل على أن الله أطلعه على أن هذا الرجل سيهلك ، ويغرق ، ويموت على كفره .

ففرعون اتَّهم موسى بأنه مسحور ، وموسى عليه السلام لم يسكت على ذلك بل رد عليه بقوله ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]

= والثالث: الناقص العقل، رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس.

والرابع: المهلك، رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس، وبه قال أبو عبيدة، وابن قتيبة. قال الزجاج: يقال ثبر الرجل، فهو مثبور؛ إذا أهلك.

والخامس: الهالك، قاله مجاهد.

والسادس: الممنوع من الخير؛ تقول العرب: ما ثبرك عن هذا، أى: ما منعك، قاله الفراء. [زاد المسير: ٥/ ٦٧]

(١) قال ابن الجوزى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أى: أنكروها واستيقنتها أنفسهم أنها من عند الله ظلما أى: شركا. وعلوا أى: تكبرا.

وقال الزجّاج: أى: ترفعا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند الله . [زاد المسير: ٦/ ٥٩]

(٢) قال ابن الجوزى: قال أبو عبيدة: البصائر بمعنى الحجج والبرهان والبيان، واحدتها بصيرة. وقال الزجاج: معنى البصائر: ظهور الشىء وبيانه . [زاد المسير: ٣/ ٢١١]

ولا شك أن المسحور أفضل من المثبور ؛ لأن المسحور أو المجنون تصحبه حياة وإن كان عقله غائباً ، أما المثبور فهو الهالك أو الممنوع عن أى خير .

ولذلك يقول بعض الناس إذا كان الله سلب من المجنون أهم شيء تميز به الإنسان وهو العقل ، فلماذا يتركه يعيش؟ .

نقول لهم : إن الله سلبه العقل ولكن أعطاه أشياء .

ولذلك يقولون : سلب أى نعمة مساوية لنعمة الآخرين فيه عطاء ، ولكن اللبيب هو الذى يستنبطه ، فأنت ترى إنساناً أعمى [1] مثلاً فتشفق عليه وتتذكر نعمة البصر، ومع ذلك لو تأملت هذا الأعمى ، لوجدت أن الله عوّضه بأشياء أخرى عن فقدان البصر ، ولذلك فالشاعر الأعمى يقول [2] :

عميتُ جنينا والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظن للعلم موئِلا

---

(١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: سمعت النبى ﷺ يقول: « إن الله تعالى قال: إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة» يريد عينيه. أخرجه البخارى [٥٦٥٣] ، وقال ابن كثير: عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ [النور:٦١] قال: كان الرجل يذهب بالأعمى، أو بالأعرج، أو بالمريض، إلى بيت أبيه أو أخيه، أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته؛ فكان الزمنى يتحرجون من ذلك، يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم فنزلت هذه الآية رخصة لهم . [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩٤]

(٢) المقصود بالشاعر الأعمى هنا «بشار بن برد »وهو القائل أيضًا :

وعيّرنى العدا والعيب فيهمو ... فليس بعارٍ أن يقال ضريرُ

إذا أبصر المرء المروءة والتقى ... فإن عمىّ العينين ليس يضير

رأيت العمى أجرًا وذخرًا وعصمة ... وإنى إلى تلك الثلاث فقير

وغاب ضياء العين للقلب رافدا   لعلمٍ إذا مـا ضيَّع النـاس حصَّلا

فإذا نظرت إلى كل أصحاب العاهات وجدت أن الله يعوضهم من الصفات عزاء لهم عما فاتهم ، ولكن لا يدرك ذلك إلا صاحب العقل الرشيد ، كما أن الذى عنده صفة نقص فى أى شىء يحاول جاهداً ، أن يتفوق فى شىء حتى يعيش كريماً فى المجتمع ، فيحدث عملية توازن بنبوغه فى ناحية من النواحى .

ولذلك يقولون عن رجل الاقتصاد الألمانى الشهير (شاخت) : إنه حينما ذهب لأداء الخدمة العسكرية كشفوا عليه فوجدوا أن إحدى رجليه أقصر من الأخرى فمنعوه من دخول الجيش فتألم وغضب ؛ لأن زملاءه نالوا هذا الشرف دونه ، ورجع هو كسير النفس ولكنه فكر أن يفيد بلاده فى ناحية أخرى، فأخذ يبحث ويضع الخطط للاقتصاد الألمانى بعد الحرب، حتى تنهض مما أصابها من انهيار وهزيمة ، ونتيجة لهذه العزيمة والإصرار ولحكمة أرادها الله تعالى أصبح هذا الرجل واحداً من أبرز الاقتصاديين فى العالم .

فالله تعالى يبتلى بعض الخلق لحكمة بالغة حتى يفهمنا أن التكوين الإنسانى للتناسل ليس عملية ميكانيكية ، ولكن هناك إرادة عليا فتجد واحداً عنده أربعة أولاد مثلاً: أحدهم طويل والآخر قصير ، وأحدهم أبيض والآخر أسمر، وأحدهم ذكى والآخر غبى ، مع أن أباهم واحد وأمهم واحدة وجاءوا من بطن واحد؛ لأن المسألة ليست عملية ميكانيكية مثل الآلة التى تصنع الأكواب يخرج كل كوب مثل الآخر؛ فهناك إرادة عليا مدبرة فى الكون، فتجد كل واحد بشكل وصفات مختلفة عن غيره .

والحق سبحانه يجعل ذلك وسائل إيضاح ؛ لأن كثيراً من الناس كما

قال الله فى الإنسان ﴿ كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ (1) [العلق: ٦] فربّنا سبحانه وتعالى يقول له أنت عندك نِعم لم تتنبه لها ، فأنت يا صاحب البصر ترى إنساناً مسلوب البصر يمشى يتعثر فى الطريق ، فتشعر بنعمة البصر وتقول الحمد لك يارب أن عافيتنى وجعلتنى بصيراً، وإذا رأيت أعرج يسير فى الطريق على عصا شعرت بنعمة الأرجل وحمدت الله عليها ، فهذه وسائل(للإيضاح) تلفت الناس إلى نعم الله عليهم، ولكن الآفة أن الإنسان إذا ابتلى بشيء من هذا لا يصبر وقد يجعل ذلك وسيلة للتسول واستدراراً لعطف الناس ، والتكسب عن طريقه، وتجده يعرى رجله المقطوعة، أو يده ويجلس على ناصية الطريق يسأل الرائح والغادى؛ وهذا خطأ لأن المفروض إذا بليتم فاستتروا لأن الذى يظهر بلواه لخلق الله ، كأنه يشكو ربه للخلق وهو بذلك يظن أنه يرتزق بها ، مع أنه لو سترها، لطرق رزقه عليه بابه، فعليه أن يستر هذا الابتلاء ؛ لأن كشفه للناس كمن يقول انظروا ماذا فعل بى ربى ، ولكن اقبلها من الله واصبر (2).

انظروا فرعون هو الذى ربَّى موسى ، ومن العجيب لكى نعرف قول

---

(١) ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ [العلق: ٦] يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا ما رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله . [تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٣٠]

(٢) عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى صاحب بلاء فقال: الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به، وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلاً - إلا عوفى من ذلك البلاء كائنا ما كان ما عاش». أخرجه الترمذى [٣٤٣١] وقال : حسن غريب، وصحّحه الألبانى فى صحيح الترمذى: [٢٧٢٨].

وقد روى عن أبى جعفر محمد بن على: أنه قال: إذا رأى صاحب بلاء يتعوّذ، يقول ذلك فى نفسه، ولا يسمع صاحب البلاء.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من رأى مبتلىً فقال: الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به، وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلا، لم يصبه ذلك البلاء».

أخرجه الترمذى [٣٤٣٢] وقال : حديث غريب، وصحّحه الألبانى فى صحيح الترمذى: [٢٧٢٩].

الحق سبحانه وتعالى ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] لأن فرعون رؤيت له رؤيا أن هلاكه سيكون على يد مولود من بنى إسرائيل ، فكان يقتل كل مولود يولد فيهم ، ويقتل الأطفال الصغار وبعد ذلك وجدوا طفلا ملقىً فى البحر وهو موسى عليه السلام فأخذه ليربيه وفرحت به زوجته ، ولم يعلم أن هذا الطفل هو قاتله، وهذا ليعلم الإنسان أنه جاهل وأنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً وأن الأمر كله بيد الله ، وحتى يبين للناس أن عناية التربية ليست هى كل شيء، بل لابد من عناية المربى الأعلى. فالأب والأسرة هم المربى الأدنى، وهناك المربى الأعلى ؛ ولذلك يقول الشاعر:

إذا لم تصادف فى بنيك عنايـــة   فموسى الذى ربَّاه جبريل كافرُ [1]

وموسى الذى ربَّاه فرعون مرسل   فقد كذب الراجى وخاب المؤمل

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عن فرعون: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣] كلمة (استفز) ذكرناها قبل ذلك وقلنا: إن الاستفزاز (بالصوت) معناه: ساعة يركب الفارس فرسه يصيح به ليحثه على الجرى وليدخل الرعب فى قلب العدو ، وحين يأتى هذا الصوت القوى الأجش ويسمعه العدو يأخذ منه بعض الإدراك فيشل حركة فكره ، فتصيبه غفلة فى هذه اللحظة ، وهذا ما يحدث من تصايح فى بعض الألعاب مثل (الكاراتيه)؛حيث يحدث إزعاج وفزع للخصم فيسهل الانتصار عليه ، ونحن قلنا : إن هذه الكلمة نستخدمها فى لغتنا الدارجة ، فحينما يجد أحدنا ابنه تثاقل عن قضاء مصلحة طلبها منه يقول له : قم (فز ياولد) .

---

(١) سبق التعليق عليه فى باب « عناية الله تحرس أنبياءه ».

فمعنى ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ التى تأويهم وبعد ذلك يتركون له البلاد ، وهذا غباء من فرعون ، لأن موسى جاء رسولا إلى بنى إسرائيل ، وليأخذهم معه بعيدا عن بطش فرعون، فكأن غباء فرعون ساعد فى تنفيذ قدر الله تعالى ، فهو أراد أن يستفزهم من الأرض، أى يخرجهم منها والله أراد ولا رادَّ لقضائه ، فأغرقه، وأخرجه من الدنيا كلها وأهلكه ومن معه ونجا موسى ومن معه .

* تدريب موسى على استخدام العصا *

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾

[القصص: ٣١][1] ما هذه العجائب؟ فى البداية النار تزداد اشتعالا فى الشجرة، والشجرة تزداد اخضرارا؛ لا النار تحرق الشجرة، ولا الخضرة تطفئ النار، ويأتى الكلام (كلام الله من كل جانب) وبعد ذلك العصا تنقلب حية، مع أن العصا أصلها فرع شجرة جاف، فكان من الممكن أن تكون المعجزة بأن تنقلب العصا شجرة خضراء؛ لأن الشجرة من جنسها، ولكن العصا هنا تعدت مرحلة النباتية، وذهبت إلى مرحلة الحيوانية، وليست الحيوانية الهادئة العادية، ولكنها انقلبت ثعبانا بكل ما فى الثعبان من صفات .

---

(١) قال الزمخشرى :

«وقالوا: أجمل موسى ليسأله عن تلك المآرب فيزيد فى إكرامه. وقالوا: انقطع لسانه بالهيبة فأجمل. وقالوا: اسم العصا «نبعة». وقيل فى «المآرب»: كانت ذات شعبتين ومحجن فإذا طال الغصن حناه بالمحجن، وإذا طلب كسره لواه بالشعبتين وإذا سار ألقاها على عاتقه، فعلّق بها أدواته من القوس والكنانة والحلاب وغيرها، وإذا كان فى البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها وألقى عليها الكساء واستظل، وإذا قصر رشاؤه وصله بها، وكان يقاتل بها السباع عن غنمه. وقيل: كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر، وتصير شعبتاها دلوا، وتكونان شمعتين بالليل، وإذا ظهر عدو حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وسقاءه، فجعلت تماشيه، ويركزها فينبع الماء، فإذا رفعها نضب، وكانت تقيه الهوام». الكشاف : [٢/ ٤٣٠]

وأمام هذا المنظر المرعب ولى موسى مدبراً أى: جرى إلى الخلف فناداه ربه ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ﴾[1] [القصص: ٣١] أى: ارجع ثانية ولا تخف، وأعطى له القضية التى يجب أن يصحبها موسى فى كل تحركاته فى الدعوة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ لم يقل له الحق سبحانه: أنت هنا فى أمان، ولكن قال له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ فهى قضية مستمرة طمأنه الله بها؛ لأنه فى معية الله، فإذا كنت ستخاف وأنت فى معية الله، فماذا ستفعل أمام فرعون؟ ولذلك جعل الله لموسى دُربة معه، وجعل له دُربة مع فرعون وخاصته؛ ليعده للجولة الأخيرة مع فرعون وخاصته وجمهوره والسحرة والقوم كلهم، فكان لابد أن يؤنسه مرة ومرة؛ حتى يقبل على مواجهة المواقف بلا خوف ولا وجل، ويثق من نصر الله وتأييده له.

انتفع موسى عليه السلام بهذه المواقف كلها؛ ولذلك لما جاء قوم فرعون وراءه وكادوا يدركونه حينما خرج من مصر ببنى إسرائيل، ماذا قال أصحاب موسى؟ قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] ، فلما قالوا ذلك قال موسى بملء فيه: ﴿كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[2] [الشعراء: ٦٢] قال هذا

---

(١) يقول ابن جرير: «وقول ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: فنودى موسى: يا موسى، أقبل إلىَّ ولا تخف من الذى تهرب منه ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ من أن يضرك، إنما هو عصاك» . [تفسير الطبرى : ١٠/٦٩]

(٢) ﴿كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أى : لا يصل إليكم شىء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذى أمرنى أن أسير هاهنا بكم، وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.
ولما انتهى موسى عليه السلام إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شىء، والمكَوِّن لكل شىء، والكائن بعد كل شىء، اجعل لنا مخرجا، فأوحى الله إليه ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] . [تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٢٥]
قال ابن جرير: «وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ قال موسى لقومه: ليس الأمر كما ذكرتم، ﴿كَلاَّ﴾، لن تدركوا؛ ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. يقول: سيهدينى لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه» . [تفسير الطبرى : ٩/٤٤٧]

الكلام من الرصيد الموجود عنده من وعد الله له بالتأييد والنصر، مع أن كلامه هذا كان يمكن أن يكذَّب في الحال؛ لأن فرعون وجنوده من خلفه والبحر أمامه، فكلمة ﴿كَلاَّ﴾ لم يقلها موسى من فراغ، ولكن قالها من الرصيد الذى عنده وهو ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١] ، وانتفع بها الرسل جميعا؛ لأنهم يدعون إلى الله، والله معهم ولن يخذلهم، فلا يخافون من أحد قال تعالى :﴿إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

وقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾[1] [الصافات] .

رسول الله ﷺ قد انتفع بهذه أيضا وقصَّها عليه القرآن وقرأها، فلما كان فى الغار ساعة الهجرة ومعه أبو بكر رضى الله عنه؛ لحرصه على رسول الله ﷺ كان متنبهًا ، ولما نظر رضى الله عنه من فتحة الغار وجد القوم يسيرون عند باب الغار، فقال: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فماذا قال الرسول ﷺ؟ قال له: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[2] [التوبة: ٤٠] فما دمنا فى معية من لا تدركه الأبصار؛ فلن تدركنا الأبصار.

---

(١) يقول ابن جرير : «وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ولقد سبق منا القول لرسلنا:﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾ أى: مضى بهذا منا القضاء والحكم فى أم الكتاب، وهو أنهم لهم النصرة والغلبة بالحجج» ، ثم قال: «وقوله: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يقول: وإن حزبنا وأهل ولايتنا ﴿لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يقول: لهم الظفر والفلاح على أهل الكفر بنا، والخلاف علينا» . [تفسير الطبرى : ١٠/٥٤١]

(٢) عن البراء قال: «اشترى أبو بكر رضى الله عنه من عازب رحلا بثلاثة عشر درهما، فقال أبو بكر لعازب: مُرِ البراء فليحمل إلىّ رحلى، فقال عازب: لا، حتى تحدثنا =

. . . .

= كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتما من مكة والمشركون يطلبونكم.
قال : ارتحلنا من مكة فأحيينا - أو سرينا - ليلتنا ويومنا حتى أظهرنا وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصرى هل أرى من ظل فآوى إليه، فإذا صخرة أتيتها، فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبى ﷺ فيه، ثم قلت له : اضطجع يا نبى الله، فاضطجع النبىﷺ، ثم انطلقت أنظر ما حولى : هل أرى من الطلب أحدا؟ فإذا أنا براعى غنم يسوق غنمه إلى الصخرة، يريد منها الذى أردنا، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش. سمّاه فعرفته، فقلت: هل فى غنمك من لبن؟ قال : نعم. قلت : فهل أنت حالب لنا؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه فقال: هكذا، ضرب إحدى كفيه بالأخرى فحلب لى كثبة من لبن، وقد جعلت لرسول الله ﷺ إداوة على فمها خرقة، فصببت عليها اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبى ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت : اشرب يارسول الله، فشرب حتى رضيت. ثم قلت : قد آن الرحيل يا رسول الله، قال : «بلى». فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له، فقلت : هذا الطلب قد لحقنا يارسول الله، فقال : ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]

[أخرجه البخارى ٣٦٥٢]

وعن أبى بكر رضى الله عنه قال : قلت للنبى ﷺ وأنا فى الغار : لو أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال : «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما».

أخرجه البخارى [٣٦٥٣]

* عصا موسى واستخداماتها *

قال تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) ﴾ [الشعراء] إلقاء العصا أخذ فى القرآن ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى : هى التى واكبت اختيار الله لموسى عليه السلام ليكون رسولاً حينما قال الله له ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) ﴾ [طه].

الله سأل موسى عن الذى فى يده، موسى كان يمكن أن يجيب بأنها عصا، ولكنه إنسان كُرِّم بأن يكلمه ربه فأراد أن يطيل أنسه بكلام الله سبحانه، فذكر صفات العصا واستخدامها وفوائدها له.

ولكن أخبره الله تعالى أن لها مهمة أخرى عنده وأمره أن يلقيها، قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) ﴾ [طه] فلما ألقاها انقلبت حية بعد أن كانت عصا، والعصا معروف أنها كانت غصنًا من شجرة، ولم تصبح عصا إلا بعد أن انتهت حياتها النباتية، وصارت جماداً بعد قطعها من الشجرة، ومع ذلك فهى لم تنقلب إلى شجرة كما كانت فى الأصل ولكنها تجاوزت مرحلة النباتية التى كانت عليها فى البداية، وانتقلت إلى مرحلة الحيوانية، وهى مرتبة أعلى من النباتية.

موسى ساعة رأى هذا المنظر خاف، فطمأنه ربه وقال له: ﴿ خُذْهَا وَلَا

﴿تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ فأمسكها فصارت عصا، فكأن الله تعالى يدربه على المهمة، فحينما يقابل فرعون يكون قد جربها قبل ذلك؛ لأنه لو بدأها مع فرعون قد يخاف من إلقائها؛ خشية ألا تتحقق المعجزة، ولكنه بعد أن تدرب عليها اطمأن قلبه وأصبح واثقاً من المعجزة.

والمرحلة الثانية: حينما ألقاها أمام فرعون وحاشيته.

والمرحلة الثالثة: حينما ألقاها أمام السحرة فى يوم الزينة.

هنا يقول ربنا سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣)﴾ [الشعراء] ومعنى ثعبان مبين أى واضح «الثعبانية» من حياة وحركة وشكل وكل شئ.

والقرآن الكريم يصف عصا موسى بعدة أوصاف : مرة يصفها بالثعبان، ومرة بالحية، ومرة بالجان، وهذه الأوصاف كلها مجتمعة فيها فهى حية وثعبان وجان؛ فهى فى خفة حركتها كأنها جان، وفى شكلها المرعب كأنها حية، وفى تلوينها كأنها ثعبان. فى الوقت الواحد تأخذ كل هذه الأوصاف.

موسى عليه السلام كان أسمر اللون، ومن معجزاته أنه سيضع يده فى جيبه فتخرج بيضاء لها شعاع وبريق يأخذ الأبصار، فالجيب ليس هو جيبك الذى تضع فيه المنديل أو النقود، ولكن الجيب معناه فتحة الصدر،[1] موسى أخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين.

---

(١) فى الآية : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور : ٣١] قال سعيد ابن جبير ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ وليشددن ﴿بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يعنى على النحر والصدر، فلا يرى منه شىء. [تفسير ابن كثير : ٣/ ٢٨٤] =

. . . .

= وعن عائشة رضى الله عنها قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها.

أخرجه البخارى [٤٧٥٨]

فى لسان العرب : جيب : الجيب : جيب القميص والدرع، والجمع جيوب. وفى التنزيل العزيز: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾.

وجبت القميص : قورت جيبه.

وجيّبته : جعلت له جيباً . وأما قولهم : جبت جيب القميص، فليس جبت من هذا الباب، لأن عين جبت إنما هو من جاب يجوب ، والجيب عينه ياء، لقولهم جيوب، فهو على هذا من باب سبط وسبطر، ودمث ودمثر، وأن هذه ألفاظ اقتربت أصولها، واتفقت معانيها، وكل واحد منها لفظه غير لفظ صاحبه. وجيبت القميص تجييبًا: عملت له جيباً. وفلان ناصح الجيب: يعنى بذلك قلبه وصدره ، أى أمين.

[لسان العرب :١/ ٢٨٨]

* ما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحرًا *

خرق النام س يكون بإذن من الله للرسل والأولياء. إن الحق يفعل ذلك لإثبات صدق الرسول فى البلاغ عنه، وهذا الإثبات مشروط بشروط: منها أن يكون النبوغ قد بلغ درجة قصوى فى المجال الذى تحدث فيه تلك المعجزة [1]، ومثال ذلك خرق الحق لناموس العصا، وهى فرع من شجرة، وجعل موسى عليه السلام يلقيها فإذا هى حية تسعى.

إن ما أجراه الله على عصا موسى لم يكن سحرا، ولكنه نقلها من جنس إلى جنس، ونعلم أن موسى أنس إلى ربه فقال: ﴿هِيَ عَصَايَ

(١) لقد تحدى الله عز وجل المشركين من قريش مع أنهم أفصح الأمم أن يأتوا بمثل القرآن فقال مخاطبا لهم: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)﴾ [البقرة] أى: إن زعمتم أنه من غير عند الله فعارضوه بمثل ما جاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم. وقد تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء فى ذلك أميهم وكتابيهم وذلك أكمل التحدى. وقد تحداهم بذلك فى مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك. ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ من النفى والتأبيد فى المستقبل أى: ولن تفعلوا ذلك أبدا وهذه أيضا معجزة أخرى. [تفسير ابن كثير ١: ٥٧، ٥٨]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيًا أوحاه الله إلىَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». أخرجه البخارى [٧٢٧٤]، ومسلم [٢٣٩] واللفظ له.

أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه: ١٨] وعرف موسى من بعد مقام الأنس والانجذاب مقامَ الخشية، فأوجز قائلا: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، وجاء الأمر بإلقاء العصا: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٩]، وهنا خرجت العصا عن ناموسها الذى يعلمه موسى عليه السلام، فلم تعد للتوكأ والهش على الغنم، ولكنها تنتقل من جنس الخشب إلى جنس الحيوان فتصير حية: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠] ولذلك كان لابد أن تُدهش المسألة موسى عليه السلام؛ لذلك أوجس خيفة[1] ولأن

---

(١) قال ابن كثير: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى﴾ أى: هذه العصا التى فى يدك يا موسى القها ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أى: صارت فى الحال حية عظيمة ثعبانا طويلا يتحرك حركة سريعة فإذا هى تهتز كأنها جان وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير فهذه فى غاية الكبر وفى غاية سرعة الحركة. ﴿تَسْعَى﴾ أى: تمشى وتضطرب. عن ابن عباس: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها ومرت بصخرة فابتلعتها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها فولّى مدبرا، ونودى أن يا موسى، خذها فلم يأخذها ثم نودى الثانية أن خذها ولاتخف فقيل له فى الثالثة: ﴿إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ فأخذها. وقال وهب بن منبه فى قوله: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ قال: فالقاها على وجه الأرض ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون يدب، يلتمس كأنه يبتغى شيئا يريد أخذه يمر بالصخرة مثل الخلفة[1] من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه فى أصل الشجرة العظمية فيجتثها، عيناه تتقدان نارا وقد عاد المحجن منها عرفا، قيل شعر مثل النيارك وعاد الشعبتان فماً مثل القليب الواسع فيه أضراس وأنياب لها صريف فلما عاين ذلك موسى ولّى مدبرا ولم يعقب، فذهب حتى أمعن ورأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودى ياموسى أن ارجع حيث كنت، =

---

(١) فى الاصل: « الحلقة » والتصويب من كتاب الزهد للإمام أحمد حديث رقم [٣٤١].

موسى عرف سر عصاه، فلم يوجس خيفة عندما تحدى السحرة الذين جاء بهم فرعون فى يوم الزينة، وعرف موسى أنه ليس بساحر مثلهم، ولكن الله أتاه بمعجزة ستبهر حتى السحرة. فالسحرة يعلمون أنهم يغيّرون من تخيل الناس للأشياء، أما الحق فهو يغير الأشياء نفسها. لقد جاء السحرة بناء على أمر فرعون فى يوم الزينة . ويعلمنا القرآن بلمحات جانبية أن نظام السحرة كان موجودا؛ ولذلك طالب السحرة بأجرهم إن هم غلبوا موسى: ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣] وعلى الرغم من اختلاف مواهب هؤلاء السحرة، ورقىّ كل منهم فى فرع من فروع السحر، فإنهم جميعا سجدوا للحقيقة عندما ألقى موسى عصاه، وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء] إنهم عرفوا أن ما فعله موسى ليس قدرة بشرية، ولكنه قدرة فوق قدرة البشر.

= فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال: خذها بيمينك ولاتخف ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ﴾ وعلى موسى حينئذ مدرعة من صوف فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها لف طرف المدرعة على يده فقال له ملك : أرأيت يا موسى لو أذن الله بما تحاذر أكانت المدرعة تغنى عنك شيئا؟ قال : لا، ولكنى ضعيف ومن ضعف خلقت. فكشف عن يده، ثم وضعها على فم الحية حتى سمع حس الأضراس والأنياب، ثم قبض فإذا هى عصاه التى عهدها وإذا يده فى موضعها الذى كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ﴾ أى إلى حالها التى تعرف قبل ذلك. [تفسير ابن كثير : ٣/ ١٤١، ١٤٢]

* واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء.. *

ثم قال تعالى ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ (1) [طه: ٢٢] اليد معروفة، والجناح معروف أنه للطير، ويقابله فى الإنسان الذراعان. والحق سبحانه حين يوصينا بحسن معاملة الوالدين : يقول تعالى ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾(2) [الإسراء: ٢٤] فالحق سبحانه يأمر موسى أن يدخل يده من جيب

---

(١) قال ابن كثير: وقال مجاهد: ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾: كفك تحت عضدك، وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر. وقوله ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ اى من غير برص ولا أذى ومن غير شين، وقال الحسن البصرى: أخرجها. والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقى ربه عز وجل، ولهذا قال تعالى: ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴾ [طه: ٢٣].
[مختصر تفسير ابن كثير :٢/ ٤٧٣]

(٢) ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ اى تواضع لهما بفعلك فى كبرهما وعند وفاتهما. [ابن كثير:٣ / ٣٤]

وقد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله مَنْ أحق بحسن صحابتى ؟ قال : «أمك» قال : ثم مَن؟ قال: «أمك»،قال ثم من ؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك»، . أخرجه البخارى [٥٩٧١] واللفظ له، ومسلم [١/٢٥٤٨]

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فاستأذنه فى الجهاد، فقال : «أحيٌّ والداك؟» قال : نعم. قال : «ففيهما فجاهد» .
أخرجه البخارى [٣٠٠٤، ٥٩٧٢] ، ومسلم [٥/٢٥٤٩]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أقبل رجل إلى نبى الله ﷺ فقال: =

= أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغى الأجر من الله . قال : «فهل من والديك أحد حىٌّ؟ » قال : نعم، بل كلاهما . قال : «فتبتغى الأجر من الله؟» قال : نعم . قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما». أخرجه مسلم [٦/٢٥٤٩]

وعن أبى عمرو الشيبانى قال : أخبرنا صاحب هذه الدار وأومأ بيده إلى دار عبد الله قال: سألت النبى ﷺ : أى العمل أحب إلى الله عز وجل ؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: ثم أى ؟ قال: «ثم بر الوالدين» قال: ثم أى ؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله» قال: حدثنى بهن ولو استزدته لزادنى. أخرجه البخارى [٥٩٧٠]

وعن ابن عمر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار فى الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فأطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ولى صبية صغار كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدى أسقيهما قبل ولدى وإنه نأى بى الشر فما أتيت حتى أمست فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء، وقال الثانى : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار فسعيت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بها فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه فقمت عنها، اللهم فإن كنت تعلم أنى قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها، ففرج لهم فرجة وقال الآخر: اللهم إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطنى حقى فعرضت عليه حقه، فتركه ورغب عنه فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً وراعيها فجاءنى وقال : اتق الله ولا تظلمنى وأعطنى حقى، فقلت: اذهب إلى تلك البقر وراعيها فقال : اتق الله ولا تهزأ بى فقلت: إنى لا أهزأ بك، فخذ ذلك البقر وراعيها فأخذه فانطلق، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج ما بقى ففرج الله عنهم». أخرجه البخارى [٥٩٧٤]

وعن ورّاد عن المغيرة عن النبى ﷺ قال : «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات، ومنعا وهات ووأد البنات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال».

أخرجه البخارى [٥٩٧٥]=

القميص ثم يخرجها، وساعة يخرجها ستعطى ضوءا وبريقا ولمعانا، وموسى كان لونه مائلا إلى السمرة، ولذلك النبى ﷺ حينما وصف الرسل الذين لقيهم فى المعراج قال: «أما موسى فرجل آدم (أسمر) طوال كأنه من رجال «أزْد شنوءة» ومعنى طوال أى زائد الطول، وأُزْد شنوءة قبيلة معروفة بطول رجالها ولونهم الأسمر، «وأما عيسى فرجل كثير خيلان الوجه وجهه يتقطر عرقاً كأنما يخرج من ديماس» وخيلان الوجه أى: النكت السوداء التى تسمى حسنة فهو كثير حسنات الوجه والديماس هو الحمام، «أما إبراهيم فأشبه الناس به صاحبكم هذا»[1] أى النبى عليه الصلاة والسلام، فعلمنا من وصف النبى ﷺ للأنبياء أن سيدنا موسى كان أسمر .

= وعن عبد الرحمن بن أبى بكرة، عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «الا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله ، قال : ثلاثاً: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»، وكان متكئاً فجلس فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور». فما زال يقولها حتى قلت: لا يسكت.

أخرجه البخارى [٥٩٧٦]

وعن أبى هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ : «رغم أنفه. ثم رغم أنفه. ثم رغم أنفه» قيل : من ؟ يا رسول الله ! قال : من أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما ، ثم لم يدخل الجنة». أخرجه مسلم [٢٥٥١/ ١٠]

قال النووى : قوله ﷺ : «رغِم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة» قال أهل اللغة : معناه ذل، وقيل : كره وخزى، وهو بفتح الغين وكسرها، وهو الرغم بضم الراء وفتحها وكسرها، وأصله: لصق أنفه بالرغام ، وهو تراب مختلط برمل، وقيل : الرغم كل ما أصاب الأنف مما يؤذيه، وفيه : الحث على بر الوالدين، وعظم ثوابه.

ومعناه : أن برهما عند كبرهما وضعفهما بالخدمة أو النفقة أو غير ذلك سبب لدخول الجنة، فمن قصر فى ذلك فاته دخول الجنة وأرغم الله أنفه.

[شرح النووى على مسلم : ٨/ ٣٥٠]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «قال رسول الله ﷺ : ليلة أسرى بهِ: لقيت =

وفى آية أخرى يقول له ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[1][القصص: ٣٢] وهذه لقطات مختلفة حتى تكتمل الصورة من جميع جوانبها.

وإذا كان لون موسى أسمر، فإن بياض يده كان له شعاع وبريق يخطف الأبصار ، وأحياناً البياض حين يأتى مع السمرة ، قد يكون مرضا كالبرص مثلا؛ ولذلك الحق سبحانه حتى يبعد هذا الأمر قال عن يد موسى ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [طه: ٢٢] . إذن هناك بياض على سمار ولكن بسوء، ومعنى ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾[2] [طه: ٢٣] أى نريك المعجزات والآيات العجيبة التى عندنا لنثبتك بها حتى تفهم أن الذى أمرك بذلك إله، فإياك أن تخاف أو تهتز. فالحق سبحانه سيرسله إلى فرعون،

= موسى، قال : فنعته فإذا رجل حسبته قال مضطرب رجل الرأس كأنه من رجال شنوءة. قال : ولقيت عيسى، فنعته النبى ﷺ فقال ربعة أحمر، كأنما خرج من ديماس - يعنى الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به. قال : وأتيت بإناءين أحدهما لبن والآخر فيه خمر، فقيل لى : خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته ، فقيل لى : هديت الفطرة - أو أصبت الفطرة - أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك». رواه البخارى [٣٤٣٧] واللفظ له، ومسلم [١٦٧] والترمذى [٣٦٤٩]

(١) وذلك أن موسى عليه السلام، كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها تتلألأ كأنها فلقة قمر، من غير برص ولا أذى ومن غير شين . [تفسير ابن كثير :٣/١٤٣]
وقال ابن عباس: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى: فما تقدم من جعل العصا حية تسعى، وخروج اليد بيضاء من غير سوء بعد وضع اليد فى الجيب - دليلان واضحان على قدرة ربك، وصحة نبوة من جريا على يديه، أرسلناهما إلى فرعون وقومه. [تفسير المراغى : ٢٠/٥٥]

(٢) ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ قال وهب : قال له ربه : ادن فلم يزل يدنيه حتى استظهره بجزع الشجرة فاستقر، وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده فى العصا وخضع برأسه وعنقه. [تفسير ابن كثير : ٣ / ١٤٢]

وسيواجه فى ذلك مشكلات عديدة تحتاج إلى شحنة قوية من اليقين والتثبيت.

والله تعالى أرسل موسى إلى فرعون أولا قبل أن يرسله إلى بنى إسرائيل ؛ لأن فرعون ادّعى الألوهية وهذا أمر خطير، كما أنه كان يستعبد بنى إسرائيل ويستذلهم، فلابد من تصفية الموقف مع فرعون أولاً، ومعجزة العصا والحية حدثت ثلاث مرات:

الأولى: أثناء التدريب أمام الله؛ ليتعود عليها حتى إذا فعلها أمام فرعون لا يتهيب الموقف[1] فالله تعالى درّبه عليها حينما أمره بإلقائها فانقلبت حية ثم أخذها فعادت عصا كما كانت.

الثانية : عندما ذهب إلى فرعون وأخبره بما أمره به الله تعالى.

الثالثة : حينما اجتمع السحرة.

وفى كل مرة تعالج بأسلوب، فهذه المرات الثلاثة: مرة أمام الله تدريبًا، ومرة أمام فرعون ترويعاً، ومرة بين السحرة تجميعا. فكل موقف له مشهد ودور.

---

(١) وفى هذا يقول تعالى لموسى: ﴿اَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]
قال ابن كثير: قال مجاهد: من الفزع، وقال قتادة: من الرعب، وقال عبد الرحمن ابن زيد ابن أسلم وابن جرير: مما حصل لك من خوفك من الحية ، والظاهر أن المراد أعمّ من هذا ، أنه أُمر عليه السلام إذا خاف من شىء أن يضم إليه جناحه من الرهبُ وهو يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف .
[تفسير ابن كثير :٣/ ٣٧٤ ، ٣٧٥]

﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴾[1][الأعراف: ١٠٨] كلمة نزع تدل على أنه إخراج بعنف وبعسر؛ لأن الشيء السهل لا يقال نزعته ولكن يقال خلعته، إنما النزع يدل على مقاومة[2]، وفي ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ﴾[3][آل عمران: ٢٦] ذلك لأن الملك من البشر لابد أن

---

(١) يقول ابن الجوزى : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ قال ابن عباس : أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها، فإذا هى تبرق مثل البرق، لها شعاع غلب نور الشمس، فخروا على وجوههم، ثم أدخلها جيبه فصارت كما كانت. وقال مجاهد : بيضاء من غير برص .
[زاد المسير :٣ / ١٦٢]

ويقول الشوكانى فى فتح القدير: ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أى أخرجها وأظهرها من جيبه أو من تحت إبطه، فإذا يده التى أخرجها بيضاء تتلألأ نورا، يظهر لكل مبصر .
[فتح القدير :٢ / ٢٤٢]

(٢) خلع الشيء يخلعه خلعاً واختلعه: كنزعه، إلا أن فى الخلع مهلة، وسوى بعضهم بين الخلع والنزع. [لسان العرب :٨/ ٧٦]

(٣) يقول ابن الجوزى : قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ فى سبب نزولها ثلاثة أقوال :

أحدهما: أن النبى ﷺ، لما فتح مكة، ووعد أمته ملك فارس والروم، قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عباس، وأنس بن مالك.

والثانى : أن النبى ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته ، فنزلت هذه الآية، حكاه قتادة.

ينزع وأن يؤخذ قسراً، فصاحب الملك متمسك به مدافع عنه؛ ولذلك لابد أن يُنزع منه وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ يدل على أن يده كان لها وضع خاص، وكانت فى مكان هو حريص على وجودها فيه، وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ [النمل: ١٢] وهكذا أوضحت لنا هذه الآية الصورة .

= والثالث : أن اليهود قالوا : والله لا نطيع رجلا جاء ينقل النبوة من بنى إسرائيل إلى غيرهم، فنزلت هذه الآية، قاله أبو سليمان الدمشقى.

فأما التفسير، فقال الزجاج، قال: الخليل، وسيبويه، وجميع النحويين الموثوق بعلمهم : ﴿ اللهم ﴾ بمعنى «يالله» والميم» المشددة زيدت عوضا من «يا»، لأنهم لم يجدوا «يا» مع هذه «الميم» فى كلمة، ووجدوا اسم الله عز وجل مستعملا بـ «يا» إذا لم تذكر الميم، فعلموا أن الميم فى آخر الكلمة بمنزلة «يا» فى أولها والضمة التى فى «الهاء» هى ضمة الاسم المنادى المفرد.

قال أبو سليمان الخطابى: ومعنى ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ : أنه بيده، يؤتيه من يشاء، قال : وقد يكون معناه : مالك الملوك، ويحتمل أن يكون معناه : وارث الملك يوم لا يدعيه مدع، كقوله تعالى: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ ﴾ [الفرقان: ٢٦].

قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾ فى هذا الملك قولان :

أحدهما : أنه النبوة، قاله ابن جبير، ومجاهد.

والثانى : أنه المال، والعبيد، والحفدة، ذكره الزجاج. وقال مقاتل : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ ﴾، يعنى محمداً وأمته، ﴿ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ ﴾، يعنى فارس والروم. ﴿ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ ﴾ محمداً وأمته، ﴿ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ﴾ فارس والروم.

وبماذا يكون هذا العز والذل؟ فيه ثلاثة أقوال :

أحدهما : العز بالنصر، والذل بالقهر.

والثانى : العز بالغنى، والذل بالفقر.

والثالث : العز بالطاعة، والذل بالمعصية.

قوله تعالى : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ قال ابن عباس : يعنى النصر والغنيمة، وقيل : معناه بيدك الخير والشر فاكتفى بأحدهما، لأنه المرغوب فيه. [زاد المسير [١/ ٣١٤، ٣١٥]

ففى قوله تعالى : ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ لم يبيّن لنا أنه أدخلها ثم نزعها، ولكن فى الآية الأخرى بيّن الإدخال والنزع، وفى آية ثالثة قال: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢] أى إلى جيبك، والجيب هو مكان دخول الرأس من الثوب، ولكن الجيب الآن هو أى شىء نجعله لما نحب، ولقد كان الناس فى الماضى الطريق الوحيد إلى جيوبهم من فتحة الرقبة فى الثوب وقد كان الجيب هو الشىء الذى توضع فيه الأشياء الثمينة، ولابد أن يكون فى الموقع الأمامى من الثوب حتى يكون الشىء النفيس أمام نظر الشخص، وأن يكون مكان هذا الجيب تحت الإبط حتى يكون أمامه وتحت يده.

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ [النمل: ١٢] إذن حدث إدخال وإخراج، بينما فى الآية الثانية فى قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾(١) وفى آية أخرى قال : ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ ، إذن هناك ثلاث حالات: إدخال اليد فى الجيب، وضمها إلى الجناح، ونزعها إلى الخارج، وكل آية من الآيات الثلاث جاءت بلقطة، فإذا أخذناها معا أعطتنا الصورة الكاملة.

لذلك إن كل من يقول: إن قصص القرآن فيه تكرار. نقول له: لا، إنه متكامل كل آية تأتينا بلقطة لتتكامل القصة، على أننا يجب أن نفطن إلى

---

(١) يقول ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ قال الفراء : الجناح من أسفل العضد إلى الإبط. وقال أبو عبيدة :الجناح ناحية الجنب وأنشد:أضمه للصدر والجناح. [زاد المسير :٥ / ١٩٥]

وقال القاسمى فى تفسيره :«واضمم يدك إلى جناحك» أى: إبطك.

[تفسير القاسمى: ١١/ ٤١٧٦]

أن هناك صراعاً نشأ بين فرعون وموسى، والصراع لا ينشأ إلا عن عداوة، ولكى يحتدم الصراع لابد أن تكون هناك عداوة متبادلة، ولكن إذا فعل العدو شيئًا وأخذه الآخر بالتسامح أو بعدم الرد، فإن هذا يطفىء نار العداوة، ويجعل المسألة تنتهى ولكن الذى يجعل العداوة تستعر أن تكون متبادلة، فهذا عدو وهذا عدو؛ ولذلك فإن الصراع بين موسى وفرعون يحتاج عداوة من فرعون، وعداوة من موسى عليه السلام .

وفى آية أخرى، الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ [طه: ٣٩] وهذه تثبت العداوة من فرعون لموسى، وفى آية أخرى يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾[1][القصص: ٨] وهذه الآية أثبتت العداوة من موسى لفرعون، وهكذا اكتملت الصورة فأصبحنا نعرف أن فرعون عدو لموسى، وموسى عدو لفرعون .

نعود بعد ذلك إلى الآية الكريمة: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ ما هو الإعجاز فى بياض اليد؟ الإعجاز هنا لكى يقع لابد أن يكون موسى أسمر اللون، وبذلك يكون البياض فى يده مخالفًا للون جسمه، ولكن قوله تعالى: ﴿بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٨] أى بياضها ليس مجرد اختلاف فى اللون، ولكنه يلفت أنظار الموجودين، إذن فلابد أن تكون يد موسى بيضاء، بحيث أن الضوء الصادر منها يجذب أنظار كل

---

(١) قال ابن الجوزى : ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ أى : ليصير بهم الأمر إلى ذلك، لا أنهم أخذوه لهذا، وهذه اللام تسمى لام العاقبة. وللمفسرين فى معنى الكلام قولان:
أحدهما : ليكون لهم عدوا فى دينهم، وحزنا لما يصنعه بهم.
والثانى : عدوا لرجالهم وحزنا على نسائهم، فقتل الرجال بالغرق واستعبد النساء.
[زاد المسير :٦ / ٨٨]

الموجودين فى المكان، ولكن بعض الناس قد يقول : إن يد موسى ابيضّت بسبب مرض أصابه، كأن يكون مصاباً بداء البرص مثلاً فتبيضّ يده، حتى هذا الظن لم يدعه الله سبحانه وتعالى بل أوضحه، فقال فى آية أخرى: ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[1] [النمل: ١٢] فكأن كل لقطة تعطينا استكمالا لما حدث، وتكون فى هذه الحالة بيضاء للناظرين، تدل على أن ضوء يد موسى لامع مضىء يلفت نظر الناس كلهم، ولا يلفت نظر واحد أو اثنين من الموجودين فحسب؛ بل يلفت نظر الموجودين جميعًا، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان ليد موسى عليه السلام بريق ولمعان وسطوع، وكما عرفنا فإن هذا البياض من غير سوء .

(١) ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ اى نيرة ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ اى: قبيح وعيب كبياض البرص مما ينفر عنه. واعتمد الزمخشرى؛ أن قوله تعالى ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ كناية عن البرص. كما كنى عن العورة بالسوأة، قال: والبرص أبغض شىء إلى العرب، وبهم عنه نفرة عظيمة. واسماعهم لاسمه مجّاجة. فكان جديراً بان يكنى عنه. ولا ترى أحسن ولا الطف ولا أحر للمفاصل من كنايات القرآن وآدابه. انتهى.

[تفسير القاسمى : ١١/ ٤١٧٦]

برهانان من ربك إلى فرعون وملئه

هنا الحق سبحانه بعد أن أعطى موسى آية العصا نقله إلى آية أخرى فقال تعالى له: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾(1)[القصص: ٣٢]قلنا: إن الجيب هو فتحة الصدر، وكلمة ﴿اسْلُكْ﴾ معناها أدخل، أى: أدخل يدك فى جيبك، وانظر إلى الدقة فى التعبير فى قول الله تعالى : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾ لم يقل الحق سبحانه (اسلك يدك فى جيبك وأخرجها تجدها بيضاء)، فأمره بإدخالها ولم يأمره بإخراجها، وكأنها مضبوطة ضبطًا آليًا بمجرد أن يدخلها تخرج بيضاء فى الحال، فكأن الإرادة لموسى على جوارحه كانت فى الإدخال ولكنها لم تكن فى الإخراج، وكلمة بيضاء بالنسبة إلى موسى غريبة؛ لأنه كان أسمر اللون، فهو أسمر وتخرج يده بيضاء ، والبياض فى الجسم

---

(١) أمر موسى عليه السلام إذا خاف من شىء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف. وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء. فوضع يده على فؤاده فإنه يزول عنه ما يجده، أو يخف إن شاء الله تعالى. وقال مجاهد: كان موسى عليه السلام قد ملىء قلبه رعبا من فرعون، فكان إذا رآه قال : «اللهم إنى أدرأ بك فى نحره، وأعوذ بك من شره». فنزع الله ما كان فى قلب موسى عليه السلام، وجعله فى قلب فرعون، فكان إذا رأى موسى، بال كما يبول الحمار. [تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٧٥]

الأسمر نوع من المرض! فلذلك طمأنه ربه أنها تخرج بيضاء ولكن من غير سوء .

وقوله تعالى : ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ إن الجناحين فى الطائر مثل اليدين فى الإنسان، ولذلك تجد تفصيل الجناحين فى الطائر؛ يماثل تفصيل اليدين فى الإنسان ففيهما العضد والساعد. . . إلخ.

إذن اليدان فى الإنسان هما الجناحان فى الطائر، ولذلك الإنسان ساعة يسبح فى الماء، يحرك يديه كما يحرك الطائر جناحيه فى الهواء.

الله سبحانه قال لموسى لما وجده خائفًا: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أى: ذراعيك. يذهب عنك الخوف وقد صدّق ذلك الواقع فى كل الخلق، فالأم ساعة ترى ابنها وقد حدث له مكروه، تضرب على صدرها؛ ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما: كل من خاف يجب عليه أن يضرب صدره بيديه(1).

كلمة ﴿فَذَانِكَ﴾ نحن حين نشير إلى واحد نقول: ذا، وحين نشير إلى اثنين نقول: ذان، أى هذان، فكلمة «ذان» إشارة إلى اثنين، والكاف لخطاب موسى.

---

(1) لما اعترى موسى الخوف من العصا تارة، ومن الدهشة بشعاع يده مرة أخرى، أمره ربه أن يضع يده على صدره ليزول ما به من الخوف فقال: ﴿اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ أى أن ضع يدك على صدرك يذهب ما بك من خوف، كما يشاهد من حال الطائر، إذا خاف نشر جناحيه، وإذا أمن واطمأن ضمهما إليه، وكان موسى يرتعد خوفاً إما من آل فرعون وإما من الثعبان. قال ابن عباس: كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه.

[تفسير المراغى : ٢٠/ ٥٥]

إذن معنى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ﴾ أى هذان برهانان من ربك وهى العصا واليد إلى ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى: هذان برهانان من ربك الحق إلى فرعون مدّعى الربوبية بالباطل، ولا يمكن أن يتوادّ الرب الباطل مع الرب الحق؛ لأن الباطل زهوق والله تعالى يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[1][الأنبياء: ١٨] ومادامت المسألة جاءت من عند الله، فلا يمكن للربوبية الباطلة أن تقف أمام عمل الربوبية الحقة. والبرهان هو الحجة والدليل على صدق المبرهن عليه، هذان البرهانان من الله إلى فرعون الذى ادّعى الألوهية، وملئه الذين استخفهم فأطاعوه.. لماذا؟ لأنهم كانوا جميعاً قوماً فاسقين، والفسوق هو الخروج عن طاعة الله، وهى مأخوذة من فسقت الرطبة؛أى خرجت من قشرتها[2] فالحجاب

---

(١)يقول البقاعى : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ، ﴿نَقْذِفُ﴾ أى إنما شأننا أن نرمى رميا شديدا ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذى هو هذا الذكر الحكيم، الذى أنزلناه جدا كله وثابتا جميعه، لا لهو فيه ولا باطل، ولا هو مقارب لشىء منهما، ولا تقدرون أن تتخذوا شيئا منه لهواً، اتخاذا يطابقكم عليه منصف، فنحن نقذف به ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ الذى أحدثتموه من عند أنفسكم ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ أى فيمحقه محق المكسور الدماغ ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ فى الحال ﴿زَاهِقٌ﴾ أى ذاهب الروح أى هالك.
[نظم الدرر: ١٢ / ٤٠٠]

(٢) فسق: الفسق: العصيان والترك لأمر الله عز وجل والخروج عن طريق الحق. فَسق ويفسُق فُسقا وفُسوقا وفَسُقَ؛ الضم عن اللحيانى؛ أى فجر، قال: رواه عنه الأحمر، قال: ولم يعرف الكسائى الضم، وقيل: الفُسوق الخروج عن الدين، وكذلك الميل إلى المعصية كما فسق إبليس عن أمر ربه. وفسق عن أمر ربه أى جار ومال عن طاعته؛ قال الشاعر:

فواسقاً عن أمره جوائرا

الفراء فى قوله عز وجل: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، خرج من طاعة ربه، والعرب تقول إذا خرجت الرطبة من قشرها: قد فسقت الرطبة من قشرها، وكأن =

الدينى الذى يغلف به الإنسان نفسه، يعصمه من أن يتأثر بالعوامل الخارجية، فعندما يفسق من ثوب المنهج الربانى تنكشف كل عوراته .

= الفأرة إنما سميت فويسقة لخروجها من جحرها على الناس. والفسق: الخروج عن الأمر. وفسق عن أمر ربه أى خرج. [لسان العرب : ٣٠٨/١٠]

* أن ائت القوم الظالمين *

الله تعالى لا يسرد لرسوله قصص الأنبياء أو تاريخهم، ولكنه يعطيه العبرة فيأتيه بلقطة من القصة تكون مناسبة للحدث وبعد ذلك تأتى لقطة أخرى فيقول ربنا سبحانه: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (1) [الشعراء] أى اذكر يا محمد حين نادى ربك موسى وبدأ الله بموسى عليه السلام، حتى يبين للرسول أن أعداء الرسل لم يكذبوهم فقط ولكن منهم من ادعى الألوهية وهو فرعون موسى. هنا لم يبيّن الحق سبحانه متى نادى موسى وفى أى مكان، فأتى بلقطة من القصة، وإن وضحت لقطات أخرى فى سور متفرقة من القرآن الكريم، لأن الله تعالى لا يسرد تاريخًا ولكن يعطى العبرة ، فكلما قلق الرسول أو حدث له

---

(1) قال ابن كثير: يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام، حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ . [تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٢١]
قال ابن الجوزى: «لما ذهبت عن موسى الرعدة وخشع برأسه وعنقه، قال الله عز وجل: إنى قد أقمتك اليوم مقاما، لا ينبغى لبشر بعدك أن يقوم مقامك، أدنيتك وقربتك حتى سمعت كلامى، وكنت بأقرب الأمكنة منى فانطلق برسالتى، فإنك بعينى وسمعى وإن معك يدى وبصرى، فأنت جند عظيم من جندى بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى، بطر نعمتى وأمن مكرى وغرته الدنيا عنى، حتى جحد حقى وأنكر ربوبيتى وعبد دونى وزعم أنه لا يعرفنى، وإنى أقسم بعزتى لولا العذر والحجة اللذان وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار ». [التبصرة : ١/ ٢٢١]

موقف أحزنه، ينزل عليه الله من قصص من سبقوه من الأنبياء والرسل ما يثبت به فؤاده.

و﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هم الذين ظلموا أنفسهم فجعلوا لله ندا وشريكاً، والشرك ظلم عظيم .

و﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ هم : قوم فرعون، قال لهم موسى: ألا تتقون ربكم لأن هناك طلبا يكون بالأمر فيقول لك افعل كذا، ومرة يتحنن إليك فيقول لك ألا تفعل كذا، فهنا يقول : ﴿أَلا يَتَّقُونَ﴾ أى يتقون الله فى ظلمهم لأنفسهم، باتخاذهم فرعون إلهاً من دون الله، وظلمهم بنى إسرائيل بأنهم كانوايذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، أى يذبحون المواليد الذكور فقط دون الإناث، ولاشك أن قوم فرعون سبب فى تجبره وادعائه الألوهية لأنهم لم يتصدوا له وأطاعوه، فلو أنه حينما ادعى الألوهية وجد معارضة من قومه ، لاستحى وما تجرأ وزعم أنه إله (١) . ولكنهم وافقوه وأطاعوه، فهم شركاء فى الجريمة، ولذلك فى اللغة هناك طاغية وطاغوت؛ فالطاغوت هو الذى يعينه الناس على أن يكون طاغوتاً.

موسى لم يأخذ الأمر من الله وينصرف لتنفيذه، ولكن لأنه يعرف مشقة المهمة التى كلِّف بها، وأنه عايش فرعون ويعرف مدى ظلمه وجبروته، فقال مناجياً ربه :

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي

---

(١) فى الحديث عن أبى مسعود قال: قال النبى ﷺ: « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة، إذا لم تستحيي فافعل ما شئت» . أخرجه البخارى ٣٤٨٣]

وعنه أيضا قال النبى ﷺ: « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة، إذا لم تستحى فاصنع ما شئت» . أخرجه البخارى [٣٤٨٤]

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ⑬ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ⑭﴾[1] [الشعراء]

(١) قال البقاعي: قال : ربي أيها الرفيق بي ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ أى فلا يترتب على إتياني إليهم أثر، ويبغون لى الغوائل، فاجعل لى قبولا ومهابة تحرسنى بها ممن يريدنى بسوء، ويجوز أن يريد بـ«أخاف» أعلم أو أظن، فيكون «أن» مخففة، فيكون الفعلان معطوفين على «يكذبون» فى قراءة الجمهور بالرفع مع جواز العطف على أخاف فيكون التقدير: وأخاف أنه، أو قال: إنى ﴿يَضِيقُ صَدْرِي﴾. عند تكذيبهم أو خوفى من تكذيبهم لى انفعالا كما هو شأن أهل المروءات ، وأرباب علو الهمم ، لما غرز فيهم من الحدة والشدة فى العزيمة إذا لم يجدوا مساغا ﴿وَلَا يَنطَلِقُ﴾ ونصب يعقوب الفعلين عطفا على «يكذبون» على أن «أن» ناصبة، ﴿لِسَانِي﴾ . [أى] فى التعبير عما ترسلنى إليهم به، لما فيه من الحبسة فى الأصل بسبب تعقده لتلك الجمرة التى لدغته فى حال الطفولية، فإذا وقع التكذيب أو خوفه وضاق القلب، انقبضت الروح إلى باطنه فازدادت الحبسة، فمست الحاجة إلى معين يقوى القلب، فيعين على إطلاق اللسان عند الحبسة لئلا تختل الدعوة ﴿فَأَرْسِلْ﴾ أى تتسبب عن ذلك الذى اعتذرت به عن المبادرة إلى الذهاب عند الأمر أنى أسألك فى الإرسال ﴿إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أخى، ليكون رسولا من عندك فيكون لى عضدا على ما أمضى له من الرسالة فيعين على ما يحصل من ذلك، وليس اعتذاره بتعلل فى الامتثال، وكفى بطلب العون دليلا على التقبل، لا على التعلل.

ولما ذكر ما تؤثره الرسالة، وقدم الإشارة إلى استكشافه لأنه أهم، أتبعه ما يترتب على مطلق التظاهر لهم فضلا عن مواجهتهم بما يكرهون فقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ﴾ أى بقتلى نفسا منهم؛ وقال: ﴿ذَنبٌ﴾ وإن كان المقتول غير معصوم تسمية له بما يزعمونه، ولذلك قيده بـ ﴿وَلَهُمْ﴾، وأيضا فلكونه ما كان أتاه فيه من الله تعالى أمر بخصوصه ﴿فَأَخَافُ﴾ بسبب ذلك ﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾ أى بذلك، مع ما أضمه إليه من التعرض لهم، فلا أتمكن من أداء الرسالة، فإذا كان هارون معى عاضدنى فى إبلاغها، وكل ذلك استكشاف واستدفاع للبلاء، واستعلام للعافية، لا توقف فى القبول.

ولما استشرفت النفس إلى معرفة جوابه عن هذه الأمور المهمة، شفى عناءها بقوله، إعلاما بأنه سبحانه استجاب له في كل ما سأل. نظم الدرر : [١٤/١٦-١٧]

فهذا رجل ادعى الألوهية، ومن الصعب أن يستجيب لرسول يدعوه من القوم الذين يستعبدهم هو، فخاف موسى أن يكذبوه، وساعة يكذبونه سيضيق صدره لأنه سيشاهد باطلاً يجابه حقاً واضحاً ، وإذا ضاق الصدر تلجلج اللسان فلا يستطيع أن يتكلم الكلام المقنع؛ لأن الغضب يجعله لا يعرف أن يرتب كلامه أو أفكاره، فلا يحسن التعبير عما يريد، ولذلك طلب سيدنا موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليعينه فى هذه المهمة الشاقة، حتى يساعده فى توصيل الدعوة إلى فرعون وقومه، فهو حريص على أن تبلغ الدعوة آذان قوم فرعون .

ولذلك كان موسى وهارون رسولين، إلا أن القرآن يقول عنهما: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] [الشعراء: ١٦] وفى آية أخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٤٧] والرسول هو المرسل من شخص إلى شخص سواء كان هذا المرسل واحدا أو أكثر، فهو رسول، ولكن لماذا يضيق صدره ولا ينطلق لسانه؟ قالوا: إن الإنسان يتطلب فى استبقاء حياته

(١) قال أبو حيان: أفرد ﴿رَسُولُ﴾ هنا ولم يثنِّ ، كما فى قوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ ، إما لأنه مصدر بمعنى الرسالة، فجاز أن يقع مفرداً خبر المفرد فما فوقه، وإما لكونهما ذوى شريعة واحدة؛ فكأنهما رسول واحد. وأريد بقوله: أنا أو كل واحد منا رسول و﴿رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه ردٌّ عليه، وأنه مربوب لله تعالى، بادهه بنقض ما كان أبرمه من ادعاء الألوهية، ولذلك أنكر فقال: وما رب العالمين والمعنى إليك، ﴿أَنْ أَرْسِلْ﴾ [الشعراء: ١٧]: يجوز أن تكون تفسيرية لما فى ﴿رَسُولُ﴾ من معنى القول، وأن تكون مصدرية، ﴿فَأَرْسِلْ﴾ بمعنى أطلق وسرح، كما تقول: أرسلت الحجر من يدى، وأرسلت الصقر. وكان موسى مبعوثاً إلى فرعون فى أمرين: إرسال بنى إسرائيل لتزول عنهم العبودية، والإيمان بالله وبعث بالعبادات والشرع إلى بنى إسرائيل وإرسالهم معهما كان إلى فلسطين، وكانت مسكن موسى وهارون.

[البحر المحيط : ٨/ ١٤٥]

طعاماً وشراباً ، وأهم من ذلك كله يتطلب هواء، فقد يصبر على الطعام مدة وقد يصبر على الشراب مدة أقل، ولكنه لا يستطيع أن يصبر على الهواء؛ ولذلك فإن من رحمة الله بالإنسان أنه قد يُملِّك إنسانًا طعام إنسان فيحرمه من الأكل، وقليل أن يُملك إنسانًا شراب إنسان فيحرمه من الشرب، لكن الهواء لا يملكه أحد، لأن الله لو ملَّك إنسانًا هواء إنسان فغضب عليه سيموت مختنقاً قبل أن يرضى عنه، فلم يُملِّك الله الهواء لإنسان أبدًا ، وجعل سبحانه العنصر الأساسى فى الحياة وهو الهواء غير مملوك لأحد، والهواء له مهمة ، يتنفسه الإنسان فيأخذ الأكسوجين فيؤكسد الدم والخلايا وذلك حتى تعمل أجهزة الجسم العادية، فإذا ما بذل الإنسان مجهودًا أو قام بعمل أو حركة احتاج إلى هواء أكثر، ولذلك حين تصعد سلّماً تجد نفسك أسرع وضربات قلبك تزداد؛ لأنك تحتاج إلى هواء كثير بفعل الحركة، لكن الجالس لا يحتاج إلى المزيد من الهواء فعندما يضيق صدره يصبح الهواء داخله قليلاً لا يكفى إلا لاستبقاء الحياة، فلا يستطيع أن يتحرك أو يتكلم أو يفعل شيئاً ؛ ولذلك قال: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ [الشعراء: ١٣] كما أن المسألة ليست عادية بين موسى وبين فرعون وقومه؛ لأن لهم ثأراً قديماً عنده، لأنه قتل منهم واحداً مع أنه لم يكن يقصد قتله، فهو يخاف أن يقتلوه بسببه، ولكن الله أخبره بأن هذا لن يحدث .

﴿قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ (١) [الشعراء: ١٥] وقلنا إن

(١) قال أبو حيان: ﴿قَالَ كَلاَّ﴾، وهى كلمة الردع، ثم وعده تعالى بالكلاءة والدفع. وكلا رد لقوله: ﴿إِنِّى أَخَافُ﴾ ، أى لا تخف ذلك، فإنى قضيت بنصرك وظهورك. وقوله: ﴿فَاذْهَبَا﴾ ، أمر لهما بخطاب لموسى فقط، لأن هارون ليس بمكلم بإجماع ، ولكنه قال لموسى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ [طه: ٤٢] . =

﴿ كَلا ﴾ حين ترد تنفى ما قبلها، وما قبلها، هنا ثلاثة أشياء ﴿ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشعراء: ١٤] فـ﴿ كَلا ﴾ هنا منصبة على نفى ما يكون من موسى مثل ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان، لكن التكذيب ليس منه وهم سيكذبونه فعلاً

= قال الزمخشرى: جمع الله له الاستجابتين معاً فى قوله: ﴿ كَلاَّ فَاذْهَبَا ﴾ ، لأنه استدفعه بلاءهم، فوعده الدفع بردعه عن الخوف، والتمس الموازرة بأخيه، فأجابه بقوله: اذهب، أى اذهب أنت والذى طلبته هارون. فإن قلت: علام عطف قوله اذهبا؟ قلت: على الفعل الذى يدل عليه كلا، كأنه قيل: ارتدع يا موسى عما تظن، فاذهب أنت وهارون بآياتنا، يعم جميع ما بعثهما الله به، وأعظم ذلك العصا، وبها وقع العجز. قال ابن عطية: ولا خلاف أن موسى هو الذى حمله الله أمر النبوة وكلفها، وأن هارون كان نبياً رسولاً معيناً له ووزيراً. انتهى. و﴿ مَعَكُم ﴾ ، قيل: من وضع الجمع موضع المثنى، أى معكما. وقيل: هو على ظاهره من الجمع، والمراد موسى وهارون ومن أرسلا إليه. وكان شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير يرجح أن يكون أريد بصورة الجمع المثنى، والخطاب لموسى وهارون فقط، قال: لأن لفظة مع تباين من يكون كافراً، فإنه لا يقال الله معه. وعلى أنه أريد بالجمع التثنية، حمله سيبويه رحمه الله وكأنهما لشرفهما عند الله، عاملهما فى الخطاب معاملة الجمع، إذ كان ذلك جائزاً أن يعامل به الواحد لشرفه وعظمته.

قال ابن عطية: ﴿ مُّسْتَمِعُونَ ﴾ اهتبالاً، ليس فى صيغة سامعون، وإلا فليس يوصف الله تعالى بطلب الاستماع، وإنما القصد إظهار التهمم ليعظم أنس موسى، أو يكون الملائكة بأمر الله إياها تستمع. وقال الزمخشرى: ﴿ مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ من مجاز الكلام، يريد أنا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه إذا حضر واستمع ما يجرى بينكما وبينه، فأظهركما وغلبكما وكسر شوكته عنكما ونكسه. انتهى. ويجوز أن يكون معه متعلقاً بـ ﴿ مُّسْتَمِعُونَ ﴾، وأن يكون خبراً، و«مستمعون» خبر ثان. والمعية هنا مجاز، وكذلك الاستماع، لأنه بمعنى الإصغاء، ولا يلزم من الاستماع السماع، تقول: أسمع إليه، فما سمع واستمع إليه فسمع.

[البحر المحيط : ٨/ ١٤٤ - ١٤٥]

فـ﴿ كَلا ﴾ هنا لا تنفى التكذيب الذى سيحدث منهم لموسى عليه السلام .

وقلنا إن ﴿ كَلا ﴾ فى القرآن بيّنتها سورة الفجر بوضوح فى قول الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ (١٦) كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) ﴾ [الفجر] أى إن إعطاء النعمة ليس دليلاً على الإكرام، ولا سلبها دليل على الإهانة ؛ لأن الله يبتلى بالنعمة وبغيرها، وإلا فكيف يكون إعطاء النعمة دليل على الإكرام، مع أن كثيراً من الناس يعطون النعمة فيبخلون بها ويمنعونها عن المحتاجين، وحين يمنع الله عنك النعمة فليس هذا دليل إهانة؛ لأنك قد تأخذ النعمة فتطغيك وتنسيك ذكر الله(١).
إذن ﴿ كَلا ﴾ هنا نفت تخوف موسى فى قوله : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ وقوله: ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ فقال له ربه: ﴿ كَلا ﴾ أى اطمئن إن هذه الأشياء لن تحدث، وكلمة :﴿ كَلا ﴾ لها شأن مع موسى، فالله علّمها له وهو حفظها ، ولذلك حينما خرج موسى من مصر هو وأصحابه واتبعه فرعون بجنوده، ورأى أصحاب موسى فرعون وجنوده من خلفهم والبحر أمامهم فخافوا وقالوا :﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ فقال لهم موسى بإيمان الواثق من نصر الله : ﴿ كَلا ﴾ أى أن هذا لن يحدث، وهذا ليس بقوته هو ، ولكن بقوة الله الذى أرسله؛ لذلك قال: ﴿ كَلا إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٢] .

---

(١) قال عَباية أبو غسان: حُممت بنيسابور، فانطبقت علىّ الحمى، فدعوت بهذا الدعاء: «إلهى كلما أنعمت علىّ نعمة قلّ عندها شكرى، وكلما ابتليتنى ببلية قل عندها صبرى، فيا من قل شكرى عند نعمته فلم يخذلنى، ويا من قل عند بلائه صبرى فلم يعاقبنى، ويا من رآنى على المعاصى فلم يفضحنى، اكشف ضرى» قال: فذهبت عنى. [كتاب الشكر لابن أبى الدنيا :١٠٥-١٠٦]

هنا الحق سبحانه يقول: ﴿كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أى فاذهبا بالمعجزات الدالة على أن موسى رسول صادق من عند الله، وأنه جاء بمعجزة وهذه الآيات هى العصا، وبياض اليد من غير سوء حين يخرجها من جيبه.

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٠] ، وفى آية أخرى قال ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ، فمرة يأتى بالسمع ومرة يأتى بالسمع والرؤية؛ لأن هذا اللقاء سيكون فيه فعل مثل: السحر ، وإلقاء الحبال والعصى، فهذا يحتاج إلى رؤية، فالحق سبحانه قال له ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] لأن الإيذاء قد يكون من السمع فقط فى أول لقاء ، وقد يكون من السمع والعين بعد ذلك، ثم يقول تعالى :﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٦،١٧] هنا لم يقل : «إنا رسولا رب العالمين» لأن الرسول هو الواسطة من المرسل إلى المرسل إليه[1] ، فإن كان واحدًا يصح وإن كانا اثنين أو ثلاثة فهم رسول أيضا، وهما حين يلتقيان بفرعون، لن يتكلم الاثنان فى نفس واحد، ويقولا: «إنا رسولا رب العالمين» ولكن سيتكلم أحدهما ويؤمِّن الثانى على كلامه أو يسكت، فسكوته أو تأمينه كأنه قال، ولذلك حينما دعا موسى على فرعون وقومه قال : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[يونس:٨٨]: وقال له ربه ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] يقصد

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن النبى ﷺ قال: «رسول الرجل إلى الرجل إذنه» أخرجه أبو داود [٥١٨٩] ، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤٣٢١] .

دعوة موسى وهارون لأن موسى كان يدعو وهارون يؤمن والمؤمِّن أحد الداعيين، ولكن ما هو طلب موسى من فرعون؟

الأصل فى رسالة موسى أنه لم يأت لدعوة فرعون إلى الإيمان بالله، ولكنه جاء ليخلص بنى إسرائيل من العذاب ثم يلتفت إليهم ليعطيهم المنهج، لكن الكلام فى الإيمان والحوار مع فرعون عن الألوهية جاء تبعاً للقصة فموسى جاء لإنقاذ بنى إسرائيل؛ ولذلك يقول الله فى آية أخرى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ [طه: ٤٧] فتنوع الأساليب فى القرآن يشرح لقطات فيها تكرار المعنى الإجمالى.

ولكن كل موقف له لقطة فمثلا يقول سبحانه : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾(١) [القصص: ٨] مع أن آل فرعون التقطوا موسى ليكون لهم قرة عين وليتخذه فرعون ولدا ، بدليل أن امرأته قالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [القصص: ٩] فكأنهم أخذوه ليكون لهم قرة عين بينما أراد الله أن يكون عدوا لهم، وأن

---

(١) قال ابن القيم: قوله: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ وذكر فعلهم دون قضائه، لأنه أبلغ فى كونه حزناً لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة وأن هذا الذى يذبح فرعون الأبناء فى طلبه هو الذى يتولى تربيته فى حجره وبيته باختياره وإرادته ويكون فى قبضته وتحت تصرفه. فذكر فعلهم به فى هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر.

[بدائع التفاسير : ٣/٣٤٩]

يكون هلاك فرعون على يديه؛ ولأن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه، فقد نجّى الله تعالى موسى من بطش فرعون الذى كان يقتل الأطفال الذكور، ويترك الإناث، وجعله يتربى فى بيت فرعون وهو الذى يرعاه ويعتنى به، وهذا دليل على أن الله إذا أراد إنفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم .

❊ اذهب إلى فرعون إنه طغى ❊

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾[1] [طه: ٢٤] علة الذهاب أن فرعون طغى، والطغيان هو مجاوزة الحد ، ومجاوزة الحد هى أن تأخذ ما ليس لك، وتبالغ فى أخذ ما ليس من حقك، وفرعون لم يعتدِ على حق من حقوق بشر مثله، ولكنه اعتدى على حق من حقوق الله بادّعائه الألوهية، وموسى حينما سمع اسم فرعون بدأ يتذكر ما حدث له فى مصر قبل سفره إلى مدين، حينما وكز الرجل فقتله، وتآمر عليه القوم ليقتلوه، وخرج هارباً يترقب، وتذكر أن فرعون هو الذى ربّاه، وكيف سيواجهه بعد هذه الأحداث. خواطر كثيرة جالت فى ذهن موسى فى هذه اللحظة،

---

(١) قال أبو حيان: أمر الله موسى بالذهاب إلى فرعون رسولا من عنده تعالى، وعلّل حكمة الذهاب إليه بقوله: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ، وخص فرعون وإن كان مبعوثاً إليهم كلهم؛ لأنه رأس الكفر ومدعى الإلهية، وقومه تباعه. قال وهب بن منبه: قال الله لموسى عليه السلام: اسمع كلامى واحفظ وصيتى، وانطلق برسالتى، أرعاك بعينى وسمعى، وإن معك يدى ونصرى، وألبسك جنة من سلطانى، تستكمل بها العزة فى أمرى، أبعثك إلى خلق، ضعيف من خلقى بطر نعمتى، وأمن مكرى، وغرته الدنيا حتى جحد حقى، وأنكر ربوبيتى، أقسم بعزتى لولا الحجة والقدر الذى وضعت بينى وبين خلقى، لبطشت به بطشة جبار، ولكن هان علىّ وسقط من عينى، فبلغه رسالتى، وادعه إلى عبادتى، وحذره نقمتى. وقل له قولاً لينا فإن ناصيته بيدى، لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمى، فى كلام طويل. قال: فسكت موسى عليه السلام سبعة أيام. وقيل: أكثر فجاءه ملك فقال انفذ ما أمرك ربك.
[البحر المحيط : ٣٢٦/٧]

وشعر أن العبء أصبح ثقيلاً عليه، فقال: يا رب أوامرك نافذة ، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى أشياء كثيرة طلب من الله أن يعينه بها، فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾[1] [طه] فطلب من الله أن يشرح له صدره، حتى لا يقابل هذه المهمة بانقباض؛ لأنك لو أقدمت على مهمة بانقباض فقدت ثلاثة أرباع قوتك، ولكن إذا أقدمت منشرح الصدر تكون مجتمع القوى.

فالإنسان حين يقابل الأحداث بانقباض الصدر يُعينها على نفسه، دون

---

(١) قال ابن كثير: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، فوضعها على لسانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث يزول العي ويحصل لهم فهم ما يريد منه، وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية . [تفسير ابن كثير: ٣/ ١٤٣]

عن عامر بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه، قال: أمر معاوية بن أبى سفيان سعدا فقال: ما منعك أن تسب أبا التُّراب؟ فقال: أمَّا ما ذكرت ثلاثا قالهن له رسول الله ﷺ، فلن أسبه. لأن تكون لى واحدة منهن أحب إلى من حمر النعم. سمعت رسول الله ﷺ يقول له، خَلَّفَه فى بعض مغاريه، فقال له على: يا رسول الله، خلفتنى مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله ﷺ «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى. إلا أنه لا نبوة بعدى». وسمعته يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله» قال: فتطاولنا لها، فقال «ادعوا لى عليا» فأتى به أرمد. فبصق فى عينه ودفع الراية إليه. ففتح الله عليه. ولما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]. دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ، فقال: «اللهم هؤلاء أهلى» .

أخرجه مسلم [٢٤٠٤]

أن يعلم أن المهمة الصعبة تحتاج إلى شرح صدر زائد؛ لأنك لابد أن تواجهها بانشراح أكبر يناسب المجهود، كما طلب موسى من الله أيضاً أن يُيسِّر له أمر هذه المهمة؛ لأن شرح الصدر أمر من جهة الفعل، وتيسير الأمر يتعلق بجهة المقابل، ولأن موسى سوف يقوم بتبليغ رسالة، وهذا يحتاج إلى منطق، وكان منطقه فيه لثغة أو حبسة فى لسانه، وكذلك الحسين بن على رضى الله عنهما كان فى لسانه لثغة أو حبسة خفيفة فى الكلام، فكان النبى ﷺ حين يراه يضحك ويقول: «ورثها عن عمه موسى» .

طلب موسى من ربه أن يشرح صدره لهذه المهمة، وأن ييسِّر له الأمر حتى لا يتعبه القوم الذين سيدعوهم (فرعون وقومه). وحتى يستطيع أن يتكلم بسهولة فدعا ربه أن يحل عقدة من لسانه، ولم يطلب من ربه أن يحل عقد لسانه كلها؛ حتى لا يكون متمردا على قدر الله فى جعْل لسانه محبوساً بعض الشىء، ولكن هذا مجرد لطف فى قدر الله، والهدف منه أن يفقه المخاطَبون قوله ويفهموه، ومع أن الله اختار موسى فهو لا يطغى بهذا الاختيار لهذه الرسالة؛ بل طلب من الله أن يرسل معه أخاه هارون(١)؛ ليعينه على هذه المهمة ؛ لأنه يريد أن يؤدى الرسالة على أكمل وجه، فالجانب الذى عنده فيه قصور ، فأراد أن يكمله بأخيه . وهو بذلك يعطى نموذجاً للبشر، وهو أن الإنسان إذا كُلف بأمر ، ثم وجد فى نفسه قلة كفاءة فى بعض النواحى، فعليه أن يستعين بغيره لسدّ هذا النقص؛ وهذا دليل على إخلاصه لهذه المهمة ، ورغبته فى إتمامها على خير وجه .

(١) قال الفيروزابادى : هارون اسم أعجمى غير منصرف، قيل : معرَّب أرون ، والأرن : النشاط سمى به لنشاطه بالطاعة . وقال الثعالبى : كان هارون فصيح اللسان بيِّن الكلام، وكان أطول من موسى وتوفى قبله.

[بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز : ٦/ ٦٧ ، ٦٨]

وبعد ذلك أتى بعلّة هذا الطلب فى أن يكون هارون معه فى هذه المهمة، فقال: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[1] [القصص: ٣٤] وهارون بالإضافة إلى أنه أفصح من موسى قالوا: إنه كانت فيه صفات أخرى حميدة، منها أن موسى كانت فيه حدّة أى أنه سريع الغضب، أما هارون فكان فيه لين وحلم؛ ولذا طلب موسى أن يكون معه؛ ليجبر عقدة لسانه بفصاحته، وليعالج بلينه شدة موسى وحدّته، فيكمل كل منهما الآخر.

والدليل على ذلك أن موسى لما رجع ووجد بنى إسرائيل اتخذوا العجل، غضب وثار وأمسك بهارون وجذبه من لحيته، فهنا ظهرت حدّة موسى فماذا قال له هارون ؟ قال: ﴿يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[2] [طه: ٩٤]

---

(١) قال ابن كثير : ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أى وزيرًا ومعينا ومقويا لأمرى، يصدقنى فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل ؛ لأن خبر الاثنين أنجع فى النفوس من خبر الواحد. وقال محمد بن إسحاق : ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أى: يبين لهم عنى ما أكلمهم به، فإنه يفهم عنى ما لا يفهمون. [تفسير ابن كثير : ٣/ ٣٧٥]

(٢) قال ابن كثير : هذا اعتذار من هارون عند موسى فى سبب تأخره عنه، حيث لم يلحق فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم . وترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم ههنا أرق وأبلغ فى الحنو والعطف. وقال: إنى خشيت أن أتبعك فأخبرك بهذا فتقول لى : لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم .
[تفسير ابن كثير : ٣/ ١٥٩]
وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس الخبر كالمعاينة، إن الله عز وجل أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل، فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».
أخرجه أحمد فى المسند [١/ ٢٧١]، والحاكم فى المستدرك [٢/ ٣٢١] وصححه . وصححه الشيخ شاكر رقم [٢٤٤٧].

انظر الرقة واللين فى كلام هارون لأخيه موسى، فالفصاحة تجبر عقدة اللسان، واللين يجبر الشدة والحدة التى كانت فى طبع موسى عليهما السلام.

والشىء الآخر أن موسى كان أسمر اللون وهارون أبيضه، وكان شعر موسى أجعد وهارون شعره سبط ناعم، وكان هارون حسن تقاسيم الوجه وكان موسى أقنى الأنف.

ولا شك أن جمال الخلقة أمر ترتاح له الأبصار، فرسول الله ﷺ كان ينزل عليه الوحى فى صورة دحية الكلبى؛ لأن دحية كان جميل الشكل(١)، فكان الله يرسل له جبريل فى صورة دحية الكلبى(٢) لكى يؤنسه ويسعده، فهارون كان يتميز بهذه الأشياء، فلم يأخذها موسى على أنها أشياء تميَّز بها ليحقد عليه، ولكنه أخذها على أن أخاه تميَّز بها ليكمل نقصه هو. وهذه هى النظرة التى يجب أن تكون فى الناس ، فإذا كان

---

(١) وفى الحديث عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ قال : «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال : «إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس» .
أخرجه مسلم [٩١]

(٢) هو دِحْية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن امرىء القيس بن الخزرج . وقيل : عامر الأكبر ابن عوف بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللات بن رفيدة بن ثور ابن كلب الكلبى، صاحب رسول الله ﷺ، ورسوله إلى قيصر ملك الروم. وكان أجمل الناس وجهًا ، وروى أنه كان إذا قدم المدينة من الشام، لم تبق معصر إلا خرجت تنظر إليه، والمعصر : التى بلغت سن المحيض، وقيل: التى دنت منه. روى عن النبى ﷺ .

[تهذيب الكمال : ٨ / ٤٧٣، ٤٧٤]

وعن ابن عمر رضى الله عنه قال : «. . . . وكان جبريل عليه السلام يأتى النبى ﷺ فى صورة دحية » إسناده صحيح. أخرجه أحمد فى المسند [١٠٧/٢]

إنسان فيه خصلة طيبة فعلى غيره أن يفرح به؛ لأنك إذا ما رأيت كمالاً في غيرك فاعلم أن هذا فى صالحك أنت .

وكلمة (وزير) مأخوذة من الوَزَر وهو الملجأ الذى يلجأ إليه الناس، مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ [القيامة] لأن الإنسان لايقدر على أعباء العمل بمفرده فيأتى بوزير ليعينه، ولكن هذا الوزير الذى يأتى به ليعينه فيكتشف أنه ليس معيناً له، وإنما هو وزر عليه. فالوزير إن كان ناصحاً أميناً يكون بحق حصناً وملجئًا، وإن كان غير ذلك فاستغل الوزارة لتحقيق المكاسب الشخصية له ولأقاربه، فهذا لايكون وزيرًا، ولكنه يكون وزرًا؛ لذلك فالرسولﷺ يقول: «خير الملوك ملك جعل الله له وزيراً، إن نسِي ذكّره، وإن نوى على خير أعانه، وإن أراد شراً كفَّه»[(1)] وبيَّن فى حديث آخر أن كل حاكم له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف، وبطانة تأمره بالسوء كما قال عنها رسول اللهﷺ[(2)]. فى المقابل انظر إلى سياسة البشر، فمثلا أنوشروان قال: إياكم أن تفهموا أن

---

(1) أخرج أبو داود بإسناد جيد على شرط مسلم عن عائشة رضى الله عنها- بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بالأمير خيراً، جعل له وزير صدق، إن نسى ذكَّره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسى لم يذكِّره، وإن ذكر لم يعنه». أخرجه أبو داود [٢٩٣٢]، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٥٤٤]

(2) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالخير وتَحضُّه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتَحضُّه عليه فالمعصوم من عصم الله» .
أخرجه النسائى فى المجتبى [١٥٨/٧، ١٥٩]، وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [٣٩١٩]

وعن أبى أيوب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما بعث الله من نبى، ولا كان بعده من خليفة إلا وله بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالا، فمن وقى بطانة السوء فقد وقى». أخرجه النسائى فى الكبرى [٧٨٢٦]. وذكره الألبانى فى صحيح الجامع [٥٥٨٠] .

أحدا يستغنى عن أحد، فكل واحد له مهمة، فأنت إن زدت فى شىء فقد نقصت فى أشياء، هذه الأشياء قد وضعها الله فى غيرك حتى تكملك، وأنت تكمل غيرك، فالمعايشة مشتركة، ولكن الضرورة تفرضها وليس التفضل.

ونحن قلنا سابقا: إن الذى ينظف بالوعات المجارى، والذى ينظف دورات المياه، والذى يكنس الشوارع، لو أن هؤلاء لم يحضروا إلى عملهم فى يوم من الأيام لابد أن البلد سيتدهور حاله، فتنتشر القاذورات والروائح الكريهة والأوبئة ، ولكن بفرض أن الوزراء غابوا يوماً ماذا يحدث؟ لا شىء.. إذن أحقر المهن إذا تعطلت تتعطل الدنيا، فلابد أن تعرف أن هذا يؤدى لك مهمة لا تستطيع أنت أن تؤديها، فإياكم أن يعتقد أحدكم أنه خير من الآخرين فى شىء، ولكن قل: أنا خير منه فى هذه، لكن هو خير منى فى غيرها.

ولقد تحدثنا قبل ذلك عن قضية المجموع، وهى: أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان، فهذا ممتاز فى قوة الجسم والصحة، ولكنه غبىّ، وهذا صحته ضعيفة ولكنه ذكى، وهذا غنى ولكنه مريض، وهذا فقير ولكنه صحيح، وهذا شجاع وهذا جبان إلى آخر هذه الصفات، فإذا حسبت مجموع كل واحد تجده مساوياً لمجموع الآخر؛ لأن هذا أخذ عشرة من عشرة فى ناحية، ولكنه أخذ صفراً فى ناحية أخرى، وهكذا فمجموع كل واحد يساوى مجموع الآخر .

وربّنا سبحانه قد خلق فينا هذا التفاوت، حتى يحتاج بعضنا إلى بعض، ويبحث بعضنا عن بعض احتياجاً وليس تفضلاً ، وإلا فلو أن المسألة تفضُّل ربما تعطلت المصالح وتوقفت الحياة؛ لأننا لو فرضنا أن عمال النظافة قالوا لنا: لو سمحتم تفضلوا علينا وقوموا بعملنا غداً. فهل سنحلّ

محلهم ونقوم بهذا العمل تفضلاً منا؟ لا، لن يحدث، ولو حدث من واحد فلن يحدث من الآخرين؛ لأن أساس العمل هو الحاجة، فمثلاً الرجل الذى ينظف بالوعات المجارى ودورات المياه ، يستيقظ فى الصباح وسأل الله أن يرزقه هذا العمل الذى دفعه إلى هذا هو الحاجة، حاجة طعامه وطعام أولاده، فالله سبحانه ربط الأعمال التى يحتاجها الإنسان بالحاجة والضرورة، فأنت إذا رأيت إنساناً متميزاً عنك فى شىء فابحث عن شىء تميزت فيه عليه، حتى لا تحقد عليه، وإذا كنتَ متميزاً عن واحد فى شىء فابحث عن الشىء الذى تميز فيه هو عنك حتى لا تغتر وتستكبر. إذن هناك توازن استطراقى، بين الناس .

ومعنى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾[1] [طه: ٢٩] أى مأمونا علىّ . والإزر: هو القوة . ولهذا تجد أنهما حينما يذهبان إلى فرعون، رغم أن المتحدث هو موسى، إلا أنه تكلم بلسان الاثنين فقال : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧] ، فالشىء الذى يتحدث فيه موسى هو عن نفسه وعن هارون؛ ولذلك لما دعا موسى على فرعون وقال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] أجابه الحق سبحانه بقوله : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] مع أن موسى هو الذى دعا، لأن موسى كان يدعو وهارون يقول آمين، والمؤمِّن أحد الداعيين .

---

(١) الوزير : الموازر، كالأكيل المواكل ؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره، أى ثقله. قال الزجّاج: واشتقاقه فى اللغة من الوزر، وهو الجبل الذى يعتصم به لينجوَ من الهلكة. والوزير : الذى يعتمد الملك على رأيه فى الأمور ويلتجئ إليه. وقال الأصمعى : هو مشتق من الموازرة ، وهى المعاونة . [فتح القدير : ٣/ ٣٦٥]

وموسى حينما طلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون، لم يقل ذلك حتى يريح نفسه من عناء الدعوة ومواجهة فرعون وقومه، ولكنه فعل ذلك حتى يكون أداء المهمة على خير وجه ؛ حيث يكمل كل منهما الآخر، وأراد أيضاً ألا يبدد طاقته كلها فى الدعوة ، وأن يبقى شيئاً منها لعبادة الله وذكره وتسبيحه، فقال: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥)﴾ [طه] .

وقوله ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ يعنى أن تكليف هارون بالدعوة يكون من قِبل الله تعالى؛ حتى لا يكون تفضلاً من موسى عليه.

ومعنى ﴿نُسَبِّحَكَ كَثِيراً﴾ ؛ التسبيح: التقديس .. تقديس الله ذاتاً وصفاتا وأفعالاً.

فمن ناحية الذات ليس هناك ذات مثل ذاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] ، ومن جهة الأفعال ليس هناك فعل مثل فعله، فإذا قال الله: فعلتُ ، فلا تقل: لماذا فعل؟ لأنه مقدّس فى فعله أيضاً ، وفى الصفات أيضًا تعرف أن الله سميع ، ولكن إياك أن تظن أن سمعَهُ مثل سمعك ، فهو سبحانه مقدس، أى منزّه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله . ومعنى ﴿نُسَبِّحَكَ﴾ أى نقدسك تقديس الألوهية الذى أنت فيه، فلا نأتى لك بشيء من اختلاقنا، ونسبحك ليس تسبيحاً قليلاً ولكن تسبيحاً كثيراً، فكان التسبيح من المسبِّح يورثه لذة فى نفسه؛ والطاعة من الطائع تورثه لذة فى نفسه، لذلك قال النبى ﷺ : «وجُعلت قرة عينى فى الصلاة»[1] ،وحينما كان يحزبه أى أمر كان يقوم إلى الصلاة .

---

(١) عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «حبب إلىَّ النساء والطيب، وجعلت قرة عينى فى الصلاة» صحيح . =

ومعنى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٥] أى: إنك قيوم علينا، ترى وتسمع ما نقوم به من عمل وتعلم نيتنا فيه [1] .

= أخرجه النسائى فى المجتبى [٧/ ٦٢] ، وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [٣٦٨١] وعن أنس النبى ﷺ قال : «حبب إلىّ من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عينى فى الصلاة» . أخرجه النسائى فى المجتبى [٧/ ٦١] ، وأحمد فى المسند [٣/ ١٢٨] ، وصححه الألبانى فى صحيح النسائى [٣٦٨٠].

(١) قال القاسمى فى قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أى : عالما بأحوالنا وبأن المدعوّ به مما يفيدنا. [تفسير القاسمى : ١١/ ٤١٧٨]

* موسى وهارون إلى فرعون وملئه *

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [يونس: ٧٥] إن هذه الآية تعرضت لكلمة البعث بالنسبة لموسى وهارون، وإن هذا البعث أخذ عدة مراحل: المرحلة الأولى حينما اختار الله موسى وأبلغه بهذا الاختيار مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣)﴾[طه]، وكان هذا أول بلاغ من الله سبحانه وتعالى إلى موسى باختياره رسولاً ، ثم جاء الأمر من الله سبحانه وتعالى بمكان الرسالة فقال جل جلاله: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣] وهنا سأل موسى عليه السلام ربه أن يشد عضده بأخيه هارون، كما يقص القرآن الكريم: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢] وكانت المرحلة التالية أن أجاب الله سبحانه وتعالى دعاء موسى، فقال جل جلاله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] وهكذا ضم الله إلى موسى هارون فأصبح رسولاً ، ولكن أصل الرسالة لموسى عليه السلام، بدليل أن كل الآيات نزلت على موسى، والذى كلَّمه الله سبحانه وتعالى هو موسى؛ لأنه هو الرسول فى الأصل وانضم إليه هارون استجابة لدعوة موسى فأصبح رسولا ، ولذلك نجد فى القرآن الكريم قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي

﴿وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١) [طه: ٤٢، ٤٣] فالخطاب لموسى وهارون ، وموسى رسول وهارون رسول، ولكن الأصل فى الرسالة هو موسى. على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى خاطب موسى وهارون بصيغة المثنى فى قوله تعالى : ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ (٢) [طه: ٤٧]ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول فى آية أخرى :﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣) [الشعراء: ١٦] وبعض المستشرقين يسأل كيف يأتى لفظ رسول مرة مثنى ومرة مفردًا؟

(١) قال ابن الجوزى: ﴿وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ قال ابن قتيبة: لا تضعفا ولا تفترا، يقال: ونى ينى فى الأمر وفيه لغة أخرى: ونى، يونى. وفى المراد بالذكر هاهنا قولان:
أحدهما: أنه الرسالة إلى فرعون.
والثانى: أنه القيام بالفرائض والتسبيح والتهليل. [زاد المسير : ٥/ ٢٠٠]
قال الطبرى: يقول: ولا تضعفا فى أن تذكرانى فيما أمرتكما ونهيتكما، فإن ذكركما إياى يقوى عزائمكما ويثبت أقدامكما، لأنكما إذا ذكرتمانى ذكرتما مِنّى عليكما نعما جمة ومننا لا تحصى كثرة . [تفسير الطبرى : ١٦/١٦٨]
(٢) قال ابن كثير: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: بدلالة ومعجزة من ربك.
[تفسير ابن كثير : ٣/ ١٥٠]
وقال ابن عباس: هى العصا. وقال مقاتل: أظهر اليد فى مقام، والعصا فى مقام.
[زاد المسير : ٥/ ٢٠٢]
وقوله: ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ قال مقاتل: على من آمن بالله. قال الزجاج: وليس يعنى به التحية، وإنما معناه: أن من اتبع الهدى سلم من عذاب الله وسخطه، والدليل على أنه ليس بسلام، أنه ليس بابتداء لقاء وخطاب.
[زاد المسير : ٥/ ٢٠٢]
(٣) قال ابن كثير: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. أى كل منا أُرسل إليك.
[تفسير ابن كثير : ٣/٣٢١]
﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]. قال ابن قتيبة: الرسول=

والجواب: أنهم لم يفطنوا إلى شيء هام، هو وحدة رسالة موسى وهارون، لأن كلاً منهما لم يأت برسالة منفصلة، بل جاء الاثنان برسالة واحدة؛ ولذلك فإن كان الرسول ليس واحدا بل اثنين، فإن الرسالة لم تتعدد بل جاءا برسالة واحدة ومن هنا فإن قوله تعالى : ﴿رَسُول﴾ بالمفرد إشارة إلى وحدة الرسالة، وأنها ليست بتعاقب الرسل ولكنها رسالة واحدة وإن كُلِّف بها رسولان ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ [يونس: ٧٥] الملأ هم أشراف القوم وأعيانه والمقربون لصاحب السيادة والسلطان، هؤلاء اسمهم الملأ، وذلك لأنهم هم الذين يملأون العين؛ لأن العين إذا اتجهت إليهم تتعلق بهم لوجاهتهم وسلطانهم ولا تنظر إلى سواهم؛ وذلك لما لهم من مهابة وإجلال دنيوى، فالعيون تتعلق دائماً بالسلطان أو الرئيس إذا جاء إلى أى مكان وبمن حوله من المقربين .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا﴾ لأن الملأ هم الذين جعلوا فرعون يطغى وهم الذين ساعدوه وأعانوه على ادّعاء الألوهية ويدعون له بكل مبادئه، ويحيطونه بهالة قدسية؛ ولذلك فإن الطاغية لا يطغى إلا بمن حوله، يزينون له الباطل ويعينونه على الفساد، ولو وجد أشخاصاً يقفون ضده ويقاومونه لما طغى وتجبر، ولكنه يجد الملأ حوله كلهم يعينونه على الباطل ويملأون حياته نفاقا ورياء.

إذن فهو بهم فرعون وبدونهم لا شيء، وقوله سبحانه وتعالى :

= يكون بمعنى الجميع. كقوله: ﴿هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ [الحجر: ٦٨]. وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]. وقال الزجاج: المعنى: إنا رسالة رب العالمين، أى ذوو رسالة رب العالمين . [زاد المسير : ٦/٣٣]

﴿بِآيَاتِنَا﴾ الآيات هى المعجزات الدالة على صدق نبوة موسى وهارون، وعلى صدق المنهج الذى يحملانه من الخالق الأعلى، ولكن هل هذه الآيات استطاعت أن تقنع فرعون وملأه؟ طبعاً لا؛ لأنهم يريدون نفوذ الدنيا ولا يبحثون عن الحق؛ ولذلك يقول الله سبحانه: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ [يونس: ٧٥] أى: طلبوا الكبر، مثل استخرج: أى طلب إخراج الشىء، واستفهم: أى طلب الفهم كأن مقومات حياتهم لا تعطيهم كبرًا، فهم عباد لله لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولكنهم يفتعلون الكبر، ويختلقون له أعمدة زائفة.

الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا الصورة فيقول: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[1] [يونس: ٧٥] فكأن الإجرام لا يقع فقط منهم على غيرهم بل هو فى طبعهم، وهذا أشد أنواع الإجرام، فقد تكون مجرماً مع عدوك

(١) قال البقاعى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾. أى طلبوا الكبر على قبول الآيات وأوجدوا ما يدل عليه من الرد بسبب انبعاثه إليهم عقب ذلك ﴿وَكَانُوا﴾ أى جبلة وطبعا، ﴿قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى طبعهم قطع ما ينبغى وصله ووصل ما ينبغى قطعه، فلذلك اجترأوا على الاستكبار مع ما فيها أيضا من شديد المناسبة لما تقدم من قول الكافرين. ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦] فى نسبة موسى عليه السلام إليه وبيان حقيقة السحر فى زواله وخيبته متعاطية؛ لإفساده إلى غير ذلك من الأسرار التى تدق عن الأفكار، هذا إلى ما ينظم إليه من مناسبة ما بين إهلاك القبط وقوم نوح بآية الغرق، وأنه لم ينفع أحدا من الفريقين معاينة الآيات، ومشاهدة الدلالات البينات، بل ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه بعد تلك المعجزات الباهرة والبراهين الظاهرة، ثم اتبعهم فرعون بعد أن كانت انحلت عن حبسهم عراه، وتلاشت من تجبره قواه، وشاهد من الضربات ما يهد الجبال.
ودخل فى طلبهم البحر بحزات لا يقرب ساحتها الأبطال، لما قدره عليه ذو الجلال، ولم يؤمن حتى أتاه البأس حيث يفوت الإيمان بالغيب الذى هو شرط الإيمان، فلم =

لتحقق لنفسك شيئاً ، ولكن أن تكون مجرماً بالطبيعة؛ أى تفعل الإجرام حباً فيه، وتتجبر على الناس دون ذنب فعلوه فإنك فى هذه الحالة تلقى بنفسك فى جهنم خالداً وملعوناً موعوداً بعذاب عظيم[1] .

= ينفعه إيمانه مع اجتهاده فيه وتكريره لفوات شرطه إجابة لدعوة موسى عليه السلام، ثم إن بنى إسرائيل كانوا قبل موسى عليه السلام على منهاج واحد، فما اختلفوا إلا بعد مجئ العلم إليهم وبيان الطريق واضحة لديهم، ولهذا المراد ذكر هنا هارون عليه السلام ؛ لأن من أعظم مقاصد السورة المنع من طلب الآيات لمن يعد الإيمان عند الإتيان بها، إشارة إلى أن القول من الاثنين أوكد، ومع ذلك فلم يصدق من حكم القدير بشقاوته، كل ذلك حثا على الرضا والتسليم، ووكل الأمر إلى الرب الحكيم، فمهما أمر به قُبِل، وما أعرض عنه تُرِك السؤال فيه رجاء تدبيره بأحسن التدبير وتقديره ألطف المقادير؛ ولما أخبر سبحانه باستكبارهم، بيّن أنه تسبب عنه طعنهم فى معجزاته من غير تأمل . [نظم الدرر : ٩/١٦٩-١٧٠]

(١) عن حارثة بن وهب الخزاعى قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبرّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتُلٍ جوّاظٍ مستكبِرٍ» . أخرجه البخارى [٤٩١٨, ٦٠٧١, ٦٦٥٧]

* ألم نربك فينا وليدا *

فلما ذهب موسى وهارون إلى فرعون وطلبا منه أن يرسل معهما بنى إسرائيل قال له فرعون : ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩)﴾[1] [الشعراء] أى أنا الذى ربّيتك وأنت صغير، ورعيتك حتى صرت شاباً قوياً، والعلماء يقولون:

(١) قال أبو حيان: يروى أنهما انطلقا إلى باب فرعون، ولم يؤذن لهما سنة، حتى قال البواب: إن هنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال له: ائذن له؛ لعلنا نضحك منه. فأديا إليه الرسالة، فعرف موسى فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾.

وفى الكلام حذف يدل عليه المعنى، تقديره: فأتيا فرعون، فقالا له ذلك. ولما بادهه موسى بأنه رسول رب العالمين، وأمره بإرسال بنى إسرائيل معه، أخذ يستحقره ويضرب عن المرسل وعما جاء به من عنده، ويذكره بحالة الصغر والمن عليه بالتربية.

والوليد الصبى، وهو فعيل بمعنى مفعول، أطلق ذلك عليه لقربه من الولادة. وقرأ أبو عمرو فى رواية: من عمرك، بإسكان الميم.

وقرأ الجمهور: فعلتك، بفتح الفاء، إذ كانت وكزه واحدة، والشعبى: بكسر الفاء، يريد الهيئة ؛ لأن الوكزة نوع من القتل.

عدد عليه نعمة التربية ومبلغه عنده مبلغ الرجال، حيث كان يقتل نظراءه من بنى إسرائيل، وذكره ما جرى على يده من قتل القبطى، وعظم ذلك بقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ ؛ لأن هذا الإبهام، بكونه لم يصرح أنها القتل، تهويل للواقعة وتعظيم شأن.

﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ : يجوز أن يكون حالاً، أى : قتلته وأنت إذ ذاك من الكافرين، فافترى فرعون بنسبة هذه الحال إليه إذ ذاك، والأنبياء عليهم السلام معصومون. ويجوز أن يكون إخباراً مستأنفاً من فرعون، حكم عليه بأنه من الكافرين=

إن موسى ظل فى بيت فرعون ولم يتركه، إلا فى سن الثامنة عشرة أو فى سن الثلاثين[1]، ففرعون ربّاه ولبث معه سنين، وهنا فرعون يذكّره بالرجل الذى قتله قبل أن يهرب إلى أرض مدين ومعنى: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩] إما من الكافرين بألوهية فرعون أو الكافرين بنعمنا عليك لأننا ربيناك وأكرمناك، والعقلاء يقولون: إن الحق سبحانه وتعالى حين يوفقك فى تربية الأبناء، عليك أن تفهم أن هذه عناية من الله؛ بدليل أن الأب يكون واحداً، والأم واحدة والبيئة واحدة والمنزلة واحدة ويخرج الأخوان كل منهما له سلوك مختلف واتجاه معاكس للآخر، فهذا دليل على أن هناك عناية إلهية أعلى من عناية الوالدين بأولادهما ، هنا فرعون يعدّد ما فعله من أجل موسى، فقد رباه صغيراً ولبث عنده سنين عدة، وهو هنا يسوق الأدلة التى تكشفه وتفضح ادعاءه الألوهية، فلو كان إلهاً لعرف أن هذا الغلام الذى رباه فى بيته، وعطف عليه وأراد أن يتخذه ولدا؛ سيكون هلاكه على يديه.

والفعلة التى فعلها موسى هى قتل خبّاز فرعون حينما ضربه بيده فقضى عليه، مع أنه لم يكن يقصد قتله، فرّد عليه موسى ليبرىء نفسه :﴿قَالَ

= بالنعمة التى لى عليك من التربية والإحسان، قاله ابن زيد؛ أو من الكافرين بى فى أننى إلهك، قاله الحسن؛ أو من الكافرين بالله ؛ لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذى تعيبه الآن، قاله السدى. [البحر المحيط : ١٤٦/٨]

(١) قال ابن جماعة : هى ثمان عشرة سنة، وقيل: اثنتا عشرة سنة، وقيل: ثلاثين . [غرر التبيان :٣٧٢]

وقال ابن الجوزى : فيها ثلاثة أقوال:

أحدها : ثمانى عشرة سنة ، قاله: ابن عباس .

والثانى : أربعون سنة، قاله : ابن السائب.

والثالث : ثلاثون سنة ، قاله : مقاتل . [زاد المسير : ٣٣/٦]

﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١)﴾[1] [الشعراء] أى أننى لا أنكر أننى قتلت، ولكن كنت جاهلاً بما سيترتب على هذه العملية، وما كنت أعتقد

---

(١) قال أبو حيان : ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ إجابة موسى عن كلامه الأخير المتضمن للقتل، إذ كان الاعتذار فيه أهم من الجواب فى ذكر النعمة بالتربية، لأنه فيه إزهاق النفس.

قال ابن عطية: ﴿إِذًا﴾ صلة فى الكلام وكأنها بمعنى حينئذ. انتهى. وليس بصلة، بل هى حرف معنى. وقوله وكأنها بمعنى حينئذ ، ينبغى أن يجعل قوله تفسير معنى، إذ لا يذهب أحد إلى أن ﴿إِذًا﴾ ترادف من حيث الإعراب حينئذ.

وقال الزمخشرى: فإن قلت: ﴿إِذًا﴾ جواب وجزاء معاً والكلام وقع جواباً لفرعون، فكيف وقع جزاء؟ قلت: قول فرعون: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ فيه معنى: إنك جاريت نعمتى بما فعلت؛ فقال له موسى: نعم فعلتها، مجارياً لك تسليماً لقوله، كأن نعمته كانت عنده جديرة بأن تجازى بنحو ذلك الجزاء. انتهى.

وهذا الذى ذكره من أن ﴿إِذًا﴾ جواب وجزاء معاً، هو قول سيبويه، لكن الشراح فهموا أنها قد تكون جواباً وجزاء معاً، وقد تكون جواباً فقط دون جزاء. فالمعنى اللازم لها هو الجواب، وقد يكون مع ذلك جزاء. وحملوا قوله: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا﴾ من المواضع التى جاءت فيها جواباً لآخر، على أن بعض أئمتنا تكلف هنا كونها جزاء وجواباً، وهذا كله محرر فيما كتبناه فى ﴿إِذًا﴾ فى شرح التسهيل، وإنما أردنا أن نذكر أن ما قاله الزمخشرى ليس هو الصحيح، ولا قول الأكثرين.

﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ، قال ابن زيد: معناه من الجاهلين، بأن وكزتى إياه تأتى على نفسه. وقال أبو عبيدة: من الناسين، ونزع لقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة : ٢٨٢]. وفى قراءة عبد الله ، وابن عباس : وأنا من الجاهلين ، ويظهر أنه تفسير للضالين، لا قراءة مروية عن الرسول ﷺ . وقال الزمخشرى : من الفاعلين فعل أولى الجهل ، كما قال يوسف لإخوته : ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩] أو المخلصين، كمن يقتل خطأ من غير تعمد للقتل، أو الذاهبين عن تلك الصفة. انتهى. =

أبداً أن وكزة كهذه ستميت أحداً ، فكلمة ﴿ الضَّالِّين﴾ هنا ليس معناها أنه كان ضالاً عن الهدى ؛ لأن هذه الكلمة لها استعمالات متعددة ، فالذى ضل فى الصحراء هل هو تعمد أن يضل ؟ لا وحين يقول ربنا لرسوله ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ﴾(١) [الضحى: ٧] فهذا ليس معناه أن الرسول كان ضالاً عن الحق؛ لأنه لم يكن عنده منهج من الله وتركه إلى غيره، لم يحدث هذا.

= وقيل: من الضالين، يعنى عن النبوة، ولم يأتنى عن الله فيه شئ، فليس على فيما فعلته فى تلك الحالة توبيخ.

ومن غريب ما شرح به أن معنى ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّين﴾ ، أى من المحبين لله، وما قتلت القبطى إلا غيرة لله. قيل: والضلال يطلق ويراد به المحبة، كما فى قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، أى فى محبتك القديمة. وجمع ضمير الخطاب فى منكم وخفتكم بأن كان قد أفرد فى: تمنها وعبدت، لأن الخوف والفرار لم يكونا منه وحده، وإنما منه ومن ملئه المذكورين قبل : ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ١٠، ١١] وهم كانوا قوماً يأتمرون لقتله، الا ترى إلى قوله ﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾. وقرأ الجمهور: «لما» حرف وجوب لوجوب، على قول سيبويه، وظرفاً بمعنى حين، على مذهب الفارسى. وقرأ حمزة فى رواية: «لما» بكسر اللام وتخفيف الميم، أى يخوفكم. وقرأ عيسى: حكماً بضم الكاف؛ والجمهور: بالإسكان. والحكم: النبوة.

﴿وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾: درجة ثانية للنبوة. فرب نبى ليس برسول. وقيل: الحكم: العلم والفهم. [البحر المحيط : ٨/ ١٤٦-١٤٨]

(١) قال ابن كثير: منهم من قال: إن المراد بهذا أن النبى ﷺ ضل فى شعاب مكة وهو صغير، ثم رجع. وقيل: إنه ضل وهو مع عمه فى طريق الشام وكان راكبا ناقة فى الليل فجاء إبليس فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ثم عدل بالراحلة إلى الطريق. [تفسير ابن كثير :٤/ ٥٢٥]

فموسى فرّ من مصر خشية القتل، خاصة بعد أن سمع عن تآمر القوم عليه، كما فى قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (1) [القصص: ٢٠] ومعنى ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٢١] أى حكمة تجعلنى أضع الأشياء فى مواضعها ؛ لأننى خرجت مظلوماً ولم أقصد قتل الرجل، فأعطانى ربى من الحكمة؛ حتى لا أضع الشىء إلا فى محله(2) ،

---

(1) قال السيوطى: عن الضحاك فى قوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ قال: مؤمن آل فرعون.

وعن شعيب الجبائى قال: كان اسم الذى قال لموسى ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ شمعون. [الدر المنثور : ٦/٤٠١]

وعند ابن جماعة : هو صابوث الذى التقطه ، وقيل هو : شمعان مؤمن آل فرعون، وكان ابن عمه. [غرر التبيان : ٣٩٠]

(2) قال الفخر الرازى فى تفسير قوله تعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩] فى الآية مسائل :

المسألة الأولى : المراد من الحكمة إما العلم ، وإما فعل الصواب ، يروى عن مقاتل أنه قال : تفسير الحكمة فى القرآن على أربعة أوجه :

أحدها : مواعظ القرآن ، قال فى البقرة ﴿وَأَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة:٢٣١] يعنى مواعظ القرآن وفى النساء ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء :١١٣] يعنى المواعظ، ومثلها فى آل عمران .

وثانيها : الحكمة بمعنى الفهم والعلم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] وفى لقمان : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢] يعنى الفهم والعلم وفى الأنعام : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ﴾ [الأنعام: ٨٩] .

وثالثها : الحكمة بمعنى النبوة فى النساء ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ٥٤] ، يعنى النبوة، وفى ص: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠] يعنى النبوة، وفى البقرة: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١] . =

= ورابعها : القرآن بما فيه من عجائب الأسرار فى النحل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] وفى هذه الآية ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩] وجميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع إلى العلم، ثم تأمل أيها المسكين فإنه تعالى ما أعطى إلا القليل من العلم، قال تعالى : ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥] وسمى الدنيا بأسرها قليلا، فقال : ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧] وانظر كم مقدار هذا القليل حتى تعرف عظمة ذلك الكثير ، والبرهان العقلى أيضًا يطابقه؛ لأن الدنيا متناهية المقدار ، متناهية المدة، والعلوم لا نهاية لمراتبها وعددها ومدة بقائها ، والسعادة الحاصلة بها ، وذلك ينبئك على فضلة العلم، والاستقصاء فى هذا الباب قد مرّ فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وأما الحكمة بمعنى فعل الصواب فقيل فى حدها : إنها التخلق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية ، ومداد هذا المعنى على قوله ﷺ «تخلقوا بأخلاق الله تعالى» ، واعلم أن الحكمة لا يمكن خروجها عن هذين المعنيين؛ وذلك لأن كمال الإنسان فى شيئين: أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به، فالمرجع بالأول إلى العلم والإدراك المطابق، وبالثانى إلى فعل العدل والصواب، فحكى عن إبراهيم ﷺ قوله ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً﴾ [الشعراء: ٨٣] وهو الحكمة النظرية ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣] الحكمة العملية ، ونادى موسى عليه السلام فقال : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا﴾ [طه: ١٤] وهو الحكمة النظرية ، ثم قال ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] وهو الحكمة العملية ، وقال عن عيسى عليه السلام إنه قال : ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] الآية ، وكل ذلك للحكمة النظرية ، ثم قال : ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] وهو الحكمة العملية ، وقال فى حق محمد ﷺ : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وهو الحكمة النظرية ، ثم قال : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩] وهو الحكمة العملية، وقال فى جميع الأنبياء : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا﴾ [النحل: ٢] وهو الحكمة النظرية =

= ثم قال ﴿فَاتَّقُونِ﴾ وهو الحكمة العملية ، والقرآن هو من الآية الدالة على أن كمال حال الإنسان ليس إلا فى هاتين القوتين ، قال أبو مسلم: الحكمة فعلة من الحكم ، وهى كالنحلة من النحل، ورجل حكيم ، أى محكم إذا كان ذا حجى ، ولب وإصابة رأى ، وهو فى هذا الموضع فى معنى الفاعل ، ويقال : وهو فعيل بمعنى مفعول ، قال الله تعالى : ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] وهذا الذى قاله أبو مسلم من اشتقاق اللغة يطابق ما ذكرناه من المعنى.

المسألة الثانية : قال صاحب الكشاف : قرىء ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ بمعنى : ومن يؤته الله الحكمة، وهكذا قرأ الأعمش.

المسألة الثالثة : احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى؛ وذلك لأن الحكمة إن فسّرناها بالعلم لم تكن مفسَّرة بالعلوم الضرورية ؛ لأنها حاصلة للبهائم والمجانين والأطفال ، وهذه الأشياء لا توصف بأنها حكم، فهى مفسرة بالعلوم النظرية ، وإن فسرناها بالأفعال الحسية فالأمر ظاهر، وعلى التقديرين فيلزم أن يكون حصول العلوم النظرية ، والأفعال الحسية ثابتًا من غيرهم، وبتقدير مقدر غيرهم ؛ وذلك الغير ليس إلا الله تعالى بالاتفاق ، فدل على أن فعل العبد خلق للهتعالى.

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الحكمة النبوة والقرآن ، أو قوة الفهم والحسية ، على ما هو قول الربيع بن أنس.

قلنا : الدليل الذى ذكرناه يدفع هذه الاحتمالات ؛ وذلك لأنه بالنقل المتواتر ثبت أنه يستعمل لفظ الحكيم فى غير الأنبياء ، فتكون الحكمة مغايرة للنبوة والقرآن ، بل هى مفسَّرة إما بمعرفة حقائق الأشياء ، أو بالإقدام على الأفعال الحسنة الصائبة، وعلى التقريرين فالمقصود حاصل، فإن حاولت المعتزلة حمل الإيتاء على التوفيق والإعانة والألطاف ، قلنا : كل ما فعله من هذا الجنس فى حق المؤمنين ، فقد فعل مثله فى حق الكفار ، مع أن هذا المدح العظيم المذكور فى هذه الآية لا يتناولهم ، فعلمنا أن الحكمة المذكورة فى هذه الآية شىء آخر سوى فعل الألطاف والله أعلم.

[التفسير الكبير : ٧/٦٧-٦٩].

بعد ذلك يقول موسى عليه السلام لفرعون﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] أى هل تمن علىّ بهذه الأشياء التى فعلتها معى من تربية ورعاية،هل هذه الحسنة تقارنها بما تفعله مع بنى إسرائيل،من ذبح الأطفال الذكور واستحياء النساء واستعباد الرجال،فهل هذا يقارن بما تفعله فى حق قومى ومعنى:﴿عَبَّدتَّ﴾ أى جعلتهم عبيداً (١).

---

(١) قال البقاعى : ﴿وَتِلْكَ﴾ أى التربية الشنعاء العظيمة فى الشناعة التى ذكرتنيها ﴿نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ ولما كان سببها ظلمه لقومه ، جعله نفسها فقال مبدلا منها تنبيها على إحباطها ، وإعلاما بأنها - بكونها نقمة - أولى منها فى عدها نعمة : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ﴾ أى تعبيدك وتذليلك على ذلك الوجه البديع المبعد قومى ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى جعلتهم عبيدا ظلما وعدوانا وهم أبناء الأنبياء، ولسلفهم يوسف عليه السلام عليكم من المنة - بإحياء نفوسكم أولا، وعتق رقابكم ثانيا، ما لا تقدرون له على جزاء أصلا، ثم ما كفاك ذلك حتى فعلت ما لم يفعله مستعبد، فأمرت بقتل أبنائهم ، فكان ذلك سبب وقوعى إليك لأسلم من ظلمك.
[نظم الدرر :١٤/ ٢٢ : ٢٣]
وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ اختلف الناس فى معنى هذا الكلام؛ فقال السدى والطبرى والفراء : هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة؛ كأنه يقول : نعم ؟ وتربيتك نعمة على من حيث عبّدت غيرى وتركتنى ، ولكن لا يدفع ذلك رسالتى . وقيل : هو من موسى عليه السلام على جهة الإنكار؛ أى أتمنّ علىّ بأن ربيتنى وليدا وأنت قد استعبدت بنى إسرائيل وقتلتهم؟! أى ليست بنعمة ؟ لأن الواجب كان ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومى .؛ فكيف تذكر إحسانك إلى على الخصوص ؟! قال معناه قتادة وغيره. وقيل : فيه تقدير استفهام ؛ أى أو تلك نعمة ؟ قاله الأخفش والفراء أيضا وأنكره النحاس وغيره . قال النحاس : وهذا لا يجوز لأن ألف الاستفهام تحدث معنى ، وحذفها محال إلا أن يكون فى الكلام أم ؛ كما قال الشاعر :

تروح من الحى أم تبتكر

ولا أعلم بين النحويين اختلافا فى هذا إلا شيئا قاله الفراء .قال: يجوز حذف ألف=

ثم يقول تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(1) [الشعراء: ٢٣] أي من هو رب العالمين الذى تتحدث عنه؟ فردّ موسى ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ

= الاستفهام فى أفعال الشك، وحكى تُرى زيدا منطلقا ؟ بمعنى أترى . وكان على ابن سليمان يقول فى هذا : إنما أخذه من الفاظ العامة . قال الثعلبى : قال الفراء ومن قال إنها إنكار قال معناه أو تلك نعمة ؟ على طريق الاستفهام ؛ كقوله : «هذا ربى» «فهمُ الخالدون».

قال الشاعر :

رفونى وقالوا يا خويلد لا تُرع ... فقلت وأنكرت الوجوه همُ همُ

وأنشد الغزنوى شاهدا على ترك الألف قولهم:

لم أنس يوم الرحيل وقفتها ... وجفنها من دموعها شرِق

وقولها والركاب واقفة ... تركتنى هكذا وتنطلق

قلت: ففى هذا حذف ألف الاستفهام مع عدم أم خلاف قول النحاس، وقال الضحاك : إن الكلام خرج مخرج التبكيت والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام؛ والمعنى : لو لم تقتل بنى إسرائيل لربانى أبواى؛ فأى نعمة لك على ! فأنت تمن على بما لا يجب أن تمن به . وقيل : معناه كيف تمن بالتربية وقد أهنت قومى؟ ومن أهين قومه ذل. و ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ فى موضع رفع على البدل من ﴿نِعْمَةٌ﴾ ويجوز أن تكون فى موضع نصب بمعنى : لأن عبدت بنى إسرائيل ؛ أى اتخذتهم عبيدا. يقال : عبدته وأعبدته بمعنى ؛ قاله الفراء وأنشد :

علام يعبدنى قومى وقد كثرت ... فيهم أباعر ما شاءوا وعبدان

[تفسير القرطبى : ١٣/ ٩٥ ، ٩٦]

(1) قال القنوجى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أى لما سمع قول موسى وهارون ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] قال مستفسراً لهما عن ذلك، عازماً على الاعتراض لما قالاه، أى: أى شئ هو؟ وجاء فى الاستفهام بـ ﴿مَا﴾ التى يستفهم بها عن المجهول، ويطلب بها تعيين الجنس. وقيل: معناه وما صفته؟ تقول ما زيد؟ أى طويل أم قصير؟ فقيه أم طبيب؟ نص عليه صاحب الكشاف وغيره.

[فتح البيان : ٩/ ٣٧]

﴿وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾(١) [الشعراء: ٢٤] أى ربى هو رب هذه السموات وما فيها من شمس وقمر ونجوم وأبراج، ورب هذه الأرض بما فيها من زروع وثمار وجبال وبحار وأنهار وحيوان، وهو الذى خلقها قبل أن توجد أنت يا فرعون .

موسى ردّ على فرعون بشيء ثبت فى الكون قبل وجوده، فما الذى زدته أنت فى الكون يا من تدّعى الألوهية، ثم تلطف معه فى الحوار فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] أى إن كنتم تظنون أن هذه الأشياء لم يخلقها أحد.

استغرب فرعون هذا الكلام من موسى فـ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥] فرعون قال ذلك ؛ لأنه كان ينتظر من أتباعه بمجرد أن ينفى موسى عنه الربوبية والألوهية، وينسبها إلى من خلق السموات والأرض، أن يهبّوا لإسكات موسى والرد عليه ؛ لأنه حقّر إلـهـهم ، ونفى عنه ما يدعى ، فقال لهم مستنكراً سكوتهم : ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أى أما سمعتم ما قاله فى حقّى؟ فلماذا تسكتون؟ وهم سكتوا لأنهم يعلمون أنه كاذب فى ادعائه الألوهية، ويتمنون فى قرارة أنفسهم أن ينصر الله موسى عليه ؛ حتى يتخلصوا من جبروته وطغيانه.

---

(١) فلما قال فرعون ذلك ﴿قَالَ﴾ موسى:﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى بيّن الجنسين فعيّن له ما أراد بالعالمين، وترك جواب ما سأل عنه فرعون ؛ لأنه سأل عن جنس رب العالمين، ولا جنس له، فأجابه موسى بما يدل على عظيم القدرة الإلهية التى تتضح لكل سامع أنه سبحانه الرب ولا رب غيره، وفيه إبطال لدعواه أنه إله . ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بشئ من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره، وإنارة دليله، وهو العلم الذى يستفاد بالاستدلال ؛ ولذا لا يقال الله موقن.

[فتح البيان :٩/ ٣٧٠-٣٧١]

موسى سارع فى بسط حجته، قبل أن يتدخل أحد من القوم فى الحوار، فـ: ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾[1] [الشعراء:٢٦] أى مَن الذى كان إله آبائك وأجدادك يا فرعون قبل أن توجد أنت.

حينما رأى فرعون أن موسى سيهزمه بالحجة والمنطق، أراد أن يخرج من هذا الجدل فاتهمه بالجنون، وهذه أيسر تهمة للدعاة عند الحكام

---

(١) قال صديق حسن خان : ﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ من أشراف قومه وهم خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ ؟ ما قاله ، يعنى موسى معجبًا لهم من ضعف المقالة، كأنه قال : أتسمعون وتعجبون؟ يعنى سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله ، أو يزعم أنه رب السموات ، وهى واجبة متحركة لذاتها كما هو مذهب الدهرية، أو غير معلوم افتقارها إلى مؤثر ، والعدول عن الجواب المطابق متعين لاستحالته. فالسؤال عن الحقيقة سفه وعبث وحمق، وهذا من اللعين مغالطة ؛ لما لم يجد جوابًا عن الحجة التى أوردها عليه موسى ، فلما سمع موسى ما قاله فرعون ، أورد عليه حجة أخرى، هى مندرجة تحت الحجة الأولى ، ولكنها أقرب إلى فهم السامعين.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وخص من العام المتقدم أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه. وهى أظهر دلالة على القادر ، فأوضح لهم أن فرعون مربوب لا رب كما يدعيه .

والمعنى أن هذا الرب الذى أدعوكم إليه هو الذى خلق آباءكم الأولين وخلقكم ، فكيف تعبدون من هو واحد منكم ؟ مخلوق كخلقكم، وله آباء قد فنوا كآبائكم، فلم يجبه فرعون عند ذلك بشىء يعتد به، بل جاء بما يشكك قومه ويخيل إليهم أن هذا الذى قاله موسى مما لا يقوله العقلاء.

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ قاصدًا بذلك المغالطة وإيقاعهم فى الحيرة، مظهرًا أنه مستخف بما قاله موسى مستهزىء به ؛ لأنى أساله عن شىء ويجيبنى عن آخر، وأضافه إلى مخاطبيه ترفعًا عن أن يكون مرسلاً إلى نفسه فأجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الأول. [فتح البيان : ٩/ ٣٧١]

المستبدين، قال تعالى : ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] هذا الأسلوب يفضح فرعون، فهو يعترف أن موسى رسول مرسل، ومادام مرسلا فلابد أن هناك من أرسله وهو الله، فكلامه فيه شهادة ضده مع أنه لم يستطع أن يرد على كلام موسى، فاتهمه بالجنون ولكن موسى لم يعبأ بقوله ومضى فى عرض دعوته، و﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨] أى إن ربى هو رب المشرق والمغرب ومابينهما،وجاء بمقابل الجنون الذى اتهمه فرعون به، فقال: ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] أى إن كان عندكم عقل تقيسون به الأمور.

---

(١) قال الزمخشرى : لما قال له بوابه: إن ههنا من يزعم أنه رسول رب العالمين ، قال له عند دخوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] يريد أى شىء رب العالمين، وهذا السؤال لايخلو إما أن يريد به أى شىء هو من الأشياء التى شوهدت وعرفت أجناسها فأجاب بما يستدل به عليه من أفعاله الخاصة ؛ ليعرفه أنه ليس بشىء مما شوهد وعرف من الأجرام والأعراض، وأنه شىء مخالف لجميع الأشياء، ليس كمثله شىء وإما أن يريد به أى شىء هو على الإطلاق، تفتيشا عن حقيقته الخاصة ما هى فأجابه بأن الذى إليه سبيل وهو الكافى فى معرفته معرفة ثباته بصفاته استدلالا بأفعاله الخاصة على ذلك ، وأما التفتيش عن حقيقته الخاصة التى هى فوق فطر العقول ، فتفتيش عما لا سبيل إليه ، والسائل عنه متعنت غير طالب للحق ، والذى يليق بحال فرعون ويدل عليه الكلام أن يكون سؤاله هذا إنكارا لأن يكون للعالمين رب سواه ؛ لادعائه الإلهية فلما أجاب موسى بما أجاب ، عجب قومه من جوابه حيث نسب الربوبية إلى غيره ، فلما ثنى بتقرير قوله جننه إلى قومه وطنز به[1] ، حيث سماه رسولهم فلما ثلث بتقرير آخر احتد واحتدم وقال لئن اتخذت إلها غيرى وهذا يدل على صحة هذا الوجه الأخير فإن قلت : كيف ؟ قيل ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ، على التثنية والمرجوع إليه بمجموع ، قلت : أريد وما بين الجنسين فعل بالمضمر =

---

(١) (قوله وطنّز به حيث سماه رسولهم) أى سخر به واحتدم أى التهب صدره غيظا. أفاده الصحاح

ولما ضاق فرعون به ذرعا ولم يجد حجة يردّ بها عليه، هدّده بالسجن، شأن كل حاكم طاغية لا يتفاهم ، ولا يقتنع بالحوار مع معارضيه .

قال تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] وهذا إفلاس فى الحجة، فكونك تقوى على الغالب وتأخذه إلى السجن، فأنت لم تقوَ على الحجة فلو كانت عندك حجة لقرعت الحجة بالحجة، والناس الذين يسمعون الحوار لو أنهم فهموا مادار فيه،

= ما فعل بالظاهر من قال فى الهيجا جمالين ، فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وأين عن فرعون وملئه الإيقان ؟ قلت: معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذى يؤدى إليه النظر الصحيح نفعكم هذا الجواب ، وإلا لم ينفع أو إن كنتم موقنين بشىء قط ، فهذا أولى ما توقنون به لظهوره وإنارة دليله. فإن قلت : ومن كان حوله؟ قلت : أشراف قومه قبل كانوا خمسمائة رجل عليهم الأساور وكانت للملوك خاصة ، فإن قلت : ذكر السموات والأرض وما بينهما فاستوعب به الخلائق كلها ، فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب؟ قلت : قد عمم أولا ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم ؛ لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد وعاين من الدلائل على الصانع والناقل من هيئة إلى هيئة وحال إلى حال من وقت ميلاده إلى وقت وفاته ، ثم خصص المشرق والمغرب لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر على تقدير مستقيم فى فصول السنة وحساب مستوٍ من أظهر ما استدل به ، ولظهوره انتقل إلى الاحتجاج به خليل الله عن الاحتجاج بالإحياء والإماتة على نمروذ بن كنعان ، فبهت الذى كفر وقرئ «رب المشارق والمغارب» الذى أرسل إليكم بفتح الهمزة ، فإن قلت: كيف قال أولا: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وآخر : ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ؟ قلت : لاين أولا فلما رأى منهم شدة الشكيمة فى العناد(١) وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج، خاشن وعارض «إن رسولكم لمجنون» بقوله ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ . [الكشاف : ٣/ ١١١-١١٢]

---

(١) (قوله فلما رأى منه شدة الشكيمة فى العناد) فى الصحاح: فلان شديد الشكيمة إذا كان شديد النفس أنفا أبيا . [الكشاف :٣/ ١١١ - ١١٢]

كان عليهم أن ينقلبوا عليه؛ لأنك حين تحاور إنساناً يجب عليك أن ترد على حجته بحجة مضادة، ولا يحق لك أن تسكته وتحبسه حتى لا يتكلم، موسى يعرف سجن فرعون وكان من عادته أنه إذا سجن أحداً يظل فى السجن حتى يموت .

رغم كل هذا الجدل، موسى لم يظهر معجزته بعد ، ولكنه أخّرها إلى نهاية الحوار، فلما وجده لم يقتنع بالحوار وهدده بالسجن أراد أن يريه الآيات و﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١)﴾ [١] [الشعراء] فبعد أن هدده بالسجن أراد الله أن تظهر حجة موسى أمام الناس، فجعل فرعون يوافق أن يعرض موسى ما عنده من آياتٍ أمامه، فقال له : أتجعلنى من المسجونين حتى لو جئتك بشىء مبين واضح، فى أنى صادق فى البلاغ عن الله ، فطلب منه فرعون أن يريه هذا الشىء إن كان صادقاً فيما يقول .

---

(١) قال أبو حيان : لما كان عند موسى عليه السلام من أمر فرعون ما لا يروعه معه توعد فرعون، قال له على جهة اللطف به والطمع فى إيمانه: ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ﴾ ، أى يوضح لك صدقى، أفكنت تسجننى؟ قال الزمخشرى: ﴿أَوَ لَوْ جِئْتُكَ﴾ ، «واو» الحال دخلت عليها همزة الاستفهام، معناه: أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشئ مبين؟ انتهى.

وتقدم لنا الكلام على هذه الواو، والداخلة على ﴿لَوْ﴾ فى مثل هذا السياق فى قوله: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فأغنى عن إعادته.

وقال الحوفى: «واو» العطف دخلت عليها همزة الاستفهام للتقرير، والمعنى: أتسجننى حتى فى هذه الحالة التى لا تناسب أن أسجن وأنا متلبس بها؟

ولما سمع فرعون هذا من موسى طمع أن يجده موضع معارضة فقال له:﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ، أن لك رباً بعثك رسولاً إلينا. قال الزمخشرى: وفى قوله:=

. . . .

= ﴿إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ دليل على أنه لا يأتى بالمعجزة إلا الصادق فى دعواه، لأن المعجزة تصديق من الله لمدعى النبوة، والحكيم لا يصدق الكاذب.

ومن العجب أن مثل فرعون لم يخف عليه مثل هذا، وخفى على ناس من أهل القبلة، حيث جوزوا القبيح على الله حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات. انتهى.

وتقديره: ﴿إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأتِ به، حذف الجزاء، لأن الأمر بالإتيان يدل عليه.

وقدره الزمخشرى: ﴿إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فى دعواك أتيت به. جعل الجواب المحذوف فعلاً ماضياً، ولا يقدر إلا من جنس الدليل بقولهم: أنت ظالم إن فعلت، تقديره: أنت ظالم إن فعلت، فأنت ظالم.

وقال الحوفى: «إن» حرف شرط يجوز أن يكون ما تقدم جوابه، وجاز تقديم الجواب، لأن حذف الشرط له لم يعمل فى اللفظ شيئاً. ويجوز أن يكون الجواب محذوفاً تقديره فأت به. وقول الزمخشرى: حتى لزمهم تصديق الكاذبين بالمعجزات، إشارة إلى إنكار الكرامات التى ذهب أهل السنة إلى إثباتها. والمعجز عندهم هو ما كان خارقاً للعادة، ولا يكون إلا لنبى أو فى زمان نبى، إن جرى على يد غيره فتكون معجزة لذلك النبى، أو على سبيل الإرهاص لنبى.

[البحر المحيط : ٨/١٥٢- ١٥٣]

* إنى أخاف أن يكذبون *

ثـم يـقول تـعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص](1) لازال موسى خائفا من حادثة الرجل القبطى الذى قتله، قبل هروبه إلى بلاد مدين، فطلب من ربه أن يرسل معه أخاه هارون؛ لأنه أفصح منه لسانا، وكلمة ﴿ رِدْءًا ﴾(2) أى: معينا؛ لأنه عنده فصاحة لسان يستطيع أن يرد على القوم، ويزيل الشبهات، ويُظهر صدق موسى أمام الملأ حتى لا يكذبوه، وكان موسى يستطيع أن يستأذن ربه فى الاستعانة بهارون دون أن يكلف الله هارون بهذه المهمة (أى تكون مهمة هارون من الباطن، من باطن مهمة موسى) ولكنه جعل ذلك تكليفا من الله؛ لأنه لو لم يكن كذلك، ما كان لموسى ولاية على أخيه،

---

(1) يقول الطبرى فى تفسير الآيات: «يقول تعالى ذكره: قال موسى: ربِّ إنى قتلت من قوم فرعون نفسا، فأخاف إن أتيتهم فلم أُبن عن نفسى بحجة أن يقتلونى؛ لأن فى لسانى عقدة، ولا أبين معها ما أريد من الكلام ﴿ أَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا ﴾ يقول: أحسن بيانا عما يريد أن يبينه ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴾ عونا يصدقنى، أى: يبين لهم عنى ما أخاطبهم به». [تفسير الطبرى: ١٠/ ٧١]

وقوله: ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ إنى أخاف أن لا يصدقونى على قولى لهم أنى أرسلت إليكم» . [تفسير الطبرى : ١٠/ ٧٢]

(2) فلان ردءٌ لفلان : أى ينصره ويشد ظهره والردء : العون والناصر. وفى وصية عمر رضى الله عنه عند موته: وأوصى بأهل الأمصار خيرا؛ فإنهم ردءُ الإسلام، وجباة المال. [لسان العرب :١/ ٨٥]

وأيضا فى ذلك رفعة لهارون أن يكلفه الله بشرف الذهاب مع أخيه إلى فرعون وقومه؛ ليدعواهم إلى الله؛ ولذلك تجد التعبيرات فى القرآن تتحدث عن هارون كرسول؛ ولذلك حينما ذهبا إلى فرعون وحدّثاه عن رسالتهما التى بعثهما الله بها إليه قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[1] [الشعراء: ٢٧] فكأنه يتحدث عن واحد فقط مع أنه يتحدث معهما سويا؛ لأننا لو نظرنا إلى وحدة الرسالة، فهو رسول واحد فمثلا لو أن حاكما بعث وفدا إلى حاكم آخر، هذا الوفد كله يطلق عليه رسول من حاكم كذا إلى حاكم كذا؛ ولذلك فى الجمع تجدهما يقولان: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧] مما يدل على أن كلا منهما له رسالة، وهذا لا يعنى أن لكل منهما رسالة مخالفة للأخرى؛ لأنك إذا نظرت إلى وحدة الرسالة من المرسِل إلى المرسَل إليه وجدتها رسالة واحدة،ولو تأملنا آيات القرآن الكريم نجده يخاطب موسى وهارون مرة بالمفرد، ومرة بالمثنى، فمثلا موسى لما رأى طغيان فرعون وآله وفسادهم فى الأرض واغترارهم بالنعم التى أعطاها الله لهم قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[2] [يونس: ٨٨] هنا المتكلم هو موسى

---

(١) قال الطبرى فى تفسير الآية على لسان فرعون: «يقول: إن رسولكم هذا الذى يزعم أنه أرسل إليكم لمغلوب على عقله؛ لأنه يقول قولا لا نعرفه ولا نفهمه. وإنما قال ذلك ونَسَبَ موسى -عدو الله- إلى الجِنَّة؛ لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا رب غيره يعبد، وأن الذى يدعوه إليه موسى باطل ليست له حقيقة» .

[تفسير الطبرى: ٩/ ٤٤٠]

(٢) قال الطبرى: «هذا دعاء من موسى، دعا الله على فرعون وملئه أن يغير أموالهم عن هيئتها، ويبدلها إلى غير الحال التى هى بها».

[تفسير الطبرى: ٦/ ٥٩٩]=

عليه السلام . ولكننا نلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [(1)] [يونس: ٨٨] مع أن موسى الذى طلب؛ لأن الله نظر إلى أنهما رسول واحد، وأيضا لأن موسى حينما كان يدعو بذلك كان هارون يقول : آمين، والمؤمِّن أحد الداعيين.

لما طلب سيدنا موسى من ربه أن يرسل معه أخاه هارون ليعاونه ويصدقه أجابه الحق سبحانه إلى طلبه فقال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا

= وقال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أى: عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم، قال الزجاج : طَمْسُ الشىء إذهابه عن صورته . قال ابن عباس ومحمد بن كعب : صارت أموالهم ودراهمهم حجارة منقوشة كهيئتها صحاحا وأثلاثا وأنصافا ، ولم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد . وقال قتادة : بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة. وقال مجاهد وعطية : أهلكها حتى لا تُرَى ؛ يقال : عين مطموسة ، وطُمس الموضع إذا عفا ودرَس . وقال ابن زيد : صارت دنانيرهم ودراهمهم وفرشهم وكل شىء لهم حجارة . محمد ابن كعب : وكان الرجل منهم يكون مع أهله فى فراشه وقد صارا حجرين ؛ قال : وسألنى عمر بن عبد العزيز فذكرت ذلك له فدعا بخريطة [(1)] أصيبت بمصر فأخرج منها الفواكه والدراهم والدنانير وإنها لحجارة . وقال السدى : وكانت إحدى الآيات التسع: ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قال ابن عباس: امنعهم من الإيمان. وقيل: قَسِّها واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان، والمعنى واحد. [تفسير القرطبى: ٨/ ٣٧٤]

(١) قال الزمخشرى :

قيل: كان موسى يدعو وهارون يؤمن. ويجوز أن يكونا جميعا يدعوان. والمعنى: إن دعاءكما مستجاب وما طلبتما كائن، ولكن فى وقته. [الكشاف : ٢/ ٢٠١]

---

(١) الخريطة : هنة مثل الكيس تكون من الخرق والأدم تشرج على ما فيها ومنه خرائط كتب السلطان وعماله . [لسان العرب : ٧/ ٢٨٦].

الْغَالِبُونَ ﴾[القصص: ٣٥] [1] تأمل قول الله تعالى :﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ ﴾ لأن الإنسان يزاول أغلب أعماله أو كلها تقريبا بيديه، والعضلة الفاعلة فى الحمل والحركة هى العضد؛ ولذلك نحن فى لغتنا الدارجة حين نمدح واحدا ونصفه بالقوة نقول: فلان هذا عضل، وحين يمرض الإنسان والعياذ بالله بمرض ضمور العضلات لا يستطيع أن يتحرك، فقول الله تعالى لموسى:﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ يعنى القوة المادية، أما القوة المعنوية فهى فى قوله تعالى ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى حجة قوية لاتغلب، إذن موسى أعطاه الله القوة المادية، والقوة المعنوية.

وقوله تعالى: ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ﴾ [القصص: ٣٥] أى أن الله سينجيهما من بطش فرعون وقومه ، لكن المعركة تتطلب نجاة من الأعداء ونصرا عليهم.

ولذلك طمأنهما الله بالنصر فى قوله بعد ذلك: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ والمعنى أن فرعون وقومه لن يصلوا إليكما، ولن يتغلبوا عليكما بسبب آياتنا التى معكما، أى: المعجزات القوية التى معكما، وبعد ذلك

---

(١) قال القرطبى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أى: نقويك به، وهذا تمثيل؛ لأن قوة اليد بالعضد ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى: حجة وبرهانا ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ﴾ بالأذى. ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ أى: تمتنعان منهم بآياتنا وعنى بالآيات: سائر معجزاته .
[تفسير القرطبى: ١٣/ ٢٨٧]

وقال ابن كثير: ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ أى : سنقوى أمرك ونعز جانبك بأخيك الذى سألت له أن يكون نبيا معك. ﴿ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ أى : حجة قاهرة. ﴿ فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ﴾ أى : لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله.
[تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٧٥]

أنتما ومن اتبعكما الغالبون، فأعطاه السلبية فى الضرر، والإيجابية فى الغلبة، وأساليب القرآن لها عجائب؛ فكلمة: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ تصلح لأن يكون المعنى لا يصلون إليكما بسبب آياتنا وحججنا التى أعطيناها لكما، ويصح أن يكون المعنى بهذه الآيات التى معكما ستكونان أنتما ومن اتبعكما الغالبين، فيصح أن يكون أحد المعنيين أو هما معا، فهنا الآيات خدمت فى الإيجاب والسلب، ففى الإيجاب: كان بسببها النصر والغلبة، وفى السلب: منعت وصول القوم وتغلبهم على موسى وهارون بهذه الحجج والبراهين والمعجزات القوية.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن] الشمس والقمر آيتان سماويتان، يقابلهما النجم والشجر فنجد كلمة النجم تطلق على النجم المنير فى السماء، وتطلق على النجم الثابت فى الأرض، فلما قال الشمس والقمر، جاء بالمناسب لهما فى الضوء وهو النجم ولما ذكر الشجر جاء معها بالنجم فكلمة النجم تصلح للمعنيين؛ ولذلك الشاعر العربى يقول:

أراعى النجم فى سيرى إليكم ... ويرعاه من البيـــدا جـــوادى

أى أننى أراعى النجم فى سيرى لأهتدى به فى الطريق، ويأكله جوادى فى الصحراء فكلمة النجم استخدمت مرتين إحداهما بمعنى النجم المضئ فى السماء، والأخرى بمعنى النبات الذى تأكله الحيوانات فى الأرض[1].

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أى يجريان بحساب معلوم فأضمر الخبر. قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك: أى يجريان بحساب فى منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها. وقال ابن زيد وابن كيسان: يعنى أن بهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر لم يدر =

= أحد كيف يَحسب شيئًا لو كان الدهر كلّه ليلاً أو نهارًا . وقال السديّ : ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ تقدير آجالهما أى تجرى بآجال كآجال الناس ، فإذا جاء أجلهما هلكا؛ نظيره : ﴿كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢] وقال الضحاك : بقدر . مجاهد: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ كحسبان الرَّحَى يعنى قطبها يدوران فى مثل القطب . والحُسْبان قد يكون مصدر حَسَبته أحْسُبُه بالضم حَسْبًا وحُسْبانًا ، مثل الغُفْران والكُفْران والرُّجْحان، وحِسابه أيضا أى عددته . وقال الأخفش : ويكون جماعة الحساب مثل شِهاب وشُهبان. والحُسْبان أيضا بالضم العذاب والسهام القصار ، الواحدة حُسْبانة ، والحُسْبانة أيضا الوسادة الصغيرة ؛ تقول منه : حَسَّبْتُه إذا وسَّدْته ؛ قال (١):

... لَثَوَيْتَ غيرَ مُحَسَّبِ

أى غير موسَّد يعنى غير مكرَّم ولا مكفَّن ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ قال ابن عباس وغيره: النجم مالا ساق له والشجر ماله ساق،وأنشد ابن عباس قول صفوان بن أسد التميمى :

لَقَد أنْجَمَ القَاعُ الكَبيرُ عِضَاهَه ... وتَمَّ به حيّا تَميـــم ووائـــل

وقال زهير بن أبى سُلْمى :

مُكَلَّلٌ بأُصولِ النَّجْم تَنْسِجُــه ... ريحُ الجَنوبِ لِضاحِي مائه حُبُكُ

واشتقاق النجم من نَجَم الشئُ ينجُم بالضم نجومًا ما ظهر وطلع ، وسجودهما بسجود ظلالهما ؛ قال الضحاك . وقال الفرّاء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهم ، كما قال تعالى : ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ﴾ . وقال الحسن ومجاهد : النجم نجم السماء ، وسجوده فى قول مجاهد دوران ظله ، وهو اختيار الطبرى ، حكاه المهدوى . وقيل : سجود النجم أفوله ، وسجود الشجر إمكان الاجتناء لثمرها ، حكاه الماوردى . وقيل : إن جميع ذلك مسخر لله ،فلا تعبدوا النجم كما عبد قوم=

(١) هو نهيك الفزارى يخاطب عامر بن الطفيل ، والبيت بتمامه :

لتقيت بالوجعاء طعنة مرهف ... مران أو لثويت غير محسب

الوجعاء الأست . يقول : لو طعنتك لوليتنى دبرك ، واتقيت طعنتى بوجعائك ، ولثويت هالكا غير مكرم.

. . . .

= من الصابئين النجوم ، وعبد كثير من العجم الشجر. والسجود الخضوع ، والمعنى به آثار الحدوث ، حكاه القشيرى . النحاس: أصل السجود فى اللغة الاستسلام والانقياد لله عز وجل ، فهو من الموات كلها استسلامها لأمر الله عز وجل وانقيادها له ، ومن الحيوان كذلك ، ويكون من سجود الصلاة، وأنشد محمد بن يزيد فى النجم بمعنى النجوم قال :

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجمَ فى مُسْتَحيرة سَرِيعٍ بأيْدى الآكلينَ جُمُودُهَا

[تفسير القرطبى : ١٧/١٥٣ ، ١٥٤]

* واجعلوا بيوتكم قبلة *

أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرم موسى وقومه بعد أن آمنوا وأسلموا فقال جل جلاله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [يونس: ٨٧] قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ [يونس: ٨٧] ؛لأن هارون أصبح رسولاً مع موسى فقد

---

(١) قال البقاعي: ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ أي: بما لنا من العظمة البالغة: ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ أي: الذي طلب مؤازرته ومعارضته: ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أي: اتخذا ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ﴾ وهي ما بين البحر إلى أقصى أسوان والإسكندرية منها: ﴿بُيُوتًا﴾ تكون لهم مرجعاً يرجعون إليه ويأوون إليه: ﴿وَاجْعَلُوا﴾ أي: أنتما ومن معكما من قومكما: ﴿بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: مصلى لتتعبدوا فيها مستترين عن الأعداء تخفيفاً من أسباب الخلاف: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي بجميع حدودها وأركانها مستخفين ممن يؤذيكم جمعاً بين آلتي النصر: الصبر والصلاة، وتمرنًا على الدين وتثبيتا له في القلب.

ولما كان الاجتماع فيما تقدم أضخم وأعز وأعظم، وكان واجباً على الأمة كوجوبه على الإمام جمع فيه، وكان إسناده البشارة عن الملك إلى صاحب الشريعة أثبت لأمره وأظهر لعظمته وأثبت في قلوب أصحابه وأقر لأعينهم، أفرد في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الراسخين في الإيمان من أخيك وغيره.

ولما ختم ببشارة من دل على إيمانهم إسلامهم بفعل ما يدل على هوان أمر العدو، وكان هلاك المشانيء من أعظم البشائر، وكان ضلال فرعون وقومه بالزينة والمال إضلالا لغيرهم، سأل موسى عليه السلام إزالة ذلك كله للراحة من شره.

[نظم الدرر :٩/ ١٧٨ ـ ١٧٩]

استجاب الله تبارك وتعالى لدعاء موسى عليه السلام أن يؤيده بهارون، فجعل هارون رسولاً، وهكذا أصبح موسى وهارون رسولين وإن كانت رسالتهما واحدة؛ ولذلك تجد فى القرآن الكريم قول الحق جل جلاله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه:٤٧] ، وفى آية أخرى يقول الحق جل جلاله: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] وهكذا فإن موسى رسول وهارون رسول ولكنهما رسولان برسالة واحدة، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ [يونس: ٨٧] إذن فالوحى جاء للاثنين كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

نقول: حين يختار الله نبياً رسولاً ، يكون تكوينه على أنه رسول فطرته تنطق بمراد الله، ويبلغ ما طلب منه ويؤدى متطلبات المنهج كما أرادها الله، وإذا كان الخلق قد صنعوا آلات أوتوماتيكية تدير نفسها؛ أى صنعوا من الجماد الذى ليس له فكر ولا روية ساعة تدق الجرس فى وقت معين، وتؤذن للصلاة وقت الأذان وتقرأ القرآن كل هذا دون تدخل أحد. إذا كان البشر قد استطاع أن يصنع آلة من الجماد تؤدى مهمتها بلا تدخل من أحد، من مادة ليس لها فكر، ألا يستطيع الخالق جل جلاله أن يرسل المرسلين ليقولوا فى كل ظرف من الظروف ما يتطلبه الظرف، فإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ [يونس: ٨٧] فكأن الوحى شمل موسى فى نفس الوقت الذى شمل فيه هارون وما يقوله موسى يقوله هارون؛ لأن الوحى الإلهى واحد، فالحق تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[1] [يونس: ٨٧]

---

(١) قال ابن عطية: روى أن فرعون أخاف بنى إسرائيل وهدم لهم مواضع كانوا اتخذوها =

وإذا أُطلقت مصر فهمت على أنها الإقليم، مصر تُطلق ويراد بها كل وادى النيل وتطلق ويراد بها العاصمة، ولازلنا نقول محطة مصر على محطة سكك حديد القاهرة، و«التبوّء» [1] هو اتخاذ مكان يرجع إليه الإنسان ليبيت فيه وهو ما نسميه بالبيت أو البيتوتة، تخرج وتسعى طول يومك فى عملك أو بحثاً عن رزقك ثم تعود إلى بيتك للراحة، وهل لم تكن لبنى إسرائيل بيوت يعيشون فيها؟ الجواب: لا؛ لأن البيوت التى كانوا فيها غير البيوت التى أمر الله باتخاذها.

البيوت المطلوبة لها شرط وهى أن تكون قبلة، والقبلة هى التى نتجه إليها عندما نصلى، فالمسجد عندما تدخله تجد له قبلة، ولكن الذى خارج المسجد لابد أن يحدّد مكان القبلة قبل الصلاة، إذن فنحن حينما نصلى فرادى، كل منا يستقبل القبلة حسب موقعه وحسب اتجاهها، فإذا دخلنا المسجد كنا فى صفوف متجهين إلى قبلة المسجد، والمسجد لمن هو خارجه قبلة يأخذ منها اتجاه الصلاة.. إذن فقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً

= للصلاة ونحو هذا فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتّخذا وتخيرا لبنى إسرائيل بيوتًا بمصر.
قال مجاهد: ﴿بِمِصْرَ﴾ فى هذه الآية الإسكندرية ومصر ما بين البحر إلى أسوان.
[المحرر الوجيز :٣/١٣٨]

(١) تبوأ فلان منزلاً ، أى اتخذه ، وبوَّأته منزلاً وأبأت القوم منزلاً . وقال الفراء فى قوله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ ، يقال : بوَّأته منزلاً، وأثويته منزلاً ثُواءً : أنزلته ، وبوأته منزلاً أى جعلته ذا منزل وفى الحديث : « من كذب على متعمدًا ، فليتبوأ مقعده من النار » [1] ، وتكرّرت هذه اللفظة فى الحديث ومعناها : لينزل منزله من النار . يقال : بوَّأه الله منزلاً أى أسكنه إياه . [لسان العرب : ١/٣٩]

(١) عن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: قلت للزبير! إنى لا أسمعك تحدّث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان ، قال : أما إنى لم أفارقه ولكن سمعته يقول : « من كذب علىّ فليتبوأ مقعده من النار » . أخرجه البخارى [١٠٧] .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧] أى مصلىً لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد لقوم موسى التجمع للصلاة جهراً ، وإلا قتلهم فرعون وجنوده ، بل هو يريدهم أن يقيموا الصلاة فى بيوتهم بعيداً عن أعين الناس.

ولقد كان المسلمون فى أول دعوة الإسلام يصلون فى بيوتهم نهاراً؛ حتى لا ينتبه الكفار إلى أماكنهم فيؤذوهم، أما بالليل والظلام يستر كل شئ، فكانوا يذهبون سراً إلى رسول الله ﷺ ؛ ليعلمهم الصلاة والقرآن إذن فهم بالليل يصلون مع رسول الله ﷺ، وبالنهار يستترون فى بيوتهم فيؤدون الصلاة [1]. ولكن قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧] أى متقابلة متقاربة بعضها من بعض، ولو نظرت الآن إلى استيطان اليهود فى بلاد الدنيا تجد أن لهم حيّا واحداً يتجمعون فيه لا يتفرقون فى الأحياء المختلفة، ولكن هناك حياً فى كل مدينة يسكن فيه اليهود اسمه حى اليهود، فإذا لم يكن عددهم كبيراً اتخذوا شارعًا أو حارة اسمها شارع اليهود أو حارة اليهود .. لماذا؟ اقرأ قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [2] [آل عمران: ١١٢]

---

(١) قال ابن هشام: قال ابن إسحاق: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا، ذهبوا فى الشعاب، واستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد ابن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فى شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم: فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحيى بعير فشجّه فكان أول دم هريق فى الإسلام. [سيرة ابن هشام: ١/٣٢٩]

(٢) قال القاسمى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢] أى أحيط بهم الهوان والصغار كما يحيط البيت المضروب بساكنه أينما وجدوا، وقوله: ﴿إِلا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾فى محل النصب على الحال. بتقدير: إلا=

ولذلك فهم حتى الآن يحسون بالذلة والمسكنة والشوارع والأماكن التى تبنى عليها البيوت عادة لايكون تخطيطها الرأسى أو الأفقى ناحية القبلة؛ ولذلك إذا صليت فى معظم البيوت تجد أن القبلة إلى اليمين قليلاً أو إلى الشمال قليلا، أو إلى ركن من الأركان.

عندما تصلى أمام الكعبة لا تكون الصلاة فى صف واحد من أول المكان إلى آخره ، ولكن يكون الصف بمقدار أطول أضلاع الكعبة، ثم بعد ذلك ينحنى؛ ولذلك تكون صفوف المصلين حول الكعبة على شكل حلقات ولايصح أن تكون مستقيمة، والأئمة الذين يقولون للمصلين: سوّوا صفوفكم فى الكعبة وعليهم أن يفهموا معنى التسوية، التسوية هى أن يكون الصف مستويا بالنسبة للمصلين ، مناكبهم فى مناكب بعض، وأقدامهم تجاور أقدام بعض، ولكنهم يكونون جميعاً متجهين إلى الكعبة، وأطول ضلع فى الكعبة طوله اثنا عشر مترًا ونصف المتر؛ ولذلك فطول الصف الأول حول الكعبة يجب ألا يزيد على اثنى عشر مترًا ونصف المتر، ثم بعد ذلك ينحنى إلى ضلع آخر من الكعبة وذلك لأننا نصلى لعين الكعبة. نراها أمامنا بعيوننا، ولكن حين نصلى خارج الكعبة فإن الصف يمتد بطول المسجد؛ لأننا فى الصلاة خارج الكعبة نتجه إلى جهة الكعبة؛ لأننا لا نراها ونحن نصلى فى بقاع الأرض المختلفة فيكفى أن يكون المصلى متجها للكعبة[1].

= معتصمين أو متمسكين أو ملتبسين بحبل من الله، وهو استثناء من أعم عام الأحوال، والمعنى ضربت عليهم الذلة فى عامة الأحوال، إلا فى حال اعتصامهم بحبل الله وحبل الناس، يعنى ذمة الله وذمة المسلمين، أى لا عزّ لهم قط إلا هذه الواحدة وهى التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية ـ كذا فى الكشاف.

[محاسن التأويل : ١٤/ ٩٣٩]

(١) قال الماوردى: ثبت أن استقبال الكعبة فرض لا يجزىء أحداً صلاة فرض، ولا نفل، ولا جنازة، ولا سجود سهو، ولا تلاوة إلا أن يستقبل به الكعبة، إلا فى حالين =

. . . .

= استثناهما الشرع:

أحدهما: حال المسابقة والتحام القتال.

والثانية: المتنقل فى سفره سائراً. وما سواهما يجب فيه استقبال الكعبة، ولا يصح مع العدول عنها، وإذا كان كذلك، فالمتوجهون إليها على ستة أضرب:

أحدها: من فرضه المشاهدة.

والثانى: من فرضه اليقين.

والثالث: من فرضه الخبر.

والرابع: من فرضه التفويض.

والخامس: من فرضه الاجتهاد.

والسادس: من فرضه التقليد.

فأما الضرب الأول: وهو من فرضه المشاهدة، فهو من كان بمكة، وليس بينه وبين الكعبة حائل من مشاهدتها، ففرضه فى استقبالها المشاهدة، فلا تصح صلاته إلا أن يكون مشاهد الكعبة، وقد شاهدها، لأن ظلمة الليل المانعة من المشاهدة لا تمنع من جواز الصلاة إليها، لتقدم المشاهدة، ثم كل موضع من الكعبة يجوز الصلاة إليه؛ لأن جملتها القبلة. فأما الحجر ففيه وجهان:

أحدهما: أن استقباله فى الصلاة جائز كالبيت، لما روى أن النبى ﷺ قال لعائشة رضى الله عنها: « صلى فى الحجر فإنه من البيت» [1] .

والوجه الثانى: أن استقباله وحده فى الصلاة غير جائز، وهو الصحيح، لأن الحجر ليس من البيت قطعاً وإحاطة، وإنما هو من تغلبة الظن، فلم يجز العدول عن اليقين والنص لأجله.

وأما الضرب الثانى: وهو من فرضه اليقين، فإنه لم يكن عن مشاهدة، فهو من كان بمكة أو خارجاً عنها بقليل، وقد منعه من مشاهدتها حائط مستحدث من دار،=

(١) عن عائشة . قالت : سألت رسول الله ﷺ ، عن الجِدْر ؟ أمن البيت هو ؟ قال « نعم » قلت : فلمَ لم يُدخلوه فى البيت ؟ قال: « إن قومك قصرت بهم النفقة » قلت : فما شأن بابه مرتفعًا ؟ قال: « فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤا ويمنعوا من شاؤا . ولولا أن قومك حديث عهدهم فى الجاهلية ، فأخاف أن تنكر قلوبهم ، لنظرت أن أدخل الجدر فى البيت . وأن ألزق بابه بالأرض » . أخرجه مسلم [١٣٣٣/ ٤٠٥] والجِدْرُ : هو حجر الكعبة .

. . . .

= أو جدار، ففرضه اليقين بالأسباب الموصلة إليه. فإذا تيقنها صار إليها وإن لم يتيقنها لم يجز؛ لأن الحائل المستحدث لا يسقط فرض اليقين، كما لو حال بينه وبين مشاهدة الكعبة رجل قائم، وهكذا المصلى إلى كل قبلة، صلى رسول الله ﷺ إليها بالمدنية وغيرها وهو على يقين من صوابها، لأن رسول الله ﷺ لا يجوز أن يقر على الخطأ.

وأما الضرب الثالث: وهو من فرضه الخبر فذلك على حالين:

أحدهما: الضرير بمكة أو غيرها من الأمصار، فإن كان بمكة كان الخبر عن مشاهدة. وإن كان بغيرها من البلاد كان عن تفويض.

والحال الثانية: البصير بمكة أو فيما قرب من ميقاتها إذا كان ممنوعاً بحائل غير مستحدث من جبل أو أكمة، فإنه يستخبر من على الجبل الحائل من المشاهدين.

وأما الضرب الرابع: وهو من فرضه التفويض فهو الراحل إلى بلد كبير كثير الأهل قد اتفقوا على قبلتهم فيه، كالبصرة وبغداد، فيستقبل قبلتهم تفويضاً لاتفاقهم، لأنه يتعذر مع اتفاقهم على قديم الزمان، وتعاقب الأعصار، وكثرة العدد أن يكونوا على خطأ يستدركه الواحد باجتهاده.

وأما الضرب الخامس: وهو من فرضه الاجتهاد، فهو البصير إذا كان سائراً فى بر، أو بحر، أو فى قرية قليلة الأهل، فعليه الاجتهاد فى القبلة بالدلائل المنصوبة عليها، وهل عليه فى اجتهاده طلب العين أو الجهة؟ ففيه قولان:

أحدهما: وهو الذى نقله المزنى: أن عليه فى اجتهاده طلب الجهة دون العين، وهو قول أبى حنيفة، لأن العين مع البعد عنها يتعذر إصابتها، ولأن الصف الواحد لو امتد حتى خرج عن طول الكعبة جازت صلاة جميعهم، ولم يلزمهم أن يعدلوا عن استواء الصف منحرفين طلباً لموافقة العين، فقد علم أن بعضهم عادل عن العين إلى الجهة.

والقول الثانى: قال فى [الأم]: أن الواجب عليه فى اجتهاده طلب العين، فإن أخطأها إلى الجهة أجزأ لأنه لما لزم الدانى من الكعبة مصادفة عينها، لزم النائى عنها فى اجتهاده طلب عينها، لأنه إنما يتوصل بالاجتهاد إلى ما كان يلزمه باليقين.

وأما الضرب السادس: وهو من فرضه التقليد وهو الضرير فى السفر يقلد البصير ليجتهد له فى القبلة؛ لأنه بذهاب بصره قد فقد آلة الاجتهاد فى القبلة، فصار كالعامى يقلد العالم فى الأحكام؛ لفقده ما يتوصل به إلى علمها. =

إذن فقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧] يعنى خطّطوا الحى الذى ستعيشون فيه باتجاه قبلة الصلاة؛ حتى تستطيعوا أن تقيموا فيها الصلاة؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾(1) [يونس: ٨٧] الصلاة هى استدامة الولاء لله.. لماذا؟ لأنها

= والفرق بين التقليد والخبر: أن التقليد: يكون عن إخبار، والخبر: يكون عن يقين.
والفرق بين التقليد والتفويض: أن التقليد: يحتاج إلى سؤال وجواب، والتفويض: لا يحتاج إلى سؤال ولا جواب. [الحاوى الكبير: ٢/ ٨٩ ـ ٩١]

(١) قال ابن الجوزى: وفى قوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أربعة أقوال:
أحدها: اجعلوها مساجد، رواه مجاهد، وعكرمة، والضحاك عن ابن عباس، وبه قال النخعى، وابن زيد. وقد ذكرنا أن فرعون أمر بهدم مساجدهم، فقيل لهم: ﴿اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ بدلاً من المساجد.
والثانى: اجعلوها قبل القبلة، رواه العوفى عن ابن عباس. وروى الضحاك عن ابن عباس، قال: قبل مكة. وقال مجاهد: أمروا أن يجعلوها مستقبلة الكعبة، وبه قال مقاتل، وقتادة، والفراء.
والثالث: اجعلوها يقابل بعضها بعضا، وهو مروى عن ابن عباس أيضا، وبه قال سعيد بن جبير.
والرابع: واجعلوا بيوتكم التى بالشام قبلة لكم فى الصلاة، فهى قبلة اليهود إلى اليوم، قاله: ابن بحر.
فإن قيل: البيوت جمع، فكيف قال: ﴿قِبْلَةً﴾ على التوحيد؟ فقد أجاب عنه ابن الأنبارى، فقال: من قال: المراد بالقبلة الكعبة، قال: وحّدت القبلة لتوحيد الكعبة. قال: ويجوز أن يكون أراد: اجعلوا بيوتكم قبلاً، فاكتفى بالواحد من الجميع، كما قال العباس ابن مرداس:

فقلنا أسلموا إنا أخوكم فقد برئت من الرحن الصدور.

يريد: إنا إخوتكم. ويجوز أن يكون وحّد ﴿قِبْلَةً﴾ لأنه أجراها مجرى المصدر، فيكون المعنى: واجعلوا بيوتكم إقبالاً على الله، وقصداً لما كنتم تستعملونه فى المساجد. ويجوز أن يكون وحدها، والمعنى: واجعلوا بيوتكم شيئاً قبلة، ومكاناً قبلة، ومحلة قبلة.
قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ قال ابن عباس: أتموا الصلاة [زاد المسير: ٤/ ٤٧-٤٨]

لا تسقط أبداً، وإذا أخذنا أركان الإسلام الخمسة نجد أن شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله يكفى أن تقولها ولو مرة واحدة فى العمر، والزكاة لا تجب على الفقير الذى لا يملك مالاً، والصوم لا يجب على المريض والمسافر، والحج مرة واحدة فى العمر للمستطيع، ولكن الصلاة تؤدى خمس مرات فى اليوم ولا تسقط بالمرض ولا بالفقر ولا بأى عذر آخر؛ ولذلك تصلى وأنت قائم وتصلى وأنت جالس، وتصلى وأنت راقد(١) وتجرى الصلاة إذا كنت عاجزاً تماماً عن الحركة، فالصلاة عماد الدين لأنها تديم الصلة بالله ولا تسقط أبدًا(٢).

الحق سبحانه وتعالى حين قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ [يونس: ٨٧] من الذى سيختار مكان هذه البيوت؟ موسى وهارون هما اللذان سيختاران مكان هذه البيوت، ثم قال جل جلاله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧] ولم يقل واجعلا ؛ لأن اختيار المكان لموسى وهارون، أما القبلة فى البيوت فهى مطلوبة من موسى وهارون وكل من آمن بهما، ولذلك جعل البيوت قبلة مطلوبة من جميع المؤمنين بموسى، ولكنه عندما جاءت البشارة لم يقل الحق تبارك وتعالى وبشّرا، أو بشّروا المؤمنين بل قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧] إذن ففى

---

(١) عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال: كانت بى بواسير. فسألت النبى ﷺ عن الصلاة فقال: «صلِّ قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب».
أخرجه البخارى [١١١٧]

(٢) عن جابر بن عبدالله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة». أخرجه مسلم [١٣٤]
وعن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر ».
أخرجه الترمذى [٢٦٢١] وقال : حديث حسن صحيح غريب ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢١١٣].

حالة اختيار مكان البيوت جاءت التثنية لموسى وهارون، وفى جعل البيوت قبلة كانت للجميع. ثم عاد الكلام إلى المفرد وليس إلى المثنى، وإذا كان الخطاب فى أول الآية لموسى وهارون فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ [يونس: ٨٧] فإن الأسلوب يقتضى أن يقال وبشِّرا المؤمنين، ولكن يجب أن ننتبه إلى أن موسى هو الأصل فى الرسالة، ولذلك فالخطاب موجّه إليه ،كما يجب أن نلاحظ أن البشرى هى كل الأعمال الصالحة، التى تكون نتيجتها أن ندخل الجنة[1].

---

(١) يقول الصديق خان : وقيل أمر الله موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء وتكفل بأن يصونهم عن شر الأعداء، ذكره الخطيب، وإنما جعل الخطاب فى أول الكلام مع موسى وهارون ثم جعله لهما ولقومهما فى قوله: ﴿وَاجْعَلُوا﴾ ، ﴿وَأَقِيمُوا﴾ ثم أفرد موسى بالخطاب بعد ذلك فقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى بالنصر والجنة لأن اختيار المكان مفوض إلى الأنبياء، ثم جعل عاماً فى استقبال القبلة وإقامة الصلاة؛ لأن ذلك واجب على الجميع لا يختص بالأنبياء، ثم جعل خاصاً بموسى لأنه الأصل فى الرسالة وهارون تابع له فكان ذلك تعظيماً للبشارة وللمبشر بها.
وقيل إن الخطاب فى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لنبينا محمد ﷺ على طريقة الالتفات والاعتراض والأول أولى. [فتح البيان : ٦/ ١١١]

* فمن ربكما يا موسى ؟! *

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠] قلنا سابقاً : إن الله أرسل موسى وأخاه هارون إلى فرعون، وأرسلهما إليه بآية تصدّق أنهما رسولا رب العالمين، وكانت المهمة أن ينجى الله بهما بنى إسرائيل من طغيان فرعون، ولكن المسألة الإيمانية التى جاءت حول ذلك كانت مسألة تبعية؛ فالأصل هو أخذ بنى إسرائيل وتحريرهم من فرعون .

قال تعالى : ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧] .

الحق سبحانه وتعالى حينما يعرض قضية الإيمان، يعرضها قضية مبدوءة بدليل الخلق، ودليل البدء .

الحق سبحانه وتعالى أرسل موسى، وأرسل معه أخاه هارون ليشد أزره، فحينما قالا: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾ هنا المتكلم لابد أن يكون واحدا، فهنا تكلم الرسول الأصلى فى الموضوع، وهو موسى بدليل أن فرعون حينما سألهما قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] ، ولم يقل يا موسى وهارون، إذن المتكلم عن الاثنين هو موسى وحين يتكلم واحد عن وفد من اثنين أو ثلاثة أو أكثر يكون الجميع معه موافقين على كلامه فكأن الجميع تكلم [1] .

---

(١) قال القرطبى : قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ ذكر فرعون موسى دون =

لذلك نجد عرض هذه القضية حينما سأل موسى ربه أن يطمس على آل فرعون فقال : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨] ، قال الحق سبحانه : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:٨٩] مع أن الذى دعا هو موسى، لأن موسى حين يتكلم يؤمِّن عليه هارون، فهو سأل الله أن يفعل بآل فرعون كذا ، وكذا، فلابد أن يكون هارون قد قال آمين، والقائل آمين للداعى هو أحد الداعين .

حين سأل فرعون موسى قائلاً ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ قال له موسى ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ فهذا دليل البدء، وهذه هى المهمة الأساسية؛ لأن فرعون الذى ادعى الألوهية، وأى إله لابد أن يكون هناك مألوه له، والمألوه هنا خلق مثل فرعون، والذى يعتز به هو الملك والأرض، والنيل، والخيرات ؛ حيث قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] فالحق سبحانه يريد أن يردّ عليه ويبيِّن له أن هذه النعم التى ادعى بها الألوهية، ليس له صلة بخلقها وإيجادها، كما أنه لم يخلق البشر الذى يريد أن يتأله عليهم، فرده الحق

= هارون لرؤوس الآى. وقيل: خصصه بالذكر لأنه صاحب الرسالة والكلام والآية.

وقيل: إنهما جميعا بلغا الرسالة وإن كان ساكتا؛ لأنه فى وقت الكلام إنما يتكلم واحد، فإذا انقطع وآزره الآخر وأيده فصار لنا فى هذا البناء فائدة علم؛ أن الاثنين إذا قُلدا أمرا فقام به أحدهما، والآخر شخصه هناك موجود مستغنى عنه فى وقت دون وقت، أنهما أديا الأمر الذى قلدا وقاما به واستوجبا الثواب؛ لأن الله تعالى قال: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ وقال: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ وقال: ﴿فَقُولا لَهُ﴾ فأمرهما جميعا بالذهاب وبالقول، ثم أعلمنا فى وقت الخطاب بقوله: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا﴾ [طه: ٤٩] أنه كان حاضرا مع موسى. [تفسير القرطبى :١١/ ٢٠٤]

سبحانه إلى قضية الخلق الأولى[1].

(١) الله جل شأنه حى قادر موجود. وهو الخالق والموجد لهذا الوجود. وبتوفيق الله. نذكر من الأدلة والحجج والبراهين. ما به قطع ألسنة الزنادقة والملحدين. والأدلة النقلية. والعقلية والفطرية المثبتة لوجود الله لا تحصى كثرة.

قال ابن كثير فى تفسيره على قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة].

وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازى وغيره على وجود الصانع تعالى، وهى دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية، والعلوية، واختلاف أشكالها، وألوانها، وطبائعها، ومنافعها، ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه، وإتقانه، وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى، فقال: يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟

وحكى الرازى عن الإمام مالك: أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات، والنغمات.

وعن أبى حنيفة: أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى، فقال لهم دعونى. . فإنى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه؛ ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر. وليس بها أحد يحرسها ولايسوقها، وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام. حتى تخلص منها. وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا هذا شىء لا يقوله عاقل فقال: ويحكم! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى، والسفلى، وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؛ فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعى: أنه سئل عن وجود الصانع فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد، تأكله الدود، فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل، فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك، وهو شىء واحد.

=

= وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولامنفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح. يعنى بذلك البيضة. إذا خرجت منها الدجاجة.

قلت: كأنى بالإمام أحمد رحمه الله يقول: من الذى أوجد البيضة؛ ومن الذى خلق فى داخلها فرخ الدجاجة؟ ومن الذى جعل غذاءه مما هو موجود فى داخل البيضة؟ الذى فعل ذلك هو الله القادر المقتدر، الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى.

وسئل أبو نواس عن ذلك. فأنشد:

تأمل فى نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأحداق هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

قلت: ومراد أبى نواس بهذا الوصف هو أزهار الأشجار والأعشاب مختلفة اللون والروائح.

وقال ابن المعتز :

فيا عجباً كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية	تدل على أنه واحد

وقال: آخرون من تأمل هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها، وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة، ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم فى كل يوم وليلة دويرة، ولها فى أنفسها سير يخصها ، ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة فى الأرض، لتقر ويسكن ساكنوها. مع اختلاف أشكالها وألوانها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (٢٨)﴾ [فاطر]

وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع، وما ذرأ فى الأرض من الحيوانات المتنوعة، والنبات المختلف الطعوم والأرايبج، والأشكال، والألوان، مع اتحاد طبيعة التربة والماء. استدل على وجود الصانع، وقدرته العظيمة وحكمته، ورحمته بخلقه، ولطفه بهم، وإحسانه إليهم وبره بهم، لا إله غيره، ولا رب سواه، =

وهذا دليل لا يمكن لأحد أن يرده؛ لأن فرعون لم يّدعِ أنه خلق شيئاً ، وإنما تكبر وتجبر، وادعى ألوهية على مألوه لم يخلقه بل لم يخلق هذا المدعى بالباطل نفسه ، ولم يخلق المُلك الذى تجرى الأنهار من تحته.

إذن هذا دليل الخلق الأول الذى يرد إليه كل دليل ، وهو دليل مفحم بدليل أن فرعون حينما سمع هذه المسألة وهو لا يستطيع أن ينقضها فهو لم يخلق شيئاً ، ولم يشهد خلقاً ، وليس له علاقة بهذا لأنه نشأ فوجد هذه الأشياء، فلا يستطيع أن ينقض هذا الدليل أبدا فأراد أن يخرج الحوار من دليل الجد إلى شىء آخر ينقل به القضية.

فبعد أن قال له موسى ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] والخلق يُطلق ويراد به المخلوق، والمخلوق شىء لابد أن تكون له مادة، وأن تكون له صورة، وأن يكون له شكل، وأن تكون له عناصر لتؤدى مهمتها، فإذا أراد الله خلق شىء يقدر له كل شىء ليؤدى مهمته بها: فالعين تبصر، والأذن تسمع، والأنف يشم، واللسان يتذوق.. وهكذا .

ومعنى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1] أى: أن كل

= عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات فى القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً. ا. هـ. كلام ابن كثير رحمه الله تعالى.

[عقيدة المسلمين ، والرد على الملحدين والمبتدعين :١/ ١٢٢ ـ ١٢٦]

(١) يقول الأستاذ سيد قطب : قال : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].. ربنا الذى وهب الوجود لكل موجود فى الصورة التى أوجده بها وفطره عليها، ثم هدى كل شىء إلى وظيفته التى خلقه لها ؛ وأمده بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها ، و﴿ثُمَّ﴾ هنا ليست للتراخى الزمنى. فكل شىء مخلوق ومعه الاهتداء الطبيعى الفطرى للوظيفة التى خلق لها، وليس هناك افتراق زمنى بين خلق المخلوق وخلق وظيفته، إنما هو التراخى فى الرتبة بين خلق الشىء واهتدائه إلى وظيفته؛ فهداية كل شىء إلى وظيفته مرتبة أعلى من خلقه غفلاً. =

شيء فى الوجود مخلوق لمهمة وأن الله خلق كل شيء مناسباً لهذه المهمة فأعطى كل شيء خلقه المناسب لهذه المهمة ثم هدى كل شيء إلى أن يستعمل الأمر فى مهمته ، فلو نظرت مثلاً إلى الأذن تجد التعاريج الموجودة فيها ، والانحناءات، والصوان الخارجى، والأذن الوسطى، وبعد ذلك فى الداخل توجد الطبلة وهى رقيقة جداً ، فلو جاء الصوت قوياً من الممكن أن يصمّها ولكن التعاريج التى خلقها الله فيها جعلها تستقبل الصوت وتخففه حتى يدخل عليها برفق فلا تصاب بأذى .

= وهذا الوصف الذى يحكيه القرآن الكريم عن موسى ـ عليه السلام ـ يلخص أكمل آثار الألوهية الخالقة المدبرة لهذا الوجود: هبة الوجود لكل موجود.. وهبة خلقه على الصورة التى خلق بها. وهبة هدايته للوظيفة التى خلق لها.. وحين يجول الإنسان ببصره وبصيرته ـ فى حدود ما يطيق ـ فى جنبات هذا الوجود الكبير تتجلى له آثار تلك القدرة المبدعة المدبرة فى كل كائن صغير أو كبير من الذرة المفردة إلى أضخم الأجسام، ومن الخلية الواحدة إلى أرقى أشكال الحياة فى الإنسان.

هذا الوجود الكبير المؤلف مما لا يحصى من الذرات والخلايا، والخلائق والأحياء؛ وكل ذرة فيه تنبض، وكل خلية فيه تحيا، وكل حى فيه يتحرك، وكل كائن فيه يتفاعل أو يتعامل مع الكائنات الأخرى... وكلها تعمل منفردة ومجتمعة داخل إطار النواميس المودعة فى فطرتها وتكوينها بلا تعارض، ولا خلل ولا فتور فى لحظة من اللحظات!

وكل كائن بمفرده كون وحده وعالم بذاته، تعمل فى داخله ذراته وخلاياه وأعضاؤه وأجهزته وفق الفطرة التى فطرت عليها، داخل حدود الناموس العام، فى توافق وانتظام.

وكل كائن بمفرده ـ ودعك من الكون الكبير ـ يقف علم الإنسان وجهده قاصراً محدوداً فى دراسة خواصه ووظائفه وأمراضه وعلاجه. دراستها مجرد دراسة، لا خلقها ولاهدايتها إلى وظائفها، فذلك خارج كلية عن طوق الإنسان. وهو خلق من خلق الله.. وهبه وجوده، على الهيئة التى وجد بها، للوظيفة التى خلق لها، كأى شيء من هاته الأشياء! . [فى ظلال القرآن : ٤/٢٣٣٨]

كذلك العين أعّدها الخالق إعداداً خاصا فلو زادت حرارتها على ١٢ درجة مئوية تنصهر، وأرنبة الأنف لو زادت درجة حرارتها عن تسع درجات لا تؤدى مهمتها ، مع أن هناك عضواً فى الجسم حرارته أربعون درجة مئوية هو الكبد، والحرارة الكلية لجسم الإنسان ٣٧ درجة مئوية ، وهى درجة الجسم فى جميع أنحاء العالم لا فرق بين سكان المناطق الحارة وسكان المناطق التى يكسوها الجليد؛ فهى لا تزيد ولا تنقص إلا إذا أصيب الجسم بمرض.

إذن فالله تعالى خلق الإنسان لمهمة وكيّفه لها ، فحرارة الجسم لا تزيد على سبع وثلاثين درجة ولا تنقص إلا بآفة فى الجسم ولا تتأثر بالجو المحيط بها، فهو سبحانه خلق كل شيء وقدّره وهداه لتكوينه .

وإذا كان البشر المخلوق لله يستطيع أن يصنع أشياء موقوتة بوقت معين كالقنبلة الزمنية مثلاً يضبطها على موعد معين تنفجر فيه، دون أن يمسها، فهو صنعها أولاً ووقّتها ، وبعد ذلك يتركها تقوم بهذا العمل، فإذا كان الإنسان المخلوق صنع شيئاً يستطيع أن يؤدى مهمته بدون اتصال صانعه به، فما بالك بالخالق الأعلى سبحانه الذى خلق كل شيء وأقدر كل شيء على أن يؤدى مهمته على الوجه الأكمل تأدية غريزية، بدليلٍ أن الحيوانات التى نقول بأنها لا تعرف شيئاً أعطانا الحق صورة لها فى قصة الغراب الذى بعثه الله إلى ابن آدم ليعلمه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ﴾ (١) [المائدة: ٣١] .

فالغراب فعلها بحكم الغريزة ، ونحن ضربنا مثلاً وقلنا: لو أن إنساناً

---

(١) سبق الكلام عليها ضمن قصة آدم عليه السلام فى المجلد الأول من هذا الكتاب.

ركب حماراً وأراد أن يعبر به قناة فإن الحمار ينظر إلى هذه القناة أولا ويقدّر بغريزته هل يستطيع أن يعبرها أم لا؟ فإن استطاع أن يخطوها لا يتردد ويقفز من فوقها، وإن عرف أنه لن يستطيع يتراجع ويرفض أن يتقدم مهما ضربته أو دفعته بالقوة ، فهذا كله من حكمة الذى خلق كل شىء وهداه فجعله بحكم غريزته يقدّر هذه المسألة ويتصرف على أساسها.

لذلك كل أفعال المخلوقات غير المختارة التى تتحرك بالغريزة لا تخطىء أبداً.. لماذا؟ لأنها ليس لها عقل يدخله الهوى.. لأن الفعل كثيراً ما ينحرف بصاحبه فيجعله يخفى بعض المعلومات، أو الأسرار، أو يقلب الحقائق، أو يستخدم عقله فى ضرر الآخرين، أو التحايل عليهم ، لكن الحيوان لا يعرف هذه المكائد لأنه مثل (العقل الإلكترونى) حين نزوّده بمعلومات معينة يعطيها لك كما هى، ولا يخطىء بل يعطيك المعلومات التى زودته بها كما هى دون زيادة أو نقصان.

لكن العقل الطبيعى ليس كذلك لأنه يدخله هوى النفس، وهذا مثل الورد الطبيعى تجده يذبل، لكن الورد الصناعى لا يذبل، فذبول الورد الطبيعى دليل حيويته، فالحيوان محكوم بالغريزة الصرفة؛ ولذلك قلنا : إنك إذا جئت بحيوان وأعطيت له طعامه فأكل، وشبع، بعد أن يشبع لو ضربته ألف سوط لا يزيد فى أكله أبداً، لكن الإنسان صاحب العقل والهوى ، فبعد أن يأكل ويملأ بطنه يقولون له أنت نسيت الحلوى، أو أنت لم تأكل فاكهة، ولم تشرب العصير الجميل، فتجده يستجيب ويأكل الحلوى، أو الفاكهة ويشرب العصير، وبعد أن يُتخم يقول: «أعطونى الفوار لكى أهضم»، مع أن هذه التخمة تضره، لكن الحيوان محكوم بغريزة لا تخطىء فإذا شبع لا يلتفت إلى الأكل حتى يجوع .

إذن فالذى خلق فسّوى، وقدّر فهدى[1] ، سبحانه وتعالى هدى كل

(١) قال تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ① الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ ﴾ [الأعلى] ، قال الإمام الفخر الرازى: واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هى الطريقة المتعمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السلام، والدليل عليه ما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام، أنه قال: ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨] وحكى عن فرعون أنه لما قال لموسى وهارون عليهما السلام : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٤٩] ؟ قال موسى عليه السلام ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] وأما سيدنا محمد عليه السلام فإنه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② ﴾ [العلق] هذا إشارة إلى الخلق، ثم قال: ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ③ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ ﴾ [العلق] وهذا إشارة إلى الهداية، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة فى هذه السورة، فقال ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ ﴾ [الأعلى] وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيراً ؛ لما ذكرنا أن العجائب والغرائب فى هذه الطريقة أكثر، ومشاهدة الإنسان لها، واطلاعه عليها أتم، فلا جرم كانت أقوى فى الدلالة.

وقوله: ﴿ خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ يحتمل أن يريد به الناس خاصة، ويحتمل أن يريد الحيوان، ويحتمل أن يريد كل شىء خلقه، فمن حمله على الإنسان ذكر للتسوية وجوهاً: أحدها : أنه جعل قامته مستوية معتدلة وخلقته حسنة، على ما قال ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤] وأثنى على نفسه بسبب خلقه إياه، فقال: ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وثانيها : ثم قال: أما قوله: ﴿ فَهَدَىٰ ﴾ فالمراد أن كل مزاج فإنه مستعد لنوع واحد من الأعمال فقط، وغير مستعد لسائر الأعمال، أما الإنسان فإنه خلق بحيث يمكنه أن يأتى بجميع أفعال الحيوانات بواسطة آلات مختلفة فالتسوية إشارة إلى هذا.

وثالثها :إنه هُيأ للتكليف والقيام بأداء العبادات، وأما من حمله على جميع الحيوانات، قال: المراد أنه أعطى كل حيوان ما يحتاج إليه من أعضاء وآلات وحواس، وأما من حمـله على جميع المخلوقات ، قال : المـراد من التسوية هو أنه تعالى قادر على=

شىء ليؤدى مهمته التى خلق من أجلها: اللسان مثلاً تجد فيه حلمات متعددة، حلمة منها تتذوق الأشياء المرة، وحلمة للأشياء الحلوة، وأخرى

= كل الممكنات عالم بجميع المعلومات، خلق ما أراد على وفق ما أراد موصوفاً بوصف الأحكام والإتقان ، مبرأ عن الفسخ والاضطراب لقوة خاصة وكل قوة فإنها لاتصلح إلا لفعل معين، فالتسوية والتقدير عبارة عن التصرف فى الأجزاء الجسمانية وتركيبها على وجه خاص لأجله تستعد لقبول تلك القوى، وقوله ﴿فَهَدَىٰ﴾ عبارة عن خلق تلك القوى فى تلك الأعضاء بحيث تكون كل قوة مصدراً لفعل معين، ويحصل من مجموعها تمام المصلحة، وللمفسرين فيه وجوه، قال مقاتل: هدى الذكر للأنثى كيف يأتيها، وقال آخرون هداه للمعيشة ورعاه ، وقال آخرون هدى الإنسان لسبل الخير والشر والسعادة والشقاوة ،وذلك لأنه جعله حساساً دراكاً متمكناً من الإقدام على ما يسره والإحجام عما يسوءه كما قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وقال ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ [الشمس] وقال السدى: قدر مدة الجنين فى الرحم، ثم هداه للخروج، وقال الفراء: قدر فهدى وأضل، فاكتفى بذكر إحداهما، كقوله ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل:٨١] ، وقال آخرون الهداية بمعنى الدعاء إلى الإيمان كقوله ﴿وإنك لتهدى﴾ أى تدعو، وقد دعى الكل إلى الإيمان، وقال آخرون: هدى أى دلهم بأفعاله على توحيده وجلال كبريائه، ونعوت صمديته، وفردانيته، وذلك لأن العاقل يرى فى العالم أفعالاً محكمة متقنة منتسقة منتظمة، فهى لا محالة تدل على الصانع القديم، وقال قتادة فى قوله ﴿فَهَدَىٰ﴾ : إن الله تعالى ما أكره عبداً على معصية، ولا على ضلالة، ولا رضيها له، ولا أمره بها، ولكن رضى لكم الطاعة، وأمركم بها، ونهاكم عن المعصية، واعلم أن هذه الأقوال على كثرتها لا تخرج عن قسمين، فمنهم من حمل قوله ﴿فَهَدَىٰ﴾ على ما يتعلق بالدين كقوله ﴿وهديناه النجدين﴾ ومنهم من حمله على ما يرجع إلى مصالح الدنيا، والأول أقوى، لأن قوله ﴿خلق فسوى وقدر﴾ يرجع إلى أحوال الدنيا، ويدخل فيه إكمال العقل والقوى، ثم أتبعه بقوله ﴿فَهَدَىٰ﴾ أى كلفه ودله على الدين.

[التفسير الكبير :٣١/١٣٨ ـ ١٤٠]

للأشياء الحريفة، وغير ذلك، تأتى للأذن تجدها مصنوعة، بترتيب خاص فلها صوان خارجى تليه تعاريج وانحناءات حتى تستقبل الصوت القوى فتخففه حتى يدخل قناة الأذن ويصل إلى الطبلة الرقيقة دون أن يخرقها لأنها لو تلقت الصوت المزعج المرتفع مباشرة دون هذه المصافى الصوتية لخرقها فى الحال ولكن ربنا سبحانه أوجد هذه التلافيف حتى تجعل الصوت بدلاً من أن يدخل بعنفوانه يدخل بحنانه المكسر .

وكذلك الأنف : الحق سبحانه أوجد به مخاطاً اسمه المخاط العالق لا يزول عنه؛ لأنك حين تتنفس تأخذ هواءً، هذا الهواء قد يكون ملوثاً بغبار فحين يمر من الأنف يلتصق هذا الغبار بالمخاط، كما أوجد سبحانه بعض الشعر بالأنف حتى يحجز الغبار الأكبر كثافة عند دخول الهواء الملوث به، فالشعر يحجز الغبار الأكثر كثافة والمخاط يحجز الغبار الأقل؛ ولذلك الإنسان حين يقص شاربه أو يسويه عليه أن يترك شعر الأنف ولا يحاول إزالته، لأن الله تعالى خلقه كمصفاة للنفس حتى لا يدخل شىء ضار الجسم .

فكل شىء خلقه الحق سبحانه له نظام خاص، وضعه الخالق سبحانه حتى يؤدى مهمته على أكمل وجه، انظر إلى آلة ميكانيكية مثل القلب تعمل ليل نهار طوال عمر الإنسان الذى قد يتعدى المائة سنة عند بعض الناس، فهل هناك فى العالم آلة تعمل مائة سنة دون أن تتوقف، وبدون صيانة أو قطع غيار، أو أى تدخل، وتعمل ليل نهار ، وأنت نائم، وأنت مستيقظ، وفى كل وضع، لا يوجد مثل ذلك أبداً ، لأن هذا صنع الخالق الأعظم الذى خلق فسوّى وقدّر فهدى.

فإذا قيل لفرعون: ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ﴾ [طه: ٥٠] ثم هداه إلى أن يرتقى، وينتفع بما أعطى، لا فرعون، ولا غيره يستطيع أن يناقش

فى هذا الأمر ؛ ولذلك فرعون نقل النقاش من هذه القضية الجوهرية إلى قضية تافهة ، فقال لموسى وهارون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] ذلك لأنه لا يقدر على القضية الأساسية تماماً مثلما حدث فى الحوار بين خليل الله إبراهيم والنمرود، فحينما قال له إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ردّ عليه بقوله: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ، وحين سأله كيف تحيى وتميت؟ جاء بواحد محكوم عليه بالإعدام وأمر بالعفو عنه ، وقال: هذا كان سيموت، وأنا أحييته، وهذا كذب لأنه لم يُحيى ميتاً ولكنه جاء بإنسان حىٍّ وتركه فى حاله دون أن يمسّه بسوء، وطبعاً إبراهيم لما وجد أنه يستخدم الجدل والسفسطة جاء له بقضية لا يستطيع أن يجادل، فيها فقال له : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فماذا حدث؟ قال تعالى : ﴿فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أى أصابه الخزى والبهتان ولم يستطع أن يرد [1].

---

(١) قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار: هذا المحاج هو ملك بابل، واسمه نمرود ابن كنعان، ذكروا أنه استمر فى ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغى وبغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا، ولما دعاه الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له، حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الخالق جل وعلا عناداً ومكابرة فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك وادعى لنفسه الربوبية، فلما قال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق: يعنى أنه إذا أتى بالرجلين قد تحتم قتلهما فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات هذا الآخر ، وهذا ليس بمعارضة للخليل عليه الصلاة والسلام بل هو =

هذا الموقف نفسه حدث مع فرعون وموسى لما قال له: ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] أحس فرعون أن موسى سيغلبه ويقيم الحجة عليه، فأراد أن يهرب من هذه القضية حتى لا يغلبه موسى وتضيع هيبته أمام شعبه الذى يدّعى أمامه أنه إله فنقل الكلام إلى قضية

= كلام خارجى عن مقام المناظرة ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض وهو انقطاع فى الحقيقة، فإن الخليل عليه الصلاة والسلام استدل على وجود الخالق جل وعلا بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وإماتتها على وجود فاعل ذلك الذى لابد من استنادها إليه فى وجودها ضرورة لعدم قيامها بأنفسها ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة ثم إماتتها، ولهذا قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ ﴾ فقول هذا الجاهل أنا أحيى وأميت إن عنى أنه فاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند ، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مستلزماً ولا عارض الدليل. ولما كان انقطاع مناظرة هذا المحاج قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلاً آخر بين وجود الخالق وبطلان ما ادعاه النمرود وانقطاعه جهرة : ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ أى هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء، فإن كنت كما زعمت أنك تحيى وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب، فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شىء ودان له كل شىء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شىء من هذا، بل أنت أعجز وأقل وأذل من أن تخلق بعوضة أو تتصرف فيها. فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل عليه الصلاة والسلام به بل انقطع وسكت، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

[معارج القبول للحكمى :١/ ١٠٧ ، ١٠٨]

جدلية فـ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] إنه لم يتعرض للقضية الأساسية وهرب إلى سفسطة وجدل، ولكن موسى أغلق أمامه هذا الباب وردّ عليه قائلاً: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ [طه: ٥٢] أى: أن هذا الشىء علمه ليس عندى أنا، ولكن عند الله الخالق، قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] الذى يسأل عن حال القرون الأولى هو الذى يجازيها إن كانت مؤمنة أو كافرة، ففرعون لماذا يسأل؟ هل هو سيجازى هؤلاء الناس السابقين ؟ طبعاً لا، إذن فالسؤال هروب من جدل الجد إلى مهاترة الهزل، فقطع موسى عليه هذا الطريق، وقال له: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ، فهو الذى سيجازى ومادام هو الذى سيجازى، فهو الذى يعرف، وأن ربى لا يضل ولا ينسى .

بعد ذلك دخل معه فى قضية أخرى تفصيلية لما سبق أن حدّثه فيه فأوضح له أن ربه الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى هو الذى جعل لكم الأرض مهدًا وسلك لكم فيها سبلاً ، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [1] [طه] كلمة «مهد» إذا سمعتها اعلم أن هناك تمهيداً ومعنى

(١) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ أى جعل الأرض كالمهد تمهدونها وتستقرون عليها رحمة بكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ أى جعل لكم طرقاً تسلكونها فيها لقضاء مصالحكم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى أنزل لكم من السحاب المطر عذباً فراتاً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أى فأخرج بذلك الماء أنواعاً من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة كل صنف منها زوج، وفيه التفات من الغيبة إلى المتكلم تنبيهاً على عظمة الله ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أى كلوا من هذه النباتات والثمار واتركوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ الذى أخرجه الله، والأمر للإباحة =

التمهيد توطئة كل شيء لصلاحية ما هو عليه. فأنت مثلاً إذا كنت في الحقل، أو في أرض بها حصى، واضطررت إلى النوم أو الراحة، تقوم بتمهيدها عن طريق تسويتها وإزالة ما بها من حصى حتى تكون صالحة لمهمتها ؛ ولذلك يسمون مكان نوم الطفل مِهاداً أو مهداً ؛ لأن الطفل لا يستطيع أن يفصح عما يؤلمه ، فلابد أن تمهّد له الفراش تمهيداً بحيث لا يكون فيه ما يؤذي ؛ لأنه يعيش بغريزتك أنت إلى أن يكبر وتتنبه غرائزه، ويعرف كيف يدفع الأذى عن نفسه ، ولـذلك جُعلت الرعاية والتربية من أجل هذا .

فالحق سبحانه جعل لنا الأرض مهدا ؛ لتصلح حياتنا عليها، ومعنى مهدها أي سوّاها لمهمتها ، وليس المقصود أنه جعلها مستوية ؛ لأنه جعل فيها الجبال والوديان والأنهار ؛ حتى تكون صالحة لمهمتها، فالسالك في الصحراء مثلاً يسلك طريقاً متعرجاً وهذا أفضل له ؛ لأنه لو كان طريقاً مستقيماً إن واجه الشمس يظل طريقه في شمس دائماً ، ولكن إن كان متعرجاً يسير بعض الوقت في الظل، فهذا الالتواء مقصود، فإياك أن تظن أنها مستوية أي ليس فيها عوج ؛ لأن كل شيء له مهمة مثل قضيب

= تذكيراً لهم بالنعم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي: إن فيما ذكر لعلامات واضحة لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدانيته.

[صفوة التفاسير : ٢/ ٢٣٧]

والمهاد: الفراش. وقد مهدت الفراش مهداً بسطته ووطأته. يقال للفراش: مهاد لوثارته. وفي التنزيل: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]؛ والجمع أمهدة ومُهد. قال الأزهري: المهاد أجمع من المهد كالأرض جعلها الله مهاداً للعباد، وأصل المهد التوثير؛ يقال: مهدت لنفسي، ومهدت أي جعلت لها مكاناً وطيئاً سهلاً. ومهد لنفسه خيراً وامتهده: هيأه وتوطأه؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤] أي: يوطئون. [لسان العرب : ٣ / ٤١٠]

الحديد الذى عوجناه ؛ لنجعله خطافًا فنحن لم نعوجه ، ولكننا عدلناه لمهمته، إذن معنى التسوية هنا هو جعل الشىء صالحاً لمهمته ، سواء كان بالاعتدال أو بالاعوجاج .

ومعنى ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ ، سلك أى: دخل، وهى من الألفاظ التى تستعمل تارة لازمة مثل قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] وتأتى متعدية فى قوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ فهنا تعدَّت من المخاطب إلى المدخول فيه، فأنتم الذين دخلتم، والسبل هى المدخول فيها، إذن المفعول مرة يكون المسلوك، أو المسلوك فيه، والسبل هى الطرق، فجعل لكم فى الأرض طرقاً ؛ لتصلوا فيها إلى مهماتكم فى يسر وسهولة، وهذه السبل كل سبيل منها على قدر طاقته ومهمته التى يؤديها، فالمدق الذى يسير فيه الناس على أقدامهم غير الجسر الذى يتسع لعربة أو سيارة، غير الشارع أو الطريق المتسع الذى يسع عدة عربات أو سيارات بجوار بعضها فكل منها له مهمة .

وقوله تعالى : ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤)﴾ [طه] هذا أيضا فى عملية الخلق التى لا يستطيع أحد أن يدّعيها ؛ لأن هذه دعوى ترد على مدّعيها؛ لأنه لايستطيع أحد أن يفعل شيئاً منها ، فهنا إنزال الماء من السماء ليس لأحد عمل فيه ، لكن إخراج النبات قد يكون لنا عمل فيه، فنحن نحرث ونبذر البذور ونرويها بالماء ونتعهدها بالسماد والرى؛ فهذا كله عمل منا مع أنه عمل بأسباب مخلوقة خلقها الله سبحانه وتعالى.

لكن حين يتكلم الحق عن إنزال الماء فلا أحد يشاركه فى هذا العمل،

ولكن عند الحديث عن إخراج النبات قال: «أخرجنا» لأن هناك صفات كثيرة ستتكاتف على عملية الإخراج ، ولأن للإنسان فيها عملاً كما ذكرنا؛ ولذلك ربنا سبحانه وتعالى حينما تحدث عن مسألة الأرض المحروثة، والماء قال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] فأثبت لهم أنهم حرثوا ولكنهم لما حرثوا جاءوا بالبذور من نبات مخلوق من قبل، فإذا سلسلنا هذه القبلية فى النبات سنصل إلى بداية خلق هذا النبات، مثلما سلسلنا الإنسان. فأنت ابن أبيك وأبوك ابن جدك حتى تنتهى إلى أب لا أب له وهو آدم عليه السلام. فأنت حرثت ولكن هل كل من زرع حصد، وكانت نتيجة حرثه وفق ما يهواه أو يتمناه، أأمسكت بالنبات وظللت تشده حتى يكبر؟ لا، الله تعالى يقول : ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥] فإذا كنت أنت الذى خلقته وأخرجته من الأرض فحافظ عليه؛ ولذلك قارون لما قال عن الأموال التى عنده: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨] أراد الله أن يثبت كذبه فخسف به وبداره الأرض(١) .

---

(١) قال ابن الأثير: كان قارون بن يصهر بن قاهث، وهو ابن عم موسى بن عمران ابن قاهث، وقيل: كان عم موسى؛ والأول أصح. وكان عظيم المال كثير الكنوز، قيل: إن مفاتيح خزائنه كانت تحمل على أربعين بغلاً، فبغى على قومه بكثرة ماله، فوعظوه ونهوه، وقالوا له ما قص الله تعالى فى كتابه: ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ [القصص] ؛ فأجابهم جواب مغتر لحلم الله عنه فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾ ، يعنى المال والخزائن ، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ ، قيل : على خبر ومعرفة منى ، وقيل: لولا رضى الله عنى ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا . فلم يرجع عن غيه ، ولكنه تمادى فى =

= طغيانه حتى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩]، وهى أنه ركب برذوناً أبيض، بمراكب الأرجوان المذهبة، وعليه الثياب المعصفرة، وقد حمل معه ثلاثمائة جارية، على مثل برذونه، وأربعة آلاف من أصحابه، وبنى داره، وضرب عليها صفائح الذهب، وعمل لها باباً من ذهب، فتمنى أهل الغفلة والجهل مثل ماله، فنهاهم أهل العلم بالله .

وأمره تعالى بالزكاة، فجاء إلى موسى من كل ألف دينار دينار، وعلى هذا من كل ألف شيء، شيء فلما عاد إلى بيته وجده كثيراً، فجمع نفراً يثق بهم من بنى إسرائيل ، فقال: إن موسى أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن يريد أخذ أموالكم. فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بما شئت. فقال: آمركم أن تحضروا فلانة البغى تجعلوا لها جعلاً فتقذفه بنفسها، ففعلوا ذلك، فأجابتهم إليه.

ثم أتى موسى فقال: إن قومك قد اجتمعوا لك لتأمرهم وتنهاهم. فخرج إليهم فقال: من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى يموت. فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ فقال: نعم. قال: فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة. فقال: ادعوها فإن قالت فهو كما قالت.

فلما جاءت قال لها موسى: أقسمت عليك بالذى أنزل التوارة إلا صدقت: أنا فعلت بك ما يقول هؤلاء؟ قالت: لا، كذبوا، ولكن جعلوا لى جعلاً على أن أقذفك. فسجد ودعا عليهم، فأوحى الله إليه: مر الأرض بما شئت تطعك. فقال: يا أرض خذيهم.

وقيل: إن هذا الأمر بلغ موسى، فدعا الله تعالى عليه، فأوحى الله إليه: مر الأرض بما شئت تطعك. فجاء موسى إلى قارون، فلما دخل عليه، عرف الشر فى وجهه فقال له: ياموسى ارحمنى. فقال موسى: يا أرض خذيهم. فاضطربت داره وساخت بقارون وأصحابه إلى الكعبين، وجعل يقول: يا موسى ارحمنى. قال: يا أرض خذيهم. فأخذتهم إلى ركبهم. فلم يزل يستعطفه وهو يقول: يا أرض خذيهم، حتى خُسف بهم، فأوحى الله إلى موسى: ما أفظَّك! أما وعزتى لو إياى نادى لأجبته، ولا أعيد الأرض تطيع أحداً أبداً بعدك، فهو يخسف به كل يوم، فلما أنزل الله نقمته حمد المؤمنون الله، وعرف الذين تمنوا مكانه بالأمس خطأ أنفسهم واستغفروا وتابوا. أ. هـ [الكامل فى التاريخ : ١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٦] =

وقال له إن كنت أوتيته على علم عندك فحافظ عليه بهذا العلم.

إذن حين بيّن لنا الحق أننا نحرث الأرض فقط ولا نزرع، فهنا عملية من اثنتين:

الأولى: حراثة منك بأسباب الحق الموهوبة لك.

الثانية: وزرع من الله، قال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥] هنا جاء التأكيد باللام ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ لأن لك فيه شبهة عمل مما يجعلك قد تتردد فى القبول، فأكد لك أنه قادر على تحطيم هذا الزرع، لكن فى الماء قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة] هنا لم يذكر أى توكيد؛ لأن هذه قضية خالصة لله لا يمكن أن يدّعيها أحد، بعكس الزرع الذى يمكن لأى واحد أن يّدعى أنه زرعه وتعهده بالرى والسماد وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣] ولكن لماذا ذكر كلمة الأزواج فى النبات؟ قالوا: لأن الله يريد أن تتكاثر الأشياء، وتكاثر أى شىء لابد أن ينشأ من زوجين (الذكورة والأنوثة)، وكما أن الناس يتكاثرون فالأشياء المخلوقة لهم أيضاً تتكاثر[1].

= وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص].

(١) قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩] =

هذا من أجل إعداد الأرض التى قال الله عنها: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠] أى أن أقوات الأرض لابد أن تكفى كل من يأتى على ظهر الأرض، فإذا ضاقت الأرض بساكنيها، وجاع الناس فاعلم أن الناس هم الذين قصّروا فى استصلاح الأرض، بدليل أننا فى مصر لما بدأنا نستصلح الأراضى الصحراوية رأينا الخضرة تنتشر على جوانب الطرق الصحراوية، ويأتى منها الخير، فكلمة أزواج فى النبات جاءت من أجل التكاثر لأن الله خلق من كل شىء زوجين، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لايَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦] فهناك أشياء فيها عملية الزوجية، ولكن لا يعلمها الإنسان، مثل: السالب والموجب الذى يعطى شرارة الكهرباء، والإلكترونات، والبروتونات الموجودة فى الذرة، فكل شىء فيه الزوجية؛ حتى يحدث التكاثر، فإذا جاع قوم أو افتقدوا أقواتهم فاعلم أنهم فقدوا شيئاً قبل ذلك وهو قدرتهم على مسايرة الحياة بما خلق الله فاكتفوا بما عندهم ولم ينظروا إلى الحياة بعد ذلك.

= يقول سيد قطب: وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق فى هذه الأرض وربما فى هذا الكون؛ إذ إن التعبير لا يخصص الأرض - قاعدة الزوجية فى الخلق وهى ظاهرة فى الأحياء. ولكن كلمة ﴿شَىْءٍ﴾ تشمل غير الأحياء أيضاً. والتعبير يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية.

وحين نتذكر أن هذا النص عرفه البشر منذ أربعة عشر قرناً. وأن فكرة عموم الزوجية حتى فى الأحياء لم تكن معروفة حينذاك. فضلاً على عموم الزوجية فى كل شىء.. حين نتذكر هذا نجدنا أمام أمر عجيب عظيم.. وهو يطلعنا على الحقائق الكونية فى هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير!

كما أن هذا النص يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة فى طريق الوصول إلى الحقيقة. وهى تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة. وأن الذرة مؤلفة من زوج من الكهرباء: موجب، وسالب! فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة فى ضوء هذا النص العجيب. [فى ظلال القرآن: ٦/ ٣٣٨٥]

وكلمة ﴿شَتَّىٰ﴾ مثل كلمة مرضى؛ لأن مرضى مفردها: مريض، وشتى مفردها شتيت أى أشياء متفرقة كثيرة [1] ، وهذا صحيح فإذا نظرت إلى الصنف الواحد فقط تجده مختلف الألوان، والأحجام، والطعم، فإذا ذهبت إلى سوق التمور فى المدينة المنورة مثلاً تجد التمور من مختلف الأشكال، والألوان، والطعوم، والروائح مع أنه صنف واحد، فما بالك بباقى أصناف الثمار والنباتات؟ أشياء كثيرة لا تحصى، وقوله تعالى : ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤] يدل على أن الحق سبحانه وتعالى خلق الحياة، وخلق مقومات هذه الحياة، ومقومات الحياة التى تجعل الإنسان يظل حيا هى القوت، ويتكون من: الأكل، والشرب، والهواء الذى نتنفسه.

ونحن قلنا سابقاً : إن حكمة الحق سبحانه وتعالى فى أنه حين خلق مقومات الحياة تناسبت الملكية مع الأهمية؛ فأنت تستطيع أن تأكل فى اليوم وجبة، أو وجبتين، أو على الأكثر ثلاثاً ، لكن تشرب الماء أكثر من ثلاث مرات ، وتستطيع أن تصبر على الطعام شهراً على مقدار ما اختزن فى جسمك من شحم ولحم؛ لأنك حين تأكل شيئاً زائداً عن الوقود، أو الطاقة التى يحتاجها الجسم يختزن فى الجسم لوقت الحاجة ، وهذا هو الفرق بين صنعة الحق وصنعة الخلق، فالسيارة مثلاً تأخذ بنزيناً على قدر سعة (التنك) الخاص بها ؛ وحين ينفد البنزين تتوقف، لكن ربنا

---

(١) شتى: مأخوذ من شتَّ الشىء أى تفرق. يقال: أمر شتّ، أى: متفرّق. وشتَّ الأمر شتّا وشَتَاتاً تفرق؛ واشتَتَّ مثله. وكذلك التَّشتت. وشتَّتَه تشتيتا فرقه. وأشتَّ بى قومى ، أى فرّقوا أمرى. والشتِّيت المتفرق. قال رؤبة يصف إبلا:

جاءت معاً واطّرقت شتيتا وهى تثير الساطع السُّختيتا

وثغر شتيت أى مفلج. وقوم شتى، وأشياء شتى، وتقول: جاءوا أشتاتا؛ أى متفرقين؛ واحدهم شت؛ قاله الجوهرى. [تفسير القرطبى : ١١/ ٢١٠]

سبحانه وتعالى أعطاك خاصية أنك تأكل ، وهذا الأكل يولّد عندك طاقة تستهلكها فى حركتك أو تستهلك جزءا منها، فالجزء الذى لا تستهلكه يختزنه الجسم على هيئة دهون، فإذا فقدت هذه المادة واحتاج إليها الجسم، تجده يسحب من هذا الرصيد المخزون.

إذن الحق سبحانه قدّر لنا الأقوات وجعل ملكيتها على قدر الأهمية، فيصح أن يملك إنسان قوت إنسان آخر ويمنعه عنه، ولكن الله جعل الإنسان يصبر على القوت شهراً ، وفى خلال هذه المدة يستطيع أن يحتال للحصول على القوت، أو قد يعطيه من يمنع عنه القوت، أو يعلم بحاله بعض الناس فينقذونه من هذا الوضع، أما الماء ففى العادة لا يملّكه أحدا وإن ملّكه أحدا ، يكون هذا فى ظروف قليلة ، فجعلك الله لا تصبر عليها إلا من ثلاثة إلى عشرة أيام فقط. لكن الهواء لأنك لا تستطيع أن تستغنى عنه لحظة فلم يملّكه الله لأحد.

إذن فالذى حافظ علينا بذاتية فيها مقومات الحياة قال : ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ [طه: ٥٤] فنحن نأكل من رزق الله والأنعام تأكل أيضاً ، فهذا الرزق متاع لنا ولأنعامنا [١] ، وفى النهاية كل شىء يصب فى أنه متاع للإنسان ومعنى: ﴿لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤] الآيات العجائب، والنهى جمع نهية مثل: قرب وقربة، والنهية هى العقل [٢] ، هنا نلاحظ

(١) قال الله تعالى: ﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٣٢] أى عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة. [تفسير ابن كثير : ٤/ ٤٧٤]

(٢) والنهى: العقل، يكون واحداً وجمعاً، وفى التنزيل العزيز: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَىٰ﴾. والنهية: العقل، وبالضم؛ سميت بذلك لأنها تنهى عن القبيح؛ وأنشد ابن برى للخنساء[١]: =

(١) من قصيدة للخنساء (توفيت ٢٤هـ) وهى تُماضر بنت عمرو بن الحرث بن الشريد =

أن الله تعالى سمى العقل الذى يدير عملية التدبير فى الاختيارات، مرة سماه عقلاً ، ومرة نهية ومرة سماه لباً : ﴿ لأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] ثلاثة أسماء.

العقل معناه: أن شيئاً تخشى أن يشرد فتعقله ؛ حتى لا يضل ويضيع، والنهى من أجل أن ينهى، هل العقل مخلوق لهذا؟ نعم بعض الناس يظنون أن العقل خلقه الله ؛ لتشطح به كما تريد، وهذا خطأ لأن العقل خلقه الله لك ؛ لتعقل به غرائزك وتأخذ الغريزة على قدر مهمتها .

إذن فالغرائز خلقها الله لمهمة فإياك أن تتعدى هذه المهمة، وأنت بذلك محتاج إلى عقل يعقل غريزتك ؛ حتى يوقفها عند الحد المطلوب لها، وإلا انطلقت وعربدت فى الكون، هذا هو العقل. والنهية، والنهى بمعنى ينهاك عن الشىء المحظور؛ لأن شهوة نفسك تدعوك لفعلها، ولأنك حين تطلق لنفسك عنان الشهوة لست وحدك فى الكون، بل الكون فيه ملايين مثلك؛

= فتى كان ذا حلم أصيل ونهية إذا ما الحبا من طائف الجهل حلت

ومن هنا اختار بعضهم أن يكون النهى جمع نهية، وقد صرح اللحيانى بأن النهى جمع نهية فأغنى عن التأويل. وفى الحديث: «ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى»، هى العقول والألباب. وفى حديث أبى وائل: «قد علمت أن التقى ذو نهية» أى : ذو عقل. [لسان العرب : ١٥/٣٤٦]

= بعنوان : « لهفى على صخر » ؛ تقول فى مطلعها :

لَهفى على صَخرٍ فإنّى أرَى لَهُ نَوافِلَ مِنْ مَعرُوفِهِ قد تَوَلّتِ
ولَهفى على صَخرٍ لقد كان عِصْمَةً لمولاهُ إنْ نَعْلٌ بمولاهُ زَلّتِ

وللبيت رواية أخرى بالديوان ، غير تلك التى أوردها صاحب اللسان ، وهى :

فتىً كان ذا حلمٍ أصيلٍ وتؤدةٍ إذا ما الحُبى من طائف الجهل حُلّتِ

[ديوان الخنساء : ١٨]

والتؤدة : التأنى ، الحُبى : واحدتها حبوة : وهى طريقة فى القعود .

فإن أطلقت حريتك فى عمل شهواتك فأطلق لغيرك حريته فى عمل شهواته، وحين يطلق كل واحد حريته لعمل شهواته تتحول الأمور إلى فوضى ويصبح المجتمع غابة يسيطر فيها الأقوياء وكل من يقدر على شىء يفعله ، الله سبحانه سمّى الآلة التى تضبط الاختيارات العقل، والنهى، وسماها اللب، أو الألباب بمعنى أنك لا تنظر إلى قشور الفكر، ولكن انظر إلى لب الأشياء فإذا أخذ منك الحق سبحانه وتعالى تقييد شهوة بتكليف فخذها على أنه قيّد غيرك أيضاً بتكليف، فإذا قال لك لا تنظر إلى محارم الناس، فقد قال للناس جميعاً لا تنظروا إلى محارمه، وإذا قال لك اعطِ الفقير من مالك وأنت غنىّ، فلا تمنع لأننا سنعطيك وأنت فقير ، فلابد فى ساعة الأخذ أن تذكر العطاء .

إذن الآلة العقلية التى نسميها العقل، أو النهى، أو اللب، أوجدها الله لا لتنطلق بها فى الحياة، والغرائز، ولكن لنقيد بها الغرائز، فلا تستعمل إلا فى مهمتها فقط. . وبذلك يعتدل ميزان الكون، ويعيش الناس فى أمن، وسعادة، وسلام.

وهنا موسى عليه السلام فى حواره مع فرعون يعرض قضايا ليست لفرعون فقط، ولكنه يعرضها حتى لا يجىء فرعون آخر ويدّعى ما ليس له بحق.

* وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين *

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ [القصص: ٣٦]

الآيات البينات هى المعجزات الواضحات، ولما جاءهم موسى بهذه المعجزات والبراهين الواضحة على صدق رسالته بُهتوا، ولكن كيف يخرجون من هذا المأزق؟ شخص يدّعى الألوهية، وجاءه من يحطم غروره ويثبت كذبه وعجزه، فماذا يفعل؟ قالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ الله يعلّم رسوله موسى عليه السلام الجدل[1] فقال له: إنك مقبل على أناس متمسكين بباطل، والمتمسك بالباطل حريص عليه، فإذا جاء أحد ليصرفه عن الباطل إلى الحق يغضب؛ لأنه مستفيد من باطله وهو فى حاجة إلى ألا يهيج أكثر مما فى نفسه؛ لأنه يرى فيمن ينصحه أنه جاء ليسلبه السلطان الذى يعيش به، ويسلبه النعمة التى يعيش عليها.

---

(١) يقول تعالى آمرا رسوله محمدا ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله، بالحكمة، وقوله: ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥] أى من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفقٍ ولينٍ وحسن خطاب، فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون فى قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [النجم: ٣٠]. أى قدم علم الشقى منهم والسعيد وكتب ذلك عنده وفرغ منه فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضلّ منهم حسرات فإنه ليس عليك هداهم إنما أنت نذير عليك البلاغ وعلينا الحساب. [تفسير ابن كثير: ٢ / ٥٩١]

فعلى الداعى ألا يزيد غيظه؛ لأن زيادة الغيظ تعطيه لددًا فى الخصومة، وهذا هو السبب فى قول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه] أى تلطفا معه فى القول؛ لأن هذه الدعوة ستخرجه من سلطانه وألوهيته المزعومة، وتجعله مثل غيره من الرعية، وهذه مسألة ليست سهلة على النفس، فالله سبحانه يعلّم موسى وهارون ما يقولانه لفرعون وقومه من قول ليّن ودعوة بالحسنى، مع أنهما لما عرضا عليهم المعجزات الواضحات أنكروا، وقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦] وصفوا هذه المعجزات بأنها سحر وكذب، وأنهم لم يسمعوا بهذه الدعوة من آبائهم الأولين، وهذا دليل على قسوة قلوبهم وإنكارهم للحق.

فماذا قال موسى رداً عليهم؟ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧] كلمات فيها أدب النبوة وأخلاق الداعية وسمو الحوار، لم يقل له: أنت الكذاب لأنك تدّعى الألوهية وتستعبد الناس وتظلمهم، ولكن خاطبه بأدب ولين فانظروا ماذا قال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ولذلك رسول الله ﷺ لما جاء ليجادل معانديه من الكفار، لم يقل لهم إلا كلاما لينا[1] ، وهذا من حكمة الداعية حتى لا يزيد غضب المدعو ،

---

(١) ولنضرب لذلك مثلاً بمجادلة النبى ﷺ لعتبة بن ربيعة بالتى هى أحسن: قال ابن إسحاق: حدثنى يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى قال: حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً قال يوما، وهو فى نادى قريش، ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد؟ فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه =

= ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يكثرون ويزيدون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه، فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ. فقال: يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السلطة[1] فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم: فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها. قال: فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال: فاسمع منى، قال: افعل، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ۝٥﴾ [فصلت] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. [الرحيق المختوم : ٩٦ ، ٩٧]

(١) هى المنزلة الرفيعة المهيبة.

ويجعله يتمسك بباطله ويعاند الحق، ولذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(1) [العنكبوت: ٤٦] وعلة ذلك أن الإنسان حينما يكون على باطل وأحب هذا الباطل وتعود عليه، يصعب

---

(1) قال القرطبى : اختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ فقال مجاهد : هى محكمة فيجوز مجادلة أهل الكتاب بالتى هى أحسن على معنى الدعاء لهم إلى الله عز وجل، والتنبيه على حججه وآياته؛ رجاء إجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة، وقوله على هذا :﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه ظلموكم ، وإلا فكلهم ظلمة على الإطلاق . وقيل : المعنى لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب المؤمنين كعبد الله ابن سلام ومن آمن معه . ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلهم وغير ذلك. وقوله على هذا التأويل : ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يريد به من بقى على كفره منهم ، كمن كفر وغدر من قريظة والنضير وغيرهم. والآية على هذا أيضا محكمة، وقيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال. قوله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة:٢٩]. قاله قتادة : ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أى جعلوا لله ولدا، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] و﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١] فهؤلاء المشركون الذين نصبوا الحرب ولم يؤدوا الجزية فانتصروا منهم. قال النحاس وغيره : من قال هى منسوخة احتج بأن الآية مكية، ولم يكن فى ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية، ولا غير ذلك. وقول مجاهد حسن؛ لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخبر يقطع العذر، أو حجة من معقول . واختار هذا القول ابن العربى قال مجاهد وسعيد بن جبير : وقوله : ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ معناه إلا الذين نصبوا للمؤمنين الحرب فجدالهم بالسيف حتى يؤمنوا، أو يعطوا الجزية.

[تفسير القرطبى :١٣/ ٣٥٠ : ٣٥١]

قال ابن جرير الطبرى : يقول تعالى ذكره : ﴿وَلا تُجَادِلُوا﴾ أيها المؤمنون بالله وبرسوله اليهود والنصارى ، وهم ﴿أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يقول : إلا بالجميل من القول ، وهو الدعاء إلى الله بآياته، والتنبيه على حججه.

وقال الطبرى : بعد أن عدد الآراء وأولى هذه الأقوال بالصواب ، قول من قال : =

عليه أن تأخذه من الباطل إلى الحق، فما بالك لو دعوته بالعنف أو أغلظت له فى القول؟ ستكون فى هذه الحالة جمعت عليه مشقتين؛ مشقة تركه للباطل الذى عشقه، ومشقة أسلوبك فى إخراجه، فيكفى ما فى نفسه فلا تزيده عليه؛ بل عامله بالرفق واللين كالطبيب الذى يعالج المريض[1]؟

= عنى بقوله: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ : إلا الذين امتنعوا من أداء الجزية ، ونصبوا دونها الحرب.

فإن قال قائل : أو غير ظالم من أهل الكتاب ، إلا من لم يؤد الجزية؟ قيل : إن جميعهم وإن كان لأنفسهم بكفرهم بالله ، وتكذيبهم رسوله محمد ﷺ ظلمة، فإنه لم يعن بقوله: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ ظلم أنفسهم . وإنما عنى به: إلا الذين ظلموا منهم أهل الإيمان بالله ورسوله ﷺ ، فإن أولئك جادلوهم بالقتال.

وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال فيه بالصواب ؛ لأن الله تعالى ذكره أذن للمؤمنين بجدال ظلمة أهل الكتاب بغير الذى هو أحسن، بقوله: ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ فمعلوم إذ كان قد أذن لهم فى جدالهم، أن الذين لم يؤذن لهم فى جدالهم إلا بالتى هى أحسن، غير الذين أذن لهم بذلك فيهم، وأنهم غير المؤمن ، لأن المؤمن منهم غير جائز جداله إلا فى غير الحق ؛ لأنه إذا جاء بغير الحق، فقد صار فى معنى الظلمة فى الذى خالف فيه الحق. فإذا كان ذلك كذلك، تبين أن لا معنى لقول من قال : عنى بقوله: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أهل الإيمان منهم، وكذلك لا معنى لقول من قال : نزلت هذه بالآية قبل الأمر بالقتال ، وزعم أنها منسوخة ؛ لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة عقل.

وقد بينا فى غير موضع من كتابنا ، أنه لا يجوز أن يحكم على حكم الله فى كتابه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل .

[تفسير الطبرى :٢١/ ١ : ٣ بتصرف]

(١) عن تميم الدارى أن النبى ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» . [أخرجه مسلم : ٥٥/ ٩٥]

وقال الإمام أبوحامد الغزالى فى آداب نصح من يجهل أمر ما كمن لا يحسن الصلاة قال: فيجب تعريفه باللطف من غير عنف. . وإذا كان التعريف كشفاً للعورة مؤذياً =

ولذلك رحم الله شوقى إذ أخذ هذا المعنى وصاغه بأسلوب أدبى فقال: «النصح ثقيل فلا ترسله جبلا ولا تجعله جدلا» .

لأن كونك تنصح إنساناً فمعنى ذلك أنه على خطأ وأنت على حق، وأنت الناصح فى مقام أعلى، وهو منصوح فيكون فى منزلة أقل، ومن هنا فالنصح ثقيل على النفس، فلا تجعل كلامك للمنصوح ثقيلا كالجبل ، كذلك لا تجادل (1) المنصوح ، لكن حاول أن تقنعه بالحسنى وبالأسلوب اللَّيِّن المحبب إلى النفس؛ لأن الإنسان الضعيف المغرور بشىء من الباطل

= للقلب فلابد وأن يعالج دفع أذاه بلطف ورفق .

وقال: ويكون النهى بالوعظ والنصح والتخويف بالله تعالى ، وذلك فيمن يقدم على الأمر وهو عالم بكونه منكراً، أو فيمن أصر عليه بعد أن عرف كونه منكراً، كالذى يواظب على الشرب و على الظلم. أو على اغتياب المسلمين، أو ما يجرى مجراه، فينبغى أن يوعظ ويخوف بالله تعالى ، وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد فى ذلك، وتحكى له سيرة السلف، وعبادة المتقين وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه، ويرى إقدامه على المعصية مصيبة على نفسه، إذ المسلمون كنفس واحدة. [إحياء علوم الدين :٣/ ٣٤ ، ٣٥ بتصرف]

(١) عن أبى أمامة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال : «أنا زعيم بيت فى ربض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محقا، وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا، وبيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه». أخرجه أبو داود [٤٨٠٠] وحسّنه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤٠١٥]. وانظر السلسلة الصحيحة [٢٧٣].

وعن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل(١) ، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨].

أخرجه الترمذى [٣٢٥٣] وقال : هذا حديث حسن صحيح وحسّنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٥٩٣] .

(١) الجدل : العناد والمراء والخصومة بالباطل ، وطلب المعجزة من بينهم عنادًا أو جحودًا ، وقيل: مقابلة الحجة بالحجة .

أكثر من المريض، والمريض فى حاجة إلى علاج، فخذه بالرفق واللين لعلك تستميله إليك؛ ولذلك لو رأيت إنسانا يشرف على الغرق هل تعنفه وتقول له: مادمت لا تعرف العوم لماذا نزلت إلى البحر؟ أم الأفضل أن تسرع إليه لتنقذه من الغرق وبعد ذلك تنصحه؟ وهناك قول آخر فى هذا المعنى يقول: «الحقائق مُرة فاستعيروا لها خفة البيان» .

ولكن هناك مواقف قد لا يُجدى فيها اللين، نبى الله نوح الذى ظل يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ولم يستجيبوا، ماذا يفعل بعد أن بذل كل جهده واستنفد كل طاقته، وسلك شتى الأساليب والوسائل لإقناعهم دون جدوى؛ ولذلك لما ضاق بهم ذرعًا ووجد أنه ليس فيهم أى أمل فى الاستجابة دعا عليهم بالهلاك فقال: ﴿ **وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)** ﴾[1] [نوح] مع أنه قبل ذلك دعاهم بالحسنى وحاورهم باللين، وحاول إقناعهم بالحجة فلم يستجيبوا[2]؛ ولذلك حينما كذبوا

---

(١) أى لا تترك على وجه الأرض منهم أحدا ولا ديارا. وقال السدى : الديّار الذى يسكن الدار. فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين، حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل عن أبيه. ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ أى: إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك الذين تخلقهم بعدهم ﴿ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾، أى فاجرًا فى الأعمال كافر القلب وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما. [تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٢٨]

(٢) ونزلت سورة نوح بالكامل لتوضح مدى اجتهاد رسول الله نوح ـ عليه السلام ـ فى دعوة قومه بشتى السبل، وتوضح كذلك مدى إعراضهم عن سماع نداء الحق.
قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴾ [نوح]. =

دعوته قال له ربه: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥] أى إن كنتُ أنا افتريت هذه الدعوة التى جئتكم بها، فعلىَّ إجرامى وأنا برىء مما تجرمون، فساواهم بنفسه ولكن جعلهم مجرمين أيضا. ولما علم الله أنهم لن يستجيبوا، أوحى إلى نوح أن يُريح نفسه من عناء دعوته لهم لأنه لن يستجيب منهم أحد، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] لكن رسول الله ﷺ فى مجادلته لمعانديه من الكفار لم يقل هذا (١) بل قال

= قال الشيخ المراغى: والخلاصة - أنه عليه الصلاة والسلام لم يترك سبيلاً للدعوة إلا فعلها، فاستعمل طرقاً ثلاثة:

الأولى: بدأهم بالمناصحة فى السر، فعاملوه بما ذكر فى الآية من سد الآذان، والاستغشاء بالثياب، والإصرار على الكفر، والاستعظام عن سماع الدعوة.

الثانية: جاهرهم بالدعوة، وأعلنهم على وجه ظاهر لاخفاء فيه.

الثالثة: جمع بين الإعلان والإسرار. [تفسير المراغى: ٢٩/ ٨٢-٨٣]

(١) قال السيوطى: أخرج ابن مردويه والضياء فى المختار عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ﷺ أى آية أنزلت من السماء أشد عليك؟ فقال «كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس فى الموسم، فنزل علىّ جبريل فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] قال: فقمت عند العقبة، فناديت: يا أيها الناس، من ينصرنى على أن أبلغ رسالة ربى ولكم الجنة، أيها الناس قولوا لا إله إلا الله، وأنا رسول الله إليكم، وتنجحوا ولكم الجنة. قال: فما بقى رجل ولا امرأة ولا صبى إلا يرمون علىّ بالتراب والحجارة، ويبصقون فى وجهى ويقولون: كذاب صابئ، فعرض علىّ عارض فقال: يا محمد، إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك فقال النبى ﷺ: اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون، وانصرنى عليهم، وأن يجيبونى إلى طاعتك»، فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه. [الدر المنثور: ٣/ ١١٧]

وقد روى البخارى - بسنده - عن عروة بن الزبير، أن عائشة رضى الله عنها حدثته أنها=

لهم ، ﴿لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥] أى بينى وبينكم قضية، لا تسألون أنتم عما أجرمنا، ولو كان قال فى المقابل ولا نسأل عما تجرمون كان الموقف متساويًا الطرفين، أى لن يسألكم أحد عن إجرامنا نحن، ولن يسألنا أحد عن عملكم أنتم، فهذا أدب عالٍ فى الدعوة وتواضع رائع فى الحوار.

موسى عليه السلام قال: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ [القصص: ٣٧] وعاقبة الدار هى الآخرة؛ لأن الدار هى الدنيا وعاقبتها الدار التى تأتى بعدها وهى الدار الآخرة.

ومعنى ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧] أى سواء منا أو منكم فالظالمون لا يفلحون.

= قالت للنبى ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: « لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، وهو المسمى بقرن المنازل فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل، فنادانى، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فنادانى ملك الجبال، فسلم على ثم قال: يا محمد، فقال : ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين » فقال النبى ﷺ : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً » .

أخرجه البخارى [٣٢٣١]

قال الحافظ ابن حجر قوله: «الأخشبين» بالمعجمتين هما جبلا مكة أبو قبيس والذى يقابله وكأنه قعيقعان، وقال الصغانى: بل هو الجبل الأحمر الذى يشرف على قعيقعان، ووهم من قال هو ثور كالكرمانى؛ وسميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما، والمراد بإطباقهما : أن يلتقيا على من بمكة، ويحتمل أن يريد أنهما يصيران طبقاً واحداً. [فتح البارى ٦/ ٤٦٣]

* السحر ليس حقيقة ولكنه تخيل *

ويمضى الحق سبحانه وتعالى ليعطينا الصورة متكاملة فيقول جل جلاله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[1] [يونس: ٧٦] . لقد جاءهم الحق من الله تبارك وتعالى على لسان موسى وهارون، ولكن منهج الحق جاء من الله وإن حمله رسل.

إذن.. فالذى يتكبر ويتعالى على الرسول لا يتكبر على مساوٍ له؛ لأن الرسول عليه البلاغ فقط، ولكن الرسالة من الله الذى بعثه، ولذلك كان يجب أن تعرف قدرك ولا تتكبر على رسالة الحق؛ لأن كل شىء خُلِق بالحق؛ السماء مخلوقة بالحق، والأرض مخلوقة بالحق، والمطر ينزل بالحق؛ كل شىء لكى يتزن فى الدنيا ولا يميل ولا يهتز ولا يفسد مخلوق بالحق، ولذلك فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١] . إذن فالقوانين الأزلية فى الكون مخلوقة بالحق؛ ولذلك فإنها لا تفسد أبدا . ولو أن هذه القوانين خضعت لأهواء البشر لَفسد الكون، لو أن الشمس خاضعة لأهواء البشر مثلاً لقال لها هذا: أشرقى. وقال لها آخر: لا تشرقى. ولأصبحت العملية فاسدة؛ لأن نظام الكون اختل، ولكن القوانين الكونية التى ليس لك فيها إرادة تسير بنظام دقيق.

---

(١) يقول ابن كثير: كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. [تفسير ابن كثير: ٢/٤٠٨]

إنما الفساد يأتى من تدخل البشر ؛ ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أننا إذا أردنا أن تستقيم حياتنا استقامة الكائنات العليا فلابد أن نمضى بالحق والميزان، وفى هذا يقول جل جلاله : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝﴾ [الرحمن]. إذن: فكل شىء فى الكون مخلوق بميزان دقيق، والذى خلق هذا الكون قد وضع لك ميزان حياتك لتستقيم، وهذا الميزان هو منهج الله تبارك وتعالى؛ ولذلك فإنه يقول: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ [يونس: ٧٦] ، فى ذلك يلفتنا إلى أن الرسل لم تأت بالمنهج من عندها ولكنها جاءت به من عند الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك فإن الذين كفروا بمحمد ﷺ قالوا كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١) [الزخرف: ٣١] ، فكأنهم نسبوا الرسالة إلى الرسول بينما هى فى الحقيقة من عند الله ، وكان يجب أن ينظروا إلى أن الرسالة من الله تبارك وتعالى . وهو الذى يختار لها النبى أو الرسول.

---

(١) يقول ابن عطية : الضمير فى: ﴿وَقَالُوا﴾ لقريش، وذلك أنهم استبعدوا أولاً أن يرسل الله بشراً، فلما تقرر أمر موسى وعيسى وإبراهيم ، ولم يكن لهم فى ذلك مدفع، رجعوا يناقضون فيما يخص محمداً عليه السلام بعينه، قالوا: لم كان محمد ولم يكن نزول الشرع ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ من إحدى الفرقتين ﴿عَظِيمٍ﴾ ، وقدر المبرد لهم: على رجل من رجلين من القريتين. والقريتان: مكة والطائف، ورجل مكة الذى أشاروا إليه: قال ابن عباس وقتادة: هو الوليد بن المغيرة المخزومى. وقال مجاهد: هو عتبة بن ربيعة. وقال قتادة: بلغنا أنه لم يبق فخذ من قريش إلا ادعاه. ورجل الطائف قال قتادة: هو عروة بن مسعود. وقال ابن عباس: حبيب بن عبد بن عمير. وقال مجاهد: كنانة بن عبد ياليل. [المحرر الوجيز: ٥/٥٣]

قـول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ ، والحـق شـىء ثابت لا يتغير ولا يتبدل، قد ينتصر الباطل قليلاً ولكنه لا يدوم، وعندما ينتصر الباطل يملأ الفساد الأرض، فيبحث الناس عن الحق، ولولا ما عاناه الناس من الباطل ما عرفوا قيمة الحق؛ لأن الباطل يأتى للناس فيتعبهم ويشقيهم ، فيبحثون عـن الحق لكـى يريحـهم ممـا هـم فيه ، والله سبحانه وتعالى يعطينا مثل الحق والباطل فى قوله جل جلاله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾(1) [الرعد: ١٧] . فالله سبحانه وتعالى يمثّل لنا الحق والباطل بالمطر

---

(١) عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ الآية، قال: هذا مثل ضربه الله تعالى، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك، فما ينفع معه العمل. وأما اليقين، فينفع الله به أهله. وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ﴾. وهو اليقين، كما يجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه به ويترك خبيثه فى النار، كذلك يقبل الله تعالى اليقين ويترك الشك.
عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى الآية قال: هذا مثل ضربه الله تعالى بين الحق والباطل، يقول: احتمل السيل ما فى الوادى من عود ودمنة، ومما توقدون عليه فى النار فهو الذهب والفضة والحلية، والمتاع: النحاس والحديد، وللنحاس والحديد خبث، فجعل الله تعالى مثل خبثه كمثل زبد الماء، فأما ما ينفع الناس، فالذهب والفضة. وأما ما ينفع الأرض، فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذلك مثل العمل الصالح الذى يبقى لأهله . والعمل السيئ يضمحل من محله ، فـما يذهـب هذا =

الذى ينزل من السماء ساعة ينزل الماء على سفوح الجبال ينحدر على الوديان، وهو فى انحداره يأخذ معه القشّ والأقذار، هذه الأشياء تبقى طافية على سطح الماء تماماً ، كما يحدث عندما تحاول أن تنقى الحديد من الشوائب، فإنك تصهره فى النار فتتطاير الشوائب ويبقى الصلب النقى.

الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أنه بعد فترة من نزول الماء إلى الوادى، فإن القاذورات التى كانت تطفو على السطح يُلقى بها على الجانب مثلما يُلقِى البحر ما فيه من أشياء وقاذورات على الشاطئ. إذن فالزبد، وهو الباطل، قد يطفو على السطح فترة ولكنه لا يبقى أبداً ، وسرعان ما يبتعد ويلقى به بعيداً ، كذلك الحق والباطل، الباطل دولته قليلة والحق دولته كثيرة ودائمة، الباطل لا ينتصر إلا لوقت محدود والحق ثابت الوجود، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[1]؛ ذلك لأن السحر كان موجوداً عند الفراعنة، وكان الكهنة

= الزبد. فذلك الهدى والحق جاء من عند الله تعالى، فمن عمل بالحق كان له. وما بقى كما يبقى، ما ينفع الناس فى الأرض. وكذلك الحديد، لا يستطيع أن يُعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل النار، فتأكل خبثه فيخرج جيده فيُنتفع به، كذلك يضمحل الباطل، وإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال، فيرفع الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق. [الدر المنثور: ٤/ ٦٣٢- ٦٣٣]

(١) يقول الزمخشرى فى تأويل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا ﴾ : فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله لا من قِبَل موسى وهارون ﴿ قَالُوا ﴾ لحبهم الشهوات: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ . وهم يعلمون أن الحق أبعد شىء من السحر الذى ليس إلا تمويها وباطلا. فإن قلت: هم قطعوا بقولهم إن هذا السحر، مبين على أنه سحر فكيف قيل لهم: أتقولون: ﴿ أَسِحْرٌ هَذَا ﴾ ؟ قلت: فيه أوجه أن يكون معنى قوله ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ ﴾ أتعيبونه وتطعنون فيه، وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه، من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه، =

مشهورين بالسحر؛ ولذلك فهم ظنوا أن معجزات موسى سحر ، واعتقدوا أنه لا يغيّر طبيعة الأشياء، ولكن يسحر أعينهم ، فيخيل إليهم أنها قد تغيرت؛ ولذلك فإن موسى عندما اتهموا المعجزات التى جاء بها بأنها سحر ، قال كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧] ؛ أى أن موسى عليه السلام قال لهم: أنتم لا تفرقون بين الحق والباطل، إن ما أرسلنى به الله من معجزات هو الحق ، أتقولون عليه سحر؟

بعض الذين يتطاولون على القرآن يقولون: إن الكلام جاء على لسان موسى وكأن موسى قد قال: أسحر هذا؟ ولكنها جاءت بأسلوب الاستفهام ولم تأت بأسلوب الاستفهام الإنكارى، نقول له : إذا أردت أن تؤكد شيئاً يصح أن تأتى بجملة خبرية منك . هم قالوا: إن هذا لسحر مبين، وكان المفترض أن يقول موسى: لا ليس هذا بسحر. ولكنه قال: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟ تماماً كما تأتى لإنسان وأنت واثق من قضيتك وتقول له: أنا أرضى ذمتك هل هذا سحر؟ حينئذ لا يمكن إلا أن يقول: هذا ليس بسحر تماما. كما تذهب لتشترى قطعة من القماش الصوف ثم تشعل عود ثقاب وتقربه من فتلة من الصوف فتحترق، فتقول له: أهذا صوف يا رجل؟

= ونحو القول الذكر فى قوله ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ثم قال ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ ؟ فأنكر ما قالوه فى عيبه والطعن عليه وأن يحذف مفعول ﴿أَتَقُولُونَ﴾ ، وهو ما دلَّ عليه قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ، كأنه قيل أتقولون ما تقولون يعنى قولهم ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾. ثم قيل: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ ؟ وأن يكون جملة قوله﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ حكاية لكلامهم كأنهم قالوا: أجئتما بالسحر تطلبان به الفلاح ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ كما قال موسى للسحرة: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس: ٨١] . [الكشاف: ٢/١٩٨]

فيقول: هذا ليس صوفاً، إذن.. فإذا طرحت الأمر على الاستفهام الإنكارى يكون أبلغ من أن تقوله على أنه خبر.

وقال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم؟ أى: لا تحكموا على الحق بأن الذى جاء به هو موسى من عنده، ولكن انظروا إذا كان الذى جاءكم حقا أم لا. الكفار فى مكة لما نزل القرآن وأحسوا بمعجزاته قالوا - كما يقص علينا الله سبحانه وتعالى : ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ، وهذا كلام يدل على مدى تعنت الكفار ضد الحق؛ لأنهم قالوا: إن كان هذا هو الحق يارب فأمتْنا وعذّبنا. وكان من المفترض أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه. الله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧] ؛ أى أن هذا لو كان سحرا فإنه لن يفلح ولن يستمر. ولقد قلنا: إن المعجزة التى يأتى بها الله سبحانه وتعالى على يد رسول من الرسل ليثبت صدقه فى البلاغ عن الله، لابد أن تكون من جنس ما نبغ فيه القوم؛ لأنه لو أتاهم بمعجزة فيما لم ينبغوا فيه لقالوا لو تعلمنا هذا الفن أو هذا الشىء لجئنا بمثل هذه المعجزة، فأنت مثلاً لا تتحدى إنساناً لم يدرس الهندسة فى بناء عمارة؛ لأنه سيقول لك: لو تعلمتُ الهندسة لاستطعتُ أن أبنى مثل هذه العمارة، ولكنك لو تحديت مهندساً له إلمام بفن العمارة وانتصرت عليه، لكان هذا إعجازاً منك.

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [1] ؛ فـ «الفلاح هو

---

(١) يقول السيوطى: عن ليث بن أبى سليم رضى الله عنه قال: بلغنى أن هذه الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى. يقرأ فى إناء فيه ماء ثم يصب على رأس المسحور=

الوصول إلى الثمرة، والثمرة لا تأتى إلا بعد مجهود حرث وبذر وريّ، ثم تأتى الثمرة ، ومنه فَلَحَ الحديد: أى شقّه، لأن الحديد ككتل أو قطع لا يصلح لشىء إلا إذا شُكِّل التشكيل المناسب لاستعماله، والسحر ليس حقيقة ولكنه تخيل، والله سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى ذلك فقال : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ [الأعراف: ١١٦] ، وقال جل جلاله : ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ٦٦] . إذن فالسحر فى طبيعته لا يغير طبيعة الأشياء ولكنه يسحر أعين الناس فترى غير الحقيقة؛ ولذلك عندما أتى فرعون بالسحرة أو بأمهر السحرة، جمعوا حبالهم وعصيّهم وألقوها وخيل للناس أنها تسعى، وعندما ألقى موسى العصا فإذا هى تلقف ما صنعوا، حينئذ خرَّ السحرة وسجّداً . . لماذا؟ لأن العصى والحبال التى ألقوها خيل للناس أنها تسعى ولكنها كانت أمامهم حبالاً وعصياً، لأن أحدًا لم يسحر عيون السحرة ولكن السحرة سحروا أعين الناس، فكانت الحبال والعصىّ أمام الناس كأنها ثعابين ضخمة تسعى، أما فى أعين السحرة فهى حبال وعصى؛ ولذلك لما ألقى موسى عصاه ورآها السحرة حية تلقف حبالهم وعصيهم، قالوا: هذا ليس من فعْل موسى، بل من فعل رب موسى. وأدركوا أن هذه معجزة، وليست سحراً ولا يمكن أن يأتى بها موسى، فآمنوا برسالته وسجدوا لله الذى أعطى موسى هذه المعجزة.

= الآية التى فى يونس ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴾ [يونس]. وقوله ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨] ، إلى آخر أربع آيات، وقوله: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩].

[الدر المنثور : ٤/ ٣٨١]

✻ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا ✻

وبعد ذلك انتقل فرعون إلى قضية أخرى فقال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨)﴾ (١) [طه]، كان الناس فى مصر ينتظرون فيضان النيل، وبعد أن تنحسر المياه يبذرون الحبوب ويخرج الزرع، ثم ينتظرون طول العام حتى يأتى الفيضان مرة ثانية، وهذا هو الذى علمهم الكسل، والناس الذين يعيشون على ضفاف الأنهار هم فى نعيم بالنسبة لغيرهم، فأنت لو أردت أن تُخرج واحداً منهم من هذه الأرض، التى ارتبط بها وأكل من ثمرها ولم يتعب فيها؛ يثور عليك، فأراد فرعون أن يستعدى الناس الذين استعبدهم ونصب نفسه إلها عليهم ، على موسى وهارون فقال لهم: إن موسى قد جاء ليخرجكم من أرضكم. وبذلك

---

(١) قال الرازى: ألقى فرعون فى مسامع قومه ما يصيرون به مبغضين لموسى جدا وهو قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾، وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان فى النهاية.

ولذلك جعله الله تعالى مساويا للقتل فى قوله: ﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ [النساء: ٦٦]. هم لما صاروا فى نهاية البغض له، أورد الشبهة الطاعنة فى نبوته عليه السلام، وهى أن ما جئتنا به سحر لا معجز، فقال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾. [التفسير الكبير : ٢٢/٧١]

قال ابن الجوزى: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ : أى مكانا تستوى مسافته على الفريقين، فتكون مسافة كل فريق إليه كمسافة الفريق الآخر . [زاد المسير : ٥/٢٠٥]

يستعدى القوم عليهم حتى لا يستجيبوا لهما ويقفوا ضدهما؛ لأنهم يخشون أن يخرجاهم من هذه الأرض التى يعيشون على خيرها حول النيل، فأخبرهم أن موسى جاء ليخرجهم من أرضهم بسحره .

فحوّل المسألة التى بينه وبين موسى وهارون، إلى مواجهة بين موسى وهارون من جانب والرعية من جانب آخر، وذلك لأنه رأى أن الكلام الذى قاله موسى وهارون من الجائز أن يدخل على عقول الرعية فتفهمه وتؤمن به، فتتمرد على فرعون وتثور عليه، فأراد أن يزرع فى قلوبهم عداوة موسى وكراهيته حتى لا يستجيبوا له، فقال: لقد جئتنا يا موسى لكى تخرجنا من أرضنا بسحرك ونحن سنأتى لك بسحر مثله. هنا فرعون سمى معجزة موسى سحرًا وهذه تسمية خاطئة؛ لأن الذى مع موسى ليس سحرًا وإن كان الذى عند قوم فرعون هو السحر، والفرق بين الاثنين أن السحر لا يقلب حقيقة الشىء ، بل يظل الشىء على حقيقته ولكن السحر يكون للرائى ؛ ولذلك ربنا سبحانه قال فى الآية الكريمة: ﴿**سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ**﴾[1] [الأعراف: ١١٦] ، فحبالهم وعصيهم تظل كما هى، فيراها الساحر حبالاً وعصيًا لم تتغير، بينما يراها المسحور ثعابين وحيات. لكن معجزة موسى غير ذلك، بدليل أنها لو كانت مثلها لم يكن موسى ليخاف وهذا دليل. عند الساحر تظل الحبال كما هى يراها حبالاً ، وإن كان المسحور يراها كأنها حيات [2].

---

(١) قال ابن كثير: أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال.

قال ابن عباس: ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا. قال: فأقبلت يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . [تفسير ابن كثير :٢/٢٢٧]

(٢) عن عائشة قالت: «سُحر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ، ثم قال: أشعرتِ أن الله أفتانى فيما فيه =

فرعون طلب من موسى أن يضرب لهم موعداً يجتمع فيه السحرة ليقاوموا سحره فقال: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨] ؛ الموعد هو الميعاد يتفق عليه الطرفان حتى لا يخلفه أحد منهما؛ ومعنى ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ أى مكاناً مستوياً ؛ لأنه سيكون مشهدًا يراه الناس، فلابد أن يكون مكاناً مستوياً حتى يتمكن الجميع من الرؤية بسهولة، أو أن المعنى ﴿مَكَانًا سُوًى﴾، أى سواء بالنسبة لنا ولك، أى نختاره سهلاً على الناس وعلينا وعليك. مثلما نقول: هيا نتقابل فى منتصف الطريق، فلا يكون فى ذلك تعب لنا ولا تعب لك .

موسى قال له: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] إن كل حدث يتطلب مُحدثاً له ومُوقَعًا عليه الحدث، فالحدث يتطلب زماناً ومكاناً ، فلا حدث بغير زمان أو مكان، فبعد أن تم تحديد المكان ، كان الزمان هو ﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾(١) . إذن عناصر الحدث اكتملت زماناً ومكاناً

= شفائى؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى، فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال: فى ماذا؟ قال: فى مُشط ومُشاقة وجُفّ طلعة ذكر. قال: فأين هو؟ قال: فى بئر ذَرْوان. فخرج إليها النبى ﷺ، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: نخلها كأنه رؤوس الشياطين. فقلتُ: استخرجَته؟ فقال: لا. أما أنا فقد شفانى الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرا. ثم دُفِنتْ البئرُ». أخرجه البخارى [٣٢٦٨]

عن أبى هريرة : عن النبى ﷺ قال : «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله وما هن ؟ قال: «الشرك بالله ، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات». أخرجه البخارى [٦٨٥٧]

(١) قال ابن الجوزى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ : فى هذا « اليوم» أقوال: =

ويوم الزينة هو اليوم الذى كان يجتمع فيه كل سكان مصر، ويبدو أنه كان يوم وفاء النيل، وسُمِّى﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ لأن الناس كانوا يحتفلون فيه بأغلى شىء عندهم وهو النيل، فيلبسون أفخر ما عندهم من ثياب ويخرجون فى موكب الاحتفال.

ولذلك فإن القاضى لم يكن يصدر أمر الخراج على مصر إلا بعد أن يرى مقياس النيل ، هل تكفى مياهه لرى الأرض أم لا؟ فإن كان يكفى فإن القاضى يفرض الخراج وإن كان لا يكفى يلغى الخراج.

وموسى اختار يوم الزينة تحديدًا ؛ لأنه اليوم الذى يجتمع فيه كل الناس؛ لأنه واثق تمام الثقة من أن ربه سينصره ، ويريد أن تكون فضيحة فرعون أمام الناس جميعا.

كما أن الناس فى يوم الزينة تكون نفوسهم سعيدة منبسطة، ومادامت النفس منبسطة ، فإنه من السهل أن تعرف الحق وتلتزمه.

وطلبه أن يحشر الناس ضحىً: أى فى وضح النهار ، فهذا كلام إنسان متمكن من الفوز، يريد أن تحدث المسألة فى وضح النهار وفى أكبر تجمع للناس .

= أحدها : يوم عيد لهم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وقتادة وابن زيد.

وثانيها : يوم سوقٍ لهم، قاله سعيد بن جبير. [زاد المسير : ٥/ ٢٠٥- ٢٠٦]

وقال البقاعى: ﴿يوم الزِّينة﴾ أى عيدكم الذى اعتدتم الاجتماع فيه فى المكان الذى اعتدتموه ، فآثر هنا ذكر الزمان وإن كان يتضمن المكان لما فيه من عادة الجمع.

[نظم الدرر : ١٣/ ٣٠٢]

* وما نحن لك بمؤمنين *

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ (1) [يونس: ٧٨] ؛ قول الكفار : أجئتنا ، فكأنهم نسبوا المجيء لموسى مع أن موسى لم يجئ، وإنما أمره الله أن يذهب إلى فرعون وقومه، ولو أنهم قالوا: أجيء بك، أو أجاء الحق بك؟ لكان فى ذلك إيمان بأن الله قد بعث موسى إليهم، ولكنهم ينكرون ذلك ويقولون أن موسى قد جاءهم ليلفتهم، والالتفات هو تحويل الوجه عن شيء مواجه له إلى شيء آخر، وفرعون وقومه كانوا على فساد وعلى ضلال، وموسى جاء من قِبل الله سبحانه وتعالى ليلفتهم أو يصرف وجوههم عن الفساد الذى هم فيه، أو الضلال الذى يعيشونه إلى الحق. . فماذا كانت حجتهم؟ .

قالوا : ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ .

إذن فالمسألة تقليد للآباء دون التأكد إن كان هذا هو الحق أم لا؟

---

(١) قال ابن عطية: قال قوم فرعون لموسى: أجئتنا لتصرفنا وتلوينا وتردنا عن دين آبائنا، يقال: لفت الرجل عن الآخر ؛ إذا لواه.

﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾: مصدر مبالغ من الكبر، والمراد به فى هذا الموضع الملك. وكذلك قال فيه مجاهد والضحاك وأكثر المتأولين لأنه أعظم تكبر فى الدنيا .

[المحرر الوجيز :٣/ ١٣٥]

والتقليد[1] يريح المقلّد لأنه لا يستخدم عقله وفكره، فى مناقشة شىء حتى يقتنع به ويبنى عليه سلوكه، بل هو يفعل مثلما كان يفعل آباؤه ويعطل عقله ويعطل فكره ولا يتعب نفسه فى البحث عن الشىء الصحيح؛ فهو قد أراح نفسه من التفكير والبحث عن الحقيقة وأراح نفسه أيضاً باتباع الضلال.. لماذا؟ لأن الضلال سهل لا يكلف الإنسان شيئاً بل على العكس يحقق له كل شهوات نفسه، ولكن الدين ومنهج الله يقيد الإنسان فهو يمنعه أن يمضى وراء شهواته، وهو يمنعه أن يغتصب حقوق غيره وهو يمنعه أن يعتدى على حرمات الناس.

الدين يضع قيوداً على الشهوة، بينما الضلال يوسع فى الشهوة ويجعلها كما تريدها النفس.

إذن فاتباع هؤلاء الناس لما وجدوا عليه آباءهم قد أراحهم حركياً وأراحهم فكرياً، فالمقلِّد لم يستخدم عقله بل رأى الناس يعملون فعمل مثلهم؛ أى قلدهم ورأى أن عملهم لا يقيده بشىء، فلا يقيده بأن يكسب من حلال يجدُّ فى عمله ويتقنه ولا يمنعه عن المنكر وعن كل ما حرمه الله ولا يفرض عليه الصدق مع نفسه ومع الناس.

إذن ... ففى المنهج قيود على حركة الحياة أما فى تقليد الآباء فلا قيود.

ولذلك فلابد أن تكون حكاية التقليد هذه لافتةً لنا فى قوانين التربية؛ بمعنى أننا لابد أن نلاحظ أن الطفل الذى لم تكتمل شخصيته بعد فإنه

---

(١) قال الشوكانى: والحاصل: أنهم عللوا عدم قبوله بدعوة موسى بأمرين: التمسك بالتقليد للآباء، والحرص على الرياسة الدنيوية؛ لأنهم إذا أجابوا النبى وصدقوه صارت مقاليد أمر أمته إليه، ولم يبق للملك رئاسة تامة؛ لأن التدبير للناس بالدين يرفع تدبير الملوك لهم بالسياسات والعادات. [فتح القدير: ٢/ ٤٨٠]

يقلد آباءه وعندما تكتمل له شخصيته يتمرد على ما يفعل الأب، فإن ناقشه، يقول له: لك زمانك ولى زمانى.

ما الذى أخرج الولد عن التقليد؟ ولماذا تمرد عليه؟ الذى جعله يتمرد على التقليد هو أنه قد أصبحت له شهوات نفس يريد أن يرضيها، وتقليد الأب يضع على هذه الشهوات قيوداً، والولد يريد أن يتخلص من القيود، إنه يريد أن ينطلق على هواه. ويتسلط عليه أصدقاؤه فيتعلم منهم ما يضره، سواء من المخدرات أو القمار أو الأعمال السيئة، وهنا نتساءل: لقد كان الولد يسعد بتقليد أبيه.. فماذا حدث؟ الذى حدث أنه أصبحت له ذاتية يريد أن يوسع دائرة الشهوة فى حياته ويريد أن يثبت ذاتيته، ولذلك تقول له مثلا: ادخل كلية كذا. فيقول لك: لا سأدخل كلية كذا، ربما اختار الكلية الأسوء ولكنه اختارها لأنه يريد أن يتمرد، التمرد إلى الشر أم إلى الخير؟ إذا كان التمرد إلى الخير فهذا شىء محمود، وإذا كان إلى الشر فهذا شىء خطير، وفى معظم الأحيان يكون التمرد إلى الشر، وإلى الرذيلة وإلى ضياع المستقبل، وإلى كل شىء يضر ولا ينفع.

فعندما يقول هؤلاء الناس: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، يردّ القرآن عليهم: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾[1] [البقرة: ١٧٠]

---

(١) قال فخر الدين الرازى: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ فيه مسائل:
المسألة الأولى: الواو فى ﴿أَوَ لَوْ﴾ واو العطف، دخلت عليها همزة الاستفهام المنقولة إلى معنى التوبيخ والتقريع، وإنما جعلت همزة الاستفهام للتوبيخ، لأنها تقتضى الإقرار بشىء يكون الإقرار به فضيحة، كما يقتضى الاستفهام الإخبار عن المستفهم عنه.
المسألة الثانية: تقرير هذا الجواب من وجوه.
أحدها: أن يقال للمقلد: هل تعترف بأن شرط جواز تقليد الإنسان أن يعلم كونه =

إذن فالله سبحانه وتعالى يطالبنا ألا نقلد تقليداً أعمى، بل علينا أن نستخدم العقل الذى ميزنا الله سبحانه وتعالى به، فنحكم عقولنا فى كل شىء، ولكن هؤلاء الكفار يتبعون آباءهم فيما يحقق لهم ما يريدونه، من

= محقا ؟ لا فإن اعترفت بذلك لم تعلم جواز تقليده إلا بعد أن تعرف كونه محقا، فكيف عرفت أنه محق؟ وإن عرفته بتقليد آخر لزم التسلسل، وإن عرفته بالعقل فذاك كافٍ، فلا حاجة إلى التقليد، وإن قلت: ليس من شرط جواز تقليده أن يعلم كونه محقا، إذن قد جوزت تقليده. وإن كان مبطلا، فإذن أنت على تقليدك لا تعلم أنك محق أو مبطل.

وثانيها: هب أن ذلك المتقدم كان عالما بهذا الشىء إلا أنا لو قدرنا أن ذلك المتقدم ما كان عالما بذلك الشىء قط وما اختار فيه البتة مذهباً، فأنت ماذا كنت تعمل؟ فعلى تقدير أن لا يوجد ذلك المتقدم ولا مذهبه، كان لابد من العدول إلى النظر فكذا ها هنا.

وثالثها: أنك إذا قلدت مَن قبلك، فذلك المتقدم كيف عرفته؟ أعرفته بتقليد أم لا بتقليد؟ فإن عرفته بتقليد لزم إما الدور وإما التسلسل، وإن عرفته لا بتقليد بل بدليل، فإذا أوجبت تقليد ذلك المتقدم وجب أن تطلب العلم بالدليل لا بالتقليد ؛ لأنك لو طلبت بالتقليد لا بالدليل، مع أن ذلك المتقدم طلبه بالدليل لا بالتقليد كنت مخالفا له، فثبت أن القول بالتقليد يفضى ثبوته إلى نفيه فيكون باطلا.

المسألة الثالثة: إنما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان، تنبيها على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان، وبين متابعة التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع فى الخاطر من غير دليل، أو على ما يقوله الغير من غير دليل.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ [البقرة: ١٧٠] لفظ عام، ومعناه الخصوص؛ لأنهم كانوا يعقلون كثيراً من أمور الدنيا، فهذا يدل على جواز ذكر العام مع أن المراد به الخاص.

المسألة الخامسة : قوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ : المراد أنهم لا يعلمون شيئاً من الدين. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ : المراد أنهم لا يهتدون إلى كيفية اكتسابه.

[التفسير الكبير : ٥/ ٦ ، ٧]

انطلاق فى الدنيا كما يريدون؛ بدليل أن ابن الرجل الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب لا يتّبعه فى أميته، بل يريد أن يتعلم، وإذا كان الأب ينام على الأرض فإن الابن يبحث عن سرير ليّن لينام عليه.

فإذا جئنا للمنهج وجدنا الاتباع هنا أعمى، تقليد بلا تفكير، مادام يعطينا ما تشتهيه النفس، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] .

ما هو العقل؟ وما هو الهدى؟ العقل موجود لنختار به بين البدائل ونزن به الأمور، وإذا كان الإنسان يجد مسألة لا يستطيع أن يختار فيها بعقله، فإنه يلتمس الهداية عند من هم أكثر منه فهمًا وعلمًا ، فإذا كانت المسألة أعلى من مستواك تهتدى بمن هم فوقك، إنما لا تستخدم عقلك ولا تهتدى بغيرك!! إنهم يتركون كل هذا ويأخذون منهج الضلال ويقولون: نفعل مثلما كان يفعل آباؤنا ويكفينا هذا .

على أننا نجد فى القرآن الكريم آيتين تتناولان هذا الموضوع:

الآية الأولى : ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[1]، فيرد الحق عليهم: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ .

---

(١) قال الرازى: ﴿أَلْفَيْنَا﴾ بمعنى وجدنا، بدليل قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]. ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الصافات: ٦٩].
معنى الآية: أن الله تعالى أمرهم بأن يتبعوا ما أنزل الله من الدلائل الباهرة، فهم قالوا: لا نتبع ذلك، وإنما نتبع آباءنا وأسلافنا، فكأنهم عارضوا الدلالة بالتقليد.
[التفسير الكبير : ٥/٦٦]

والآية الثانية : ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤]، فيرد الله سبحانه عليهم : ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾(١) ما الفرق بين الآيتين؟ .

الآية الأولى : فيها تقليد: أى يكفينا أن نقلد آباءنا، فيرد الحق سبحانه وتعالى: أتقلدونهم ولو لم يستعملوا عقولهم فى الوصول إلى الحق؟ ولم يهتدوا بمن استعملوا عقولهم ووصلوا إلى الحق.

والآية الثانية : يقولون فيها: حسبنا ؛ أى هناك إصرار على الكفر، لا نريد أن نسمع ولا أن نهتدى، بل يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا؛ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾، ما الفرق بين الكلمتين؟.

نقول: إن العاقل غير العالم، والذى يعقل غير الذى يعلم، الذى يعقل استخدم عقله فى استنباط الأشياء، أما الذى يعلم فهو لا يستنبط الأشياء فقط، بل يأخذ ويتعلم مما عقِله غيره فأيهما دائرته أوسع؟ العالم طبعا؛ لأن العلم من ناتج عقلك ومن ناتج عقول غيرك، فقد لا تستنبط أنت شيئاً ، ولكنك تعلم ما استنبطته عقول الآخرين، والحضارة تقوم على العلم؛ أى : أعقل ما عمله غيرى وأتخذه قاعدة للتقدم إلى علم جديد .

إذن، فعندما عاندوا كان قول الله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ، أى: أن آباءهم لم يكتفوا بالجهل العقلى الذى هم فيه، بل لم يأخذوا مما علمه غيرهم. بينما

---

(١) قال ابن كثير: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ : أى لا يفهمون حقا ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه ؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلا. [تفسير ابن كثير :١٠٣/٢]

في التقليد كان قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ أي : لا يدركون بعقولهم الأشياء، وهم يتبعون هذا الجهل العقلي، على أن هناك لفتة أخرى في قول الحق سبحانه: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾(1) [يونس: ٧٨]؛ أي أنهم اتهموا موسى عليه السلام بأن المنهج الذي جاء به، جاء لينزع السلطان منهم ويأخذه لنفسه، فكأن موسى عليه السلام في نظرهم جاء لينتزع منهم السلطة لنفسه، وليصرفهم عما كان عليه آباؤهم وينتزع منهم السيادة، وهناك فرق إذا كنت في مبارزة أن تطلب من خصمك أن يلقي بسيفه على الأرض، أو يعطيك سيفه، فإذا طلبت منه أن يلقي سيفه على الأرض، فأنت جرّدته من سلاحه، أما إذا طلبت منه أن يعطيك سيفه، فأنت لم تجرده من قوته فقط، ولكنك ازددت عليه قوة بأنك تملك سيفاً آخر، إذن فالمصيبة مركبة، آل فرعون هنا يحاولون أن يدافعوا عن كبريائهم في الأرض، والكبرياء هو السلطة الزمنية التي تعطيهم السيادة والعظمة(2) والأمر المطاع، وتحقق لهم مصالحهم ومصالح الذين حولهم وكل واحد منهم يأخذ من الدنيا بقدر قربه من الحاكم، فكلما اقترب من الحاكم أخذ أكثر .

---

(١) قال ابن كثير: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ : أي لك ولهارون ﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾: أي العظمة والرياسة. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾: وصمم فرعون وملؤه قبحهم الله على التكذيب والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين. [تفسير ابن كثير : ٤٠٨/٢]

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار». صحيح؛ أخرجه أبو داود [٤٠٩٠] واللفظ له ، وابن ماجة [٤١٧٥] ، وأحمد في المسند [٢٤٨/٢] ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود [٣٤٤٦] ، وانظر صحيح الجامع رقم [٤٣١٠].

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾[1] [يونس: ٨٣] ؛ أى له الأمر المطاع وله الكبر الذى يحقق له كل شهواته، فكأنهم اتهموا موسى بأن المنهج الذى جاء به هدفه أن يصرفهم عما وجدوا عليه آباءهم من التقليد المريح، الذى يعطى النفس كل ما تريده من شهوات، ولا يتعب العقل أو الفكر، وفى الوقت نفسه أنه يريد أن ينزع منهم السلطة والسلطان، ويأخذهما لنفسه، والنتيجة الحتمية لذلك أنهم لن يؤمنوا له وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨] ، لأن الإيمان بما جاء به موسى يضيّق شهوات نفوسهم ويأخذ منهم السيادة الزمنية.

---

(١) قال البقاعى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ : أى غالب قاهر متمكن بما فتناه به من طاعة الناس له، ﴿فِي الأَرْضِ﴾: أى أرض مصر التى هى بكثرة ما فيها من المرافق كأنها جميع الأرض. [نظم الدرر : ٩/١٧٦]

* أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض *

أعوان فرعون والمقربون إليه ووجهاء القوم، حينما حدث كل هذا أمامهم كان لابد أن يتدخلوا فماذا قالوا: ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ؛هذا الخطاب من الملأ يدل على أن فرعون لم يتعرض لموسى، حينما أمر بصلب السحرة؛ ذلك لأن رهبة الحق واليقين فيما رآه من معجزة موسى، كانت تملأ قلبه فتجعله لا يقترب منه. ففرعون قد علم ورأى أن السحرة كذابون، وأن موسى على حق، وانهدمت ألوهية فرعون أمام الحاضرين؛ ولذلك كان فرعون فى موقف ارتباك. وهنا أراد أن ينبه الحاضرين إلى أنه لم يفعل شيئاً بالنسبة لموسى وهارون ، وأنهما تركا المكان دون أن يصابا بسوء، فتساءل الملأ : أتترك موسى ومن اتبعوه ليفسدوا فى الأرض ؟ كأنهم قد وصفوا منهج الحق بأنه إفساد.. لماذا؟ لأنه يأخذ منهم جاههم(١) وسلطانهم ونفوذهم؛ ولذلك

---

(١) قال ابن كثير: يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة،﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ ؛ أى لفرعون: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ ﴾ أى: أتدعهم ليفسدوا فى الأرض؟ أى يفسدوا أهل رعيتك ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك؟ يا لله العجب، صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ! ألا إن فرعون وقومه هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ولهذا قالوا: ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ قال بعضهم: الواو ههنا حالية، أى: أتذره وقومه يفسدون فى الأرض وقد ترك عبادتك؟ وقرأ ذلك أبى بن كعب: وقد تركوك أن تُعبَد وآلهتك؛ حكاه ابن جرير. =

فهو فى رأيهم يقول الحق : ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ [الأعراف:١٢٧] ،وهنا نلاحظ كلمة ﴿ وَآلِهَتَكَ ﴾ . ألم يكن فرعون يدّعى الألوهية؟ نعم. كان يدعى الألوهية فى الأرض ، ويقول: إن هناك آلهة للسماء، وإن كانت بعض التفاسير تقول: إن آلهتك معناها ألوهيتك [1].

بماذا أجاب فرعون؟ ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾[2] [الأعراف: ١٢٧] ؛ نلاحظ هنا أن فرعون لم يتعرض لموسى، وفى ذلك تقول بعض التفاسير: إن الحيَّة التى ظهرت حينما ألقى موسى

= وقال آخرون: هى عاطفة؛ أى أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى ترك آلهتك؟ وقرأ بعضهم: «إلاهتك» أى عبادتك، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد وغيره، وعلى القراءة الأولى قال بعضهم: كان لفرعون إله يعبده، قال الحسن البصرى: كان لفرعون إله يعبده فى السر. وقال فى رواية أخرى: كان له حنانة فى عنقه معلقة يسجد لها. وقال السدى فى قوله تعالى: ﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ وآلهته فيما زعم ابن عباس كانوا إذا رأوا بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم السامرى عجلاً جسداً له خوار. فأجابهم فرعون فيما سألوه بقوله: سنقتّل أبناءهم ونستحيى نساءهم، وهذا أمر ثان بهذا الصنيع، وقد كان نكل بهم . [تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٢٩]

(١) قال ابن الجوزى: قال ابن عباس: كان فرعون قد صنع لقومه أصناما صغارا، وأمرهم بعبادتها، وقال: أنا ربكم ورب هذه الأصنام. فذلك قوله: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤]. وقال غيره: كان قومه يتعبدون تلك الأصنام تقربا إليه. وقال الحسن: كان يعبد تيْسا فى السر. [زاد المسير: ٣/ ١٦٦]

(٢) قال الرازى: ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى:قرأ نافع وابن كثير ﴿ سَنُقَتِّلُ ﴾ بفتح النون والتخفيف، والباقون بالضم والتشديد على التكثير. يعنى أبناء بنى إسرائيل ، ومن آمن بموسى عليه السلام. =

عصاه اتجهت إلى فرعون وفتحت فمها حتى ظهرت أنيابها ، وإن هذا جعل فرعون يخشى موسى ولا يقترب منه .

وقول فرعون ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ؛ يريد أن يعطى الحجة أمام ملئه أنه ترك موسى . فالقوى حين يهاجمه شخص ضعيف فإنه لا يقضى عليه ويتركه ، مؤكداً أنه يستطيع أن يأتى به فى أية لحظة ؛ لأنه يملك القهر الذى يجعله يأتى به. وقتل فرعون للرجال واستحياؤه للنساء إذلال لقوم موسى؛ لأنهم فى هذه الحالة سيكون معظمهم نساء بلا رجال، فيفسدن؛ ولذلك كان العرب عندما يقومون بغارة يأخذون نساءهم معهم ؛ لأن الإنسان لا يضعف وهو يدافع عن شرفه وعرضه ، فهو يعلم يقيناً أنه إذا انهزم فسيأخذون امرأته؛ فهو فى هذه الحالة يفضل الموت على الإذلال بأن تُؤخَذ النساء سبايا، ولكن الفراعنة كانوا يفعلون ذلك فى بنى إسرائيل قبل أن يُبعث موسى ؛ لأنهم ساعدوا الهكسوس ضد الفراعنة؛ ولذلك فإن أم موسى ألقت به فى اليمّ لتنقذه من القتل.

وذهب قوم موسى إليه يشكون الذلّ الذى يعانونه؛ فما كان من موسى إلا أن قال لهم: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] [الأعراف: ١٢٨] ؛ يريد موسى أن يسرّى عن

= المسألة الثانية : أن موسى عليه السلام إنما يمكنه الإفساد بواسطة الرهط والشيعة، فنحن نسعى فى تقليل رهطه وشيعته، وذلك بأن نقتل أبناء بنى إسرائيل، نستحيى نساءهم، ثم بيّن أنه قادر على ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ والمقصود منه ترك موسى وقومه، لا من عجز وخوف ، ولو أراد به البطش لقدر عليه، كأنه يوهم قومه أنه إنما لم يحبسه ولم يمنعه لعدم التفاته إليه، ولعدم الخوف منه.

[التفسير الكبير: ١٤/ ٢١٢]

(١) قال الرازى : ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهاهنا أمرهم بشيئين ، وبشرهم بشيئين : أما اللذان أمر موسى=

قومه العذاب الذى هم فيه ، ويذّكرهم بأن النصر للمتقين المؤمنين، وقول موسى ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ معناه أنه إذا كان قوم فرعون قاهرين مستعلين مسيطرين ، فاستعينوا بالله [1] الذى هو أقوى منهم. ونحن نعرف أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يمنّ على بنى إسرائيل ويمكّنهم ويجعلهم الوارثين، ولكن ماذا قال قوم موسى؟ وما موقفهم بعد أن طلب منهم أن

= عليه السلام بهما:

فالأول: الاستعانة بالله تعالى.

والثانى: الصبر على بلاء الله.

وإنما أمرهم أولا بالاستعانة بالله؛ وذلك لأن من عرف أنه لا مدبّر فى العالم إلا الله تعالى انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء؛ ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره. واستعداده بمشاهدة قضاء الله خفف عليه أنواع البلاء.

وأما اللذان بشّر بهما:

فالأول: قوله: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ، وهذا إطماع من موسى عليه السلام قومه فى أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه ، وذلك معنى الإرث ؛ وهو جعْل الشىء للخلَف بعد السلف.

والثانى: قوله ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فقيل: المراد أمر الآخرة فقط. وقيل: المراد أمر الدنيا فقط ، وهو: الفتح، والظفر، والنصر على الأعداء. وقيل: المراد مجموع الأمرين. وقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه فالله يعينه فى الدنيا والآخرة . [التفسير الكبير: ١٤/ ٢١٢]

(١) عن ابن عباس قال: كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال: «يا غلام، إنى أعلمك كلمات: احفظ اللهَ يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

أخرجه الترمذى [٢٥١٦] وقال: حديث حسن صحيح ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٠٤٣] .

يستعينوا بالله: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾(1) [الأعراف:١٢٩] كأنما هم يذكّرونه بأن مجيئه لهم لم يغير شيئًا ، فقبل أن يأتى موسى كان الفراعنة يقتلون الأبناء ويستحيون النساء، ولم يغير مجىء موسى شيئاً.

لقد نظروا إلى الابتلاءات التى يجريها الله على خلقه ، ولم ينظروا إلى أن فرعون قد حشد كل من يستطيع من السحرة ، وأن موسى هزمهم؛ ولذلك فعندما يأتى إنسان ليشكو لك ، فقل له : لقد ذكرت لى أيام البلاء، ولم تعد أيام الرخاء ؛ لأن هذا الرجل فى شكواه إنما يذكر الأيام التى حدث له فيها ما يكره، ولا يذكر الأيام التى تنعّم فيها.

---

(1) قال الرازى: قوله تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩].
اعلم أن قوم موسى عليه السلام، لما سمعوا ما ذكره فرعون من التهديد والوعيد خافوا وفزعوا، وقالوا: قد أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا؛ وذلك لأن بنى إسرائيل كانوا قبل مجىء موسى عليه السلام مستضعفين فى يد فرعون اللعين، فكان يأخذ منهم الجزية ويستعملهم فى الأعمال الشاقة، ويمنعهم من الترفه والتنعم، ويقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم، فلما بعث الله تعالى موسى عليه السلام ، قوىَ رجاؤهم فى زوال تلك المضار والمتاعب، فلما سمعوا أن فرعون أعاد التهديد مرة ثانية ، عظم خوفهم وحزنهم، فقالوا هذا الكلام.
فإن قيل: أليس هذا القول يدل على أنهم كرهوا مجىء موسى عليه السلام، وذلك يوجب كفرهم؟ والجواب: أن موسى عليه السلام لما جاء وعدَهم بزوال تلك المضار، فظنوا أنها تزول على الفور. فلما رأوا أنها مازالت، رجعوا إليه فى معرفة كيفية ذلك الوعد، فبيّن موسى عليه السلام أن الوعد بإزالتها لا يوجب الوعد بإزالتها فى الحال، وبيّن لهم أنه تعالى سينجز لهم ذلك الوعد فى الوقت الذى قدّره له، والحاصل أن هذا ما كان بنفرة عن مجىء موسى عليه السلام بالرسالة، بل استكشافًا لكيفية ذلك الوعد. والله أعلم. [التفسير الكبير: ١٤/ ٢١٢ ، ٢١٣]

ماذا كان جواب موسى؟ ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1] [الأعراف: ١٢٩] ، لماذا استخدم الله سبحانه وتعالى كلمة «عدو»، فى وصف آل فرعون؟ لأن الإيذاء لا يمكن أن يحدث إلا من عدوٍّ ، فالصديقُ يحاول دفع الأذى عن صديقه، أما العدو فهو الذى يدبر الأذى لعدوه .

وقول موسى عليه السلام هو بشارة من الله بأن أسباب الإيذاء بالنسبة لبنى إسرائيل ستنتهى ؛ لأنه قد اقترب موعد هلاك آل فرعون، بل إن البشارة لم تقتصر على ذلك، بل امتدت كما فى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ، إذن فهناك أمران:

الأمـــر الأول : سلبى؛ وهو إهلاك آل فرعون.

والأمر الثانى : إيجابى؛ وهو أن يجعل الله بنى إسرائيل خلفاء فى الأرض ، فيعطيهم ملكًا ويعطيهم أرضا ، ولكن هذه النعم من الله لن تمرّ هكذا ، بل سيكون الله رقيبًا عليكم وينظر ماذا تفعلون ، هل ستستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإيمان واليقين والارتباط بالله ؟ أم بالكفر والجحود والعصيان والابتعاد عن منهج الله ؟ .

---

(١) قال الرازى: قال موسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ قال سيبويه: ﴿عَسَىٰ﴾ طمع وإشفاق. قال الزجّاج: وما يطمع الله تعالى فيه فهو واجب.

ولقائل أن يقول: هذا ضعيف؛ لأن لفظ ﴿عَسَىٰ﴾ هاهنا ليس كلام الله تعالى، بل هو حكاية عن كلام موسى عليه السلام، إلا أنا نقول: مثل هذا الكلام إذا صدر عن رسول ظهرت حجة نبوته عليه الصلاة والسلام بالمعجزات الباهرة أفاد قوة النفس، وأزال ما خامرها من الانكسار والضعف، فقوّى موسى عليه السلام قلوبهم بهذا القول، وحقق عندهم الوعد ليتمسكوا بالصبر، ويتركوا الجزع المذموم، ثم بيّن بقوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ما يجرى مجرى الحث لهم على التمسك بطاعة الله تعالى . [التفسير الكبير: ١٤/ ٢١٣]

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ذكر كلمة ﴿عَسَىٰ﴾ في قوله جل جلاله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ ، وكلمة ﴿عَسَىٰ﴾[1] تدل على الرجاء ؛ أي : ما يأتي بعدها يرجوه الناس، وهي غير التمني، فالتمني هو أن تطلب أمرًا مستحيلاً تعرف أنه لن يتحقق ، ولكنك تريد أن تعلن عن حبك لهذا الأمر، فإذا قلت: ليت الشباب يعود يومًا ، أنت على يقين أنه لن يحدث ؛ لأن مرحلة الشباب إذا مضت لن تعود، ولكنك تعلن بهذا الكلام حبك لمرحلة الشباب، ويكون بذلك أقصى ما يعطيه التمني، هو: إعلام الناس بحبك للشيء الذي تتمناه، ولكن الرجاء شيء محبوب يمكن أن يحدث. وأداة التمني «ليت» ، بينما أداة الرجاء «عسى»،ولكن مراحل وقوع الرجاء تتفاوت بقوة الأسباب، فإذا قلت مثلاً:عسى أن أكرمك ، فإن الأمر يعود إلى المتكلم، ومن الجائز ساعة القول أن تكون نية الإكرام موجودة، ولكن ساعة وقوع الحدث يتغير شعوري نحوك ،فلا أقوم بإكرامك، أو تتغير حالتي المادية فلا أقدر على الإكرام، هذا بالنسبة للإنسان، أما إذا قلت: عسى الله أن يكرمك، فقد نقلت الرجاء إلى الله سبحانه وتعالى وهو موجود لا يتغير، قوي لا يعجزه شيء ، وفي هذه الحالة تكون الوقفة الوحيدة في هذا الرجاء هي: هل يقبل الله سبحانه وتعالى إجابة الدعوة ويكرمك أم لا يجيبها ؟ فإذا قال الحق سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾[2] [الإسراء: ٨] ،

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ، سئل عنها قال: «هي الشفاعة».

أخرجه الترمذي [٣١٣٧] وقال : حديث حسن . وصححه الألباني في صحيح الترمذي: [٢٥٠٨] .

(٢) قال الضحاك: كانت الرحمة التي وعدهم بعثُ محمد ﷺ .

[فتح البيان في مقاصد القرآن: ٧/ ٣٥٩]

تكون المسألة رجاءً محقق الحدوث ، وبهذا تكون مراحل الرجاء ثلاثاً :

مرحلة أولى : تحكمها أغيار البشر وعجزهم ، فى قول الإنسان: عسى أن أكرمك أو يكرمك فلان.

ومرحلة ثانية : من القدرة البشرية إلى الرجاء من الله، كأن تقول لإنسان : عسى الله أن يكرمك ، هنا يتوقف حدوث الكرم على الاستجابة للدعاء.

ومرحلة ثالثة : وهى أن يقول الله سبحانه وتعالى ذلك عن نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: ٨] ، وفى هذا يكون رجاء محقق الحدوث .

نعود إلى الآية الكريمة، هل قال موسى : عسى أن أهلك عدوكم. ونسب الكلام إلى نفسه؟ لا ، لم يقل ، بل إنه قال : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ ورفع الرجاء لله .

وموسى رسول مرسل لهداية قومه، مؤيد بمعجزات، وإذا كان هذا هو موقفه فلن يردّ الله له رجاء، ويكون الرجاء منه مقبولاً. إذن فالحديث هنا هو رجاء محقق الوقوع ، ولكن نعمة الله على بنى إسرائيل لن تتوقف عند إزالة الضرر عنهم، إنما تمتد ليستخلفهم الله فى الأرض تمامًا ،كما يقول الحق سبحانه وتعالى عن الآخرة: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ﴾[1] [آل عمران: ١٨٥] ، فكأن الإنسان إذا زحزح عن النار فهذه نعمة

---

(١) عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها. اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. =

كبيرة، فإذا أدخل الجنة بعد ذلك فهذه نعمة أكبر؛ النعمة الأولى: نعمة سلب يسلب الله من الإنسان العذاب فى النار، إذن نعمة دخول الجنة تكون نعمة إيجاب ، بأن يتمتع الإنسان بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ما ثمن هذه النعم؟ إن الحق سبحانه وتعالى الذى أعطى هذه النعم سيراقب بنى إسرائيل : هل سيشكرون النعمة ويؤدّون حقها ويصبحون عبادًا صالحين ، أم سيجحدونها ويكفرون بها والإنسان ظلوم كفّار؟ وذكر كلمة : ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(1) أثارت جدلاً كبيرا بين العلماء، فالله سبحانه وتعالى: ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾(2) [سبأ: ٣] ،وهو عالم بما سيقع فى الكون

= أخرجه الترمذى [٣٠١٣] وقال : حديث حسن صحيح. وحسّنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤١١].

(١) قال الفخر الرازى : فى قوله تعالى : ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ اعلم أن النظر قد يُراد به النظر الذى يفيد العلم، وهو على الله محال. وقد يراد به تقليب الحدقة نحو المرئى التماسًا لرؤيته ، وهو أيضًا على الله محال . وقد يراد به الانتظار ، وهو أيضًا على الله محال. وقد يراد به الرؤية ، ويجب حمل اللفظ هاهنا عليها . قال الزجّاج: أى يرى ذلك بوقوع ذلك منكم؛ لأن الله تعالى لا يجاريهم على ما يعلمه منهم، وإنما يجاريهم على ما يقع منهم.

فإن قيل : إذا حملتم هذا النظر على الرؤية لزم الإشكال؛ لأن الفاء فى قوله: ﴿فَيَنظُرَ﴾ للتعقيب، فيلزم أن تكون رؤية الله تعالى لتلك الأعمال متأخرة عن حصول تلك الأعمال، وذلك يوجب حدوث صفة الله تعالى.

قلنا : تعلق رؤية الله تعالى بذلك الشىء نسبة حادثة، والنِّسب والإضافات لا وجود لها فى الأعيان، فلم يلزم حدوث الصفة الحقيقة فى ذات الله تعالى . والله أعلم .

[التفسير الكبير ١٤/٢١٣]

(٢) قال ابن كثير: ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾ قال مجاهد وقتادة: لا يعزب عنه: لا يغيب عنه، أى الجميع مندرج تحت علمه، فلا يخفى عليه=

قبل أن يقع، ولكنّ هناك فرقًا بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق، والحكم على المخلوق بعلم المخلوق .

لنضرب لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى-: هبْ أن أستاذًا فى أية كلية طلب منه العميد أن يحدد له المتفوقين من الطلبة ، سيقول: إنهم فلان، وفلان وفلان. هذا هو حكم الأستاذ بناء على علمه بمستوى كل طالب ، ولكن يأتى الامتحان وتعلَن النتيجة، فإذا بالذين تفوقوا هم من حدّدهم أستاذ المادة. هل كان من الممكن أن يؤخذ حكم الأستاذ دون امتحان؟ طبعاً لا؛ لأنه فى هذه الحالة سيجادل أقلُّ الطلبة، علمًا بأنه لو أجرى امتحاناً لكان هو الأول .

الحكم الأول فى تحديد المتفوقين كان على علم أستاذهم بمستواهم، والحكم الثانى كان من واقع تجربة عملية أثبتت صحة علم الأستاذ. فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : إن الله ينظر إلى أعمالكم؛ أينظرها ليعلمها؟ حاشا لله ! فهو عالمها ، ولكنه يريد أن يكون الخلق شهداء على أنفسهم ، يريد أن يحكم على خلقه بفعل الخلق ؛ حتى لا يأتى أحدهم يوم القيامة ويقول: يا رب، لو امتحنتنى لفعلت وكذا وكذا ، ولكى ينتهى الجدل تمامًا؛ فإن الله يمتحنهم ، ويأتى الإنسان يوم القيامة شهيدًا على نفسه، مصداقًا لقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[1] [الإسراء: ١٤] .

= شىء ، فالعظام- وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت - فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شىء عليم. [تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٠٤]

(١) قال ابن الجوزى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ قال الحسن: يقرؤه أميًا كان أو غير أمى، ولقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك. وفى معنى: ﴿حَسِيبًا﴾ ثلاثة أقوال أحدها: محاسبا ، والثانى: شاهدا. والثالث: كافيا . والمعنى: أن الإنسان يُفوَّض إليه =

والله سبحانه وتعالى عالم بمن يهتدى ومن يضل ؛ ولذلك خلق الجنة وخلق النار، وكان من الممكن أن يخلق الله أماكن فى الجنة على قدر أهل الجنة ، وأماكن فى النار على قدر أهل النار ، ولكنه خلق أماكن فى الجنة لخلقه جميعًا على فرض أنهم جميعًا مؤمنون[1]، وخلق أماكن فى النار لخلقه جميعًا على فرض أنهم - والعياذ بالله - كفرة ؛ وذلك لأنه حكم بواقع الأشياء . . كل هذا أُعد وانتهى.

ولذلك فعندما يأتى يوم القيامة ويدخل أهل الجنة إلى الجنة ، ويُلقى أهل النار فى النار ، حينئذ ستكون هناك أماكن فى الجنة خالية كانت مخصصة لأهل النار لو آمنوا ، فيورثها الله للمؤمنين من أهل الجنة ؛ مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢] ؛أى: هناك ميراث فى الجنة يفوق نصيب المؤمن، هذا الميراث

= حسابه؛ ليعلم عدل الله بين العباد، ويرى وجوب حجة الله عليه، واستحقاقه العقوبة، ويعلم أنه إن دخل الجنة فبفضل الله، لا بعمله، وإن دخل النار فبذنبه. قال ابن الأنبارى: وإنما قال: حسيبا؛ والنفس مونثة؛ لأنه يعنى بالنفس الشخص، أو لأنه لا علامة تأنيث فى لفظ النفس، فشبّهت بالسماء والأرض. [زاد المسير: ٥/١٣]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هدانى، فيكون عليهم حسرة، وكل أهل الجنة يري مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هدانى، قال فيكون له شكرًا». أخرجه أحمد فى المسند [٢/٥١٢] ، والحاكم فى المستدرك [٢/ ٤٣٥، ٤٣٦] وصححه، ووافقه الذهبى، وذكره الألبانى فى صحيح الجامع [٤٥١٤]

وعن على رضى الله عنه قال: كنا جلوسًا عند النبى ﷺ فقال: « ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». فقلنا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ قال: «لا، اعملوا، فكل ميسر». ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل]. أخرجه البخارى [٤٩٤٦]

هو الأماكن التى كانت معدة لأهل النار لو آمنوا واتقوا ، ولكنهم حُرموا منها بسبب معاصيهم(١) .

وإذا تأملنا قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] ؛ الله يعلم من الذى سينصره ورسله ، ولكنه يريد سبحانه عملا يقع من المخلوق ؛ حتى لا يأتى من يجادل عن نفسه بالباطل(٢) ،

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا ﴾ ؛ أى: يقال لهم يوم القيامة هذه المقالة؛ أى صارت إليكم كما يصير الميراث إلى الوارث ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فى الدنيا من الأعمال الصالحة ، وتلك: مبتدأ والجنة صفته، والموصول مع صلته صفة للجنة، والخبر بما كنتم. .إلخ، وقيل: الخبر الموصول مع صلته، والأول أولى، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للتشريف ، والمخاطب كل واحد من أهل الجنة، فلذلك أفرد الكاف ، ولم يقل « وتلكم » الذى هو مقتضى ﴿ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ إيذانًا بأن كل واحد مقصود بذاته.
أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة، ومنزل فى النار، فالكافر يرث المؤمنَ منزله من النار، والمؤمن يرث الكافرَ منزله فى الجنة، وذلك قوله ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا ﴾»(١). [فتح البيان : ١٢/ ٣٧٤]

(٢) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ : أى بالمعجزات والشرائع الظاهرة ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ المراد الجنس، فيدخل فيه كتاب كل رسول ﴿ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ قال قتادة ومقاتل بن حيان : الميزان : العدل ؛ أمرناهم بالعدل كما فى قوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٧] ، وقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧] .
وقال ابن زيد : هو ما يوزن به ويتعامل به، ومعنى ﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ : ليتبعوا ما أمروا به من العدل، فيتعاملوا فيما بينهم بالنُّصْفة، والقسط: العدل، وهو=

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره [٤/ ١٣٧] ، وقال : رواه ابن أبى حاتم .

ويدّعى أنه لو حدث لفعل كذا وكذا، ولعلنا نلاحظ فى حياة الإنسان أن الحديث عن الفعل شىء و واقعه شىء آخر، فقد يقول إنسان عن عدو مثلاً: لو رأيته لقتلته ثم قطعته، ثم يأتى الواقع ويرى الإنسان عدوه فيدخل الخوف فى نفسه ولا يفعل شيئاً، أو يبعد وجهه حتى لا يراه ، أو أى شىء آخر.

إذن، فواقع الفعل شىء مختلف تماماً عن القول بالفعل، وعلم الواقع حجة على الخلق ، وليس حجة على الخالق .

= يدل على أن المراد بالميزان العدل ، ومعنى إنزاله : إنزال أسبابه وموجباته، وعلى القول بأن المراد به : الآلة التى يوزن بها، فيكون إنزاله بمعنى: إرشاد الناس إليه وإلهامهم الوزن به، ويكون الكلام من باب : علفتها تبنًا وماء باردا. ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ ؛ أى خلقناه كما فى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر:٦]؛ والمعنى : أنه خلقه من المعادن وعلّم الناس صنعته. وقيل : إنه نزل مع آدم. ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ؛ لأنه تتخذ منه آلات الحرب، قال الزجّاج : يمتنع به ويحارب. والمعنى : أنه تتخذ منه آلة للدفع وآلة للضرب ، قال مجاهد : فيه جُنّة وسلاح، ومعنى: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ : أنهم ينتفعون به فى كثير مما يحتاجون إليه؛ مثل السكين، والفأس، والإبرة، وآلات الزراعة والتجارة والعمارة. ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ معطوف على قوله : ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾ ؛ أى لقد أرسلنا رسلنا وفعلنا كيت وكيت ، ليقوم الناس وليعلم . وقيل: معطوف على علة مقدّرة، كأنه قيل : ليستعملوه وليعلم الله ؛ والأول أولى ، والمعنى : أن الله أمر فى الكتاب الذى أنزل بنصرة دينه ورسله ، فمن نصر دينه ورسله علمه ناصرا، ومن عصى علمه بخلاف ذلك و﴿بِالْغَيْبِ﴾ فى محلّ نصب على الحال من فاعل ينصره أو من مفعول ، أى غائبا عنهم أو غائبين عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ : أى قادر على كل شىء غالب لكل شىء، وليس له حاجة فى أن ينصره أحد من عباده وينصر رسله ، بل كلفهم بذلك لينتفعوا به إذا امتثلوا ويحصل لهم ما وعد به عباده المطيعين. [فتح القدير : ٥/ ١٧٥]

* فرعون يستشير قومه فى أمر موسى !! *

فرعون دهش مما رأى ولكنه لم يؤمن ، واتّهم موسى بالسحر ، و ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾[1] [الشعراء] أراد فرعون أن يخرج نفسه من هذه الورطة التى أوقع نفسه فيها، فاتهم موسى بأنه ساحر عليم بفنون السحر، خاصة وأن المصريين كان لهم إلف بفنون السحر، فأراد أن يستعدى القوم عليه فاتهمه بأنه يريد أن يخرجهم من أرضهم بسحره ، بعد أن يصبح له أتباع

---

(١) ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أى: قال فرعون لأشراف قومه الذين كانوا حوله: إن هذا لساحر عظيم بارع فى فن السحر. أراد أن يُعمِّى على قومه تلك المعجزة برميه بالسحر ؛ خشية أن يتأثروا بما رأوا، ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ ﴾ أى: يريد أن يستولى على بلادكم بسحره العظيم ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ أى: فبأى شيء تأمرونى، وبما تشيرون على أن أصنع به؟ لما رأى فرعون تلك الآيات الباهرة ، خاف على قومه أن يتبعوه، فتنزَّل إلى مشاورتهم بعد أن كان مستبداً بالرأى والتدبير ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴾ أى: اخِّر أمرهما ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ أى: وأرسل فى أطراف مملكتك من يجمع لك السحرة من كل مكان ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ اى يجيئوك بكل ساحر ماهر، عليم بضروب السحر.

قال ابن كثير: وكان هذا من تسخير الله تعالى ؛ ليجتمع الناس فى صعيد واحد، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس فى النهار جهرة .

[صفوة التفاسير :٢/ ٣٧٨]

وأنصار، ويحدث انقلاباً ويخرجهم من أرضهم، فهذا استعداء للناس على موسى عليه السلام، والغريب أنه بعد ذلك يستشيرهم فيما يفعله ضد موسى ، وهذه ألوهية كاذبة انحدرت إلى مرتبة العبيد ؛ لتسألهم عن رأيهم فى هذه المسألة، فنزل من الألوهية التى يدّعيها إلى حاجته إلى مشورة الناس الذين يستعبدهم، ولو كان إلهاً كما يزعم لكان عنده الحل، ولكنه يسألهم عما يأمرونه به، فكان كلامهم بالنسبة له أمرًا وليس مشورة فقط ، فهل الإله يأمره أحد ؟! (١)

ولكن القوم وجدوا الفرصة أن يقولوا رأيهم ، مما يدل على أن أكثرهم كانوا يضيقون بغطرسة فرعون وتسلطه ، فأشاروا عليه بأن يبقيه هو وأخاه وأن يجمع لهما أمهر السحرة ويواجههما بهم ، ويرى لمن تكون الغلبة؛ وذلك قول الله تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)﴾ [الشعراء] و«الإرجاء»

---

(١) قال البقاعى: ولما أوقفهم بما خيلهم به، أحماهم لأنفسهم، فقال ملقيا لجلباب الأنفة لما قهره من سلطان المعجزة: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ اى هذه التى هى قوامكم ﴿بِسِحْرِهِ﴾ اى بسبب ما أتى به منه، فإنه يوجب استتباع الناس ، فيتمكن مما يريد بهم؛ ثم قال لقومه ـ الذين كان يزعم أنهم عبيده وأنه إلههم ـ ما دل على أنه خارت قواه، فحط عن منكبيه كبرياء الربوبية، وارتعدت فرائصه حتى جعل نفسه مأموراً ، بعد أن كان يدعى كونه آمرا بل إلها قادراً: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ اى فى مدافعته عما يريد بنا. [نظم الدرر :١٤/ ٢٩ ، ٣٠]

وقال المفتى أبو السعود فى قول فرعون لقومه: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ؟ بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه من ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه، والامتثال لأمرهم، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا بالرأى والتدبير، وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه، ونسبه إلى إخراجهم من الأرض لتنفيرهم منه. [تفسير المراغى :١٩/٥٧]

هو التأخير [١] ، قالوا له : ابعث رسلك ليحشروا السحارين الموجودين فى طول البلاد وعرضها ويجمعوهم لمقابلة موسى وهارون.

و ﴿الْمَدَائِنِ﴾ : جمع مدينة فهؤلاء الناس مهمتهم جمع السحرة من كل مكان .

وبعد ذلك تم تجميع السحرة فى المكان المعلوم ، قال تعالى : ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠)﴾ [الشعراء] الميقات هو الوقت من اليوم المتفق عليه؛ هناك آيات أخرى حددت اليوم بأنه يوم الزينة ، وهو اليوم الذى يتزين فيه الناس بملابسهم الجديدة، وتتزين فيه الفتيات أبهى زينة ؛ لأن عروس النيل ستؤخذ منهن وتلقى فيه:﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]فهذه الآية حددت اليوم بأنه يوم الزينة [٢] والوقت بأنه وقت الضحى، فحدد اليوم وحدد الزمن من اليوم

---

(١) قال البقاعى: ﴿قَالُوا﴾ أى الملأ الذين كانوا يأتمرون به قبل الهجرة ليقتلوه: ﴿أَرْجِهْ﴾ أى أخره ﴿وَأَخَاهُ﴾ ولم يأمروا بقتله ولا بشىء مما يقاربه ـ فسبحان من يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده فيهابه كل شىء ولا يهاب هو غير خالقه. [نظم الدرر :١٤/ ٢٩]

(٢) قال القرطبى: واختلف فى يوم الزينة، فقيل هو يوم عيد كان لهم يتزينون ويجتمعون فيه؛ قاله قتادة والسدى وغيرهما، وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: كان يوم عاشوراء. وقال سعيد بن المسيِّب: يوم سوق كان لهم يتزينون فيها؛ وقاله قتادة أيضاً، وقال الضحاك: يوم السبت. وقيل: يوم النيروز؛ ذكره الثعلبى. وقيل: يوم يكسر فيه الخليج؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قبل النيل. وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسُّلَمى وهبيرة عن حفص: « يَوْمَ الزِّينَةِ » بالنصب. ورويت عن أبى عمرو؛ أى فى يوم الزينة إنجاز موعدنا. والباقون بالرفع على أنه خبر الابتداء.

[تفسير القرطبى : ١١/ ٢١٣]

وهو الضحى ، ثم تكلم فى آية أخرى عن المكان فقال :﴿مَكَانًا سُوًى﴾ (1) [طه:58] ومعنى ﴿سُوًى﴾ إما أنه وصف للمكان الذى ستقام فيه المباراة السحرية فى مكان مستوٍ من الأرض ؛ حتى يتمكن كل واحد

(1) قرأ ابن عامر وحمزة وعاصم ويعقوب والحسن وقتادة وطلحة والأعمش وابن أبى ليلى وأبو حاتم وابن جرير: ﴿سُوًى﴾ بضم السين منوناً فى الوصل. وقرأ باقى السبعة بكسرها منوناً فى الوصل. وقرأ الحسن أيضاً « سُوى » بضم السين من غير تنوين فى الحالين أجرى الوصل مجرى الوقف لا أنه منعه الصرف ؛ لأن فعلاً من الصفات متصرف كحطم ولبد. وقرأ عيسى « سِوَى » بكسر السين من غير تنوين فى الحالين أجرى الوصل أيضاً مجرى الوقف .

ومعنى ﴿سُوًى﴾ أى عدلاً ونصفة. قال أبو على: كأنه قال وقربه منكم قربه منا. وقال غيره: إنما أراد أن حالنا فيه مستوية فيعم ذلك القرآن، وأن تكون المنازل فيه واحدة فى تعاطى الحق لا تعترضكم فيه الرئاسة وإنما يقصد الحجة. وعن مجاهد وهو من الاستواء ؛ لأن المسافة من الوسط إلى الطرفين مستوية لا تفاوت فيها، وهذا معنى ما تقدم من قول أبى على قربه منكم قربه منا.

وقال الأخفش ﴿سُوًى﴾ مقصور إن كسرت سينه أو ضممت، وممدود إن فتحتها ثلاث لغات ويكون فيها جميعاً بمعنى غير وبمعنى عدل، ووسط بين الفريقين وقال الشاعر:

وإن أبانا كان حل بأهله سوى ... بين قيس قيس عيلان والفزر

قال: وتقول مررت برجل سِواك وسُواك ، وسَواك أى غيرك، ويكون للجميع، وأعلى هذه اللغات الكسر قاله النحاس. وقالت فرقة: معنى ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ مستوياً من الأرض أى لا وعر فيه، ولا جبل، ولا أكمة، ولا مطمئن من الأرض بحيث يسير ناظر أحد فلا يرى مكان موسى والسحرة وما يصدر عنهما، قال ذلك واثقاً من غلبة السحرة لموسى ، فإذا شاهدوا غلبهم إياه رجعوا عما كانوا اعتقدوا فيه. وقالت فرقة: معناه: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾: مكاننا هذا وليس بشيء ؛ لأن « سوى » إذا كانت بمعنى غير لا تستعمل إلا مضافة لفظاً ولا تقطع عن الإضافة.

[البحر المحيط : 7/ 347 ، 348]

من رؤية المنظر فهو مكان مستوٍ ليس فيه علو أو انخفاض ، أو أنه مكان وسط المدينة وليس بعيداً فى أطرافها ؛ حتى يسهل على الناس الحضور إليه، وكل هذا حرص على إتمام المعركة من جانب الطرفين؛ لأن كل طرف يريد أن يتغلب على الآخر.

وبعد ذلك بدأت الدعاية بين الناس ؛ حتى يتجمعوا فى هذا اليوم لمشاهـدة ما سيحدث، قال تعالى : ﴿ **فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠)** ﴾ [الشعراء] أى أنهم سيجتمعون وعندهم أمل فى أن يتغلب السحرة على موسى ويبطلوا حجته ، قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ** ﴾ [الشعراء: ٤١] انظر هنا إلى مسيرة هذا الإله المزعوم فى رعيته !!

إن الإله الحق يعطى ولا يأخذ، فهو سبحانه ﴿ **يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ** ﴾ [الأنعام:١٤]، ﴿ **يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ** ﴾ (١) [المؤمنون: ٨٨] .

---

(١) قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩)** ﴾ [المؤمنون]

وعن أبى هريرة قال : دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبى ﷺ فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يده أو يديه قال : « الحمد لله الذى يُطعِم ولا يُطعَم ، منَّ علينا فهدانا ، وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاء حسن أبلانا ، الحمد لله غير مودَّع ، ولا مكافئ ولا مكفور ، ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذى أطعم من الطعام ، وسقى من الشراب ، وكسا من العُرىّ ، وهدى من الضلالة ، وبصّر من العمى ، وفضّلنا على كثير من خلقه تفضيلا ، الحمد لله رب العالمين » . أخرجه النسائى فى الكبرى [١٠١٣٣] واللفظ له ، والحاكم فى المستدرك [١/٥٤٦] وصححه ، ووافقه الذهبى ، وابن السنى فى اليوم والليلة [٤٨٥] .

هنا السحرة، وهم فريق المباراة الذى سيقف فى صف فرعون، أرادوا أن يتفقوا معه قبل قيامهم بهذه المهمة ، وقالوا له: أنت تُسخر الشعب بدون أجر ولكن هذه المسألة يجب أن نأخذ عليها أجراً !! فهل ستعطينا أجراً إن تغلبنا على موسى وانتصرنا عليه؟!

قال فرعون: لن أعطيكم الأجر فقط ، بل سأجعلكم من رجالى المقربين الذين أستعين بهم فى مثل هذه المواقف، وذلك قول الله تعالى : ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[1] [الشعراء: ٤٢] .

---

(١) يقول الأستاذ سيد قطب: وهكذا ينكشف الموقف عن جماعة مأجورة يستعين بها فرعون الطاغية؛ تبذل مهارتها فى مقابل الأجر الذى تنتظره؛ ولا علاقة لها بعقيدة ولا صلة لها بقضية، ولا شىء سوى الأجر والمصلحة. وهؤلاء هم الذين يستخدمهم الطغاة دائماً فى كل مكان وفى كل زمان.

وها هم أولاء يستوثقون من الجزاء على تعبهم ولعبهم وبراعتهم فى الخداع. وها هو ذا فرعون يعدهم بما هو أكثر من الأجر. يعدهم أن يكونوا من المقربين إليه. وهو بزعمه الملك والإله!. [فى ظلال القرآن : ٥/ ٢٥٩٥]

❋ فتنازعوا أمرهم بينهم ❋

يقول سبحانه ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣)﴾ [طه] [1] ساعة أن خوّفهم موسى وحذرهم ، أخذوا يتناجون مع بعضهم البعض؛ خوفا مما سيحدث لهم، وكلمة ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ دليل على أن خوفهم من قول موسى : ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ

---

(١) قال ابن الجوزى: قوله تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ يعنى: السحرة تناظروا فيما بينهم فى أمر موسى، وتشاوروا ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أى: أخفوا كلامهم من فرعون وقومه. وقيل: من موسى وهارون ، وقيل : ﴿أَسَرُّوا﴾ هاهنا بمعنى: «أظهروا».

وفى ذلك الكلام الذى جرى بينهم ثلاثة أقوال:

أحدها : إن كان هذا ساحراً ، فإنا سنغلبه ، وإن يكن من السماء كما زعمتم ، فله أمره. قاله قتادة.

والثاني: أنهم لما سمعوا كلام موسى قالوا: ما هذا بقول ساحر، ولكن هذا كلام الرب الأعلى، فعرفوا الحق، ثم نظروا إلى فرعون وسلطانه، وإلى موسى وعصاه، فنكسوا على رؤوسهم، و ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾، قاله الضحاك ومقاتل.

والثالث: ﴿ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ ، قاله السدى.

[زاد المسير :٥/٢٠٧]

خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾[1] [طه: ٦١] جعل عندهم شيئاً من الرهبة والتردد والتفكير فى الحق، حتى وإن اقتصر هذا الأمر على الذين كان عندهم استعداد للخير بعد الحوار والجدال بين السحرة، فانتهوا إلى اتفاق على أن يكملوا الشوط إلى آخره، وفى خلال هذا الجدال قالوا ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ هذه الآية أثارت كثيرا من النقاش بين العلماء ، تعليقاً على قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ [2] وهذه الآية لها قراءة ثانية تنطق فيها (إنّ) بتشديد النون،

---

(١) قال لهم موسى: ﴿وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ : [1] خاطبهم خطاب محذر وندبهم إلى قول الحق إذا رأوه وأن لا يباهتوا بكذب. وعن وهب لما قال للسحرة ﴿وَيْلَكُمْ﴾ قالوا : ما هذا بقول ساحر ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ يهلككم ويستأصلكم؛ وفيه دلالة على عظم الافتراء ، وأنه يترتب عليه هلاك الاستئصال، ثم ذكر أنه لا يظفر بالبغية ولا ينجح طلبه ﴿مَنِ افْتَرَى﴾ على الله الكذب.

ولما سمع السحرة منه هذه المقالة هالهم ذلك ووقعت فى نفوسهم مهابته ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم﴾ أى تجاذبوه والتنازع يقتضى الاختلاف. وقرأ حمزة والكسائى وحفص والأعمش وطلحة وابن جرير ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ بضم الياء وكسر الحاء من أسحت رباعياً. وقرأ باقى السبعة ورويس وابن عباعى بفتحهما من سحت ثلاثياً. وإسرارهم النجوى خيفة من فرعون أن يتبين فيهم ضعفاً ؛ لأنهم لم يكونوا مصممين على غلبة موسى ، بل كان ظناً من بعضهم، وعن ابن عباس أن نجواهم : إن غلبنا موسى اتبعناه، وعن قتادة : إن كان ساحراً فسنغلبه ، وإن كان من السماء فله أمر.

[البحر المحيط : ٣٤٩/٧]

(٢) وقد استغل بعض غير ذوى الشأن ومن فى قلوبهم مرض مثل هذه الخلافات ، =

---

(١) جاء فى تفسير سورة البقرة « الويل » : مصدر لا فعل له من لفظه ، والويل معناه الفضيحة والحسرة. وقال الخليل : الويل : شدة الشر، وقال المفضل، وابن عرفة : الويل : الحزن . يقال: تويّل الرجل دعا بالويل، وإنما يقال ذلك عند الحزن والمكروه.

وقال غيره : الويل الهلكة ، وكل من وقع فى هلكة دعا بالويل . وقال الأصمعى : هى كلمة تفجع ، وقد يكون ترحمًا . [البحر المحيط :٤٣٦/١]

. . . .

= وادعوا زورًا أن فى كتاب الله أخطاء ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] ومن هؤلاء ، المدعو عشماوى . قال الدكتور محمد عمارة : ولا يكتفى العشماوى بهذا التشكيك فى سلامة اللفظ القرآنى . . فيمضى على هذا الدرب الذى اخترعه ، مدعيا أن القرآن الذى بيدنا الآن ، والذى اجتمعت عليه الأمة « لا زالت توجد به حتى الآن بعض الأخطاء النحوية واللغوية » !! . . ففى زعمه أن «ساحران» فى آية [طه: ٦٣] ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ صحتها « ساحرين » ـ وأنَّ ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ ـ فى آية [المائدة: ٦٩] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ﴾ صحته : «الصابئين» . . وأن ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ فى آية [المائدة: ٣٨] ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ صحتهما : « يديهما » . .

يزعم العشماوى اكتشافه لأخطاء نحوية ولغوية فى القرآن الكريم ، لم يكتشفها علماء الإسلام والعربية ، القدماء منهم والمحدثون ، مع أنه لو قرأ كتابا فى نحو العربية ـ ولا نقول فى تفسير القرآن ـ مما يدرس فى المعاهد الإعدادية الأزهرية ، لعلم وجه إعراب هذه الألفاظ الثلاثة فى هذه الآيات . .

١ - فـ « الصابئون » ـ فى آية [المائدة: ٦٩] ـ جاءت بالرفع. لا بالنصب؛ لأسباب فى هذا الإعراب ، منها ما رآه الخيل بن أحمد [١٠٠ ـ ١٧٠ هـ ، ٧١٨ ـ ٧٨٦م] وسيبويه [١٤٨ ـ ١٨٠هـ ، ٧٦٥ ـ ٧٩٦م] من أن « الرفع محمول على التقديم والتأخير ، والتقدير : إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون والنصارى كذلك » .

ومثل هذا فى العربية كثير ، منه قول الشاعر :

وإلا فاعلمـــــوا أنّا وأنتم ... بغاةٌ ما بقينا فى شقاق

وقول ضابئ البُرجمى :

فمن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإنى وقيّارٌ بها لغريب [(١)]

٢ - وأن ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ ـ بالجمع ، لا بالتثنية ـ فى آية [المائدة : ٣٨] ـ هى على الإعراب الصحيح ؛ وفق القاعدة التى ذكرها الخليل بن أحمد ، والفراء =

---

(١) الجامع لأحكام القرآن [٦/٢٤٦] .

. . . .

= [١٤٤ ـ ٢٠٧ هـ ، ٧٦١ ـ ٨٢٢م] من أن كل شيء يوجد من خَلْق الإنسان إذا أضيف إلى اثنين جُمع . تقول : هشمت رءوسهما وأشبعت بطونهما ، و ﴿إن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] . . ولهذا الإعراب وجه وقاعدة أخرى هى : « أن السارق والسارقة لم يرد بهما شخصين خاصة ، وإنما هما اسما جنس يعمان ما لا يحصى . . » [(١)].

٣ - وأن ﴿لَسَاحِرَانِ﴾ ـ بالرفع ـ فى آية [طه : ٦٣] ـ وليس بالنصب ـ ساحرين ـ لوجوه وأسباب ستة فى هذا الإعراب ، منها : أنها جاءت على لغة الحارث ابن كعب ، وزبيد ، وخثعم ، وكنانة ، الذين « يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه بالألف . . ومنه قول الشاعر :

تزوّد منابين أُذْنَاهُ ضربة دعته إلى هابى التراب عقيم [(٢)]

ولو أن العشماوى قد جهل هذا الذى قدمناه ، عن ضبط الأحد عشر حرفا ، وفق القراءة المشهورة والمقررة ، وعن وجوه إعراب هذه الألفاظ الثلاثة ، لكان أمره واقفا عند جريمة الخوض فى كتاب الله بغير علم ﴿بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤] لكن جرم الرجل يتعدى « الجهل » إلى سوء القصد ، بدليل أنه قد قرأ المصادر التى أوردت هذه التفسيرات التى أوردناها هنا ـ ومنها [الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبى]

بل لقد رجع العشماوى ـ وهو يفترى على القرآن هذه الافتراءات ـ إلى « الموسوعة القرآنية » [(٣)] . . وأشار إلى إيرادها لرواية السجستانى فى « كتاب المصاحف » ، لكنه ـ وهذا هو الشاهد على سوء القصد ـ سكت عن تفنيد صاحب هذه الموسوعة لكل هذه الشبهات ، واحدة واحدة . . وهو التفنيد الذى ختمه صاحب الموسوعة بقوله : « هذه هى الأحرف التى يُرْوَى أن الحجاج غيّرها فى مصحف عثمان » .

وأحب أن أزيد الأمر وضوحًا ، ولا أتركه على إيهامه هذا الذى يثير شكا، ويكاد =

(١) الجامع لأحكام القرآن [٦/١٧٣ ، ١٧٤] .

(٢) الجامع لأحكام القرآن [١١/٢١٦ ، ٢١٧] .

(٣) للأستاذ : إبراهيم الإبيارى [١/٣٦١ ما بعدها] .

. . . .

= القول فيه على ظاهره يعطى الحجاج أن يغير فى كتاب الله :

١ ـ لقد رأيت كيف روى أبو بكر السجستانى هذا الخبر ، فى أسلوب يهون فيه من شأن المسند إليه الخبر .

٢ ـ ورأيت من التعقيب الذى عقبنا به على هذه الأحرف ، أن ثمانية منها تحتمل قراءات ، وأن ما أثبته الحجاج كان المشهور .

٣ ـ ولقد رأيت كذلك أن ثلاثة منها لم يقرأ بها أحد من القراء .

٤ ـ ونحن نعرف أن الحجاج كان من حُفّاظ القرآن المعدودين .

٥ ـ وأن الحجاج كانت على يديه الجولة الثانية فى نقط المصاحف وشكلها ـ « إذ طُلب ذلك من يحيى بن يعمر العدْوانى » . .

فمن أنَّى لنا أن هذا الذى يقال إن الحجاج أثبته لم يكن ؟ وأن رسم مصحف عثمان كان يشتمل عليه ؟ وأن الحجاج لم يفعل غير أن بيّنه وميّزه ؟ . . وإذن فلا تغيير للحجاج فى كتاب الله . . » (١)

قرأ العشماوى جميع ذلك ، بما فيه قول صاحب « الموسوعة القرآنية » ـ بعد البرهنة العلمية ـ : « وإذن فلا تغيير للحجاج فى كتاب الله » . . لكنه لم يناقش ، بل ولم يشر إليه ، ووقف عند حدود التشكيك فى سلامة وحفظ النص القرآنى . . وهو ما يؤكد « سوء القصد » ، الذى بلغ بالرجل مبلغا غير مسبوق ! . .

ويخلط هذه « المأساة » بـ « الملهاة » ، معرفة حظ العشماوى ـ الذى يقدم نفسه إلى القراء كمكتشف لم يُسْبَق لأخطاء نحوية ولغوية فى القرآن ، كتاب العربية الأول ، والذى أجمعت الأمة لإعجازه ، على أن يكون المعيار الذى تقاس عليه قواعد العربية وصحة أساليبها ـ . . يخلط « المأساة » بـ « الملهاة » ما نعرفه عن جهل العشماوى ـ فى اللغة العربية ـ لما لا يجهله صغار تلاميذها . . وإلا ، فهل يجوز لمن لا يعرف الفرق بين « الفِطْرة » ـ التى فطر الله الناس عليها ، وبين « الفَطِيرة » التى يصنعها الخَبّاز فى الفرن ـ أن يتجاوز قدره ، ويتعدى حدوده ، ليتكلم فى العربية ، فضلا عن أن يدّعى اكتشاف أخطاء نحوية ولغوية فى كتاب العربية الأول والمعجز؟! . .

إن العشماوى يجمع « الفطرة » على « فطائر » . . وهو جمع « الفطيرة » والفطرة تجمع على « فِطَر » ـ وذلك عندما يزعم أن « فقه عمر بن الخطاب قد كان يخالف =

---

(١) الموسوعة القرآنية [١/ ٣٦١] .

= طبائع الأمور وفطائر الناس . . » [1] !

فهل لمن هذا مستواه حق - أى حق - فى حديث عن القرآن الكريم ؟! . .

تلك بعض من افتراءات المستشار عشماوى على الوحى الإلهى والذكر الحكيم والقرآن الكريم ! [سقوط الغلو العلمانى : ٣٣ - ٣٦]

هذا وقامت مكتبة التراث الإسلامى بعرض هذا السؤال على فضيلة الشيخ الشعراوى ضمن مجموعة أسئلة عن ضلالات هذا العشماوى الذى لا يعرف الفرق بين ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ وبين فطيرة الخباز ، وصدرت فى كتاب باسم: الأنوار الكاشفة :

السؤال : قال مؤلف كتاب الخلافة الإسلامية : إن القرآن الكريم الذى يعتبره المؤمنون وحيا إلـهيا تعهد الله بحفظه ، يحتوى على أخطاء لغوية . أصلح الحجاج ابن يوسف منها أحد عشر حرفا ، وأنه لا زالت توجد حتى الآن بعض الأخطاء النحوية واللغوية ولم يصححها الحجاج ، كما لم يجرؤ أحد على تقويمها إلى اليوم، من هذه على سبيل المثال :

١ - ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ [طه : ٦٣]

٢ - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى ﴾ [المائدة : ٦٩]

٣ - ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة : ٣٨]

الشيخ الشعراوى : هذا كلام رجل لا يعرف شيئا عن اللغة العربية . فالقرآن الكريم نزل فى قوم هم أئمة الفصاحة والبلاغة والبيان ، ولو كان فيه أخطاء نحوية ولغوية كما يدعى مؤلف الكتاب ، لكان القوم الذين عاندوا محمدا ﷺ ، وعارضوه فى المعجزة ، أول من تكلم عن هذه الأخطاء . ولكنهم كانوا مبهورين بالأداء القرآنى، حتى إنهم كانوا يتخفون وراء أستار الكعبة ؛ ليستمعوا إلى الرسول ﷺ ، وهو يتلو القرآن بجوار الكعبة ، وكانوا يحاولون منع أى قادم إلى مكة من الذهاب للرسول ؛ حتى لا يؤخذ ببلاغة القرآن .

وهناك حكاية ذكرتها كتب السيرة النبوية عن الوليد بن المغيرة المخزومى ، وكانوا يلقبونه بـ « ريحانة قريش » لفصاحته وبلاغته وعلمه باللغة : =

(١) الربا والفائدة فى الإسلام [ص ٤١] .

= كانت قريش أرسلت الوليد هذا إلى النبى ﷺ ؛ ليجادله فى أمر الدين الجديد . . فلما جلس قرأ عليه النبى شيئا من القرآن ، فإذا بحلاوة الأداء القرآنى تأسره ، فرجع إلى قريش بوجه متغير . يعنى كان ذاهبا إلى الرسول بوجه فيه شمم ، ولكنه عاد بوجه فيه علامات المأخوذ . فسألوه : ماذا سمعت من محمد ؟ فأجابهم : وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة منى ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وأنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وأنه ليعلو وما يعلى ، وأنه ليحطم فاتحته .

هذا كلام رجل - أى الوليد بن المغيرة - يعاند الإسلام ، وهو قمة من قمم البلاغة والبيان ، بل إنه من أساطين اللغة فى عصره . .

والأمثلة كثيرة على تحدى القرآن ببلاغته وفصاحته للعرب . فإذا جاءك من يقول : إن القرآن به أخطاء نحوية ولغوية ، فقل له : إنك لا تعرف اللغة . . لماذا ؟

لأن اللغة لهجات مختلفة فى الجزيرة ، ولغة قريش كانت هى السائدة ، والقبائل كانت تصب عندها فى مواسم الحج ، فتأخذ خلاصة اللغات . ولكن الله لم يشأ أن يبقى سيادة لقريش فى هذا ؛ فأدخل فى القرآن الكريم لهجات لا يعرفها أحد ؛ حتى يمنع قريشًا من أن تقول : إن لها السيادة .

وأكثر من هذا فإن القرآن تحدى بلغاء العرب وفصحاءهم أن يأتوا بسورة أو بآية من مثله ، وطبعا عجزوا ، وكل من حاول أن يحاكى القرآن جاء بكلام سخر الناس منه . .

هل بعد هذا يأتى رجل لا يعرف اللغة : نحوا وصرفا وفقها ، ويقول : إن القرآن به أخطاء نحوية ولغوية ؟!

ولو أن صاحب هذا القول قرأ ، لعلم أن الألف فى التثنية منهم من يلزمها ، ألم يقرأ : إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها . إذن فإلزام الألف فى ﴿هَذَانِ﴾ سار على أن : أباها وأبا أباها ؛ ولذلك يسمونها جعجعة قضاة ، طمأنينة حمير ، فحفحة هزيل ، كل ذلك لهجات ومعناها أن القرآن لم يجئ على لغة قريش وحدها ، وإلا فقد انسحبت السيادة أيضا فى الدين الجديد من قريش ، وهو يريد أن ينزل لهم إلى مستوى الجميع ؛ ولذلك جاء باللغات المهجورة أو =

ولكن فى قراءة حفص التى نقرأ بها ـ نحن فى مصر ـ النون ساكنة ونحن نعرف أن (إنَّ وأخواتها) تنصب الإسم وترفع الخبر؛ مثل قولك (إنَّ زيدا مجتهد)، (إنَّ الولدين مجتهدان) .

فقراءة ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ بسكون النون فى ﴿إِنْ﴾ لا تتوافق وقواعد اللغة ؛ لأن المفروض أن يكون المبتدأ منصوباً فتقول: « إنَّ هذين لساحران » ولكن ﴿إِنْ﴾ بسكون النون لا عمل لها ؛ لأنها للتوكيد فيصح القول : ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ .

حتى القراءة التى تقرأ (إنَّ) بتشديد النون قالوا : إنها صحيحة على لغة كنانة ، ونحن نعرف أن القبائل العربية كثيرة ، وكل قبيلة لها لهجة أو لغة، تتميز ببعض الاختلاف عن غيرها من القبائل ، لكن المعروف أن القرآن جاء على جمهرة اللغة القرشية ؛ لأن القبائل كلها كانت تجتمع فى الحج وفى المواسم فى مكة ، فقريش أخذت اللغة الأكثر انتشارًا بين القبائل العربية ، وإن بقيت لهجات القبائل الأخرى موجودة . فأراد الله أن ينزع السيادة التى تحتلها قريش عند القبائل العربية ، وأن يعطى لهذه القبائل نوعاً من الذكر ، فكان القرآن يأتى أحياناً بشىء من لهجات القبائل الأخرى ؛ ليدل على أن القرآن لم ينزل بلغة قريش ؛ ليجعل لها السيادة على غيرها من العرب ؛ حتى لا يقولوا نحن السادة فى كل شىء حتى فى اللغة ، ولذلك فى لغة كنانة نجد (إنَّ) بتشديد النون لا عمل لها بخلاف لغة قريش، وفى هذه اللغة إذا دخلت (إنَّ) بتشديد النون على أية جملة

= اللغات التى لم يكن لها سيادة، وجعل لها رمزية فى القرآن ، إذن فالذى يقول هذا جاهل بطبيعة العرب ، وجاهل بأنها أمة متكلمة ، وجاهل بأن الكفار لم يؤمنوا بمحمد أولا ، ولو وجدوا منفذا فى تلحينه لقالوا به ، ولم يقل منهم أحد شيئا من هذا . [الأنوار الكاشفة : ٤٣ ـ ٤٦]

لا يتغير فيها شيء، وعليه تصح القراءة ﴿إنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [طه: ٦٣] .

هذا بالنسبة لـ (إنَّ) المشددة ، ولكن (إنْ) الساكنة النون تستعمل شرطية مثل : إن زارني زيد أكرمته ، وتستعمل مرة للنفى بمعنى «ما» ، مثل قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللائِي وَلَدْنَهُمْ﴾(١) فهنا (إن) بمعنى (ما) أى ما أمهاتهم

---

(١) قال صديق خان: بيّن سبحانه شأن الظهار فى نفسه، وذكر حكمه بطريق الاستئناف فقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ﴾ بضم الياء وتخفيف الظاء وكسر الهاء، وقرأ الجمهور «يَظّهرون» بالتشديد مع فتح حرف المضارعة،وقرئ «يظّاهرون» بفتح الياء وتشديد الظاء وزيادة ألف ، وقرئ «يتظاهرون» وكلها سبعيات ومعنى الظهار شرعاً أن يقول لامرأته: أنت علىّ كظهر أمى، أنت منّى أو معى أو عندى كظهر أمى ولا خلاف فى كون هذا ظهاراً، واختلفوا إذا قال أنت على كظهر ابنتى أو أختى أو غير ذلك من ذوات المحارم، فذهب جماعة منهم أبو حنيفة ومالك إلى أنه ظهار ، وبه قال الحسن والنخعى والزهرى والأوزاعى والثورى، وقال جماعة منهم قتادة والشعبى: إنه لا يكون ظهاراً ، بل يختص الظهار بالأم وحدها، واختلفت الرواية عن الشافعى فروى عنه كالقول الأول وكالقول الثانى.

وأصل الظهار مشتق من الظهر وهو لغة العلو ، وليس هو من ظهر الإنسان ، واختلفوا إذا قال لامرأته: أنت علىّ كرأس أمى أو يدها أو رجلها أو نحو ذلك، هل يكون ظهاراً أم لا؟ وهكذا إذا قال: أنت علىّ كأمى ولم يذكر الظهر، والظاهر أنه إذا قصد بذلك الظهار كان ظهاراً، وروى عن أبى حنيفة أنه إذا شبهها بعضو من أمه يحل له النظر إليه لم يكن ظهاراً، وروى عن الشافعى أنه لا يكون الظهار إلا فى الظهر وحده، واختلفوا إذا شبه امرأته بأجنبية فقيل: يكون ظهاراً، وقيل: لا، والكلام فى هذا مبسوط فى كتب الفروع.

﴿مِنكُم﴾ أى حال كونهم منكم أيها العرب، وهذا توبيخ لهم، وتهجين لعادتهم؛ لأن الظهار كان خاصاً بالعرب ، ومن أيمان جاهليتهم دون سائر الأمم ﴿مِّن نِّسَائِهِم﴾ يعنى يحرمون زوجاتهم كتحريم الله عليهم ظهور أمهاتهم، يقولون لهن: أنتن كظهور أمهاتنا ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾ : أى ما نساؤهم بأمهاتهم فذلك كذب =

إلا اللائى ولدنهم، فإنْ هنا للنفى، فإذا جعلنا (إنْ) للنفى بمعنى (ما) فى قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ يكون المعنى ما هذان لساحران ؛ لأن اللام فى ﴿لَسَاحِرَانِ﴾ بمعنى: إلا ، مثل قولهم: لزيد أحق بهذا الشىء؛ أى إن هذا الشىء من حق زيد ومادمت قلت : لزيدٌ أحق بهذا الشىء ، فكأنك قلت: ما هذا الشىء إلا لزيد، إذن اللام فى كلمة: ﴿لَسَاحِرَانِ﴾ بمعنى « إلا » ، و«إنْ» بمعنى «ما» وبهذا ينتهى الإشكال.

وقول السحرة :﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾ [طه] هذا القول منهم ترديد لما قاله فرعون عن موسى وهارون، وهو دليل على أن دعاية فرعون وكيده أثّرا فى موقف الرعية من قضية موسى وهارون، والطريقة هى المذهب الذى يرتضيه الإنسان لنفسه[1]، والمسلك الذى يسلكه فى حياته، إذن الطريقة:

= بحث منهم، وإنه منكر وزور، وفى هذا توبيخ للمظاهرين وتبكيت لهم، قرأ الجمهور أمهاتهم بالنصب على اللغة الحجازية فى إعمال ﴿ما﴾ عمل «ليس»، وقرئ بالرفع على عدم الإعمال، وهى لغة نجد وبنى أسد ، ثم بين لهم سبحانه أمهاتهم على الحقيقة فقال: ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ : أى ما أمهاتهم إلا النساء اللاتى ولدنهم، يريد أن الأمهات على الحقيقة الوالدات ، والمرضعات ملحقات بالوالدات بواسطة الرضاع ، وكذا أزواج رسول الله ﷺ ؛ لزيادة حرمتهن وأما الزوجات فأبعد شئ من الأمومة. [فتح البيان فى مقاصد القرآن :١٤/ ١١-١٢]

(١) قوله تعالى : ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ﴾ . وقرأ أبان عن عاصم: «يُذهبا» بضم الياء وكسر الهاء. وقرأ ابن مسعود، وأبى بن كعب، وعبد الله بن عمرو، وأبو رجاء العطاردى: «ويُذهبا بالطريقة» بألف ولام، مع حذف الكاف والميم.
وفى الطريقة قولان: =

هى ما ارتضاه الإنسان لنفسه ؛ لتسير عليه أمور حياته، والطريقة المثلى عندهم هى أنهم جعلوا فرعون إلهاً، يأتمرون بأمره، وهو الذى يتصرف فى شؤونهم ويدبر أمورهم كما يشاء، ومعنى المثلى : أى الفاضلة ، ومعناها أمثل طريقة .

ومعنى ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾[1] [طه: ٦٤] أى اشحذوا كل أذهانكم وحركتكم فى السحر ؛ حتى لا تمكنوهما من تحقيق هذين الهدفين وهما : الإخراج من الأرض والذهاب بالطريقة المثلى .

= أحدهما: بدينكم المستقيم، رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال أبو عبيدة: بسنتكم ودينكم وما أنتم عليه، يقال: فلان حسن الطريقة.

والثانى: بأمثلكم، رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس. وقال مجاهد: بأولى العقل، والأشراف، والأسنان. وقال الشعبى: يصرفان وجوه الناس إليهما. قال الفراء: الطريقة: الرجال الأشراف، تقول العرب للقوم الأشراف: هؤلاء طريقة قومهم، وطرائق قومهم.

فأما ﴿الْمُثْلَىٰ﴾ فقال أبو عبيدة: هى تأنيث الأمثل: تقول فى الإناث: خذ المثلى منها، وفى الذكور: خذ الأمثل. وقال الزجاج: ومعنى المثلى والأمثل: ذو الفضل الذى به يستحق أن يقال هذا أمثل قومه؛ قال: والذى عندى أن فى الكلام محذوفاً، والمعنى: يذهبا بأهل طريقتكم المثلى، وقول العرب: هذا طريقة قومه، أى: صاحب طريقتهم. [زاد المسير : ٢٠٨/٥]

(١) ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾. ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ تصريح بالمطلوب، إثر تمهيد المقدمات. والفاء فصيحة. أى إذا كان الأمر كما ذكر، من كونهما ساحرين، يريدان بكم ما ذكر من الإخراج، والإذهاب، فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعاً عليه، بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم. أفاده أبو السعود.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أى مصطفين ؛ ليكون أهيب فى صدور الرائين ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ﴾ : أى فاز بالإنعامات العظيمة من فرعون وملئه ﴿الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ : أى علا وغلب. [تفسير القاسمى :٤١٩١/١١]

ومعنى ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ ؛ لأن هذا أهيب لكم ويدخل الرعب فى قلب الخصم.

ومعنى كلمة : ﴿أَفْلَحَ﴾ أى فاز ، فالحق تعالى يقول : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وهذا اللفظ مأخوذ من «الفلح» (١) لأرضك أو فلاحتها ؛ لأن فلح الأرض يعطيها صورة على أن الإنسان إذا شقها وفلحها تعطيه الخير، فحركته فيها حركة مباركة؛ ولذلك نحن قلنا: إن الحق سبحانه حين أراد أن يبيّن للناس فضل الصدقات، وأنه سبحانه يضاعفها إلى سبعمائة ضعف، أمرنا أن ننظر إلى الأرض حين نلقى فيها حبة القمح، فتعطينا أضعافها عشرات المرات، قال تعالى : ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(٢) [البقرة: ٢٦١]

---

(١) الفلح والفلاح: الفوز والنجاة والبقاء فى النعيم والخير. وقيل لأهل الجنة مفلحون لفوزهم ببقاء الدهر. والفلح مصدر فلحت الأرض إذا شققتها للزراعة.
[لسان العرب :٢/٥٤٧- ٥٤٨]

(٢) قال البقاعى: قال سبحانه وتعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦١] أى يبذلون ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ بطيب نفس ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى الذى له الكمال كله كمثل زارع ومثل ما ينفقون ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ مما زرعه. قال الحرالى: من الحب وهو تمام النبات المنتهى إلى صلاحية كونه طعاما للآدمى الذى هو أتم الخلق، فالحب أكمل من الثمرة طعامية والثمرة إدامية ﴿أَنبَتَتْ﴾ أى بما جعل الله سبحانه وتعالى لها من قوة الإنبات بطيب أرضها واعتدال ريها ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ بأن تشعب منها سبع شعب فى كل شعبة سنبلة وهو من السنبل. قال الحرالى: وهو مجتمع الحب فى أكمامه، كأنه آية استحقاق اجتماع أهل ذلك الرزق فى تعاونهم فى أمرهم، وتعريف بأن الحب بجمعه لا بوحدته ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ فصارت الحبة سبعمائة حبة بمضاعفة الله لها.
قال الحرالى: فضرب المثل للإنفاق فى سبيل الله، وذكر السبع لما فيه من التمام بالحرث الذى هو كيمياء عباده يشهدون من تثميره حيث تصير الحبة أصلا، ويثمر =

فإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطى بدل الحبة الواحدة التى زرعتها فيها سبعمائة حبة، فكم يكون عطاء خالق الأرض سبحانه ؟ لابد أنه يعطى أكثر وأكثر، فأخذت كلمة الفوز والفلاح فى أى عمل من الأعمال- ولو لم يكن فيه فلاحة أو شق الأرض - عَلَمًا على كل فلاح ؛ وذلك لأن قصارى كل حركات الحياة أن تضمن للإنسان بقاء نوعه بالقوت، وكله

= الأصل سنابل ويكون فى كل سنبلة أعداد من الحب، فكان ما ذكر تعالى هو أول الإنفاق فى سبيل الله، وذكر السبع لما فيه من التمام وما يقبله من التكثير، فإن ما أنبت أكثر من سبع إذا قصد بالتكثير أنبأ عنه بالسبع ؛ لأن العرب تكثر به ما هو أقل منه أو أكثر، فجعل أدنى النفقة فى سبيل الله سبعمائة ضعف، ثم فتح تعالى باب التضعيف إلى ما لا يصل إليه عد . انتهى.

فالآية من الاحتباك وتقديرها : مثل الذين ينفقون ونفقتهم كمثل حبة وزارعها ، فذكر المنفق أولا دليل على حذف الزارع ثانيا ، وذكر الحبة ثانيا دليل على حذف النفقة أولا .

ولما كان التقدير: فكما ضاعف سبحانه وتعالى للزارع حبته، فهو يضاعف للمنفق نفقته، عطف عليه قوله: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ بما له من السعة فى القدرة، وكل صفة حسنى ﴿وَاللَّهُ﴾ اى بما له من الكمال فى كل صفة ﴿وَاسِعٌ﴾ لا يحد فى صفة من صفاته التى تنشأ عنها أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ فهو يضاعف لأهل النفقة على قدر ما علمه من نياتهم؛ ولما ختم أول آيات هذه الأمثال بهاتين الصفتين ختم آخرها بذلك ؛ إشارة إلى أن سعته قد أحاطت بجميع الكائنات ، فهو جدير بالإثابة فى الدارين، وأن علمه قد شمل كل معلوم فلا يخشى أن يترك عملا.

[نظم الدرر :٤/ ٧٤ - ٧٦]

عن أبى مسعود الأنصارى قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه فى سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة».

أخرجه مسلم [١٨٩٢]

وعن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ : «من أنفق نفقة فى سبيل الله كتبت له بسبعمائة ضعف» أخرجه الترمذى [١٦٢٥] وقال: حديث حسن ، وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [١٣٢٦] : صحيح .

يأتى من الأرض فجعلت هذه المسألة مصدر الفوز .

ومعنى : ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٤] أى من طلب العلو على خصمه وتمكن من تحقيق هذا العلو، والذى يريد تحقيق هذا الهدف لابد أن يشحذ ذهنه ويبذل جهده فى طلب هذا العلو .

* قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين *



عندما ألقى موسى عصاه فتحولت إلى ثعبان نزع يده فامتلأت بالضوء الذى يجذب أنظار الحاضرين، هنا ﴿قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]

و ﴿الْمَلأُ﴾ (١) كما بيّنا هم: وجهاء القوم المحيطون بالحاكم، وقولهم: «ساحر» معناه أنهم كانت عندهم فكرة عن السحر؛ ولذلك قالوا: ﴿لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩] ؛أى أنه ليس ساحراً عادياً ولكنه ساحر متمكن ، وفى سورة الشعراء هناك آية أخرى تدل على أن فرعون هو الذى قال: إن موسى ساحر، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤] . إذن فهناك آية نسبت القول إلى

---

(١) يقول العلامة الراغب الأصفهانى : ملأ : الملأ جماعة ويجتمعون على رأى، فيملئون العيون رواء ومنظرا ، والنفوس بهاء وجلالاً ، قال : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ، ﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٣٣] ، ﴿إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص: ٢٠] ، ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ ، وغير ذلك من الآيات ، يقال: فلان ملء العيون، أى معظم عند من رآه كأنه ملأ عينه من رؤيته ، ومنه قيل : شاب مالىء العين ، والملأ : الخلق المملوء جمالا، قال الشاعر : فقلنا أحسنى ملأ جهينا

ومالآته عاونته ، وصرت من ملئه أى جمعه نحو شايعته أى صرت من شيعته ، ويقال : هو مليء بكذا . والملاءة الزكامُ الذى يملأ الدماغ ، يقال مليء فلان وأملأ ، والملء : مقدار ما يأخذه الإناء الممتلىء ، يقال : أعطنى ملأه وملأيه وثلاثة أملائه .

[معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم : ٤٩٢]

الملأ، وآية نسبت القول إلى فرعون.. فهل هذا تناقض؟ بالطبع لا ؛ لأنه من الجائز أن تتوارد الخواطر فى أمر معلوم متفق عليه.

فعندما نزل القرآن فى آيات خلق الإنسان ، قال الصحابى[1] الذى

---

(١) يقول الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ فتعالى أمره فى قدرته وعلمه ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أى أحسن المقدّرين تقديرًا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه ونحوه طرح المأذون فيه فى قوله ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ لدلالة الصلة .

وروى عن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بلغ قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ وروى أنّ عبد الله بن سعد بن أبى سرح كان يكتب للنبى ﷺ ، فنطق بذلك قبل إملائه فقال له النبى ﷺ : « اكتب هكذا نزلت »، فقال عبد الله : إن كان محمد نبيًا يوحى إليه فأنا نبى يوحى إلىّ ، فلحق بمكة كافرًا ثم أسلم يوم الفتح». [الكشاف : ٣/ ٤٤]

وعن أنس قال : قال عمر : وافقت ربى فى أربع . قلت : يا رسول الله لو صليت خلف المقام . فأنزل الله : ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] وقلت: يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا فإنه يدخل عليك البر والفاجر . فأنزل الله : ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وقلت : لأزواج النبى ﷺ : لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجًا خيرًا منكن . فأنزلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ [التحريم: ٥] . ونزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾. إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ فقلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وعن زيد بن ثابت قال : أملى على رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ فقال معاذ بن جبل فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله ﷺ فقال له معاذ : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : إنها ختمت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

[الدر المنثور : ٦/ ٩٤] ، وانظر [تفسير ابن كثير : ٣/ ٢٣٤]

كان يدوّن الآيات : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾[المؤمنون: ١٤] فقال له رسول الله ﷺ : اكتبها فقد نزلت، فمن الممكن جداً أن يكون هناك توارد خواطر بين فرعون والملأ من قومه، ومن الممكن أن يكون فرعون قد قالها ، وعلى عادة الأتباع والأذناب إذا قال السيد شيئاً كرره القوم . . إذن فلا تناقض .

هل أعطى فرعون وملؤه حيثية أو سبباً لمجيء موسى واستعراضه لسحره أمامهم؟ الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾[الأعراف:١١٠] كأنما هم أعلنوا أن موسى قد جاء لإخراج فرعون وقومه من الأرض ؛ ليعود إليها هو وأتباعه ، كما حدث فى أيام الهكسوس.

فرعون فى هذا يريد أن يصرف الناس عن الإيمان ، والاقتناع بما قاله موسى عليه السلام من أنه رسول رب العالمين؛ ولذلك فإنه طعن فى معجزة الرسول بأن قال: إنه ساحر ، ثم أراد أن يهيج القوم ضد موسى فقال: إنه ساحر جاء ليخرجكم من الأرض التى تعيشون فيها، وبهذا يكون فرعون قد أضاع من عقول الناس أثر المعجزات التى جاء بها موسى وأضاع اللمسة الإيمانية التى يمكن أن يكون حديث موسى ومعجزاته قد أدخلها إلى قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ يدل على أن الذين قالوا هم الملأ ، ولكن الذى يأمر فى هذه المسائل هو فرعون ، ولكن من الممكن أن يكون الكلام من فرعون على أساس أنه لايقطع أمراً إلا بالمشورة وهذا أول ما ينفى عن فرعون تلك الألوهية المزعومة التى ادّعاها، فالإله لا يشاور ولا يتشاور مع عابديه عندما يقرر أمراً ،ولا يوجد إله يستعين بأمر العابدين ، وهذه سقطة كان يجب أن يتنبه إليها أولئك الذين عبدوا

فرعون؛ ليعرفوا أنه ليس إلها وأنه ارتجّ أمام موسى، واختلط عليه الأمر حتى أصبح لا يستطيع أن يقطع رأياً بدونهم فلجأ إليهم.

بماذا أفتى القوم فرعون؟ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١] يعنى أخّر الحكم عليه، و«الإرجاء» (١) هو التأخير ولذلك يقول الحق: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] أى مؤخرون لحكم الله فى الآخرة وهؤلاء هم أصحاب الأعراف، فأهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار، والذين على الأعراف ينتظرون أمر الله فيهم(٢).

---

(١) رجأ : أرجأ الأمر : أخَّره ، وترك الهمز لغة . ابن السكيت : أرجأت الأمر وأرجيته إذا أخَّرته . وقرىء : أرجه وأرجئه . وقوله تعالى : ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] قال الزجاج : هذا مما خص الله تعالى به نبيه محمد ﷺ ، فكان له أن يؤخّر من يشاء نسائه وليس ذلك لغيره من أمته ، وله أن يرد من أخَّر إلى فراشه . وقرىء ترجى بغير همز ، والهمز أجود ، وقرىء : «وآخرون مُرْجَؤون لأمر الله» أى مؤخرون لأمر الله ؛ حتى ينزل الله فيهم ما يريد.
وفى حديث توبة كعب بن مالك : وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا (١) ، أى: أخّره.
والإرجاء : التأخير ، مهموز . ومنه سميت المرجئة مثال المرجعة . يقال : رجل مرجىء مثال مرجع ، والنسبة إليه مرجئى مثال مرجعى .
هذا إذا همزت ، فإذا لم تهمز قلت : رجل مرجٍ مثال معطٍ ، وهم المرجية ، بالتشديد ؛ لأن بعض العرب يقول : أرجيت وأخطيت وتوضيت ، فلا يهمز ، وقيل: من لم يهمز فالنسبة إليه مرجىء .
والمرجئة : صنف من المسلمين يقولون : الإيمان قول بلا عمل ، كأنهم قدموا القول وأرجؤوا العمل أى أخَّروه ؛ لأنهم يرون أنهم لو لم يُصلُّوا ولم يصوموا لنجَّاهم إيمانهم . [لسان العرب : ١/ ٨٣-٨٤]
(٢) قال الإمام فخر الدين الرازى: وأما الأعراف فهو جمع عرف ، وهو كل مكان عالٍ مرتفع، ومنه عرف الفرس وعرف الديك، وكل مرتفع من الأرض عرف؛ وذلك لأنه=

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخارى [٤٤١٨] ، ومسلم [٢٧٦٩] .

. . . .

= بسبب ارتفاعه يصير أعرف مما انخفض منه.

إذا عرفت هذا فنقول: فى تفسير لفظ الأعراف قولان:

القول الأول: وهو الذى عليه الأكثرون أن المراد من الأعراف أعالى ذلك السور المضروب بين الجنة والنار، وهذا قول ابن عباس، وروى عنه أيضا أنه قال: الأعراف شرف الصراط.

والقول الثانى: وهو قول الحسن وقول الزجاج: فى أحد قوليه أن قوله: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ﴾ أى وعلى معرفة أهل الجنة والنار رجال يعرفون كل أحد من أهل الجنة والنار بسيماهم. فقيل للحسن: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم؟ فضرب على فخذيه ثم قال: هم قوم جعلهم الله تعالى على تعرف أهل الجنة وأهل النار يميزون البعض من البعض، والله لا أدرى لعل بعضهم الآن معنا ! أما القائلون بالقول الأول فقد اختلفوا فى أن الذين هم على الأعراف من هم؟ ولقد كثرت الأقوال فيهم ، وهى محصورة فى قولين :

أحدهما: أن يقال إنهم الأشراف من أهل الطاعة وأهل الثواب .

الثانى: أن يقال إنهم أقوام يكونون فى الدرجة السافلة من أهل الثواب أما على التقدير الأول ففيه وجوه :

أحدها: قال أبو مجلز: هم ملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار، فقيل له: يقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ وتزعم أنهم ملائكة؟ فقال الملائكة ذكور لا إناث.

ولقائل أن يقول: الوصف بالرجولية إنما يحسن فى الموضع الذى يحصل فى مقابلة الرجل من يكون أنثى ، ولما امتنع كون الملك أنثى امتنع وصفهم بالرجولية.

وثانيها: قالوا إنهم الأنبياء عليهم السلام أجلسهم الله تعالى على أعالى ذلك السور؛ تمييزاً لهم عن سائر أهل القيامة، وإظهاراً لشرفهم، وعلو مرتبتهم وأجلسهم على ذلك المكان العالى ؛ ليكونوا مشرفين على أهل الجنة وأهل النار ، مطلعين على أحوالهم ومقادير ثوابهم وعقابهم.

وثالثها: قالوا: إنهم هم الشهداء؛ لأنه تعالى وصف أصحاب الأعراف بأنهم يعرفون كل واحد من أهل الجنة وأهل النار، ثم قال قوم : إنهم يعرفون أهل الجنة بكون وجوههم ضاحكة مستبشرة، وأهل النار بسواد وجوههم وزرقة عيونهم، وهذا =

....

= الوجه باطل ؛ لأنه تعالى خص أهل الأعراف بأنهم يعرفون كل واحد من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، ولو كان المراد ما ذكروه لما بقى لأهل الأعراف اختصاص بهذه المعرفة ؛ لأن كل أحد من أهل الجنة ومن أهل النار يعرفون هذه الأحوال من أهل الجنة ومن أهل النار، ولما بطل هذا الوجه ثبت أن المراد بقوله ﴿يَعْرِفُونَ كُلا بِسِيمَاهُمْ﴾ هو أنهم كانوا يعرفون فى الدنيا أهل الخير والإيمان والصلاح، وأهل الشر والكفر والفساد. وهم كانوا فى الدنيا شهداء الله على أهل الإيمان والطاعة وعلى أهل الكفر والمعصية، فهو تعالى يجلسهم على الأعراف، وهى الأمكنة العالية الرفيعة ؛ ليكونوا مطلعين على الكل يشهدون على كل أحد بما يليق به، ويعرفون أن أهل الثواب وصلوا إلى الدرجات، وأهل العقاب إلى الدركات.

فإن قيل: هذه الوجوه الثلاثة باطلة ؛ لأنه تعالى قال فى صفة أصحاب الأعراف أنهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ : أى لم يدخلوا الجنة وهم يطمعون فى دخولها، وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء، والملائكة والشهداء.

أجاب الذاهبون إلى هذا الوجه بأن قالوا: لا يبعد أن يقال: إنه تعالى بيّن من صفات أصحاب الأعراف أن دخولهم الجنة يتأخر، والسبب فيه أنه تعالى ميزهم عن أهل الجنة وأهل النار، وأجلسهم على تلك الشرفات العالية والأمكنة المرتفعة ليشاهدوا أحوال أهل الجنة وأحوال أهل النار فيلحقهم السرور العظيم بمشاهدة تلك الأحوال، ثم إذا استقر أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار، فحينئذ ينقلهم الله تعالى إلى أمكنتهم العالية فى الجنة، فثبت أن كونهم غير داخلين فى الجنة لا يمنع من كمال شرفهم وعلو درجتهم. وأما قوله: ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ فالمراد من هذا الطمع اليقين. الا ترى أنه تعالى قال حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وذلك الطمع كان طمع يقين، فكذا ههنا.

فهذا تقرير قول من يقول إن أصحاب الأعراف هم أشراف أهل الجنة.

والقول الثانى: وهو قول من يقول أصحاب الأعراف أقوام يكونون فى الدرجة النازلة من أهل الثواب ، والقائلون بهذا القول ذكروا وجوها :

أحدها : أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلا جرم ما كانوا من أهل الجنة ولا من أهل النار فاوقفهم الله تعالى على هذه الأعراف ؛ لكونها درجة متوسطة =

. . . .

= بين الجنة وبين النار . ثم يدخلهم الله تعالى الجنة بفضله ورحمته وهم آخر قوم يدخلون الجنة، وهذا قول حذيفة ، وابن مسعود رضى الله عنهما واختيار الفراء، وطعن الجبائى والقاضى فى هذا القول. واحتجوا على فساده بوجهين:

الأول: أن قالوا إن قوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يدل على أن كل من دخل الجنة فإنه لابد وأن يكون مستحقا لدخولها، وذلك يمنع من القول بوجود أقوام لا يستحقون الجنة ولا النار، ثم إنهم يدخلون الجنة بمحض التفضل لا بسبب الاستحقاق.

وثانيهما: أن كونهم من أصحاب الأعراف يدل على أنه تعالى ميزهم من جميع أهل القيامة ، بأن أجلسهم على الأماكن العالية المشرفة على أهل الجنة، وأهل النار، وذلك تشريف عظيم، ومثل هذا التشريف لا يليق إلا بالأشراف ، ولا شك أن الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم فدرجتهم قاصرة، فلا يليق بهم ذلك التشريف.

والجواب عن الأول : أنه يحتمل أن يكون قوله : ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ خطاب مع قوم معينين، فلم يلزم أن يكون لكل أهل الجنة كذلك.

والجواب عن الثانى: أنا لا نسلم أنه تعالى أجلسهم على تلك المواضع على سبيل التخصيص بمزيد التشريف والإكرام، وإنما أجلسهم عليها لأنها كالمرتبة المتوسطة بين الجنة والنار، وهل النزاع إلا فى ذلك؟ فثبت أن الحجة التى عوّلوا عليها فى إبطال هذا الوجه ضعيفة.

الوجه الثانى: من الوجوه المذكورة فى تفسير أصحاب الأعراف. قالوا المراد من أصحاب الأعراف : أقوام خرجوا إلى الغزو بغير إذن آبائهم فاستشهدوا ، فحبسوا بين الجنة والنار.

واعلم أن هذا القول داخل فى القول الأول: لأن هؤلاء إنما صاروا من أصحاب الأعراف ؛ لأن معصيتهم ساوت طاعتهم بإجهاد، فهذا أحد الأمور الداخلة تحت الوجه الأول. وبتقدير أن يصح ذلك الوجه. فلا معنى لتخصيص هذه الصورة وقصر لفظ الآية عليها.

والوجه الثالث: قال عبد الله بن الحرث: إنهم مساكين أهل الجنة.

والوجه الرابع : قال قوم : إنهم الفساق من أهل الصلاة يعفو الله عنهم ويسكنهم فى الأعراف. فهذا كله شرح قول من يقول: الأعراف عبارة عن الأمكنة العالية على =

= السور المضروب بين الجنة وبين النار. وأما الذين يقولون الأعراف عبارة عن الرجال الذين يعرفون أهل الجنة وأهل النار؛ فهذا القول أيضا غير بعيد إلا أن هؤلاء الأقوام لابد لهم من مكان عال يشرفون منه على أهل الجنة، وأهل النار. وحينئذ يعود هذا القول إلى القول الأول، فهذه تفاصيل أقوال الناس فى هذا الباب. والله أعلم.

ثم إنه تعالى أخبر أن أصحاب الأعراف يعرفون كلا من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم واختلفوا فى المراد بقوله: ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ على وجوه :

فالقول الأول: وهو قول ابن عباس: أن سيما الرجل المسلم من أهل الجنة بياض وجهه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. وكون وجوههم مسفرة ضاحكة مستبشرة، وكون كل واحد منهم أغرَّ محجلا من آثار الوضوء، وعلامة الكفار سواد وجوههم، وكون وجوههم عليها غبرة ترهقها قترة، وكون عيونهم زرقا.

ولقائل أن يقول: إنهم لما شاهدوا أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار، فأى حاجة إلى أن يستدل على كونهم من أهل الجنة بهذه العلامات؟ لأن هذا يجرى مجرى الاستدلال على ما علم وجوده بالحس، وذلك باطل. وأيضا فهذه الآية تدل على أن أصحاب الأعراف مختصون بهذه المعرفة، ولو حملناه على هذا الوجه لم يبق هذا الاختصاص ؛ لأن هذه الأحوال أمور محسوسة، فلا يختص بمعرفتها شخص دون شخص.

والقول الثانى: فى تفسير هذه الآية أن أصحاب الأعراف كانوا يعرفون المؤمنين فى الدنيا بظهور علامات الإيمان والطاعات عليهم ، ويعرفون الكافرين فى الدنيا أيضا بظهور علامات الكفر والفسق عليهم، فإذا شاهدوا أولئك الأقوام فى محفل القيامة ميزوا البعض عن البعض بتلك العلامات التى شاهدوها عليهم فى الدنيا، وهذا الوجه هو المختار.

أما قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ فالمعنى أنهم إذا نظروا إلى أهل الجنة سلموا على أهلها، وعند هذا تم كلام أهل الأعراف.

ثم قال: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ والمعنى أنه تعالى أخبر أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة، ومع ذلك فهم يطمعون فى دخولها، ثم إن قلنا: إن أصحاب الأعراف =

....

= هم الأشراف من أهل الجنة فقد ذكرنا أنه تعالى إنما أجلسهم على الأعراف وأخَّر إدخالهم الجنة ؛ ليطلعوا على أحوال أهل الجنة والنار، ثم إنه تعالى ينقلهم إلى الدرجات العالية فى الجنة ، كما روى عن النبى ﷺ أنه قال «إن أهل الدرجات العلا ليراهم من تحتهم كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم» (1) ، وتحقيق الكلام أن أصحاب الأعراف هم أشراف أهل القيامة، فعند وقوف أهل القيامة فى الموقف يجلس الله أهل الأعراف فى الأعراف، وهى المواضع العالية الشريفة فإذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نقلهم إلى الدرجات العالية فى الجنة، فهم أبدا لا يجلسون إلا فى الدرجات العالية. وأما إن فسرنا أصحاب الأعراف بأنهم الذين يكونون فى الدرجة النازلة من أهل النجاة قلنا: إنه تعالى يجلسهم فى الأعراف وهم يطمعون من فضل الله وإحسانه أن ينقلهم من تلك المواضع إلى الجنة. وأما قوله تعالى : ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ (٤٧)﴾ [الأعراف]. فقال الواحدى رحمه الله «التلقاء» جهة اللقاء، وهى جهة المقابلة، ولذلك كان ظرفا من ظروف المكان. يقال فلان تلقاءك كما يقال هو حذاءك، وهو فى الأصل مصدر استعمل ظرفا، ثم نقل الواحدى رحمه الله بإسناده عن ثعلب عن الكوفيين والمبرد عن البصريين أنهما قالا: لم يأت من المصادر على تفعال إلا حرفان: تبيان ، وتلقاء، فإذا تركت هذين استوى ذلك القياس، فقلت فى كل مصدر تفعال بفتح التاء، مثل تسيار وترسال. وقلت فى كل اسم تفعال بكسر التاء، مثل تمثال وتقصار، ومعنى الآية: أنه كلما وقعت أبصار أصحاب الأعراف على أهل النار، تضرعوا إلى الله تعالى فى أن لا يجعلهم من زمرتهم. والمقصود =

---

(1) أخرجه أحمد فى المسند [٣/٢٧ ، ٧٣ ، ٩٣] من حديث أبى سعيد الخدرى بلفظ : « إن أهل الدرجات العلا ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع فى أفق من آفاق السماء ، ألا وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما » . وأخرجه أبو يعلى فى مسنده [١١٣٠ ، ١١٧٨ ، ١٢٧٨] وقال حسين سليم أسد : إسناده ضعيف .
وهو فى صحيح البخارى [٣٢٥٦] بلفظ : « إن أهل الجنة يتراؤون أهل الغرف من فوقهم كما يتراؤون الكوكب الدُّرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى والذى نفسى بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين ».

= من جميع هذه الآيات التخويف ؛ حتى يقدم المرء على النظر والاستدلال، ولا يرضى بالتقليد ليفوز بالدين الحق، فيصل بسببه إلى الثواب المذكور في هذه الآيات، ويتخلص عن العقاب المذكور فيها. [التفسير الكبير :١٤/ ٨٧-٩١]

وعن أهل الأعراف يقول العلامة القرطبي : ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي على أعراف السور؛ وهي شرفه. ومنه عرف الفرس وعرف الديك. روى عبد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس أنه قال: الأعراف الشيء المشرف. وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: الأعراف سور له عرف كعرف الديك. والأعراف في اللغة: المكان المشرف، جمع عرف. قال يحيى بن آدم: سألت الكسائي عن واحد الأعراف فسكت، فقلت: حدثنا إسرائيل عن جابر عن مجاهد عن ابن عباس قال: الأعراف سور له عرف كعرف الديك . فقال : نعم والله، واحده يعني، وجماعته أعراف ، يا غلام، هات القرطاس؛ فكتبه. وهذا الكلام خرج مخرج المدح؛ كما قال فيه: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]. وقد تكلم العلماء في أصحاب الأعراف على عشرة أقوال: فقال عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وابن عباس والشعبي والضحاك وابن جبير: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. قال ابن عطية: وفي مسند خيثمة بن سليمان «في آخر الجزء الخامس عشر» حديث عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة [1] دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار». قيل: يا رسول الله، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: أولئك أصحاب الأعراف ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾. وقال مجاهد هم قوم صالحون فقهاء علماء. وقيل: هم الشهداء؛ ذكره المهدوي. وقال القشيري: وقيل هم فضلاء المؤمنين والشهداء، فرغوا من شغل أنفسهم، وتفرغوا لمطالعة حال الناس؛ فإذا رأوا أصحاب النار تعوذوا بالله أن يردوا إلى النار، فإن في=

---

(١) يقول صاحب « الإفصاح »

القمل : معروف ، واحدته قملة . وقمل من باب تعب : كثر قمله وهو قمل .

والصئبان : بيض القمل والبراغيت ، الواحدة صؤابة ، وقد صئب رأسه .

[الإفصاح في فقه اللغة : ٤١٨]

= قدرة الله كل شىء، وخلاف المعلوم مقدور. فإذا رأوا أهل الجنة وهم لم يدخلوها بعدُ يرجون لهم دخولها. وقال شرحبيل بن سعد: هم المستشهدون فى سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم. وذكر الطبرى فى ذلك حديثا عن النبى ﷺ، وأنه تعادل عقوقهم واستشهادهم. وذكر الثعلبى بإسناده عن ابن عباس فى قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾. قال: الأعراف موضع عال على الصراط، عليه العباس وحمزة وعلى بن أبى طالب وجعفر ذو الجناحين، رضى الله عنهم، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه ومبغضيهم بسواد الوجوه. وحكى الزهراوى: أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم، وهم فى كل أمة. واختار هذا القول النحاس، وقال: وهو من أحسن ما قيل فيه؛ فهم على السور بين الجنة والنار. وقال الزجاج: هم قوم أنبياء. وقيل : هم قوم كانت لهم صغائر لم تكفر عنهم بالآلام والمصائب فى الدنيا ، وليست لهم كبائر فيحبسون عن الجنة ؛ لينالهم بذلك غم فيقع فى مقابلة صغائرهم. وتمنى سالم مولى أبى حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف؛ لأن مذهبه أنهم مذنبون. وقيل: هم أولاد الزنى؛ ذكره القشيرى عن ابن عباس. وقيل: هم ملائكة موكلون بهذا السور، يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار ؛ ذكره أبو مجلز . فقيل له: لا يقال للملائكة رجال ؟ فقال: إنهم ذكور وليسوا بإناث ، فلا يبعد إيقاع لفظ الرجال عليهم ، كما أوقع على الجن فى قوله : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِ﴾ [الجن: ٦] فهؤلاء الملائكة يعرفون المؤمنين بعلاماتهم والكفار بعلاماتهم؛ فيبشرون المؤمنين قبل دخولهم الجنة ، وهم لم يدخلوها بعد فيطمعون فيها. وإذا رأوا أهل النار دعوا لأنفسهم بالسلامة من العذاب. قال ابن عطية: واللازم من الآية أن على الأعراف رجالا من أهل الجنة ، يتأخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار فى الفريقين. و﴿يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦] أى بعلاماتهم، وهى بياض الوجوه وحسنها فى أهل الجنة، وسوادها وقبحها فى أهل النار، إلى غير ذلك من معرفة حيز هؤلاء وحيز هؤلاء.

قلت: فوقف عن التعيين لاضطراب الأثر والتفصيل، والله بحقائق الأمور عليم.

ثم قيل : الأعراف جمع عرف وهو كل عال مرتفع ؛ لأنه بظهوره أعرف من =

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب: ٥١] لرسوله أى تؤخِّر من تشاء، و«الإرجاء» هنا معناه : أنهم أحسوا أن المسألة أخطر من أن يُتصرف فيها تصرف سريع ، أى أنها ليست مسألة سهلة، وهذا يدلنا على أن معجزات موسى التى بيّنها أمامهم قد رجّتهم من الداخل، فلو أن المسألة كانت عابرة وبسيطة لقضوا فيها برأى فى دقائق، ولكن المسألة خطيرة ففيها قضاء على ألوهية فرعون، وفى الوقت نفسه فيها معجزات بيّنة تبهر من يراها، ولذلك فالموقف عصيب ومحتاج إلى تمهل وإلى بطء فى اتخاذ القرار حتى لا يضيع كل شىء.

ماذا فعل الملأ من آل فرعون؟ يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ فكأنهم قالوا: إذا كان موسى ساحراً فعندنا السحرة وهم جمع وهو فرد، فلنرسل فى كل البلاد من يحضر أبرع السحرة منها ليواجهوه، وفى هذا القول هدم آخر

= المنخفض. قال ابن عباس : الأعراف شرف الصراط . وقيل : هو جبل أحد يوضع هناك . قال ابن عطية: وذكر الزهراوى حدثنا أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه وإنه يوم القيامة يمثل بين الجنة والنار يحبس عليه أقوام يعرفون كلا بسيماهم هم إن شاء الله من أهل الجنة». وذكر حديثا آخر عن صفوان بن سليم أن النبى ﷺ قال: «إن أحدًا على ركن من أركان الجنة»(١).

قلت: وذكر أبو عمر عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: «أحد جبل يحبنا ونحبه وإنه لعلى ترعة من ترع الجنة» (٢). [تفسير القرطبى :٧/ ٢١١- ٢١٣]

(١) أخرجه أبو يعلى فى مسنده [٧٥١٦] بلفظ : « أحد ركن من أركان الجنة » والطبرانى فى «الكبير [٥٨١٣/٦] وذكره الهيثمى فى المجمع [١٦/٤] وقال : رواه أبو يعلى والطبرانى فى الكبير وفيه عبد الله بن جعفر والد على بن المدينى وهو ضعيف .

(٢) أخرجه ابن ماجة [٣١١٥] بزيادة : « وعيرٌ على ترعةٍ من ترع النار » فى آخره . وضعّفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجة [٦٦٥] .

لقضية الألوهية بالنسبة لفرعون.

الهـــدم الأول: هو التشاور وعدم القدرة على اتخاذ القرار.

والهدم الثانى: هو استعانة فرعون بالسحرة كيف يكون الإله عاجزاً بحيث يستعين بمن يعبدونه لينصروه على عدوه ؟!

إذن فقد انهدم ركنان من أركان ادّعاء فرعون الألوهية من هول الموقف والارتباك، وكون فرعون سيرسل إلى المدن المختلفة فمعنى ذلك أن السحر كان منتشراً وكان هناك فى كل مدينة سحَرة.

هنا يقول المستشرقون وبعض المشككين فى القرآن فى سورة الشعراء ، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧] وفى سورة الأعراف قال الحق عز وجل: ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٢] وفى هذا اختلاف . نقول: إنه فى سورة الأعراف قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ لأن الساحر قد يكون يعمل بالسحر فقط ولكنه ليس عليماً ، ولكن قول الحق تبارك وتعالى فى سورة الشعراء: ﴿سَحَّارٍ﴾ أفادت المبالغة أى أنه ضليع فى السحر تماماً [1]، فعندما أحاول

---

(١) قال الزمخشرى: لقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين وبقى لا يدرى أى طرفيه أطول حتى زلَّ عنه ذكر دعوى الإلهية ، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه وانتفخ سحره خوفا وفرقا ، وبلغت به الاستكانة لقومه الذين هم بزعمه عبيده وهو إلههم أن طفق يؤامرهم ، ويعترف لهم بما حذر منه وتوقعه وأحس به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ قول باهت إذا غلب ومتمحل إذا لزم. ﴿تَأْمُرُونَ﴾ من المؤامرة وهى المشاورة أو من الأمر الذى هو ضد النهى ، جعل العبيد آمرين وربهم مأموراً ؛ لما استولى عليه من فرط الدهش والحيرة و﴿ماذا﴾ منصوب إما لكونه فى معنى المصدر ، وإما لأنه مفعول به من قوله أمرتك الخير. قرئ أرجئه وأرجه بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال : =

أنا إصلاح باب خشبى بقدراتى فيقال لى نجار أنا أم ناجر؟ يقال: ناجر فقط، أما النجار فهو الرجل الذى يعمل بالنجارة ويكون عليماً بها، والمبالغات تأتى إما لضخامة الحدث أو لتكرر الحدث فيقال: فلان آكل، وفلان أكول، وفلان أكّال هذه هى مبالغة فى أنه يأكل مثل أى إنسان عادى، فإذا كان كثير الأكل أى أنه الفرد العادى يأكل فى كل وجبة رغيفاً وهو يأكل أربعة، والناس تأكل ربع دجاجة وهو يأكل دجاجتين أو ثلاثاً يكون الحدث نفسه ضخماً ، ولكن إذا كان يأكل مثل الإنسان العادى فى كل وجبة، ولكنه بدلاً من أن يأكل ثلاث مرات فى اليوم يأكل سبعاً ، أو ثمانى مرات، تكون هنا الضخامة فى تكرار الحدث، ولذلك فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿سَحَّارٍ﴾ باستخدام المبالغة يمكن أن يكون معناه أن سحره قوى جداً يتفوق على غيره، ويمكن أن يكون على أساس أنه يسحر

= أرجأته ، وأرجيته إذا أخَّرته ، ومنه المرجئة وهم الذين لا يقطعون بوعيد الفساق ويقولون هم مرجؤن لأمر الله ، والمعنى أخِّره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل احبسه، ﴿حَاشِرِينَ﴾ شرطا يحشرون السحرة وعارضوا قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ﴾ بقولهم ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ ، فجاؤا بكلمة الإحاطة وصفة المبالغة ؛ ليطامنوا من نفسه ويسكنوا بعض قلقه . [الكشاف :٣/ ١١٣]

وقال الفخر الرازى: قوله: ﴿أَرْجِهْ﴾ قرئ أرجئه وأرجه بالهمز والتخفيف، وهما لغتان: يقال أرجأته وأرجيته إذا أخرته، والمعنى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة، وقيل احبسه وذلك محتمل ؛ لأنك إذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخرته. روى أن فرعون أراد قتله ولم يكن يصل إليه، فقالوا له لا تفعل، فإنك إن قتلته أدخلت على الناس فى أمره شبهة، ولكن أرجئه وأخاه إلى أن تحشر السحرة؛ ليقاوموه فلا يثبت له عليك حجة، ثم أشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون السحرة؛ ظناً منهم بأنهم إذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله ، وعارضوا قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بقولهم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ فجاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ؛ ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه. [التفسير الكبير :٢٤/ ١٣٢]

فى كل حالة فهو كثير السحر، وفى الشعراء يقال «شعار» أى كثير الشعر.

وفى الآية الكريمة التى نحن بصددها قوله تعالى : ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ مادام الحاضرون كثيرين فالآراء بلا شك تختلف، فبعضهم قال نأتى له بساحر عليم، وآخر قال : نأتى بسحار عليم، فمادام القائلون متعددين يختلف القول، ولذلك فإن مجىء الآية مرة بكلمة ﴿سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ومرة بكلمة ﴿سَحَّارٍ﴾ أعطتنا كل اللقطات.

وقوله تعالى : ﴿حَاشِرِينَ﴾ تعنى جامعين. على أن القرآن الكريم لم يستطرد فى ما يستطيع أن يفهمه العقل وهو لا يفترض فى المؤمنين الغباء ولكنه يفترض فيهم الفطنة ؛ لذلك لم يقل: فأرسلوا الجامعين ثم جاء الجامعون بالسحرة؛ لأن هذه أشياء تفهم من السياق وإنما انتقل ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١١٣] .

كما ورد فى سورة النمل حين جاء الهدهد إلى سليمان وأخبره عن قوم «بلقيس»[1] وكيف أنهم يسجدون للشمس من دون الله ، حينئذ قال له

---

(١) يقول ابن الأثير : اختلف العلماء فى اسم آبائها ، فقيل : إنها ، هى بلقمة ابنة ليشرح بن الحارث ابن قيس بن صيفى بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، وقيل : هى بلقمة ابنة هادد ، واسمه : ليشرح بن تبّع ذى الأذعار ، ابن تبّع ذى المنار ، ابن تبّع الرايش ، وقيل فى نسبها غير ذلك لا حاجة إلى ذكره .
وقد اختلف الناس فى التبابعة وتقديم بعضهم على بعض وزيادة فى عددهم ونقصان، اختلافا لا يحصل الناظر فيه على طائل ، وكذا أيضًا اختلفوا فى نسبها اختلافًا كثيرًا، وقال كثير من الرواة : إن أمها جنية ابنة ملك الجن واسمها « رواحة بنت السكر » ، وقيل : اسم أمها يلقمة بنت عمرو بن عمير الجنى ، وإنما نكح أبوها إلى الجن ؛ لأنه قال : ليس فى الإنس لى كفوة . فخطب إلى الجنّ فزوجوه .
[الكامل فى التاريخ : ١/ ٢٣٠-٢٣١]

سليمان عليه السلام : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨] تأتى الآية التى بعدها ، فتقول بلقيس لقومها: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩] أى أن الحق سبحانه وتعالى لم يقص علينا أن الهدهد أطاع أمر سليمان وأخذ الرسالة وذهب بها وألقاها لبلقيس، وأخذتها بلقيس وقرأتها ثم جمعت الناس وأخبرتهم بالأمر ؛ لأن هذه كلها أشياء تفهم من السياق ، ولكن القرآن أتى لنا بصورة بلقيس وهى تستشير الناس.

كذلك فى قصة موسى وفرعون، ففرعون قال لموسى : انتظر، وأرسل الجامعين فجمعوا السحرة، وجاءوا بهم إلى فرعون، وكانت اللقطة الثانية هى عن السحرة وهم موجودون أمام فرعون يطلبون منه الأجر إذا غلبوا، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤)﴾ [الأعراف].

والسحرة حينما جاءوا أمام فرعون انفعل كل واحد منهم وتكلم، ولكن جمع حديثهم جميعاً على اختلافه أمرٌ واحدٌ هو هل سيعطيهم فرعون أجراً إذا غلبوا موسى؟ ، والكلام هنا إما أن يكون بصفة استفهام، أى أنهم استفهموا هل سيأخذون أجراً أم لا ؟ أو بصفة خبرية أى أنهم يريدون أجراً، والقرآن غطى هذه وغطى هذه، فالذين أخذتهم الشجاعة طالبوا بالأجر ، والذين خانتهم الشجاعة جاءوا بها على هيئة استفهام.

ماذا قال فرعون عندما تحدث السحرة عن الأجر؟

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ .

﴿نَعَمْ﴾ : حرف جواب يدل على تقرير ما بعده ، إذا سألك أحدهم: أجاءك زيد؟ تقول: نعم ، أى : نعم جاءنى زيد، فالسحرة يقولون : هل لنا أجر إن كنا نحن الغالبين؟ وقول فرعون ﴿نَعَمْ﴾ معناه:لكم أجر إن كنتم غالبين، هذا إذا كانت الجملة استفهامية، أما إذا كانت خبرية فإنها تحتاج أيضاً إلى جواب ، وبذلك يكون الجواب قد شمل الحالتين ، وقوله: ﴿نَعَمْ﴾ معناها لكم أجر؛ ولذلك جاء ما بعدها معطوفاً بالواو: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أى إن غلبتم سيكون لكم أجر وستكونون من المقربين ، ووعد فرعون لهم بأنهم سيكونون من المقربين دليل على أنه محتاج لهم، محتاج إلى نجدتهم له فى هذا الموقف العصيب، وهكذا نرى أن ألوهية فرعون قد خارت أمام السحرة ، وأصبح يتودد إليهم ويتقرب منهم لينجدوه، على أن قول فرعون ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ دلت على فساد حكم فرعون ؛ لأن المفروض أن يكون كل المحكومين بالنسبة للحاكم سواء ، ولكن أن يكون هذا مقربًا وهذا غير مقرب ، يكون الناس مصنفين عند الحاكم، ومادام الناس مصنفين وليسوا متساوين عند الحاكم يكون فساد الحكم؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا جلس أصحابه حوله يستمعون إليه سوّى بين الناس جميعاً فى النظر ؛ حتى لا يظن إنسان من الصحابة أنه أولى بنظر رسول الله، ولا يدنى أحداً ويقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع أنه مقرب.

حينما اطمأن السحرة إلى الأجر ، واطمأنوا إلى أنهم سيكونون من المقربين، حينما تيقنوا من هذا كله التفتوا إلى موسى ، فقد جاءت لحظة التحدى؛ تلك اللحظة التى إن غلبوا فيها أخذوا مالا وأصبحوا من المقربين. يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] أى أن السحرة بدأوا بالتحدى وأعطوا

موسى الاختيار فى أن يبدأ هو أو يبدأوا هم ؛ وذلك لفرط ثقتهم فى أنفسهم فهم أمهر السحرة، وهم جمع ، وهو واحد، ولكننا نلاحظ أن السحرة حين تكلموا قالوا: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ولكنهم لم يؤكدوا فى خطابهم لموسى كما أكدوها بالنسبة لأنفسهم ، فلم يقولوا: إما أن تلقى أنت وقولهم ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ﴾ [الأعراف: ١١٥] معناها أنهم يريدون أن يبدأ هو ، فكأنهم يريدون أن يكون إلقاؤهم وسحرهم هو الأخير الذى سيبنى عليه الحكم .

وهنا قال موسى عليه السلام: ﴿أَلْقُوا﴾ [الأعراف: ١١٦] لماذا طلب موسى منهم أن يلقوا أولا ؟ ربما لأنه أحس بحماستهم فى أنهم يريدون أن يعرضوا فنون سحرهم فطلب منهم أن يلقوا أولا ، ثم بعد ذلك يلقى هو فيضيع أثر سحرهم على الناس ويكون الباقى فى أذهان المشاهدين هو معجزة موسى، وإما لأن الحق سبحانه وتعالى قد أوحى إليه أن يتركهم يلقون أولا ، ثم يلقى موسى فتتحول عصاه إلى حية وتلقف ما ألقوه.

المهم أن موسى حين طلب منهم أن يبدأوا هم أولا ، ماذا حدث؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿سَحَرُوا﴾ هذا هو الفعل ، وقوله ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ هذا هو الاسم، ومادامت قد جاءت كلمة السحر ، فلابد أن نتعرض لمعناها، الساحر يأتى بأمر تتخيل أنت أنه معجزة خرقت نواميس الكون، والسحر غير الحيلة التى يقوم بها الحواة؛ لأن الحواة يقومون بخفة يد، وخفة حركة ولكن السحر شىء آخر ، ولكى نفهمه لابد أن نعرف أولا أن الحق سبحانه وتعالى خلق كل جنس بقانون، خلق الإنس بقانون، وخلق الجن

بقانون، وخلق الملائكة بقانون ، وكل قانون له خصائصه ومميزاته التى تتناسب مع عنصر تكوينه، فالإنسان لأنه مخلوق من طين له كثافة الطين بمعنى أن الحواجز تمنعه، وقد سبق أن ضربنا مثلا بأنك إن وضعت تفاحة خلف جدار ثم جلست أمامه ، فإنك لا تراها ولا تشم رائحتها، ولا يصل طعمها إلى فمك ، ولكنك لو وضعت جذوة من النار خلف الجدار فإنه من الممكن أن يتعدى أثرها إليك بأن تصل إليك حرارتها، وقد ترى بعض الضوء الصادر عن اللهب، والجن لأنه مخلوق من نار له هذه الخاصية فهو يرانا ولا نراه ،وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[1] [الأعراف: ٢٧].

إذا كان لكل مخلوق قانون فهل «القانون»[2] هو الذى يسيطر؟ لا،

---

(١) قال القرطبى فى تأويل: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾: ﴿قَبِيلُهُ﴾ جنوده. قال مجاهد: يعنى الجن والشياطين. ابن زيد: ﴿قَبِيلُهُ﴾ نسله. وقيل: جيله. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾. قال بعض العلماء: فى هذا دليل على أن الجن لا يرون؛ لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾. وقيل: جائز أن يروا؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يريهم كشف أجسامهم حتى ترى. قال النحاس: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ يدل على أن الجن لا يرون إلا فى وقت نبى؛ ليكون ذلك دلالة على نبوته؛ لأن الله جل وعز خلقهم خلقا لا يرون فيه، وإنما يرون إذا نقلوا عن صورهم.
وذلك من المعجزات التى لا تكون إلا فى وقت الأنبياء صلوات الله عليهم. قال القشيرى: أجرى الله العادة بأن بنى آدم لا يرون الشياطين اليوم.
[تفسير القرطبى :٧/١٨٦]

(٢) «وعن كلمة قانون» يقول المعجم الفلسفى :
قانون : Loi (F) Law (E)
(أ) تلتقى الكلمة العربية مع اللفظ اليونانى (Canon) ، ويدل أساسا على معيار مادى يقاس عليه أو يعمل به ، ثم أطلق على ما يقدر به فكريا أو روحيا . =

الذى يسيطر هو رب القانون ؛ ولذلك فهو قادر أن يخضع المخلوق بالقانون الأعلى لمن هو مخلوق بالقانون الأدنى، فيأتى بإنسى ويسخر له الجن؛ حتى نعرف أن الجن لا يأخذ خفة حركته وسرعتها وخواصه الأخرى من عنصر تكوينه، ولكن من المعنصر، وعندما نزل الملكان هاروت وماروت بالسحر الذى تعلمته الشياطين يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] فكأن السحر فتنة أى ابتلاء، وقوله تعالى : ﴿فَلا تَكْفُرْ﴾ يدل على أن كل من يتعلم السحر ، فإنه يقوده فى النهاية إلى الكفر والعياذ بالله . ولو أنه قال سيستعمل السحر فى الخير فهو كاذب، فقد يستخدمه فى الخير عند صفاء النفس، ولكن إذا لم تصفُ النفس، وجاء إنسان وأثارك، فإنك فى هذه الحالة ستستخدم السحر ضده، ومعنى ذلك أن تكافؤ الفرص قد امتنع. فالذى يحمى العالم ويعطيه الأمن والأمان هو تكافؤ الفرص بين أفراد الجنس الواحد ، فأنا لا أقدم على أن أصفع إنساناً إذا عرفت أنه يستطيع أن يصفعنى ، وحتى إذا كان عاجزاً فقد يكون له ابن أو أخ أو قريب سيأتى ليصفعنى.

فلذلك فإنى ألزم حدّى لأن الفرصة متكافئة بينه وبينى ، والذى يصون العالم الآن من الحروب هو تكافؤ الفرص، فلولا تكافؤ القوة بين القوى

= (ب) بوجه عام قاعدة يعمل بها ويسار عليها . ومصدرها العرف والمجتمع ، أو الشرع وأوامر الله ، وتسمى الأولى « وضعية » والثانية إلهية لأنها عن إرادة الله، أو طبيعة لأنها لا تعارض الطبيعة ، بل تعززها . ولابد للقوانين جميعها أن تكون ملزمة سواء أصدرت عن إرادة الشعب أم فرضها الغالب .

(جـ) بوجه خاص : قاعدة ملزمة تعبر عن الطبيعة المثالية لكائن ما أو لوظيفة ما ، فهى المعيار الذى ينبغى أن يلتزمه الكائن أو الوظيفة لتحقيق وجودهما .

[المعجم الفلسفى : ١٤٤-١٤٥]

العظمى ما امتنعت الحرب، ولو أن أحد الأطراف وصل إلى سلاح يجعله هو الأقوى لقامت الحرب، والله سبحانه وتعالى حين يمنع شيئاً يطلبه الإنسان ، فإنه سبحانه يريد أن يحافظ على ذلك الإنسان الذى يطلب ما يشقيه، فإذا طلبت أن تأخذ قانون تسخير الجن لخدمتك فإن هذا المنع هو الخير لك؛ لأن الإنسان حين يأخذ فرصة أعلى فإنه فى هذه الحالة يستخدمها فى الشر. ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] إذن فمادام السحر يعلمهم ما يفرقون به بين المرء وزوجه، فهم سيستخدمونه فى الشر؛ ولهذا يعطينا الله الطمأنينة بأنه لا شيء يحدث إلا بإذنه، وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - نقول: لو أن الله سبحانه وتعالى أعطى إنساناً مالا فأخذ المال واشترى به مسدساً وتعلم الرماية، الذى يملك المسدس عنده إمكانات أكثر منى أنا الذى لا أملكه ، ساعة يغضب علىّ ربما لو لم يكن معه هذا السلاح كانت مشادة كلامية تكفيه، ولكنه يسرع إلى استخدام سلاحه فى ساعة الغضب ويرتكب جريمة قتل، فكأن منع السلاح الذى أعطى واحدا منا ميزة علينا هو رحمة به ؛ حتى لا يرتكب جريمة قتل، على أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يثبتنا أمام هؤلاء ، فيخبرنا بأنهم لن يضروا بسحرهم أحدا إلا بإذن الله.

والله سبحانه وتعالى لا يعين بعض الناس على بعضهم بالسحر والشر؛ ولذلك احتفظ لنفسه بإذن الضر فلا يضار أحد إلا بإذنه ، وإذا أردت أن تحمى نفسك فقل :

أعوذ بك بما احتفظت به مما أقدرت عليه بحق قولك: ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢] امنع الضر عنى .

وحينئذ لا يصيبك الضر من السحر، ولكنك إذا نسيت الله وذهبت إلى السحرة ، تكون قد استعذت بمن لا يعيذك ودخلت فى دوامة لا تنتهى.

على أننا لابد أن نلاحظ فى قول السحرة لفرعون: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لأَجْراً ﴾ فالسحرة هنا يطلبون أجراً ، وهم بسحرهم يطلبون الأجر ممن لا يعرف السحر ، وهذه سمة من سمات الذين يشتغلون بالسحر ، فهناك من يشتغلون بالسحر ويعرفون أسراره، وهناك المشعوذون الذين لا يعرفون شيئاً عن السحر ، ولكنهم يكذبون على الناس ، وهناك من لا يعرف السحر.. نقول: إن رزق الذين يشتغلون بالسحر ورزق الذين يدّعون السحر هو من أولئك الذين لا يعرفون السحر، ولو أن قدرات هؤلاء السحرة كانت بلا حدود ، لاستطاعوا أن يسرقوا المال من الخزائن مادامو يعرفون مكانها وما فيها، وإذا كان الواحد منهم أميناً لا يريد أن يسرق، فهناك كنوز فى الأرض لا يملكها أحد يستطيع أن يعرف مكانها ويأخذها، ولكن الله قد جعل رزق هؤلاء السحرة ممن لا يعرفون السحر، فأخضع الأعلى للأدنى، ولذلك تجد أن كل من يعمل بالسحر يموت فقيراً ، بشع الهيئة، مصاباً فى ذريته.. لماذا؟ لأن مثل هذا الإنسان قد استغل فرصة لا تتاح لبنى جنسه، واستغلها فى الشر، فيسلط الله عليه ذلك الجنى الذى سخره وينقلب وبالاً عليه، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾[1] [الجن: ٦]

---

(١) قال القرطبى فى تأويل قول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنسِ ﴾ [الجن: ٦] فمن فتح وجعله من قول الجن ردها إلى قوله: ﴿ أَنَّهُ اسْتَمَعَ ﴾ ، ومن كسر جعلها مبتدأ من قول الله تعالى. والمراد به ما كانوا يفعلونه من قول الرجل إذا نزل بواد: أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه؛ فيبيت فى جواره حتى يصبح؛ قاله الحسن وابن زيد وغيرهما. قال مقاتل: كان أول من تعوذ بالجن قوم من أهل اليمن، ثم من بنى حنيفة، ثم فشا ذلك فى العرب، فلما جاء الإسلام عاذوا بالله وتركوهم. وقال=

إذن فموقفنا من السحر أننا لا ننكره ؛ ولذلك فعندما يقول بعض العلماء

= كردم بن أبى السائب: خرجت مع أبى إلى المدينة أول ما ذكر النبى ﷺ، فآوانا المبيت إلى راعى غنم، فلما انتصف الليل جاء الذئب فحمل حملا من الغنم، فقال الراعى: يا عامر الوادى، أنا جارك. فنادى مناد يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتد. وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾. أى زاد الجن الإنس ﴿رَهَقًا﴾. أى خطيئة وإثماً؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة . والرهق : الإثم فى كلام العرب وغشيان المحارم؛ ورجل رهِق إذا كان كذلك؛ ومنه قوله تعالى: ﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم:٤٣]. وقال الأعشى:

لا شىء ينفعنى من دون رؤيتها هل يشتفى وامق ما لم يصب رهقا (١)

يعنى إثما. وأضيفت الزيادة إلى الجن إذ كانوا سبباً لها. وقال مجاهد أيضًا: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أى أن الإنس زادوا الجن طغياناً بهذا التعوذ، حتى قالت الجن: سُدنا الإنس والجن. وقال قتادة أيضا وأبو العالية والربيع وابن زيد : ازداد الإنس بهذا فرقا وخوفا من الجن ، وقال سعيد بن جبير: كفرا. ولا خفاء أن الاستعاذة بالجن دون الاستعاذة بالله كفر وشرك. وقيل: لا يطلق لفظ الرجال على الجن؛ فالمعنى: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون من شر الجن برجال من الإنس، وكان الرجل من الإنس يقول مثلاً: أعوذ بحذيفة بن بدر من جن هذا الوادى. قال القشيرى: وفى هذا تحكم إذ لا يبعد إطلاق لفظ الرجال على الجن.[تفسير القرطبى: ١٩/ ١٠، ١١]

---

(١) الأعشى : هو ميمون بن قيس بن جندل ، من بكر وائل ، من ربيعة كان يُلقب بالأعشى الاكبر ؛ تمييزًا عن سائر « العشو » من الشعراء . وكان معاصرو الأعشى يعجبون بقوة بصيرته على ضعف بصره ، فيكنونه « بأبى بصير » تلطفًا وتفاؤلاً . وللأعشى لقب آخر انتشر بين الرواة انتشاره بين معاصرى الشاعر ، وهو « صناجة العرب » ، لُقّب به لفخامة شعره وجزالته ، ولما كان يُحدثه من الجلبة الموسيقية .

أما البيت فهو من قصيدة له بعنوان « الدرة الزهراء » وهى من بحر « البسيط » ، ويقول فى مطلعها :

نام الخلىُّ وبتُّ الليلَ مُرتَفِقا أرعى النجوم عميدًا مُثبَتًا أرِقا

والوامق : المحب ، الرهق : الوطر ، الغاية .

[ديوان الأعشى : ٥ ، ١٨٨] بتصرف

إن سحرة فرعون قد جاءوا بعصىّ وطلوها بالزئبق، والزئبق حين تصيبه الشمس يتلوى وكذلك حدث بالنسبة للحبال والعصى، نقول لهم لا، وإذا أنكر بعض العلماء أن الجن يمكن أن يتمثل على صور مختلفة، نقول لهم: إن الجن تمثل فى صورة إنسان لرسول الله ﷺ ، وقال رسول الله لقد هممت أن أربطه فى سارية المسجد ليشاهده غلمان المدينة(١).

ومادام الجن سواء كان جنا صالحاً أو من الشياطين لا تدركه أنت ببصرك وأحاسيسك فكيف تنكره، أتنكره لأنك لا تدركه ؟ وجود الشىء مختلف عن إدراك وجوده، وفى الكون أشياء كثيرة موجودة تؤدى مهمتها، ولم يكن الإنسان يدرك وجودها فلما أعطاه الله القدرة لأن يدرك هذا الوجود رآها، وأبسط مثل لذلك الجراثيم، على أننا لابد أن نعرف أن قوانين مخلوقات الله تختلف، وأن الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يبطل القانون، ويسلط صاحب القانون الأدنى على صاحب القانون الأعلى ويسخره له، على أن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ معناه أن العصى والحبال التى ألقاها سحرة فرعون لم تتغير طبيعتها ، ولكن الذى سُحر هو أعين الناس فرأوا غير الحقيقة أمامهم، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ معناه أن هؤلاء السحرة كانوا من عتاة (٢) السحر

---

(١) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة، أو كلمة نحوها ليقطع على الصلاة، فأمكننى الله منه. وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد؛ حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول أخى سليمان ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥].

قال روح فرده خاسئاً . أخرجه البخارى [٤٦١] ومسلم [٣٩/ ٥٤١].

(٢) عتا يعتُو عُتُوًا وعِتِيًا: استكبر وجاوز الحد. والعاتى: الجبار، وجمعه عُتَاةٌ. والعاتى: الشديد الدخول فى الفساد، المتمرِّد الذى لا يقبل موعظة. [لسان العرب : ١٥/ ٢٧]

فى ذلك الوقت، ومن عظيم إتقانهم للسحر كان سحرهم عظيماً.

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ لماذا احتاج إلقاء العصا هنا إلى الوحى من الله سبحانه وتعالى إلى موسى، بينما موسى ألقى عصاه أمام فرعون ، ولم تكن المسألة محتاجة إلى وحى من الله ، نقول: إن هناك فرقاً بين أن يكون الموقف موقفا يضع الرهبة فى قلب الإنسان، أو يكون موقفاً عادياً ، فمثلاً أم موسى عندما طلب منها الله أن تلقى موسى فى البحر كان ذلك وحياً ، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ هنا تحدث فى النفس رهبة وأنت تأمر الأم أن تلقى بابنها فى البحر المليء بالتيارات والأمواج والمليء بالمخاطر، فلو أن أم موسى أرادت أن تنجى ابنها بمقاييس البشر ؛ لأخذته وأخفته أو هربت به بعيداً ، ولكن أن تلقيه فى البحر معناه أنها تدفع به إلى موت محقق ، ولذلك كان لابد أن يأتى هنا الوحى تثبيتاً لأم موسى، فلو لم يأت الوحى لترددت كثيراً فى أن تلقى بابنها فى البحر؛ ولذلك فقد أراد الله أن يثبّت فؤادها حتى تقدم على هذا فقال جل جلاله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] .

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبّت أم موسى فأخبرها بأنه سيردّ موسى إليها، بل أكثر من ذلك بأنه قد اختاره رسولا، وهكذا أعلم الحق سبحانه وتعالى أم موسى بأنه لن يردّ موسى إليها فقط تثبيتاً لفؤادها، ولكن لأن له مهمة ؛ فالله قد اختاره ليكون رسولاً ، على أننا نلاحظ أن مسألة أم موسى هذه تكررت فى موضع آخر من القرآن الكريم ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي

التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ (٣٩)﴾ [طه] نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى لم يقل فى هذه الآية ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص:٧] فلماذا الاختلاف؟ الوحى الأول كان إعدادا للحدث وطمأنةً لفؤاد أم موسى ألا تخاف عليه، أما الوحى الثانى: فكان ساعة الحدث حين وصل جنود فرعون وكان لابد من التنفيذ؛ لذلك نجد اللقطات سريعة، فقوله تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ [طه:٣٨] ولم يقل ما يوحى ، بل قال : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩] أوامر متلاحقة ؛ لأنه لا وقت الآن إلا للتنفيذ، ولأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يحمى ضعيفاً ، وهو موسى الذى مازال طفلاً لا يقدر على الدفاع عن نفسه ضد فرعون وهو جبار فى الأرض ، ولذلك حينما أراد أن يبين لنا هذه المسألة نبهنا ألا نأخذ أوامره بشكل سطحى ، ولكن لابد أن نأخذ الأمر ونتدبر فى «معطياته» [1] .

الحق سبحانه وتعالى فى آية الدين[2]، هناك دائن وهناك مدين، الذى

---

(١) « عن الـ « معطيات » يقول المعجم الفلسفى :

معطيات : Donnees (F.) Data (E.)

هى مجموعة القضايا المسلمة فى علم من العلوم ، أو الوقائع التى تستخلص منها نتائج. [المعجم الفلسفى : ١٨٧]

(٢) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَن

يستدين إنسان محتاج والذى يعطى إنسان قادر.. أيهما يحتاج أن يكون الله فى عونه؟ بالطبع المدين لأنه ضعيف وعاجز؛ لذلك عندما يأمرنا الحق سبحانه وتعالى لا يأمرنا فقط بكتابته، ولكن الذى يكتب هو المدين، فالحق سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] يريد أن يحمى حركة الحياة فى المجتمع ككل ؛ لأنه لو لم يكن الدَين موثّقاً لضاعت حقوق الناس، ولكن عندما يوثق الدَّين يضطر الإنسان للعمل ليسدده ، إذن فقد أفدنا الوجود بطاقة عاملة، وعندما لا يكون الدَين موثقاً ولا يدفع المدين سيرفض الناس إقراض طالب الدين، فيفسد الاقتصاد ... هذه واحدة. والثانية : أن هناك فرقاً بين ساعة الحصول على الدَّين وساعة أدائه، فأنت قد تأتى إلى إنسان وتعطيه ألف جنيه يبقيها أمانة عنده، ثم تأتى لتطالب بالأمانة، والأمانة لا شهود عليها وإنما الأمر كله يرد إلى أمانة المودع عنده المبلغ إن شاء أنكر وإن شاء أقر.

قد يأتى إنسان وتودع عنده أمانة فيرحب بها، ثم بعد ذلك تأتيه ظروف عسر فيمد يده إلى الأمانة على أساس أنه سيردها، ولكنه لا يستطيع أن يؤديها فيضطر أن ينكرها، وحتى يحمى الله سبحانه وتعالى المدين من نفسه أمرنا بأن نكتب الدَّين حتى يعرف المدين أنه لا يستطيع أن ينكر، وحينئذ يضطر إلى أن يعمل ، ولا يسرف حتى يؤدى الدَّين، ولأن الله سبحانه وتعالى مع الضعيف ، الذى هو المدين أمر بأن المدين هو الذى

تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]

يكتب صكّ الدين فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ ﴾ وحتى لا يجور المدين قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ أى ليتذكر أن الله بجانبه فلا يأخذ حق الدائن، فإذا كان المدين سفيها أو ضعيفا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ﴾.

إذن فالله سبحانه وتعالى أوحى إلى أم موسى فى ساعة الرهبة ليطمئن قلبها ؛ حتى تلقى بابنها فى البحر، وأوحى كذلك إلى موسى عليه السلام حين ألقى السحرة عصيّهم وحبالهم ، كان لابد أن الرهبة قد دخلت فى قلب موسى ؛ لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى فى لقطة أخرى يخبرنا بذلك، ففى سورة طه وفى وصف نفس المشهد يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) ﴾ [طه] وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى فى لقطة ثانية من القرآن الكريم قد بيّن لنا كيف أصابت الرهبة قلب موسى وكيف ثبته الله بالوحى وقال له: ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴾ .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٧] ذكر كلمة : ﴿ وَأَوْحَيْنَا ﴾ هنا كان ضرورياً ؛ كى ينبهنا الله أنه قد حدث وحى فعلاً لتثبيت موسى، بينما فى المرة الأولى حين ألقى موسى عصاه أمام فرعون لم يكن بحاجة إلى وحى يثبته.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ «الإفك»: قلب الشيء عن حقيقته ، ومنه الكذب لأن كل شيء كما قلنا له نسبة كلامية، ونسبة واقعية، إذا قلنا محمد مجتهد ، هذه نسبة كلامية ، فإذا كان هناك شخص اسمه محمد وهو مجتهد فعلاً ، تكون النسبة الكلامية قد وافقت النسبة الواقعية ، فيكون الكلام صادقاً ، ولكن إذا لم يكن هناك شخص اسمه محمد ، أو كان هذا الشخص ليس مجتهداً ، خالفت النسبة الكلامية النسبة الواقعية فنسميها كذباً، فإذا زاد الكذب نسميه «إفكا» ، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ «إذا»[1] تدل على الفجائية أى أن الجميع فوجئوا بها وهى تلقف - أى تبتلع - ما يأفكون، أى: كذبهم

(١) يقول الحسن بن قاسم المرادى : « إذا »: لفظ مشترك يكون اسمًا وحرفًا . وتقع «إذا» الفجائية فى مواضع ، منها نحو قولهم : خرجتُ فإذا الأسدُ . وفى هذه الفاء الداخلة عليها ، أقوال تقدّمت فى بابها .

ومنها جواب الشرط ، بأربعة شروط : أولها أن يكون الجواب جملة إسمية . وثانيها أن تكون غير طلبية ؛ احترازًا من نحو : إن عصى زيد فويل له . فهذا تلزمه الفاء . وثالثها : ألا تدخل عليها أداة نفى . ورابعها ألا يدخل عليها « إنّ » . مثال ذلك : ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦] فـ« إذا» ، فى ذلك ، نائبة مناب الفاء ، فى ربط الجواب بالشرط . وليست الفاء مقدرة قبلها ، خلافًا لزاعمه . إذ لو كانت مقدرة لم يمتنع التصريح بها .

وقد جاءت « إذا » الفجائية فى مواضع أخر . فقد جاءت جواب « إذا » الشرطية ، كقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الروم:٤٨].

وقد جاءت بعد « لما » ، كقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧] .

وهو دليل على حرفية « لما» إذ لو كانت ظرفًا لكان جوابها عاملاً فيها ، و« إذا » الفجائية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها .

[الجنى الدانى فى حروف المعانى : ٣٧٥-٣٧٧] بتصرف

وبهتانهم على الناس، ومن خيبة السحرة أنهم حينما ألقوا حبالهم قالوا: بعزة فرعون!! ونسوا أن فرعون قد استعان بهم؛ لأنه لا حول له ولا قوة، وهنا ماذا حدث ؟ ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ [الأعراف :١١٨] يعنى أصبح الحق واقعاً ملموساً ، ومُحى الإفك وكل ما هو غير حقيقة ؛ لأن هناك فرقاً بين الكلام النظرى والواقع، والوقوع عادة يكون من أعلى؛ أى يراه كل إنسان ويعرفه،الله يقول : ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى أنه ثبت بعد أن كان كلاماً نظرياً يحتمل الصدق ويحتمل عدم الصدق، ومادام قد وقع الحق فإنه حدث لصالح موسى عليه السلام وبطل السحر ، الذى كان يحاول أن ينال من موسى ومن رسالته ساعة يقول: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ معناها أن السحرة قد غُلبوا.

ولذلك يقول الحق : ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] أى أن السحرة لم يغلبوا فقط ، ولكن ضاعت قيمتهم وأصبحوا صغار الشأن ، بعد أن جاءوا لينجدوا فرعون، وكانوا يتيهون فخراً ويحسبون أنهم سيغلبون، وفجأة عندما غُلبوا أصبحوا صغارا، ويعطينا الحق سبحانه وتعالى بقية الصورة فيقول: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠ - ١٢٢] لم يقل الله وسجد السحرة، وإنما قال : ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ دليل على أن سجودهم كان انبهاراً مما حدث أمامهم، ومن قوة تأثير المعجزة (١) عليهم سجدوا،

---

(١) يقول صاحب اللسان : معنى الإعجاز الفوت والسبق ، يقال : أعجزنى فلان أى فاتنى ؛ ومنه قول الأعشى :

فذاكَ ولم يعجز من الموت ربه ... ولكن أتاه الموت لا يتأبق (١) =

---

(١) البيت من قصيدة الأعشى ، بعنوان « مدح المحلّق» ، وهى من بحر « الطويل » . =

وكأنما قوة دفعتهم إلى السجود، ذلك أن الإنسان هو أعلم الناس بصنعته ويعلم ما فيها من حقيقة وما فيها من زيف، وحين ألقى السحرة عصيَّهم وحبالهم رآها الناس تسعى كأنها ثعابين وحيات ضخمة؛ لأن أعينهم قد سُحرت ولكن الذين ألقوا - وهم السحرة - لم يروها كذلك بل رأوها حبالاً وعصياً كما هى؛ لأن أعينهم لم تسحر، وحينما ألقى موسى العصا، لم يرها السحرة عصا، بل رأوها حية، فعرفوا أن هذا ليس سحراً، ولكنه معجزة ؛ لأنه لا يستطيع أن يغير طبيعة الأشياء وينقلها من قانون إلى قانون إلا الله سبحانه وتعالى، وإذا كانت العصى والحبال التى حملها السحرة معهم كانت حمل سبعين بعيرًا ، وموسى لم يكن يحمل إلا عصاه فكيف تبتلع هذه العصا حمل سبعين بعيراً ؟ إذن فالمسألة ليست سحراً ولكنها معجزة، والسحرة سجدوا وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون، ولكن هل سجد السحرة بعد أن آمنوا، أم آمنوا بعد أن سجدوا، النص هنا يقول أنهم آمنوا بعد السجود ولكن الترتيب الطبيعى أن الإنسان يؤمن أولاً ثم يسجد، فالإيمان عمل القلب والسجود عمل الجوارح والإنسان يؤمن بقلبه ثم يسجد.

نقول: إن سياق الآية يؤكد لنا أنهم آمنوا قبل أن يسجدوا وأعلنوا إيمانهم بعد أن سجدوا؛ ولذلك لم يقل الحق سبحانه وتعالى: «فسجدوا وآمنوا» بل قال: «إنهم بعد السجود قالوا آمنا»، إذن فهم آمنوا ثم سجدوا، ثم أعلنوا إيمانهم فالإيمان شىء، وإعلان الإيمان شىء آخر، فكأن

= والمعجزة : واحدة معجزات الأنبياء ، عليهم السلام . [لسان العرب : ٥/ ٣٧٠]

= يقول فى مطلعها :

أرقت وما هذا السُّهادُ المورِّقُ ... وما بى من سُقْمٍ وما بى معشَقُ

ويتأبّق : يستتر ، وتتخفى . [ديوان الأعشى : ١٧٧-١٧٩]

السحرة عندما سجدوا سألهم الحاضرون ماذا حدث لكم : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ لذلك فإن الذين يقولون إن الإيمان حدث بعد السجود نقول لهم:لا ، إن الإيمان قد وجد قبل السجود ، ولكن إعلان الإيمان هو الذى حدث بعد السجود، على أن البعض قد يتساءل لماذا قال السحرة ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ولم يكتفوا بقولهم: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقط، ألم يكن هذا يكفى؟ يقول بعض العلماء : إنه حينما قال السحرة: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال فرعون: أنا رب العالمين، وعندما قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ﴾ قال: فرعون أنا الذى ربيته ، فقالوا :﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ ليؤكدوا أنهم كفروا بألوهية فرعون وآمنوا بالله سبحانه وتعالى .

ماذا قال فرعون لما رأى وسمع ذلك ؟ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣] فكأن فرعون رغم كل ما حدث مازال متمسكاً بألوهيته، ولأن مع السحرة عدداً من بنى إسرائيل ، فلم يجد فرعون مخرجاً من هذا المأزق إلا باتهام السحرة بالاتفاق مع موسى؛ لأن صرح ألوهية فرعون الزائفة كاد يهدم تماماً فى تلك اللحظة ؛ لذلك لابد من عملية إنقاذ .

لذلك انتقل فرعون إلى الوعيد فقال : ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤] وهكذا أراد فرعون أن يهدد السحرة بالعذاب الدنيوى ، ولكن الإيمان الذى ملأ قلوب السحرة ، جعلهم يستهينون بتهديدات فرعون؛ لأن فرعون إذا قتلهم فهو يجعل لهم الجزاء الأوفى من الله، ولذلك رد السحرة:﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥] أى أنك لو لم تمتنا هذه الميتة فمصيرنا إلى الله مقطوع به، فنحن ميتون سواء

قصر الأجل أو طال، ثم قالوا لفرعون : ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: ١٢٦] أى ما تكره منا أننا آمنا بآيات الله لما جاءتنا، وهل الإيمان بآيات الله يجيء بالكره ؟ إن هذا ما يسمونه فى اللغة تأكيد المدح بما يشبه الذم، كأن تقول لأى إنسان أتكره فيَّ صدقى وأمانتى ؟ فكأنه يعدد أشياء فى الواقع أنها لا تكره؛ ولذلك فإن مقاييس من كرهها هى المقاييس الخاطئة ، فالإيمان فى الناس لا يكره ولا يعاب ولا يلام عليه.

وبعد أن أنكر السحرة ألوهية فرعون المزعومة وتبرءوا منه، اتجهوا إلى الله ربهم الحقيقى وقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] و«الإفراغ» هو إخراج ما فى إناء إلى إناء آخر ليغمره[1] ، كأنما السحرة يناشدون الله أن يفيض عليهم بالصبر حتى يغمر قلوبهم ، فلا يجعل فيها مكاناً يضعف من عذاب فرعون ،وتقطيعه لأيديهم وأرجلهم وقولهم ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أى: لا تجلعنا نكفر ونعود إلى ملة فرعون، بل اجعل الموت هو السابق فى هذا ؛ ولذلك قال بعض العلماء عن سحرة فرعون: كانوا أول النهار كفرة، وكانوا آخر النهار شهداء بررة.

---

(١) الإفراغ : الصَّبُّ . وفرغ عليه الماء وأفرغه : صبَّه . وفى التنزيل : ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أى : اصْبُب . وقيل : أى أنزل علينا صبرًا يشتمل علينا ، وهو على المثل. يُقال : أفرغت الإناء إفراغًا ، وفرّغته تفريغًا : إذا اقلبْتَ ما فيه .

[لسان العرب : ٨/٤٤٦]

* واتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد *

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧)﴾ [هود: ٩٦، ٩٧] .

وآيات: جمع آية، والآية إذا وردت فى القرآن الكريم تنصرف إلى ثلاثة أشياء: آيات كونية أى عجائب فى الكون نراها وتستمر من بداية الخلق حتى يوم القيامة.

كما فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾(١)

---

(١) قال ابن القيم ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار، وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما فى القرآن ويبدئه؛ كقوله تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧] ، وقوله :﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، وقوله عز وجل : ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، وقوله عز وجل : ﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١] . وهذا كثير فى القرآن.

فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته، كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوى الحيوانات إلى بيوتها، والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعى والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها، جاء فالق الإصباح - سبحانه وتعالى - بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق، وأزالها، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون =

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩] كل هذه الآيات فيها إعجاز الخالق ودقة الخلق، مما يدلنا على أن خالق هذا الكون إله عظيم، كون ملئ بالنعم خلقه الله سبحانه وتعالى لك، وقال: كل، وتمتع، هنيئاً، مريئا، بلا تعب منك، وكان يجب أن نتنبه لآيات الكون ونقول: من الذى خلق ؟ إن الذى صنع مصباح الكهرباء مثلاً ملأ الدنيا ضجيجاً باسمه، فما بالك بالذى خلق الشمس، تضئ الكون ملايين السنين دون أن تتعطل لحظة واحدة، أو تحترق أو تحتاج إلى قطعة غيار! أليس الأولى أن نتنبه إلى من خلق الشمس والقمر والنجوم؟

المعنى الثانى للآيات: هى معجزات يخص الله تبارك وتعالى بها رسله؛ لبيان صدق الرسول فى البلاغ عن الله، عندما يأتى الرسول ويقول: أنا مرسل من الله. فإذا كذّبه الناس، قال هذه آية تدل على صدقى فى البلاغ عن الله.

= فانتشر الحيوان وتصرف فى معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها.

فيا له من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفا منعها عن الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف فى قدرة القادر التام القدرة، ولا قصور فى حكمته، ولا فى علمه يوجب تخلف ذلك، ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء.

وهذا أيضا من آياته الباهرة أن يعمى عن هذه الآيات الواضحات البينات من شاء من خلقه، فلا يهتدى بها ولا يبصرها، كمن هو واقف فى الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء!

وبهذا وأمثاله يُعرف الله عز وجل ويُشكر ويُحمد ويُتضرَّع إليه ويُسأل.

[مفتاح دار السعادة : ٢ / ٣٩ - ٤٠]

المعنى الثالث للآيات: هى آيات القرآن الكريم، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٩٦] نلاحظ أن سلطاناً مبيناً معطوفة على آيات، إذن فهناك آيات تدل على صدق بلاغ موسى عن ربه، وهناك سلطان مبين، والسلطان إما أن يكون سلطان قهر، وإما أن يكون سلطان حجة؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾(1) [النجم: ٢٣] أى أن الله سبحانه وتعالى لم يقهر خلقه على عبادة الأصنام، لا بسلطان القهر، ولا بسلطان الحجة؛ أى أنه ما أقنعهم بالحجة البالغة ليعبدوا هذه الأصنام.

الله تعالى أعطى موسى عليه السلام الآيات، وأعطاه سلطان الحجة؛ ليجادل فرعون أمام قومه ويفحمه؛ لذلك كان موسى شديد الحجة قوى

---

(1) قال ابن كثير: يقول تعالى مقرعا للمشركين فى عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التى بناها خليل الرحمن عليه السلام: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ أى: من تلقاء أنفسكم ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أى: من حجة. [تفسير ابن كثير: ٤/٢٥٣]

وقال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ أى: ما الأوثان أو الأصنام باعتبار ما تدعونه من كونها آلهة إلا أسماء محضة، ليس فيها شىء من معنى الألوهية التى تدعونها؛ لأنها لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل ولا تفهم ولا تضر ولا تنفع، فليست إلا مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، قلد الآخر فيها الأول. وتبع فى ذلك الأبناء الآباء، وفى هذا من التحقير لشأنها ما لا يخفى، كما تقول فى تحقير رجل: ما هو إلا اسم، إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ [يوسف: ٤٠] سميته زيدًا وسميته بزيد، فقوله: ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ صفة لأصنام، والضمير يرجع إلى الأسماء لا إلى الأصنام، أى جعلتموها أسماء لا جعلتم لها أسماء. وقيل: إن قوله: ﴿ هِيَ ﴾ راجع إلى الأسماء الثلاثة المذكورة. والأول أولى: ﴿ مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أى: ما أنزل بها من حجة ولا برهان، قال مقاتل: لم ينزل لنا كتابا لكم فيه حجة كما تقولون إنها آلهة. [فتح القدير: ٥/١٠٩]

البيان واقرأ قول الله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى (٥٢) ﴾ [طه] . أما الآيات التى أرسلها الله مع موسى إلى فرعون تسع آيات وهى : قوله سبحانه: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) ﴾ (١)

---

(١) قال ابن عباس: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ فتحولت حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ففعل. [تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٢٦]

ويروى عن وهب بن مُنبه أنه قال : لما رأى موسى عليه السلام النار انطلق يسير حتى وقف منها قريبا ، فإذا هو بنارٍ عظيمةٍ تفورُ من فرع شجرة خضراء شديدة الخُضْرَة ، لا تزداد النار فيما يُرى إلا عِظَمًا وتضرُّما ، ولا تزداد الشجرة على شدة الحريق إلا خُضْرَةً وحُسنا، فوقف ينظر لا يدرى على ما يضع أمرها ، إلا أنه قد ظن أنها شجرة تحترق ، وأوقد إليها موقد ، فنالها فاحترقت فإنه إنما يمنع النار شدة خضرتها ، وكثرة مائها ، وكثافة ورقها ، وعِظم جذعها فوضع أمرها على هذا ، فوقف وهو يطمع أن يسقط منها شيء يقتبسه ، فلما طال ذلك عليه أهوى إليها بضغثٍ فى يده، وهو يريد أن يقتبس من لهبها ، فلما فعل ذلك موسى مالت نحوه كأنها تريده ، فاستأخر عنها وهاب ، ثم عاد فطاف بها ، فلم تزل تُطمعه ويطمع فيها ، ولم يكن شيء بأوشك من خُمودها ، فاشتد عند ذلك عُجبه ، وفكر موسى فى أمرها ، وقال: هى نارٌ ممتنعة لا يُقتبس منها ، ولكنها تتضرَّم فى جوف شجرة فلا تحرقها ، ثم خمودها على قدر عِظمها فى أوشك من طرفة عين . فلما رأى ذلك موسى قال: إن لهذه النار لشأنا ، ثم وضع أمرها على أنها مأمورة أو مصنوعة ، لا يُدرى مَن أمرها ولا بما أُمرت ولا مَن صنعها ولا لِمَ صُنِعَت ، فوقف مُتحيِّرا لا يدرى أيرجع أم يُقيم ، فبينما هو على ذلك إذ رمى طَرْفَهُ نحو فَرعها ، فإذا هو أشد ما كان خُضرة ، وإذا الخَضْرَة ساطعة فى السماء ينظر إليه يغشى الظلام ، ثم لم تزل الخضرة تنوِّر وتسفر وتبياض حتى صارت نورا ساطعا عمودا بين السماء والأرض ، عليه =

= مثل شُعاع الشمس تكِلُّ دونه الأبصار ، كلما نظر إليه يكاد يخطف بصره ، فعند ذلك اشتد خوفه وحزنه ، فرد يده على عينيه ، ولصق بالأرض ، وسمع الخفق والوجس، إلا أنه يسمع حينئذ شيئا لم يسمع السّامعون بمثله عِظما ، فلما بلغ موسى الكرب ، واشتد عليه الهول ، وكاد أن يُخالط فى عقله فى شدة الخوف لِما يسمع ويرى ، نودى من الشجرة فقيل : « يا موسى » ، فأجاب سريعا وما يدرى من دعاه، وما كان سرعة إجابته إلا استئناسا بالأنس فقال : « لبيك » مرارا « إنى أسمع صوتك وأُوجس وَجْسك ، ولا أرى مكانك ، فأين أنت؟» فقال : « أنا فوقك ، ومعك ، وأمامك ، وأقرب إليك منك » .

فلما سمع هذا موسى عَلِمَ أنه لا ينبغى ذلك إلا لربه جل وعز ، فأيقن به فقال : «كذلك أنت يا إلهى ، فكلامك أسمع أم رسولك ؟ » قال عزَّ وجل : « بل أنا الذى أكَلِّمُكَ فادن منى » . فجمع موسى يديه فى العصا ، ثم تحامل حتى استقل قائما، فرُعِدت فرائصه حتى اختلف ، واضطربت رجلاه وانقطع لسانه وانكسر قلبه ، ولم يبق منه عظم يحمل آخر ، فهو بمنزلة الميت إلا أن روح الحياة تجرى فيه ، ثم زحف على ذلك وهو مرعوب ، حتى وقف قريبا من الشجرة التى نودى منها ، قال له الرب تبارك وتعالى : « إلىَّ ، ما تلك بيمينك يا موسى ؟ » قال : « هى عصاى ». قال : « وما تصنع بها ؟ » ولا أحد أعلم بذلك منه . قال موسى عليه السلام : ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨] . وكان لموسى فى العصا مآرب ، كانت لها شُعبتان ومحجن تحت الشعبتين . قال له الرب تبارك وتعالى : ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ ، فظن موسى أنه يقول ارفضها ، فألقاها على وجه الرفض ، ثم حانت منه نظرة فإذا بأعظم ثعبان نظر إليه الناظرون ، يدب يلتمس كأنه يبتغى شيئا يريد أخذه ، يمر بالصخرة مثل الخلفة [١] من الإبل فيقتلعها ويطعن بأنياب من أنيابه فى أصل الشجرة العظيمة فتجتثها ، عيناه توقدان نارا وقد عاد المحجن عرفا فيه شعر مثل النيازك [٢] ، وعاد الشعبتان فمًا مثل القليب [٣] الواسع، وفيه أضراس وأنياب لهما صريف [٤] ، فلما عاين ذلك موسى ولّى مدبرا=

(١) الخلفة : الحامل من النوق .

(٢) النيازك : جمع نيزك ، وهو الرمح القصير .

(٣) القليب : البئر الذى قُلب .

(٤) الصريف : الصوت والصرير .

. . . .

= ولم يعقّب ، فذهب حتى أمعن ، فرأى أنه قد أعجز الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه ، ثم نودى يا موسى إلىّ ارجع حيث كنت ، فرجع وهو شديد الخوف، فقال : ﴿ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ ﴾ [طه: ٢١] وعلى موسى حينئذ مَدْرعة من صوف قد خلّها بخلال من عيدان ، فلما أمره بأخذها ، ثنى طرف المدرعة على يده ، فقال له ملك : أو رأيت يا موسى لو أذنَ لنا الله عز وجل لما نحاذر ، أكانت المدرعة تُغنى عنك شيئا ؟ قال : « لا ، ولكنى ضعيف ومن ضعف خلقت » . فكشف عن يده ثم وضعها فى فِى الحية حتى سمع حِسّ الأضراس والأنياب ، ثم قَبَضَ فإذا هى عصاهُ التى عَهِدَهَا ، وإذا يدُهُ فى الموضع الذى كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين ، فقال له الله عز وجل : « ادنُ » . فلم يزل يدنيه حتى أسند ظهره بجذع الشجرة ، فاستقر وذهب عنه الرِّعدة وجمع يديه فى العصا ، وخضع برأسه وعنقه ، ثم قال له : « إنى قد أقمتك اليوم مقاما لا ينبغى لبشر بعدك أن يقوم مقامك ، أدنيتك ، وقربتك ، حتى سمعت كلامى ، وكنت بأقرب الأمكنة منّى، فانطلق برسالتى فإنك بعينى وسمعى ، وإن معك يدى ونصرى ، وإنى قد ألبستك جُنّةً من سُلطانى ، تستكمل بها القوة فى أمرى ، فأنت جندٌ عظيمٌ من جنودى ، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى ، بَطِرَ نعمتى وأَمِنَ مكْرى وغرَّته الدنيا عنى ، حتى جَحَدَ حقى ، وأنكر ربوبيتى ، وعبدَ دونى وزعم أنه لا يعرفنى ، وإنى أُقسم بعزتى لولا العذر والحجة [1] اللذان وضعت بينى وبين خلقى ، لبطشت به بطشة جبار يغضب لِغَضبه السموات والأرض والجبال والبحار ، فإن أمرت السماء حصبته ، وإن أمرت الأرض ابتلعته ، وإن أمرت الجبال دمرته ، وإن أمرت البحار غرّقته ، ولكنه هان علىَّ وسقط من عينى ، فوسعه حلمى ، واستغنيت بما عندى ، وحُقَّ لى ، إنى أنا الغنى لا غنىٌّ غيرى ، فبلغه رسالاتى وادعُهُ إلى عبادتى وتوحيدى وإخلاص اسمى ، وذكره بأيامى وحذِّره نقمتى وبأسى ، وأخبره أنه لا يقوم شىء لغضبى ، وقل له فيما بين ذلك قولا لينا ، لعله يتذكر أو يخشى ، وأخبره أنى إلى العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة ، ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ، ليس يطرف ولا ينطق ولا يتنفس إلا بإذنى ، قل له أجب ربك ، فإنه واسع المغفرة، وإنه قد أمهلك أربعمائة سنة ، وفى كلها أنت مبارزٌ لمحاربته تشبَّه وتَمثَّل به ، وتصد عباده عن سبيله ، وهو يمطر=

(١) أي إقامة الحجة على الناس .

= عليك السماء ، وينبت لك الأرض ، لم تسقم ولم تهرم ، ولم تفتقر ولم تغلب ، ولو شاء أن يعجل ذلك لك أو يَسْلبكه فعل ، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم ، وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما محتبسان لجهاده ، فإنى لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت ، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجموعه ، أن الفئة القليلة ـ ولا قليل منى ـ تغلب الفئة الكثيرة بإذنى، ولا يعجبكما زينته ولا ما متّع به، ولا تمدان إلى ذلك أعينكما ، فإنها زهرة الحياة الدنيا وزينة المترفين ، وإنى لو شئت أن أرينكما من الدنيا بزينة ، يعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك وأزويه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى ، وقديما ما خِرْت [1] لهم فى ذلك ، فإنى لأذودهم عن نعيمها ورخائها ، كما يذود الراعى الشفيق إبله عن مراتع الهلكة ، وإنى لأجنبهم سلوتها وعيشها كما يجنب الراعى الشفيق إبله عن مَبَارِكِ الغِرَّة ، وما ذلك لهوانهم علىَّ ؛ ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى ، سالما موفورا لم تَكْلَمْه [2] الدنيا ولم يطفه [3] الهوى ، واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ من الزهد فى الدنيا ، فإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباسٌ يعرفون به من السكينة والخشوع ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، أولئك أوليائى حقا ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلل لهم قلبك ولسانك ، واعلم أنه من أهان لى وليا أو أخافه ، فقد بارزنى بالمحاربة وبادأنى وعرَّض بنفسه ودعانى إليها ، فأنا أسرع شىء إلى نُصرَة أوليائى ، أيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى ، أو يظن الذى يغارينى أن يعجزنى ، أو يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى ؟ وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة ، لا أكل نُصرتهم إلى غيرى . قال : فأقبل موسى عليه السلام إلى فرعون فى مدينة قد جعل حولها الأُسْدُ فى غيضة قد غرسها ، فالأُسدُ فيها مع سُيَّاسِها إذا أشلتها [4] على أحد أكلته ، وللمدينة أربعة أبواب فى الغيضة .

فأقبل موسى عليه السلام من الطريق الأعظم الذى يراه فرعون ، فلما رأته الأُسدُ صاحت صياح الثَّعالب ، فأنكر ذلك السَّاسَة وفرقوا من فرعون ، وأقبل موسى =

---

(١) أى : اخترت .

(٢) لم تكلمه : أى لم تجرحه فتنتقص منه .

(٣) أى لم يذهب بهجته ، وهى من الإطفاء .

(٤) أشلتها : أى أغرتها وأطلقتها .

هاتان آيتان من الآيات التى جاء بها موسى لفرعون، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿بِالسِّنِينَ﴾ يعنى الجدب ، أى: لا تنبت الأرض شيئاً أخضر. ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾. إذن ليس هو الجدب، ولكن أن يكبر الشجر ولا يثمر.

هذه أربع آيات :

العصا تحولت إلى ثعبان .

واليد بيضاء للناظرين .

والسنين ؛ ونقص من الثمرات.

= حتى انتهى إلى الباب الذى فيه فرعون ، فقرعه بعصاه وعليه جُبَّةُ صوفٍ وسراويل ، فلما رآه البوّابُ عَجِبَ من جرأته فتركه ولم يأذن له ، وقال : هل تدرى باب من أنت تضرب إنما تضرب باب سيدك ، قال : أنا وأنت وفرعون عبيد لربى تبارك وتعالى ، فأنا ناصره، فأعلمه البواب السابق فأخبر البواب الذى يليله والبوابين ، حتى بلغ ذلك أدناهم ودونه سبعون حاجبا ، كل حاجب منهم تحت يديه من الجنود ما شاء الله كأعظم أمير اليوم إمارةً ، حتى خلص الخبر إلى فرعون فقال : أدخلوه علىَّ فأُدخل، فلما أتاه قال له فرعون : أعرِفُك ؟ قال : نعم قال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] فردَّ عليه موسى الذى ذكر الله عز وجل ، قال فرعون : خذوه فبادأهم موسى فألقى عصاه فإذا هى ثعبانٌ مبين ، فحملت على الناس فانهزموا منها، فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضا ،، وقام فرعون منهزما حتى دخل البيت ، فقال لموسى : اجعل بيننا وبينك أجلا ننظر فيه ، فقال له موسى : لم أؤمر بذلك ، وإنما أُمِرت بمناجزتك ، وإن أنت لم تخرج إلىَّ دخلت إليك ، فأوحى الله عز وجل إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلا ، وقل له أن يجعله هو ثَمَّ ، قال فرعون : اجعله لى أربعين يوما ، ففعل ، وكان فرعون لا يأتى الخلاء إلا فى أربعين يوما مرة ، فاختلف ذلك اليوم أربعين مرة ، قال : وخرج موسى عليه السلام من المدينة ، فلما مرَّ بالأُسدِ ، مصعت بأذنابها وسارت مع موسى تشيِّعه ولا تَهِيجهُ ولا أحدًا من بنى إسرائيل. أخرجه أحمد فى الزهد [٣٤١]

إذن بقيت خمس آيات هى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] هذه هى الآيات التسع التى أرسل الله سبحانه وتعالى موسى بها إلى فرعون.

وليس معنى ذلك أن هذه الآيات هى كل الآيات التى أيّد الله جل جلاله بها موسى عليه السلام ، إنما هذه الآيات التسع خاصة بفرعون، ولكن هناك آيات أخرى كثيرة خاصة ببنى إسرائيل ، منها انشقاق البحر ، ورفع الجبل، وتفجر الماء من الأحجار ، وغير ذلك.

ولكن موسى جاء فرعون بالآيات التى تهدم حجته وطغيانه فى ادعائه الألوهية، كما قال تعالى: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٩٦] أى وسلطان محيط لا يجعل للخصم وسيلة أن تتغلب عليه بالحجة.

وكلمة سلطان هذه سترد يوم القيامة على لسان إبليس حينما يقول كما يقص علينا القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾(١) وهكذا يتبرأ الشيطان يوم القيامة من إغوائه للإنسان ويقول له: ما كان لى عليك من سلطان ، لاسلطان القهر ، ولاسلطان الحجة، ولكنك أنت الذى كنت

---

(١) قال ابن كثير: يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات ؛ وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذ خطيبا ؛ ليزيدهم حزنا على حزنهم، وغبنا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ أى : على ألسنة رسله، ووعدكم فى اتباعه النجاة والسلامة، وكان وعدا حقا وخبرا صدقا، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ أى : ما كان لى دليل فيما دعوتكم إليه، ولا حجة فيما وعدتكم به. [تفسير ابن كثير : ٢ / ٥١٠]

تريد المعصية.

والسلطان المبين أى المحيط بكل شئ ، المؤيد بالحجة لأن موسى مرسل إلى فرعون الذى ادعى الألوهية ، وإلى قوم أطاعوه وأعانوه على ذلك: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ [هود: ٩٧] أى سمعوا ونفذوا ما قاله فرعون.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧] معنى «رشيد» أى: ذو رشد، والرشد يقابله الغباء، مثل الهدى يقابل الضلال، فأمر فرعون لا يوجد فيه رشد ولا هدى، والملأ يتبعون أمر فرعون دون تفكير؛ لأنهم لو شغلوا عقولهم بالبحث ما كانوا اتبعوا فرعون.

* ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى *

ثم يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾(١) آيات ربنا لا تحصى ولا تعد، فهل ربنا أرى فرعون كل آياته؟ لا، ربما المقصود الآيات الإضافية التى بعث الله بها موسى إلى فرعون، وهى الآيات التسع التى أشار إليها قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠١]، وأولها العصا التى تنقلب حية، ويده التى يدخلها فى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء، وبعد ذلك الآيات الأخرى مثل الجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطوفان.

كل هذه الآيات، والآيات هى الأشياء العجيبة، ولذلك يقولون: فلان آية فى الذكاء. أى أن ذكاءه عجيب. وفلان آية فى الخلق، وفلان آية فى الكرم وهكذا، فكلمة « آية » معناها شئ عجيب فى بابه.

---

(١) قال الزمخشرى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ [طه:٥٦] أى : بصَّرناه أو عرَّفناه صحتها ويقَّناه بها، وإنما كذب لظلمه. وفى قوله تعالى: ﴿ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ وجهان: الأول : أنها الآيات المعلومة التى هى تسع الآيات المختصة بموسى عليه السلام وهى العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل.

والثانى : أن يكون موسى قد أراه آياته، وعدد عليه ما أوتيه غيره من الأنبياء من آياتهم ومعجزاتهم، وهو نبى صادق، لا فرق بين ما يخبر عنه وبين ما يشاهد به، فكذَّبها جميعا وأبى أن يقبل شيئا منها.

[الكشاف : ٢/ ٤٣٧] بتصرف

وقلنا سابقًا إن الآيات ثلاثة أقسام: آيات كونية فى الوجود، وآيات جاءت لإثبات الصدق للرسل، وهى المعجزات، وآيات جاءت لتحمل الأحكام للمكلفين.

فآيات الكون مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] ومثل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[1] [الحج: ٥] ،كل هذه تسمى آيات كونية، وهناك آيات جاءت لإثبات صدق الرسل، وهى المعجزات التى تثبت صدق بلاغ الرسول عند ربه، مثل عصا موسى، وناقة صالح، وإحياء الموتى لعيسى، وغير ذلك. كما أنه سبحانه حين ينزل الأحكام التى يرسل بها الرسل، ينزلها فى آيات تحمل المنهج الذى يقومون بإبلاغه للناس، فربنا أرى فرعون آيات كثيرة، ولكنه كذب وأبى أن يستجيب. والكذب هو قول لا واقع له، والصدق قول له واقع، فإذا قال لك أحد أنا قابلت فلانًا بالأمس، فإن كان هذا الواقع صحيحًا يكون هذا الشخص صادقًا، وإن كان هذا الكلام لم يحدث فهو كاذب.

إذن فرعون كذّب موسى وهارون، واعتبر قولهما كذبًا لا واقع له، وهذه علة أنه أبى، وحين نناقش فرعون فى موقفه نجد أنه كذب أشياء حقيقية لا يستطيع أن يدعيها هو ولا غيره، فقول موسى له: ﴿رَبُّنَا الَّذِي

---

(١) ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ ، قال ابن القيم : فانظر إليها وهى ميتة هامدة خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت، وربت فارتفعت، واخضرّت وأنبتت من كل زوج بهيج، فأخرجت عجائب النبات فى المنظر والمخبر، بهيج للناظرين، كريم للمتناولين، فأخرجت الأقوات على اختلافها، وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها، والفواكه والثمار، وأنواع الأدوية، ومراعى الدواب والطير. [مفتاح دار السعادة : ٢/ ٣٢]

﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] هذا حق، ففرعون لم يدع أنه خلق، ولم يدع أحد غيره أنه خلق، فإذا جاء الحق سبحانه وقال : أنا الذى خلقت السماء والأرض، والشمس والقمر، والنجوم والبحار، والأنهار، والإنسان، والحيوان، والطير، وغير ذلك، وبعد هذا لم يجئ أحد آخر ليدعى هذا الخلق لنفسه، هنا القضية تثبت له سبحانه، إلى أن يوجد مدع، ولم يوجد مدع يقول أنا الذى خلقت هذا الكون، حتى فرعون نفسه الذى ادعى الألوهية لم يستطع أن يدعى أنه خَلَقَ.

قال تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾(1) [طه: ٥٥] تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الخلق الأول؛ لأن آدم خلق من الطين مباشرة، ولكن ذريته جاءت بقانون التناسل، وقانون التناسل يحتاج إلى حيوان منوى لذكر ولأنثى، وهما يأتيان نتيجة تناول الطعام الذى تخرجه لنا الأرض وهذا يصدق قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ ، وبعد ذلك الحق سبحانه وتعالى يترك للعقول أن تبحث فى الكون ؛ لتثبت صدق قضية غيبية، هذه القضية الغيبية حين يخبرنا الحق سبحانه وتعالى بها، يخبرنا بأنه الخالق الذى خلق ، فتأتى العقول البشرية لتنظر فى الكون فتعطينا من أدلة الكون صدق القضية الأصلية، فعندما حللوا مادة جسم الإنسان وجدوها تتكون من ستة عشر عنصرًا من نفس عناصر الأرض (2) .

---

(1) قال ابن كثير : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أى من الأرض مبدؤكم فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. [تفسير ابن كثير : ٣/ ١٥٢]

(2) لما كانت هذه قضية معملية علمية ، وأن هذه الأبحاث يتم تغييرها باستمرار وفقا لنتائج ودراسات المختصين ، وكشف الله للعلماء ما شاء له سبحانه أن يكشفه ، =

. . . .

= اتصلت بالصديق الأستاذ الدكتور إبراهيم خليل ، أستاذ التحاليل الطبية بجامعة عين شمس ، وسألته عن آخر تحاليل عناصر جسم الإنسان . فأجاب سيادته بالتالى :

١ – عناصر تقاس بالمللى المكافئ فى اللتر :

- ☐ صوديوم : ١٣٥ - ١٤٨
- ☐ كلوريد : ٩٨ ـ ١٠٩
- ☐ ماغنسيوم : ٤,٤ ـ ٦
- ☐ بوتاسيوم : ٣,٦ ـ ٥,٥

٢ – عناصر تقاس بالمليجرام فى المائة :

- ☐ كالسيوم : ٩,٥ - ١٠,٥
- ☐ فوسفور غير عضوى : ٢,٥ - ٤,٨
- ☐ كبريت غير عضوى : ١,٤ - ٣,٦
- ☐ بروميد : أقل من ٥

٣ – عناصر تقاس بالميكروجرام فى المائة :

- ☐ حديد : ٦٥ - ١٧٥
- ☐ سيانيد : ٠,٤ - ٠,٦
- ☐ زنك : ٥٠ - ١٥٠
- ☐ كادميوم : ٠,١ - ٠,٥
- ☐ نحاس : ٧٠ - ١٤٠
- ☐ سيزيوم : ٠,١
- ☐ رصاص : ٣٠ - ٤٠
- ☐ كوبالت : ٠,٢
- ☐ زرنيخ : ٠,٢ - ٦,٢
- ☐ نيكل : ٠,١١ - ٠,٤٦
- ☐ يود : ٤ - ٨
- ☐ فضه : ٠,٢١
- ☐ سيلينيوم : ١٠ - ٣٤
- ☐ زئبق : أقل من ٠,٥
- ☐ ذهب : أقل من ١٠
- ☐ انتيمونى : ٠,٠٥
- ☐ فلوريد : ٠,١ - ٢
- ☐ كروم : ٠,٠٧
- ☐ بيزوموس : أقل من ١
- ☐ موليبدنم : ٠,٠٦
- ☐ منجنيز : ٠,٤ - ١,٤
- ☐ بروم : أقل من ٠,٠٣

☐ عنصر الكربون الذى يدخل فى مركبات كثيرة داخل الجسم ، مثل: السكريات والدهنيات والبروتينات ، فهو لا يقاس بالدم ككربون ، وإنما يقاس بقياس المركبات التى يحتويها .

☐ النيتروجين غاز يكوّن ٨٠٪ تقريبا من مجموع غازات غلاف الكرة الأرضية. وهو=

إذن ربنا سبحانه حين أخبرنا أنه خلقنا من الأرض، جاء الدليل العلمى التحليلى الذى يثبت صدق هذه القضية، وصَدَقَ الله حين قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ هذه قضية مسلمة نراها

= يوجد ببروتينات الدم وبالأحماض الأمينية كعامل أساسى ، أما كمية النيتروجين غير العضوى فهى من ٢٨ - ٤٠ ملليجرام فى المائة .

- أما الغازات الأخرى مثل: الأوكسجين والهيدروجين وثانى أكسيد الكربون، فهى توجد بصفة أساسية داخل جسم الإنسان . . فالماء مثلا = أوكسجين + هيدروجين.
- يتضح أن هناك ما لا يقل عن ٣١ عنصرًا داخل جسم الإنسان، وهى العناصر الموجودة أعلاه وعددها ٣٠، بالإضافة إلى الكربون الذى لا يقاس بالدم .
- كل الأرقام السابقة = تركيز العنصر بالدم إما فى اللتر ، أو فى كل ١٠٠ سم دم
- جميع العناصر السابقة = حوالى ٢ كيلوجرام من وزن الإنسان الذى يزن ٧٠كجم.
- الماء = ٣٠ - ٣٢ كيلوجرام من وزن الإنسان الذى يزن ٧٠ كجم .

وقال سيادته :

- لو أردنا شراء هذه العناصر من السوق ، فإنها تساوى حوالى ١٠ جنيهات على أكثر تقدير ، بالإضافة إلى ثمن الماء .
- مفردات جميع جسم الإنسان من بروتينات + دهنيات + سكريات + فيتامينات + ماء + عناصر بسعر السوق حاليا = ٥٠ - ٧٠ جنيه

والعلماء يعرفون جميع هذه المفردات جيدا . ولكنهم حتى الآن لم يستطيعوا إنتاج خلية حية واحدة !! أ.هـ .

وأقول : لما كان سماحة الشيخ الإمام قد ذكر أن عناصر جسم الإنسان تتكون من ستة عشر عنصراً ، كان ذلك فى وقت أن تحدث فيه فضيلته ، وقبل أن يتم اكتشاف بقية العناصر ، كما نؤكد أن هذه العناصر ليست هى كل عناصر جسم الإنسان ، وذلك حسب قول الدكتور إبراهيم خليل الذى أفاد بأن التحاليل المعملية تثبت إضافات جديدة ، وعناصر جديدة ، وصدق الله إذ يقول : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ . المهم أن ما نريد أن نخرج به من هذا التعليق : إن كل عناصر جسم الإنسان موجودة فى التربة ـ الأم الأصلية لهذا الإنسان ـ حسب آخر تحاليل وصلتنا حتى تاريخه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

بأعيننا كل يوم، فأى واحد يموت يدفن فى الأرض؛ لأنها أمه التى من أصلها خُلق ، فأم الإنسان التى ولدته مهما كانت تحبه، لا تستطيع أن تحتفظ به بعد موته، ولا تطيق أن تراه يصير إلى تعفن، لكن أمه الأصلية ،وهى الأرض، هى التى تحتضنه وتمتص منه كل هذا الأذى، وذلك قول الحق سبحانه: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ونحن قلنا سابقاً إن الله تعالى حينما تحدث عن الخلق الأول، أخبرنا أنه خلق كل دابة من ماء وأنه خلقنا من تراب، ثم من طين، ثم من حمأٍ مسنون، ثم من صلصال كالفخار، هذه كلها أطوار للمادة، فالماء يوضع على التراب فيصير طينا، فإذا تركناه يتعفن قليلاً يصبح حمأ مسنوناً، فإذا تركناه يجف يصير كالصلصال، وبعد ذلك تنفخ فيه الروح فيتحرك وتدب فيه الحياة، وهذا ما حدث فى خلق آدم، وحين يجىء الموت وهو هدم الحياة أو نقضها، ونقض كل شىء يأتى على عكس وجوده، فإذا بنيت عمارة تضع الأساس، ثم تبنى الدور الأرضى، فالثانى، فالثالث، فالرابع، حتى الدور الأخير؛ حسب ارتفاع العمارة، ولكن حين تهدمها تبدأ بالدور الأخير فالذى بُنى أخيرًا يهدم أولا .

فربنا خلق الإنسان من طين وصلصال وحمأٍ مسنون،[1] ثم نفخ فيه الروح، فآخر شىء دخل الجسم عند بداية الخلق هو الروح، وحينما أراد

---

(١) قال الشوكانى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٦] المراد بالإنسان فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ ﴾ هو : آدم لأنه أصل هذا النوع والصلصال ، قال أبو عبيدة : هو الطين المخلوط بالرمل الذى يتصلصل إذا حرك، فإذا طبخ فى النار فهو الفخار. وهذا قول أكثر المفسرين. وقال الكسائى : هو الطين المنتن، والحمأ : الطين الأسود المتغير، أو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير. والمسنون : المصبوب. وقال الأخفش: المنصوب القائم.

[فتح القدير : ٣/ ١٣١]

أن ينقض الحياة بالموت فأول شيء خرج من الجسم هو الروح، وبعد ذلك الجسم يتصلب أو يتخشب مثل الصلصال، ثم يرم ويصبح منتن الرائحة مثل الحمأ المسنون، وبعد ذلك يتحلل فيتبخر الماء ويتحول الجسم إلى تراب، وبذلك يكون الجسم قد نقض على عكس بنائه؛ إذن هناك دليل تحليلى على صدق القضية ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [طه: ٥٥] ، وهناك دليل الموت لأننا نشاهده، ولكن القضية ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ الخاصة بالبعث فلها نظام مختلف؛ ففى أول الخلقة كان التراب والماء والطين والصلصال والحمأ المسنون، لكن فى الإخراج الثانى (البعث): الروح هى التى تذهب إلى الأشياء وتجعلها تخرج إلى الحياة مرة أخرى، هنا قول الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ، كل هذا الكلام جاء فى قضايا كونية؛ ليصب فى أذن فرعون حتى يثنيه عما هو فيه من ادعاء الألوهية ، والتكبر على خلق الله، مع أنه لم يخلق ولم يرزق، ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه المرض أو الموت.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (1) [القصص: ٣٨]

---

(١) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أى: قال فرعون لأشراف قومه وسادتهم: ما علمت لكم إلهاً غيرى، قال ابن عباس: كان بين هذه القولة الفاجرة وبين قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ أربعون سنة (1)، وكذب عدو الله، بل علم أن له رباً هو خالقه وخالق قومه.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ أى: فاطبخ لى يا هامان الآجر، فاجعل لى منه قصراً شامخاً رفيعاً ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ أى: لعلى أرى =

---

(١) قال الفخر الرازى: ذكر المفسرون فى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ﴾ [النازعات: ٢٥] وجوهاً:

أحدها: أن ﴿الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ﴾ صفة لكلمتى فرعون، إحداهما قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ والأخرى قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾، قالوا: وكان بينهما أربعون سنة، وهذا قول مجاهد، والشعبى، وسعيد بن جبير، ومقاتل، ورواية عطاء، والكلبى عن ابن عباس، والمقصود: التنبيه على أنه ما أخذه بكلمته الأولى فى الحال، بل أمهله أربعين سنة، فلما ذكر الثانية أخذ بهما، وهذا تنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل.

الثانى: وهو قول الحسن وقتادة ﴿نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ﴾ أى: عذبه فى الآخرة، وأغرقه فى الدنيا.

الثالث: الآخرة هى قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ والأولى: هى تكذيبه موسى حين أراه الآية، قال القفال: وهذا كأنه هو الأظهر. [التفسير الكبير: ٣١/٤٣]

كأن فرعون بعد أن سمع كلام موسى، أراد أن يبيّن لقومه أن هذا الكلام لم يؤثر فيه، وخشى أن يكون كلام موسى وهارون قد أثّر فى عقول قومه، فأراد أن يلبس على هذه العقول مرة أخرى، فقال: إن هذا الكلام غير صحيح، وأنه مازال إلـهًا ، ومازال هامان هو الآخر يمالؤه، حتى إنه يقول له: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨] فيأمر هامان بأن يبنى له صرحاً عاليا؛ ليصعد عليه حتى ينظر إلى الإله الذى يدعيه موسى.

وحتى نعرف أن هذا الكلام من فرعون كله عبث، ومحاولة لكسب الوقت، نجد أن هامان لم يقم ببناء الصرح، ولو كان فرعون جادا فى طلبه لما أمر بصناعة الطوب التى تستغرق وقتا ، ولبنى من أحجار الجرانيت التى بنوا منها الأهرام ، وصنعوا منها التماثيل، وغير ذلك؛ ولكن فرعون أراد أن يطيل أمد الموضوع ؛ لأنه سيستغرق وقتا طويلاً فى إحضار التراب.. وخلطه بالماء والتبن، لعمل « المعجنة » .. ثم صناعة قوالب الطوب، ووضعها فى الشمس حتى تجف، ثم بنائها فى « قمينة » وإحراقها بعد ذلك... إلخ. مما يدل على أن كل هذه العملية كانت مناورة من فرعون؛ لكسب الوقت أمام تشكك الناس فى ادّعائه للألوهية ، ومع أن فرعون تظاهر أمام الناس بأنه سيبنى صرحاً ليصعد عليه، وينظر إلى إله موسى.. حتى يتحقق من مدى صدق كلامه، فكان عليه أن ينتظر حتى يستجلى الأمر، ولا يصدر حكمه مقدماً، ولكنه لم يلتزم بذلك، واتهم موسى بالكذب ، فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨] وذلك حتى

= وأشاهد إله موسى الذى زعم أنه أرسله.

قال ذلك على سبيل التهكم ولهذا قال بعده : ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أى: وإنى لأظن موسى كاذباً فى ادعائه أن فى السماء رباً. [صفوة التفاسير : ٣/ ٤٣٤]

يخدّر مشاعر الملأ ، والقوم الذين شهدوا هذا الموقف.

وقوله تعالى : ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩] معنى ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ أى تكبر بغير مبرارت الكبر، فكأن مبررات الكبر ليست فيه ؛ لأن من مبررات الكبر أن تدعى العظمة، بشرط أن تكون هذه العظمة ذاتية فيك ، لكن العظمة المخلوقة لك من الغير ، فهى لا تصلح لأن تتكبر بها؛ ولذلك ربنا سبحانه وتعالى يبغض المتكبرين ؛ لأنهم يتكبرون بأشياء ليست فيهم ، ولكنها موهوبة لهم من الله ، فأنت إن تكبرت بغناك قد يصيبك الفقر فى أى وقت، وإن تكبرت بقوتك قد تمرض وتضعف فى أى وقت، وإن تكبرت بجاهك وسلطانك فهذا الأمر غير دائم لك، وقد يزول فى أى وقت.

إذن الذى يريد أن يستكبر بحق، عليه أن يتكبر بأمر ذاتى فيه، والإنسان ليس عنده أى شىء يستحق أن يتكبر به ؛ لأن نعمه كلها موهوبة من الله سبحانه وتعالى [1].

---

(١) قال ابن قدامة: قال الله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]

وفى الحديث الصحيح من إفراد مسلم، عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» [1].

وفى الصحيحين عنه ﷺ قال: «قالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين » [2].

وعنه ﷺ أنه قال: «يُحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صورة الذر، يطؤهم الناس لهوانهم على الله عز وجل» [3]. =

---

(١) أخرجه مسلم [١٤٧/٩١] .

(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى [٤٨٥٠] ، ومسلم [٢٨٤٦/٣٦] .

(٣) ذكره العراقى فى تخريج أحاديث إحياء علوم الدين [٣١٨٠] وقال: رواه البزار هكذا مختصراً دون قوله : «الجبارون» وإسناده حسن. وعند الترمذى : عن عمرو بن شعيب ، =

. . . .

= وقال سفيان بن عيينة رحمه الله: من كانت معصيته فى شهوة، فارج له التوبة، فإن آدم عليه السلام عصى مشتهياً فغفر له، فإذا كانت معصيته من كبر، فاخش عليه اللعنة، فإن إبليس عصى مستكبراً فلعن.

وفى «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «من جر ثوبه خيلاء، لم ينظر الله إليه يوم القيامة، فقال أبوبكر: يا رسول الله إن أحد شقى إزارى ليسترخى، إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « لست ممن يصنعه خيلاء» (1).

واعلم: أن الكبر خلق باطن تصدر عنه أعمال هى ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه، يعنى يرى نفسه فوق الغير فى صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً. وبهذا ينفصل عن العجب، فإن العجب لا يستدعى غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده تصور أن يكون معجباً، ولا يتصور أن يكون متكبراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه، فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حقر من دونه وازدراه، وصفة هذا المتكبر، أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير، استجهالاً واستحقاراً.

وآفة الكبر عظيمة، وفيه يهلك الخواص، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء.

وكيف لا تعظم آفته، وقد أخبر النبى ﷺ: «أنه لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر» (2).

وإنما صار حجاباً دون الجنة؛ لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين؛ لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم. فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

ومن شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له. =

= عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان فيساقون إلى سجن فى جهنم يسمى: بولس تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال». أخرجه الترمذى [٢٤٩٢] وقال: حديث حسن صحيح، وحسّنه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٠٢٥].

(1) أخرجه البخارى [٣٦٦٥، ٥٧٨٣، ٥٧٩١، ٦٠٦٢] واللفظ له، ومسلم [٢٠٨٥] مختصراً.

(2) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

= وقد تحصل المعرفة للمتكبر، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧] ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وآيات كثيرة نحو هذا، وهذا تكبر على الله وعلى رسوله.

وقد تقدم أن التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام النفس عليهم، وذلك أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع عن امتثال أمر ربه فى السجود له.

وقد شرح رسول الله ﷺ الكبر فقال: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1]. ومعنى غمط الناس: الازدراء بهم، واستحقارهم. ويروى: غمص الناس بمعنى غمط الناس.

واعلم: أن العلماء والعباد فى آفة الكبر على ثلاث درجات:

الأولى: أن يكون الكبر مستقراً فى قلب الإنسان منهم، فهو يرى نفسه خيراً من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع، فهذا فى قلبه شجرة الكبر مغروسة، إلا أنه قد قطع أغصانها.

الثانية: أن يظهر لك بأفعاله من الترفع فى المجالس، والتقدم على الأقران، والإنكار على من يقصر فى حقه، فترى العالم يُصعِّر[2] خده للناس، كأنه معرض عنهم، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم، وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه ﷺ ، حين قال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] =

(١) عن عبد الله بن مسعود ، عن النبى ﷺ قال : لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » ، قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ،نعله حسنًا . قال : « إن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق وغمط الناس » . أخرجه مسلم [١٤٧/٩١]
وبطر الحق : دفعه وإنكاره ترفعًا وتجبرًا ، وغمط الناس : احتقارهم .

(٢) صَعَّر خده وصاعره : أى أماله من الكبر ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ وقول المتلمس :

وكنا إذا صعَّر خده أقمنا له من خده فتقوما

. . . .

= **الدرجة الثالثة:** أن يظهر الكبر بلسانه، كالدعاوى والمفاخر، وتزكية النفس، وحكايات الأحوال فى معرض المفاخرة لغيره، وكذلك التكبر بالنسب، فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً.

قال ابن عباس: يقول الرجل للرجل: أنا أكرم منك، وليس أحد أكرم من أحد إلا بالتقوى. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

وكذلك التكبر بالمال، والجمال، والقوة، وكثرة الأتباع، ونحو ذلك، فالكبر بالمال أكثر ما يجرى بين الملوك والتجار ونحوهم.

والتكبر بالجمال أكثر ما يجرى بين النساء، ويدعوهن الى التنقص والغيبة وذكر العيوب.

وأما التكبر بالأتباع والأنصار، فيجرى بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين.

وفى الجملة فكل ما يمكن أن يعتقد كمالاً، فإن لم يكن فى نفسه كمال ، أمكن أن يتكبر به، حتى إن الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمر والفجور ؛ لظنه أن ذلك كمال.

واعلم: أن التكبر يظهر فى شمائل الإنسان، كصعر وجهه، ونظره شزراً، وإطراق رأسه، وجلوسه متربعاً ومتكئاً، وفى أقواله، حتى فى صوته ونغمته، وصيغة إيراده الكلام، ويظهرذلك أيضاً فى مشيه وتبختره، وقيامه وقعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته .

ومن خصال المتكبر: أن يحب قيام الناس له.

والقيام على ضربين:

قيام على رأسه وهو قاعد، فهذا منهى عنه، قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من نار» (١). وهذه عادة الأعاجم المتكبرين.

---

(١) عن أبى مجلز قال : خرج معاوية فقام عبد الله بن الزبير وابن صفوان حين رأوه . فقال : اجلسا ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « من سرّه أن يتمثّل له الرجال قيامًا ، فليتبوأ مقعده من النار » .

=

= الثانى: قيام عند مجىء الإنسان، فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك. قال أنس: لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك.

وقد قال العلماء: يستحب القيام للوالدين والإمام العادل، وفضلاء الناس وقد صار هذا كالشعار بين الأفاضل، فإذا تركه الإنسان فى حق من يصلح أن يفعل فى حقه، لم يأمن أن ينسبه إلى إهانته، والتقصير فى حقه، فيوجب ذلك حقداً.

واستحباب هذا فى حق القائم لا يمنع الذى يقام له أن يكره ذلك، ويرى أنه ليس بأهل لذلك.

ومن خصال المتكبر: أن لا يمشى إلا ومعه أحد يمشى خلفه.

ومنها أن لا يزور أحداً تكبراً على الناس.

ومنها أن يستنكف من جلوس أحد إلى جانبه أو مشيه معه.

وقد روى أنس رضى الله عنه قال: كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به فى حاجتها.

وقال ابن وهب: جلست إلى عبدالعزيز بن أبى رواد، وإن فخذى لتمس فخذه فنحيت نفسى عنه، فأخذ ثيابى فجرنى إليه وقال: لم تفعلون بى ما تفعلون بالجبابرة، وإنى لا أعرف منكم رجلاً شراً منى؟!

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلاً فى بيته، وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله ﷺ.

ومنها أن لا يحمل متاعه من سوقه إلى بيته، وقد اشترى رسول الله ﷺ شيئاً وحمله. وكان أبوبكر رضى الله عنه يحمل الثياب إلى السوق يتجر فيها. واشترى عمر رضى الله عنه لحماً فعلقه بيده وحمله إلى بيته. واشترى على رضى الله عنه تمراً فحمله فى ملحفة، فقال له قائل: أحمل عنك؟ قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل. =

= أخرجه الترمذى [٢٧٥٥] وقال : حديث حسن . وصحّحه الألبانى فى صحيح الترمذى: [٢٢١٢].

= وأقبل أبو هريرة رضى الله عنه يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب، وهو يومئذ خليفة مروان، فقال لرجل: أوسع الطريق للأمير.

واعلم: أن الكبر من المهلكات، ومداواته فرض عين، ولك فى معالجته مقامان:

الأول: فى استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه ويعرف ربه، فإنه إذا عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه أذل من كل ذليل، ويكفيه أن ينظر فى أصل وجوده بعد العدم من تراب، ثم من نطفة خرجت من مخرج البول، ثم من علقة، ثم من مضغة، فقد صار شيئاً مذكوراً، بعد أن كان جماداً لا يسمع ولا يبصر، ولا يحس ولا يتحرك، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله تعالى الى هذا بقوله: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ ثم امتن عليه بقوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]، وبقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيراً﴾ [الإنسان: ٢] فأحياه بعد الموت، وأحسن تصويره، وأخرجه الى الدنيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهداه وقوّاه.

فمن هذا بدايته، فأى وجه لكبره وفخره؟

على أنه لو دام له الوجود على اختياره ، لكان لطغيانه طريق، بل قد سلط عليه الأخلاط المتضادة، والأمراض الهائلة، بينما بنيانه قد تم، إذ هو قد وهى وتهدم، لا يملك الشيء لنفسه ضراً ولا نفعاً، بينما هو يذكر الشيء فينساه، ويستلذ الشيء فيرديه، ويروم الشيء فلا يناله، ثم لا يأمن أن تسلب حياته بغتة.

هذا أوسط حاله، وذاك أول أمره، وأما آخر أمره، فالموت الذى يعيده جماداً كما كان، ثم يلقى فى التراب فيصير جيفة منتنة، وتبلى أعضاؤه، وتنخر عظامه، ويأكل الدود أجزاءه، ويعود تراباً يعمل منه الكيزان، ويعمر منه البنيان، ثم بعد طول البلى تجمع أجزاؤه المتفرقة، ويحضر عرضة القيامة، فيرى أرضاً مبدلة، وجبالاً مسيرة، وسماءً منشقة، ونجوماً منكدرة ، وشمساً مكورة ، وأحوالاً مظلمة ، وجحيماً تزفر، وصحائف تنشر، ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ فيقول: وما كتابى؟ فيقال: كان قد وكل بك فى حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها، ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل، من قليل وكثير، وقيام وقعود، وأكل =

= وشرب، وقد نسيت ذلك، وأحصاه الله تعالى، فهلم إلى الحساب عليه، وأعد جواباً له، وإلا فأنت تساق إلى النار، فما لمن هذه حاله التكبر؟ فإن صار إلى النار، فالبهائم أحسن حالاً منه؛ لأنها تعود الى التراب، ومن هذا حاله وهو على شك من العفو عن أخطائه، كيف يتكبر؟ ! ومن الذى يسلم من ذنب يستحق به العقوبة، وما مثله إلا كمثل رجل جنى على ملك جناية ، استحق أن يضرب لأجلها ألف سوط، فحبس فى السجن ليخرج فيعاقب، وهو منتظر أن يدعى به لذلك. أفتراه يتكبر على أهل السجن؟ وهل الدنيا إلا سجن، وهل المعاصى إلا موجبة للعقاب؟

وأما معرفة ربه، فيكفيه أن ينظر فى آثار قدرته وعجائب صنعته، فتلوح له العظمة، وتظهر له المعرفة، فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر.

ومن العلاج العملى التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين.

المقام الثانى: فيما يعرض من التكبر بالأنساب، فمن اعتراه الكبر من جهة النسب، فليعلم أن هذا تعزز بكمال غيره، ثم يعلم أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة قذرة، وأباه البعيد تراب، ومن اعتراه الكبر بالجمال، فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم، ومن اعتراه من جهة القوة، فليعلم أن لو آلمه عرق، عاد أعجز من كل عاجز، وإن حُمَّى يومٍ تحلحل من قوته ما لا يعود فى مدة، وإن شوكة دخلت فى رجله لأعجزته، وبقة لو دخلت فى أذنه لأقلقته.

ومن تكبر بسبب الغنى، فإذا تأمل خلقاً من اليهود، وجدهم أغنى منه، فأفٍّ لشرف تسبق به اليهود، ويستلبه السارق فى لحظة، فيعود صاحبه ذليلاً.

ومن تكبر بسبب العلم، فليعلم أن حجة الله على العالم آكد من الجاهل، وليتفكر فى الخطر العظيم الذى هو بصدده، فإن خطره أعظم من خطر غيره، كما أن قدره أعظم من قدر غيره.

وليعلم أيضاً أن الكبر لا يليق بالله سبحانه(١)، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى بغيضاً عنده. وقد أحب الله منه أن يتواضع، وكذلك كل سبب يعالجه بنقيضه ويستعمل التواضع.

واعلم: أن هذا الخلق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط: =

---

(١) هكذا بالأصل ، ولعله يوجد سقط ، وإلا فالسياق يقتضى : أن الكبر يليق [إلا] بالله سبحانه.

والحق سبحانه وتعالى يريد من المجتمع ألا يتكبر فيه أحد على أحد؛ لأن كل الصفات التى يمكن أن يتكبر بها الإنسان موهوبة له من الله، إذا استكبرت على غيرك فالله سبحانه وتعالى ينتصر للغير، ويجعلك أقل منه، والمتكبر ناقص الإيمان ؛ لأن الإنسان لا يتكبر إلا لأنه نسى الله، فلو أن أى إنسان استحضر خالقه وكبرياءه بذاته لاستحى أن يتكبر أمامه؛ ولذلك قلنا إن الحق سبحانه قال فى الحديث القدسى: «العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما أدخلته نارى ولا أبالى»[1] والكبرياء والعظمة من الخالق سبحانه لمصلحتنا نحن ؛ لأنه مادام كل واحد منا يعلم أن الله سبحانه هو صاحب الكبرياء، وصاحب العظمة، فإنه سيعرف حجمه ويلزم حدّه .

إذن كبرياء الله جاء ليحمى تواضعنا ، فهو صفة جمال لله سبحانه،

= فطرفه الذى يميل إلى الزيادة تكبراً.

وطرفه الذى يميل إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة.

والوسط يسمى تواضعاً، وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غير مذلة، فخير الأمور أوساطها، فمن تقدم على أقرانه فهو متكبر، ومن تأخر عنهم فهو متواضع؛ لأنه قد وضع شيئاً من قدره، فأما إذا أدخل على العالم إسكاف أو نحوه، فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب، فقد تخاسس وتذلل، فذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهو أن يعطى كل ذى حق حقه، لكن تواضعه للسوقة يكون بالرفق فى السؤال واللين فى الكلام، وإجابة الدعوة، والسعى فى الحاجة، فلا يحقره، ولا يستصغره، والله أعلم.

[مختصر منهاج القاصدين : ٢٢٧ ـ ٢٣٣]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فيما يحكى عن ربه عز وجل قال: «الكبرياء ردائى والعظمة إزارى، فمن نازعنى واحداً منهما قذفته فى جهنم».

أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢]

وقال الحسن البصرى: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين؟ ! يعنى الذكر والفرج وذلك لقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ١٩، ٢٠].

انظر [صفوة التفاسير : ٣/ ٥٢٠] ، [تفسير القرطبى: ١٩ ، ٢١٨]

ولذلك فأية عائلة من الناس الطيبين البعيدين عن الشر، تجد السفهاء والمجرمين يستهترون بهم، ويحتقرونهم، فإذا نشأ فيهم واحد من المجرمين، تجد الناس يحترمونهم ويخشون بأسهم، وهذا المجرم أو الفتوة لو سلّط الله عليه من هو أقوى منه، تجده يخنع ويسكت ويخشى بأسه.

إذن الذى يريد أن يستكبر عليه أن يستكبر برصيد من ذاته، لكن إذا استكبر برصيدٍ موهوبٍ له من الغير فهذا لا يصح ؛ لأنه قد يفقد هذا الرصيد فى أى وقت.

وقوله تعالى : ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [1] يفيد أن الاستكبار حين يكون بحق ؛ يكون لحماية ضعيف من بطش قوى أو مجرم، فهذا أمر محمود . وحين يصف الله تعالى نفسه بالكبرياء والعظمة فهذا الأمر لصالحنا جميعاً ؛ لأنه حماية لنا جميعاً ، ففرعون استكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق، أى بغير أن يكون عندهم رصيد ذاتى لهذا الاستكبار . فالاستكبار من الإنسان يعنى أن هذا الإنسان يظن أنه لن يرجع إلى الله الذى خلقه ورزقه ، وبعد ذلك يحاول أن يهرب منه، مع أن الإنسان كان يجب عليه أن يعمل ألف حساب لعودته إلى الله بعد الحياة الدنيا؛ ولذلك حين ينتهز إنسان ما الفرصة ويتغلب على آخر ويسلبه شيئًا، يقول له: سوف نتقابل ، وسوف ترجع لى مرة أخرى، أى لنا لقاء آخر نصفّى حسابنا فيه.

---

(١) قال الشيخ المراغى فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾ أى: ورأى هو وجنوده كل من سواهم فى أرض مصر، حقيرا؛ عتوا منهم على ربهم، وحسبوا أنهم بعد مماتهم لا يبعثون، ولايثابون ولا يعاقبون، ومن ثم ركبوا أهواءهم، وليعلموا أن الله لهم بالمرصاد، وأنه مجازيهم على خبيث أعمالهم، وسيء أقوالهم. [تفسير المراغى : ١٩/٦١]

✽ وقد خاب من افترى ✽

قال الله تعالى : ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١)﴾ [1] [طه] إن فرعون ترك موسى وبدأ يدبر أموره ويعد العدّة لمواجهته يوم الزينة، ومعنى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ الكيد هو التدبير الخفى للخصم[2] ، وإذا دبرت فى الخفاء للخصم فهذه ليست شهادة لك بالقوة، ولكنها شهادة بالضعف؛ لأنك مادمت تدبر تدبيراً خفياً فكأنك لا قوة لك على المجابهة الواضحة، فمن يدس السمّ لواحد ؛ ليتخلص منه أو يسلط عليه من يضربه أو يقتله ، هذا معناه أنه يضعف عن مواجهته، إذن الكيد ليس دليل القوة ولكنه دليل الضعف؛

---

(١) قال القاسمى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ أى انصرف عن المجلس ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أى ما يكيد به موسى، من السحرة وأدواتهم ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أى الموعد ومعه ما جمعه. ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ أى: مقدماً لهم النصح والإنذار؛ لينقطع عذرهم ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم ، إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة وليست مخلوقة. فتكونوا قد كذبتم على الله تعالى ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ أى يستأصلكم ﴿بِعَذَابٍ﴾ أى هائل لغضبه عليكم. [تفسير القاسمى : ١١/٤١٨٧]

(٢) الكيد من المكيدة، وقد كاده مكيدة. والكيد: الخبث والمكر؛ كاده يكيده كيداً ومكيدة، وكذلك المكايدة. وكل شىء تعالجه، فأنت تكيده. وفى حديث عمرو ابن العاص: ما قولك فى عقول كادها خالقها؟ وفى رواية: تلك عقول كادها بارئها أى أرادها بسوء. يقال: كدت الرجل أكيده. والكيد: الاحتيال والاجتهاد، وبه سميت الحرب كيداً. [لسان العرب : ٣/ ٣٨٣]

لذلك بعض الناس حينما يقرأ قول الله تعالى عن النساء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] يظن أن المرأة أقوى من الرجل، فى هذا نقول له: لا؛ لأنها مادامت تكيد كيداً عظيماً فهذا دليل على أن ضعفها أعظم؛ لأنه لا يكيد إلا الضعيف، أما القوى فيواجه ولا يخاف .

ومعنى أن فرعون جمع كيده(١) ، مثل أى إنسان حين يفكر فى أمر من الأمور يقول: نعمل كذا أو كذا فيدير فكره على ألوان الكيد، فيجمع من هذه الألوان من الكيد ما يجعل كيده قوياً ؛ ولذلك يقولون: جمع أمره فكأن الأمر الذى هو بصدده يتطلب وجهات نظر متعددة ، فيسرد هذه

---

(١) وذلك فى قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾[طه: ٦٤] قال القرطبى: الإجماع الإحكام والعزم على الشيء. تقول: أجمعت الخروج وعلى الخروج أى عزمت. وقراءة كل الأمصار. ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ إلا أبا عمرو فإنه قرأ: « فاجْمَعُوا» بالوصل وفتح الميم. واحتج بقوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ قال النحاس: وفيما حكى لى عن محمد بن يزيد أنه قال: يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف قراءته هذه، وهى القراءة التى عليها أكثر الناس. قال: لأنه احتج بـ «جمع» وقوله عز وجل: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَه﴾ قد ثبت هذا فبعد أن يكون بعده : « فاجمَعُوا » ويقرب أن يكون بعده ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ أى اعزموا وجدُّوا؛ ولما تقدم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه. يقال: أمر مجمع ومجمع عليه. قال النحاس: ويصحح قراءة أبى عمرو، « فاجْمَعُوا» أى اجمعوا كل كيد لكم وكل حيلة فضموه مع أخيه. وقاله أبو إسحاق. الثعلبى: القراءة بقطع الألف وكسر الميم لها وجهان: أحدهما : بمعنى الجمع، تقول أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد، وفى الصحاح: وأجمعت الشى جعلته جميعا، قال أبو ذؤيب يصف حُمُرا:

فكأنها بالجزع بين نُبايع   وأولات ذى العرجاء نهب مُجمعَ

أى مجموع . والثانى : أنه بمعنى العزم والإحكام؛ قال الشاعر:

ياليت شعرى والمنى لا تنفع   هل أغدون يوماً وأمرى مجمع

[تفسير القرطبى: ١١/ ٢٢٠ ، ٢٢١]

الآراء ووجهات النظر ، ثم ينتهى منها إلى رأى يجمع كل الأشياء، بحيث لا يفاجئه أى احتمال لم يحسب حسابه؛ أى أنه يحتاط لكل الاحتمالات.

هذا بالنسبة للواحد ولكن بالنسبة للجمع يقولون: أجمعوا أمرهم، وإذا كان الفرد الواحد له أمور متعددة، فحين يكون أناس كثيرون لابد أن يكون لهم أمور متعددة، فكل واحد منهم له رأى ووجهة نظر مختلفة، فمعنى أجمعوا أمرهم: أى أنهم اتفقوا على الخطة الواضحة التى توحد آراءهم عند تحقيق الهدف الذى يريدونه؛ ولذلك فى قصة يوسف فى قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] فكلمة ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ أى اتفقوا على الخطة النهائية(١) ؛ لأن أحدهم قال: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩] ، وبعد ذلك قال: ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ ومنهم من قال : ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠] . وفى النهاية اجتمع الأمر على أن يلقوه فى غيابة الجب ، ونحن قلنا إن هذا الموقف نستنبط منه أنهم من سلالة نبوة؛ لأن الأخيار يتضاءل شرهم والأشرار يتعاظم شرهم، ففرعون جمع كيده ثم أتى إلى الموعد الذى اتفق عليه مع موسى عليه السلام .

وقول الله تعالى :﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يعنى أن موسى كلم السحرة الذين أتى بهم فرعون وقال لهم: لاحظوا أن لكم ربا وإن فعلتم أى شىء مخالف لمنهجه فياويلكم من عذابه ، فهو يحذرهم من عاقبة فعلهم ومحاولتهم نصرة فرعون ، ومعنى:

---

(١) قال البقاعى: ﴿وَأَجْمَعُوا﴾ أى كلهم وأجمع كل واحد منهم بأن عزم عزما صادقا؛ والإجماع على الفعل: العزم عليه باجتماع الدواعى كلها.

[نظم الدرر : ٢٨/١٠]

﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ [طه: ٦١] أى يستأصلكم بعذاب فى الدنيا ، علاوة على عذاب الآخرة(١) ، وكلمة ﴿ افْتَرَىٰ ﴾(٢) [طه: ٦١] أى جاء بالفرية، والفرية هى تعمد الكذب .

---

(١) قال أبو حيان الأندلسى: ﴿ فَيُسْحِتَكُم ﴾ يهلككم ويستأصلكم، وفيه دلالة على عظم الافتراء ، وأنه يترتب عليه هلاك الاستئصال، ثم ذكر أنه لا يظفر بالبغية ولا ينجح طلبه ﴿ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ على الله الكذب. [البحر المحيط : ٧/٣٤٩]

(٢) الفرية: الكذب فرى كذباً فرياً وافتراء: اختلقه. ورجل فرىّ ومفرى وإنه لقبيح الفرية؛ عن اللحيانى. الليث: يقال فرى فلان الكذب يفريه إذا اختلقه، والفرية من الكذب. وقال غيره: افترى الكذب يفتريه اختلقه. وفى التنزيل العزيز: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ ؛ أى اختلقه. وفرى فلان كذا إذا خلقه، وافتراه: اختلقه، والاسم الفرية. وفى الحديث: « من أفرى الفرى أن يُرى الرجل عينيه ما لم تريا » (١) ، الفرى: جمع فرية وهى الكذبة، وأفرى أفعل منه للتفصيل أى أكذب الكذبات أن يقول رأيت فى النوم كذا وكذا، ولم يكن رأى شيئا؛ لأنه كذب على الله تعالى، فإنه هو الذى يرسل ملك الرؤيا ليريه المنام. وفى حديث عائشة رضى الله عنها: « فقد أعظم الفرية على الله » (٢) أى الكذب . وفى حديث بيعة النساء: « ولا يأتين ببهتان يفترينه » (٣) هو افتعال من الكذب. [لسان العرب : ١٥/١٥٤]

---

(١) أخرجه البخارى [٧٠٤٣] عن ابن عمر بلفظ : « من أفرى الفِرى أن يُرِى عينه ما لم ترَ » .

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم [١٧٧] بلفظ: « ... فقد أعظم على الله الفرية... ».

(٣) جزء من حديث أخرجه النسائى فى الكبرى [٧٨٠٤] عن أميمة بنت رُقيقة بلفظ : « أتيت النبى فى نسوة من الأنصار نبايعه ، فقلنا : يا رسول الله نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق ولا نزنى ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ... » .

* وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم *

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس : ٧٩]

وفرعون لا يعرف أسرار السحر ، ولكن لأن فى دولته سحرة فإنه يراهم وهم يمارسون السحر ويقيمون الحفلات فى قصره ؛ ويُدعى إليها السحرة للتسلية . كما أنه يستخدم هؤلاء السحرة فى تخويف الناس والسيطرة عليهم، وإذا كان قد أوهم الناس أنه إله، فهذا الإيهام ساعده فيه السحرة؛ ولذلك عندما رأى نفسه فى مأزق ورأى أن موسى عليه السلام يلقى عصاه فتتحول إلى ثعبان، ويخرج يده فإذا هى بيضاء من غير سوء ، خاف على ملكه.

إن فرعون الذى يدَّعى الألوهية لا يستطيع أن يفعل مثل ذلك، ومن هنا فإن قوته اهتزت أمام الناس، فكان لابد أن يستنجد بالسحرة ؛ ليثبت للناس أن ما أتى به موسى عليه السلام من معجزات ليس من المعجزات، بل هو سحر، وأن موسى عليه السلام ليس نبياً ، وليس مؤيداً بمعجزات من ربه، ولكنه مجرد ساحر، ولذلك هاج وماج، وقال : ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩] لم يطلب فرعون السحرة العاديين، ولكنه طلب السحرة الذين لهم خبرة عالية وعلم كبير بفنون السحر ؛ لأن المسألة ليست مسألة هينة، ولكنها مسألة تزلزل عرش فرعون وألوهيته المزعومة ، لذلك كان لابد أن يأتى بأمهر السحرة؛ ليحافظ على ملكه وادعائه الألوهية [1] .

(١) قال تعالى: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾

جاء فى فتح البيان: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ هذا ما أشاروا به عليه، وجاءوا بكلمة الإحاطة وصيغة المبالغة ليسكنوا بعض قلقه. والمراد بالسحار العليم: الفائق فى معرفة =

ولسائل أن يقول : هل بمجرد أن قال فرعون : ﴿ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩] ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس : ٨٠] فهل بمجرد أن أصدر فرعون أمره بإحضار السحرة وصلوا إلى القصر؟ الجواب طبعاً لا، فلابد أن رجال فرعون ذهبوا إلى المدن المختلفة وجاءوا بأمهر السحرة، ولكن الله تبارك وتعالى يريد أن يلفتنا أنه بمجرد أن قال فرعون، بدأ التنفيذ على الفور.

والقرآن الكريم حين يعالج أمرًا من الأمور لا يأتى بالتفصيلات التى يفهم منها العقل البشرى الأحداث، فمثلاً ـ كما سبق أن قلنا ـ الهدهد حين جاء لسليمان ماذا قال؟ قال : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [النمل] ماذا قال سليمان للهدهد؟ قال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل]

لم يقصّ علينا الحق سبحانه وتعالى كيف حمل الهدهد الكتاب، وكم قطع المسافة حتى ألقاه عند ملكة سبأ [1] ؛ لنعرف من السياق أنه بمجرد أن يصدر أمر الملك أو الحاكم يتم تنفيذه على الفور، ودون تراخٍ .

= السحر وصنعته، أى: يفضُلُ موسى ويفوق ويزيد عليه فى علم السحر.
[فتح البيان فى مقاصد القرآن :٩/ ٣٧٥]

(١) قال ابن الجوزى: قال قتادة: أتاها الهدهد وهى نائمة فألقى الكتاب على نحرها فقرأته وأخبرت قومها. وقال مقاتل: حمله بمنقاره حتى وقف على رأس المرأة، فرفرف ساعة والناس ينظرون، فرفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها، فلما رأت الخاتم أرعدت وخضعت وخضع من معها من الجنود. [زاد المسير :٦/ ٦٥]

ولذلك فبمجرد أن طلب فرعون السحرة، انطلق رجاله وأتوا بهم.

ولما جاء السحرة ووجدوا فرعون فى ورطة تزلزل حكمه، وضعوا شروطهم، قالوا يا فرعون لابد أن يكون لنا الأجر إذا غلبنا، ولم يتردد فرعون بل أضاف أنكم ستكونون من المقربين، أى من بطانة فرعون نفسه، لأنهم سيوطّدون حكمه، وسيستعين بهم.

إذن.. الحق تبارك وتعالى جاء لنا هنا بالتنفيذ السريع لما حدث دون تفصيلات ؛ ليلفتنا إلى قوة فرعون وسطوته، وأنه بمجرد أن أصدر الأمر جاء السحرة ، وبدأت المواجهة دون أى إبطاء ؛ لأنه حين يصدر الملك أو الحاكم أمره تحرص السدنة على التنفيذ وبسرعة .

* ما جئتم به السحر إن الله سيبطله *

الله جل جلاله يريد أن يعطينا صورة الجبروت الذى كان يعيش فيه فرعون، وكيف أنه كان نافذ الكلمة والأمر، والجميع يتسابق إلى سرعة تنفيذ ما يريده. قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[1] موسى عليه السلام أراد أن يرهب السحرة ليضعف معنوياتهم، فلما ألقى

---

(١) قال البقاعى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ﴾ ﴿أَلْقُوا﴾ جميع ﴿مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أى راسخون فى صنعة إلقائه، إشارة إلى أن ما جاؤا به ليس أهلا لأن يلقى إليه بال ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ أى وقع منهم الإلقاء بحبالهم وعصيهم على إثر مقالاته ، وخيلوا بسحرهم لعيون الناس ما زلزل عقولهم ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ منكرا عليهم ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ﴾، ثم بين أنه ما استفهم عنه جهلا بل احتقارا وإنكارا، وزاد فى بيان كل من الأمرين بقوله: ﴿السِّحْرُ﴾ لأنه استفهام أيضا سواء قطعت الهمزة ومدت كما فى قراءة أبى عمرو، وأبى جعفر، أو جعلت همزة وصل كما فى قراءة الباقين. فإن همزة الاستفهام مقدرة، والتعريف إما للعهد، وإما للحقيقة ، وهو أقرب، ويجوز فى قراءة الجماعة أن يكون خبرا لما يقصد به الحصر، أى هو السحر لا ما تنسبتموه إلىّ؛ ثم استأنف بيان ما حقره به فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ ﴾ أى الذى له إحاطة العلم والقدرة ﴿سَيُبْطِلُهُ﴾ أى عن قريب بوعد لا خلف فيه؛ ثم علل ذلك بما بين أنه فساد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أى الذى له الكمال كله ﴿لَا يُصْلِحُ﴾ أى فى وقت من الأوقات ﴿عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى العريقين فى الفساد ، بأن لا ينفع بعملهم ولا يديمه؛ ثم عطف عليه بيان إصلاحه عمل المصلحين. [نظم الدرر : ٩/ ١٧٤ ـ ١٧٥]

السحرة عصيهم قال لهم: إن ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾، ومادام ما جاءوا به سحراً، والسحر تخيل وليس حقيقة[1] ،فإن الله سبحانه وتعالى سيبطله؛ لأنه سيغير حقيقة عصا موسى ويجعلها حية حقيقية وليس مجرد تخيل؛ ولأن السحر إفساد فى الأرض فإن الله لا يصلح العمل لمن يريد الإفساد، وينصر سبحانه الحق بكلماته. وهو سبحانه وتعالى بمجرد أن يقول : ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] بل إنه قبل أن يقول : ﴿كُن﴾ يكون الشيء موجوداً ، فأمره بين الكاف والنون ولا ينتظر التنفيذ أن يكتمل الحرفان ، وذلك قوله: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[2][يونس: ٨٢] ليريح العالم من إضلال المجرمين ومفاسدهم.

---

(١) قال ابن حجر قوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل، ولا حجة له بها ؛ لأن هذه وردت فى قصة سحرة فرعون، وكان سحرهم كذلك، ولا يلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل، قال أبو بكر الرازى فى «الأحكام»: أخبر الله تعالى أن الذى ظنه موسى من أنها تسعى لم يكن سعياً وإنما كان تخييلاً، وذلك أن عصيهم كانت مجوفة قد ملئت زئبقاً، وكذلك الحبال كانت من أدم محشوة زئبقاً، وقد حفروا قبل ذلك أسراباً، وجعلوا لها آزاجاً وملأوها ناراً ، فلما طرحت على ذلك الموضع وحمى الزئبق حركها؛ لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير، فلما أثقلته كثافة الحبال والعصى صارت تتحرك بحركته ، فظن من رآها أنها تسعى، ولم تكن تسعى حقيقة.
[فتح البارى: ١١/ ٣٨٨]

(٢) قال البقاعى: ﴿وَيُحِقُّ﴾ . أى يثبت إثباتا عظيما ، ﴿اللَّهُ﴾: أى الملك الأعظم، ﴿الْحَقَّ﴾ أى الشئ الذى له الثبات صفة لازمة؛ ولما كان فى مقام تحقيرهم، دل على ذلك بتكرير الاسم الجامع الأعظم ، وأشار إلى ما له من الصفات العلى بقوله: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾ أى: الأزلية التى لها الثبات الأعظم، وزاد فى العظمة بقوله : ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾: أى العريقون فى قطع ما أمر الله به أن يوصل، فكان كما =

ثم يلفتنا الحق تبارك وتعالى لفتة أخرى فى قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾(1) [يونس: ٨٣] .

وهنا يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة لخوف الناس من الحاكم الظالم

= قال عليه السلام ، بطل سحرهم، وأضمحل مكرهم، وحق الحق.

[نظم الدرر : ٩ / ١٧٥]

(١) قال البقاعى : لما حكى سبحانه أن موسى عليه السلام أبان ما أبان من بطلان السحر وكونه إفسادا، فثبت ما أتى به لمخالفته له، أخبر تعالى- تسلية للنبى ﷺ وفطما عن طلب الإجابة للمقترحات- أنه ما تسبب عن ذلك فى أول الأمر عقب إبطال سحرهم من غير مهلة إلا إيمان ناس ضعفاء غير كثير، فقال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ﴾ أى متبعا ﴿لِمُوسَىٰ﴾ : أى بسبب ما فعل ؛ ليعلم أن الآيات ليست سببا للهداية إلا لمن أردنا ذلك منه؛ وبين أن الصغار أسرع إلى القبول بقوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ أى شبَّانهم هم أهل لأن تذر فيهم البركة ﴿مِّن قَوْمِهِ﴾ : أى قوم موسى الذين لهم قدرة على القيام فى المحاولة لما يريدونه، والظاهر أنهم كانوا أيتاما وأكثرهم، كما قاله مجاهد. ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ : أى عظيم. ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ : أى أشراف قوم الذرية؛ ولما كان إنكار الملأ إنما هو بسبب فرعون أن يسلبهم رئاستهم، انحصر الخوف فيه ؛ فأشار إلى ذلك بوحدة الضمير فقال: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ وأتبعه ما يوضح عذرهم بقوله مؤكدا تنزيلا لقريش منزلة من يكذب بعلو فرعون لتكذيبهم لأن ينصر عليهم الضعفاء من أصحاب النبى ﷺ لعلوهم . ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ﴾ : أى غالب قاهر متمكن بما فتناه به من طاعة الناس له. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ : أى أرض مصر التى هى بكثرة ما فيها من المرافق كأنها جميع الأرض. ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ : أى العريقين فى مجاوزة الحدود بظاهره وباطنه، وإذا ضممت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٣] كان قياسا بديهيا منتجا إنتاجا صريحا قطعيا أن فرعون من أصحاب النار؛ تكذيبا لأهل الوحدة فى قولهم: إنه آمن؛ ليهونوا المعاصى عند الناس فيحلوا بذلك عقائد أهل الدين. [نظم الدرر: ٩/ ١٧٥ - ١٧٦]

الجبار ، لقد آمن السحرة الذين استعان بهم فرعون ضد موسى، وإذا كان هؤلاء السحرة الذين كانوا هم السند الأول لفرعون قد آمنوا، كان من باب أولى أن يؤمن الناس من غير السحرة ولكن لم يؤمن بموسى إلا ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾[1] [يونس: ٨٣] و«الذرية» [2] تعنى الصغار ؛ ذلك لأن الصغار

---

(١) قال ابن الجوزى فى قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ فى المراد بالذرية ها هنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المراد بالذرية: القليل. قاله ابن عباس.

والثانى: أنه أولاد الذين أرسل إليهم موسى مات آباؤهم لطول الزمان، وآمنوا هم، قاله مجاهد. وقال ابن زيد: هم الذين نشأوا مع موسى حين كف فرعون عن ذبح الغلمان. قال ابن الأنبارى: وإنما قيل لهؤلاء: ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ لأنهم أولاد الذين بعث إليهم موسى، وإن كانوا بالغين.

والثالث: أنهم قوم، أمهاتهم من بنى إسرائيل، وآباؤهم من القبط، قاله مقاتل، واختاره الفراء. قال: وإنما سموا ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ كما قيل لأولاد فارس: الأبناء؛ لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم. [زاد المسير : ٤/٤٦]

(٢) جاء فى اللسان: إن فلانا لكريم الذرى، أى كريم الطبيعة وذرا الله الخلق ذرواً: خلقهم، لغة فى ذرأ ، والذَّرْوُ والذَّرَا والذرية: الخلق، وقيل: الذرو والذرا عدد الذرية. الليث: الذرية تقع على الآباء والأبناء والأولاد والنساء. قال الله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]. أراد آباءهم الذين حُملوا مع نوح فى السفينة . وقوله ﷺ : رأى فى بعض غزواته امرأة مقتولة فقال: «ما كانت هذه لتقاتل»، ثم قال للرجل: «الحقَ خالداً فقل له لا تقتل ذرية ولا عسيفاً» [1]، فسمى النساء ذرية. ومنه حديث عمر، رضى الله عنه: حجوا =

---

(١) عن حنظلة الكاتب؛ قال : غزونا مع رسول الله ﷺ فمررنا على امرأة مقتولة قد اجتمع عليها الناس، . فأفرجوا له . فقال : « ما كانت هذه تقاتل فيمن يقاتل» ثم قال لرجل: «انطلق إلى خالد بن الوليد ، فقل له : إن رسول الله ﷺ يأمرك، يقول : لا تقتلن ذرية ولا عسيفًا» . أخرجه ابن ماجة [٢٨٤٢] ، وقال الألبانى فى صحيح ابن ماجة [٢٢٩٤] : حسن صحيح.

وقوله: عسيفًا: أى أجيرًا وكان المراد الأجير على حفظ الدواب ونحوه ، لا الأجير على القتال.

عادة ما يكونون بعيدين عن الفساد الموجود، لم يستفيدوا منه ولم ترتبط مصالحهم به، ولم يصلوا إلى مرتبة السيادة والمنفعة التى تجعلهم يحرصون على الكفر ويرفضون الإيمان، وهؤلاء آمنوا على خوف من فرعون ، و﴿عَلَىٰ﴾ تفيد الاستعلاء على العرش أو على الكرسى، هناك مستعلٍ ومستعلىً عليه، المستعِلى متمكن من المستعلَى عليه، أَهُمّ على خوف أم الخوف عليهم؟ ولكن «على» تستخدم أيضاً بمعنى «مع» ولكن على هيئة التمكن والعلو؛ واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (1) [الإنسان : ٨] : أى يطعمون الطعام مع

= بالذرية لا تأكلوا أرزاقها وتذروا أرباقها فى أعناقها؛ قال أبو عبيد: أراد بالذرية ههنا النساء، قال: وذهب جماعة من أهل العربية إلى أن الذرية أصلها الهمز، روى ذلك أبو عبيد عن أصحابه، منهم أبو عبيدة وغيره من البصريين، قال: وذهب غيرهم إلى أن أصل الذرية فُعليّةٌ من الذر، وكل مذكور فى موضعه.

وقوله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤]؛ قال أبو إسحق: نصب ذرية على البدل؛ المعنى أن الله اصطفى ذرية بعضها من بعض، قال الأزهرى: فقد دخل فيها الآباء والأبناء، قال أبو إسحاق: وجائز أن تنصب ذرية على الحال؛ المعنى: اصطفاهم فى حال كون بعضهم من بعض. وقوله عز وجل: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يريد أولادهم الصغار. [لسان العرب :١٤/ ٢٨٥ ، ٢٨٦]

(1) قال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الطعام، أى وهو محبوب للفاقة والحاجة، وهذا قول ابن عباس ومجاهد. ويحتمل أن يعود على الله تعالى، أى لوجهه وابتغاء مرضاته، قاله أبو سليمان الدرانى. والأول أمدح لهم؛ لأن فيه الإيثار على النفس. وعلى الاحتمال الثانى فقد يفعله الأغنياء أكثر. وقال الحسين بن الفضل: الضمير عائد على الإطعام، أى محبين فى فعلهم ذلك لا رياء فيه ولا تكلف، و «المسكين» الطوّاف المتكشف فى السؤال، و «اليتيم» الصبى الذى لا أب له من الناس . والذى لا أم له من البهائم وهى صفة قبل البلوغ ، وقال =

حبٌّ، وعندما يقوم حرف مكان حرف آخر ، تكون هناك علة هى التى جعلتنا نحذف هذا الحرف، ونأتى بالحرف الآخر، مثلا فى قول فرعون للسحرة كما يقص علينا القرآن الكريم : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١] هل هو سيصلبهم فى الجذع أم على الجذوع؟ إنه سيصلبهم على الجذوع ، ولكن العلماء حين يفسرونها بذلك، أى بأنها على الجذوع، نقول لهم : إن العبارة ليست سليمة ؛ لأن

= النبى ﷺ: «لا يتم بعد حلم».(١) و «الأسير» معروف. فقال قتادة: أراد أسرى الكفار وإن كانوا على غير الإسلام، وقال الحسن: ما كان أسراهم إلا مشركين ؛ لأن كل كبد رطبة فيها أجر. وقال بعض العلماء: هذا إما نُسخ بآية السيف وإما أنه محكم لتحفظ حياة الأسير إلى أن يرى الإمام فيه ما يرى، وقال مجاهد وابن جبير وعطاء: أراد المسجونين من الناس. ولهذا يحض على صدقة السجن، فهذا تشبيه، ومن قول عمر ابن الخطاب رضى الله عنه: لا يؤسر أحد فى الإسلام بغير العدول. وروى الخدرى أن النبى ﷺ فسر الأسير هنا بالمملوك والمسجون. وقال: أراد أسرى المسلمين الذين تركوا فى بلاد الحرب رهائن وخرجوا فى طلب الفداء، وقال أبو حمزة الثمالى: الأسير هنا المرأة. ودليله قوله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيرا فإنهن عوان عندكم»(٢). [المحرر الوجيز : ٥/ ٤١٠ ـ ٤١١]

---

(١) أخرجه أبو داود [٢٨٧٣] عن على بن أبى طالب ، بلفظ : « لا يُتْمَ بعد احتلام ، ولا صُمَات يوم : إلى الليل » . وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٤٩٧] .
والصُمَات : السكوت .

(٢) عن سليمان بن عمرو بن الأحوص حدثنى أبى أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ . فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ ، ثم قال : «استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوان. ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك. إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. فإن فعلن فاهجروهنَّ فى المضاجع واضربوهنَّ ضربًا غير مبرح. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً . إن لكم من نسائكم حقًا ولنسائكم عليكم حقًا . فأما حقكم على نسائكم، فلا يوطئنَّ فرشكم من تكرهون . ولا يأذنَّ فى بيوتكم لمن تكرهون . ألا، وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن».

أخرجه ابن ماجة [١٨٥١] ، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجة [١٥٠١]

معناها أنه سيصلبهم على جذوع النخل صلبًا شديداً، بحيث تدخل أجزاء من أجسادهم المصلوبة فى المصلوب فيه وهو النخل، إذا أحضرت عود كبريت مثلا وربطته على أصبعك بخيط ، غليظ كلما شددت الخيط يغوص عود الكبريت فى الأصبع حتى يكاد يستوى معه. إذن فأنت لم تصلب عود الكبريت على أصبعك ، بل كأنك صلبته فى الأصبع؛ لأن شدة الصلب تجعل المصلوب يدخل فى المصلوب فيه .

فإذا قلت: لأصلبنكم على جذوع النخل، لم تعطنا قوة الصلب؛ بل هى مجرد تعليق ولكن كل جسد يحتفظ بكيانه، ولكنه أراد أن يعطينا الصورة فى أن أجسادهم غاصت داخل النخل من قوة الصلب ، حتى أصبحت هى وجذوع النخل شيئاً واحدا، إذن فتغيير الحرف هنا له معنى، كذلك قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس: ٨٣] هل فرعون يخيف بذاته؟ لا، إنه يخيف بالذين حوله، بـ « الزبانية» [1]، زوار الفجر الذين كانوا يأتون فى الفجر ويقبضون على الناس. إذن فرعون

---

(١) الزبانية: الذين يزبنون الناس أى يدفعونهم؛ قال حسان:

زبانية حــــول أبيـــــاتهم　　　وخور لدى الحرب فى المعمعه

وقال قتادة: الزبانية عند العرب الشُّرَط، وكله من الدفع؛ وسمى بذلك بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨]؛ قال قتادة: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ حيّه وقومه، ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ قال: الزبانية فى قول العرب الشرط؛ قال الفراء: يقول الله عز وجل: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ وهم يعملون بالأيدى والأرجل فهم أقوى؛ قال الكسائى: واحد الزبانية زِبْنِي، وقال الزجاج: ﴿الزَّبَانِيَةَ﴾ الغلاظ الشداد، واحدهم زبنية، وهم هؤلاء الملائكة الذين قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ﴾ [التحريم: ٦]، وهم ﴿الزَّبَانِيَةَ﴾. وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ ، قال: قال أبو جهل لئن رأيت محمداً يصلى لأطأن على عنقه ، فقال النبى ﷺ : « لو فعله لأخذته الملائكة =

لا يخيف بذاته؛ لأنه لا يباشر عملية التعذيب والقتل ، ولكن الذين يباشرونها هم الزبانية من أتباعه، فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ : يعنى خوفاً من زبانية فرعون، ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ قال قائل : كان المقام يقتضى أن يقال أن يفتنوهم؛ لأن فرعون وملأه جمع، نقول: لا؛ لأن زبانية فرعون لا يصنعون شيئاً لإرضاء شهوة عندهم، وإنما لإرضاء شهوات فرعون ، فتكون الفتنة آتية من فرعون نفسه ، والزبانية منفذون لما يريده فرعون .

وهكذا نرى أن الضمير يأتى مرة جمعاً ومرة مفرداً، والذين آمنوا من المقربين لفرعون وكتموا إيمانهم - وهم امرأة فرعون وماشطة ابنة فرعون[1]- والذين آمنوا من قوم موسى وكتموا إيمانهم، كل هؤلاء لم

= عياناً»[1] ، وقال الأخفش: قال بعضهم واحد الزبانية زبانى، وقال بعضهم: زابن، وقال بعضهم: زبنية مثل عفرية، قال: والعرب لا تكاد تعرف هذا وتجعله من الجمع الذى لا واحد له مثل أبابيل وعباديد. [لسان العرب: ١٣/ ١٩٤]

(١) قال السيوطى: أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ﴾ . قال: الذرية القليل. =

---

(١) عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ يصلى فجاء أبو جهل فقال : ألم انهك عن هذا ؟ الم انهك عن هذا؟ فانصرف النبى ﷺ فزَبَرَهُ (*)، فقال أبو جهل : إنك لتعلم ما بها ناد أكثر منى، فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ قال ابن عباس : «والله لو دعا ناديه، لأخذته زبانية الله ». أخرجه الترمذى [٣٣٤٩] وقال: حديث حسن غريب صحيح . وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٦٦٨] : صحيح الإسناد .

(*) قوله : « زَبَرَهُ » أى : نهره ، وأغلظ له فى القول .

وعن ابن عباس ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى لأطأن على عنقه . فقال النبى ﷺ : «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً».

أخرجه الترمذى [٣٣٤٨] وقال : حديث حسن صحيح غريب ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٦٦٧] .

يعلنوا إيمانهم خوفاً من عذاب فرعون؛ لأنه جبار وعالٍ فى الأرض، ولا يتسامح مع من يخدش ألوهيته المدَّعاة، بل لابد أن يفتك به وبقوة، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس: ٨٣] قلنا ﴿عَلَىٰ﴾ هنا بمعنى «مع» أى: مع الخوف من فرعون وملئهم،﴿فِرْعَوْنَ﴾ مفرد، و ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾ جمع، السياق يقتضى أن يقال وملئه بالمفرد، وكلمة ﴿يَفْتِنَهُمْ﴾ كان السياق يقتضى أن يقال: أن يفتنوهم، الضمائر تأتى فى كلام الناس، وقد توجد غفلة ولا يلتفت إليها البشر ، ولكن المتحقق فى اللغة يعرف لماذا الانتقال من ضمير إلى ضمير ، فإذا قرأت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩] تجد أن الضمير جمع وكان السياق يقتضى أن يقال، وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلتا ولكن قوله تعالى: ﴿اقْتَتَلُوا﴾ لأن كلمة «طائفة» (1) وإن كانت مفردة اللفظ إلا أنها مكونة

= وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ . قال: من بنى اسرائيل.

وأخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضى الله عنه فى قوله : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ قال: أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم.

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كانت الذرية التى آمنت بموسى من أناس بنى إسرائيل من قوم فرعون، منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه. [الدر المنثور :٤/ ٣٨٢]

(١) الطائفة من الشيء : جزء منه . وفى التنزيل العزيز : ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال مجاهد : الطائفة الرجل الواحد إلى الألف ، وقيل : الرجل الواحد فما فوقه - ورُوى عنه أيضًا أنه قال : أقلّه رجل ، وقال عطاء : أقلّه رجلان . يُقال: طائفة من الناس ، وطائفة من الليل . [لسان العرب : ٩/ ٢٢٦]

من جماعة، فهذه الطائفة مكونة من جماعة، والطائفة الأخرى مكونة من جماعة؛ فلا يقال اقتتلتا؛ ولكن يقال : اقتتلوا ؛ لأن القتال ليس أن تمسك سيفاً وتضرب طائفة أخرى، بل كل واحد من الطائفة الأولى يقاتل واحداً من الطائفة الثانية ، فالقتال هنا جماعة ضد جماعة [1].

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ وكان مقتضى السياق أن يقول: فأصلحوا بينهم ؛ لأن الصلح لا يتم بين كل فرد مقاتل من الجيوش وفرد آخر، ولكنه يتم بين رئيس هذا الجيش ورئيس الجيش الآخر، أو دولة هذا الجيش ودولة الجيش الآخر، كأن الضمير ينتقل من

---

(١) قال البقاعى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ﴾ اى جماعتان بالفعل أو القوة ، جدير كل جماعة منهما بأن يجتمع على ما دهمها من الأمير ، بحيث تصير من شدة مراعاته كالطائفة حوله والمتحلقة به، بحيث لا يدرى من شدة اجتماعها على ذلك أولها من آخرها ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اى ممن هو معدود فى عداد العريقين فى الإيمان ، سواء كان هو عريقا أو فاعلا ما يطلق عليه به الاسم فقط. ولما كانت الشناعة والفساد فى قتال الجماعة أكثر، عبر بضمير الجمع دون التثنية ؛ تصويرا لذلك بأقبح صورة فقال: ﴿اقْتَتَلُوا﴾. اى: فاختلطوا بسبب القتال حتى كانوا كالفرقة الواحدة، ﴿فَأَصْلِحُوا﴾: اى فأوقعوا الإصلاح ليحصل الصلح. ولما كانت العبرة فى الصلح إذا وقع بين الطائفتين ما يسكن به الشر ، وإن تخلف شذان من الجانبين لا يعبأ بهم، عبّر بالتثنية دون الجمع فقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾. اى بالوعظ والإرشاد الدنيوى والأخروى، ولا تظنوا أن الباغى غير مؤمن فتتجاوزوا فيه أمر الله.

[نظم الدرر : ١٨/ ٣٧٠-٣٧١]

وعن الحسن قال : خرجت بسلاحى ليالى الفتنة فاستقبلنى أبو بكرة ، فقال : أين تريد ؟ قلت : أريد نصرة ابن عم رسول الله ﷺ ، قال: قال رسول الله ﷺ : « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فكلاهما من أهل النار » قيل : فهذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : « إنه أراد قتل صاحبه » .

أخرجه البخارى [٣١ ، ٦٨٧٥ ، ٧٠٨٣]

الفرد إلى الجماعة حسب السياق .

قول الحق : ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ فرعون لا يباشر إفساده في الأرض وقتله الأبناء واستحياءه النساء، بنفسه بل أعوانه وبطانته وزبانيته الذين يفعلون ذلك وهم جماعة؛ ولذلك فإن المعنى يقتضى أن يقال : ﴿وَمَلَئِهِمْ﴾.

وقوله تعالى :﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣] عاد مرة أخرى إلى الضمير المفرد ؛ لأن أمر التعذيب، أو القتل، أو غير ذلك لا يصدر إلا من واحد، وهو فرعون، أما الذين ينفذون فهم كثيرون.

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣] وعال أى مستكبر، جبار، طاغية، يعذّب عذابا مؤلما، والمسرف : هو الذى يتجاوز الحدود؛ لأن فرعون لم يكتف بالتميز على قومه من البشر، ولم يكتف بأن يكون عالياً فى الأرض علو البشر، بل كان طاغية على بشر مستضعفين؛ وأسرف فى ذلك وادّعى الألوهية وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١) [القصص: ٣٨] .

---

(١) قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ . قال ابن قتيبة: المعنى: اصنع لى الآجر ﴿فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾ أى: قصراً عالياً. وقال الزجاج: الصرح: كل بناء متسع مرتفع. وجاء فى التفسير أنه لما أمر هامان- وهو وزيره- ببناء الصرح، جمع العمال والفعلة حتى اجتمع خمسون الف بنّاء سوى الأتباع، فرفعوه وشيدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيان أحد قط، فلما تمّ ارتقى فرعون فوقه، وأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء، فرُدّت وهى متلطخة بالدم، فقال: قد قتلت إله موسى، فبعث الله تعالى جبريل فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع، فوقعت قطعة على عسكر فرعون =

ماذا قال موسى عليه السلام للذين اتبعوه؟ قال : ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] هنا شرطان ونحن نعرف أن حرف ﴿إِن﴾ للشرط. فقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ﴾ هذا شرط ، جوابه : ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ ثم يأتى الشرط الثانى : ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (١) .

إذن فهناك شرط أول وشرط ثان، كأن يقول الناظر عن التلميذ المشاغب يفصل أسبوعاً ، ولا يعود إلا ومعه ولى أمره، هنا الشرط المتأخر وهو إحضار ولي الأمر، شرط لنفاذ الشرط الأول وهو العودة إلى الدراسة.

إذن.. فالشرط فى آخر الكلام شرط لتنفيذ أوله.

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ نعرف منه أن الإيمان غير الإسلام؛ لأن الإيمان عملية وجدانية فى القلب، والإسلام عملية ظاهرية بأن تنفذ تعاليم الإسلام، هناك مؤمن

= فقتلت الف الف رجل، ووقعت أخرى فى البحر، وأخرى فى المغرب.

قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أى: أصعد إليه وأشرف عليه ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾: يعنى موسى ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فى ادعائه إلها غيرى. وقال ابن جرير: المعنى: أظن موسى كاذباً فى ادعائه أن فى السماء ربا أرسله.

[زاد المسير :٦/ ١٠٠- ١٠١]

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ قيل : إن هذا من باب التكرير للشرط ، فشرط فى التوكل على الله الإيمان به والإسلام ، أى الاستسلام لقضائه وقدره . وقيل : إن هذا ليس من تعليق الحكم بشرطين ، بل المعلق بالإيمان هو وجوب التوكل ، والمشروط بالإسلام وجوده ، والمعنى : أن يسلموا أنفسهم لله ، أى يجعلوها له سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها ؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط . [فتح القدير : ٢/ ٤٨١]

بالله ولكن لا ينفذ تعاليم الإسلام، وهناك من ينفذ تعاليم الإسلام نفاقاً ، وليس فى قلبه رصيد من الإيمان، الحق تبارك وتعالى يقول : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1] [الحجرات: ١٤] فالحق سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء الأعراب:

---

(١) ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ ، قال مجاهد: نزلت فى بنى أسد بن خزيمة، قبيلة تجاور المدينة، أظهروا الإسلام وقلوبهم دخلة، إنما يحبون المغانم وعرض الدنيا. وقيل: مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار قالوا : آمنا فاستحققنا الكرامة، فردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ ، أكذبهم الله فى دعوى الإيمان، ولم يصرح بإكذابهم بلفظه، بل بما دل عليه من انتفاء إيمانهم، وهذا فى أعراب مخصوصين. فقد قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة: ٩٩].
﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ، فهو اللفظ الصادق من أقوالكم، وهو الاستسلام والانقياد ظاهراً، ولم يواطئ أقوالكم ما فى قلوبكم ؛ فلذلك قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وجاء النفى بلما الدالة على انتفاء الشئ إلى زمان الإخبار، وتبين أن قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ لا يراد به انتفاء الإيمان فى الزمن الماضى، بل متصلاً بزمان الإخبار أيضاً ؛ لأنك إذا نفيت بلم، جاز أن يكون النفى قد انقطع؛ ولذلك يجوز أن تقول: لم يقم زيد وقد قام، وجاز أن يكون النفى متصلاً بزمن الإخبار. فإذا كان متصلاً بزمن الإخبار، لم يجز أن تقول: وقد قام ؛ لتكاذب الخبرين. وأما لما، فإنها تدل على نفى الشى متصلا بزمان الإخبار، ولذلك امتنع لما يقم زيد وقد قام للتكاذب. والظاهر أن قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ليس له تعلق بما قبله من جهة الإعراب. وقال الزمخشرى: فإن قلت: هو بعد قوله ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة؛ قلت: ليس كذلك، فإن فائدة قوله: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾ هو تكذيب دعواهم، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ توقيت لما أمروا به أن يقولوه، كأنه قيل لهم: ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ حين لم يثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ؛ لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير فى قوله: ﴿قُولُوا﴾ . انتهى. والذى يظهر أنهم أمروا أن يقولوا : ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ غير مقيد بحال ، وأن : =

لقد قمتم بالعملية الظاهرية للإسلام ، وهى قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولكن قلوبكم لم تؤمن، فالإيمان لم يدخل قلوبكم.

موسى عليه السلام يقول للذين آمنوا إن كان إيمانكم حقيقياً ، فتوكلوا على الله سبحانه وتعالى، أى أسلموا إليه زمامكم فى كل أمر من الأمور.

إذن.. فإسلامك لا ينفع إلا إذا كنت قد آمنت، والتوكل على الله لا ينشأ إلا بالإسلام، ولكن بماذا أجاب أتباع موسى؟ قالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ، ومعنى ذلك أنهم استجابوا ، أى : آمنوا وأسلموا .

ولكن فى قصة نوح عليه السلام قال: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي﴾[1] قالها نوحٌ عن نفسه، أما فى قصة موسى توكل هو على الله ، وطلب من القوم أن يتوكلوا ، فقال القوم: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ ، وإذا تقدم الجارّ والمجرور على الفعل يكون هذا أسلوب حصر، عندما نقول: ﴿عَلَى اللَّهِ

= ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾ . إخبار غير قيد فى قولهم. وقال الزمخشرى: وما فى ﴿لَمَّا﴾ من معنى التوقع دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد. انتهى. ولا أدرى من أى وجه يكون ما نفى بـ ﴿لَمَّا﴾ يقع بعد ﴿وَلَمَّا﴾، إنما تنفى ما كان متصلاً بزمان الإخبار، ولا تدل على ما ذكر،وهى جواب لقد فعل، وهب أن قد تدل على توقع الفعل. فإذا نفى ما دل على التوقيع، فكيف يتوهم أنه يقع بعد : ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحجرات: ١٤] بالإيمان والأعمال ؟ وهذا فتح لباب التوبة.

[البحر المحيط : ٩/٥٢٣- ٥٢٤]

(١) قال البقاعى: فى قوله تعالى: ﴿إِنِّي﴾ أى جسرت على ذلك لانى ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ معتمدا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ الملك المرهوب عقابه الذى لا ملك سواه ولا رب غيره؛ وبين إحاطة ملكه بقوله: ﴿رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أى الذى أوجدنا ودبر أمورنا قبل أن يخلقنا، فعلم ما يعمل كل منا فى حق الآخر . [نظم الدرر :٩/٣١١]

﴿تَوَكَّلْنَا﴾ ، معناها أنه لا توكل لنا إلا على الله[1] ، فإذا قلت: توكلت على الله يصح العطف ، كأن تقول : توكلت على الله، ثم فلان، وفلان، ولكن إذا قلت: على الله توكلت لا يأتى عطف أبداً ، وهذا اسمه أسلوب حصر؛ أى أنك حصرت التوكل على الله، ولا يتجاوز إلى غير الله ، والذين آمنوا برسالة موسى قالوا: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] هذا دعاؤهم بعد التوكل، ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [2] الناس تحسب أن الفتنة هى الإصابة بسوء، ولكن الفتنة هى اختبار ، ونتيجتها هى التى تعطى الخير أو السوء، عندما يدخل

---

(١) عن عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ، كان إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل يقول: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد، أنت قيّام[1] السماوات والأرض، ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت. أنت إلهى لا إله إلا أنت». أخرجه الترمذى [٣٤١٨] وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٧١٩].

(٢) قال الرازى: ثم بيّن تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ اى توكلنا عليه، ولا نلتفت إلى أحد سواه، ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء، فطلبوا من الله تعالى شيئين:

أحدهما: أن قالوا ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ . وفيه وجوه:

الأول: أن المراد لا تفتن بنا فرعون وقومه؛ لأنك لو سلطتهم علينا لوقع فى قلوبهم=

---

(١) الله تعالى القيُّوم والقيَّام . ابن الأعرابى : القيُّوم والقيَّام والمدبر واحد . وقال الزجاج : القيُّوم والقيَّام فى صفة الله تعالى ، وأسمائه الحسنى : القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم . وقال الفراء : صورة القيُّوم من الفعل : الفَيْعُول ، وصورة القيَّام : الفَيْعَال ، وهما جميعًا مدح . [لسان العرب : ١٢/٥٠٤]

الطالب الامتحان هذا فتنة اختبار لعلمه ، الامتحان فى ذاته ليس عيباً ولا يذم ، وإنما الذى يكون خيرًا أو شراً هو النتيجة، فإن نجحت كان خيراً وإن رسبت كان شراً.

= أنا لو كنا على الحق لما سلطتهم علينا، فيصير ذلك شبهة قوية فى إصرارهم على الكفر ، فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم.

الثانى: أنك لو سلطتهم علينا لاستوجبوا العقاب الشديد فى الآخرة ، وذلك يكون فتنة لهم.

الثالث: ﴿لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أى موضع فتنة لهم، أى موضع عذاب لهم.

الرابع: أن يكون المراد من الفتنة المفتون ؛ لأن إطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز، كالخلق بمعنى المخلوق، والتكوين بمعنى المكون، والمعنى: لا تجعلنا مفتونين، أى لا تمكنهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذى قبلناه، وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾.

وأما المطلوب الثانى : فى هذا الدعاء فهو قوله تعالى:

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

واعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم ، وذلك لأنا إن حملنا قولهم: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ على أنهم إن سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم فى أن هذا الدين باطل ، فتضرعوا إليه تعالى فى أن يصون أولئك الكفار عن هذه الشبهة، وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لأنفسهم. وذلك يدل على أن عنايتهم بمصالح دين أعدائهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم، وإن حملناه على أن لا يمكّن الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين ؛ كان ذلك أيضا دليلا على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم ، وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة.

[التفسير الكبير :١٧/١٤٦- ١٤٧]

والفتنة: أصلها للذهب، فالذهب الخالص النقى عيار (٢٤) عندما يستخدم فى صناعة الحلى ، يكون لينا غير متماسك، فيضيفوا له معادن أخرى تعطيه شيئاً من الصلابة، وكلما زادت المعادن الغريبة عن الذهب زادت صلابته، فالذهب عيار (١٦) أصلب من الذهب عيار (١٨)، وعيار (١٨) أصلب من الذهب عيار (٢١) ولكننا إذا أردنا أن نخلص الذهب من المعادن الأخرى التى أضيفت إليه، نضعه على النار فتخرج المعادن الغريبة ويصبح الذهب عيار (٢٤) مرة أخرى، ففتنت الذهب: أى وضعته على النار لاختبره إن كان فيه مواد غريبة أم لا .

أتباع موسى دعوا الله ألا يكونوا فتنة ، أى مفتونين بغيرهم، أو فاتنين لغيرهم، دعوا الله ألا يسلط فرعون عليهم ؛ حتى لا يرتدوا عن دينهم إلى دين فرعون، إنهم يستعيذون بالله من أن يسلط عليهم فرعون بقوته وجبروته وزبانيته، فيضعفوا ويخضعوا لدين فرعون؛ خوفاً من عذابه ويدعون الله كذلك ألا يكونوا فاتنين، أى: أن يكونوا غير متبعين لدينهم الاتباع الحقيقى، فيكونون فتنة للذين كفروا ويريدون أن يؤمنوا ، فعندما يرون أنهم لا يتبعون دينهم الاتباع الصحيح، يقولون: هؤلاء قوم لا يتبعون الحق ، فينصرفون عن الإيمان بدين موسى.

إذن فهناك فتنة من أتباع موسى لقوم فرعون، بأنهم يكونون مثلاً سيئاً للإسلام، فيصدّون كل من يباشر الدين الجديد قلبه، أو أن يُسلط عليهم فرعون وقومه فيضعفوا ويتبعوا دين فرعون .

وإبراهيم عليه السلام خليل الرحمن وأبو الأنبياء يقول: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥] أيكون إبراهيم عليه السلام ومن آمن معه فتنة للكافرين؟! نعم؛ لأنه لو لم ينفذ تعاليم الله ومنهجه، لكان فتنة تجعل الذين يريدون أن يؤمنوا من

الكفار ينصرفون عن الإيمان بالدين الجديد؛ ولذلك كان إبراهيم عليه السلام يؤدى التكاليف على أكمل وجه وأتمه، وذلك قول الله تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤] لماذا ؟ لأن إبراهيم عليه السلام أسوة، واو لم يتمّ ما أمره الله به وأدّاه بطريقة سطحية، لقالوا انظروا إلى من يعظ لناس ولا يعظ نفسه، ولكان فتنة لكل من يريد أن يؤمن.

أتباع موسى عليه السلام أرادوا أن يدفعوا فتنتين عن أنفسهم، أن يجبرهم فرعون بقوته وقسوته على ترك دينهم، أو أن يراهم أعداؤهم غير منفذين لتعاليم دينهم ؛ فينصرف من يريد منهم أن يؤمن برسالة موسى.

وقد يتساءل بعض الناس، لماذا انشغل قوم موسى بأمر عدوهم؟ وألا يكونوا فتنة له حتى لا يؤمن ، ولماذا انشغلوا بهم مع أنهم قوم ظالمون؟

نقول: إن الناس فى عداوتهم عندما يكون لهم عدو، يدعون عليه بالشر، مع أن الذى أتعبهم من عدوهم هو الشر فيه، فمن صالحهم أن يدعوا له بالخير؛ لأن خيره سيمنع عنهم شراً كثيراً، الواحد منا فى انفعال العداوة يدعو على عدوه بالشر. ولكن الأصلح أن تدعو له بالهدى؛ لأن هداه سينفعك فإذا اهتدى عدوك وآمن، فإيمانه راجع بالنفع عليك، فأنت حين تؤمن يكون ذلك نفعاً لعدوك؛ لأنك لا تؤذيه ولا تبغى عليه، ولا تطغى ولا تظلمه؛ فكأن إيمانك قد نفع عدوك وأنقذه من شر كبير.

وأما متى تنتفع أنت؟ إنك تنتفع حين يؤمن عدوك؛ لأنه حين يؤمن يزول عنك أذاه وظلمه .

إن دعاء المؤمنين برسالة موسى عليه السلام وقولهم : ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ هو دعاء فى ظاهره لقوم ظلموا، والظلم فيه أشياء كثيرة ، هناك ظلم فى القمة مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ

﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] [لقمان: ١٣] ؛ لأن الظلم معناه أن تأخذ حق وتعطيه لغير مستحق له، وقمة الظلم أن تأخذ حق الألوهية الذى هو حقًا لله تبارك وتعالى وتنسبه لغيره سبحانه، هذا قمة الظلم[2] ، ثم هناك ظلم هو من الكبائر، وظلم من الصغائر، فالظلم له مراحل. قول أتباع موسى : ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٦] كلمة ﴿وَنَجِّنَا﴾ : أى اجعلنا بنجوى، من أين جاءت هذه النجوى؟ إن الذى كان يخيف الأقدمين هو سيل الماء، فالماء إذا فاض فإن الطريق الوحيدة للنجاة، هو أن يصعد الإنسان إلى منطقة عالية، والطوفان لا ينجو منه إلا من استطاع أن يصعد إلى منطقة عالية قبل أن يغرقه الطوفان، إذن فكلمة ﴿وَنَجِّنَا﴾ : أى أجعلنا بنجوى أى فى مكان مرتفع؛ لنكون من الناجين ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ ما هى الرحمة؟ الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ

---

(١) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله ﷺ «إنه ليس بذاك ، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. أخرجه البخارى [٤٧٧٦].

(٢) الظلم: وضع الشئ فى غير موضعه. وأصل الظلم : الجور ومجاوزة الحد ، وفى التنزيل العزيز: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال ابن عباس وجماعة من أهل التفسير: لم يخلطوا إيمانهم بشرك، وروى ذلك عن حذيفة وابن مسعود وسلمان، وتأولوا فيه قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. والظلم: الميل عن القصد، والعرب تقول: الزم هذا الصوب ولا تظلم عنه أى لا تجُر عنه. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ يعنى أن الله تعالى هو المحى المميت الرزاق المنعم وحده لا شريك له، فإذا أشرك به غيره فذلك أعظم الظلم ؛ لأنه جعل النعمة لغير ربها. [لسان العرب : ١٢/٣٧٣]

الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] الشفاء أى أن تزول الأمراض التى أصابت المجتمع من مخالفة منهج الله ، فعندما يخالف الناس منهج الله، يمتلىء المجتمع بالأمراض التى تجعل معيشتهم ضنكًا وينتشر الظلم والفساد، وتكثر السرقة والرشوة، وأكل حقوق الناس، وغير ذلك من الأمراض التى تكدر صفو حياة الذين يعيشون فى هذا المجتمع، وتنغصّ عليهم حياتهم، فإذا اتبع الناس منهج القرآن شفى المجتمع من كل هذه الأمراض [1].

ثم تأتى بعد ذلك الرحمة، فيقى منهج القرآن المجتمع من أن تعود إليه هذه الداءات مرة أخرى .

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ الجمهور: ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ بالنون وقرأ أبو عمرو بالتخفيف. وقرأ مجاهد بالياء التحتية والتخفيف، ورواها المروزى عن حفص، و ﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس. وقيل: للتبعيض، وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لاشفاء فيه، وردّه ابن عطية بأن المبعض هو إنزاله. واختلف أهل العلم فى معنى كونه شفاء على قولين: الأول: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه.

القول الثانى: أنه شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك، ولا مانع من حمل الشفاء على المعنيين من باب عموم المجاز، أو من باب حمل المشترك على معنييه.

ثم ذكر سبحانه أنه رحمة للمؤمنين ؛ لما فيه من العلوم النافعة المشتملة على ما فيه صلاح الدين والدنيا، ولما فى تلاوته وتدبره من الأجر العظيم الذى يكون سببا لرحمة الله سبحانه ومغفرته ورضوانه، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

[فتح القدير : ٣/ ٢٥٩]

إذن قوله تعالى : ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ اى لا تجعل أذاهم يصيبنا أو يعود إلينا [1].

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ اى خلّصنا : ﴿مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ اى: من فرعون وقومه؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة.
[تفسير القرطبى : ٨/ ٣٧٠]

* وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون !! *

فلما تجمعوا فى اليوم المعلوم وبدأت المبارزة طلب موسى منهم أن يُلقوا هم أولاً قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤)﴾(١) [الشعراء] فألقوا ما معهم من

(١) قال الرازى: قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ .

اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لابد من أن يبدأ موسى أو يبدأوا ثم إنهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم، وقالوا: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

فلما تواضعوا له تواضع هو أيضاً لهم فقدمهم على نفسه، وقال: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾. فإن قيل: كيف جاز لموسى عليه السلام أن يأمر السحرة بإلقاء الحبال والعصى، وذلك سحر وتلبيس وكفر والأمر بمثله لا يجوز ؟

الجواب : لا شبهة فى أن ذلك ليس بأمر ؛ لأن مراد موسى عليه السلام منهم كان أن يؤمنوا به ، ولا يقدموا على ما يجرى مجرى المغالبة، وإذا ثبت هذا وجب تأويل صيغة الأمر وفيه وجوه:

أحدها: ذلك الأمر كان مشروطاً ، والتقدير : ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين، كما فى قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وثانيها: لما تعين ذلك طريقاً إلى كشف الشبهة صار جائزاً .

وثالثها: أن هذا ليس بأمر بل هو تهديد. أى إن فعلتم ذلك أتينا بما يبطله، كقول القائل: لئن رميتنى لأفعلن ولأصنعن ، ثم يفوق له السهم فيقول له «ارمِ» فيكون =

حبال وعصى ، وأقسموا بعزة فرعون إنهم هم الغالبون ، وقد خابوا فى القسم؛ لأن العزة معناها أنه لا يُغلب ولا يُقهر، وهذه العزة الفرعونية عزة كاذبة؛ لأنها أنفة كبرياء بلا رصيد.

موسى عليه السلام طلب من السحرة أن يلقوا ما يريدون إلقاءه، الآية هنا جاءت بالغاية التى انتهى إليها بعد المشاورة بينه وبين السحرة،

= ذلك منه تهديداً .

ورابعها: ما ذكرنا أنهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه؛ على رجاء أن يصير ذلك التواضع سبباً لقبول الحق. ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب ، وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم فى كل الأحوال التواضع ؛ لأن مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة، فبأن يفعل الواحد منا أولى.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾ فروى عن ابن عباس أنهم لما القوا حبالهم وعصيهم ، وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة من الزئبق، فلما حميت اشتدت حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الأرض ، فهاب موسى عليه السلام ذلك، فقيل له : ألق ما فى يمينك: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]. ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم ، حتى أكلت الكل ثم أخذ موسى عصاه، فإذا هى كما كانت فلما رأت السحرة ذلك ، قالت لفرعون : كنا نساحر الناس فإذا غلبناهم بقيت الحبال والعصى، وكذلك إن غلبونا ، ولكن هذا حق فسجدوا وآمنوا برب العالمين.

واعلم أن فى الآثار اختلافاً فمنهم من كثر الحبال والعصى، ومنهم من توسط والله أعلم بعدد ذلك، والذى يدل القرآن عليه أنها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد، ولأن الأمر بلغ عند فرعون وقومه فى العظم مبلغاً ، يبعد أن يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة.

وأما قوله: ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ فالمراد أنهم أظهروا ما يجرى مجرى القطع على أنهم يغلبون، وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لأمر موسى عليه السلام. [التفسير الكبير : ٢٤/١٣٣ ـ ١٣٤]

وإلا فهناك آية أخرى تدل على أن المسألة لم تنته إلا بعد تشاور وحوار، فالآيات لم تأت لتكرر الحدث الواحد ؛ وإنما جاءت لتستوعب كل أجزاء الحدث . موسى اتفق معهم أن يلقوا هم أولاً ما معهم من أدوات السحر ، قال بعض العلماء : إن الحبال والعصى كانت مجوفة ، ووضعوا فيها زئبقا حتى إذا ألقوها فى الشمس تلوَّت كأنها ثعابين، وهذا من حِيَل السحرة، لكن السحر هو تخييل للمسحور، فيرى الشىء على غير حقيقته؛ لأن حقيقة الشىء لا تتغير لكن المسحور يرى الحقيقة عن طريق التخيل .

فالسحرة ألقوا حبالهم وعصيهم وأقسموا بعزة فرعون أنهم سيغلِبون، والعزة[1] هى القوة والمنعة والغلبة، ومنها العزة بالإثم وهى أنفة وكبرياء بلا رصيد من حق مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾[2] [البقرة: ٢٠٦] ومثل قوله تعالى: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ① بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ②﴾[3] [ص] أى: إنهم فى عزة بإثم وهى

---

(١) العز والعزة: الرفعة والامتناع، والعزة لله. أى له الغلبة سبحانه.
[لسان العرب: ٥/ ٣٧٤]

(٢) قال البقاعى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ له من أى قائل كان ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ أى: الملك الأعظم الذى كل شىء تحت قهره، واترك ما أنت عليه ﴿أَخَذَتْهُ﴾ أى: قهرته لما له من ملكة الكبر﴿الْعِزَّةُ﴾ فى نفسه لما فيها من الكبرياء والاستهانة بأمر الله، وليس من شان الخلق الاتصاف بذلك ، فإن العزة لله جميعا ﴿بِالإِثْمِ﴾ أى: مصاحبًا للذنب وهو العمل الرذل السافل وما لا يحل ، ويوجب العقوبة باحتقار الغير والاستكبار عليه.
[نظم الدرر :٣/ ١٧٤ ـ ١٧٥]

(٣) قال الشوكانى: قوله: ﴿صٓ﴾ قرأ الجمهور بسكون الدال كسائر حروف التهجى فى أوائل السور ، فإنها ساكنة الأواخر على الوقف. وقرأ أبى بن كعب والحسن وابن أبى إسحاق ونصر بن عاصم وابن أبى عبلة وأبو السماك بكسر الدال من غير تنوين ؛ ووجه الكسر أنه لالتقاء الساكنين. وقيل: وجه الكسر: أنه من صادى يصادى إذا عارض، والمعنى: صادِ القرآن بعملك، أى عارضه بعملك وقابله فاعمل=

= به، وهذا حكاه النحاس عن الحسن البصرى وقال: إنه فسر قراءته هذه بهذا، وعنه أن المعنى: اتله وتعرض لقراءته. وقرأ عيسى بن عمر: «صادَ» بفتح الدال ؛ والفتح لالتقاء الساكنين. وقيل: نصب على الإغراء. وقيل: معناه: صاد محمد قلوب الخلق واستمالها حتى آمنوا به، ورويت هذه القراءة عن أبى عمرو، وروى عن ابن أبى إسحاق أيضاً أنه قرأ: «صادٍ» بالكسر والتنوين تشبيها لهذا الحرف بما هو غير متمكن من الأصوات. وقرأ هارون الأعور وابن السميفع: «صادُ» بالضم من غير تنوين على البناء نحو: منذ وحيث.

وقد اختلف فى معنى «صاد» فقال الضحاك: معناه: صدق الله. وقال عطاء: صدق محمد. وقال سعيد بن جبير: هو بحر يحيى الله به الموتى بين النفختين. وقال محمد بن كعب: هو مفتاح اسم الله. وقال قتادة: هو اسم من أسماء الله. وروى عنه أنه قال: هو اسم من أسماء الرحمن. وقال مجاهد: هو فاتحة السورة. وقيل: هو مما استأثر الله بعلمه، وهذا هو الحق كما قدمنا فى فاتحة سورة البقرة. قيل: وهو إما اسم للحروف مسرودا على نمط التعبد أو اسم للسورة، أو خبر مبتدأ محذوف. أو منصوب بإضمار: اذكر أو اقرأ. والواو فى قوله: ﴿وَالْقُرانِ ذِى الذِّكْرِ﴾ هى واو القسم، والإقسام بالقرآن فيه تنبيه على شرف قدره وعلو محله، ومعنى ﴿ذِى الذِّكْرِ﴾: أنه مشتمل على الذكر الذى فيه بيان كل شىء. قال مقاتل: معنى ﴿ذِى الذِّكْرِ﴾: ذى البيان. وقال الضحاك: ذى الشرف كما فى قوله:﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء:١٠] أى شرفكم، وقيل: أى ذى الموعظة.

واختلف فى جواب هذا القسم ما هو؟ فقال الزجاج والكسائى والكوفيون غير الفراء: إنه قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ﴾ [ص:٦٤]. وقال الفراء: لانجده مستقيما لتأخره جدا عن قوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ ورجح هو وثعلب أن الجواب قوله:﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وقال الأخفش: الجواب هو:﴿إِن كُلٌّ إِلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١٤] وقيل: هو صاد؛ لأن معناه: حق، فهو جواب لقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ كما تقول:حقا والله، وجب والله. ذكره ابن الأنبارى، وروى أيضا عن ثعلب والفراء، وهو مبنى على أن جواب القسم يجوز تقدمه وهو ضعيف. وقيل: الجواب محذوف، والتقدير: والقرآن ذى الذكر لتبعثن ونحو ذلك. وقال ابن عطية: تقديره ما الأمر كما يزعم الكفار، والقول بالحذف أولى ، وقيل : إن قوله: ﴿صٓ﴾ مقسم به ، =

عزة باطلة لا أساس لها . عملية الإلقاء لم تحدث بين موسى وبين السحرة، ولكن بين موسى المؤيد بوحى الله ، والسحرة أتباع فرعون فالله سبحانه وتعالى يؤيد موسى بالحق ويؤيده بالحجة ، وهو معه فى كل مواقفه؛ تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩] فربنا لا يترك رسله ، ولكن يوجههم ساعة وقوع الحدث نفسه وقبله وبعده ولا يتركهم لحظة : قال تعالى لنوح: ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ (١) وهذا هو

= وعلى هذا القول تكون الواو فى : ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ للعطف عليه ، ولما كان الإقسام بالقرآن دالا على صدقه ، وأنه حق ، وأنه ليس بمحل للريب قال سبحانه: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢] فاضرب عن ذلك وكأنه قال: لا ريب فيه قطعا، ولم يكن عدم قبول المشركين له لريب فيه. بل هم فى عزة عن قبول الحق، أى تكبر وتجبر. وشقاق، أى: وامتناع عن قبول الحق، والعزة عند العرب: الغلبة والقهر، يقال: من عز بز، أى: من غلب سلب، ومنه: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] أى غلبنى، ومنه قول الشاعر:

يعز على الطريق بمنكبيه ... كما ابترك الخليع على القداح

[فتح القدير :٤/ ٤٠٤ ـ٤٠٥]

(١) قال ابن عطية: وقوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ عطف على قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ و ﴿الْفُلْكَ﴾: السفينة: وجمعها أيضاً فلك، وليس هو لفظاً للواحد والجمع، وإنما هو فعل وجمع على فعل، ومن حيث جاز أن يجمع فعل على فعل كأسد وأسد، جاز أن يجمع فعل على فعل، فظاهر لفظ الجمع فيها كظاهر لفظ واحد وليس به، تدل على ذلك درجة التثنية التى بينهما؛ لأنك تقول: فلك وفلكان وفلك، فالحركة فى الجمع نظير ضمة الصاد إذا ناديت «يا منصو» تريد «يا منصور»، فرخمت على لغة من يقول: يا حار بالضم، فإن ضمة الصاد هى فى اللفظ كضمة الأصل، وليست بها فى الحكم. وقوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ يمكن ـ فيما يتأول ـ أن يريد به بمرأى منا وتحت إدراك، فتكون عبارة عن الإدراك والرعاية والحفظ، ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير كما قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣] فرجع معنى الأعين فى هذه وفى غيرها إلى معنى عين فى قوله : ﴿ لِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ [طه: ٣٩] ، وذلك كله عبارة عن =

السبب فى أنه سبحانه قال لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

= الإدراك وإحاطته بالمدركات، وهو تعالى منزه عن الحواس والتشبيه والتكييف لا رب غيره. ويحتمل قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أى بملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك، فيكون الجمع على هذا للتكثير (1).

وقرأ طلحة بن مصروف « بأَعْيُنَّا » مدغماً.

وقوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧] معناه: وتعليمنا لك صورة العمل بالوحى، وروى فى ذلك أن نوحاً عليه السلام لما جهل كيفية صنع السفينة أوحى الله إليه: أن اصنعها على مثال جؤجؤ الطير، إلى غير ذلك مما عمله نوح من عملها، فقد روى أيضاً أنها كانت مربعة الشكل طويلة فى السماء، ضيقة الأعلى، وأن الغرض منها إنما كان الحفظ لا سرعة الجرى، والحديث الذى تضمن أنها كجؤجؤ الطائر أصح ومعناه أظهر؛ لأنها لو كانت مربعة لم تكن فلكاً بل كانت وعاء فقط، وقد وصفها الله تعالى بالجرى فى البحر، وفى الحديث: كان راز سفينة نوح عليه السلام جبريل عليه السلام ، والراز: القيم بعمل السفن. ومن فسر قوله: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أى بأمرنا لك، فذلك ضعيف لأن قوله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ مغن عن ذلك.

[المحرر الوجيز : ٣/١٦٩]

(1) العين : صفة ذاتية خبرية ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة ، وأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله عز وجل له عينان تليقان به ؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ .

قال الإمام ابن خزيمة : باب : ذكر إثبات العين لله جل وعلا : على ما ثبّته الخالق البارئ لنفسه فى محكم تنزيله ، وعلى لسان نبيه ﷺ ، قال الله عز وجل لنبيه نوح صلوات الله عليه : ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧] ، وقال جل وعلا : ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] . وقال عز وجل فى ذكر موسى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] ، وقال : ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] .

فواجب على كل مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبّت الخالق البارئ لنفسه ، من العين ، وغير مؤمن : من ينفى عن الله تبارك وتعالى ما قد ثبته الله فى محكم تنزيله ، ببيان النبى ﷺ الذى جعله الله مبينًا عنه ، عز وجل ، فى قوله : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] ، فبيَّن النبى ﷺ أن لله عينين ، فكان بيانه موافقًا لبيان محكم التنزيل ، الذى هو مسطور بين الدفتين ، مقروء فى المحاريب والكتاتيب .

[كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل: ١/٩٦ ، ٩٧]

وثبت فى الحديث النبوى الشريف :

عن عبد الله : ذكر النبى ﷺ يومًا بين ظهرى الناس المسيح الدّجال فقال : « إن الله ليس بأعور ، الا إن المسيح الدجال أعور العين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية ». أخرجه البخارى [٣٤٣٩ ، ٧١٢٣] واللفظ له ، ومسلم [١٦٩/ ١٠٠] .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قام رسول الله ﷺ فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال: « إنى لأنذركموه وما من نبى إلا وقد أنذره قومه، ولكنى سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه ، إنه أعور وإن الله ليس بأعور » .

أخرجه البخارى [٧١٢٧ ، ٧٤٠٨] واللفظ له ، ومسلم [٢٩٣٣/ ١٠١] .

وعن عبد الله قال : ذُكر الدجال عند النبى ﷺ فقال : « إن الله لا يخفى عليكم إن الله ليس بأعور » وأشار بيده إلى عينه « وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية » . أخرجه البخارى [٧٤٠٧] .

وعن أبى هريرة قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] إلى قوله تعالى : ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ قال : رأيت رسول الله ﷺ يضع إبهامه على أذنه، والتى تليها على عينه .

قال أبو هريرة : رأيت رسول الله ﷺ ، يقرؤها ويضع إصبيعه .

قال ابن يونس: قال المقرىء: يعنى: « إن الله سميع بصير، يعنى : أن لله سمعا وبصرا».

اخرجه أبو داود [٤٧٢٨] ، وقال الألبانى فى صحيح أبى داود [٣٩٥٤] : صحيح الإسناد.

وعن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال فى الدجال : « أعور هِجَان أزْهر ، كأن رأسه أصَلَةٌ ، أشبه الناس بعبد العزى بن قطن ، فإما هلك الهُلَّك ، فإن ربكم تعالى ليس بأعور» .

اخرجه أحمد فى المسند [١/ ٢٤٠] واللفظ له ، والطبرانى فى الكبير [١١/ ١١٧١١] ، وصححه الشيخ شاكر رقم [٢١٤٨] .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « الدجال أعور ، وإن ربكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن ، كاتب وغير كاتب » . اخرجه أحمد فى المسند [٢٢٨/٣] . وأخرجه مسلم [٢٩٣٤/ ١٠٥] عن حذيفة بلفظ : « لأنا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان أحدهما رأى العين ، ماء أبيض ، والآخر رأى العين ، نار تأجّج، فإما أدركنّ أحد فليأتِ النهر الذى يراه نارًا وليغمّض ثم ليطاطئ رأسه فيشرب منه فإنه ماء بار ، وإن الدجال ممسوح العين ، عليها ظفرة غليظة ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن ، كاتب وغير كاتب».

وفى كتاب شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام هبة الله ابن الحسن اللالكائى عند قوله: ما دل من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ : على أن من صفات الله عز وجل =

. . . .

= الوجه والعينين واليدين .
قال محققه الدكتور أحمد بن سعد الغامدى : هذا المبحث الثالث من مباحث الصفات عند المؤلف ، وهذا النوع من الصفات يسميه أهل الكلام : « الصفات السمعية » أى أنها تثبت بالسمع فقط بخلاف الصفات السابقة ، فإنها ثبتت بالسمع والعقل .
ولعل المؤلف رحمه الله لحظ هذا الجانب فى إيراد هذا المبحث على حده .
وفى هذه الصفات ـ كباقى الصفات المتقدمة ـ ثلاثة مذاهب :
الأول : مذهب أهل السنة والجماعة وهو : إثباتها لله عز وجل من غير تمثيل ولا تشبيه.
الثانى : مذهب الجهمية والمعتزلة والأشاعرة . أوّلوها فقالوا المراد بالوجه : الذات ، وبالعين : العلم ، وباليد : النعمة . . . إلخ .
والثالث : مذهب المشبهة الذين شبهوا صفاته عز وجل بصفات خلقه .
وكلا المذهبين الأخيرين خاطئ . وقد أتى أصحابهما من قبل ظنهما للمشابهة بين صفات الله وصفات خلقه .
فأما « المؤلون » فأدى بهم ذلك الظن إلى التأويل ؛ لئلا يقع التشابه بين الله وخلقه.
وأما « المشبهة » فقد ظنوا أن اتفاق الصفات فى الأسماء ، يستلزم اتفاقها فى المسميات . وهذا ظن ضال .
والمؤلون قد أثبت كل منهم لله عز وجل صفة أو اسما ، يشترك فى بعضها المخلوقون مع الله عز وجل .
فالمعتزلة أثبتت لله أسماء منها : العالم والقادر ونحوها .
والأشاعرة أثبتوا لله عز وجل سبع صفات هى : العلم والحياة والقدرة . . . إلخ .
والجميع ـ بما فيهم الجهمية ـ يثبتون لله عز وجل « ذاتًا » وهذه جميعها توجد فى المخلوقين، فكيف يوهم بعض الوارد فى الخبر التشبيه ولا يوهم البعض الآخر ذلك؟!
ولو أنهم قالوا : كما أن لله ذاتًا لا تشبه الذوات ، فكذلك لله صفات لا تشبه الصفات ، لانتهت المشكلة وسلموا من الشذوذ والاختلاف مع سلف الأمة . [٣/٤٥٧]
وسُئل الشيخ ابن عثيمين : عن إثبات العينين لله تعالى ، ودليل ذلك ؟ فأجاب بقوله :
الجواب على ذلك يتحرر فى مقامين :
المقام الأول : أن لله تعالى عينين ، فهذا هو المعروف عن أهل السنة والجماعة ، ولم يصرح أحد منهم بخلافه فيما أعلم . وقد نقل ذلك عنهم أبو الحسن الأشعرى فى كتابه : «اختلاف المصلين ومقالات الإسلاميين » . قال : مقالة أهل السنة وأصحاب الحديث فذكر أشياء ، ثم قال : « وأن له عينين بلا كيف كما قال : ﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر : ١٤].
نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية فى الفتوى الحموية [ص ٥/٩٠] من مجموع الفتاوى لابن قاسم، ونقل عنه أيضا مثله فى [ص٩٢] عن كتابه: «اختلاف أهل القِبْلة فى العَرْش» =

= ونقل عنه أيضا مثله فى [ص ٩٤] عن كتابه : « الإبانة فى أصول الديانة». وذكر له فى هذا الكتاب ترجمة باب بلفظ : « باب الكلام فى الوجه والعينين والبصر واليدين » . ونقل شيخ الإسلام فى هذه الفتوى [ص٩٩] عن الباقلانى فى كتابه : « الإبانة » . قوله : صفات ذاته التى لم يزل ولا يزال متصفا بها هى: الحياة والعلم ، إلى أن قال : « والعينان واليدان » .

ونقل ابن القيم [ص ١١٨ - ١١٩ - ١٢٠] فى كتابه : « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المُعَطِّلَة والجَهْمِيَة » عن أبى الحسن الأشعرى وعن الباقلانى فى كتابيه : « الإبانة والتمهيد » مثل ما نقل عنه شيخ الإسلام ، ونقل قبل ذلك فى [ص ١١٤] عن الأشعرى فى كتابه : « الإبانة » أنه ذكر ما خالفت به المعتزلةُ كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وإجماع الصحابة ، إلى أن قال : « وأنكروا أن يكون لله عينان مع قوله تعالى : ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ .

وقال الحافظ ابن خُزيمة فى : « كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب » [ص ٣٠] بيان النبى ﷺ الذى جعله الله مُبَيِّنًا عنه فى قوله عز وجل : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] . فبَيَّنَ النبى ﷺ أن لله عينين ، فكان بيانه موافقا لبيان محكم التنزيل ، ثم ذكر الأدلة ، ثم قال فى [ص٣٥] : « نحن نقول لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى » .

وقال فى [ص ٥٥ - ٦٥] : « فتدبروا يا أولى الألباب ما نقوله فى هذا الباب فى ذكر اليدين؛ ليجرى قولنا فى ذكر الوجه والعينين، تستيقنوا بهداية الله إياكم وشرحه جل وعلا صدوركم للإيمان بما قصّه الله جل وعلا فى محكم تنزيله ، وبيّنه على لسان نبيه ﷺ من صفات خالقنا عز وجل ، وتعلموا بتوفيق الله إياكم أن الحق والصواب والعدل فى هذا الجنس مذهبا مذهب أهل الآثار ، ومتبعى السنن، وتقفوا على جهل من يسميهم مُشَبِّهَة » . أ.هـ .

فتبين بما نقلناه أن مقالة أهل السنة والحديث أن لله تعالى عينين تليقان بجلاله وعظمته ، لا تُكَيَّفَانِ ولا تُشْبِهَانِ أعين المخلوقين ، لقوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] . روى عثمان بن سعيد الدارمى [ص ٤٧] من رَدِّه على المَرِيسى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « قرأ رسول الله ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] . فوضع أصبعه الدَّعَّاء على عينيه وإبهامه على أذنيه » .

المقام الثانى : فى ذكر الأدلة على إثبات العينين قال البخارى يرحمه الله تعالى : باب قول الله تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] . وقوله جل ذكره : ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] ثم ساق بسنده حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال ذُكِرَ الدَّجَّال عند النبى ﷺ فقال : «إنه لا يخفى عليكم أن الله ليس بأعور ـ وأشار بيده إلى عينه ـ =

= وأن المسيح الدَّجَّال أعورُ عين اليمنى ، كأنَّ عينه عنبة طافية » .
وقد استدل بحديث الدجال على أن لله تعالى عينين ، عثمان بن سعيد الدارمى فى كتابه : « الرد على بشر المريسى » الذى أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية . وقال : إن فيهما من تقرير التوحيد والأسماء والصفات بالعقل والنقل ما ليس فى غيرهما - يعنى هذا الكتاب - وكتابه الثانى : « الرد على الجهمية » قال الدارمى فى الكتاب المذكور : [ص ٤٣ ط أنصار السنة المحمدية] ، بعد أن ساق آيتى صفة العينين : ثم ذكر رسول الله ﷺ الدجال فقال: « إنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور » . قال: والعَوَر عند الناس ضِدّ البصر ، والأعور عندهم ضد البصير بالعينين . وقال فى [ص ٤٨] ففى تأويل قول رسول الله ﷺ : « إن الله ليس بأعور » بيان أنه بصير ذو عينين خلاف الأعور .
واستدل به أيضا الحافظ ابن خزيمة فى كتاب التوحيد كما فى [ص ٣١] وما بعدها .
ووجه الاستدلال به ظاهر جدا ، فإن النبى ﷺ أراد أن يبين لأمته شيئا مما ينتفى به الاشتباه عليهم فى شأن الدجال فى أمر محسوس ، يتبين لذوى التفكير العالمين بالطرق العقلية وغيرهم ، بذكر أن الدجال أعور العين ، والرب سبحانه ليس بأعور، ولو كان لله تعالى أكثر من عينين لكان البيان به أولى ؛ لظهوره وزيادة الثناء به على الله تعالى ، فإن العين صفة كمال فلو كان لله أكثر من اثنتين كان الثناء بذلك على الله أبلغ .
وتقرير ذلك أن يقال : ما زاد على العينين فإما أن يكون كمالا فى حق الله تعالى أو نقصا، فإن كان نقصا فهو ممتنع على الله تعالى لامتناع صفات النقص فى حقه ، وإن كان كمالا فكيف يهمله النبى ﷺ مع كونه أبلغ فى الثناء على الله تعالى ؟! فلما لم يذكره النبى ﷺ ، علم أنه ليس بثابت لله عز وجل وهذا هو المطلوب .
فإن قيل : تَرك ذكره من أجل بيان نقص الدجال بكونه أعور .
قلنا : يمكن أن يذكر مع بيان نقص الدجال فيجمع بين الأمرين ؛ حتى لا يفوت ذكر كمال الله عز وجل .
واعلم أن النبى ﷺ ذكر هذه العلامة الحِسِّيَّة ليبين نقص الدجال ، وأنه ليس بصالح لأن يكون ربا ، ولظهورها لجميع الناس لكونها علامة حسية بخلاف العلامات العقلية ، فإنها قد تحتاج إلى مقدمات تخفى على كثير من الناس ، لا سيما عند قوة الفتنة واشتداد المحنة، كما فى هذه الفتنة فتنة الدجال ، وكان هذا من حسن تعليمه ﷺ ، حيث يعدل فى بيانه إلى ما هو أظهر وأجلى مع وجود علامات أخرى .
وقد ذكر ابن خزيمة يرحمه الله فى « كتاب التوحيد » [ص٣١] حديثا ساقه فى ضمن الأدلة على أن النبى ﷺ بيّن أن لله تعالى عينين ، فساقه بسنده إلى أبى هريرة رضى الله عنه، أنه يقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨] . فيضع إبهامه على أذنه ، والتى تليها على عينه. ويقول هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها =

= ويضع أصبعيه .
وقد سبقت رواية الدارمى له بلفظ التثنية ، وذكر الحافظ ابن حجر فى الفتح [ص ٣٧٣/ ١٣ ط خطيب] أن البيهقى ذكر له شاهدا من حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : « إن ربنا سميع بصير وأشار إلى عينيه » وسنده حسن أ.هـ .
وقد ذكر صاحب مختصر الصواعق [ص ٣٥٩ ط الإمام] ، قبيل المثال السادس حديثا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عينى الرحمن » . الحديث ، لكنه لم يعزه فلينُظر فى صحته .
وبهذا تبين وجوب اعتقاد أن لله تعالى عينين ؛ لأنه مقتضى النص وهو المنقول عن أهل السنة والحديث .
فإن قيل ما تصنعون بقوله تعالى: ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧] . وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] حيث ذكر الله تعالى العين بلفظ الجمع ؟
قلنا : نتلقاها بالقبول والتسليم ، ونقول إن كان أقل الجمع اثنين ـ كما قيل به إما مطلقا أو مع الدليل ـ فلا إشكال ؛ لأن الجمع هنا قد دل الدليل على أن المراد به اثنتان ، فيكون المراد به ذلك . وإن كان أقل الجمع ثلاثة ، فإننا نقول جمع العين هنا كجمع اليد فى قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١] . يراد به التعظيم والمطابقة بين المضاف والمضاف إليه ، وهو ـ نا ـ المفيد للتعظيم دون حقيقة العدد ، وحينئذ لا يصادم التثنية .
فإن قيل : فما تصنعون بقوله تعالى يخاطب موسى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] . حيث جاءت بالإفراد ؟
قلنا : لا مصادمة بينها وبين التثنية ؛ لأن المفرد المضاف لا يمنع التعدد فيما كان متعددا ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨] وقوله تعالى : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣١] . فإن النعمة اسم مفرد ، ومع ذلك فأفرادها لا تحصى .
وبهذا تبيّن ائتلاف النصوص واتفاقها وتلاؤمها ، وأنها ـ ولله الحمد ـ كلها حق وجاءت بالحق ، لكنها تحتاج فى بعض الأحيان إلى تأمل وتفكير ، بقصد حسن وأداة تامة ، بحيث يكون عند العبد صدق نية بطلب الحق ، واستعداد تام لقبوله ، وعلم بمدلولات الألفاظ ، ومصادر الشرع وموارده . قال الله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] . فحث على تدبر القرآن الكريم ، وأشار إلى أنه بتدبره يزول عن العبد ما يجد فى قلبه من الشبهات ؛ حتى يتبين له أن القرآن الكريم حق يصدّق بعضه بعضا . والله المستعان .
وأجاب فضيلته على ما ذكره الرازى من أن ظاهر قوله تعالى : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ =

هناك آيات كثيرة أخرى تعرضت لموضوع السحرة منها قول الله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)﴾(1) [طه] أي أن السحرة لما ألقوا حبالهم وعصيهم تخيل

(١) قال أبو حيان: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٦] لا يكون الأمر بالإلقاء من باب تجويز السحر والأمر به ؛ لأن الغرض في ذلك الفرق بين إلقائهم والمعجزة، وتعين ذلك طريقاً إلى كشف الشبهة إذ الأمر مقرون بشرط ، أي ألقوا إن كنتم محقين =

= يقتضي أن يكون موسى مستقرا على تلك العين لاصقا بها مستعليا عليها ، وأن قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧] . يقتضي أن تكون آلة تلك الصنعة هي تلك العين .

أقول : إن ادعاءه أن ذلك ظاهر الآيتين ادعاء باطل ؛ لأن هذا المعنى الذى ادعى أنه ظاهر الكلام ، معنى باطل ، لا يقوله عاقل ، كما اعترف به هو ، فإذا كان معنى باطلا ، لا يقوله عاقل ، فكيف يسوّغ لمؤمن بل لعاقل أن يقول : إنّ هذا ظاهر كلام الله تعالى ؟! إن من جوّز أن يكون هذا ظاهر كلام الله عز وجل ، فقد قدح في الله عز وجل ، وفي كلامه الكريم ، حيث جعل مدلوله معنى باطلا ، لا يقوله العقلاء ، وإذا تعذّر أن يكون هذا المعنى الباطل ظاهر هذا الكلام ، تعيّن أن يكون ظاهره معنى آخر يليق بالله تعالى ، وهو في الآية الأولى أن تربية موسى ﷺ على عين الله تعالى ، وينظر إليه بعينه ، كما تقول جرَى هذا الشيء على عيني أي حصل وأنا أشاهده وأراه بعيني .

والمعنى في الآية الثانية أن صُنْع نوح ، عليه الصلاة والسلام ، السفينة كان بعين الله تعالى، أي مصحوبا بعينه يراه الله تعالى بعينه ، فيسدّده ويصلح صنيعه ، كما تقول : صنعت هذا بعيني ، أي صنعته وأنا أرعاه بعيني ، وإن كانت آلة الصنع اليد أو الآلة . وتقول كتبته بعيني، أي كتبته وأنا أنظر إليه بعيني ، وإن كانت الكتابة باليد أو بالآلة .

وهذا التعبير لهذا المعنى تعبير عربي مشهور . والقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ، فهو محمول على ما تقتضيه اللغة العربية ، إلا أن يكون هناك حقيقة شرعية انتقل المعنى إليها كالصلاة والصيام ونحوها ، فيحمل على الحقيقة الشرعية . وكتاب التأسيس الذى نقل السائل منه هذه الكلمات قد نقضه شيخ الإسلام ابن تيمية يرحمه الله ، فليت السائل يحصل على نسخة من نقضه . [فتاوى العقيدة : ٩٠ ـ ٩٨]

موسى أنها تسعى فخاف ، فأوحى الله إليه : ﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ فهذه لقطة لم تذكرها الآيات هنا ، ولكن ذكرتها فى آيات

= لقوله : ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] ثم قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] وفى الكلام حذف تقديره « فالقوا فإذا » .

قال أبو البقاء: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾ [طه: ٦٦] الفاء جواب ما حذف وتقديره : «فألقوا» و«إذا» فى هذا ظرف مكان، والعامل فيه : ألقوا . انتهى. فقوله: ﴿فَإِذَا﴾ الفاء جواب ما حذف وتقديره: «فألقوا» ليست هذه فاء جواب ؛ لأن «فألقوا» لا تجاب، وإنما هى ، للعطف عطفت جملة المفاجأة على ذلك المحذوف. وقوله «وإذا» فى هذا ظرف مكان يعنى أن «إذا» التى للمفاجأة ظرف مكان وهو مذهب المبرد وظاهر كلام سيبويه، وقوله: والعامل فيه ألقوا ليس بشىء ؛ لأن الفاء تمنع من العمل ولأن «إذا» هذه إنما هى معمولة لخبر المبتدأ الذى هو: ﴿حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ [طه: ٦٦] إن لم يجعلها هى فى موضع الخبر ؛ لأنه يجوز أن يكون الخبر ﴿يُخَيَّلُ﴾ ، ويجوز أن تكون إذا: ﴿يُخَيَّلُ﴾ فى موضع الحال، وهذا نظير: خرجت فإذا الأسد رابض ورابضاً فإذا رفعنا رابضاً كانت «إذا» معمولة، والتقدير فبالحضرة الأسد رابض أو فى المكان، وإذا نصبنا كانت «إذا» خبراً ولذلك تكتفى بها، وبالمرفوع بعدها كلاماً نحو خرجت فإذا الأسد.

وقال الزمخشرى: يقال فى «إذا» هذه «إذا» المفاجأة والتحقيق فيها أنها «إذا» الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها خصت فى بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً وهو فعل المفاجأة، والجملة ابتدائية لا غير، فتقدير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُم﴾ [طه: ٦٦] ففاجأ موسى عليه السلام وقت تخييل حبالهم وعصيهم، وهذا تمثيل والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعى انتهى. فقوله: والتحقيق فيها إذا كانت الكائنة بمعنى الوقت هذا مذهب الرياشى أن «إذا» الفجائية ظرف زمان وهو قول مرجوح، وقول الكوفيين أنها حرف قول مرجوح أيضاً ، وقوله : الطالبة ناصباً لها صحيح، وقوله: وجملة تضاف إليها، هذا عند أصحابنا ليس بصحيح ؛ لأنها إما أن تكون هى خبر المبتدأ ، وإما معمولة لخبر المبتدأ، وإذا كان كذلك استحال أن تضاف إلى الجملة ؛ لأنها إما أن =

أخرى؛ ولذلك إذا قال لك أحد : إن القرآن فيه تكرار، قل له: تنبه إلى أنه لا تكرار، ولكن استيعاب للقطات الحدث.

إذن موسى ألقى عصاه بعد وحى من ربه أثناء المعركة، قال تعالى :

= تكون بعض لجملة أو معمولة لبعضها، فلا تمكن الإضافة. وقوله: خصت فى بعض المواضع بأن يكون ناصبها فعلاً مخصوصاً ، وهو فعل المفاجأة قد بينا الناصب لها، وقوله والجملة ابتدائية لا غير هذا الحصر ليس بصحيح ، بل قد نص الأخفش فى الأوسط على أن الجملة المصحوبة «بقد» تليها وهى فعلية ، تقول: خرجت فإذا قد ضرب زيد عمراً وبنى على ذلك مسألة الاشتغال ، خرجت فإذا زيد قد ضربه عمرو، برفع زيد ونصبه، وأما قوله: والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة إليه السعى ، فهذا بعكس ما قدّر بل المعنى على مفاجأة حبالهم وعصيهم إياه. فإذا قلت: خرجت فإذا السبع، فالمعنى أنه فاجأنى السبع وهجم ظهوره.

وقرأ الحسن وعيسى «عُصيهم» بضم العين حيث كان وهو الأصل ؛ لأن الكسر اتباع لحركة الصاد وحركة الصاد لأجل الياء. وفى كتاب «اللوامح الحسن» وعُصْيهم بضم العين وإسكان الصاد وتخفيف الياء مع الرفع ، فهو أيضاً جمع كالعامة لكنه على فعل. وقرأ الزهرى والحسن وعيسى وأبو حيوة وقتادة والجحدرى وروح والوليدان وابن ذكوان : «تخيل» بالتاء مبنياً للمفعول وفيه ضمير الحبال والعصى و: ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ بدل اشتمال من ذلك الضمير. وقرأ أبو السماك : «تخيل» بفتح التاء أى تتخيل وفيها أيضاً ضمير ما ذكر ، و ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ بدل اشتمال أيضاً من ذلك الضمير ، لكنه فاعل من جهة المعنى. وقال ابن عطية: إنها مفعول من أجله. وقال أبو القاسم بن حبارة الهذلى الأندلسى فى كتاب «الكامل» من تأليفه عن أبى السماك أنه قرأ : «تخيل» بالتاء من فوق المضمومة وكسر الياء ، والضمير فيه فاعل، و: ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ فى موضع نصب على المفعول به. ونسب ابن عطية هذه القراءة إلى الحسن والثقفى يعنى عيسى، ومن بنى تخيل للمفعول فالمخيل لهم ذلك هو الله للمحنة والابتلاء ، وروى الحسن بن أيمن عن أبى حيوة نخيل بالنون وكسر الياء، فالمخيل لهم ذلك هو الله ، والضمير فى: ﴿إليه﴾ الظاهر أنه يعود على موسى عليه السلام لقوله قبل: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه:٦٦] ولقوله بعد: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه:٦٧] وقيل : يعود على فرعون ، والظاهر من القصص أن الحبال =

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥] كلمة

= والعصى كانت تتحرك وتنتقل الانتقال الذى يشبه انتقال من قامت به الحياة؛ ولذلك ذكر السعى وهو وصف من يمشى من الحيوان، فروى أنهم جعلوا فى الحبال زئبقاً وألقوها فى الشمس فأصاب الزئبق حرارة الشمس ، فتحرك فتحركت العصى والحبال معه . وقيل : حفروا الأرض وجعلوا تحتها ناراً وكانت العصى والحبال مملوءة بزئبق، فلما أصابتها الأرض تحركت وكان هذا من باب الدرك . وقيل : إنها لم تتحرك وكان ذلك من سحر العيون ، وقد صرح تعالى بهذا فقالوا : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] فكان الناظر يخيل إليه أنها تنتقل. وتقدم شرح أوجس.

وقال الزمخشرى: كان ذلك لطبع الجبلة البشرية وأنه لا يكاد يمكن الخلو من مثله، وهو قول الحسن. وقيل: كان خوفه على الناس أن يفتتنوا لهول ما رأى قبل أن يلقى عصاه وهو قول مقاتل، والإيجاس هو من الهاجس الذى يخطر بالبال ، وليس يتمكن و: ﴿خِيفَةً﴾ أصله خوفة قلبت الواو ياء لكسرة ما قبلها. وقال ابن عطية: يحتمل أن تكون خوفه بفتح الخاء قلبت الواو ياء ثم كسرت الخاء للتناسب.

﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨] تقرير لغلبته وقهره وتوكيد بالاستئناف ، وبكلمة التوكيد وبتكرير الضمير وبلام التعريف، وبالأعلوية الدالة على التفضيل: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ لم يأت التركيب وألق عصاك لما فى لفظ اليمين من معنى اليمن والبركة. قال الزمخشرى: وقوله: ﴿مَا فِي يَمِينِكَ﴾ ولم يقل عصاك جائز أن يكون تصغيراً لها ، أى: لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم، وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذى فى يمينك ، فإنه بقدرة الله يتلقفها على حدته وكثرتها وصغره وعظمها، وجائز أن يكون تعظيماً لها ، أى: لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة ، فإن فى يمينك شيئاً أعظم منها كلها ، وهذه على كثرتها أقل شىء وأنزره عندها، فألقه تتلقفها بإذن الله وتمحقها انتهى. وهو تكثير وخطابه لا طائل فى ذلك.

وفى قوله: ﴿تَلْقَفْ﴾ حمل على معنى ما لا على لفظها إذ أطلقت ما على العصا والعصا مؤنثة، ولو حمل على اللفظ لكان بالياء. وقرأ الجمهور تلقف بفتح اللام وتشديد القاف مجزوماً على جواب الأمر. وقرأ ابن عامر كذلك وبرفع الفاء على الاستئناف أو على الحال من الملقى. وقرأ أبو جعفر وحفص وعصمة عن عاصم: ﴿تَلْقَفْ﴾ بإسكان اللام والفاء وتخفيف القاف، وعن قنبل أنه كان يشدد من تلقف=

﴿تَلْقَفْ﴾ معناها: تبتلع بسرعة وبقوة، فالسرعة فى اختصار الزمن ومعها القوة، فجمعت بين السرعة والقوة، «والإفك» هو قلب الحقائق؛ ولذلك

= يريد يتلقف.

وقرأ الجمهور: ﴿كَيْدُ﴾ بالرفع على أن: ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الذى والعائد محذوف، ويحتمل أن تكون: ﴿مَا﴾ مصدرية أى أن صنعتم كيد، ومعنى: ﴿صَنَعُوا﴾ هنا زوّروا وافتعلوا كقوله: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧]. وقرأ مجاهد وحميد وزيد بن على: ﴿كَيْدَ سَاحِرٍ﴾ بالنصب مفعولاً لصنعوا وما مهيئة.

وقرأ أبو بحرية والأعمش وطلحة وابن أبى ليلى وخلف فى اختياره وابن عيسى الأصبهانى وابن جبير الأنطاكى وابن جرير وحمزة والكسائى «سِحْر» بكسر السين وإسكان الحاء بمعنى ذى سحر أوذوى سحر، أو هم لتوغلهم فى سحرهم كأنهم السحر بعينه أو بذاته، أو بين الكيد ؛ لأنه يكون سحراً وغير سحر كما تبين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو.

وقرأ الجمهور ساحر اسم فاعل من سحر، وأفرد ساحر من حيث إن فعل الجميع نوع واحد من السحر، وذلك الحبال والعصى ، فكأنه صدر من ساحر واحد لعدم اختلاف أنواعه.

وقال الزمخشرى: لأن القصد فى هذا الكلام إلى معنى الجنسية لا إلى معنى العدد، فلو جمع لخيل أن المقصود هو العدد الا ترى أن قوله: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أى: هذا الجنس انتهى.

وعرف فى قوله: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ لأنه عاد على ساحر النكرة قبله كقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥ - ١٦] وقال الزمخشرى: إنما نكر يعنى أولاً من أجل تنكير المضاف لا من أجل تنكيره فى نفسه كقول العجّاج:

فى سعى دنيا طال ما قد مدت

وفى حديث عمر رضى الله عنه: « لا فى أمر دنيا ولا فى أمر آخرة» المراد تنكير الأمر ، كأنه قال: إنما صنعوا كيد سحرى ، وفى سعى دنياوى وأمر دنياوى، وأخراوى . انتهى. وقول العجاج: فى سعى دنيا، محمول على الضرورة إذ دنيا =

سمى الكذب إفكًا ؛ لأنه يقلب الحقيقة، فالكذب لا يوافق واقع الأشياء فالنسبة الكلامية فيه لا تطابق النسبة الواقعية، وقد قلنا سابقاً إن هناك ثلاث نسب فى الكلام، نسبة ذهنية ، ونسبة ، كلامية ونسبة واقعية، فقبل أن أتكلم بأى قضية لابد أن ترد على ذهنى، وبعد ذلك أقولها فتصبح نسبة كلامية، فإذا كان الكلام واقعاً أى مطابقاً للواقع فهو صدق، وإذا كان مخالفاً للواقع فهو كذب وإفك. إذن معنى «يأفكون» أى: يقلبون الحقائق، فيزعمون وقوع ما ليس له وجود وينكرون الواقع الملموس .

وكون عصا موسى تنقلب إلى حية تلقف ما يأفكون ، أى تبتلعه بسرعة وقوة فالسرعة تختصر الزمن، والقوة توفر الجهد؛ لأن الإنسان قد يخاف فى المعركة فتخور قوته ويضعف، ولكن الموقف هنا كان بسرعة وقوة ، فلما ابتلعت الحية العصى والحبال التى ألقاها السحرة. . ماذا حدث؟ دهش السحرة وألقى السحرة ساجدين ، وذلك قول الله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾ [الشعراء] لم يقل : سجد السحرة، ولكن قال : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ﴾ مما يدل على أن أمراً حدث فوق إرادتهم، فكان جلال الموقف هو الذى جعلهم يخرون ساجدين وهم يقولون: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ

= تأنيث الأدنى، ولا يستعمل تأنيثه إلا بالألف واللام أو بالإضافة ، وأما قول عمر فيحتمل أن يكون من تحريف الرواة.

ومعنى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ﴾ لا يظفر ببغيته: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ اى حيث توجه وسلك. وقالت فرقة معناه: أن الساحر بقتل حيث تقف وهذا جزاء من عدم الفلاح. وقرأت فرقة : «أين أتى» وبعد هذا جمل محذوفة، والتقدير: فزال إيجاس الخيفة وألقى ما فى يمينه ، وتلقفت حبالهم وعصيهم ثم انقلبت عصا، وفقدوا الحبال والعصى وعلموا أن ذلك معجز ليس فى طوق البشر . [البحر المحيط : ٧/ ٣٥٤ ـ ٣٥٧]

﴿مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[1] مع أن الإيمان يسبق العمل، والسجود لا يتأتى إلا بعد إيمان، ولكن السحرة سجدوا أولاً ، ثم قالوا ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ولكن هنا نلاحظ أن هناك فرقاً بين وقوع الإيمان، وبين أن تخبر أنت بالإيمان الواقع، فالذى تأخر هو الإخبار بالإيمان؛ لأنهم لم يسجدوا إلا عن إيمان؛ لأنهم حين رأوا ما حدث من عصا موسى عرفوا أنها معجزة إلهية وليست سحراً، فعادوا إلى الفطرة الإيمانية فى النفس البشرية فآمنوا، وكأن قائلاً يقول لهم لماذا سجدتم؟ فقالوا : ولماذا لا نسجد لقد ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

فهناك فرق بين حدوث الإيمان منهم وبين الإخبار بالإيمان وقولهم : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٤٧] ربما ظن فرعون أنهم يتحدثون عنه فأوضحوا قصدهم فقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٨] أى أنهم آمنوا بالله رب العالمين، وكفروا بفرعون الذى ادّعى الألوهية زوراً وبهتاناً ، فالسحرة خرّوا سجّداً ولم يفكروا فى عاقبة ما أقدموا عليه؛ لأن الأمور التى بالفطرة لا علاج للفكر فيها، وهنا غضب فرعون من فعلهم وهدّدهم، قال تعالى : ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى

---

(١) قال المراغى : ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أى قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذى دعا إليه موسى عليه السلام أول ما تكلم مع فرعون وفى هذا إيماء إلى عزل فرعون عن الربوبية، وأن سبب إيمانهم ما أجراه الله على يدى موسى وهارون من المعجزات.

وبعد أن حصحص الحق، ووضح الصبح لذى عينين، لجأ فرعون إلى العناد والمكابرة وشرع يهدّد ويتوعد، ولكن ذلك لم يجد فى السحرة شيئاً، ولم يزدهم إلا إيمانًا وتسليما، إذ كان حجاب الكفر قد انكشف، واستبان لهم نور الحق، وعلّمهم ما جهل قومهم، وأن القوة التى تؤيد موسى قوة غيبية قد أيده الله بها، وجعلها دليلاً على صدق ما يّدعى. [تفسير المراغى : ١٩/ ٦١ ـ ٦٢]

عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] [الشعراء: ٤٩] هذا القول من فرعون يبين أنه لا يشك فى أن هذه المعجزة موجبة للإيمان ، ولكنه كان ينتظر منهم أن يستأذنوا وهذا تبجُّح وتسلط، وأراد أن يبرر موقفه بين دهماء الناس وعامتهم الذين كان يمكن أن يقولوا إن فرعون لم يعد إلهًا بعد أن هُزم أمام موسى.

فقال لهم : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩] أى أنه معلمكم الكبير مع أن الجميع يعرفون أن موسى لم يجلس إلى سحرة ولم يعرف شيئاً عن السحر ، وفى الوقت نفسه هددهم فرعون بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأنه سيصلبهم أجمعين ، أى أنه سيقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس، ومعنى يصلبهم أى يربطهم فى الأعمدة أو جذوع النخل ، كما بيّنت ذلك آية أخرى، ولكن ماذا كان موقف المؤمنين أمام هذا التهديد الفرعونى؟ لقد آمنوا وانتهى الأمر ، ولا يمكن لقوة فى الأرض أن تعيدهم إلى الكفر مرة أخرى؛ ولذلك لم يهتمّوا بتهديدات فرعون.

---

(١) قال المراغى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى قال لهم: أتؤمنون به قبل أن تستأذنوا ، وقد كان ينبغى أن تفعلوا ذلك وإلا تفتاتوا على، فإنى أنا الحاكم المطاع؟ ثم التمس لإيمانهم عذرا آخر غير انبلاج الحق ؛ ليعمِّى على العامة، ويصرفهم عن وجه الحق فقال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ فأنتم فعلتم ذلك عن مواطأة بينكم وبينه.

ولاشك أن هذا تضليل لقومه، ومكابرة ظاهرة البطلان، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون هو كبيرهم الذى أفادهم صناعة السحر ؟

ثم توعدهم فقال: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وبال ما فعلتم، وسوء عاقبة ما اجترحتم. ثم بيّن ذلك بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى لأقطعن اليد اليمنى من كل منكم والرجل اليسرى، ثم لأصلبنكم أجمعين بعد ذلك.

[تفسير المراغى : ١٩/ ٦٢]

* سحروا أعين الناس *

يقول تعالى : ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٠] ، معنى ألقى الشىء أى: رماه[1] ؛ لأنهم إذا ألقوا هم أولاً سيكون هو متابعاً ، ولكن لو ألقى موسى عصاه أولا قبل أن يلقوا هم، فلن تجد أمامها شيئاً تبلعه من سحرهم، فهو أراد أن يكون الأمر لعصاه بعد أن تتحول إلى حية. والشىء الذى سيلقونه هى الحبال، والعصى التى معهم، والسحرة هنا طلبوا الخيار لموسى، ولكن موسى قال لهم: ألقوا أنتم أولا.

قال تعالى : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] ، بعض العلماء يقول: إن السحرة كانوا يحشون هذه الأشياء بالزئبق ؛ فيخيل للناس أنها تتلوى، ونحن لن نخوض فى هذه الأمور ، ولكن المهم أن الله تعالى يقول عن السحرة أنهم: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] ،أى عملوا أعمالاً تخيلية وليست واقعية، وكلمة : ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ [طه: ٦٦] تفيد أن السحر إنما يكون لعين المسحور، ولكن السحرة أنفسهم يرونها حبالاً كما هى ، وهذا هو الفرق بين معجزة موسى وسحر السحرة، فمعجزة موسى قلب للحقيقة، ولكن عند السحرة الحقيقة باقية ، ولكن القلب فى أعين الناظرين[2] .

---

(١) وألقيته أى: طرحته. تقول: ألقه من يدك وألق به من يدك، وألقيت إليه المودة وبالمودة. [لسان العرب :١٥/ ٢٧٥]

(٢) قال ابن الأثير: وجمع السحرة ، فكانوا سبعين ساحراً ، وقيل: اثنين وسبعين ، =

إذن المسألة تحتاج إلى شيئين : أن تنقلب العصا إلى حية ، وحين تنقلب إلى حية وتتحرك يراها الناس، فهم فى نفس الوقت يرون حبال السحرة ثعابين تتحرك أيضاً ، فلابد أن يكون هناك تميز ، هذا التميز كان هو اللقف، أى: أن عصا موسى التى تحولت إلى حية تبتلع ما يقابلها من ثعابين السحرة، ومادام هناك شىء يلقف فلابد أن يوجد أولا ؛ حتى يأتى

= وقيل: خمسة عشر ألفاً، وقيل: ثلاثين ألفاً، فوعدهم فرعون واتعدوا يوم عيد كان لفرعون، فصفهم فرعون وجمع الناس، وجاء موسى ومعه أخوه هارون وبيده عصاه، حتى أتى الجمع وفرعون فى مجلسه مع أشراف قومه، فقال موسى للسحرة حين جاءهم: ﴿ وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ [طه: ٦١]. فقال السحرة بعضهم لبعض: ما هذا بقول ساحر! ثم قالوا: لنأتينك بسحرٍ لم تر مثله: ﴿ وَقَالُوا: بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤] فقال له السحرة : ﴿ يا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٥] قال: بل ألقوا: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ ﴾ [الشعراء: ٤٤] فإذا هى فى رأى العين حيات أمثال الجبال قد ملأت الوادى، يركب بعضها بعضاً، فأوجس موسى خوفاً، فأوحى الله إليه: أن ﴿ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ [طه: ٦٩]، فألقى عصاه من يده فصارت ثعباناً عظيماً ، فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم، وهى كالحيات فى أعين الناس، فجعلت تلقفها وتبتلعها حتى لم تبق منها شيئاً، ثم أخذ موسى عصاه فإذا هى فى يده كما كانت.

وكان رئيس السحرة أعمى، فقال له أصحابه: إن عصا موسى صارت ثعباناً عظيماً وتلقف حبالنا وعصيّا. فقال لهم : ولم يبق لها أثر ولا عادت إلى حالها الأول؟ فقالوا: لا. فقال: هذا ليس بسحر. فخر ساجداً وتبعه السحرة أجمعون : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨] . قال فرعون: ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [طه: ٧١]. فقطعهم وقتلهم وهم يقولون: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، فكانوا أول النهار كفاراً وآخر النهار شهداء. [الكامل فى التاريخ : ١/ ١٨٢ ـ ١٨٤]

الشيء الذى يلقفه، فالله الذى يحول بين المرء وقلبه هداهم[1] إلى هذه المسألة، فهو سبحانه ينطق الكافر المعاند بما يؤيد صاحب المعجزة ، وهو موسى عليه السلام. فجعل السحرة يخيّرون موسى بين أن يلقى هو أولاً، أو يلقوا هم ، فطلب منهم أن يلقوا هم أولاً ، فلما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم خيل إلى موسى أنها تسعى، قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ .

ونحن قلنا: ذات مرة إن بعض العلماء أرادوا أن يبسطوا خفة الحركة والاحتيال الذى يقوم به السحرة - من ألاعيب وخفة يد .. إلخ.. فقالوا: إنهم حشوا الحبال والعصى زئبقًا فحين يلقونها فى الشمس تتحرك بفعل الزئبق الذى يتمدد بالحرارة ؛ فيخيل لمن يراها أنها تسعى، ولكن هناك فرقاً بين الحيلة التى يرتبها العقل بمهارة وبين علم اسمه «السحر»؛ فالسحر يُحدث تخييلات تكاد تكون حقيقية، وسنشرح ذلك فى قصة نبى الله سليمان عليه السلام عند قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، إذن فهو فن يتم تعليمه يعطى التخيل بواسطة تسخير الجن ، فهم الذين يعملون هذه الحركات ، فهى ليست حيلاً ولا خفة يدٍ كما يقولون[2] .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]

وعن عبد الله قال : كثيراً ما كان النبى ﷺ يحلف : «لاومقلب القلوب» . أخرجه البخارى [٦٦١٧]

(٢) قال فخر الدين الرازى : واعلم أن الكلام فى السحر يقع من وجوه:
المسألة الأولى: فى البحث عنه بحسب اللغة فنقول: ذكر أهل اللغة أنه فى الأصل =

= عبارة عما لطف وخفى سببه، والسحر بالنصب هو الغذاء لخفائه ولطف مجاريه، قال لبيد:

ونسحر بالطعام وبالشراب

قيل: فيه وجهان أحدهما : أنا نعلل ونخدع كالمسحور المخدوع .
والآخر: نغذى، وأى الوجهين كان فمعناه الخفاء وقال:

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصافير من هذا الأنام المسحر

وهذا البيت يحتمل من المعنى ما احتمله الأول، ويحتمل أيضاً أن يريد بالمسحر أنه ذو سحر ، والسحر هو الرئة وما تعلق بالحلقوم ، وهذا أيضاً يرجع إلى معنى الخفاء، ومنه قول عائشة رضى الله عنها: «توفى رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى» (1)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] يعنى من المخلوقين الذى يطعم ويشرب، يدل عليه قولهم: ﴿مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٥٤] ، ويحتمل أنه ذو سحر مثلنا، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام أنه قال للسحرة: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس: ٨١] ، وقال: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦] ، فهذا هو معنى السحر فى أصل اللغة.

المسألة الثانية: اعلم أن لفظ السحر فى عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه، ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع، ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله، قال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦] ، يعنى موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى، وقال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] ، وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد. روى أنه قدم على رسول الله ﷺ الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، فقال لعمرو: خبرنى عن الزبرقان فقال: مطاع فى ناديه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره، فقال الزبرقان: وهو والله يعلم أنى أفضل منه، فقال عمرو: إنه زمن المروءة، ضيق العطن، أحمق الأب لئيم الخال، يا رسول الله صدقت فيهما، أرضانى فقلت: أحسن ما علمت وأسخطنى فقلت: أسوأ ما علمت. فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحرا»(2)=

---

(1) أخرجه البخارى [٣١٠٠] بلفظ : «توفى النبى ﷺ فى بيتى ، وفى نوبتى ، وبين سحرى ونحرى. . .»

(2) أخرجه البيهقى فى الدلائل [٥/٣١٦ ، ٣١٧] ، وذكره الحافظ فى الفتح [١١/٤٠٢ ، ٤٠٣].

= فسمى النبى ﷺ بعض البيان سحراً ؛ لأن صاحبه يوضح الشىء المشكل ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه وبليغ عبارته، فإن قيل: كيف يجوز أن يسمى ما يوضح الحق وينبئ عنه سحراً؟ وهنا القائل إنما قصد إظهار الخفى لا إخفاء الظاهر، ولفظ السحر إنما يفيد إخفاء الظاهر؟ قلنا : إنما سماه سحراً لوجهين، الأول: أن ذلك القدر للطفه وحسنه استمال القلوب ، فأشبه السحر الذى يستميل القلوب، فمن هذا الوجه سمى سحراً، لا من الوجه الذى ظننت. الثانى: أن المقتدر على البيان يكون قادراً على تحسين ما يكون قبيحاً وتقبيح ما يكون حسناً ، فذلك يشبه السحر من هذا الوجه.

المسألة الثالثة: فى أقسام السحر: اعلم أن السحر على أقسام:

الأول: سحر الكلدانيين والكسدانيين الذين كانوا فى قديم الدهر، وهم قوم يعبدون الكواكب ، ويزعمون أنها هى المدبرة لهذا العالم ، ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالتهم، ورادا عليهم فى مذاهبهم. أما المعتزلة فقد اتفقت كلمتهم على أن غير الله تعالى لا يقدر على خلق الجسم والحياة واللون والطعم، واحتجوا بوجوه ذكرها القاضى ولخصها فى تفسيره وفى سائر كتبه، ونحن ننقل تلك الوجوه وننظر فيها:

أولها : وهو النكتة العقلية التى عليها يعولون أن كل ما سوى الله إما متحيز وإما قائم بالمتحيز، فلو كان غير الله فاعلا للجسم والحياة لكان ذلك الغير متحيزاً، وذلك المتحيز لابد وأن يكون قادرا بالقدرة، إذ لو كان قادراً لذاته لكان كل جسم كذلك، بناء على أن الأجسام متماثلة لكن القادر بالقدرة لا يصح منه فعل الجسم والحياة، ويدل عليه وجهان الأول: أن العلم الضرورى حاصل بأن الواحد منا لا يقدر على خلق الجسم والحياة ابتداء، فقدرتنا مشتركة فى امتناع ذلك عليها، فهذا الامتناع حكم مشترك، فلا بد له من علة مشتركة ولا مشترك هاهنا إلا كوننا قادرين بالقدرة، وإذا ثبت هذا وجب فيمن كان قادرا بالقدرة أن يتعذر عليه فعل الجسم والحياة. الثانى: أن هذه القدرة التى لنا لاشك أن بعضها يخالف بعضاً، فلو قدرنا قدرة صالحة لخلق الجسم والحياة لم، تكن مخالفتها لهذه القدرة أشد من مخالفة بعض هذه القدرة للبعض، فلو كفى ذلك القدر من المخالفة فى صلاحيتها لخلق الجسم والحياة، لوجب فى هذه القدرة أن يخالف بعضها بعضاً ، وأن تكون صالحة لخلق الجسم والحياة، ولما لم يكن كذلك علمنا أن القادر لا يقدر على خلق الجسم والحياة. =

= وثانيها: أنا لو جوّزنا ذلك لتعذر الاستدلال بالمعجزات على النبوات ؛ لأنا لو جوزنا استحداث الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية، لم يمكنا القطع بأن هذه الخوارق التى ظهرت على أيدى الأنبياء عليهم السلام صدرت عن الله تعالى، بل يجوز فيها أنهم أتوا بها من طريق السحر، وحينئذ يبطل القول بالنبوات من كل الوجوه.

وثالثها: أنا لو جوزنا أن يكون فى الناس من يقدر على خلق الجسم والحياة والألوان، لقدر ذلك الإنسان على تحصيل الأموال العظيمة من غير تعب، لكنا نرى من يدّعى السحر متوصلا إلى اكتساب الحقير من المال بجهد جهيد فعلمنا كذبه، وبهذا الطريق نعلم فساد ما يدعيه قوم من الكيمياء ؛ لأنا نقول: لو أمكنهم ببعض الأدوية أن يقلبوا غير الذهب ذهباً ، لكان إما أن يمكنهم ذلك بالقليل من الأموال، فكان ينبغى أن يغنوا أنفسهم بذلك عن المشقة والذلة ، أو لا يمكنهم إلا بالآلات العظام والأموال الخطيرة، فكان يجب أن يظهروا ذلك للملوك المتمكنين من ذلك، بل كان يجب أن يفطن الملوك لذلك؛ لأنه أنفع لهم من فتح البلاد الذى لا يتم إلا بإخراج الأموال والكنوز، وفى علمنا بانصراف النفوس والهمم عن ذلك دلالة على فساد هذا القول، قال القاضى: فثبت بهذه الجملة أن الساحر لا يصح أن يكون فاعلا لشىء من ذلك. واعلم أن هذه الدلائل ضعيفة جداً. أما الوجه الأول فنقول: ما الدليل على أن كل ماسوى الله، إما أن يكون متحيزاً، وإما قائما بالمتحيز؟ أما علمتم أن الفلاسفة مصرّون على إثبات العقول والنفوس الفلكية والنفوس الناطقة، وزعموا أنها فى أنفسها ليست بمتحيزة ولا قائمة بالمتحيز؟ فما الدليل على فساد القول بهذا؟ فإن قالوا : لو وجد موجود هكذا لزم أن يكون مثلا لله تعالى. قلنا: لا نسلم ذلك؛ لأن الاشتراك فى الأسلوب لا يقتضى الاشتراك فى الماهية، سلمنا ذلك لكن لم لا يجوز أن يكون بعض الأجسام يقدر على ذلك لذاته؟ قوله: الأجسام متماثلة، فلو كان جسم كذلك لكان كل جسم كذلك، قلنا: ما الدليل على تماثل الأجسام؟ فإن قالوا: إنه لا معنى للجسم إلا الممتد فى الجهات، الشاغل للأحيار ولاتفاوت بينها فى هذا المعنى. قلنا: الامتداد فى الجهات والشغل للأحيار صفة من صفاتها ولازم من لوازمها، ولا يبعد أن تكون الأشياء المختلفة فى الماهية مشتركة فى بعض اللوازم ، سلمنا أنه يجب أن يكون قادراً بالقدرة ، فلم قلتم: إن القادر بالقدرة =

....

= لا يصح منه خلق الجسم والحياة؟ قوله: لأن القدرة التى لنا مشتركة فى هذا الامتناع، وهذا الامتناع حكم مشترك ، فلابد له من علة مشتركة ، ولا مشترك سوى كوننا قادرين بالقدرة، قلنا: هذه المقدمات بأسرها ممنوعة، فلا نسلم أن الامتناع حكم معلل؛ وذلك لأن الامتناع عدمى والعدم لا يعلل، سلمنا أنه أمر وجودى ولكن من مذهبهم أن كثيراً من الأحكام لا يعلل، فلم لا يجوز أن يكون الأمر هاهنا كذلك، سلمنا أنه معلل، فلم قلتم: إن الحكم المشترك لا بد له من علة مشتركة، أليس أن القبح حصل فى الظلم معللا بكونه ظلماً ، وفى الكذب بكونه كذباً وفى الجهل بكونه جهلا؟ سلمنا أنه لابد من علة مشتركة ، لكن لا نسلم أنه لا مشترك إلا كوننا قادرين القدرة، فلم لا يجوز أن تكون هذه القدرة التى لنا مشتركة فى وصف معين، وتلك القدرة التى تصلح لخلق الجسم تكون خارجة عن ذلك الوصف، فما الدليل على أن الأمر ليس كذلك؟ وأما الوجه الأول: وهو أنه ليست مخالفة تلك القدرة لبعض القدر أشد من مخالفة بعض هذه القدر للبعض، فنقول: هذا ضعيف؛ لأنا لا نعلل صلاحيتها لخلق الجسم بكونها مخالفة لهذه القدر، بل لخصوصيتها المعينة التى لأجلها خالفت سائر القدر ، وتلك الخصوصية معلوم أنها غير حاصلة فى سائر القدر. ونظير ما ذكروه أن يقال: ليست مخالفة الصوت للبياض بأشد من مخالفة السواد للبياض، فلو كانت تلك المخالفة مانعة للصوت من صحة أن يرى ، لوجب لكون السواد مخالفاً للبياض أن يمتنع رؤيته.

ولما كان هذا الكلام فاسدا فكذا ما قالوه، والعجب من القاضى أنه لما حكى هذه الوجوه عن الأشعرية فى مسألة الرؤية وزيفها بهذه الأسئلة، ثم إنه نفسه تمسك بها فى هذه المسألة التى هى الأصل فى إثبات النبوة والرد على من أثبت متوسطاً بين الله وبيننا. أما الوجه الثانى وهو أن القول بصحة النبوات لا يبقى مع تجويز هذا الأصل، فنقول: إما أن يكون القول بصحة النبوات متفرعا على فساد هذه القاعدة أو لا يكون؛ فإن كان الأول امتنع فساد هذا الأصل بالبناء على صحة النبوات، وإلا وقع الدور، وإن كان الثانى فقد سقط هذا الكلام بالكلية. وأما الوجه الثالث: فلقائل أن يقول: الكلام فى الإمكان غير، ونحن لا نقول بأن هذه الحالة حاصلة لكل أحد، بل هذه الحالة لا تحصل للبشر إلا فى الأعصار المتباعدة، فكيف يلزمنا ما ذكرتموه؟ فهذا هو الكلام فى النوع الأول من السحر. =

النوع الثانى من السحر: سحر أصحاب الأوهام والنفس القوية، قالوا: اختلف الناس فى أن الذى يشير إليه كل أحد بقوله: أنا ما هو؟ فمن الناس من يقول: إنه هو هذه البنية، ومنهم من يقول: إنه جسم صار فى هذه البنية، ومنهم من يقول بأنه موجود وليس بجسم ولا بجسمانى. أما إذا قلنا: إن الإنسان هو هذه البنية فلاشك أن هذه البنية مركبة من الأخلاط الأربعة، فلم لا يجوز أن يتفق فى بعض الأعصار الباردة أن يكون مزاجه مزاجاً من الأمزجة فى ناحية من النواحى يقتضى القدرة على خلق الجسم والعلم بالأمور الغائبة عنا والمتعذرة؟ وهكذا الكلام إذا قلنا: الإنسان جسم سار فى هذه البنية ، أما إذا قلنا: إن الإنسان هو النفس فلم لا يجوز أن يقال: النفوس مختلفة ، فيتفق فى بعض النفوس إن كانت لذاتها قادرة على هذه الحوادث الغريبة مطلعة على الأسرار الغائبة، فهذا الاحتمال مما لم تقم دلالة على فساده سوى الوجوه المتقدمة، وقد بان بطلانها، ثم الذى يؤكد هذا الاحتمال وجوه :

أولها: أن الجذع الذى يتمكن الإنسان من المشى عليه لو كان موضوعا على الأرض لا يمكنه المشى عليه لو كان كالجسر على هاوية تحته، وما ذاك إلا أن تخيل السقوط متى أقوى أوجبه.

وثانيها: اجتمعت الأطباء على نهى المرعوف (1) عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان والدوران، وما ذاك إلا أن النفوس خلقت مطيعة للأوهام.

وثالثها: حكى صاحب الشفاء عن «أرسطو» فى طبائع الحيوان: أن الدجاجة إذ تشبهت كثيراً بالديكة فى الصوت وفى الحراب مع الديكة نبت على ساقها مثل الشىء النابت على ساق الديك،ثم قال صاحب الشفاء: وهذا يدل على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية.

ورابعها: أجمعت الأمم على أن الدعاء اللسانى الخالى عن الطلب النفسانى قليل العمل عديم الأثر، فدل ذلك على أن للهمم والنفوس آثاراً ، وهذا الاتفاق غير مختص بمسألة معينة وحكمة مخصوصة. =

(1) الرَّعْفُ : السَّبْق . ورعفه يرعفه رعفًا : سبقه وتقدَّمه . والرُّعاف : دم يسبق من الأنف ، قال الأزهرى: وقيل للذى يخرج من الأنف رُعاف؛ لسبقه علم الرَّاعف. والرّواعف: الرماح، صفة غالبة أيضا، إما لتقدمها للطعن، وإما لسيلان الدم منها . [لسان العرب : ٩/ ١٢٣]

= وخامسها: أنك لو أنصفت لعلمت أن المبادئ القريبة للأفعال الحيوانية ليست إلا التصورات النفسانية؛ لأن القوة المحركة المغروزة فى العضلات صالحة للفعل وتركه أو ضده، ولن يترجح أحد الطرفين على الآخر إلا لمرجح، وما ذاك إلا تصور كون الفعل جميلا أو لذيذاً ، أو تصور كونه قبيحاً أو مؤلما، فتلك التصورات هى المبادىء لصيرورة القوى العضلية مبادئ للفعل لوجود الأفعال بعد أن كانت كذلك بالقوة، وإذا كانت هذه التصورات هى المبادئ لمبادئ هذه الأفعال، فأى استبعاد فى كونها مبادئ لأفعال أنفسها وإلغاء الواسطة عن درجة الاعتبار.

وسادسها: التجربة والعيان شاهدان بأن هذه التصورات مبادئ قريبة لحدوث الكيفيات فى الأبدان ، فإن الغضبان تشتد سخونة مزاجه حتى أنه يفيده سخونة قوية.

يحكى أن بعض الملوك عرض له فالج[1] فأعيا الأطباء مزاولة علاجه، فدخل عليه بعض الحذاق منهم على حين غفلة منه وشافهه بالشتم والقدح فى العرض، فاشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة اضطرارية؛ لما ناله من شدة ذلك الكلام، فزالت تلك العلة المزمنة والمرضة المهلكة. وإذا جاز كون التصورات مبادئ لحدوث الحوادث فى البدن ، فأى استبعاد من كونها مبادئ لحدوث الحوادث خارج البدن.

وسابعها : أن الإصابة بالعين أمر قد اتفق عليه العقلاء ، وذلك أيضاً يحقق إمكان ما قلناه. إذا عرفت هذا فنقول: النفوس التى تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جداً، فتستغنى فى هذه الأفعال عن الاستعانة بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات. وتحقيقه: أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السماء، كانت كأنها روح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم، أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات البدنية، فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلا فى هذا البدن، فإذا أراد هذا الإنسان صيرورتها بحيث يتعدى تأثير من بدنها إلى بدن آخر؛ اتخذ تمثال ذلك الغير ووضعه عند الحس واشتغل الحس به، فيتبعه الخيال عليه وأقبلت النفس الناطقة عليه، فقويت التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية؛ ولذلك أجمعت الأمم على أنه لابد لمزاولة=

---

(١) الفالج : ريح يأخذ الإنسان فيذهب بشقِّه ، وقد فُلِج فالجًا ، فهو مفلوج ، قال ابن دُريد : لأنه ذهب نصفه ، وقال : ومنه قيل لشُقَّة البيت فليجة . وهو داء معروف يُرخّى بعض البدن . [لسان العرب : ٢/٣٤٦]

= هذه الأعمال من انقطاع المألوفات والمشتهيات ، وتقليل الغذاء والانقطاع عن مخاطبة الخلق. وكلما كانت هذه الأمور أتم كان ذلك التأثير أقوى، فإذ اتفق أن كانت النفس مناسبة لهذا الأمر نظراً إلى ماهيتها وخاصيتها عظم التأثير، والسبب المتعين فيه أن النفس إذا اشتغلت بالجانب الأول أشغلت جميع قوتها فى ذلك الفعل، وإذا اشتغلت بالأفعال الكثيرة تفرقت قوتها وتوزعت على تلك الأفعال، لتصل إلى كل واحد من تلك الأفعال شعبة من تلك القوة وجدول من ذلك النهر، ولذلك نرى أن إنسانين يستويان فى قوة الخاطر إذا اشتغل أحدهما بصناعة واحدة واشتغل الآخر بصناعتين، فإن ذا الفن الواحد يكون أقوى من ذى الفنَّين، ومن حاول الوقوف على حقيقة مسألة من المسائل ، فإنه حال تفكره فيها لابد وأن يفرغ خاطره عما عداها؛ فإنه عند تفريغ الخاطر يتوجه الخاطر بكليته إليه ، فيكون الفعل أسهل وأحسن، وإذا كان كذلك فإن كان الإنسان مشغول الهم والهمة بقضاء اللذات وتحصيل الشهوات، كانت القوة النفسانية مشغولة بها مستغرقة فيها، فلا يكون انجذابها إلى تحصيل الفعل الغريب الذى يحاوله انجذابا قوياً، لا سيما وهاهنا آفة أخرى، وهى أن مثل هذه النفس قد اعتادت الاشتغال باللذات من أول أمرها إلى آخره ، ولم تشتغل قط باستحداث هذه الأفعال الغريبة، فهى بالطبع حنون إلى الأول عزوف عن الثانى، فإذا وجدت مطلوبها من النمط الأول فأنىً تلتفت إلى الجانب الآخر؟ فقد ظهر من هذا أن مزاولة هذه الأعمال لا تتأتى إلا مع التجرد عن الأحوال الجسمانية ، وترك مخالطة الخلق ، والإقبال بالكلية على عالم الصفاء والأرواح. وأما الرقى فإن كانت معلومة فالأمر فيها ظاهر؛ لأن الغرض منها أن حس البصر كما شغلناه بالأمور المناسبة لذلك الغرض، فحس السمع نشغله أيضاً بالأمور المناسبة لذلك الغرض، فإن الحواس متى تطابقت على التوجه إلى الغرض الواحد كان توجه النفس إليه حينئذ أقوى، وأما إن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة، فإن الإنسان إذا اعتقد أن هذه الكلمات إنما تقرأ للاستعانة بشىء من الأمور الروحانية ، ولايدرى كيفية تلك الاستعانة؛ حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة، ويحصل للنفس فى أثناء ذلك انقطاع عن المحسوسات ، وإقبال على ذلك الفعل وجد عظيم، فيقوى التأثير النفسانى فيحصل الغرض، وهكذا القول فى الدخن، قالوا: فقد ثبت أن هذا القدر من القوة النفسانية مشتغل بالتأثير، فإن انضم إليه النوع الأول من السحر ، وهو الاستعانة بالكواكب وتأثيراتها عظم التأثير ، بل =

= هاهنا نوعان آخران، الأول: أن النفوس التى فارقت الأبدان ، قد يكون فيها ما هو شديد المشابهة لهذه النفوس فى قوتها وفى تأثيراتها، فإذا صارت تلك النفوس صافية لم يبعد أن ينجذب إليها ما يشابهها من النفوس المفارقة، ويحصل لتلك النفوس نوع ما من التعلق بهذا البدن، فتتعاضد النفوس الكثيرة على ذلك الفعل، وإذا كملت القوة وتزايدت قوى التأثير، الثانى: أن هذه النفوس الناطقة إذا صارت صافية عن الكدورات البدنية، صارت قابلة للأنوار الفائضة من الأرواح السماوية والنفوس الفلكية، فتقوى هذه النفوس بأنوار تلك الأرواح، فتقوى على أمور غريبة خارقة للعادة. فهذا شرح سحر أصحاب الأوهام والرقى.

النوع الثالث من السحر : الاستعانة بالأرواح الأرضية ، واعلم أن القول بالجن مما أنكره بعض المتأخرين من الفلاسفة والمعتزلة، أما أكابر الفلاسفة فإنهم ما أنكروا القول به إلا أنهم سموها بالأرواح الأرضية، وهى فى أنفسها مختلفة منها خيِّرة ومنها شريرة ، فالخيِّرة هم مؤمنو الجن ، والشريرة هم كفار الجن وشياطينهم، ثم قال الخلف منهم: هذه الأرواح جواهر قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا حالة فى المتحيز، وهى قادرة عالمة مدركة للجزئيات، واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية، إلا أن القوة الحاصلة للنفوس الناطقة بسبب اتصالها بهذه الأرواح الأرضية ، أضعف من القوة الحاصلة إليها بسبب اتصالها بتلك الأرواح السماوية، أما أن الاتصال أسهل ، فلأن المناسبة بين نفوسنا وبين هذه الأرواح الأرضية أسهل، ولأن المشابهة والمشاكلة بينهما أتم وأشد من المشاكلة بين نفوسنا وبين الأرواح السماوية، وأما أن القوة بسبب الاتصال بالأرواح السماوية أقوى ؛ فلأن الأرواح السماوية هى بالنسبة إلى الأرواح الأرضية كالشمس بالنسبة إلى الشعلة، والبحر بالنسبة إلى القطرة، والسلطان بالنسبة إلى الرعية، قالوا: وهذه الأشياء وإن لم يقم على وجودها برهان قاهر ، فلا أقل من الاحتمال والإمكان، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد، فهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل تسخير الجن.

النوع الرابع من السحر: التخيلات والأخذ بالعيون، وهذا الأخذ مبنى على مقدمات: إحداها: أن أغلاط البصر كثيرة، فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة والشط متحركا. وذلك يدل على أن الساكن يُرى متحركا ، والمتحرك =

= يرى ساكناً، والقطرة النازلة تُرى خطاً مستقيماً، والذبالة التى تدار بسرعة ترى دائرة، والعنبة ترى فى الماء كبيرة كالإجاصة، والشخص الصغير يرى فى الضباب عظيما، وكبخار الأرض الذى يريك قرص الشمس عند طلوعها عظيما، فإذا فارقته وارتفعت عنه صغرت، وأما رؤية العظيم من البعيد صغيراً فظاهر، فهذه الأشياء قد هدت العقول إلى أن القوة الباصرة قد تبصر الشىء على خلاف ما هو عليه فى الجملة؛ لبعض الأسباب العارضة .

وثانيها: أن القوة الباصرة إنما تقف على المحسوسات وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس فى زمان له مقدار ما، فأما إذا أدركت المحسوس فى زمان صغير جداً ، ثم أدركت بعده محسوساً آخر وهكذا؛ فإنه يختلط البعض بالبعض، ولا يتميز بعض المحسوسات عن البعض ، وذلك فإن الرحى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة ثم استدارت، فإن الحس يرى لوناً واحداً، كأنه مركب من كل تلك الألوان .

وثالثها: أن النفس إذا كانت مشغولة بشىء فربما حضر عند الحس شىء آخر، ولا يشعر الحس به البتة، كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان آخر، ويتكلم معه فلا يعرفه ولا يفهم كلامه؛ لما أن قلبه مشغول بشىء آخر، وكذا الناظر فى المرآة، فإنه ربما قصد أن يرى قذاة فى عينه فيراها ولا يرى ما هو أكبر منها إن كان بوجهه أثر أو بجبهته أو بسائر أعضائه التى تقابل المرآة، وربما قصد أن يرى سطح المرآة هل هو مستو أم لا فلا يرى شيئاً مما فى المرآة، إذا عرفت هذه المقدمات سهل عند ذلك تصور كيفية هذا النوع من السحر ؛ وذلك لأن المشعبذ الحاذق يظهر عمل شىء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه ، حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشىء والتحديق نحوه عمل شيئاً آخر عملا بسرعة شديدة ؛ فيبقى ذلك العمل خفياً لتفاوت الشيئين، **أحدهما** : اشتغالهم بالأمر الأول، **والثانى:** سرعة الإتيان بهذا العمل الثانى ، وحينئذ يظهر لهم شىء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جداً، ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفطن الناظرون لكل ما يفعله، فهذا هو المراد من قولهم: إن المشعبذ يأخذ بالعيون ؛ لأنه بالحقيقة يأخذ العيون إلى غير الجهة التى يحتال فيها، وكلما كان أخذه للعيون والخواطر وجذبه لها إلى سوى مقصوده أقوى ، كان أحذق فى عمله، وكلما كانت الأحوال التى تفيد حس البصر نوعا من=

= أنواع الخلل أشد كان هذا العمل أحسن، مثل أن يجلس المشعبذ فى موضع مضئ جداً، فإن البصر يفيد البصر كلالا واختلالا، وكذا الظلمة الشديدة ، وكذلك الألوان المشرقة القوية تفيد البصر كلالا واختلالا، والألوان المظلمة قلما تقف القوة الباصرة على أحوالها، فهذا مجامع القول فى هذا النوع من السحر.

النوع الخامس من السحر: الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية تارة ، وعلى ضروب الخيلاء أخرى؛ مثل فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما الآخر، وكفارس على فرس فى يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أن يمسه أحد، ومنها الصور التى يصورها الروم والهند ؛ حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان، حتى يصورونها ضاحكة وباكية، حتى يفرق فيها بين ضحك السرور وبين ضحك الخجل وضحك الشامت، فهذه الوجوه من لطيف أمور المخايل، وكان سحرسحرة فرعون من هذا الضرب، ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج فى هذا الباب علم جر الأثقال، وهو أن يجر ثقيلا عظيما بآلة خفيفة سهلة، وهذا فى الحقيقة لا ينبغى أن يعد من باب السحر؛ لأن لها أسباباً معلومة نفيسة من اطلع عليها قدر عليها، إلا أن الاطلاع عليها لما كان عسيراً شديداً لا يصل إليه إلا الفرد بعد الفرد، لا جرم عد أهل الظاهر ذلك من باب السحر، ومن هذا الباب عمل «أرجعيانوس» الموسيقار فى هيكل أورشليم العتيق عند تجديده إياه ، وذلك أنه اتفق له أنه كان مجتازاً من الأرض، فوجد فيها فرخا من فراخ البراصل ، والبراصل هو طائر عطوف وكان يصفر صفيراً حزيناً بخلاف سائر البراصل، وكانت البراصل تجيئه بلطائف الزيتون فتطرحها عنده ، فيأكل بعضها عند حاجته ، ويفضل بعضها عن حاجته، فوقف هذا الموسيقار هناك وتأمل حال ذلك الفرخ وعلم أن فى صفيره المخالف لصفير البراصل ضرباً من التوجع والاستعطاف حتى رقَّت له الطيور وجاءته بما يأكله، فتلطف بعمل آلة تشبه الصفارة إذا استقبل الريح بها أدت ذلك الصفير ، ولم يزل يجرب ذلك حتى وثق بها، وجاءته البراصل بالزيتون كما كانت تجيء إلى ذلك الفرخ؛ لأنها تظن أن هناك فرخا من جنسها ، فلما صح له ما أراد ، أظهر النسك وعمد إلى هيكل أورشليم وسأل عن الليلة التى دفن فيها «أسطرخس» الناسك القيم بعمارة ذلك الهيكل، فأخبر أنه دفن فى أول ليلة من آب ، فاتخذ صورة من زجاج مجوف على هيئة البرصلة، ونصبها فوق ذلك الهيكل وجعل فوق تلك الصورة قبة ، وأمرهم بفتحها فى أول آب ، وكان يظهر =

= صوت البرصلة بسبب نفوذ الريح فى تلك الصورة ، وكانت البراصل تجىء بالزيتون حتى كانت تمتلئ تلك القبة كل يوم من ذلك الزيتون، والناس اعتقدوا أنه من كرامات ذلك المدفون. ويدخل فى الباب أنواع كثيرة لا يليق شرحها فى هذا الموضع.

النوع السادس من السحر: الاستعانة بخواص الأدوية؛ مثل أن يجعل فى طعامه بعض الأدوية المبلدة المزيلة للعقل والدخن المسكرة، نحو دماغ الحمار إذا تناوله الإنسان تبلد عقله وقلّت فطنته. واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص، فإن أثر المغناطيس مشاهد ، إلا أن الناس قد أكثروا فيه ، وخلطوا الصدق بالكذب والباطل بالحق.

النوع السابع من السحر: تعليق القلب؛ وهو أن يدعى الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور، فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التميز ، اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل فى نفسه نوع من الرعب والمخافة، وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة، فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل حينئذ ما يشاء، وإن من جرب الأمور وعرف أحوال أهل العلم، علم أن لتعلق القلب أثراً عظيماً فى تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار.

النوع الثامن من السحر: السعى بالنميمة والتضريب من وجوه خفيفة لطيفة؛ وذلك شائع فى الناس، فهذا جملة الكلام فى أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه. والله أعلم.

المسألة الرابعة : فى أقوال المسلمين فى أن هذه الأنواع هل هى ممكنة أم لا؟ أما المعتزلة: فقد اتفقوا على إنكارها إلا النوع المنسوب إلى التخيل ، والمنسوب إلى إطعام بعض الأدوية المبلدة ، والمنسوب إلى التضريب والنميمة، فأما الأقسام الخمسة الأوَل فقد أنكروها ، ولعلهم كفّروا من قال بها وجوَّز وجودها، وأما أهل السنة فقد جوَّزوا أن يقدر الساحر على أن يطير فى الهواء ، ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً ، إلا أنهم قالوا: إن الله تعالى هو الخالق لهذه الأشياء ، عندما يقرأ الساحر رقى مخصوصة وكلمات معينة.

فأما أن يكون المؤثر فى ذلك الفلك والنجوم فلا. وأما الفلاسفة والمنجمون والصابئة فقولهم على ما سلف تقريره، واحتج أصحابنا على فساد قول الصابئة : إنه قد ثبت أن العالَم مُحدَث فوجَب أن يكون موجِده قادراً ، والشىء الذى حكم العقلُ بأنه مقدور إنما يصح أن يكون مقدورا لكونه ممكناً ، والإمكان قدر مشترك بين كل =

= الممكنات، فإذن كل الممكنات مقدور لله تعالى، ولو وجد شيء من تلك المقدورات بسبب آخر، يلزم أن يكون ذلك السبب مزيلا لتعلق قدرة الله تعالى بذلك المقدور، فيكون الحادث سبباً لعجز الله وهو محال، فثبت أنه يستحيل وقوع شيء من الممكنات إلا بقدرة الله ، وعنده يبطل كل ما قاله الصابئة. قالوا: إذا ثبت هذا فندعى أنه يمتنع وقوع هذه الخوارق بإجراء العادة عند سحر السحرة، فقد احتجوا على وقوع هذا النوع من السحر بالقرآن والخبر؛ أما القرآن فقوله تعالى فى هذه الآية: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، والاستثناء يدل على حصول الآثار بسببه، وأما الأخبار فهى واردة عنه ﷺ متواترة وآحاداً .

أحدها: ما رُوى أنه عليه السلام سُحر، وأن السحر عمل فيه حتى قال: «إنه ليخيل إلىّ أنى أقول الشيء وأفعله ولم أقله ولم أفعله» (١) ، وأن امرأة يهودية سحرته وجعلت ذلك السحر تحت راعوفة البئر، فلما استخرج ذلك زال عن النبى ﷺ ذلك العارض وأنزل المعوذتان بسببه. وثانيها: أن امرأة أتت عائشة رضى الله عنها فقالت لها: إنى ساحرة فهل لى من توبة؟ فقالت وما سحرك؟ فقالت: صرت إلى الموضع الذى فيه هاروت وماروت ببابل لطلب علم السحر ، فقالا لى: يا أمة الله، لا تختارى عذاب الآخرة بأمر الدنيا فأبيت، فقالا لى: اذهبى فبولى على ذلك الرماد، فذهبت لأبول عليه ففكرت فى نفسى ، فقلت: لا أفعل وجئت إليهما فقلت: قد فعلت، فقالا لى: ما رأيت لما فعلت؟ فقلت : ما رأيت شيئاً، فقالا لى: أنت على رأس أمر فاتقى الله ولا تفعلى فأبيت، فقالا لى: اذهبى فافعلى فذهبت =

---

(١) أخرجه البخارى [٥٧٦٣ ، ٥٧٦٦] ، عن عائشة رضى الله عنها بلفظ : سحر رسول الله ﷺ رجل من بنى زُريق يُقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله ﷺ يُخيَّلُ إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله ، حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة وهو عندى لكنه دعا ودعا ، ثم قال : « يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب قال : من طبَّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : فى أى شيء ؟ قال : فى مُشط ومُشاطة ، وجُفِّ طلع نخلة ذكر ، قال : وأين هو ؟ قال فى بئر ذروان » فأتاها رسول الله ﷺ فى ناس من أصحابه فجاء فقال : « يا عائشة كأن ماءها نُقاعة الحنَّاء وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين » قلت : يا رسول الله أفلا استخرجته ؟ قال : « قد عافانى الله فكرهت أن أثير على الناس فيه شرا » فأمر بها فدفنت .

ويقال : المُشاطة ما يخرج من الشَّعر إذا مُشِط ، والمُشاطةُ من مُشاطةِ الكِتانِ .

= ففعلت، فرأيت كأن فارساً مقنّعاً بالحديد قد خرج من فرجي فصعد إلى السماء، فجئتهما فأخبرتهما فقالا: إيمانك قد خرج عنك وقد أحسنت السحر، فقلت وما هو؟ قالا: ما تريدين شيئاً فتصوريه في وهمك إلا كان، فصورت في نفسي حبا من حنطة فإذا أنا بحبّ، فقلت: انزرع، فانزرَع فخرج من ساعته سنبلا، فقلت: انطحن فانطحن من ساعته، فقلت: انخبز فانخبز، وأنا لا أريد شيئاً أصوره في نفسي إلا حصل. فقالت عائشة رضي الله عنها: ليس لك توبة [(1)]. وثالثها: ما يذكرونه من الحكايات الكثيرة في هذا الباب وهي مشهورة. أما المعتزلة فقد احتجوا على إنكاره بوجوه. أحدها: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] وثانيها: قوله تعالى في وصف محمد ﷺ : ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ولو صار عليه السلام مسحوراً ، لما استحقوا الذم بسبب هذا القول. وثالثها: أنه لو جاز ذلك من السحر ، فكيف يتميز المعجز عن السحر ؟ ثم قالوا: هذه الدلائل يقينية والأخبار التي ذكرتموها من باب الآحاد فلا تصلح معارضة لهذه الدلائل.

المسألة الخامسة: في أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور: اتفق المحققون على ذلك؛ لأن العلم لذاته شريف، وأيضاً لعموم قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] ، ولأن السحر لو لم يكن يعلم، لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز، والعلم بكون المعجز معجزاً واجب، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب ، فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً ، وما يكون واجباً كيف يكون حراماً وقبيحاً.

المسألة السادسة: في أن الساحر قد يكفر أم لا ؟ اختلف الفقهاء في أن الساحر هل يكفر أم لا ؟ روى عن النبي ﷺ أن قال: « من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقهما بقول فقد كفر بما أنزل على محمد» [(2)] عليه السلام. واعلم أنه لا نزاع بين الأمة في أن =

(١) ذكر هذا الأثر الطبري في تفسيره [١/ ٤٦٠ ، ٤٦١] ، وابن كثير في تفسيره [١/ ١٣٥] وعزاه لابن جرير ، وقال : أثر غريب ، وسياق عجيب . وذكره الألباني في الضعيفة [٢/ ٣١٥] وقال : رواها ابن جرير في تفسيره ، بإسناد حسن عن عائشة ، ولكن المرأة مجهولة فلا يوثق بخبرها .

(٢) أخرجه أحمد في المسند [٢/ ٤٢٩] بلفظ : « من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدَّقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد » . والحاكم في المستدرك [١/ ٨] وصححه ، ووافقه الذهبي .

= من اعتقد أن الكواكب هى المدبرة لهذا العالم وهى الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور؛ فإنه يكون كافراً على الإطلاق ، وهذا هو النوع الأول من السحر.

أما النوع الثانى: وهو أن يعتقد أنه يبلغ روح الإنسان فى التصفية والقوة إلى حيث يقدر بها على إيجاد الأجسام والحياة ، والقدرة وتغيير البنية والشكل، فالأظهر إجماع الأمة أيضاً على تكفيره.

أما النوع الثالث: وهو أن يعتقد الساحر أنه قد يبلغ فى التصفية وقراءة الرقى وتدخين بعض الأدوية إلى حيث يخلق الله تعالى عقيب أفعاله على سبيل العادة الأجسام والحياة والعقل وتغيير البنية والشكل؛ فهاهنا المعتزلة اتفقوا على تكفير من يجّوز ذلك قالوا: لأنه مع هذا الاعتقاد لا يمكنه أن يعرف صدق الأنبياء والرسل، وهذا ركيك من القول؛ فإن لقائل أن يقول: إن الإنسان لو ادعى النبوة وكان كاذباً فى دعواه ، فإنه لا يجوز من الله تعالى إظهار هذه الأشياء على يده؛ لئلا يحصل التلبيس، أما إذا لم يدّع النبوة وأظهر هذه الأشياء على يده ، لم يُفضِ ذلك إلى التلبيس؛ فإن المُحِق يتميز عن المبطل بما أن المحق تحصل له هذه الأشياء مع ادِّعاء النبوة، والمبطل لا تحصل له هذه الأشياء مع ادِّعاء النبوة. وأما سائر الأنواع التى عددناها من السحر، فلا شك أنه ليس بكفر. فإن قيل : إن اليهود لما أضافوا السحر إلى سليمان قال الله تعالى تنزيها له عنه: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، وهذا يدل على أن السحر كفر على الإطلاق، وأيضاً قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢] وهذا أيضاً يقتضى أن يكون السحر على الإطلاق كفراً. وحكى عن الملكين أنهما لا يعلمان أحداً السحر ، حتى يقولا: إنما نحن فتنة فلا تكفر ، وهو يدل على أن السحر كفر على الإطلاق، قلنا: حكاية الحال يكفى فى صدقها صورة واحدة ، فتحملها على سحر من يعتقد إلهية النجوم.

المسألة السابعة: فى أنه هل يجب قتلهم أم لا؟ أما النوع الأول: وهو أن يعتقد فى الكواكب كونها آلهة مدبرة. والنوع الثانى: وهو أن يعتقد أن الساحر قد يصير موصوفاً بالقدرة على خلق الأجسام ، وخلق الحياة والقدرة والعقل وتركيب الأشكال، فلا شك فى كفرهما، فالمسلم إذا أتى بهذا الاعتقاد كان كالمرتد يستتاب ، فإن أصر قُتل. وروى عن مالك وأبى حنيفة أنه لا تقبل توبته، لنا أنه أسلم فيقبل =

= إسلامه ؛ لقوله عليه السلام: «نحن نحكم بالظاهر» [1]. أما النوع الثالث: وهو أن يعتقد أن الله تعالى أجرى عادته بخلق الأجسام والحياة ، وتغيير الشكل والهيئة عند قراءة بعض الرقى وتدخين بعض الأدوية، فالساحر يعتقد أنه يمكن الوصول إلى استحداث الأجسام والحياة ، وتغيير الخلقة بهذا الطريق ، وقد ذكرنا عن المعتزلة أنه كفر، قالوا: لأنه مع هذا الاعتقاد لا يمكنه الاستدلال بالمعجز على صدق الأنبياء، وهذا ركيك لأنه يقال: الفرق هو أن مدعى النبوة إن كان صادقاً فى دعواه أمكنه الإتيان بهذه الأشياء، وإن كان كاذباً تعذر عليه ذلك ، فبهذا يظهر الفرق. إذا ثبت أنه ليس بكافر وثبت أنه ممكن الوقوع فإذا أتى الساحر بشىء من ذلك فإن أعتقد أن إتيانه به مباح كفر ؛ لأنه حكم على المحظور بكونه مباحاً، وإن اعتقد حرمته فعند الشافعى رضى الله عنه أن حكمه حكم الجناية، إن قال: إنى سحرته وسحرى يقتل غالباً ، يجب عليه القَوَد ، وإن قال : سحرته وسحرى قد يقتل وقد لا يقتل، فهو شبه عمد، وإن قال: سحرت غيره فوافق اسمه فهو خطأ ، تجب الدِّية مخففة فى ماله ؛ لأنه ثبت بإقراره، إلا أن تصدقه العائلة فحينئذ تجب عليهم، هذا تفصيل مذهب الشافعى رضى الله عنه، وروى الحسن بن زياد عن أبى حنيفة رحمه الله أنه قال: يقتل الساحر إذا علم أنه ساحر ، ولا يستتاب ولا يقبل قوله: إنى أترك السحر وأتوب منه، فإذا أقرّ أنه ساحر فقد حل دمه، وإن شهد شاهدان على أنه ساحر أو وصفوه بصفة يعلم أنه ساحر، قتل ولا يستتاب، وإن أقر بأنى كنت أسحر مرة ، وقد تركت ذلك منذ زمان، قُبل منه ولم يقتل. وحكى محمد بن شجاع عن على الرازى قال: سألت أبا يوسف عن قول أبى حنيفة فى الساحر: يقتل ولا يستتاب لم يكن ذلك بمنزلة المرتد؟ فقال: الساحر جمَع مع كفره السعى فى الأرض بالفساد ، ومن كان كذلك إذا قتل قتل. واحتج أصحابنا بأنه لما ثبت أن هذا النوع ليس بكفر فهو فسق، فإن لم يكن جناية على حق الغير كان الحق هوالتفصيل الذى ذكرناه. الثانى: أن ساحر اليهود لا يقتل ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام سحره رجل من اليهود [2] يقال له: لبيد بن أعصم، وامرأة من يهود خيبر يقال لها: زينب ، فلم =

(١) ذكره الشوكانى فى كتابه الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة [٢٠٠] وقال : يحتج به أهل الأصول ، ولا أصل له . وفى معناه : قوله صلى الله عليه وآله وسلم للعباس يوم بدر: « كان ظاهرك علينا » .

(٢) انظر الحديث صفحة [١٧٥١] من هذا الكتاب .

= يقتلهما ، فوجب أن يكون المؤمن كذلك ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين»[(١)] ، واحتج أبو حنيفة رحمه الله على قوله بأخبار، أحدها: ما روى نافع عن ابن عمر أن جارية لحفصة سحرتها وأخذوها فاعترفت بذلك ، فأمرت عبد الرحمن بن زيد فقتلها، فبلغ عثمان فأنكره، فأتاه ابن عمر وأخبره أمرها، فكأن عثمان إنما أنكر ذلك لأنها قتلت بغير إذنه. وثانيها: ما روى عمرو بن دينار أنه ورد كتاب عمر رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة فقلنا : ثلاث سواحر، وثالثها: قال على بن أبى طالب: إن هؤلاء العرافين كهان العجم ، فمن أتى كاهناً يؤمن له بما يقول فقد برئ مما أنزل الله على محمد ﷺ .

والجواب: لعل السحرة الذين قتلوا كانوا من الكفرة؛ فإن حكاية الحال يكفى فى صدقها صورة واحدة، وأما سائر أنواع السحر - أعنى الإتيان بضروب الشعبذة والآلات العجيبة المبنية على ضروب الخيلاء، والمبينة على النسب الهندسية ، وكذلك القول فيمن يوهم ضروباً من التخويف والتقريع ، حتى يصير من به السوداء محكم الاعتقاد فيه، ويتمشى بالتضريب والنميمة ، ويحتال فى إيقاع الفرقة بعد الوصلة، ويوهم أن ذلك بكتابة يكتبها من الاسم الأعظم - فكل ذلك ليس كفر، وكذلك القول فى دفن الأشياء الوسخة فى دور الناس، وكذا القول فى إيهام أن الجن يفعلون ذلك، وكذا القول فيمن يدس الأدوية المبلدة فى الأطعمة، فإن شيئاً من ذلك لا يبلغ حد الكفر ولا يوجب القتل البتة، فهذا هو الكلام الكلى فى السحر. والله الكافى والواقى. ولنرجع إلى التفسير.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ : فظاهر الآية يقتضى أنهم إنما كفروا لأجل أنهم كانوا يعلمون الناس السحر؛ لأن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية، وتعليم ما لا يكون كفراً لا يوجب الكفر ، فصارت الآية دالة على أن تعليم السحر كفر، وعلى أن السحر أيضاً كفر، ولمن منع ذلك أن=

(١) جزء من حديث أخرجه النسائى فى الكبرى [١١٧٣٤] عن أنس بن مالك بلفظ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدًا رسول الله ، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا ، وصلُّوا صلاتنا ، فقد حَرُمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم » ، وأخرجه أحمد فى المسند [٣/١٩٩] .

= يقول: لا نسلم أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية، بل المعنى أنهم كفروا، وهم مع ذلك يعلمون الناس السحر. فإن قيل: هذا مشكل ؛ لأن الله تعالى أخبر في آخر الآية أن الملكين يعلمان الناس السحر ، فلو كان تعليم السحر كفراً ، لزم تكفير الملكين، وإنه غير جائز لما ثبت أن الملائكة بأسرهم معصومون أيضاً ، فلأنكم قد دللتم على أنه ليس كل ما يسمى سحراً فهو كفر . قلنا : اللفظ المشترك لا يكون عاماً في جميع مسمياته، فنحن نحمل هذا السحر الذي هو كفر على النوع الأول من الأشياء المسماة بالسحر ، وهو اعتقاد إلهية الكواكب والاستعانة بها في إظهار المعجزات وخوارق العادات، فهذا السحر كفر، والشياطين إنما كفروا لإتيانهم بهذا السحر ، لا بسائر الأقسام.

وأما الملكان فلا نسلم أنهما علَّما هذا النوع من السحر، بل لعلهم يعلمان سائر الأنواع، على ما قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ ، وأيضاً فبتقدير أن يقال: إنهما علما هذا النوع ، لكن تعليم هذا النوع إنما يكون كفراً إذا قصد المعلم أن يعتقد المتعلم حقيته وكونه صواباً، فأما أن يعلمه ليحترز عنه، فهذا التعليم لا يكون كفراً، وتعليم الملائكة كان لأجل أن يصير المكلف محترزاً عنه ، على ما قال تعالى حكاية عنهما : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، وأما الشياطين الذين علموا الناس السحر فكان مقصودهم اعتقاد حقية هذه الأشياء ، فظهر الفرق.

المسألة الثامنة : قرأ نافع وابن كثير وعاصم وأبو عمرو بتشديد ﴿ لَكِنَّ ﴾ و﴿الشَّيَاطِينَ﴾ بالنصب على أنه اسم ﴿ لَكِنَّ ﴾ والباقون « لَكِنْ » بالتخفيف و«الشياطين» بالرفع، والمعنى واحد، وكذلك في الأنفال:﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧] ، والاختيار: أنه إذا كان بالواو كان التشديد أحسن، وإذا كان بغير الواو فالتخفيف أحسن، والوجه فيه: أن «لكنْ» بالتخفيف يكون عطفاً ، فلا يحتاج إلى الواو لاتصال الكلام، والمشددة لا تكون عطفاً ؛ لأنها تعمل عمل « إنَّ».

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة: ١٠٢] ففيه مسائل: =

. . . .

= المسألة الأولى: ﴿مَا﴾ فى قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه بمعنى الذى ثم هؤلاء اختلفوا فيه على ثلاثة أقوال: الأول: أنه عطف على ﴿ السِّحْرَ ﴾ أى يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين أيضاً. وثانيها: أنه عطف على قوله : ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ أى واتبعوا ما تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان، وما أنزل على الملكين؛ لأن السحر منه ما هو كفر وهو الذى تلته الشياطين، ومنه ما تأثيره فى التفريق بين المرء وزوجه وهو الذى أنزل على الملكين، فكأنه تعالى أخبر عن اليهود أنهم اتبعوا كلا الأمرين ولم يقتصروا على أحدهما. وثالثها: أن موضعه جر عطفاً على ﴿مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ ؛ وتقديره : « ا تتلوا الشياطين افتراء على ملك سليمان وعلى ما أنزل على الملكين». وهو اختيار أبى مسلم رحمه الله، وأنكر فى الملكين أن يكون السحر نازلا عليهما ، واحتج عليه بوجوه: الأول: أن السحر لو كان نازلا عليهما، لكان منزله هو الله تعالى، وذلك غير جائز لأن السحر كفر وعبث ولا يليق بالله إنزال ذلك . الثانى: أن قوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ يدل على أن تعليم السحر كفر. فلو ثبت فى الملائكة أنهم يعلمون السحر لزمهم الكفر، وذلك باطل. الثالث: كما لا يجوز فى الأنبياء أن يبعثوا لتعليم السحر فكذلك فى الملائكة بطريق الأولى . الرابع: أن السحر لا ينضاف إلا إلى الكفرة والفسقة والشياطين المردة ، وكيف يضاف إلى الله ما ينهى عنه ويتوعد عليه بالعقاب؟ وهل السحر إلا الباطل المموه وقد جرت عادة الله تعالى بإبطاله ، كما قال فى قصة موسى عليه السلام : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس:٨١] . ثم إنه رحمه الله سلك فى تفسير الآية نهجاً آخر يخالف قول أكثر المفسرين ، فقال: كما أن الشياطين نسبوا السحر إلى ملك سليمان مع أن ملك سليمان كان مبرأ عنه، فكذلك نسبوا ما أنزل على الملكين إلى السحر ، مع أن المنزل عليهما كان مبرأ عن السحر ؛ وذلك لأن المنزل عليهما كان هو الشرع والدين والدعاء إلى الخير ، وإنما كانا يعلمان الناس ذلك مع قولها: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] توكيداً لبعثهم على القبول والتمسك، وكانت طائفة تتمسك وأخرى تخالف وتعدل عن ذلك، ويتعلمون منهما أى من الفتنة والكفر مقدار ما يفرقون به بين المرء وزوجه، فهذا تقرير مذهب أبى مسلم. الوجه الثانى: أن يكون «ما» بمعنى الجحد ويكون =

= معطوفاً على قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، كأنه قال: لم يكفر سليمان ، ولم ينزل على الملكين سحر ؛ لأن السحرة كانت تضيف السحر إلى سليمان ، وتزعم أنه مما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، فردّ الله عليهم فى القولين وقوله: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] جحد أيضاً ؛ أى لا يعلمان أحداً بل ينهيان عنه أشد النهى.

أما قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٠٢] ؛ أى ابتلاء وامتحان فلا تكفر ، وهو كقولك: ما أمرت فلاناً بكذا ، حتى قلت له: إن فعلت كذا نالك كذا، أى ما أمرت به بل حذرته عنه.

واعلم أن هذه الأقوال وإن كانت حسنة إلا أن القول الأول أحسن منها ؛ وذلك لأن عطف قوله: ﴿ وَمَا أُنزِلَ﴾ [البقرة: ١٠٢] على ما يليه أولى من عطفه على ما بعد عنه إلا لدليل منفصل، أما قوله: لو نزل السحر عليهما لكان منزل ذلك السحر هو الله تعالى. قلنا : تعريف صفة الشيء قد يكون لأجل الترغيب فى إدخاله فى الوجود، وقد يكون لأجل أن يقع الاحتراز عنه كما قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

قوله ثانياً: إن تعليم السحر كفر لقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ ؛ الجواب أنا بينا أنه واقعة حال فيكفى فى صدقها صورة واحدة وهى ما إذا اشتغل بتعليم سحر من يقول بإلهية الكواكب ، ويكون قصده من ذلك التعليم إثبات أن ذلك المذهب حق.

قوله ثالثاً: إنه لا يجوز بعثة الأنبياء عليهم السلام لتعليم السحر ، فكذا الملائكة. قلنا: لا نسلم أنه لا يجوز بعثة الأنبياء عليهم السلام لتعليمه ، بحيث يكون الغرض من ذلك التعليم التنبيه على إبطاله. قوله رابعاً: إنما يضاف السحر إلى الكفرة والمردة، فكيف يضاف إلى الله تعالى ما ينهى عنه؟ قلنا : فرق بين العمل وبين التعليم ، فلم لا يجوز أن يكون العمل منهياً عنه؟ وأما تعليمه لغرض التنبيه على فساده ، فإنه يكون مأموراً به.

المسألة الثانية: قرأ الحسن «ملِكين» بكسر اللام ، وهو مروى أيضاً عن الضحاك وابن عباس ، ثم اختلفوا، فقال الحسن: كانا علجين أقلفين ببابل يعلمان الناس =

= السحر، وقيل : كانا رجلين صالحين من الملوك. والقراءة المشهورة بفتح اللام ، وهما كانا ملكين نزلا من السماء، وهاروت وماروت اسمان لهما، وقيل : هما جبريل وميكائيل عليهما السلام، وقيل غيرهما ، أما الذين كسروا اللام فقد احتجوا بوجوه: أحدها: أنه لا يليق بالملائكة تعليم السحر، وثانيها: كيف يجوز إنزال الملكين مع قوله : ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨] ؟ وثالثها: لو أنزل الملكين لكان إما أن يجعلهما فى صورة الرجلين أو لا يجعلهما كذلك، فإن جعلهما فى صورة الرجلين مع أنهما ليسا برجلين ، كان ذلك تجهيلا وتلبيساً على الناس وهو غير جائز ، ولو جاز ذلك فلم لا يجوز أن كل واحد من الناس الذين نشاهدهم لا يكون فى الحقيقة إنساناً، بل ملكا من الملائكة؟ وإن لم يجعلهما فى صورة الرجلين قدح ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً ﴾ [الأنعام: ٩] . والجواب عن الأول : أنا سنبين وجه الحكمة فى إنزال الملائكة لتعليم السحر، وعن الثانى: أن هذه الآية عامة وقراءة: «الملكين» بفتح اللام متواترة وخاصة ، والخاص مقدم على العام، وعن الثالث: أن الله تعالى أنزلهما فى صورة رجلين ، وكان الواجب على المكلفين فى زمان الأنبياء أن لا يقطعوا على من صورته صورة الإنسان بكونه إنساناً، كما أنه فى زمان الرسول عليه الصلاة والسلام ، كان الواجب على من شاهد دحية الكلبى أن لا يقطع بكونه من البشر بل الواجب التوقف فيه.

المسألة الثالثة: إذا قلنا بأنهما كانا من الملائكة فقد اختلفوا فى سبب نزولهما ؛ فروى عن ابن عباس أن الملائكة لما أعلمهم الله بآدم وقالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة: ٣٠] ، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ ثم إن الله تعالى وكل عليهم جمعاً من الملائكة ، وهم الكرام الكاتبون ، فكانوا يعرجون بأعمالهم الخبيثة ، فعجبت الملائكة منهم ومن تبقية الله لهم مع ما ظهر منهم من القبائح ، ثم أضافوا إليهما عمل السحر فازداد تعجب الملائكة ، فأراد الله تعالى أن يبتلى الملائكة ، فقال لهم : اختاروا ملكين من أعظم الملائكة علماً وزهداً وديانة لأنزلهما إلى الأرض فأختبرهما ، فاختاروا هاروت وماروت ، وركب فيهما شهوة الإنس وأنزلهما ، ونهاهما عن الشرك والقتل والزنا والشرب ، فنزلا فذهبت إليهما امرأة من أحسن النساء ، وهى الزهرة فراوداها عن نفسها ، فأبت أن تطيعهما إلا بعد أن يعبدا الصنم وإلا بعد أن يشربا الخمر، فامتنعا أولا، ثم غلبت الشهوة =

= عليهما فأطاعاها فى كل ذلك ، فعند إقدامهما على الشرب وعبادة الصنم دخل سائل عليهم، فقالت: إن أظهر هذا السائل للناس ما رأى منا فسد أمرنا ، فإن أردتما الوصول إلىّ فاقتلا هذا الرجل، فامتنعا منه ثم اشتغلا بقتله ، فلما فرغا من القتل وطلبا المرأة فلم يجداها، ثم إن الملكين عند ذلك ندما وتحسرا وتضرعا إلى الله تعالى، فخيرهما بين عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا (١) ، وهما يعذبان ببابل معلقان بين السماء والأرض يعلمان الناس السحر . ثم لهم فى الزهرة قولان، أحدهما: أن الله تعالى لما ابتلى الملكين بشهوة بنى آدم ، أمر الله الكوكب الذى يقال له الزهرة وفلكها أن اهبطا إلى الأرض إلى أن كان ما كان، فحينئذ ارتفعت الزهرة وفلكها إلى موضعهما من السماء موبخين لهما على ما شاهداه منهما. والقول الثانى: أن المرأة كانت فاجرة من أهل الأرض ، وواقعاها بعد شرب الخمر وقتل النفس وعبادة الصنم ، ثم علماها الاسم الذى كانا به يعرجان إلى السماء ، فتكلمت به وعرجت إلى السماء ، وكان اسمها « بيذخت » ، فمسخها الله وجعلها هى الزهرة . واعلم أن هذه الرواية فاسدة مردودة غير مقبولة ؛ لأنه ليس فى كتاب الله ما يدل على ذلك ؛ بل فيه ما يبطلها من وجوه، الأول: ما تقدم من الدلائل الدالة على عصمة الملائكة عن كل المعاصى، وثانيها: أن قولهم: إنهما خيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاسد، بل كان الأولى أن يخيرا بين التوبة والعذاب=

(١) أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ١٣٤] عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى ﷺ بلفظ : «إن آدم لما أهبطه الله تعالى إلى الأرض ، قالت الملائكة : أى رب ، أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نُسبح بحمدك ونقدس لك ؟ ، قال : إنى أعلم ما لا تعلمون، قالوا : ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم ، قال الله تعالى للملائكة : هلموا ملكين من الملائكة ، حتى يُهبط بهما إلى الأرض ، فننظر كيف يعملان ، قالوا : ربنا هاروت وماروت ، فأهبطا إلى الأرض ، ومُثّلت لهما الزُهرة امرأة من أحسن البشر ، فجاءتهما ، فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله ، حتى تكلما بهذه الكلمة من الإشراك ، فقالا : والله لا نُشرك بالله أبدا ، فذهبت عنهما ، ثم رجعت بصبى تحمله ، فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله ، حتى تقتلا هذا الصبى فقالا : والله لا نقتله أبدا ، فذهبت ، ثم رجعت بقدح خمر تحمله ، فسألاها نفسها ، فقالت : لا والله ، حتى تشربا هذا الخمر فشربا ، فسكرا، فوقعا عليها ، وقتلا الصبى ، فلما أفاقا ، قالت المرأة : والله ما تركتما شيئا مما أبيتماه على إلا قد فعلتما حين سكرتما ، فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا » .

= لأن الله تعالى خير بينهما من أشرك به طول عمره ، فكيف يبخل عليهما بذلك؟
وثالثها: أن من أعجب الأمور قولهم : إنهما يعلمان السحر فى حال كونهما معذبين، ويدعوان إليه وهما يعاقبان ، ولما ظهر فساد هذا القول فنقول: السبب فى إنزالهما وجوه : أحدها : أن السحرة كثرت فى ذلك الزمان واستنبطت أبواباً غريبة فى السحر ، وكانوا يدّعون النبوة ويتحدون الناس بها ، فبعث الله تعالى هذين الملكين ؛ لأجل أن يعلما الناس أبواب السحر ؛ حتى يتمكنوا من معارضة أولئك الذين كانوا يدعون النبوة كذباً، ولاشك أن هذا من أحسن الأغراض والمقاصد، وثانيها: أن العلم بكون المعجزة مخالفة للسحر متوقف على العلم بماهية السحر، والناس كانوا جاهلين بماهية السحر ، فلا جرم هذا تعذرت عليهم معرفة حقيقة المعجزة ، فبعث الله هذين الملكين لتعريف ماهية السحر ؛ لأجل هذا الغرض، وثالثها: لا يمتنع أن يقال : السحر الذى يوقع الفرقة بين أعداء الله والألفة بين أولياء الله ، كان مباحا عندهم أو مندوباً ، فالله تعالى بعث الملكين لتعليم السحر لهذا الغرض، ثم إن القوم تعلموا ذلك منهما ، واستعملوه فى الشر وإيقاع الفرقة بين أولياء الله ، والألفة بين أعداء الله، ورابعها: أن تحصيل العلم بكل شىء حسن ، ولما كان السحر منهيا عنه وجب أن يكون متصوراً معلوماً ؛ لأن الذى لا يكون متصوراً امتنع النهى عنه ، وخامسها : لعل الجن كان عندهم أنواع من السحر لم يقدر البشر على الإتيان بمثلها ؛ فبعث الله الملائكة ليعلموا البشر أموراً يقدرون بها على معارضة الجن، وسادسها: يجوز أن يكون ذلك تشديداً فى التكليف ، من حيث إنه إذا علمه ما أمكنه أن يتوصل به إلى اللذات العاجلة ، ثم منعه من استعمالها ، كان ذلك فى نهاية المشقة ، فيستوجب به الثواب الزائد ، كما ابتلى قوم طالوت بالنهر على ما قال: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ فثبت بهذه الوجوه أنه لا يبعد من الله تعالى إنزال الملكين لتعليم السحر . والله أعلم.
المسألة الرابعة : قال بعضهم هذه الواقعة إنما وقت فى زمان إدريس عليه السلام؛ لأنهما إذا كانا ملكين نزلا بصورة البشر لهذا الغرض ، فلابد من رسول فى وقتهما؛ ليكون ذلك معجزة له ، ولا يجوز كونهما رسولين ؛ لأنه ثبت أنه تعالى لا يبعث الرسول إلى الإنس ملكا.
المسألة الخامسة: «هاروت وماروت» عطف بيان للملكين، علَمان لهما ، وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف ، ولو كانا من الهرت والمرت وهو الكسر كما زعم =

= بعضهم لانصرفا، وقرأ الزهرى هاروت وماروت بالرفع على: هما هاروت وماروت.
أما قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ ، فاعلم أنه تعالى شرح حالهما ، فقال : وهذان الملكان لا يعلمان السحر إلا بعد التحذير الشديد من العمل به ، وهو قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ ، والمراد هاهنا بالفتنة المحنة التى بها يتميز المطيع عن العاصى ، كقولهم : فتنت الذهب بالنار ، إذا عرض على النار ؛ ليتميز الخالص عن المشوب، وقد بينا الوجوه فى أنه كيف يحسن بعثة الملكين لتعليم السحر ، فالمراد أنهما لا يعلمان أحداً السحر ، ولا يصفانه لأحد، ولا يكشفان له وجوه الاحتيال حتى يبذلا له النصيحة ، فيقولا له : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ، أى هذا الذى نصفه لك وإن كان الغرض منه أن يتميز به الفرق بين السحر وبين المعجز ، ولكنه يمكنك أن تتوصل به إلى المفاسد والمعاصى، فإياك بعد وقوفك عليه أن تستعمله فيما نهيت عنه ، أو تتوصل به إلى شىء من الأغراض العاجلة.
أما قول تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ ، ففيه مسائل:
المسألة الأولى: ذكروا فى تفسير هذا التفريق وجهين : الأول: أن هذا التفريق إنما يكون بأن يعتقد أن ذلك السحر مؤثر فى هذا التفريق فيصير كافراً، وإذا صار كافراً بانت منه امرأته فيحصل تفرق بينهما، الثانى: أنه يفرق بينهما بالتمويه والحيل والتضريب وسائر الوجوه المذكورة.
المسألة الثانية: أنه تعالى لم يذكر ذلك ؛ لأن الذى يتعلمون منهما ليس إلا هذا القدر، لكن ذكر هذه الصورة تنبيها على سائر الصور ، فإن استكانة المرء إلى زوجته وركونه إليها معروف زائد على كل مودة، فنبه الله تعالى بذكر ذلك على أن السحر إذا أمكن به هذا الأمر على شدته فغيره به أولى.
أما قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ﴾ فإنه يدل على ما ذكرناه ؛ لأنه أطلق الضرر ولم يقصره على التفريق بين المرء وزوجه ، فدل ذلك على أنه تعالى إنما ذكره لأنه من أعلى مراتبه.
أما قوله تعالى: ﴿إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ : فاعلم أن الإذن حقيقة فى الأمر ، والله لا يأمر بالسحر ، ولأنه تعالى أراد عيبهم وذمهم، ولو كان قد أمرهم به لما جاز أن نذمهم =

والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض لنا قضية السحر بعض الناس يقولون: كيف يعطى ربنا لإنسان قوة يضر بها غيره مع أن المضار ليس عنده ما يقابلها؟ ونحن نقول : إن الحق سبحانه وتعالى أعطى للجن خصوصية التشكل.

فالجن يستطيع أن يتشكل على هيئة حمار أو جمل ، أو أى شىء آخر[1] ، كما أنه يرانا ولا نراه ، كما أنه ينفذ من الحواجز ؛ لأننا من الطين والطين له كثافة والنار لها شفافية ، وضربنا مثلا لتقريب هذه المسألة، وقلنا: هب أنك جلست ووراءك جدار، والجدار خلفه تفاح ، فهل يتعدى إليك شىء من التفاح وأنت جالس ؟ لا يمكن؛ لأنه من

= عليه ، فلابد من التأويل ، وفيه وجوه، أحدها: قال الحسن: المراد منه التخلية ، يعنى السحر إذا سحر إنساناً فإن شاء الله منعه منه ، وإن شاء خلّى بينه وبين ضرر السحر، وثانيها: قال الأصم : المراد إلا بعلم الله ؛ وإنما سمى الأذان أذاناً لأنه إعلام للناس بوقت الصلاة ؛ وسمى الأذان إذناً لأن بالحاسة القائمة به يدرك الإذن ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ﴾ [التوبة: ٣] أى إعلام ، وقوله : ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٩] معناه فاعلموا ، وقوله: ﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] يعنى أعلمتكم، وثالثها: أن الضرر الحاصل عند فعل السحر إنما يحصل بخلق الله وإيجاده وإبداعه ، وما كان كذلك فإنه يصح أن يضاف إلى إذن الله تعالى كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ورابعها: أن يكون المراد بالإذن الأمر ، وهذا الوجه لا يليق إلا بأن يفسر التفريق بين المرء وزوجه بأن يصير كافراً ، والكفر يقتضى التفريق، فإن هذا حكم شرعى، وذلك لا يكون إلا بأمر الله تعالى.[التفسير الكبير: ٣/ ٢٠٥ - ٢٢١]

(١) عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «الجن ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون فى الهواء، وصنف حيات وكلاب، وصنف يحلون ويظعنون». أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/٤٥٧] وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

الطينية المتجمدة المتحجرة. لكن لو أن وراء الجدار ناراً لابد أن تشعر بحرارتها فى الجدار . إذن فالحرارة الإشعاعية تنفذ من الجدار ولكن الطينية لا تنفذ ، فالجنُّ لهم قدرة على التشكل.

والحق سبحانه وتعالى حينما يعطى الجن هذه الخصوصية[1] يحمينا نحن البشر الذين ليس عندنا هذه الخصوصية بشيء - وهذا من لطف التقدير - هذا الشيء أن الجن الذى يقدر على التشكل ، فى أية صورة يعطيه الله القدرة على التشكل ، لكن إذا تشكل بشيء حكَمته صورة التشكل ، بمعنى أنه لو تشكل بإنسان وكان معك مسدس فضربته بالرصاص يموت فى الحال ؛ ولهذا الشيطان يخاف منك أكثر مما تخاف منه، وهذا هو الذى يحمى الإنسان من ألاعيب الشياطين، ولذلك لا تظهر الشياطين إلا ومضة ثم تختفى ؛ لأن الشيطان يخشى أن يكون الرائى قد علم القضية التى تحكم الشيطان فيمسكه أو يقتله ، والنبى ﷺ أمسك الشيطان ذات ليلة وهمَّ أن يربطه بسارية المسجد ، ليتفرج عليه غلمان المدينة ، ولكنه تذكر دعوة أخيه سليمان حين قال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥] ، فتركه تقديرًا لأخيه سليمان[2].

---

(١) قال السيوطى : عن ابن عباس، قال: لما خلق الله تعالى سمومًا أبا الجن - وهو الذى خلق من مارج من نار - قال تعالى: تمنَّ . قال: أتمنى أن نرى ولانُرى وأن نغيب فى الثرى ولا يموت كهلنا حتى يعود شابا. قال: فمعنى ذلك أنهم يرون ولايُرون، وإذا ماتوا غابوا فى الثرى، ولايموت كهلهم حتى يعود شاباً، يعنى مثل الصبى يُرد إلى أرذل العمر. [لقط المرجان فى أحكام الجان : ص ٧]

(٢) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «إن عفريتاً منَ الجن تَفَلّتَ علىّ البارحَة، أو كلمة نحوها ليقْطعَ علَىَّ الصلاة، فأمْكننى الله منهُ. وأردْتُ أنْ أربطهُ إلى سارية من سوارى المَسْجد، حتّى تصبحُوا وتنظُروا إليه كُلُّكمْ، فَذَكرْت قوْل أخِى سُليمانَ ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ » . قال رَوْح : فردّهُ خاسئاً. أخرجه البخارى [٤٨٠٨]

إذن فالجن حينما يعطيه الله قدرة على التشكل يتميز بها عن الإنسان يجعله محكوماً بالشكل الذى يظهر فيه ، فإن قابله إنسان أقوى منه يمكنه أن يقضى عليه ، فيخاف الجن أن يظهر للإنسان ، ولولا ذلك لكان الجن يفزع الناس ويروعهم .

إذن ، الجن يخاف من الإنس أكثر مما يخاف الإنس منه، وهذه هى التى تحمينا من تقريعه لنا ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه إذا أعطى شيئًا من خلقه خصوصيةً ، هذه الخصوصية لا تعطيه التفوق دائماً، فهو يعطيه خصوصية، ولكنه يستطيع أن يعطى الأدنى منه فى الخصوصية قدرة على أن يتحكم فيه ، فنجد واحدًا من الإنس يسخِّر الجن مع أن الإنس أدنى قوة من الجن ، وهذا التسخير لم يأخذه الإنسان بالخصوصية، ولكن لأن الله تعالى قادر على أن يعلّم الإنسان كلمات يقولها فيسخّر بها الجن ؛ ليعمل له أشياء تناسب قدرته وتفوق قدرة البشر. إذن فالذى يتعلم السحر ويسخر الجن عنده فرصة أكبر من غيره فتكافؤ الفرص بينه وبين الناس غير موجود ، والله يريد أن تتكافأ فرص حركة الحياة ،فيقول لهذا الساحر : إياك أن تفهم أننى بتعليمى لك ما تسخِّر به الأقوى منك ـ ليقدر على ما لا تقدر عليه ـ أن ذلك يفيدك بشىء، بل بالعكس يرهقك ويضرك، فإياك أن تظن أنك أخذت فرصة لتنفعك.

إذن ، الحق سبحانه وتعالى أراد أن يبلو الإنسان ، ويبلو الجن أيضًا ، فهو يستطيع أن يعلم الأدنى ـ وهو الإنس ـ شيئاً يسخّر به الأقوى ـ وهو الجن ـ ليصنع أشياء لا يقدر الإنس على فعلها ، وتكون فرصة الإنسى الذى تعلم السحر فى الحياة أقوى من بقية الناس ، لكن الحق سبحانه وتعالى قال له : أن هذا السحر فتنة لك فلا تكفر بتعلم السحر؛ لأنك إن كنت تظن أنه سينفعك فلن ينفعك ، ولكنه سيضرك قال تعالى :

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ ، وهو فتنة لأن الفتنة معناها أن تختبر استعماله لمدى ما زوَّده الله به ، هل يستعمله فى الخير أم فى الشر ؟ وقول الله تعالى : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] ، ينبّه إلى أن الذى يتعلم السحر مصيره أن يكفر ؛ لأنه ابن أهواء ولا يستطيع أن يحكم نفسه ؛ ليسخّر القوى الممنوحة له فى الخير ، وهو حين يسخّر هذه القوى للخير سيسخّر الجن الطائع ، والجن الطائع ليس له علاقة بهذه المسألة ، فهو إذن سيسخّر الجن العاصى ، وهذا لن يأتى من ورائه خير أبداً .

قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١] ، ولذلك تلاحظ أن كل الذين يشتغلون بهذه العملية والذين نسميهم السحرة ، يوجد على سمتهم الغضب ، وشكلهم منفِّر وتوجد حالاتهم فى أضيق حالات الحياة، فكل منهم يأخذ من هذا ومن هذا ، ومع ذلك تجد معيشته ضنكا ، فلا يعيش بخير ولا يموت على خير، فاتصالهم بالجن زادهم رهقاً ، كما قال الحق سبحانه:﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] . إذن الحق سبحانه يريد أن يعلّم الإنسان فيقول له : إننى أستطيع أن أعلّمك شيئاً تستطيع أن تسخر به الأقوى ، منك ولكن تنبّه إلى أنك لا تضمن نفسك وقت الأداء، فربما تنحرف ويصبح الأمر وبالاً عليك؛ ولذلك أهم شىء يجب أن نلتفت إليه هو أن هؤلاء الذين يصنعون السحر للناس من أين يرزقون؟ يرزقون من غيرهم من الذين لا يعرفون السحر، وهذا معناه أنهم مضللون ومحتالون ؛ لأنه لو كان الواحد منهم قادراً على شىء لما أخذ

من هذا خمسة جنيهات ومن هذا عشرة، ولكان استغنى عن أموال الناس مادام عنده الجن يسخّره . . فلماذا لا يسخره فى أخذ أموال الناس؟! هل لأن هذا حرام؟ ولماذا لا يجعله يأتيه ببعض الذهب المكنوز فى الأرض؟! ولكن فى الحقيقة لا يقدر على شىء من ذلك بل يزيد صاحبه رهقا ومرضا وتعباً .

إذن سحرة فرعون إما أن سحرهم من نوع الألاعيب التى تحدث عنها العلماء ، فقالوا: إنهم حشوا العصى والحبال بالزئبق ؛ لتتحرك بفعل حرارة الشمس ، وهناك أناس آخرون قالوا: إنهم كانوا من الذين أخبر عنهم الله بقوله: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] أى: أن علمهم كان من أيام سليمان عليه السلام [1] ، وأنه علم يخيل

---

(١) عن عمران بن الحارث قال: بينا نحن عند ابن عباس إذ جاءه رجل فقال: من أين جئت؟ قال: من العراق قال: من أيهم؟ قال: من الكوفة . قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم وهم يتحدثون أن علياً خارج عليهم فقال: ماتقول لا أبا لك لو شعرنا ذلك ما أنكحنا نساءه ولاقسمنا ميراثه ثم قال: أنا سأحدثك عن ذلك : إن الشياطين كانوا يسترقون السمع ، وكان أحدهم يجيىء بكلمة حق قد سمعها الناس ، فيكذب معها سبعين كذبة ، فيشربها قلوب الناس فأطلع الله على ذلك سليمان بن داود ، فأخذها فدفنها تحت الكرسى، فلما مات سليمان قام شيطان بالطريق فقال: ألا أدلكم على كنز سليمان الذى لا كنز لأحد مثل كنزه الممتنع؟ قالوا: نعم . فأخرجوه فإذا هو سر فتناسختها الأمم ، فبقاياها مما يتحدث به أهل العراق ، فأنزل الله عذر سليمان فقال: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ [البقرة: ١٠٢] .

أخرجه الحاكم فى المستدرك [٢/ ٢٦٥] [1]

---

(١) قال الشيخ أحمد شاكر: ولم يتكلم الحاكم عليه ، فلا أدرى أهو هكذا أم سقط كلامه من الناسخ أو الطابع؟ وكتب الذهبى فى تلخيصه بعده: «صحيح» وتصحيح الذهبى ثابت أيضاً فى مخطوطة مختصره ، التى عندى [ص: ٢٧٢] وإسناده صحيح كما قال ، ولكنه موقوف على ابن عباس فنقف فيه أيضاً . [عمدة التفسير :١/ ١٩٣]

لناظره ما يريده الساحر، وسواء كان هذا أو ذاك ، فلن يقف هذا ولا ذاك أمام معجزة جاء الله بها على يد رسول ليثبت صدقه؛ لأن هذه ليست داخلة فى التخييل ، ولكنها حقيقة ، التجربة التى أراها الله لموسى حينما أمره أن يلقى عصاه فانقلبت حية ، لم تكن هذه التجربة شيئاً تلقفه العصا، أى: أن موسى لم يتدرب على أن العصا التى معه تلقف ما يصادفها من الأشياء ، وحتى فى التجربة التى عملها موسى أمام فرعون لم يكن فيها حبال ولا عصى ولا شىء من ذلك، وحينما قال موسى للسحرة: ﴿أَلْقُوا﴾ نجد فى القرآن الكريم : ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[طه:٦٦] .

فلما رأى موسى هذا المنظر وخيل إليه أن هذه الأشياء تسعى ، قال لنفسه : أنا حينما ألقى العصا وتصير حية تسعى وهذه الحبال والعصىّ حيات تسعى أيضاً ، فما الذى يجعل الناس يفرّقون بين هذه الحركة وتلك؟ فلابد أن تكون هناك سمة أخرى غير هذه السمة ، تتمثل فى أن الحبال والعصىّ الكثيرة التى ألقاها السحرة ، تأتى عصا موسى فتنقلب حية ، ثم تتبع هذه الأشياء وتبلعها ، ومعنى تتبعها أن لها عينًا تبصر هذه الحبال والعصى حتى تراها وتلقفها ، ولكى تلقف هذا العدد الضخم من هذه الأشياء لابد أن جوفها يظل يكبر حتى يتسع لها؛ لأن العلماء قالوا: إن أئمة السحرة الذين حُشروا لموسى كانوا سبعين ساحراً ، فما بالك بالأتباع ؟ فعدد السحرة كان كبيراً. إذن المعجزة هنا ليست فى تحرك العصا كحية ، ولكن فى أن تلقف ما يأفكون؛ لأنه لو كانت عصا موسى انقلبت إلى حية تسعى فقط ، والناس يخيل إليهم أن حبال وعصىّ السحرة تسعى أيضاً ، فهذا لن يثبت التفوق لموسى، ولكن الذى أثبت التفوق لموسى أن عصاه تلقف هذه العصى والحبال التى ألقاها السحرة ، ومعنى ذلك أنها

تتبّع حركة العصىّ والحبال فى أى اتجاه ، ولا تستطيع أن تفعل ذلك إلا إذا كان لها عين ترى بها هذه الأشياء ، وبعد ذلك تكبر حتى يتسع جوفها لهذا العدد الكبير من الحبال والعصى .

ولذلك موسى لما رأى منظر الحبال والعصىّ التى ألقاها السحرة أوجس فى نفسه خيفة؛ لأنه خشى كما ذكرنا أن يقف الأمر عند تحول العصا التى معه إلى حية تسعى ، فتصبح المسألة متساوية ، والحق سبحانه وتعالى أرسل موسى بالآيات لكى ينصره ، ولكن الإنسان حينما يباشر الأمر سماعًا غير ما يباشره واقعاً ، ومعنى : «أوجس» ، الإيجاس: هو تحرك شيء مخيف فى القلب[1] لا يتعدى إلى الجوارح ، فإن تعدى إلى الجوارح كأن يهرب أو يجرى، فهنا لا يقال : أوجس خيفة ، ولكن عمل عملاً بعد العمل الوجدانى، ربنا سبحانه وتعالى طمأن موسى عليه السلام بقوله: ﴿لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ﴾[2] [طه: ٦٨] ، أى أنك منصور ومؤيد

---

(١) وجس: أوْجسَ القلب فَزَعاً: أحَسّ به. وفى التنزيل العزيز: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ قال أبو إسحق: معناه فأضمرَ منهم خوفاً، وكذلك التوَجُّس، وقال فى موضع آخر: معنى أوْجَسَ وقع فى نفسه الخوفُ. الليث: الوَجْس : فزعة القلب. والوَجْس: الفَزَع يقع فى القلب أو فى السمع من صوت أو غير ذلك. والتوَجُّس: التَّسَمُّع إلى الصوت الخفى؛ قال ذو الرمة يصف صائداً:

إذا تَوَجَّس ركزاً من سنَابِكها ... أو كان صاحِبَ أرْضٍ أوْ بِهِ المُومُ

وأوْجَسَت الأذن وتَوجَّسَت: سمعت حساً؛ وقول أبى ذؤيب:

حتى أتيح لهُ، يَوْماً بِمحْدَلةٍ ... ذو مرةٍ بِدوارِ الصيْد وَجَّاسُ

[لسان العرب :٦/ ٢٥٣]

(٢) قال ابن القيم : قول الله تعالى ﴿قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٨] ، هاهنا دقائق:

أحدها: الإتيان بلفظة «إنَّ» المشددة لتفيد تأكيد ثبوت مابعدها .

وثانيها: تكرير الضمير يدل على تأكيد مايتعلق به. =

من الله ولكن هنا النفس البشرية تتحرك كيف سينتصر؟ هنا يأتى الأمر الإلهى لموسى ، يقول الله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ [طه: ٦٩] إذن فالعملية الثانية هى اللقف ، وكلمة «تلقف» تعطيك الصورة الحركية؛ لأن معنى لقفت الشيء أى: أخذته بسرعة وشدة ، ومنها تلقفته أيضاً (١).

فالحق سبحانه طمأن موسى فى البداية أنه لا يخاف ؛ لأنه هو الأعلى وأنه منصور من الله ، وهذا كلام نظرى يحتاج إلى عمل يحققه ، وبعد ذلك أمره بإلقاء العصا وأخبره بأنها ستلقف ما صنع السحرة من سحر ، فكأن الحق سبحانه مع رسوله فى كل حركة من الحركات ، وهذا تأكيد لقوله تعالى لموسى وهارون : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] ،

= وثالثها: ذكر ﴿الأَعْلَىٰ﴾ معرّفاً يدل على ان غيره لايكون كذلك بخلاف عالى وأعلى
ورابعها: إن ﴿الأَعْلَىٰ﴾ بصفة أفعل يشعر بزيادة العلو.
وخامسها : حذف لام العلة يفيد زيادة علة ؛ لعدم الخوف لأن قوله : ﴿لا تَخَفْ﴾ علة لعدم الخوف ؛ لأنه نهى عنه ، واشتقاقه بعد ذلك بقوله : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ﴾ منع أيضاً من الخوف ؛ لأن الأعلى لايخاف الأدنى.
وبهذه الطريقة أخذ إمام المعطلة فرعون قومه حين قال للسحرة لما ظهرت حجة موسى عليه وصحت دعوته وصحت نبوته، وألقى السحرة ساجدين إيمانا بالله، وتصديقا برسوله. [بدائع التفسير :٣/ ١٦٢، ١٦٣]

(١) لقف: اللَّقفُ: تناوُل الشيء يُرمى به إليك. تقول: لقفَنى تَلْقيفاً فلقفْته. ابن سيده: اللَّقفُ سرعة الأخذ لما يُرمى إليك باليد أو باللسان. لقِفه، بالكسر، يلقَفه لقْفاً ولَقَفا والتقَفه وتلقَّفه: تناوله بسرعة؛ قال العجاج فى صفة ثور وحشى وحَفره كناساً تحت الأرطاةِ وتلقُّفه ما يَنهار عليه ورميه به:

من الشماليل وما تَلقَّفا

أى: ما يكاد عليه من الكناس حين يحفِره تلقّفه فرَمى به .

[لسان العرب :٩/ ٣٢٠]

وذلك حتى يرد على السامع بما يناسبه ويردّ على الرؤيا بما يناسبها ، ودائما يرهف أذن الرسول وقلبه إلى أن التوجيهات تصدر له من عند الله، فقول الحق سبحانه: ﴿ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٨] ، كلام مطمئن لموسى عليه السلام ، وتحقيق ذلك جاء من خلال الأمر بأن يلقى ما فى يمينه ، قال تعالى : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩] ، الحق سبحانه علّل تلقف العصا لهذه الأشياء بأنها كيد ساحر ، والذى يصنعه موسى بقدرة الله ، فكيد الساحر لا يقف أمام قدرة الله ، ومعنى :﴿ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ أى: مهما أوتى الساحر من قدرة على تسخير الجن لعمل شيء فوق طاقة الإنس ، فذلك لا يعطيه قدرة على شيء .

وبعد ذلك يقول لنا الحق: إياكم أن تفهموا أن الله ملك مصالحكم لهؤلاء ؛ فالساحر يفعل ما يريد، لكن الإصابة والأذى مرهونان بأمر الله سبحانه، قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾(١) [البقرة: ١٠٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ قضيّة منسحبة على الوجود كله إلى أن تقوم الساعة ، فالساحر لا يفلح فى أى زمان أو مكان.

---

(١) قال المراغى: فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى: أن هذين لم يعطيا شيئا من القوى الغيبية فوق ما أعطى سائر الناس، بل هى أسباب ربط الله به مسبباتها، فإذا أصيب أحد بضرر بعمل من أعمالهم ، فإن ذلك بإذنه تعالى، فهو الذى يوجد المسببات حين حصول الأسباب.
[تفسير المراغى : ١/١٨٢]

* وإن ربك لهو العزيز الرحيم *

قال تعالى :﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه: ٦٦] ، فالعملية تخييل وسحر عيون، فالمسحور يرى التخييل ولكن حقيقة الشيء كما هى، والساحر يراها حبالاً وعصيًا كما هى؛ فلما رأى السحرة عصا موسى تتحول بالفعل إلى حية تسعى تلقف حبالهم وعصيَّهم ، علموا أن هذه معجزة من الله، وليست سحراً ، فخرّوا ساجدين وقالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١] .

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٦٨] ، أى أنه هو العزيز الذى لا يُغلب ولا يُقهر، بل هو الذى يغلب ويقهر من يشاء، ومع عزته وقوته وجبروته فى أنه لا يغلب، إلا أنه رب الخلق أجمعين ، فيرحمهم إن تابوا ورجعوا إليه ويفرح بتوبتهم، فهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة؛ أى أنه سبحانه أشد فرحاً من إنسان كان يسير فى صحراء وضاع منه بعيره الذى عليه زاده وشرابه ومتاعه وكل شيء، فبعد أن يئس من البحث عنه جلس فغلبه النوم فنام فلما استيقظ ، وجد البعير أمامه وعليه الزاد والمتاع ، ففرح بذلك فرحاً شديداً ، فكذلك يفرح الله بتوبة عبده العاصى(١) .

---

(١) روى عن عبد الله بن مسعود حديثين : أحدهما عن النبى ﷺ والآخر عن نفسه ، قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل، يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه» ، فقال : به هكذا قال أبو شهاب بيده فوق أنفه، =

- ثم قال: «لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكانى ، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده». أخرجه البخارى [٦٣٠٨]

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله فى أرض فلاة».

أخرجه البخارى [٦٣٠٩]

* فألقى السحرة سجدا *

بعد ذلك قال الحق سبحانه: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٧٠]، شيء عجيب ، كما قال الزمخشرى : من العجيب أن هؤلاء ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، فإذا بهم يلقون أنفسهم للشكر والسجود[1]. فهم قد دخلوا هذه المعركة وهم كفرة جاحدون، وخرجوا منها وهم مؤمنون موحدون؛ وذلك لأنهم جمعوا كل كيد السحر وفنونه، ووجدوا أن العملية ليست من هذا النوع أبداً ، فالساحر يرى الأشياء على حقيقتها، وهم لم يروا عصا موسى على حقيقتها ، بل رأوا لها حركة حياة، فأيقنوا أن هذا ليس من فنون السحر، ولكنه شيء أعلى ، وهذا يدل على أن الفطرة الإيمانية فى النفس تطمسها الأهواء، هذه الفطرة التى أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «كل مولود يولد على الفطرة» [2] ، فالهوى يطمس على الفطرة الإيمانية، ولكن أحياناً تستيقظ هذه الفطرة ، وحين تستيقظ الفطرة الإيمانية، فأقل شيء يصادف هذا الاستيقاظ يؤثر عليه. والذى يدل على

---

(١) قال الزمخشرى: سبحان الله ما أعجب أمرهم، قد ألقوا حبالهم وعصيّهم للكفر والجحود ، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود. فما أعظم الفرق بين الإلقاءين ، وروى أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار، ورأوا ثواب أهلها. وعن عكرمة: لما خرّوا سجداً ، أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون إليها فى الجنة. [الكشاف: ٢/ ٤٤٠- ٤٤١]

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء». أخرجه البخارى [١٣٨٥]

أن هذه العملية جاءت على هوى السحرة : أنهم سيقولون لفرعون: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[1] فهذا دليل على أن طبائعهم وفطرتهم كانت تأبى هذا ، لكن فرعون هو الذى كان يُكرههم على السحر، وحين يكبر الواحد منهم فى السن يأمره بأن يأخذ مجموعة من الغلمان ليعلمهم السحر ؛ لأن هذا يناسب شعوذة فرعون وادّعاءه الألوهية.

وقولهم : ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ : يدل على أنهم وإن كانوا سحرة إلا أنهم كانوا مقهورين لأوامر الطاغية ، لكن إذا خلوا إلى أنفسهم تستيقظ فطرتهم، فإذا جاء شيء يزكّى الفطرة وينمّيها مثل: عصىٰ موسى فلا يملكون إلا التسليم[2] ؛ ولذلك : الحق سبحانه حينما تحدث عن

---

(١) عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ . قال: أخذ فرعون أربعين غلاماً من بنى إسرائيل، فأمر أن يُعلموا السحر بالعوماء، وقال: علموهم تعليماً لا يغلبهم أحد فى الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين قالوا: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾. [الدر المنثور: ٥/٥٨٧]

(٢) قال الفخر الرازى فى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ ذكروا فى ذلك الإكراه وجوهاً :

أحدها: أن الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ، ويكلفونهم تعلم السحر، فإذا شاخ بعثوا إليه أحداثًا؛ ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه، فقالوا هذا القول لأجل ذلك، أى كنا فى التعلم أولا والتعليم ثانياً مكرهين، قاله ابن عباس.

ثانيها: أن رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين، اثنان من القبط، والباقى من بنى إسرائيل ، فقالوا لفرعون : أرنا موسى نائما، فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا : ما هذا بساحر، الساحر إذا نام بطل سحره فأبى إلا أن يعارضوه. =

إلقائهم للحبال والعصى قال: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] ، فالإلقاء عمل اختيارى منهم، ولكن ساعة رأوا المعجزة واستيقظت عندهم الفطرة الإيمانية ، قال الحق سبحانه عنهم: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠] ، فهنا الفعل « أُلقى » مبنى للمجهول، فكأن نفوسهم من تلقاء نفسها خرّت ساجدة لله، فكأن قوة الحق فاجأت صحوة الفطرة ، فلم يملكوا إلا أن يقعوا ساجدين بدون

= ثالثها: قال الحسن: إن السحرة حشروا من المدائن ؛ ليعارضوا موسى عليه السلام ، فأحضروا بالحشر ، وكانوا مكرهين فى الحضور، وربما كانوا مكرهين أيضا فى إظهار السحر.

رابعها: قال عمرو بن عبيد : دعوة السلطان إكراه ، وهذا ضعيف؛ لأن دعوة السلطان إذا لم يكن معها خوف لم تكن إكراها. [التفسير الكبير: ٢٢/ ٨٩]

وقال ابن الجوزى فى قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا﴾ يعنون الشرك ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ﴾ أى: والذى أكرهتنا عليه، أى: ويغفر لنا إكراهك إيانا على السحر.

فإن قيل: كيف قالوا: أكرهتنا، وقد قالوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣] ، وفى هذا دليل على أنهم فعلوا السحر غير مكرهين؟ فعنه أربعة أجوبة:

أحدها: أن فرعون كان يكره الناس على تعلّم السّحر، قاله ابن عباس. قال ابن الأنبارى: كان يطالب بعض أهل مملكته بأن يعلّموا أولادهم السحر وهم لذلك كارهون ؛ وذلك لشغفه بالسحر، ولما خامر قلبه من خوف موسى، فالإكراه على السحر، هو الإكراه على تعلمه في أول الأمر.

والثانى: أن السحرة لما شاهدوا موسى بعد قولهم: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ ورأوا ذكره الله تعالى وسلوكه منهاج المتقين، جزعوا من ملاقاته بالسحر، وحذروا أن يظهر عليهم ، فيطّلع على ضعف صناعتهم، فتفسد معيشتهم، فلم يقنع فرعون منهم إلا بمعارضة موسى، فكان هذا هو الإكراه على السحر.

والثالث: أنهم خافوا أن يغلبوا فى ذلك الجمع، فيقدح ذلك فى صنعتهم عند الملوك والسوق.

والرابع: أن فرعون أكرههم على مفارقة أوطانهم، وكان سبب ذلك السحر . ذكر هذه الأقوال ابن الأنبارى . [زاد المسير: ٥/ ٢١١، ٢١٢]

اختيار، وهذا السجود عملية مرئية.

وهناك عملية أخرى قولية هى قولهم: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ . إذن هناك منظر رآه الناس وهو: أنهم ألقوا سجدا ، والذى القاهم هو قوة الحق؛ لمفاجئته الفطرة فانكبوا على الأرض ساجدين دون اختيار أو شعور، وبعد أن سجدوا بدءوا يعلنون رأيهم، حدث هذا منهم جميعاً مرة واحدة، فلم يتباطأ منهم أحد، مما يدل على أنهم كانوا مكرهين على هذا العمل ومسخّرين لأدائه، ودليل ذلك أنهم فى آية أخرى قالوا لفرعون : ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١] ، فكأنهم كانوا مسخرين لأداء هذا العمل لفرعون؛ لتخويف أتباعه أو لاضفاء القوة والمهابة على نفسه، وادّعائه الألوهية أمام رعيته، فكانوا يقومون بهذا العمل لفرعون دون أجر، ولكن هذه المرة سألوا فرعون أن يعطيهم أجراً ؛ لأن هذه المعركة ليست هيِّنة مثل غيرها، فلما سألوا فرعون هل سيعطيهم أجراً إن استطاعوا أن يغلبوا موسى؟ ، قال لهم : ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢] ؛ أى أنه سيعطيهم الأجر وسيقرّبهم منه وسيكونون هم سدنة الفرعونية، ففرعون أراد بذلك أن يشحذ هممهم، فلا يدخرون وسعا فى فنهم؛ أملا فى أن يستطيعوا هزيمة موسى، ومع أن موسى هو المرسل وهارون هو العَضُد ، إلا أنهم حينما سجدوا قالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ (١).

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ إنما قدّم هارون على موسى فى حكاية كلامهم؛ رعاية لفواصل الآى، وعناية بتوافق رؤوسها.
[فتح القدير: ٣/ ٣٧٦]، وانظر [فتح البيان : ٨/ ٢٥٣]
وقال البقاعي: ولما كان سياق هذه السورة مقتضيا لتقديم هارون عليه السلام، قال: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ بشارة للنبى ﷺ بأنه سبحانه لا يشقيه بهذا القرآن، بل يهدى الناس ويذلّهم له، فيجعل العرب على شماختها أذل شىء لوزرائه وأنصاره =

= وخلفائه، وإن كانوا أضعف الناس، وقبائلهم أقل القبائل، مع ما فى ذلك من الدليل على صدق إيمانهم، وخلوص ادعائهم بتقديم الوزير المترجم ترقيا فى درج المعرفة ممن أوصل ذلك إليهم إلى من أمره بذلك، ثم إلى من أرسله شكرا للمنعمين بالتدريج «لا شكر الله من لم يشكر الناس» (١) ، وهذا لما أوجب تقديمه هنا لا لهذا فقط، وذكروا اسم الرب إشارة إلى أنه سبحانه أحسن إليهما بإعلاء شأنهما على السحرة، وعلى من كانوا يقرون له بالربوبية، وهو فرعون الذى لم يغن عنهم شيئا، فكانوا أول النهار سحرة ، وآخره شهداء بررة، وهذه الآية فى أمثالها من آى هذه السورة وغيرها مما قدم، فيه ما يتبادر أن حقه التأخير و بالعكس ، لأنحاء من المعانى دقيقة، هى التى حملت بعض من لم يرسخ إلى أن يقول: إن القرآن يراعى الفواصل، كما يتكلف بلغاء العرب السجع، وتبعه جمع من المتأخرين تقليدا، وقد عاب النبى ﷺ ذلك حين قال : «سجع كسجع الجاهلية ، أو قال: الكهان» (٢) . وقد علم مما ذكرته أن المعنى الذى بنيت عليه السورة ما كان ينتظم إلا بتقديم هارون، ويؤيد ذلك أنه قال هنا: ﴿إِنَّا رَسُولا﴾ وفى الشعراء ﴿رَسُول﴾ . وقد قال الإمام فخر الدين الرازى كما حكاه عنه الشيخ أبو حيان فى سورة فاطر من النهر: لا يقال فى شىء من القرآن: إنه قدم أو أخّر لأجل السجع؛ لأن معجزة القرآن ليست فى مجرد اللفظ، بل فيه وفى المعنى ، قال القاضى أبو بكر الباقلانى فى كتاب إعجاز القرآن: ذهب أصحابنا كلهم إلى نفى السجع من القرآن ، وذكره أبو الحسن الأشعرى فى غير موضع من كتبه، ثم رد على المخالف بأن قال: والذى يقدرونه أنه سجع فهو وهم؛ لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعا ؛ لأن السجع يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن؛ لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى، وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه =

(١) أخرجه أبو داود [٤٨١١] عن أبى هريرة بلفظ : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» .
وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٤٠٢٦]

(٢) أخرجه النسائى فى الكبرى [٧٠٢٧] عن المغيرة بن شعبة بلفظ : أن ضرتين ضربت إحداهما الأخرى بعمود فسطاط فقتلتها ، فقضى رسول الله ﷺ الدِّية على عصبة القاتلة وقضى لما فى بطنها بغرة، فقال الأعرابى : تُغرِّمُنى من لا أكل ولا شرب ولا صاح فاستهل فمثل ذلك يُطل ؟ فقال : «سجع كسجع الجاهلية ، وقضى لما فى بطنها بغرة».

بعض الناس قد يتساءل ، ماذا قال السحرة؟ هل قالوا : آمنا بـ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٨] ، أم قالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) ﴾ [الشعراء] ؟ ونحن نقول: إذا كان رؤساء السحرة سبعين فلابد أن الأتباع يصل عددهم إلى سبعمائة أو يزيد[1] ، فهل من المعقول أن يتحدوا جميعاً فى الحركة وفى القول ، أم أن كل واحد انفعل بحسب مداركه الإيمانية الجديدة، فبعضهم قال: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ وبعضهم قال: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ؟ فقيلت هذه وهذه، والقرآن عدّد كل هذه اللقطات مجتمعة؛ لأنه ليس من المعقول أن يتفق هذا العدد الضخم فى الحركة وفى اللفظ. ولذلك نجد الواحد من خصوم الإسلام يقول : القرآن يقول عن السحرة مرة أنهم قالوا كذا، ومرة يقول : إنهم قالوا كذا. . فأيهما قالوا؟ نقول له : هذه جمهرة لا تستطيع أن تحكم أقوالهم، فكل واحد انفعل بما يقول؛ فنحن نستطيع أن نردّ على

= بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع، كان إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع، كان مستجلبا لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى، ثم استدل على ذلك بأشياء نفيسة أطال فيها وأجاد ، رحمه الله. [نظم الدرر: ١٢/٣٠٩- ٣١١]

(١) قال ابن كثير: قال ابن عباس وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة وفى آخر النهار شهداء بررة، وقال محمد بن كعب : كانوا ثمانين ألفاً، وقال القاسم بن أبى برة: كانوا سبعين ألفاً وقال السدى: بضعة وثلاثين ألفاً، وقال الثورى: عن عبد العزيز ابن رفيع عن أبى ثمامة كان سحرة فرعون تسعة عشر ألفاً، وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشرة ألفاً، وقال كعب الأحبار : كانوا اثنى عشر ألفاً، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد بن على بن حمزة حدثنا على ابن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس ، كانت السحرة سبعين رجلاً أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. [تفسير ابن كثير: ٣/ ١٥٤]

من يقول: إن القرآن يحكى أقوالاً متعددة عن كلام السحرة بعد إيمانهم ، فأىّ قول قيل؟ فنقول له : هذه لقطات لمجتمع جماهيرى لا تضبط حركاته، ولا تضبط كلماته، بل كل واحد ينفعل حسب مداركه الإيمانية. فالقرآن عدّد اللقطات ؛ ليقصّ كل ما حدث فى القصة.

* إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا *

قال تعالى : ﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ [الشعراء]

أى نحن لا نخشى الضرر؛ لأننا مهما طال العمر سنموت ونلقى الله، فسواء قتلتنا أو تركتنا لابد من الموت، وإذا متنا على يدك فسنلقى ربنا وتشقى أنت بجزاء ربك؛ ولذلك أحد الطغاة المستبدين هدّد خصماً له بالقتل، فضحك الخصم ، فقال له: أتسخر منى وتضحك؟ قال له: وكيف لا أضحك لأمر تفعله بى يسعدنى الله به، وتشقى به أنت؟! فالسحرة لما آمنوا لم يخافوا من تهديد فرعون لهم بالقتل؛ لأنهم إن قُتلوا سيرجعون إلى الله وسيخرجون من ألوهية باطلة إلى لقاء ألوهية حقّة، فأنت ستعجّل لنا بلقاء الله، فالذى تظنه تعذيبًا لنا هو غاية ما نرجوه[1] ؛ ولذلك المسلم الذى فهم هذا المعنى قال:

---

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى: ﴿قَالُوا لا ضَيْرَ﴾ ، أى لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا، فإن ذلك يزول، ولابد من الانقلاب بعده إلى ربنا، فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يحدّ ولا يوصف. قال الهروى: لا ضير ولا ضرر ولا ضر، بمعنى واحد. قال الجوهرى: ضاره يضوره ويضيره ضيراً وضوراً، أى ضره، قال الكسائى: سمعت بعضهم يقول: لا ينفعنى ذلك ولا يضورنى، قال أبو زيد: لا يضيرنا الذى يقول وإن صنعت بنا وصلبتنا.

﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أى راجعون، وهو مجازينا لصبرنا على عقوبتك إيانا، وثباتنا على توحيده، والبراءة من الكفر، قاله أبو زيد ؛ تعليل لعدم الضير أى لا ضير فى ذلك، بل لنا فيه نفع عظيم؛ لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم ، أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل ؛ إذ لا بُدَّ =

ولستُ أبالى حين أقتل مسلماً		على أى شقٍّ كان فى الله مصرعى(١)

هم أرادوا أن يقولوا : إن الذى سيفعله بهم فرعون لن يضرهم ولكن سينفعهم؛ لأن هناك شيئاً يمنع الضرر، ولكن لا يجلب نفعاً ، مع أن النفع هو نفى الضرر أولاً ؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة. فإنْ

= لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت، والقتل أهونها وأرجاها.
﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾: اى نرجو. ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا﴾ : اى الكفر والسحر، ثم عللوا هذا بقولهم: ﴿أَن كُنَّا﴾: اى بسبب ان كنا ﴿أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ اى: انهم أول من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية أو من أهل المشهد.
وقال الفراء: أول مؤمنى زمانهم، وأنكره الزجاج، وقال: قد روى أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفا، وهم الذين عناهم فرعون بقوله: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، قال أبو زيد: كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآياته حين رأوها.
[فتح البيان: ٩/٣٧٩- ٣٨٠]

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بعث رسول الله ﷺ عشرة رهطٍ سرية عينًا ، وأمَّرَ عليهم عاصم بن ثابت الأنصارى ـ جدَّ عاصم بن عمر بن الخطاب ـ فانطلقوا ، حتى إذا كانوا بالهدأة ـ وهو بين عُسفانَ ومكة ـ ذُكِروا لِحىٍّ من هُذَيل يقال لهم بنو لحيان ، فنفروا لهم قريبا من مائتى رجلٍ كلهم رام ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة ، فقالوا : هذا تمر يثرب ، فاقتصوا آثارهم ، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفدٍ ، وأحاط بهم القوم فقالوا لهم : انزلوا وأعطونا بأيديكم ، ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحدا . قال عاصم بن ثابت أمير السَّرية : أما أنا فوالله لا أنزل اليوم فى ذمة كافر ، اللهم أخبر عنا نبيَّك ، فرموهم بالنَّبل ، فقتلوا عاصما فى سبعة . فنزل إليهم ثلاثةُ رهطٍ بالعهد والميثاق ، منهم خُبيبٌ الأنصارى وابن دَثِنةَ ورجل آخر ، فلما استمكنوا منهم أطلَقوا أوتارَ قِسيِّهم فأوثقوهم ، فقال الرجلُ الثالث : هذا أوَّلُ الغدر ، والله لا أصحبُكم ، إن لى فى هؤلاء لأسوة ـ يريد القتلى ـ وجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى ، فقتلوه ، فانطلقوا بخُبَيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقيعة بدر ، فابتاع خُبيبا بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، وكان خبيب هو قتل الحارث بن عامر يوم بدر ، فلبث خُبيب عندهم أسيرا فأخبرنى عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث =

قتلَهم فلن يضرهم ذلك بل سيجلب لهم نفعا، هو لقاء ربهم الذى آمنوا به، عسى أن يغفر لهم خطاياهم؛ لذلك قالوا : ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ؛ لأن فرعون أكرههم على السحر والكذب على الناس وتضليلهم ، وكانوا فى خدمته وطاعته بعد أن أجبرهم على أنه ربهم الأعلى، فحينما ثبتت المعجزة لموسى ، وآمنوا به، فعسى الله أن يغفر لهم؛ لأنهم كانوا أول المؤمنين بالله رب العالمين.

= أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى[1] يستحد بها فأعارته ، فأخذ ابنا لى وأنا غافلة حين أتاه ، قالت : فوجدته مُجْلِسَه على فخذه والموسى بيده ، ففزعت فزعة عرفها خبيب فى وجهى ، فقال : تخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك . والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خُبيب ، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب فى يده ، وإنه لموثق فى الحديد وما بمكة من ثمر . وكانت تقول إنه لرزق من الله رزقه خبيبا . فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه فى الحِلِّ قال لهم خبيب : ذرونى أركع ركعتين . ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع لطوَّلتها ، اللهم أحصهم عددا .

ولست ما أبالى حين أقتل مسلما ... على أى شق كان لله مصرعى

وذلك فى ذات الإله ، وإن يشـأ ... يبارك على أوصال شِلْو مُمزَّع

فقتله ابن الحارث ، فكان خبيب هو سَنَّ الركعتين لكل امرىء مسلم قتل صبرا . فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب ، فأخبر النبى ﷺ أصحابه خبرهم وما أصيبوا ، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل؛ ليؤتوا بشىء منه يعرف ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر ، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدَّبْر ، فحمته من رسولهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا ».

أخرجه البخارى [٣٠٤٥ ، ٣٩٨٩ ، ٤٠٨٦]

---

(١) موسى : آلة من الحديد يقطع بها .

* قال آمنتم له قبل أن آذن لكم *

لما سجد السحرة وأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون اغتاظ فرعون منهم؛ لأنهم خذلوه ولم ينصروه كما كان يظن، فأقسم على الانتقام منهم ، قال تعالى: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾(1) [طه: ٧١] .

---

(١) قوله: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ﴾ . يقال: آمن له وآمن به ، فمن الأول : قوله ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] ، ومن الثاني: قوله : ﴿آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ . وقيل: إن الفعل هنا متضمن معنى الاتباع. وقرئ على الاستفهام التوبيخي، أي كيف آمنتم به من غير إذن منى لكم بذلك؟ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أي إن موسى لكبيركم، أي أسحركم وأعلاكم درجة في صناعة السحر، أو معلمكم وأستاذكم ، كما يدل عليه قوله: ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ ، قال الكسائي: الصبي بالحجاز إذا جاء من عند معلمه قال: جئت من عند كبيري. وقال محمد بن إسحاق: إنه لعظيم السحر. قال الواحدي: والكبير في اللغة: الرئيس، ولهذا يقال للمعلم: الكبير. أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس ؛ حتى لا يؤمنوا، وإلا فقد علم أنهم لم يتعلموا من موسى، ولا كان رئيساً لهم، ولا بينه وبينهم مواصلة. ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ : أي والله لأفعلنّ بكم ذلك . والتقطيع للأيدي والأرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، و «من» للابتداء ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾: أي على جذوعها، كقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨] ، أي عليه.

وإنما آثر كلمة : ﴿فِي﴾ للدلالة على استقرارهم عليها ، كاستقرار المظروف في =

فرعون جمع السحرة لينصروه على موسى، ولكن الله جعل خذلانه وهزيمته على يد من توسّم فيهم عزته ونصره، ولكنه أراد أن يتماسك أمام الناس ، فأعلن سخطه عليهم؛ لأنهم آمنوا بموسى قبل أن يأذن لهم، وزعم أنهم لو فعلوا ذلك لأذن لهم ! وزعم أن موسى هو كبير السحرة الذى علمهم السحر؛ ولذلك آمنوا به .

هنا نجد التعبير القرآنى يفرق بين الأمر والإذن، فإذا أمر إنسان إنساناً بعمل شىء ، فهو يحب أن يتم عمل هذا الشىء، ولكن إذا أذن لأحد بعمل شىء معين ، فليس من الضرورى أن يكون محبا لهذا العمل. ففرعون قال: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١] ، ولم يقل : قبل أن آمركم، فهو لم يأت منه أمر بهذا الشىء ؛ لأنه ليس على هواه ولا يحبه. أراد فرعون أن يشوّه إيمان السحرة أمام الناس ، فقال : أنتم آمنتم به ؛ لأنه كبيركم الذى علمكم السحر، فهذا وفاء من تلاميذ لأستاذهم، فلا يصح أن يتمردوا عليه وهو كبيرهم ومعلمهم. وكلمة ﴿آمَنتُمْ﴾ أخذت فى القرآن مجالات متعددة وهى من مادة (آمن) ، والأمن هو: الاطمئنان وعدم الخوف. وتأتى مرة ثلاثة أحرف (الهمزة والميم والنون) ، ومرة تزاد الهمزة فتقول: آمن زيادة ألف على الهمزة ، والفرق بينهما أن «أمن» بمعنى اطمأن، و(آمن) إما أن تكون لازمة وإما أن تكون متعدية، فإذا كانت متعدية تكون مثل قولك: آمنه من خوف كما قال سبحانه : ﴿فَلْيَعْبُدُوا

= الظرف ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾: أراد: لتعلمن هل أنا أشدّ عذاباً لكم أم موسى؟ ومعنى ﴿أَبْقَىٰ﴾: أدوم، وهو يريد بكلامه هذا: الاستهزاء بموسى؛ لأن موسى لم يكن من التعذيب فى شىء، ويمكن أن يريد: العذاب الذى توعدهم به موسى إن لم يؤمنوا. وقيل: أراد بموسى رب موسى ، على حذف المضاف.

[فتح القدير: ٣/ ٣٧٧] بتصرف .

﴿رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤] ، والمعنى هنا أن الله تعالى آمن مكان مكة من الخوف، ولكن إذا كان الفعل، (آمن) لازما وليس متعدياً مثل : فلان آمن بالله، فلان آمن بأنك صاحب حق.. هنا يكون معنى آمن: اطمأن إلى قضية معينة. ومرة تأتى آمن باللام مثل قوله تعالى : ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١] .

ومعنى ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أى صدقتموه مثل قوله تعالى : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] ، إذن : «آمن» بمعنى صدق، وآمن به: أى اعتقده، وآمنه : أعطاه الأمن، إلا أن الصيغة فى اللازم والمتعدى فى الحرف مثل : أمن وآمن تأتى بمعنى واحد فى بعض الأساليب، فمثلاً يعقوب عليه السلام طلب منه أولاده أن يعطيهم بنيامين ؛ حتى يأخذوا البضاعة من مصر وقال لهم: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[1] [يوسف: ٦٤] . والفرق بين ﴿أَمِنتُكُمْ﴾ و ﴿آمَنُكُمْ﴾ أن

---

(١) يقول الرازى : ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ والمعنى انكم ذكرتم قبل هذا الكلام فى يوسف وضمنتم لى حفظه ، حيث قلتم : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ثم هاهنا ذكرتم هذا اللفظ بعينه ، فهل يكون هاهنا أمانى إلا ما كان هناك، يعنى لما لم يحصل الأمان هناك فكذلك لا يحصل هاهنا.

ثم قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائى ﴿حَافِظًا﴾ بالألف على التمييز ، والتفسير على تقدير : «هو خير لكم حافظا» كقولهم: هو خيرهم رجلا ، ولله دره فارسا، وقيل: على الحال ، والباقون : «حفظا» بغير ألف على المصدر يعنى : خيركم حفظا ، يعنى حفظ الله لبنيامين خير من حفظكم، وقرأ الأعمش: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ، وقرأ أبو هريرة رضى الله عنه: «خير الحافظين وهو أرحم الراحمين»، وقيل: معناه وثقت بكم فى حفظ يوسف عليه السلام ، فكان ما كان فالآن أتوكل على الله فى حفظ بنيامين.

[الفخر الرازى: ١٨ / ١٦٩]

﴿أَمنتُكُمْ﴾ كان فى التجربة الأولى حينما كانت عن يوسف، ولكن ﴿آمَنتُمْ﴾ جاءت فى المرة الثانية والموقف محتاج إلى حرصٍ أشد؛ فجاء الحرف الزائد فى الهمزة للحرص الشديد فى التجربة الثانية، بعد أن فقد يوسف فى المرة الأولى. هنا فرعون قال: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أى صدقتموه. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] ، سوء تعليل لواقع الإيمان؛ لأنه يتهمهم أنهم جاملوا موسى لأنه كبيرهم ومعلمهم.

ثم هدّدهم بقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] ، هذا تهديد ووعيد من فرعون للسحرة بعد إيمانهم بموسى عليه السلام فهدّد بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، ومعنى ذلك أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى والعكس بالعكس، ونحن تكلمنا سابقاً عن بعض الحروف التى تأتى بمعنى بعضها، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] ، والتصليب يأتى بوضع شيء على شيء وربطه ربطاً محكما. فهنا جاء حرف الجر ﴿فِى﴾ بدلاً من «على»، فلم يقل : لأصلبنكم على جذوع النخل ، ولكن قال : ﴿فِى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾... لماذا؟ بعض العلماء قالوا: لأن الحروف تأتى بمعنى بعضها، ولكن هذا لا يليق بالأسلوب الأعلى للبيان.

إذن فالتصليب: أن تأتى بمصلوب عليه وهو الخشبة أو الحديد، وتأتى بمصلوب وتربط المصلوب على المصلوب عليه، وتشد الرباط. ويمكن أن تجرّب هذا بنفسك ، بأن تأتى بعود كبريت وتربطه على إصبعك بخيط وتشدد الربط، فشدّة الربط تجعل عود الكبريت يغوص فى لحم إصبعك ، فيصبح كأنك لم تصلبه على إصبعك ولكن فى إصبعك، وهذا مبالغة فى التصليب .. إذن حين يأتى بعض العلماء فى التفسير ويقول :

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أى : على جذوع النخل، ثم يعلّل ذلك بأن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض. نقول له: لا ؛ لأن المعنى : لأصلبنكم فى جذوع النخل تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه، فكأنه ليس عليه، بل هو داخل فى حيزه . . فالمعنى لا يتم إلا بهذا.

وقوله :﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١] ، يقصد به العذاب الذى سينزل بهم ، فهو سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وسيصلبهم فى جذوع النخل ويتركهم على هذا الحال ، فسيجمع فى العذاب بين أمرين هما الشدة ودوام الزمن.

* فاقض ما أنت قاض *

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]

وقلنا: إن الإيثار هو: ترجيح أحد الاحتمالين على الآخر[١] ، قولهم : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه: ٧٢]، تعبير فى منتهى الدقة وهو تعبير واعٍ وحكيم؛ لأنه كان من الممكن أن يقولوا: لن نؤثرك على موسى، ولكنهم لم يذكروا موسى ، وذكروا البيّنة التى جاء بها[٢] ؛ ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ② فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ③﴾ [البينة] ؛ فالارتقاء من الرسول إلى البينة التى جاء بها إلى من أعطى له هذه البينة ثلاث مراحل .

والبينات[٣] : هى الأمور الواضحة التى تحسم كل جدل حولها، وتجعل

---

(١) الإيثار : الأصمعى: آثرتُك إيثاراً أى فضّلتك. وفلان أثيرٌ عند فلان وذو أثرة ، إذا كان خاصاً. ويقال: قد أخذه بلا أثَرَة وبلا إثرَة وبلا استئثارٍ ؛ أى لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود؛ وقال الحطيئة يمدح عمر، رضى الله عنه:

ما آثروكَ بها إذ قدموكَ لها   لكنْ لأنفسهمْ كانت بها الإثَرُ

أى : الخيرةُ والإيثارُ، وكأنَّ الإثرَ جمع الإثرة وهى الأثَرة . [لسان العرب :٤/٧]

(٢) وأخرج ابن أبى حاتم، عن القاسم بن أبى بزة قال: « لما وقعوا سجّداً رأوا أهل النار، وأهل الجنة وثواب أهليهما ، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾.
[الدر المنثور :٥/٥٨٧]

(٣) قال أبو حيان: وهى المعجزة التى أتتنا وعلمنا صحتها. [البحر المحيط :٧/٣٥٩]

الأمر واضحاً غير محتاج إلى جدل، فكأنهم قالوا لفرعون : ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ على يد موسى ، ولن نؤثرك على أعلى من ذلك وهو الذى فطرنا . وربما كان قولهم : ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ قسَم ، مثلما نقول: لن أفعل كذا وكذا والذى خلقك ، كأنك تقسم على هذا الأمر ألا يحدث ، وهذه حيثية عدم الرجوع فيما أعلنوه من إيمان برب هارون وموسى. بعد ذلك انتقلوا إلى ما هدّدهم به فرعون ؛ من تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم فى جذوع النخل ، فقالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: نفّذ ما أنت حاكم به من تقطيع الأيدى والأرجل والتصليب فى جذوع النخل(1) .

أو أن المعنى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أى: افعل ما بدا لك ، حتى لو

---

(1) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ أى خلقنا ، والواو للعطف، وإنما أخّروا ذكر البارى تعالى ؛ لأنه من باب الترقى من الأدنى إلى الأعلى، وقيل : إنها واو القسم والموصول مقسم به وجوابه محذوف، أى : «وحق الذى»، أو والله الذى فطرنا لا نؤثرك على الحق، وهذان الوجهان فى تفسير الآية ذكرهما الفراء والزجاج والسمين.

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ هذا جواب منهم لفرعون لما قال لهم : ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ ﴾ إلخ. والمعنى : فاصنع ما أنت صانعه من القتل والصلب ، واحكم ما أنت حاكم به. قال المفسرون: وليس فى القرآن أن فرعون فعل بالسحرة ما هددهم به ، ولم يثبت فى الأخبار أيضاً. قاله أبو السعود. وفى بعض التفاسير أنه فعله بهم كما مر.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ تعليل لعدم المبالاة المستفادة من قولهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ ومن الأمر بالقضاء ، أى: إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه فى هذه الدنيا ، وما لنا من رغبة فيها ولارهبة من عذابها. والمعنى : إنما سلطانك علينا ونفوذ أمرك فينا فى هذه الحياة الدنيا ، ولاسبيل لك علينا فيما بعدها فسيزول عن قريب، قال الفراء: ﴿مَا﴾ بمعنى الذى، أى: أن الذى تقضيه هو هذه الحياة الدنيا، فقضاؤك وحكمك منحصر فى ذلك. [فتح البيان :٨/ ٢٥٥، ٢٥٦]

كان أشد مما قلت. . لماذا؟ لأنك تقضى هذه الحياة الدنيا ، فأنت يا فرعون إنسان من الممكن أن تموت الآن ، فتكون قد قضيتَ مدة حياتك ، وقد يأتى من بعدك من لا يفعل ذلك ، وهب أن من جاء بعدك فعل هذا الشىء فهو أيضاً حياته منتهية[1]،حتى ولو اتصلت الحياة حتى تقوم الساعة، فالحياة الدنيا كلها منتهية ، ومادام الشىء منتهياً ومتروكاً فلا يحزن عليه، ولكن الشىء الذى يحزن عليه هو الأمر الذى لا يفوتك ولا تفوته، ونحن قلنا: هب أن إنساناً منعمًا فى حياته وعنده كل ما تشتهيه نفسه إلا أنه مهدد بشيئين: أولهما : أنه يخاف أن يموت ويترك هذا النعيم، والثانى: خوفه أن يعيش بدون هذا النعيم بأن يزول منه أو يضيع. إذن كل ما يهدد الإنسان المنعم فى حياته هو خوفه من الموت فيفوت النعيم ، أو أن يعيش ولكن يفوته النعيم، أما فى الدار الآخرة فلا تفوت النعيم ولا يفوتك أبداً ، فهى الدار الأبقى .

ثم قالوا بعد ذلك: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٣] ؛ فنحن آمنا بربنا ومادمنا رجعنا من الإيمان بالبشر إلى الإيمان بخالق البشر ، فهذا رشد التفكير، ولا يصح أن تلومنا على رشد تفكيرنا؛ لأن رشد هذا التفكير سيغيِّر فينا أشياء كثيرة، فنحن أخطأنا كثيراً ، فآمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ، ويغفر لنا ما أكرهتنا

---

(١) قال البقاعى: ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى﴾ اى: تصنع بنا ماتريد إن قدَّرك الله عليه .

﴿هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ اى : إنما حكمك فى مدتها على الجسد خاصة، فهى ساعة تعقب راحة ، ونحن لا نخاف إلا من يحكم على الروح وإن فنى الجسد، فذاك هو الشديد العذاب، الدائم الجزاء بالثواب أو العقاب ، ولعلهم أسقطوا الجارَّ ، تنزلا إلى أن حكمه لو فرض أنه يمتد إلى آخر الدنيا ، لكان أهلا لأن لا يخشى ؛ لأنه زائل وعذاب الله باق. [نظم الدرر : ١٢/٣١٣]

عليه من السحر ، فكأن المسألة كلها كانت عبارة عن جماعة مكرهين على عمل من الأعمال ، قد لا يوافق طبيعتهم ولا ميولهم[1] ، وما أكثر ما يكون هذا، فتجد واحداً ينفذ أوامر الطغاة وهو غير مقتنع بها. إذن . . يستفاد من ذلك أن هناك طغاة يحبون أن يحملوا الناس على ما يكرهون من الأعمال.

ومعنى ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧٣] : أى إنك يا فرعون ستزول وملكك سينتهى، والطغاة الذين سيأتون بعدك سيزولون وتنتهى حياتهم،

---

(١) قال عبد الرحمن السعدى: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ أى: كفرنا ومعاصينا، فإن الإيمان مكفر للسيئات، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها.

وقولهم : ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ الذى عارضنا به الحق، هذا دليل على أنهم غير مختارين فى عملهم المتقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهاً.

والظاهر - والله أعلم - أن موسى لما وعظهم كما تقدم فى قوله ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أثّر معهم، ووقع منهم موقعاً كبيراً، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك، وأكرههم على المكر الذى أجروه، ولهذا تكلموا بكلامه السابق، قبل إتيانهم، حيث قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا﴾ فجروا على ما سَنَّهُ لهم، وأكرههم عليه.

ولعل هذه النكتة، التى قامت بقلوبهم، من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل ، وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض، هى التى أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها، ووفقهم للإيمان والتوبة، والله خير مما أوعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه ، وأبقى ثواباً وإحساناً لا ما يقول فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ يريد أنه أشد عذاباً وأبقى.

وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة السحرة، أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب، ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم يأت فى ذلك حديث صحيح، والجزم بوقوعه، أو عدمه، يتوقف على الدليل، والله أعلم بذلك وغيره. [تيسير الكريم الرحمن : ٢/ ٢٣]

ولا يبقى إلا الله وحده رب كل شيء ومليكه ، فهو سبحانه يُعيش كل خلقه فى أسبابه التى خلقها، ولكن فى الآخرة لا يعيشون بالأسباب، بل يعيشون بالمسبب، فأنت تشترى الخضروات واللحم والخبز والفاكهة وتحملها إلى بيتك ؛ ليطبخوا لك هذا الطعام ، فأنت تعيش بالأسباب التى تزاولها ، وإن كان أصل هذه الأسباب من عند ربك ، ولكنك تزاولها وتأخذ بها، مثل الزوجة التى يأتيها زوجها باللحم والأرز والخضروات والخبز والسمن ويضعهم لها فى المطبخ، فزوجته حين تصنع طعاماً لا تأتى به من عندها ، ولكنها تأخذه مما أحضره الزوج ، تقوم بإعداد هذا الطعام وطهيه على النار وتشكيله كما تريد؛ أى أنها تأخذ بالأسباب، إذن الإنسان فى الدنيا بالأسباب ، ولكنه يعيش فى الآخرة بدون هذه الأسباب، فإذا خطر شيء ببالك من نعيم الجنة تجده متاحًا لك[1] ، وهذا شيء لا يمكن أن تفعله أية حضارة مهما تقدمت وعلا شأنها.

لذلك الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] ، فإذا كنتم قد ارتقيتم فى حياتكم وتقدمتم فى علومكم ، فلماذا لا تحتفظون بالحياة لكم ، وتمنعونها من الزوال وتحافظون على دنياكم من الزوال ؟ وهذه لن تقدروا عليها ولن يقدر عليها أحد ، ففى الدنيا يكون العطاء مرتبطاً بالأسباب ، ولكن فى

---

(١) عن البراء بن عازب فى قوله : ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤] ، قال: «إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أى حال شاءوا».
ذكره السيوطى فى الدر المنثور [٨/ ٣٧٤] ، والبيهقى فى البعث والنشور [٢٨٥] من طريق سعيد بن منصور عن شريك عن أبى إسحاق عن البراء . وإسناده ضعيف لأن أبا إسحاق السبيعى لم يسمع من البراء . [جامع التحصيل ص : ٢٤٥].

الآخرة سنكون مع خالق الأسباب . فقوله تعالى على لسان السحرة : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:٧٣] معناه: أن الله خير من كل شيء[1] ، ولذلك قالوا: إن الذى يجعل الله دائماً فى باله ، يوقن أن فى الله عوضاً عن كل فائت ؛ لأنك ساعة تجعل الله فى بالك دائماً تستحى أن تعمل معصية وهو يراك ؛ ولذلك فالرسول ﷺ يقول : «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [2] ، ولذلك أحد الصالحين لما سئل: فيم أفنيت عمرك؟ قال : أفنيته فى أربعة أشياء : علمت أنى لا أخلو من نظر الله طرفة عين ، فاستحييت أن أعصيه، وعلمت أن لى رزقاً لا يتجاوزنى وقد ضمنه الله لى فقنعت به، وعلمت أن علىّ ديناً لا يؤدّيه عنى غيرى فاشتغلت به ، وعلمت أن لى أجلاً يبادرنى فبادرته . وقال أحدهم يشرح هذه النصائح :«اجعل مراقبتك لمن لا تخلو عن نظره إليك»؛ أى: راقب من لا يغفل نظره عنك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه.إذ أن الله خير وأبقى.

بعد ذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ ﴾[3] [طه] ، هنا يتحدثون عن حيثيات الحكم ، والمجرم: هو من عمل جريمة، ونحن قلنا: إن الجريمة أن تكسر قانونا من

---

(١) قال الماوردى: قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ فيه وجهان:
أحدهما : والله خير منك وأبقى ثواباً إن اطيع، وعقاباً إن عُصى.
الثانى : خير منك ثواباً إن اطيع وأبقى منك عقاباً إن عُصى.
[تفسير الماوردى :٣/ ٤١٥]

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخارى [٤٧٧٧] ، ومسلم [٩/ ٥] .

(٣) قالت فرقة: هذه الآية بجملتها من كلام السحرة لفرعون على جهة الموعظة له والبيان=

قوانين الحق[1] ، مثل البشر حين يضعون قانوناً ويخالفه أحد ، تكون هذه جريمة ، والجريمة لابد أن تُعيَّن أولاً ، فلا عقاب إلا بجريمة ولا جريمة إلا

= فيما فعلوه، وقالت فرقة بل هى من كلام الله تعالى لمحمد ﷺ ، تنبيهاً على قبح ما فعل فرعون وحسن مافعل السحرة ، وتحذيراً قد ضمنت القصة المذكورة مثاله.
و«المجرم» الذى اكتسب الخطايا والجرائم ، وقوله : ﴿لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ مختص بالكافر ؛ فإنه معذب عذاباً ينتهى به إلى الموت ، ثم لايجهز عليه فيستريح، بل يعاد جلده ويجدد عذابه، فهو لايحيا حياة هنية، وأما من يدخل النار من المؤمنين بالمعاصى فهم قبل أن تخرجهم الشفاعة فى غمرة قد قاربوا الموت، إلا أنهم لايجهز عليهم ولايجدد عذابهم ، فهذا فرق مابينهم وبين الكفار. وفى الحديث الصحيح «أنهم يماتون إماتة» [1] وهذا هو معناه ؛ لأنه لايموت فى الآخرة.
و﴿الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥] هى القرب من الله تعالى: و﴿تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] معناه : أطاع الله تعالى وأخذ بأزكى الأمور ، وتأمل التكسب فى لفظة ﴿تَزَكَّىٰ﴾ فإنه بيّن. [المحرر الوجيز : ٤/ ٥٣، ٥٤]

(١) قال الراغب الأصفهانى : جرم : أصل الجرم : قطع الثمرة عن الشجر ، ورجل جارم وقَوام جرام ، وثمر جريم ، والجرامة : ردىء التمر المجروم وجُعل بناؤه بناء النفاية، وأجرم صار ذا جرم ، نحو : أثمر وأتمر وألبن ، واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه ، ولايكادُ يقال فى عامة كلامهم للكيس المحمود ومصدره جرم، وقول الشاعر فى صفة عقاب:

جريمة ناهض فى رأس نيق

فإنه سمى اكتسابها لأولادها جرما من حيثُ إنها تقتل الطيور ، أو لأنه تصورها بصورة مرتكب الجرائم لأجل أولادها ، كما قال بعضهم : ما ذو ولد وإن كان بهيمة إلا ويذنب لأجل أولاده. [المفردات فى غريب القرآن :٨٩]

---

(١) أخرجه مسلم [١٨٥/ ٣٠٦] عن أبى سعيد بلفظ : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ، ولا يحيون . ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال : بخطاياهم) فأماتهم إماتة ، حتى إذا كانوا فحمًا ، أُذن بالشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر ، فبُثّوا على أنهار الجنة ، ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم ، فَيَنْبُتون نبات الحِبَّة تكون فى حميل السيل » . وقوله : « ضبائر ضبائر » أى : جماعات فى تفرقة .

بنص، فالمجرم هو الذى يكسر حدا من حدود ربه ، ومعلوم أن من يدخل النار ، والعياذ بالله ، لا يموت فيها ولا يحيا ؛ لذلك أهل النار يتمنون الموت ليرتاحوا من العذاب قال تعالى : ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧] ؛ لأن سلب الحياة بالموت ليس فيه عذاب، ولكن العذاب هو إيلام الحى.

لذلك نجد الحق سبحانه حينما عرض لهذه القضية فى قصة الهدهد قال على لسان سليمان عليه السلام: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١] ، فالذبح ليس عذاباً ؛ لأنه إنهاء للحياة التى تحس وتشعر ، لكن العذاب أن تبقى الحياة ويحدث الألم ، ومعنى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤][1] ، أى: لا يموت فيها فيستريح من العذاب ، ولا يحيا حياة خالية من العذاب. أما الذى يأتى ربه مؤمناً به وعاملاً للصالحات ، فهذا له الدرجات العلا، والدرجات العلا لماذا؟ لأنك فى حياتك وإن كنت فى درجات ، إلا أنك تعيش بأسباب لابد لك فيها من حركة ومن عمل ، ولو كانت الحركة والعمل من غيرك ـ كأن تكون جالساً مع ضيوفك وتطلب القهوة أو الشاى أو الأكل فيأتيك ـ فأنت هنا لم تعمل هذه الأشياء، ولكن غيرك يعملها لك، وأنت لم تصل إلى ذلك إلا بعد أن عملت وتعبت، وجمعت من عملك ما تستطيع أن تعيش به هذه المعيشة المريحة؛ لأنك بمالك الذى جمعته من عملك وجهدك ، تستطيع أن تجعل غيرك يقوم لك بما تريد من عمل.

---

(١) قال ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فتخرج نفسه، ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ فتستقر نفسه فى مقرها فتطمئن، ولكنها تتعلق بالحناجر منهم.
[تفسير الطبرى : ١٦/ ١٩٠]

* لعلهم يذكرون *

بعد ذلك يأتى تنفيذ الرجاء، وأول الرجاء هو إهلاك آل فرعون .. فهل جاء الهلاك هكذا فوراً ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1] [الأعراف: ١٣٠] ، إذن لم يأتِ الهلاك فورا، بل جاء على مراحل، وهذا من رحمة الله - سبحانه وتعالى- أنه يأخذ الكافرين بالشدة ، ليذكرهم بقوته وقدرته لعلهم يتوبون

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ : قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ يعنى الجدوب. وهذا معروف فى اللغة ؛ يقال : أصابتهم سنة ، أى جدب . وتقديره جدب سنة. وفى الحديث : « اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف»[1]. ومن العرب من يعرب النون فى السنين؛ وأنشد الفراء :

أرى مرّ السنين أخذن منى   كما أخذ السرار[2] من الهلال

قال النحاس : وأنشد سيبويه هذا البيت بفتح النون؛ ولكن أنشد فى هذا ما لا يجوز غيره، وهو قوله :

وقد جاوزت رأس الأربعين

وحكى الفراء عن بنى عامر أنهم يقولون: أقمت عنده سنيناً يا هذا؛ مصروفا. قال:=

(١) عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ إذا قال : سمع الله لمن حمده ، فى الركعة الآخرة من العشاء الآخرة ، قنت وقال: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج عياش بن أبى ربيعة ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسنين يوسف».

قال أبى : وقال عبد الوهاب : كسنى يوسف، وقال فيها كلها : نجِّ نجِّ .

وقال أبو عامر: كلها: اللهم أنج أنج.   أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ٥٢١]

(٢) السرار والسرور «بفتح السين وكسرها فيهما » : الليلة التى يستسرُّ فيها القمر .

إلى الله ويرجعون إليه، والسَّنة هى العام، ولكنها تطلق على الجدب والقحط، وكان رسول الله ﷺ حينما يدعو على الكفار من قومه يقول: (اللهم اجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف) (1) ؛ أى أعطهم شيئاً من القحط ؛ لعلهم يفيقون ويتأدبون ويرجعون إلى الله، إذن فالسنة: المراد بها القحط والجدب، ولكن لماذا سميت كذلك؟ لأن نعم الله على خلقه كثيرة ومتوالية وابتلاءاته لهم فى الكون قليلة، إذن فمدة النعمة طويلة، ومدة الشدة قصيرة، حتى إنه من قلتها يؤرخ لها فيقال : هذه . سنة الجراد ، أو سنة الجدب . أو سنة الفيضان المغرق. لماذا يؤرخ لهذه الأحداث المفجعة؟ لأن الأحداث السارة مدتها طويلة جداً ، ولكن أحداث البلاء عادة لا تحدث إلا على فترات متباعدة ؛ ولذلك إذا أحصى أى واحد منا أيام البلاء فى عمره ، لوجدها قليلة بالنسبة لأيام الرخاء.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ، فإذا كانت السنون هى الجدب والقحط ، فما هو النقص من الثمرات؟ نقول : إن قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ؛ يدل على أنه من رحمته أنه ترك لهم بعض الثمرات لتحفظ لهم حياتهم، ولكن هذه الثمرات لم تعطهم عادة ما كانوا يأخذونه منها ، فيطرح النخل على سبيل المثال قليلاً

= وبنو تميم لا يصرفون ويقولون : مضت له سنين يا هذا . وسنين جمع سنة ، والسنة هنا بمعنى الجدب لا بمعنى الحول . ومنه : أسنت القوم أى أجدبوا .

قال عبد الله بن الزبعرى :

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أى ليتعظوا وترق قلوبهم . [تفسير القرطبى :٧/٢٦٣- ٢٦٤]

(1) سبق تخريجه فى الصفحة السابقة .

بدلاً من أن يطرح الكثير من البلح، وهكذا كل أنواع الثمرات. لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يبقى أسباب رحمته لخلقه، فلو أنه انقطع الثمر تماماً ما وجد الناس قُوتهم، وما بقيت هذه الزروع على الأرض؛ لأنه لابد من بذور لتزرع ؛ حتى يبقى النوع فى الأرض، ولذلك كان لابد من ثمرات قليلة تحفظ نوع النبات وتبقيه ، وتحفظ حياة الإنسان وتعطيه القدر اللازم لاستبقاء حياته.

ولذلك فمن رحمة الله لخلقه أنه جعل ثمار الأشجار لا يستساغ طعمها إلا إذا نضجت ، وأصبحت صالحة لأن تنتج بذرة إذا وُضعت فى الأرض تنبت منها شجرة، ولو أن هذه الثمار كانت صالحة للأكل قبل أن تنضج لاختفت أنواع كثيرة من الزروع وانقرضت ؛ لأن الإنسان كان سيأكل هذه الثمار قبل أن تكون صالحة لأن تكون بذرة، ولذلك لا يجد بعد ذلك ما يزرعه، ولابد أن نلتفت إلى أن عطاء الله سبحانه وتعالى فى الدنيا مع الطائعين ومع العاصين ؛ لأن هذا عطاء ربوبية، والله يفتح أبواب رحمته لنا جميعاً للعاصى ليتوب، وللمؤمن ليزداد إيماناً، والحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] . ما معنى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فى هذه الآية؟ القضية هنا تكمن فى أن الإنسان إذا أحس أنه قد استغنى بعلمه أو بقوته عن الله فإنه يطغى ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٧] ؛ لو ظل الإنسان منتبهًا إلى أنه ليس أصيلاً فى هذا الكون، ولكنه مستخلف فيه بقدرة الله، لو تذكر الإنسان هذه الحقيقة لصلح الكون كله، ولكن الذى يفسد الكون هو أن الإنسان تفتنه أسباب الحياة ، فينسى المسبب الذى خلق هذه الأسباب وأخضعها له.

نحن الآن إذا أردنا أن نشرب فتحنا صنبور المياه فينزل الماء، وقد نتذكر كل شيء ؛ شبكات التكرير والمواسير .. إلى آخر ما استطاع العلم أن يعطيه لنا ؛ لينقل لنا الماء إلى المكان الذى نعيش فيه، ولكننا ننسى خالق هذا كله، ولقد كان الإنسان فى الماضى يشرب من البئر ، فكان يعيش مع المسبب، فإذا جفت البئر قليلاً أو نقص ماؤها ، أسرع برفع يده إلى السماء ويقول: يارب، ولكن بعد أن كشف الله من علمه ما جعلنا نستطيع أن نصل إلى الماء على أعماق كبيرة، ونعرف أين أماكن تجمعات المياه، فإذا حدث الآن نوع من الجفاف، ووصلنا إلى الماء على أعماق كبيرة ، ننسب حصولنا على المياه إلى الآلة التى حفرت، وإلى المهندسين الذين عملوا، وإلى أى شىء دنيوى، ناسين أن الله - سبحانه وتعالى - هو الذى أودع لنا الماء على هذا العمق ثم هدانا إليه ، بأن كشف لنا بعلمه ما يعيننا على استخراجه، وكذلك كل شىء فى الدنيا ننسبه إلى الأسباب وننسى خالق الأسباب سبحانه وتعالى ، مع أننا لو أخذنا الأسباب ومشينا بها إلى البداية عادت كلها إلى الله سبحانه وتعالى ، وعلى أية حال فمادامت الأسباب تعطى فى الدنيا ، فإننا ننسى خالق الأسباب ، ولكن متى نتذكره؟! عندما تعجز الأسباب فى أن تعطينا ما نريد، حينئذ يرفع الإنسان يديه إلى السماء ويقول : يارب .

آل فرعون تعودوا أن يزرعوا وتعطيهم الأرض من خيراتها الكثير، وظنوا أن ذلك بعلمهم، فجاء موسى ليلفتهم إلى أن ذلك من عطاء الله، وحدث منهم ما حدث ، فعندما زرعوا هلك معظم المحصول وما بقى أعطاهم ثمرا قليلاً ، إذن تخلت عنهم الأسباب، وفى هذه الحالة لا يوجد أمامهم إلا المسبب ؛ أى إلا أن يقولوا : يارب.

والله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم يلفتنا إلى هذه الطبيعة البشرية،

فيقول سبحانه وتعالى : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾(1) [يونس: ١٢] ؛ فقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ؛ أى لعلهم يفيقون ويعرفون أن هذه النعم التى يتمتعون بها ليست من صنعهم، ولكنها من صنع الله ؛ لعلهم يؤمنون ويكفون عن إيذاء قوم موسى ويصدقون بنبوة موسى عليه السلام، ولكن ماذا كان تصرف آل فرعون؟ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] ؛

(١) يقول الشوكانى: ثم بيّن الله سبحانه أنهم كاذبون فى استعجال الشر ، ولو أصابهم ما طلبوه لأظهروا العجز والجزع ، فقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسَانَ الضُّرُّ﴾ أى هذا الجنس الصادق على كل ما يحصل التضرر به ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ اللام للوقت ، كقوله: جئته لشهر كذا . أو فى محل نصب على الحال بدلالة عطف قاعدا أو قائما عليه. وتكون اللام بمعنى على، أى دعانا مضطجعا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ وكأنه قال: دعانا فى جميع الأحوال المذكورة وغيرها، وخص المذكورة بالذكر؛ لأنها الغالب على الإنسان، وما عداها نادر كالركوع والسجود، ويجوز أن يراد أنه يدعو الله حال كونه مضطجعا غير قادر على القعود، وقاعدا غير قادر على القيام ، وقائما غير قادر على المشى. والأول أولى . قال الزجاج : إن تعديد أحوال الدعاء أبلغ من تعديد أحوال المضرة؛ لأنه إذا كان داعيا على الدوام، ثم نسى فى وقت الرخاء كان أعجب.
قوله : ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ اى فلما كشفنا عنه ضره الذى مسه، كما تفيده الفاء، مضى على طريقته التى كان عليها قبل أن يمسه الضر،ونسى حالة الجهد والبلاء، أو مضى عن موقف الدعاء والتضرع لا يرجع إليه؛ كأنه لا عهد له به ، كأنه لم يدعنا عند أن مسه الضر إلى كشف ذلك الضر الذى مسه. وقيل : معنى ﴿مَرَّ﴾ : استمر على كفره ولم يشكر ولم يتعظ . قال الأخفش : «أن» فى ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ : هى المخففة من الثقيلة، والمعنى : كأنه انتهى ، والجملة التشبيهية فى محل نصب على الحال. وهذه الحالة التى ذكرها الله سبحانه للداعى لا تختص بأهل الكفر، بل تتفق لكثير من المسلمين ، تلين ألسنتهم =

و ﴿الْحَسَنَةُ﴾ هى الأمر الذى يأتى من ورائه الخير ، وهى مرة تكون لك ومرة تطلب منك، والحسنة التى لك هى فى ذاتها مثل العافية والسلامة، وهى فى مقومات الذات . أو مقومات الحياة ، وهى المادة كالنبات والحيوانات . . إلى آخره، أما الحسنة التى تطلب منك فهى أيضاً لك ، كأن يطلب منك أن تقوم بعمل طيب يعطيك حسنة فى الآخرة، إذن فهناك حسنة فى الذات ومقومات الحياة، وحسنة مطلوبة فى منهج الله سبحانه وتعالى، الحسنة الأولى موقوتة بزمن وهو عمرك فى الدنيا، والحسنة الثانية يبقى ثوابها إلى ما شاء الله ، ولذلك فإن حسنات الآخرة هى الأرجح بالنسبة للإنسان .

آل فرعون عندما رفع الله عنهم الجدب لفترة وأعطتهم الأرض من خيراتها قالوا: ﴿لَنَا هَذِهِ﴾ ؛ أى أننا نستحق هذا الخير ؛ لأننا قد حرثنا

= بالدعاء ، وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم، فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرع . وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التى أنعم الله بها عليهم ، من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من المكروه. وهذا مما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر ، كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الإنسان، اللهم أوزعنا شكر نعمك ، وأذكرنا الأحوال التى مننت علينا فيها بإجابة الدعاء ، حتى نستكثر من الشكر الذى لا نطيق سواه ولا نقدر على غيره. وما أغناك عنه وأحوجنا إليه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] والإشارة بقوله : ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلى مصدر الفعل المذكور بعده كما مر غير مرة ، أى مثل ذلك التزيين العجيب زين للمسرفين عملهم . والمسرف فى اللغة : هو الذى ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس . ومحل ﴿كَذَلِكَ﴾ النصب على المصدرية. والتزيين هو إما من جهة الله تعالى على طريقة التحلية وعدم اللطف بهم، أو من طريق الشيطان بالوسوسة ، أو من طريق النفس الأمارة بالسوء. والمعنى : أنه زين لهم الإعراض عن الدعاء والغفلة عن الشكر والاشتغال بالشهوات .

[فتح القدير :٢/٤٤٦]

الأرض ووضعنا البذرة وسقينا .. إلى آخر هذا ، تماماً كما قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى﴾ [القصص: ٧٨] ، أى نسب الأسباب لنفسه، فخسف الله به الأرض ؛ لتعرف الدنيا كلها أنه لا حول ولا قوة فى هذا الكون إلا لله، وأن الإنسان مستخلَف فى الكون، وأن الأسباب خاضعة للإنسان بأمر الله وليس بقدرة البشر .

آل فرعون أخذوا نفس أسلوب قارون، فإذا جاءت الأرض بمحصول حسن قالوا: هذا جهدنا وعلمنا، ولكن ماذا يحدث إذا أجدبت الأرض مرة أخرى؟ هل يرجعون إلى الله ويعترفون بالحق؟ لا ؛ يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] [الأعراف: ١٣١].

---

(١) يقول المراغى فى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ : أى فإذا جاءهم خصب وثمار ومواش وسعة فى الرزق والعافية ، قالوا لنا هذه ، أى نحن المستحقون لها بما لنا من التفوق على الناس، فبلادنا بلاد خصب ورخاء، وقد غاب عنهم أن يعلموا أن هذا من الله ، فعليهم أن يشكروه عليه ، ويقوموا بحق النعمة فيه . وإن أصابهم قحط وجدب ومرض وبلاء تشاءموا بموسى، وقالوا : إنما أصابنا هذا الشر بشؤم موسى وقومه ، وغفلوا عن سيئات أنفسهم وظلمهم لقوم موسى ؛ توهما منهم أن ذلك حق من حقوقهم.

وقوله : ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ : أى إن كل ما يصيبهم من خير أو شر فهو بقضاء الله وتقديره ، وهو الذى وضع لنظام الكون سننا ، تكون فيه المسببات وفق أسبابها ، وبمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل عليهم البلاء ويكون امتحانا واختبارا لهم ؛ ليتوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيهم على بنى إسرائيل ، وعن طغيانهم وإسرافهم فى جميع أمورهم ، ولكن أكثرهم لا يعلمون حكمة تصرف الخالق فى هذا الكون ، ولا أسباب الخير والشر ، ولا أن كل شىء فيه جاء بمشيئته وتدبيره. [تفسير المراغى: ٩/٤٢]

إذا جاءت آل فرعون الحسنة نسبوها لأنفسهم، وإذا جاءت السيئة تشاءموا بموسى ومن آمن معه، فالطِّيَرة هى التشاؤم، وهو ضد التفاؤل ويقال : فلان طائره نحس، وفلان طائره يُمن، وكانوا فى الماضى إذا شغلهم أمر، يأتى الواحد منهم بطائر يضعه على يده ثم يطلقه، فإذا طار يميناً فهذا فأل حسن، وإذا طار يساراً تشاءم الرجل، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى أن هذا الجدب ليس من فعل موسى عليه السلام، لأن موسى لا يملك فى كون الله شيئاً ، إنما مالك الكون هو رب موسى؛ ولذلك فالله - سبحانه وتعالى - لا يريد لأحد أن يفتن فى موسى - عليه السلام - فيقول : إنه قادر على أن يأتى بالزرع والخير، وقادر على أن يذهب بهذا الخير ويجعل الأرض جدبا، لذلك فهو يقول لهم: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] ؛ أى الذى يأتى بالجدب ، والذى يأتى بالخير ، هو الله سبحانه وتعالى . على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قد ذكر كلمة طائر فى أكثر من موضع فى القرآن، فيقول سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ﴾(١) [الإسراء: ١٣] ، فكيف يتأتى هذا

---

(١) يقول القرطبى فى قوله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ﴾ : قال الزجاج: ذكر العنق عبارة عن اللزوم ، كلزوم القلادة للعنق . وقال ابن عباس : ﴿طَائِرَهُ﴾ عمله وما قدر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان . وقال مقاتل والكلبى: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به . وقال مجاهد : عمله ورزقه، وعنه : ما من مولود يولد إلا وفى عنقه ورقة فيها مكتوب شقى أو سعيد. وقال الحسن: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ﴾ أى شقاوته وسعادته ، وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى صار له عند القسمة فى الأزل . وقيل : أراد به التكليف ، أى: قلدناه التزام الشرع ، وهو بحيث لو أراد أن يفعل ما أمر به وينزجر عما زجر به أمكنه ذلك . ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ يعنى كتاب طائره الذى فى عنقه. وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد : «طيره» بغير ألف ؛ ومنه ما روى فى =

مع قوله تعالى: ﴿طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] ؟ نقول : إن أحداث الحياة صنفان: حدث لك فيه دخل، فالتلميذ الذى لا يذاكر يرسب، وقائد السيارة الذى لا يجيد فن القيادة يكون كثير ارتكاب الحوادث ، والصنف الآخر من الأحداث هو الذى يقع على الإنسان ، وهو الذى لا دخل للإنسان فيه، كأن يصاب فى حادث أو تقع عليه شجرة أو يصيبه مرض، كل الأشياء القدرية التى تقع على الإنسان لا دخل له فيها، هى من عند الله .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ ينطبق على كل الأحداث التى لك دخل فيها ؛ كأن تقصر فى الصلاة فلا تصلى ، أو لا تتصدق ، أو تخالف منهج الله، لك يد فى كل هذا ؛ لأنك خلقت مختاراً فى أن تفعل أو لا تفعل، وإذا حدث لك شر فى الآخرة ، فلتعرف أنك أنت الذى دفعت نفسك إلى هذا المصير، أما

= الخبر: «اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا رب غيرك» [(١)] . وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن محيصن وأبو جعفر ويعقوب : « ويَخرُج » بفتح الياء وضم الراء ، على معنى: ويخرج له الطائر كتابا، فـ ﴿كِتَابًا﴾ منصوب على الحال. ويحتمل أن يكون المعنى : ويخرج الطائر فيصير كتابا . وقرأ يحيى ابن وثاب. «ويُخرج» بضم الياء وكسر الراء؛ وروى عن مجاهد؛ أى يخرج الله . وقرأ شيبة ومحمد بن السميقع، وروى أيضا عن أبى جعفر: «ويخرج» بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول ، ومعناه : ويخرج له الطائر كتابا . الباقون «ونخرج» بنون مضمومة وكسر الراء؛ أى ونحن نخرج . احتج أبو عمرو فى هذه القراءة بقوله : «ألزمناه». وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر : «يلقاه» بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، بمعنى يؤتاه. الباقون بفتح الياء خفيفة، أى يراه منشورا . وقال : ﴿مَنشُورًا﴾ تعجيلاً للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة.

[تفسير القرطبى : ١٠/٢٢٩]

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد فى المسند [٢/ ٢٢٠] بلفظ : « اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » . وصححه الشيخ شاكر رقم [٧٠٤٥].

الأشياء القدرية التى تحدث ولا دخل لك فيها، فلها حكمة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يجرى كل شىء بحكمة ولو لم نعرفها، قد يأتى ابنك المجتهد ويمرض يوم الامتحان فلا يذهب ليمتحن فيرسب وهذه مصيبة فى نظرك ، ولكن ما الذى يدريك أن الله - سبحانه وتعالى - قد صنع هذا الأمر لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه ، أو ما الذى يدريك أنه لو دخل الامتحان هذا العام لم يكن يحصل على مجموع يؤهله لدخول الكلية التى تتمناها له ؟ أو ما الذى يدريك أن هذا الابن إذا نجح ، قد لا تجد مكاناً إلا فى جامعة نائية تجعلك تنفق أكثر من طاقتك، ويجعلك تستدين، أو تمد يدك إلى المال الحرام ؟

إذن ، فكل قدر يجرى عليك هو خير له حكمة ، وإن لم تعرفها؛ ولذلك عندما تطيرّ آل فرعون بموسى ردّ الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: ١٣١] ؛ أى هذه الأحداث ؛ من الجدب ونقص الثمرات وغيرها إنما تأتيكم من الله ، وهى خير لأنها تلفتكم إلى الإيمان، أما الأشياء التى للإنسان فيها دخل فالحق سبحانه وتعالى يقول عنها: ﴿ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾[1] ؛ أى كل إنسان يصنع ما يؤهله للخير أو

---

(١) قال الرازى: قال ابن عباس : يريد شؤمهم عند الله تعالى ، أى من قِبَل الله اى إنما جاءهم الشر بقضاء الله وحكمه، فالطائر هاهنا الشؤم . ومثله قوله تعالى فى قصة ثمود: ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ [النمل: ٤٧]، قال الفراء: وقد تشاءمت اليهود بالنبى ﷺ بالمدينة ، فقالوا : غلت أسعارنا وقلت أمطارنا مذ أتانا، قال الأزهرى : وقيل للشؤم : طائر وطير وطيرة ؛ لأن العرب كان من شأنها عيافة الطير وزجرها ، والتطير ببارحها، ونعيق غربانها ، وأخذها ذات اليسار إذا أثاروها ، فسموا الشؤم طيرا وطائرا وطيرة لتشاؤمهم بها.

ثم أعلم الله تعالى على لسان رسوله أن طيرتهم باطلة، فقال «لا طيرة ولا هام»[1] =

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٥٧٠٧ ، ٥٧٥٧] عن أبى هريرة بلفظ : « لا عدوى ولا طِيرَة ولا هامة ، ولا صفر » .

للشر فى الآخرة، واليهود فى المدينة تطيروا برسول الله ﷺ حينما قالوا: قلّت الأمطار وغلت الأسعار ؛ من شؤم مجىء هذا الرجل، ولكن هؤلاء اليهود لم يفهموا حكم الله، فقد كانوا فى الجزيرة العربية مسيطرين على حركة السوق والربا وفنون الحرب، ولذلك يريد الله سبحانه وتعالى أن يلفتهم إلى أن كل الأسباب التى يملكونها لا تنفع ؛ لأن الله يستطيع أن يذهبها جميعاً ؛ وذلك حتى يكفّوا عن حرب رسول الله ﷺ ويتعظوا لعلهم يؤمنون.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١] معناها : أنه توجد قلة تعلم وكثرة لا تعلم ؛ فلماذا لم تتحدث القلة التى تعلم بما تعلمه ؟ نقول إن هذه القلة سكتت خوفا من طغيان فرعون، فكثير من الناس يرى أمامه الفساد ولا يفتح فمه ولا يتكلم ، على أن آل فرعون رغم هذه الآيات الصغرى التى أخذهم الله بها ، مضوا فى تحدّيهم، وهذه الآيات كان من المفترض أن تلفتهم إلى قدرة الحق سبحانه وتعالى، ولكنهم أخذوها بالتحدى ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢] وهذا تصرف منهم يبرر حدوث الهلاك لهم ، فهم أولاً : أخذوا آيات الله التى أراد سبحانه أن يلفتهم بها لقدراته على أساس أنها سحر، مع أن السحرة الذين هم سادة فن السحر ، خرّوا ساجدين وآمنوا بالله، وإذا كانت هذه الآيات سحراً ، فلماذا لم يبطل السحرة هذا السحر؟ و﴿ مَهْمَا ﴾ هنا تدل على استمرارية العناد ، وتصميم على عدم الاستماع

= وكان النبى ﷺ يتفاءل ولا يتطير . واصل الفأل : الكلمة الحسنة، وكانت العرب مذهبها فى الفأل والطيرة واحد، فأثبت النبى ﷺ الفأل وأبطل الطيرة .

[التفسير الكبير : ١٤/ ٢١٥]

إلى منهج الله؛ أى أنهم أغلقوا الباب نهائياً ، فهم لم يؤمنوا مهما جاءهم من آيات. وفى وصفهم الآيات بأنها سحر غفلة منهم؛ لأن المسحور لا إرادة له مع الساحر، ولذلك عندما قالوا عن رسول الله ﷺ بهتانا وزوراً أنه ساحر، وأنه يسحر الناس ليؤمنوا، قول مردود عليهم ؛ لأنه مادام قد سحر الناس ليؤمنوا، فلماذا لا يسحركم أنتم ؟ ولكن كونكم لم تسحروا وتصرون على العناد وعدم الإيمان ، فالمسألة إذن ليس فيها سحر، ولكن فيها مكابرة، وأنت ساعة تسمع كلمة «مهما» تعرف أن هناك شرطاً وجواباً، ويقول العلماء: إن أصلها «مه» بمعنى كف ، أى أنهم يقولون لموسى : كف عن هذا الأمر، فما تأتنا به من آيات لا نصدقه، وأمام إصرارهم وعنادهم أرسل الحق سبحانه وتعالى عليهم مزيدا من الآيات التى تلفتهم إلى ضعفهم وقدرة الله، واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾[1] [الأعراف:١٣٣] و ﴿ الطُّوفَانَ ﴾ هو: طغيان الماء ، يجعله الله سبباً للدمار ، ولكن الماء هو سبب الحياة فكيف يكون سبباً للدمار ؟ نقول: لا تأخذوا نعم الدنيا بذاتيتها، ولكن خذوها بأوامر الخالق

---

(١) قال السيوطى : عن ابن عباس فى قوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾ وهو المطر حتى خافوا الهلاك، فأتوا موسى ، فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا المطر، فإنا نؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا ربه فكشف عنهم المطر، فأنبت الله به حرثهم وأخصبت بلادهم ، فقالوا: ما نحب أنا لم نمطر ولن نترك إلهنا ونؤمن بك، ولن نرسل معك بنى إسرائيل . فأرسل الله عليهم الجراد فأسرع فى فساد زروعهم وثمارهم ، قالوا: يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الجراد ، فإنا سنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا ربه فكشف عنهم الجراد ، وكان قد بقى من زرعهم ومعائشهم بقايا ، فقالوا: قد بقى لنا ما هو كافينا فلن نؤمن لك ، ولن نرسل معك بنى إسرائيل . فأرسل الله عليهم القمل وهو الدبا ، فتتبع ما كان =

لها، فالماء سر الحياة ، فإذا أراده الله أن يكون سر الهلاك ، جعله طوفاناً يقضى على الحياة، والطوفان الذى حدث فى عهد نوح نجا منه المؤمنون مع نوح فى السفينة، ولكن الحق سبحانه وتعالى لم يذكر لنا هنا وجود سفينة لجأ إليها أتباع موسى، إذن، فلابد أن الطوفان الذى أصاب آل فرعون لم يصب بنى إسرائيل.

ولقد كان الطوفان فى عهد فرعون إلى أن بلغ الماء حتى نهاية علو الرقبة، بحيث لابد أن يظل الإنسان واقفا لكى يعيش، فإذا جلس كان تحت مستوى الماء واختنق، ويقال: إن السماء أمطرت على آل فرعون سبعة أيام، لم يعرفوا فيها ليلاً أو نهاراً ، بينما بيوت بنى إسرائيل لم تقترب منها المياه. وهكذا كانت المعجزة واضحة تماماً لفرعون وقومه؛ فلو أن الطوفان عمّ لقالوا طوفان جاء ، ولو أن بنى إسرائيل احتالوا للنجاة من الطوفان بأن بنوا مكاناً عالياً أو ركبوا سفينة لقالوا: لو لم يحتالوا لأصابهم

= ترك الجراد، فجزعوا وخشوا الهلاك فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا الدبا فإنا سنؤمن لك، ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا ربه فكشف عنهم الدبا فقالوا : ما نحن لك بمؤمنين ، ولا مرسلين معك بنى إسرائيل . فأرسل الله عليهم الضفادع فملأ بيوتهم منها، ولقو منها أذى شديداً لم يلقوا مثله فيما كان قبله ، كانت تثب فى قدورهم فتفسد عليهم طعامهم وتطفئ نيرانهم، قالوا: يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الضفادع فقد لقينا منها بلاء وأذى ، فإنا سنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا ربه فكشف عنهم الضفادع ، فقالوا : لا نؤمن لك، ولا نرسل معك بنى إسرائيل . فأرسل الله عليهم الدم فجعلوا لا يأكلون إلا الدم ولا يشربون إلا الدم ، قالوا: يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الدم، فإنا سنؤمن ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا ربه فكشف عنهم الدم ، فقالوا: يا موسى لن نؤمن لك ولن نرسل معك بنى إسرائيل . فكانت آيات مفصلات بعضها إثر بعض ؛ لتكون لله الحجة عليهم ، فأخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم فى اليم.

[الدر المنثور : ٣/ ٥٢٠ ، ٥٢١]

الطوفان،ولكن المعجزة جاءت ظاهرة واضحة ، حتى يدخل الإيمان إلى قلوب هؤلاء الناس عندما يروا هذا الإعجاز، وعندما دخل الطوفان على فرعون صرخ فرعون واستنجد بموسى وقال له: ادعُ لنا ربك يُذهب عنا هذا ونحن نؤمن بك؛ فدعا موسى ربه فذهب الطوفان، ولكن آل فرعون بعد أن ذهب عنهم هذا البلاء رجعوا إلى كفرهم ، فجاءهم الجراد ليهلك الزرع ثم جاءهم القمل، وهو غير القمل الذى يصيب الإنسان فى بدنه وثيابه، وهو حشرة تصيب النبات، معروفة باسم «القراض»، ثم جاءت آية الضفادع كلما وضع إنسان من آل فرعون ـ رجلاً أو إمرأة ـ يده فى مكان وجد فيه ضفدعة ؛ فى الطعام ضفادع، فى الماء ضفادع، فى الثياب ضفادع، ثم جاءت آية الدم : كل شيء يمسكه أحد من آل فرعون يتحول إلى دم ، حتى قيل : إن المرأة من آل فرعون كانت إذا أرادت أن تشرب ماء ذهبت إلى امرأة من بنى إسرائيل وقالت لها: خذى الماء فى فمك وضعيه فى فمى، وكأنما تريد أن تحتال على الله ، ولكن الماء فى فم قوم موسى يكون ماء ، فإذا ما دخل فم قوم فرعون انقلب دماً.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] ؛ معناها: أن الله لم يرسل كل هذه الآيات دفعة واحدة؛ بل كانت الآية تأتى لتنبه فيستغيثوا ويعِدوا بالإيمان، وعندما ترفع عنهم يعودون إلى كفرهم، فتأتى الآية الثانية فيعدون فترفع فيكفرون، وتأتى الآية الثالثة ، وهكذا، وكانت هذه الآيات التسع هى الآيات التى أرسل بها موسى إلى آل فرعون، وهى: العصا التى تحولت إلى ثعبان، واليد التى خرجت بيضاء، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. لقد وصفها الحق سبحانه وتعالى بأنها آيات؛ لأن كل منها تخرق نواميس الكون ، فتصيب من يريد الله إذلاله، وتبتعد عن

المؤمنين بموسى، وعلى الرغم أنه فى كثير من الأحيان كان المؤمن والكافر يقفان فى بقعه واحدة، هذه هى المعجزات. ولكنهم رغم كل هذه الآيات كانوا يعدون بالإيمان ، ويعودون إلى الكفر وكانـوا قومـاً مجرمين ، والحق سبحانه وتعالى يكمل لنا ما حدث : ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ (1) ؛ والرجز هنا: العذاب الذى ساقه الله عليهم بالطوفان، والجراد، والقمل والضفادع، والدم، ولم يجدوا نجاة من هذا كله فى آخر الأمر إلا أن يلجئوا لموسى ، ويطلبوا منه أن يدعو الله أن يكشف عنهم العذاب، وفى هذا قد اعترفوا بأن موسى مرسل من الله، وأن العذاب الذى هم فيه لا يستطيع أن يصرفه عنهم إلا الله. إذن فهم أولاً قد اعترفوا ببطلان ألوهية فرعون ؛ لأنه لو كان فرعون إلها ما لجئوا إلى موسى ليدعو الله، وهم اعترفوا بأن موسى مرسل من الله، مقبول

---

(1) قال السيوطى : عن ابن عباس قال : أمر موسى بنى إسرائيل فقال : ليذبح كل رجل منكم كبشا، ثم ليخضب كفه فى دمه ، ثم ليضرب على بابه. فقالت القبط لبنى إسرائيل : لم تجعلون هذا الدم على بابكم؟ قالوا: إن الله يرسل عليكم عذابا فنسلم وتهلكون . قال القبط : فما يعرفكم الله إلا بهذه العلامات؟! قالوا : هكذا أمرنا نبينا. فأصبحوا وقد طعن من قوم فرعون سبعون ألفا، فأمسوا وهم لا يتدافنون. فقال فرعون عند ذلك: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إِسْرَائِيلَ﴾ والرجز : الطاعون . فدعا ربه فكشفه عنهم ، فكان أوفاهم كلهم فرعون قال : اذهب ببنى إسرائيل حيث شئت .

[الدر المنثور: ٣/ ٥٢٥]

وقوله عز وجل : ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه العذاب ، قاله الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد .

والثانى : هو الطاعون أصابهم فمات به من القبط سبعون ألف إنسان ، قاله سعيد ابن جبير .

[تفسير الماوردى : ٢/ ٢٥٣]

الدعاء عند ربه، وهم اعترفوا أنه لا يمكن أن يرفع عنهم هذا العذاب إلا الله . وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ ؛ أى بما أعطاك من العهد بأن ينصرك لأنك رسوله، وألا يتخلى عنك . ثم يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[1] [الأعراف: ١٣٥]

أى ينقضون العهد، وكان لهم مع كل آية من آيات العذاب عهد بالإيمان، ومع كل رفع للعذاب نقض لهذا العهد، ورجوع عنه، ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾ ؛ أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى كشف، والكشف جاء استجابة لدعوة موسى عليه السلام، عندما قال له قوم فرعون: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] ؛ فالله هو الذى جاء بالعذاب، وهو الذى كشف هذا العذاب، والله يعلم أنهم سينقضون العهد، ولكنه أراد أن يكونوا شهداء على أنفسهم ؛ حتى لا يجادلوا يوم القيامة ويقولوا : يارب ، لو كشفت عنا العذاب لآمنا . ووصلت المسألة إلى نهايتها عندما نقضوا العهد مرات ومرات ، وكأن فى هذا تحديًا وإصرارًا على الكفر فجاءهم الهلاك، وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦] .

---

(١) قال الطبرى : يقول تعالى ذكره : فدعا موسى ربه ، فأجابه ، فلما رفع الله عنهم العذاب الذى أنزله بهم ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ﴾ ليستوفوا عذاب أيامهم التى جعلها الله لهم من الحياة أجلا إلى وقت هلالكهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ يقول : إذا هم ينقضون عهودهم التى عاهدوا ربهم وموسى ، ويقيمون على كفرهم وضلالهم .
[تفير الطبرى : ٩/ ٤٢]

وهكذا كان إغراق آل فرعون عدالة؛ لأنهم هم الذين تحدوا، وهم الذين استحقوا العقاب من الله، لأنهم هم الذين نقضوا كل عهد وأصروا على الكفر، على أننا نلاحظ أن قصة موسى فى هذه السورة جاءت موجزة، فعملية إغراق آل فرعون هنا جاءت مجملة، بينما فى سور أخرى جاءت مفصلة، مثل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢] ، وقول قوم موسى بعد ذلك: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] ، وكيف ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق.. إلى آخر كل هذه التفصيلات، نقول: إن قصص الأنبياء فى القرآن الكريم تأتى متفرقة فى الآيات ؛ لتعالج لقطة من لقطات القصة، ولو جمعنا الآيات التى جاءت حول كل نبى ، لوجدنا قصته كاملة فى القرآن، ولكنها ليست فى سورة واحدة، إلا قصة يوسف عليه السلام فقد جاءت فى سورة واحدة ؛ ليلفتنا الله سبحانه وتعالى إلى أن قصص الأنبياء جاءت فى القرآن متفرقة ؛ ولذلك حكمة إيمانية ، فمثلاً قوله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ هو مجمل لما حدث ؛ عندما جمع موسى بنى إسرائيل للخروج من مصر فجمع فرعون جيشه وانطلق وراءهم، فلما أصبح الخصمان أو الفريقان على مدى الرؤية ، بحيث يرى كل منهما الآخر ، حسب بنو إسرائيل أن نهايتهم قد جاءت فقالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ ، أى من فرعون وقومه،وهذا هو منطق الأحداث الدنيوية، ولكن موسى المرسل من الله كان يعلم أن الله لن يخذله، وأنه سينجيه، حتى يتم رسالته؛ ولذلك قال بملء فمه: ﴿كَلَّا﴾ ، ولم يكن موسى يتحدث بأسباب الأرض؛ لأنه لو تكلمنا بقانون الأسباب لكان هلاك موسى وقومه محققاً ، ولكن الحديث هنا لم يكن بأسباب موسى ،

بل كان بأسباب من أرسله. ولذلك فقد رفع الأمر إلى الله وقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وبمنطق الإيمان كان لابد أن ينجو موسى وقومه ليتم رسالته، ولذلك فإنه كان واثقا من أن الحق سبحانه وتعالى سييسر له النجاة بأسباب فوق أسباب البشر.

وكان موسى معه العصا التى نصره الله بها على السحرة، بعد أن تحولت إلى حية تلقف حبالهم وعصيّهم ، هذه العصا هى نفسها التى قال الله عنها لموسى: ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣] ، والبحر وعاء للماء، وأول قوانين الماء هى الاستطراق، فسيولة الماء تجعل سطحه متساوياً لا يوجد فيه ارتفاعات وانخفاضات، ولما ضرب موسى بعصاه البحر توقف قانون السيولة، وانتهى قانون الاستطراق ؛ لأن الماء لا يمكن أن ينشطر إلى نصفين، والله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أن سيولة الماء واستطراقه قد امتنعتا فيقول: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] والطود هو الجبل، والجبل ميزته الصلابة ، فكأن الماء عندما انشق قد تحول كل جزء منه إلى ما يشبه الجبل الصلب ؛ لأن السيولة والاستطراق سنة كونية للماء، ولكن الذى خلق هذه السنة الكونية وهذا القانون يستطيع أن يبطله، وسار موسى وسط البحر وحوله الماء عن اليمين وعن الشمال، ولكنه يسير وسط الماء على أرض يابسة دون أن تصيبه قطرة واحدة من هذا الماء المتدفق، وعندما انتهى آخر رجل من قوم موسى من العبور، أراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ؛ لتعود إلى البحر سيولته وكان هذا هو منطق البشر، فبعد أن عبر موسى وقومه يريد أن يمنع فرعون وجنوده من اللحاق بهم، ولن يحدث هذا إلا إذا عاد البحر لسيولته، وإلا لو بقى هذا الممر الأرضى لعبره جنود فرعون ، ولحقوا بموسى وقومه، ولكن الله

سبحانه وتعالى نهى موسى عن أن يضرب البحر بعصاه فقال تعالى: ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أى أن الله نبه موسى إلى ألا يضرب البحر بعصاه، بل يبقيه كما هو ، حتى إذا نزل فيه آل فرعون، وأصبحوا جميعاً فى هذا الشريط من الأرض الذى عبر عليه موسى وقومه، أعاد الله الماء إلى سيولته واستطراقه، فغرق فرعون وجنوده أجمعون ؛ وذلك ليبين لنا الحق كل هذا الذى حدث جاء مجملاً فى الآية الكريمة: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أى أن الإغراق تم فى البحر، و ﴿ الْيَمِّ ﴾: هو المكان الذى فيه ماء كثير عميق، وهو يطلق على البحر وعلى النهر ، وفى قصة أم موسى عليه السلام يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٧] و ﴿ الْيَمِّ ﴾ هنا: كان النيل فكأن ﴿ الْيَمِّ ﴾ يطلق على الماء المالح والماء العذب ، على أننا لابد أن نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾[1] والغفلة لا يكون عليها حساب من الله ؛ فالصائم إذا غفل أنه صائم وأكل لا يفسد صيامه؛ لأنه غافل[2]، نقول: إن المراد هنا بـ ﴿ غَافِلِينَ ﴾ أنهم أعرضوا عن منهج الله إعراضاً لا يحدث إلا من غافل عن الله ومنهجه ، أى أنهم كانوا يرون منهج الله أمامهم وموسى يدعوهم إليه، ولكنهم كانوا يتصرفون تصرف الغافل الذى لا يدرى شيئا عما يدور حوله، فكأن الغفلة هنا عن عمدٍ وليست سهوا ؛ ولذلك استحقوا عليها العقاب.

---

(١) قال البغوى فى قوله تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ : يعنى البحر ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ ؛ أى عن النقمة قبل حلولها غافلين . وقيل : معناه : عن آياتنا معرضين. [تفسير البغوى : ٣/٢٧٣]

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : « من أكل ناسيًا وهو صائم ، فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه ». أخرجه البخارى [١٩٣٣ ، ٦٦٦٩] واللفظ له ، ومسلم [١١٥٥] .

*ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم *

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾[1] [يونس: ٨٨] ؛ ما الزينة؟ هى الأمر الزائد عن ضروريات الحياة ومقوماتها الأولى، والإنسان محتاج لكى يعيش أن يأكل أى نوع من الطعام ولو لقمة خبز جافة. أما كونى أتناول من أصناف الطعام كالسمك والدجاج والديك الرومى والحمام ، إلى غير ذلك من أطايب الطعام ، فهذا اسمه ترف الحياة.

مقومات ستر العورة أن أستر عورتى بجلباب، ولكن كونى أرتدى الملابس الفاخرة فهذه زينة، والإنسان حين ينام ليس محتاجاً إلى فاخر الفراش، بل يكفيه ـ حصيرة ـ أو حتى سرير وعليه (مرتبة) من القطن. أما أن أجعل ـ المرتبة ـ من ريش النعام ، والفراش من الديباج أو ما شابه ذلك ؛ فكل هذا زينة.

إذن. . فالزينة هى ما خرج عن ضروريات الحياة ، ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿زِينَةً وَأَمْوَالاً﴾[2] ، مع أن أصل الزينة يأتى من

---

(١) قال ابن الجوزى: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً﴾ : قال ابن عباس: كان لهم من لدن فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن ذهب وفضة وزبرجد وياقوت. [زاد المسير : ٤/٤٨]

(٢) الزينة: ما يتزين به، ويوم الزينة: العيد. والزينة اسم جامع لكل شىء يتزين به . [لسان العرب: ١٣/ ٢٠٢]

وعن البراء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم، فإن=

الأموال؟ نقول : هذا صحيح، ولكن الزينة فرع من الأموال، وهناك الرصيد الأصيل للأموال وهو الذهب ، وهناك معادن وأحجار نفيسة كثيرة، وأحيانا تكون أثمن من الذهب وأثمن من الفضة ، ولكن يظل الذهب هو مقياس الغنى فى العالم كله.. لماذا؟ لأن الأحجار الكريمة لو كسرت ـ كالماس مثلا ـ تقل قيمتها لدرجة كبيرة، ولكن الذهب إذا كُسر يُجمع ويصهر وتعاد صياغته مرة أخرى ، وتبقى قيمته كما هى؛ ولذلك فإن الرصيد المالى لكل دولة يقدر بقيمة الذهب الذى تملكه، والفراعنة كانوا يسيطرون على الجبال من مصر إلى الحبشة، وكانوا يرسلون البعثات لاستخراج الذهب من هذه الجبال ، ومازالت حفريات قدماء المصريين لمناجم الذهب موجودة حتى الآن فى سلسلة جبال البحر الأحمر، ولقد برع المصريون القدماء فى استخراج الذهب من المناجم وصياغة الحلى.

والذهب أحياناً يكون موجوداً فى أماكن كثيرة ، ولكن استخراجه يتكلف مبالغ كبيرة؛ ولذلك لا يستخرج ؛ لأن تكاليف استخراجه تزيد عن قيمته ، ويعتبر استخراجه غير اقتصادى .

وفى عهد الفراعنة، كانت جبال البحر الأحمر مملوءة بعروق الذهب، ونظرة واحدة إلى كنوز توت عنخ آمون ، ترينا مدى البذخ والكمية الضخمة من الذهب التى كان يمتلكها الفراعنة.

إذن.. فالحق سبحانه وتعالى أعطى لهم الأموال والزينة، ولذلك ملئوا معابدهم بالنقوش المرسومة بألوان لم تفسد رغم هذه القرون الطويلة ، كل

= الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا» أخرجه الحاكم فى المستدرك [١/ ٥٧٥] وذكره الألبانى فى السلسلة الصحيحة [٧٧١].

وقال الشوكانى: والزينة: اسم لكل ما يتزين به من ملبوس ومركوب وحلية وفراش وسلاح وغير ذلك . [فتح القدير: ٢/ ٤٨٣]

هذا زينة أو ترف ومعناها أن حركة الإنسان المترف أكثر من ضروريات حياته؛ ولذلك ينفق ماله فى الكماليات والترف والزينة.

وقول الحق تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾[1] [يونس: ٨٨] معناها: أنهم لم يكتفوا بالكفر لأنفسهم فيكونون ضالين، ولكنهم مضِلُّون أيضًا يدفعون الناس إلى الكفر، فكان عليهم وزرين: وزر لأنهم ضلوا وكفروا، ووزر فى أنهم أضلوا غيرهم، ودفعوهم إلى عبادتهم من دون الله.

---

(١) قوله تعالى: ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ وفى لام ﴿لِيُضِلُّوا﴾ اربعة اقوال:

أحدها: انها لام «كى»، والمعنى: آتيتهم ذلك كى يضلوا، وهذا قول الفراء.

والثانى: أنها لام العاقبة، والمعنى: إنك آتيتهم ذلك فأصارهم إلى الضلال، ومثل قوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] أى: آل أمرهم إلى أن صار لهم عدوا، لا أنهم قصدوا ذلك، وهذا كما تقول للذى كسب مالا فأداه إلى الهلاك: إنما كسب فلان لحتفه، وهو لم يكسب المال طلباً للحتف، وأنشدوا:

وللمنايا تربى كل مرضعـــة … وللخراب يجد الناس عمرانـا

وقال آخر:

وللموت تغذو الوالدات سخالها … كما لخراب الدور تبنى المساكن

وقال آخر:

فإن يكن الموت أفناهـــم … فللموت ما تلد الوالـــده

أراد: عاقبة الأمر ومصيره إلى ذلك، هذا قول الزجاج.

والثالث: أنها لام الدعاء، والمعنى: ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك، ذكره ابن الأنبارى.

والرابع: أنها لام أجْل، فالمعنى: آتيتهم لأجل ضلالالتهم عقوبة منك، ومثله قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥]، أى: لأجل إعراضكم، حكاه بعض المفسرين. وقرأ أهل الكوفة إلا المفضل، وزيد، وأبو حاتم عن يعقوب: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء، أى: ليضلوا غيرهم. [زاد المسير: ٤/ ٤٨، ٤٩]

ولكن هل الحق سبحانه وتعالى أعطى فرعون المال والزينة ليضل عن سبيله هل هذه هى علة العطاء؟ لا . . ولكن هناك (لام) اسمها لام العاقبة، كيف؟ أنت مثلاً إذا أعطيت اثنين من أولادك بعض المال ، وقلت لكل منهما : ما أعطيتكما هو ملك لكما تصرفا فيه باختياركما ، ولكن لابد أن يكون تصرفكما مما يعود عليكما بالخير والنفع ، كأن تشتريا طعاماً تأكلانه، أو كتاباً تقرآنه، أو تُحضرا لإخوتكما ما يحتاجون إليه .

أنت أعطيت كلا من ولديك قوة شرائية، أحدهما اشترى بها ما ينفع، والآخر اشترى بها ما يضر ولا ينفع، تقول لابنك الذى اشترى ما يضره: أأعطيتك المال لتشترى به ما يضرك ؟ فـ «اللام» هنا اسمها لام العاقبة، لماذا؟ لأن العاقبة التى حدثت أو الغرض الذى تم لم يكن مقصودًا بالمال الذى أعطى، ولكنك أعطيت المال للنفع، فغيّر من أخذ المال الغاية ، من النفع إلى الضر.

إذن . . المقصود بالمال غير الذى تمّ.

دعاء موسى : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[1] [يونس: ٨٨] يقول الله تعالى فى كتابه العزيز:

---

(١) قال ابن الجوزى: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ﴾ روى الحلبى عن عبد الوارث «اطمُس» بضم الميم، ﴿عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ وفيه قولان:

أحدهما : أنها جعلت حجارة، رواه مجاهد عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك، وأبو صالح، والفراء. وقال القرظى: جعل سُكَّرُهُم حجارة.

وقال ابن زيد: صار ذهبهم ودراهمهم وعدسهم وكل شىء لهم حجارة.

وقال مجاهد: مسخ الله النخل والثمار والأطعمة حجارة، فكانت إحدى الآيات التسع. وقال الزجاج: تطميس الشىء: إذهابه عن صورته، والانتفاع به على الحال الأولى التى كان عليها.

والثانى: أنها هلكت، فالمعنى: أهلك أموالهم، رواه العوفى عن ابن عباس، وبه قال =

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧] ، ومعنى طمْسُ الوجه: إخفاء معالمه فيكون قطعة لحم واحدة ، ليست مقسّمة إلى جبهة ، وحواجب ، وعينين ، وأنف ، وفم ، بل تصبح قطعة واحدة مثل القفا، والطمس يزيل معالم الوجه، ومعنى إزالة المعالم إهلاك الصورة التى عليها الإنسان .

قوله : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أى: امحها أو امسخها، فلقد قال بعض العلماء : إن أموال فرعون مُسِخت بعد هذا الدعاء ؛ فما كان عنده من ذهب أصبح حجارة، والذى كان عنده من مال أصبح زجاجاً.

= مجاهد، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، ومنه يقال: طمست عينه: أى ذهبت، وطمس الطريق: إذا عفا ودرس.

وفى قوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: اطبع عليها، رواه العوفى عن ابن عباس، وبه قال مقاتل، والفراء، والزجاج.

والثانى: أهلكهم كفاراً، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الضحاك.

والثالث: اشدد عليها بالضلالة، قاله مجاهد.

والرابع: أن معناه: قَسِّ قلوبهم، قاله ابن قتيبة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه دعاء عليهم أيضاً، كأنه قال : اللهم فلا يؤمنوا ، قاله الفراء ، وأبو عبيدة، والزجاج. وقال ابن الأنبارى: معناه: فلا آمنوا.

قال الأعشى:

فلا ينبسط من بين عينيك ما انزوى ... ولا تلقنى إلا وأنفك راغم

معناه: لا انبسط، ولا لقيتنى.

والثانى: أنه عطف على قوله: ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ ، فالمعنى: أنك آتيتهم ليضلوا فلا يؤمنوا ، حكاه الزجاج عن المبرّد.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قال ابن عباس: هو الغرق، وكان موسى يدعو، وهارون يؤمّن . [زاد المسير: ٤/٤٩-٥٠]

وقوله : ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ، الأموال التى كانت عند فرعون كانت وسيلته للإضلال ونشر الكفر ؛ لذا قال موسى: يارب، أسألك أمرين:

الأمر الأول : أن تطمس على أموالهم فتجعلها بلا قيمة.

والأمر الثانى : أن تشدد على قلوبهم، أى: اطبع عليها واشدد الرباط على القلوب؛ حتى لا يؤمنوا لأنهم افتروا باتباعهم فرعون ورفضهم الدعوة وصدهم عنها؛ لذلك فهم لا يستحقون رحمتك ولايستحقون هدايتك .

إذن، ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ معناها أحكم الرباط عليها بحيث لا يخرج ما فيها من الكفر ، ولا يدخل ما هو خارجها من الإيمان .

ولكن كيف يدعو موسى على فرعون وقومه بهذا الدعاء ولا يطلب من الله أن يهديهم، كما فعل رسولنا عليه الصلاة والسلام، حين قال: «اللهم اهدِ قومى فإنهم لا يعلمون» [1] نقول: إنه لابد أن الله سبحانه وتعالى قد أطلعه على أن فرعون وقومه لن يهتدوا، وأنه لا فائدة منهم، مثلما أطلع نوحاً عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلا مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[2] [هود:٣٦] ، إن هؤلاء

(١) قال عبد الله : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه فهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: « رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ».

أخرجه البخارى [٦٩٢٩] ، وأخرجه مسلم [١٧٩٢] بدون لفظة : «فأدموه».

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم، فدعا عليهم نوح دعوته التى قال الله تعالى مخبرًا عنه أنه قال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلا مَن قَدْ آمَنَ﴾ فلا تحزن عليهم ، ولا يهمنك أمرهم. [تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٢٥، ٤٢٦]

الذين يعلم الله أنهم لن يؤمنوا بعلمه الشامل لكل هذا الوجود، لا تكون هناك فائدة من هدايتهم ؛ مصداقاً لقوله تبارك وتعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦] ؛ ومادام آل فرعون ليسوا فى ضلال فقط، بل هم يُضلون غيرهم ، فلا فائدة من هدايتهم.

وقوله: ﴿فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[1] ؛ تلفتنا إلى أن هناك فرقًا بين إيمان الاختيار وإيمان القصر، فالكافر والمشرك ساعة الاحتضار يُكشف عنهما حجاب الغيب؛ ليريا كل ما كان خافياً عنهما، وعندما يريان العذاب يُعلنان الإيمان، ولكنه لا يُتقبل منهما ؛ مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] ، ولذلك فإنه ساعة يأتى العذاب يكون قد انتهى الاختيار البشرى، ولا تقبل توبة ولا إيمان.

فرعون عندما أدركه الغرق قال كما يقصُّ علينا القرآن الكريم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] ، ودعوة موسى إلى ربه : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ ، تشبه دعاء نوح عليه السلام الذى قال : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ وعندما توجّه موسى وهارون بالدعاء إلى الله، قال الله تبارك وتعالى:

---

(١) قال ابن كثير: ﴿فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام؛ غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا يجىء منهم شىء . [تفسير ابن كثير: ٢/ ٤١١]

﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[1] [يونس: ٨٩] ، يلاحظ أن الذى دعا هو موسى، وأن الله جل جلاله قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ ، مما يدلنا على أن هارون دعا مع موسى ، مع أن موسى هو أصل الرسالة، وهارون جاء ليشد عضده، وإذا نظرت إلى طبيعة الاثنين، تجد أن هذا رسول وهذا رسول، والمهمة واحدة. فإن اعتبرت الذات قلت: رسولان، وإن اعتبرت وحدة المهمة قلت: رسول.

وقلنا: إن الله سبحانه وتعالى فى اختياره لرسله ، يعطيهم من التكوين بحيث لا يوجد للاختيار مجال فى حياتهم ، بالنسبة لتطبيق المنهج وانفعالات الأحداث .

---

(١) قال ابن الجوزى: فقال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وكان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿دَّعْوَتُكُمَا﴾ وهما دعوتان؟ فعنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أن الدعوة تقع على دعوتين وعلى دعوات ، وكلام يطول ، كما بيّنا فى سورة الأعراف أن الكلمة تقع على كلمات[1] ، قال الشاعر:

وكان دعا دعوةً قومه ... هلم إلى أمركم قد صرم

فأوقع «دعوة» على ألفاظ بيّنها آخر بيته.

والثانى: أن يكون المعنى: قد أجيبت دعواتكما، فاكتفى بالواحد من ذكر الجميع، ذكر الجوابين ابن الأنبارى. وقد روى حماد بن سلمة عن عاصم أنه قرأ : «دعواتكما» بالألف وفتح العين.

والثالث: أن موسى هو الذى دعا، فالدعوة له، غير أنه لما أمّن هارون، أشرك بينهما فى الدعوة؛ لأن التأمين على الدعوة منهما . [زاد المسير: ٤/ ٥٠]

---

(١) قال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ [الأعراف: ١٥٨] : فى الكلمات قولان :

أحدهما : أنها القرآن ، قاله ابن عباس ، وقال قتادة : كلماته : آياته.

والثانى : أنها عيسى بن مريم ، قاله مجاهد، والسدى . [زاد المسير : ٣/ ١٨٥، ١٨٦]

فمادام الله قد أعد خلقاً ليكونوا رسلاً واصطفاهم ، فلابد أن يكون انفعالهم بالأحداث يأتى متوافقاً، ومادام موسى وهارون مرسلين لمهمة واحدة، فإن انفعل أحدهما بشىء ينفعل الآخر بالشىء ذاته، مثلما تأتى بساعتين جيدتين مضبوطتين كلتاهما تدق فى اللحظة نفسها تعلن الزمن، ولا يوجد هناك مانع فى أنه عندما دعا موسى ربه دعا هارون أيضاً ، ولكن سرا، أو حينما دعا موسى قال هارون آمين،[1] ولكن ما هو الدعاء؟! الدعاء أن تفزع إلى من يقدر على تحقيق ما لا تقدر عليه، والدعاء لله سبحانه وتعالى هو أن يحقق شيئاً عجزت الأسباب عن تحقيقه، ساعتها يقول الإنسان إن لى ربا أؤمن به وهو خالق الأسباب، وهو الذى يقدر على أن يعطينى ما أريد؛ ولذلك فإن المؤمن[2] لا يستقبل الأحداث بأسبابه، ولكن بقدرة من آمن به وهو المسبِّب .

---

(١) قال ابن كثير: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس : ٨٩]. قال أبو العالية وأبو صالح ومحمد بن كعب القرظى، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمّن هارون: أى قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون. [تفسير ابن كثير: ٢/ ٤١١]

(٢) وعن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « تدرون من المسلم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده». قال: «تدرون من المؤمن؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم، والمهاجر من هجر السوء فاجتنبه».

أخرجه أحمد فى المسند [٢/٢٠٦]، وقال الشيخ شاكر [٦٩٢٥] : إسناده صحيح.

* خروج بنى إسرائيل من مصر *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ (١) [طه: ٧٧]، بعد أن انتهت المعركة بانتصار الحق وآمن السحرة بموسى، انهدم بذلك جزء من سطوة فرعون وجبروته، فجمع موسى بنى إسرائيل، وهم بقايا ذرية يعقوب عليه السلام وسار بهم شرقا إلى الأرض المقدسة فى فلسطين، فتبعهم فرعون وجنوده ، فأصبحوا فى خوف شديد؛ لأن البحر أمامهم وفرعون من خلفهم، فلا مفر من القتل على يد فرعون وجنوده أو الموت غرقا فى البحر(٢) .

---

(١) أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قال أصحاب موسى : هذا فرعون قد أدركنا ، وهذا البحر قد عمنا، فأنزل الله ﴿لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ من البحر غرقاً ولا وحلاً. [الدر المنثور : ٥/ ٥٩٠]

(٢) قال البقاعى فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا﴾ اى بعظمتنا لتسهيل ما يأتى من الأمور الكبار ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ غير مكترثين لشىء من أقوال فرعون ولا أفعاله ، وهذا الإيحاء بعد ما تقدم من أمر السحرة بمدة مديدة جرت فيها خطوب طوال كانت بسببها الآيات الكبار، وكأنها حذفت لما تدل عليه من قساوة القلوب ، والمراد هنا الانتهاء لما تقدم من مقصود السورة ﴿أَنْ أَسْرِ﴾ اى ليلا؛ لأن السرى سير الليل؛ وشرفهم بالإضافة إليه فقال : ﴿بِعِبَادِي ﴾ اى بنى إسرائيل الذين لفتُّ قلب فرعون،حتى اذن فى مسيرهم ، بعد أن كان قد أبى أن يطلقهم أو يكف عنهم العذاب، فاقصد بهم ناحية بحر القلزم ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ﴾ اى اعمل بضرب البحر بعصاك . ولذلك سماه ضربا. =

وهذا حكم القضايا البشرية المعزولة عن منهج الله، لكن القضايا البشرية عند المؤمن قائمة على الإيمان بمنهج الله؛ ولذلك فالمؤمن حين تصيبه مصيبة فى الدنيا يذكر الله ويقول : لا كرب وأنت رب، فما دام الله ربنا فإنه يهوِّن كل كرب يقع لنا فى الدنيا؛ لأنه سبحانه لن يتركنا أبدا . ونحن ضربنا مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ قلنا : هب أن إنسانًا معه جنيه ثم فقده ، فى هذه الحالة يغضب هذا الإنسان إذا لم يكن معه غيره، لكن إن كان معه غيره أو له رصيد فى البنك أو فى الخزانة، فإنه لا يغضب ولا يحزن، فكذلك المؤمن إذا ضاع منه شىء لايحزن؛ لأن عنده رصيداً ، ورصيد المؤمن هو إيمانه بربه الذى لا تنفد عطاياه ، ولا يتخلى عن عباده أبدا .

الله سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب لقومه طريقا فى البحر، و«الضرب» هو : إيقاع شىء من ضارب بآلة على مضروب؛ ليصبح صالحاً للاستعمال؛ ولذلك كانوا يكتبون على النقود الفضة أو الذهب (ضُرب فى مصر) ، فمعنى ضرب النقد: أى أنه تم سكّه وختمه وصار

- ولما كان ضرب البحر بالعصا سببا لوجود الطريق الموصوفة ، أوقع الفعل عليها فقال: ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ﴾ ووصفها بالمصدر مبالغة ، فقال : ﴿يَبَسًا﴾ حال كونها او كونك ﴿لا تَخَافُ﴾ والمراد بها الجنس ، فإنه كان لكل سبط طريق ، ﴿دَرَكًا﴾ أى أن يدركك شىء من طغيان البحر أو بأس العدو أو غير ذلك.

ولما كان الدرك مشتركا بين اللحاق والتبعة ، اتبعه بقول: ﴿وَلا تَخْشَىٰ﴾ اى شيئا غير ذلك أصلا ؛ إنفاذًا لأمرى وإنقاذًا لمن ارسلتك لاستنقاذهم، وسوقه على هذا الوجه من إظهار القدرة والاستهانة بالمعاند مع كبريائه ومُكْنَته ؛ استدلالا شهوديا على ما قرر أول السورة ، من شمول القدرة وإحاطة العلم للبشارة بإظهار هذا الدين، بكثرة الاتباع وإبارة الخصوم والإسعاد برد الأضداد وجعل بغضهم ودا ، وإن كانوا قوما لدا؛ ثم أتبع ذلك قوله عطفا على ما تقديره : فبادر امتثال الأمر ؛ فى الإسراء وغيره . [نظم الدرر : ١٢/٣١٦ - ٣١٨]

عُمْلَة، فبعد أن كان معدنا أصبح عملة نقدية متداولة. ولكن أن يضرب موسى لقومه طريقا يبسا فى البحر، فهذه مسأله غريبة فى قوانين البشر؛ لأن «اليبس» أرض صلبة يابسة، والبحر ماء.. فكيف يحدث ذلك فى عرف البشر ؟ ربنا سبحانه أوحى إلى موسى وقومه بأنه هو المتكفل بهذا الأمر، وقال له : اضرب البحر بعصاك ولا تخشَ أن يدركك فرعون أو أن يغرقك البحر ، أى لا تخف دركًا من فرعون ولا تخش غرقا من البحر؛ لأن الطريق مضروب ، ولذلك تجد المعجزة مع موسى غريبة جدا: عصا يضرب بها ماء فيصير ما تحت العصا يَبَسًا وما حولها جبالا، ويضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء، ويلقيها على الأرض فتصير حية تسعى.

ومعنى ﴿أَسْرِ﴾ أى امش بالليل؛ لأنه أستر عليك من عيون فرعون، ثم يقول تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)﴾[1] [طه] ، هنا الحق سبحانه فى هذه اللقطة لم يذكر لنا ماذا قال قوم موسى له، ولكنه ذكر ما قالوه فى لقطة

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ أى أتبعهم ومعه جنوده، وقرئ: «فاتَّبعهم» بالتشديد ، فتكون الباء فى ﴿بِجُنُودِهِ﴾ عَدَّتِ الفعل إلى المفعول الثانى؛ لأن اتبع يتعدى إلى مفعول واحد. أى تبعهم ليلحقهم بجنوده ، أى مع جنوده، كما يقال: ركب الأمير بسيفه أى مع سيفه. ومن قطع : «فأتبع» يتعدى إلى مفعولين: فيجوز أن تكون الباء زائدة، ويجوز أن يكون اقتصر على مفعول واحد. يقال: تبعه وأتبعه ولحقه وألحقه بمعنى واحد. وقوله: ﴿بِجُنُودِهِ﴾ فى موضع الحال؛ كأنه قال: فأتبعهم سائقا جنوده. ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ : أى أصابهم من البحر ما غرّقهم، وكرر على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر.﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ أى أضلهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة؛ لأنه قدر أن موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه؛ لأن بين أيديهم البحر. فلما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق منه اثنا عشر طريقا ، وبين الطرق الماء قائما كالجبال . وفى سورة =

أخرى ، فقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١] . إذا تكررت القصة فافهم أن فى كل تكرير لقطة جديدة، فإذا جمعت كل اللقطات تعطيك القصة كاملة ، فلما قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] طمأنهم موسى بقوله: ﴿كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] ، قال لهم ﴿كَلا﴾ ، وهذه ليست من عندى ولكنها من عند الله ؛ لأنه ربى الذى سيهدينى إلى طريق النجاة ، فالقرآن يعطينا لقطات متعددة تخرج القصة كاملة . ونحن قلنا فى كلمة «عبادى» إنها جمع عبد ، وكلمة «عبد»[1] تجمع على عبيد وعباد . . فما الفرق بين الكلمتين؟

كل من فى الكون عبيد لله؛ لأنهم وإن كانوا مختارين فى أشياء ، فهم

= الشعراء: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أى الجبل الكبير، فأخذ كل سبط طريقا. وأوحى الله إلى أطواد الماء أن تشبكى ، فصارت شبكات يرى بعضهم بعضا، ويسمع بعضهم كلام بعض، فكان هذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق فى البحر والماء قائما ، أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيبته، فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم. وقيل إن قوله: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ تأكيد لإضلاله إياهم.

وقيل: هو جواب قول فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فكذّبه الله تعالى. وقال ابن عباس: ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ أى ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه. [تفسير القرطبى: ١١/٢٢٩]

(١) يقول العلامة الراغب الأصفهانى : العبودية إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال ، وهو الله تعالى ، ولهذا قال : ﴿أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] والعبادة ضربان : عبادة بالتسخير .

وعبادة بالاختيار وهى لذوى النطق ، وهى المأمور بها فى نحو قوله : ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٣٦] ، والعبد يقال على أربعة أضرب : =

مقهورون جميعا على أشياء، فالذى تعوّد أن يكفر ويخالف منهج الله ، هل إذا جاءه المرض يتمرد عليه ويرفض أن يمرض؟! إذن هناك قهريات للمختار وإن كان كافرا، فبالنسبة للكل نحن عبيد، ولكن العباد هم الذين جاءوا فى الأمور التى خيرهم الله فيها: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] ، فيختارون مراد الله على اختيار أنفسهم، فالذى يختار مراد الله على مراد نفسه هو من العباد؛ ولذلك الحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]

= **الأول** : عبد بحكم الشرع وهو الإنسان الذى يصح بيعه وابتياعه ، نحو : ﴿الْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ [البقرة: ١٧٨] ، ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٧٥] .

الثانى : عبد بالإيجاد ، وذلك ليس إلا لله وإياه قصد بقوله : ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] .

والثالث : عبد بالعبادة والخدمة ، والناس فى هذا ضربان :

عبد لله مخلصا وهو المقصود بقوله : ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] ، وعبد للدنيا وأعراضها ، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها ، وإياه قصد النبى عليه الصلاة والسلام بقوله : « تعس عبد الدرهم ؛ تعس عبد الدينار »[1] ، وعلى هذا النحو يصح أن يقال : ليس كل إنسان عبد الله ، فإن العبد على هذا بمعنى العابد ، لكن العبد أبلغ من العابد والناس كلهم عباد الله ، بل الأشياء كلها كذلك ، لكن بعضها بالتسخير وبعضها بالاختيار وجمع العبد الذى هو مسترق : عبيد، وقيل: عبدًا، وجمع العبد الذى هو العابد: عباد ، فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد ، ولهذا قال : ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩] ، فنبه أنه لا يظلم من يختص بعبادته.

[مفردات ألفاظ القرآن: ٣٣٠-٣٣١]

---

(١) أخرجه البخارى [٦٤٣٥] عن أبى هريرة بلفظ : « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أُعطى رضى ، وإن لم يُعط لم يرضَ » .

ويقول : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان:٦٣] . فالناس قسمان: مؤمن وكافر. والكل - سواء كان مؤمناً أو كافراً - لهم قهريات فى الوجود لا يستطيع أحد أن يتمرد عليها، فالكل عبيد فى القهريات وفى الاختيارات ، فالمؤمن يقول لربه : يا رب أنا سأختار ما تأمرنى به أنت، وأنفذ ما تريده منى وسألغى اختيارى ، فهذا من العباد.

وكلمة ﴿غَشِيَهُمْ﴾ معناها غطّاهم من البحر ما غطاهم، وأنت حين تبالغ فى شىء تقول : لقد حدث ما حدث، وحصل ما حصل. فأنت تبهم الشىء ؛ لأنك لا تقدر على الإحاطة به بالتفصيل. كذلك قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ؛ أى أنه أمر مهول لا يمكن حصره، وهذه لقطة غير موجودة فى القصة هنا، فموسى حينما مشى فى الطريق «اليبس» ونجا بقومه (بنى إسرائيل) وتبعه فرعون بجنوده، أراد أن يضرب البحر بعصاه؛ ليعود كما كان حتى لا يسلكه فرعون وراءهم، وكان هذا اجتهادا منه ، ولكن الوحى الإلهى أمره أن يترك البحر كما هو، قال تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] ، وكانت الحكمة من ترك البحر على حاله إغراء فرعون وجنوده بالسير فى الطريق اليبس ، حتى إذا كان الجنود داخله أرجع الله الماء إلى استطراق سيولته ؛ فيغرق فرعون وجنوده ، فيكون الله تعالى قد أنجى وأهلك بالشىء الواحد [1].

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ : أى ساكنًا ، يقال : رها يرهو رهوا : إذا سكن لا يتحرّك . قال الجوهرى : يقال : افعل ذلك رهوا ، أى ساكنا على هيئتك ، وعيش راه ، أى ساكن ، ورها البحر : سكن ، وكذا قال =

ومعنى ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩] أى أنه قادهم إلى طريق الضلال والهلاك؛ لأنه كان دائما يدعى أنه يقود قومه ويهديهم إلى سبيل الرشاد ، كما فى قوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] ففرعون كذب فى هذا الزعم؛ لأنه قادهم إلى الهلاك والغرق ، ولم يهدهم إلى سبيل الرشاد (١).

= الهروى وغيره ، وهو المعروف فى اللغة ، ومنه قول الشاعر :

والخيل تمرح رهوًا فى أعنتها ... كالطير تنجو من الشرنوب ذى الوبر

أى : والخيل تمرح فى أعنتها ساكنة ، والمعنى : اترك البحر ساكنا على صفته بعد أن ضربته بعصاك ، ولا تأمره أن يرجع كما كان ؛ ليدخله آل فرعون بعدك وبعد بنى إسرائيل، فينطبق عليهم فيغرقون . وقال أبو عبيدة : رها بين رجليه يرهو رهوا: أى فتح . قال : ومنه قوله : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ والمعنى : اتركه منفرجا كما كان بعد دخولكم فيه، وكذا قال أبو عبيد . وبه قال مجاهد وغيره . قال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد، وإن اختلف لفظاهما ؛ لأن البحر إذا سكن جريه انفرج . قال الهروى : ويجوز أن يكون ﴿رَهْوًا﴾ نعتا لموسى ، أى سر ساكنا على هيئتك . وقال كعب والحسن : ﴿رَهْوًا﴾ طريقا . وقال الضحاك والربيع : سهلا . وقال عكرمة : يبسا ، كقوله : ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ وعلى كل تقدير ، فالمعنى : اتركه ذا رهو أو اتركه رهوا على المبالغة فى الوصف بالمصدر. ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أى: إن فرعون وقومه مغرقون . أخبر سبحانه موسى بذلك ليسكن قلبه ويطمئن جأشه. [فتح القدير : ٤/ ٥٥٠-٥٥١]

(١) قال صديق خان فى قوله تعالى : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَىٰ﴾ أى ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسى ، قاله ابن زيد ، وهذا تفسير لمآل المعنى ، والتفسير المطابق لجوهر اللفظ ما قال الضحاك : ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب ، وهو قتل موسى، والرؤية هنا هى القلبية الاعتقادية، لا البصرية العينية، فتعدى لمفعولين ثانيهما: ﴿إِلا مَا أَرَىٰ﴾ .

﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أى ما أهديكم ولا أدعوكم بهذا الرأى إلا إلى طريق الحق والهدى . [فتح البيان : ١٢/ ١٨٤ ، ١٨٥] =

- وقال ابن كثير فى قوله تعالى: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَىٰ﴾ أى ما أقول لكم وأشير عليكم ، إلا ما أراه لنفسى ، وقد كذب فرعون ، فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة : ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾وقال الله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ فقوله : ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَىٰ﴾ كذب فيه وافترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته ، فغشهم وما نصحهم ، وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أى وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد ، وقد كذب أيضًا فى ذلك ، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه .

[تفسير ابن كثير : ٤/ ٨٠].

* فاضرب لهم طريقًا فى البحر *

ها هم قوم موسى أمام البحر يخشون الغرق، وتتجلى معجزة الله لموسى فى أن قوم فرعون خلفه والبحر أمامه فيوحى الله له: أن يضرب بعصاه البحر؛ فينفلق البحر كل فرق كالطود العظيم. انتقل الماء من قانون السيولة المسخر به ، إلى قانون التجمد الذى أراده الله، وصار البحر طريقًا ؛ ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧] ، طُرق البحر التى تفرقت بعصا موسى صارت جافة يابسة ، تصلح للمرور والسير عليها، لقد أرسل الله الريح لتجفف أرض الطرق التى انشقت بعصا موسى، لقد أصبح البحر سراديب ، فسارت فيه الاثنتا عشرة جماعة التى خرجت مع موسى عليه السلام، وبينما هم سائرون مع موسى ؛ لينجوا جميعهم خوفًا من أن يلحق بهم فرعون وجنوده ، قال بعضهم: أين إخواننا الذين كانوا معنا؟ أجابهم موسى عليه السلام بما معناه: إنهم يسيرون فى الطرق الأخرى التى انشقت بالعصا ، كما أراد الحق أن ينجيكم، لكنهم شكّوا فى ذلك ، ورفع موسى يده إلى السماء يدعو الخالق الأكرم أن يعينه على سوء خلق من لم يؤمن بقدرة الحق ، ورغب فقط فى التمتع بمعجزات الإيمان.

وأوحى الله لموسى أن يضرب بالعصا على الفِرْق العظيم ، فانشقت فى كل فرق كوة يمكن لكل جماعة أن ترى الأخرى منها، ويقال: إن جبريل كان قد ركب فرسا أنثى آتاها الشبق[1] ، وهى تمخر فى البحر . وكانت

(١) الشبق: اشتداد الشهوة للأنثى. [المعجم الوسيط] .

الفرس ـ التى لفرعون ـ قد شمّت ريحها فملأها الهياج ، فاقتحمت البحر وراءها ، فغرق فرعون ومن معه أجمعون[1] ، ونجا موسى ومن معه.

هكذا شاءت إرادة الحق أن تهلك وأن تنجى بالسبب الواحد، انشقاق البحر ثم عودته مرة أخرى إلى حالته، وعندما جاء الغرق إلى فرعون أعلن الإيمان، لكن لا قبول للإيمان فى اللحظة الأخيرة ؛ وإنما بقى جسد فرعون آية لإثبات قدرة الله ، وفى ذلك يقول الحق: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾[2]. [يونس] ، لقد

---

(١) انظر [تفسير القرطبى : ٧/ ٢٨٤] ، و [تفسير ابن كثير : ٢/ ٤١١] ، و [الكامل فى التاريخ لابن الأثير : ١/ ١٨٨] وغير ذلك .

(٢) يقول الشوكانى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ هو من جاوز المكان: إذ خلّفه وتخطاه، والباء للتعدية، أى جعلناهم مجاوزين البحر ، حتى بلغوا الشط ؛ لأن الله سبحانه جعل البحر يبسًا ، فمرّوا فيه حتى خرجوا منه إلى البر. وقد تقدم تفسير هذا فى سورة البقرة فى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [1] [البقرة: ٥٠]. وقرأ الحسن: «وجوزنا» وهما لغتان: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾. يقال: تبع وأتبع بمعنى واحد، إذا لحقه، وقال الأصمعى: يقال: أتبعه بقطع الألف، إذا لحقه وأدركه، واتبعه بوصل الألف، إذا اتبع أثره أدركه أو لم يدركه. وكذا قال أبو زيد. وقال أبو عمرو: إن اتبعه بالوصل: اقتدى به، وانتصاب بغيا وعدوا : على الحال، والبغى: الظلم، والعدو: الاعتداء، ويجوز أن يكون انتصابهما على العلة، أى : للبغى والعدو. وقرأ الحسن: و«عُدُوًا » بضم العين والدال وتشديد الواو مثل علا يعلو علوا. وقيل: إن البغى: طلب الاستعلاء فى القول بغير حق، والعدو: فى الفعل : ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ أى ناله=

---

(١) فتح القدير [١/ ١٤٦] .

= ووصله وألجمه. وذلك أن موسى خرج ببنى إسرائيل على حين غفلة من فرعون، فلما سمع فرعون بذلك لحقهم بجنوده، ففرق الله البحر لموسى وبنى إسرائيل، فمشوا فيه حتى خرجوا من الجانب الآخر، وتبعهم فرعون والبحر باق على الحالة التى كان عليها عند مُضِيِّ موسى ومن معه، فلما تكامل دخول جنود فرعون وكادوا أن يخرجوا من الجانب الآخر ، انطبق عليهم فغرقوا ، كما حكى الله سبحانه ذلك: ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى صدقت أنه ؛ بفتح الهمزة على أن الأصل بأنه، فحذفت الباء، والضمير للشأن، وقرئ بكسر إن على الاستئناف، وزعم أبو حاتم أن القول محذوف، أى آمنت، فقلت: إنه. ولم ينفعه هذا الإيمان أنه وقع منه بعد إدراك الغرق كله ، كما تقدم فى النساء، ولم يقل اللعين: آمنت بالله أو برب العالمين، بل قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ ، لأنه بقى فيه عرق من دعوى الإلهية. قوله: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى المستسلمين لأمر الله المنقادين له الذين يوحدونه وينفون ما سواه، وهذه الجملة إما فى محل نصب على الحال أو معطوفة على « آمنت » .

قوله: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ؛ هو مقول قول مقدر معطوف على ﴿قَالَ آمَنتُ﴾ ؛ أى فقيل له: أتؤمن الآن؟ وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقيل: هى من قول الله سبحانه. وقيل: من قول جبريل. وقيل: من قول ميكائيل. وقيل: من قول فرعون قال ذلك فى نفسه لنفسه. وجملة: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل الفعل المقدر بعد القول المقدر، وهو أتؤمن الآن، والمعنى: إنكار الإيمان منه عند أن ألجمه الغرق، والحال أنه قد عصى الله من قبل، والمقصود التقريع والتوبيخ له، وجملة: ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ . معطوفة على عصيت داخلة فى الحال، أى كنت من المفسدين فى الأرض بضلالك عن الحق وإضلالك لغيرك.

قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ قرئ: «ننجيك» بالتخفيف، والجمهور على التثقيل. وقرأ اليزيدى: «ننحك» بالحاء المهملة من التنحية، وحكاها علقمة عن ابن مسعود، ومعنى : ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بالجيم: نلقيك على نجوة من الأرض، وذلك أن بنى إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق، وقالوا: هو أعظم شأنا من ذاك، فألقاه الله على نجوة =

من بعد ذلك ؛ ليعتبروا بالعظة التى أرادها الله، لقد غرق آل فرعون ولم ينجُ فرعون من الغرق، إنما الذى نجا هو جسده، حدث ذلك أمام عيون من خرج مع موسى عليه السلام ، هرباً من ظلم فرعون، وبعد أن تأكدوا من نجاتهم جميعاً.

= من الأرض، أى مكان مرتفع من الأرض حتى شاهدوه. وقيل: المعنى: نخرجك مما وقع فيه قومك من الرسوب فى قعر البحر ، ونجعلك طافيا ؛ ليشاهدوك ميتا بالغرق، ومعنى «ننحيك» بالمهملة: نطرحك على ناحية من الأرض. وروى عن ابن مسعود أنه قرأ: «بأبدانك».

وقد اختلف المفسرون فى معنى ببدنك ، فقيل : معناه : بجسدك بعد سلب الروح منه . وقيل : معناه : بدرعك والدرع يسمى بدنا ، ومنه قول كعب بن مالك :

ترى الأبدان فيها مسبغات على الأبطال واليلب الحصينا

أراد بالأبدان : الدروع ، وقال عمرو بن معدى كرب :

ومضى نساؤهم بكل مُضَاضة جدلاء سابغة وبالأبدان

أى بدروع سابغة ودروع قصيرة ، وهى التى يقال لها : أبدان كما قال أبو عبيدة . وقال الأخفش : وأما قول من قال بدرعك ، فليس بشىء ، ورجح أن البدن المراد به هنا الجسد ، قوله : ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ هذا تعليل لتنحيته ببدنه ، وفى ذلك دليل على أنه لم يظهر جسده دون قومه إلا لهذه العلة لا سوى، والمراد بالآية : العلامة ، أى لتكون لمن خلفك من الناس علامة يعرفون بها هلاكك ، وأنك لست كما تدعى، ويندفع عنهم الشك فى كونك قد صرت ميتًا بالغرق.

وقيل: المراد: ليكون طرحك على الساحل وحدك دون المغرقين من قومك ، آية من آيات الله، يعتبر بها الناس أو يعتبر بها من سيأتى من الأمم إذا سمعوا ذلك ؛ حتى يحذروا من التكبر والتجبر والتمرد على الله سبحانه، فإن هذا الذى بلغ إلى ما بلغ إليه من دعوى الإلهية ، واستمر على ذلك دهرا طويلا ، كانت له هذه العاقبة القبيحة وقرئ: «لمن خلفك» على صيغة الفعل الماضى ، أى لمن يأتى بعدك من القرون، أو من خلفك فى الرياسة أو فى السكون فى المسكن الذى كنت تسكنه، ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا﴾ التى توجب الاعتبار والتفكر ، وتوقظ من سنة الغفلة ﴿لَغَافِلُونَ﴾ عما توجبه الآيات. [فتح القدير : ٢/ ٤٨٤- ٤٨٥]

* إن معى ربى سيهدين *

لما بدأ موسى الفرار بقومه من بطش فرعون وجبروته ، تبعه فرعون وقومه، وأصبحت كل فئة على مرمى البصر من الأخرى ؛ أى أن قوم موسى يرون فرعون وجنوده مقبلين ، وقوم فرعون يرون موسى وأتباعه وهم يفرون، قال قوم موسى لنبيّهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [1] [الشعراء:٦١، ٦٢] ، كان كلام قوم موسى منطقياً مع الأحداث؛ لأن قوم

---

(١) قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ ؛ أى تقابلا [1] الجمعان ، بحيث يرى كل فريق صاحبه، وهو تفاعل من الرؤية. ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أى قرب منا العدوّ ولا طاقة لنا به. وقراءة الجماعة: «لمدركون» بالتخفيف من أدرك. ومنه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ . قرأ عبيد بن عمير والأعرج والزهرى: «لَمُدَّرَكُونَ» بتشديد[2] الدال من أدرك. قال الفراء: حفر واحتفر بمعنى واحد، وكذلك «المدْركون» و «المدَّركون» بمعنى واحد. النحاس: وليس كذلك يقول النحويون الحذاق؛ إنما يقولون: مدْركون ملحقون، ومدَّركون مجتهد فى لحاقهم، كما يقال: كسبت بمعنى أصبت وظفرت، واكتسبت بمعنى اجتهدت وطلبت وهذا معنى قول سيبويه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما لحق فرعون بجمعه جمع موسى وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدوّ القوىّ ، والبحر أمامهم ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى على جهة التوبيخ والجفاء: ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ ، فرد عليهم قولهم وزجرهم وذكّرهم وعد الله سبحانه له بالهداية والظفر ، ﴿كَلا﴾ أى لم يدركوكم ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ أى بالنصر على العدوّ . ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أى سيدلّنى على طريق =

---

(١) كذا فى الأصول.

(٢) على وزن مفتعلون، وهو لازم بمعنى الفناء والاضمحلال، من ادَّرَكَ الشىءُ إذا تتابع ففنى.

فرعون وراءهم يسارعون إليهم ، وأمامهم البحر لا يستطيعون أن يهربوا ، فلابد أن يدركهم قوم فرعون .

ولكن موسى قال: ﴿كَلَّا﴾ ، لماذا؟ لأنه رسول رب العالمين ، وربه الذى أرسله لن يتركه ، وإذا كانت الأسباب قد عجزت ، فربُّ الأسباب سبحانه وتعالى لا يعجزه شىء ؛ ولذلك فعندما تخلت الأسباب عن موسى وقومه ، التجأ إلى ربِّ الأسباب، ولم يلجأ إلى قدرات البشر، وقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أى: إن الله معى وسيهدينى إلى طريق النجاة ؛ حينئذ جاءه المدد الإلهى من الله تبارك وتعالى،يقول رب العالمين: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ

= النجاة ؛ فلما عظم البلاء على بنى إسرائيل، ورأوا من الجيوش ما لا طاقة لهم بها، أمر الله تعالى موسى أن يضرب البحر بعصاه؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ، ومتعلقة بفعل يفعله؛ وإلا فضرب العصا ليس بفارق للبحر، ولا معين على ذلك بذاته ، إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه. ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بنى إسرائيل، ووقف الماء بينها كالطود العظيم، أى الجبل العظيم، والطود الجبل؛ ومنه قول امرئ القيس:

فبينا المرء فى الأحياء طَوْدٌ ... رماه الناس عن كَثَبٍ فمالا

وقال الأسود بن يعفر:

حَلُّوا بأنقرةٍ يسيل عليهم ... ماء الفرات يجىء من أَطْوَادِ

جمع طود أى جبل. فصار لموسى وأصحابه طريقا فى البحر يبساً؛ فلما خرج أصحاب موسى وتكامل آخر أصحاب فرعون على - ما تقدم فى «يونس» - انصب عليهم وغرق فرعون؛ فقال بعض أصحاب موسى: ما غرق فرعون؛ فنُبِذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه. وروى ابن القاسم عن مالك قال: خرج مع موسى عليه السلام رجلان من التجار إلى البحر ، فلما أتيا إليه قالا له : بم أمرك الله؟ قال: أمرت أن أضرب البحر بعصاى هذه فينفلق؛ فقالا له : افعل ما أمرك الله فلن يخلفك؛ ثم ألقيا أنفسهما فى البحر تصديقا له؛ فما زال كذلك البحر حتى دخل فرعون ومن معه، ثم ارتد كما كان. [تفسير القرطبى :١٣/١٠٦- ١٠٧]

﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[الشعراء: ٦٢، ٦٣].

وهكذا أنجى الله جل جلاله موسى وقومه بأن خرق لهم قانون سيولة واستطراق الماء.

وحدث فى عصر الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أنه كان فى المدينة يخطب فى المسجد، وقائد جيش المسلمين يحارب الفرس فى معركة شرسة، وكان عمر رضى الله عنه مشغول بأمر المسلمين فى المعركة، وقائد جيش المسلمين سارية بن زنيم يكاد يُهزم فى المعركة، الاثنان خواطرهما واحدة وفى وقت واحد، وإذا بعمر يقول بصوت عال من على المنبر: يا سارية ، الجبل الجبل، الكلمات ليس لها منطق فى الخطبة، وقائد جيش المسلمين محاصر فى موقعة يكاد يهزم، وعمر رضى الله عنه يقول: الجبل، الجبل، وإذا بقائد المعركة وهو على بعد مئات الأميال من مكان عمر ، يسمع صوت عمر رضى الله عنه : الجبل، الجبل، فينحاز إلى الجبل وينتصر فى القتال(١).

---

(١) هو: سارية بن زنيم بن عبد الله بن جابر بن محمية بن عبد بن عدى بن الدئل ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة الدئلى ، تقدم فى ترجمة أسيد بن أبى إياس ابن زنيم ما يشعر بأن له صحبة.

وقال ابن عساكر: له صحبة.

وقال مصعب الزبيرى : فيما أنشد ابن أبى خيثمة لسارية بن زنيم معتذراً إلى النبى ﷺ، وكان بلغه أنه هجاه فتوعده فأنشد :

تعلمْ رسولَ الله أنكَ قادر ... على كل حىّ من تِهَام ومُنْجد
تعلمْ رسولَ الله أنك مدركى ... وأن وَعيدًا منك كالأخذ باليد
تعلم بأنَّ الركْبَ آل عُوَيمر ... هم الكاذبون المخلفو كلّ مَوْعدِ
ونُبِّئ رسولُ الله أنّى هجوتُه ... فلا رفعَتْ سوطى إلىَّ إذًا يدى
سوى أننى قد قلتُ وَيْلُ ام فِتْيةٍ ... أصيبوا بنحس لا يُطاق وأَسْعُدِ
اصابهم مَنْ لم يكن لِدِمائهم ... كِفَاء فعزَّتْ عَوْلتى وتجلّدى =

= ذؤيب وكلثوم وسَلْمى تتابعوا أولئك إلا تدمع العين أكمدِ
على أنّ سلمى ليس فيها كمثله وإخوتُه وهل ملوك كأعبُد
وإنى لا عِرْضا خرقْت ولا دما هرَقْت فذكر عالم الحق واقصدِ

يقول فيها:

فما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد

وقدم تقدم فى ترجمة أسيد بن أبى إياس أن هذه الأبيات له. فالله أعلم. وتقدم أيضاً بعض هذه الأبيات فى ترجمة أنس بن زنيم، قال المرزبانى: أصدق بيت قالته العرب هذا البيت:

فما حملت من ناقة فوق رحلها أبر وأوفى ذمة من محمد

وجزم عمر بن شبة بأنه لأنس. قال: وسارية ولاه عمر ناحية فارس؛ وله يقول: يا سارية، الجبل. وقال المرزبانى: كان سارية مخضرماً.

وقال العسكرى: روى عن النبى ﷺ ولم يلْقه. وذكره ابن حبان فى التابعين.

وذكر الواقدى، وسيف بن عمر أنه كان خليعاً فى الجاهلية، أى لصا كثير الغارة، وأنه كان يسبق الفرس عدواً على رجليه، ثم أسلم وحسن إسلامه، وأمّره عمر على جيش، وسيّره إلى فارس سنة ثلاث وعشرين، فوقع فى خاطر عمر وهو يخطب يوم الجمعة ، أن الجيش المذكور لاقى العدو وهم فى بطن واد ، وقد هموا بالهزيمة وبالقرب منهم جبل، فقال فى أثناء خطبته: يا سارية، الجبل، الجبل، ورفع صوته، فألقاه الله فى سمع سارية، فانحاز بالناس إلى الجبل، وقاتلوا العدوّ من جانب واحد ففتح الله عليهم.

قلت: هكذا أخرج القصة الواقدى عن أسامة بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر؛ وأخرجها سيف مُطوّلَةً عن أبى عثمان وأبى عمرو بن العلاء، عن رجل من بنى مازن، فذكرها مطولة.

وأخرجها البيهقى فى الدلائل واللالكائى فى شرح السنة والزين عاقولى فى فوائده؛ وابن الأعرابى فى كرامات الأولياء، من طريق ابن وهب، عن يحيى بن أيوب، عن ابن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر، قال: وجه عمر جيشاً ورأس عليهم رجلا يدعى سارية، فبينما عمر يخطب جعل ينادى: يا سارية، الجبل - ثلاثاً - ثم قدم =

هذه يسمونها توارد الخواطر، حتى الذين لا يؤمنون يقولون : إن الخاطر مادام انشغل بنفس الشيء مع خاطر إنسان آخر يلتقيان، فإن كل هذا يحدث بالنسبة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

الناس تفهم أن إجابة الدعوة هى تحقيق ما يطلبه الداعى، ولكن هذا غير صحيح، فإجابة الدعوة لا تعنى أنها ستتحقق على الفور، قد تتحقق بعد أسابيع أو شهور، أو سنوات، وقد يكون الدعاء يحقق للإنسان شرا وهو لا يعلم ، فيكون عدم الاستجابة ؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده يعرف أين الخير، يقول جل جلاله: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١] ، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧] ، ويقول العليم الحكيم سبحانه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ

= رسول الجيش، فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، هزمنا، فبينا نحن كذلك إذ سمعنا صوتًا ينادى: يا سارية، الجبل - ثلاثا؛ فأسندنا ظهرنا إلى الجبل، فهزمهم الله تعالى. قال: قيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك.

وهكذا ذكره حرملة فى جمعه لحديث ابن وهب، وهو إسناد حسن. وقد تقدم أنهم كانوا لا يؤمّرون إلا الصحابة.

وروى ابن مردويه، من طريق ميمون بن مهران، عن ابن عمر، عن أبيه - أنه كان يخطب يوم الجمعة، فعرض فى خطبته أن قال : يا سارية، الجبل، من استرعى الذئب ظلم؛ فالتفت الناس بعضهم إلى بعض، فقال لهم على: ليخرجن مما قال. فلما فرغ سألوه، فقال: وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخواننا، وأنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجه واحد، وإن جاوزوا هلكوا، فخرج منى ما تزعمون أنكم سمعتموه. قال: فجاء البشير بعد شهر، فذكر أنهم سمعوا صوت عمر فى ذلك اليوم، قال: فعدلنا إلى الجبل، ففتح الله علينا.

وقال خليفة: افتتح سارية أصبهان صلحًا وعنوة فيما يقال.

[الإصابة فى تمييز الصحابة : ٣/ ٤ : ٧ ترجمة : ٣٠٣٦]

اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ (1) [يونس: 11] .

فالإنسان مرة يدعو بالشر على نفسه، والأم أحيانا تدعو بالشر على أولادها ، ماذا يحدث لو أن هذه الدعوة استجيبت؟ أكان خيرا للأم أن يجيب الله لها الدعاء ويحدث الإيذاء لأولادها ؟! .

حين أراد موسى أن يأخذ بنى إسرائيل ويخرج بهم، اتجه بهم إلى البحر وقبل أن يصل إلى البحر ، تنبه له قوم فرعون فتتبعوه بجيشهم، وصار

---

(1) قال القاسمى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ وهم الذين لا يرجون لقاءه تعالى لكفرهم ﴿الشَّرَّ﴾ : أى الذين كانوا يستعجلون به ، فإنهم كانوا يقولون : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: 32] . ونحو ذلك: ﴿اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾ : أى تعجيلا مثل استعجالهم الدعاء بالخير﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ : أى لأميتوا وأهلكوا ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ : أى فى ضلالهم وشركهم يترددون.

لطيفة:

زعم الزمخشرى أن معنى استعجالهم بالخير، أى تعجيله لهم الخير. وضع الأول موضع الثانى ؛ إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم. وعندى أنه صرف اللفظ الكريم عن ظاهره بلا داع. ولا بلاغة فيه أيضاً، وإن توبع فيه والحرص على موافقة عامل المصدر له ؛ ليكونا من باب واحد غير ضرورى فى العربية، والشواهد كثيرة.

وجوز الرازى أن يكون ﴿يُعَجِّلُ﴾ أصله يستعجل ؛ عدل عنه تنزيها للجناب الأقدس عن وصف طلب العجلة، فوصف بتكوينها، ووصف الناس بطلبها ؛ لأنه الأليق.

ولعل الأليق أن ﴿اسْتِعْجَالَهُم﴾ مصدر لفعل دل عليه ما قبله، والتقدير، ولو يعجل الله للناس الشر الذى يستعجلون به استعجالهم ؛ وإنما حذف إيجازا ، للعلم به. ويوافقه قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: 11] ، فإنه فى معنى ما هنا. [محاسن التأويل :9/3328]

جيش فرعون خلف بنى إسرائيل ، وصار البحر أمام بنى إسرائيل ولا مناص، هنا قال قوم موسى إيماناً بالأسباب: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] لكن موسى عليه السلام قال بملء فيه : ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] . ثقة مطلقة من موسى عليه السلام فى أن الذى أرسله إلى فرعون، سينجيه وكان الوحى من الله إلى موسى أن : ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾[الشعراء:٦٣] إنه سبحانه لم يقل له : التفت خلفك وستهزم عدوك، لا، لقد قال: اضرب بعصاك البحر .

قال له الحق ﴿اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ (١) فماذا حدث؟ إننا نعرف أن

---

(١) قال الفخر الرازى: اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ، بيّن تعالى بعده كيف هداه ونجاه، وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا، فقال : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾ ولا شبهة فى أن المراد فضرب فانفلق ؛ لأنه كالمعلوم من الكلام إذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب ، ومع ذلك يأمره بالضرب ؛ لأنه كالعبث، ولأنه تعالى جعله من معجزاته التى ظهرت بالعصا، ولأن انفلاقه بضربه أعظم فى النعمة عليه وأقوى ؛ لعلمهم أن ذلك إنما حصل لمكان موسى عليه السلام، واختلفوا فى البحر ، روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر مع بنى إسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا ، إلا يوشع بن نون فإنه ضرب دابته وخاض فى البحر حتى عبر، ثم رجع إليهم فأبوا أن يخوضوا ، فقال موسى للبحر: انفرق لى ، فقال ما أمرت بذلك ولا يعبر علىّ العصاة ، فقال موسى : يارب قد أبى البحر أن ينفرق، فقيل له : اضرب بعصاك البحر ، فضربه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم (١) أى كالجبل العظيم ، وصار فيه اثنا عشر طريقاً ، لكل سبط منهم طريق فقال كل سبط : قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه ، فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم إلى بعض على أرض يابسة، وعن عطاء ابن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بنى إسرائيل وبين آل فرعون ، =

---

(١) ذكر هذه الرواية ابن كثير فى تفسيره [٣/ ٣٢٥] وعزاها لابن أبى حاتم ، ومحمد بن إسحاق.

قانون الماء هو الاستطراق والسيولة، لكن هاهى إرادة الحق تجعل كل فرق كالطود العظيم. إن الجبل فيه صلابة والماء فيه رخاوة ، فكيف انتقلت الرخاوة إلى الصلابة ؟ إن الماء مهمته الاستطراق ، لكنها المعجزة التى أرادها الله، وعندما مضى موسى وقومه فى البحر ووصلوا إلى الضفة الأخرى ، أراد موسى أن يطمئن بأسباب البشر ، فأراد أن يضرب البحر حتى يعود البحر كما كان، وبذلك يقطع السبيل عن قوم فرعون، لكن الله سبحانه وتعالى يأمر موسى : ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] أمر من الحق لموسى بأن يترك البحر كما هو؛ لأنه سبحانه يريد أن يغرى

= وكان يقول لبنى إسرائيل : ليلحق آخركم بأولكم ، ويستقبل القبط فيقول : رويدكم، ليلحق آخركم، وروى أن موسى عليه السلام قال عند ذلك : «يا من كان قبل كل شىء والمكون لكل شىء والكائن بعد كل شىء»

فأما قوله ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ فالفرق الجزء المنفرق منه، وقرئ : كل فلق والمعنى واحد، والطود الجبل المتطاول ، أى المرتفع فى السماء ، وهو معجز من وجوه:

أحدها: أن تفرق ذلك الماء معجز.

وثانيها: أن اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضاً ؛ لأنه كان لا يمتنع فى الماء الذى أزيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى ، حتى يصير كأنه لم يكن ، فلما جمع على الطرفين صار مؤكداً لهذا الإعجاز.

وثالثها: أنه إن ثبت ما روى فى الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيّرهم ، فاحتبسوا القدر الذى يتكامل معه عبور بنى إسرائيل، فهو معجز ثالث.

ورابعها: أن جعل الله فى تلك الجدران المائية كوى ؛ ينظر منها بعضهم إلى بعض فهو معجز رابع.

وخامسها: أن أبقى الله تعالى تلك المسالك ، حتى قرب منها آل فرعون ، وطمعوا أن يتخلصوا من البحر ، كما تخلص قوم موسى عليه السلام، فهو معجز خامس. [التفسير الكبير : ١٣٨/٢٤ : ١٣٩]

فرعون وجنده باليابس ، حتى إذا ما ساروا فيه، أعاد الحق استطراق الماء فيغرقون، إنه سبحانه أنقذ وأهلك بالشيء الواحد.

ثم يقول سبحانه: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٦٠ - ٦٢] ، سار فرعون بجنوده وراءهم وقت الشروق صباحا ، وعادة الغارات فى الحروب كانت تتم فى الصباح الباكر ؛ حتى تباغت العدو وهو نائم قبل أن يستعد للقائه، فلما اقترب الجمعان من بعضهما ورأى كل منهما الآخر ، خاف أصحاب موسى وقالوا : ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾؛ لأن البحر أمامهم وجيش فرعون من خلفهم.. فأين المفر؟ ولكن موسى عليه السلام تَعَلَّمَ من قول الله ﴿كَلَّا﴾ أن يقول هو: ﴿كَلَّا﴾. لأنه حينما أرسله ربه إلى فرعون شكا إلى ربه خوفه من أن يكذّبوه ، ويضيق صدره ولا ينطلق لسانه ، وأن لهم عليه ذنباً فيخاف أن يقتلوه ، فقال له ربه : ﴿كَلَّا﴾. أى أن هذا لن يحدث لأن الله معك ، فتعلم موسى من ربه ذلك، فحينما وقف قومه على البحر واقترب فرعون وجنوده منهم وخافوا على أنفسهم وقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ قال موسى لهم: ﴿كَلَّا﴾، أى إنه لن يحدث لكم سوء ولكن كيف يقول موسى ذلك مع أن فرعون يتعقبه وقد يصل إليه ويدركه بين لحظه وأخرى؟ هو لم يقل ذلك من عنده، ولكن قاله برصيد اطمئنانه إلى نصر الله الذى وعد به؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] أى إن الله لن يتركنى وإياكم ، ولكنه سينجينا من القوم الظالمين.

فرعون وقومه حين تبعوا موسى وقومه ساعة فروا من مصر ماذا حدث؟ يقول الحق عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(١) [الشعراء: ٦١] ، كان قول قوم موسى يتفق مع العقل والمنطق،

(١) فى معجم الحضارة المصرية القديمة: الخروج Exodus: من المحتمل أن يكون بعض=

= الإسرائليين قد تركوا فلسطين فى عصر الهكسوس، واستوطنوا حدود الصحراء شرقى الدلتا قرب «بيتوم Pithom». ولا شك أن فرارهم من «أرض جوشن» قد حدث إبان الأسرة التاسعة عشرة ، ويتفق وجود النبى موسى عليه السلام مع أحداث هذه الأسرة. كان بعض الآسيويين يعيشون فى بلاط فرعون ، ويتمتعون بمناصب سامية مثل ابن عازن، حامل كأس مرنبتاح. وإذ تربى النبى موسى تربية مصرية؛ أعدته هذه التربية لدور النبوة الذى قام به فيما بعد، ولسن القوانين بيد أن هذا النفوذ الفرعونى على إسرائيل، لم يكن عظيماً مثل تأثير ملوك تانيس ـ الأسرة الحادية والعشرين ـ على مملكة يهوذا .

لاشك أن اضطهاد اليهود كان جزءاً من حملة الرعامسة ضد الشاسو ـ البدو ـ عندما حاولوا إخضاع جميع السكان القاطنين بين النقب ومصر، وتاريخ هذا الخروج موضع نقاش. فتبعاً للتوراة، كان اليهود يعملون فى مدينة تسمى رمسيس، وتتحدث لوحة حجرية من عصر مرنبتاح ـ ابن رمسيس الثانى ـ عن التنكيل بإسرائيل. فاستنتج من هذا الدليل أن الذى اضطهدهم هو رمسيس الثانى ومرنبتاح، وأن الخروج حدث فى عصر هذا الأخير فى حوالى سنة ١٢٣٠ ق م. غير أن «لوحة إسرائيل» تدل على أن اليهود كانوا قد رجعوا إلى فلسطين فى ذلك الوقت. فإذا وضعنا فى اعتبارنا التاريخ الذى تنص عليه التوراة، ونتائج الحفر عند أريحا، يبدو من المحتمل أن محنتهم تلك حدثت فى عهد سيتى الأول ـ أبى رمسيس الثانى ـ وأنهم تخلصوا منها فى حوالى سنة ١٢٩٠ ق. م.

هناك روايتان متناقضتان، منذ العصور القديمة، عن الطريق الذى سلكه الإسرائيليون، وكلتاهما مندمجتان فى التوارة. وتقول الرواية الأخيرة : إن المعتقد أن الإسرائليين قد خرجوا سيراً على الأقدام عن طريق الحصون المصرية الخطرة، التى كانت تحدد الطريق من بلوزيوم Pelusium إلى الجيزة. أما «البحر» الذى شطره الله لهم، فهو فى تلك الحالة، البحيرات الواقعة شرقى بورسعيد. أما الرواية الأخرى، وهى بلا شك أكثر صحة، فتقول: إن سيدنا موسى سار خلال الأراضى الجرداء فى البرزخ، حتى وصل إلى خليج السويس، وهو البحر الأحمر الحقيقى.

تتضمن رواية التوراة عن فرار الإسرائيليين من مصر ـ التى دوّنها بعد ذلك بمدة طويلة كتبة عبريون ـ أحداثاً أشبه بالمعجزات ، ويتفق مفسرو جميع الديانات فى هذه =

فالبحر أمامهم وفرعون وقومه أصبحوا على مدى الرؤية منهم، فإذا وصل قوم موسى إلى البحر فلن يستطيعوا السير ، وسيدركهم قوم فرعون، ولقد تصور قوم موسى أن البحر خارج عن قدرة الله سبحانه وتعالى ، وأنهم ماداموا قد وصلوا إلى البحر فقد انعدمت سبل النجاة أمامهم، ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يلفتنا إلى أن البحر لم ينفلت عن قدرة الله ؛ لأن لله ما فى السموات وما فى الأرض، والبحر منها، وموسى بشفافية النبوة أدرك هذه الحقيقة ، فقال بثقة المؤمن فى ربه : ﴿كَلا﴾ [الشعراء: ٦٢] ، ماذا كان يعنى موسى بقوله: ﴿كَلا﴾ وفرعون وجنوده على مرمى البصر منهم، والبحر من أمامهم ؟ موسى كان يعلم أن الله لن يتركه ، ولن يترك

= النقطة. أما نحن ـ الذين نعرف عظم التراث الدينى الذى كانت رسالة موسى مقدمته ـ فنميل إلى الاعتقاد بأن فرار الإسرائيليين كان ذا أهمية عظمى لمصر. وعندما أخذت بعثة جمعية استكشاف مصر، فى نهاية القرن الماضى، تحفر وتنقب فى الجزء الشرقى من الدلتا، كانت تأمل فى العثور على بقايا للعبريين، غير أن أملها خاب فى هذه الناحية.

يلقى علم الآثار المصرية مزيداً ومزيداً من الضوء على ماضى نكبة الإسرائيليين. بيد أن الأمل ضعيف جداً فى العثور فى مصر على دليل لاستيطانهم. وذات مرة توهم البعض أنهم وجدوا دليلاً فى النصوص الهيروغليفية. بيد أنه ثبت فيما بعد أنه مجرد أوهام خيالية. وهكذا الحال فيما ظنه البعض ذكراً لموسى فى ورقة بردى أنسطاسى الأولى Anastasi. وما «اللوحة الإسرائيلية» إلا اسم مضلل لوثيقة تتألف من ٢٨ سطراً، منها ٢٥ سطراً تصف انتصار الملك على ليبيا. ولم يأت ذكر فلسطين إلا فى الخاتمة المكونة من ثلاثة سطور، والتى يظهر فيها اسم إسرائيل الشهير بين عدة أسماء أخرى. وفيما يختص بحكومة الرعامسة، لم يكن الخروج سوى هجرة لعمال البدو، الشاسو، ضمن آخرين دفعهم إلى التمرد وحرضهم عليه موظف ثائر. ورغم أن هذه الواقعة محيرة، فهى قليلة الشأن بالنسبة إلى الأزمات الدولية التى جعلت مثل تلك الهجرة ممكنة، وهى التمرد العام فى فلسطين سنة ١٢٩٠ ق م. ، أو غزو مصر على يد جماعات من الليبيين سنة ١٢٣٠ ق. م.

[معجم الحضارة المصرية القديمة : ١٤٨-١٥٠]

المؤمنين معه ، وأنه سيفتح لهم سبل النجاة ؛ لذلك كان وحى الله تعالى إلى موسى: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ ، وغرق فرعون وقومه، وهكذا نجد أن موسى رفع الأمر إلى الله، وبضربة واحدة من العصا ، أوجد الله سبحانه وتعالى لموسى وقومه طريق النجاة فى البحر، فأوجد لهم وسط هذه الأمواج ـ التى فقدت قانون استطراقها ؛ وتوقفت لتفتح طريقاً يابساً ؛ تكون فيه النجاة لموسى وقومه ـ طريقًا ، ولكن هذا الطريق وهذه المعجزة التى كانت سبيلاً لنجاة موسى وقومه كانت هى نفسها الطريق لهلاك فرعون وقومه ؛ فبعد أن عبر موسى وقومه البحر ، جاء قوم فرعون وراءهم ، وأبقى الله سبحانه وتعالى الطريق مفتوحاً ميسراً لهم ليسيروا فيه، وعندما نزل قوم فرعون وأصبحوا فى وسط البحر، أمر الله الماء أن يرجع كما كان، فرجع كما كان، وغرق فرعون وقومه.

يقول تعالى : ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤ ـ ٦٦] ، معنى : ﴿أَزْلَفْنَا﴾ أى قربنا ، فقوم فرعون قربناهم من وسط البحر؛ أى قربنا هناك قوم فرعون إلى وسط الطريق، وأنجى الله موسى ومن معه أجمعين؛ فكسب موسى ومن معه المعركة دون أن يخسروا شيئاً ، ثم أغرق الله فرعون وجنوده فى البحر ، فالله تعالى أنجى وأغرق بالشىء الواحد.

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[1] [الشعراء: ٦٧، ٦٨] ، والمعنى: أن فى هذا الذى حدث

---

(١) قال البقاعى فى تأويل قول الله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾ : أى قربنا بعظمتنا من قوم موسى عليه السلام؛ قال البغوى. قال أبو عبيدة: جمعنا، ومنه ليلة المزدلفة، أى ليلة الجمع.
ولما كان هذا الجمع فى غاية العظمة وعلو الرتبة، أشار إلى ذلك بأداة البعد، فقال: ﴿ثَمَّ﴾ أى هنالك، فإنها ظرف مكان للبعيد ﴿الآخَرِينَ﴾ : أى فرعون وجنوده =

لآية، و«الآية» هى الأمر العجيب الذى يخرج على العادة، ويثير إعجاب

- ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ وهم الذين اتبعوه من قومه وغيرهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أى لم نقدّر على أحد منهم الهلاك.

ولما كان الإغراق بما به الإنجاء- مع كونه أمرا هائلا عجيبا وبعيدا - عبّر بأداة البعد فقال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا﴾ ؛ أى إغراقا هو على حسب عظمتنا. ﴿الْآخَرِينَ﴾ أى فرعون وقومه أجمعين، لم يفلت منهم أحد.

ولما قام عذر موسى عليه السلام فيما استدفعه أول القصة من كيد فرعون ، بما ثبت له من العظمة والمكنة فى كثرة الجند ، وعظيم الطاعة منهم له فى سرعة الاجتماع الدالة على مكنتهم فى أنفسهم، وعظمته فى قلوبهم، رغبة ورهبة، وظهر مجد الله فى تحقيق ما وعد به سبحانه من الحراسة، وزاد ما أقر به العيون، وشرح به الصدور، وكان ذلك أمرا يهز القوى سماعه، ويروع الأسماع تصوره وذكره - قال منبها على ذلك: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أى الأمر العظيم العالى الرتبة من قصة موسى وفرعون وما فيها من العظات ، ﴿لَآيَةً﴾ أى علامة عظيمة على ما قال الرسول موجبة للإيمان به ، من أن الصانع واحد فاعل بالاختيار، قادر على كل شىء، وأنه رسوله حقا ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أى الذين شاهدوها والذين وعظوا بسماعها ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ أى متصفين بالإيمان الثابت، أما القبط فما آمن منهم إلا السحرة، ومؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، والمرأة التى دلتهم على عظام يوسف عليه السلام على ما يقال ، وأما بنو إسرائيل فكان كثير منهم مزلزلا يتعنت كل قليل،ويقول ويفعل ما هو كفر، حتى تداركهم الله تعالى على يدى موسى عليه السلام ومن بعده، وأول ما كان من ذلك سؤالهم إثر مجاوزة البحر أن يجعل لهم إلهًا كالأصنام التى مروا عليها، وأما غيرهم ممن تأخر عنهم فحالهم معروف، وأمرهم مشاهد مكشوف ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ ؛ أى المحسن إليك بإعلاء أمرك، واستنقاذ الناس من ظلام الجهل على يدك ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ ؛ أى القادر على الانتقام من كل فاجر، ﴿الرَّحِيمُ﴾: أى الفاعل فعل البليغ الرحمة، فهو يمهل ويدر النعم، ويحوط من النقم، ولا يهمل، بل يرسل رسلا، وينزل معهم ما يبين به ما يرضيه وما يسخطه، فلا يهلك إلا بعد الإعذار، فلا تستوحش ممن لم يؤمن، ولا يهمنك ذلك.

[نظم الدرر : ١٤/ ٤٤-٤٦]

الناس واندهاشهم، وهذا مثل قولك : فلان آية فى الذكاء أو الخلق، ومع هذه الآية الواضحة المعجزة ما كان أكثرهم مؤمنين، مع أنه كان من المفترض أن يؤمن كل من رأى هذا الأمر العجيب ولكن هذا لم يحدث؛ لأنه حتى الذين تبعوا موسى ، وأنجاهم الله وجاوز بهم البحر وعمل لهم كل هذه المعجزات ، لما مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، طلبوا من نبى الله موسى أن يجعل لهم إلها كآلهة هؤلاء الناس.

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1][الأعراف: ١٣٨] ، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ

---

(١) قال البقاعى فى تأويل قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا﴾ أى قطعنا بما لنا من العظمة، وساقه على طريق المفاعلة تعظيما له، روى أن جوازهم كان يوم عاشوراء، وأن موسى عليه السلام صامه شكرا لله تعالى على إنجائهم وإهلاك عدوهم ﴿بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بعد الآيات التى شاهدوها ﴿الْبَحْرَ﴾ . وإنما جعلته معطوفا على أول القصة ؛ لأن هذه القصص كلها بيان ؛ لأن فى الناس السيئ الجوهر الذى لا يغنيه الآيات ، كما مضى عند قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ [الأعراف: ٥٨]. وبيان لقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]، ويدل على ذلك مع ما ابتدئت به القصص ختمها بقوله: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٦] ، وقوله: ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. وحسن موقعها بعد قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٣٧] ؛ لأنه لما قيل: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ١٣٧] ، تشوفت النفس إلى فعلهم حال الرخاء.. هل شكروا؟ فبين أن كثيرا منهم كفروا؛ تصديقا لقوله ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: ١٠٢] ، وما شاكله، وما أحسن تعقيب ذلك – بقوله: ﴿فَأَتَوْا﴾: أى مروا – بفاء التعقيب ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾: أى ذوى قوة ، قيل: كانوا من لخم: ﴿يَعْكُفُونَ﴾ : أى يدورون ويتحلقون =

أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، أى إن فى ذلك لأمرًا عجيباً يستوجب أن يلتفت إليه النظر، ويقتنع به العقل، على أن مُجرى هذه الآية على يد موسى مُصدِّق

= ملازمين مواظبين: ﴿عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾: أى لا قوة فيها ولا نفع، فهم فى عكوفهم عليها مثل فى الغباوة، وقيل: إنها كانت تماثيل بقر، وكان ذلك أول أمر العجل.

ولما أخبر سبحانه بذلك؛ علم السامع أنهم بين أمرين: إما شكر وإما كفر، فتشوف إلى ما كان منهم، فأجاب سبحانه سؤاله بقوله : ﴿قَالُوا﴾ ؛ أى لم يلبث ذكرهم لما أراهم سبحانه من عظمته وشكرهم لما أفاض عليهم من نعمته إلا ريثما أمنوا من عدوهم ، بمجاوزتهم البحر وإغراقهم فيـــه ؛ حتى طلبوا إلها غيره بقولهم : ﴿يَا مُوسَى﴾ سموه كما ترى باسمه جفاء وغلظ ؛ اعتمادا على ما عمهم من بره وحلمه، غير متأدبين بما بهرهم من جلالة حظه من الله وقسمه : ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾ أى شيئا نراه ونطوف به ، تقيدا بالوهم ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ وهذا منهم قول من لا يعد الإله - الذى فعل معهم هذه الأفاعيل - شيئا، ولا يستحضره بوجه.

ولما كان هذا منهم عظيما، استأنف جواب من تشوف إلى قول موسى عليه السلام ما هو ؟ بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ﴾: أى ذوو قيام فى شهوات النفوس، وقال: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مضارعا ؛ إشعارا بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة، لا ينتقلون عنه فى ماض ولا مستقبل. واعلم أنه لا تكرير فى هذه القصص ، فإن كل سياق منها لأمر لم يسبق مثله، فالمقصود من قصة موسى عليه السلام وفرعون - عليه اللعنة والملام - هذا الاستدلال الوجودى على قوله: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢] ومن هنا تعلم أن سياق قصة بنى إسرائيل بعد الخلاص من عدوهم ؛ لبيان إسراعهم فى الكفر ونقضهم للعهود، واستمر سبحانه فى هذا الاستدلال إلى آخر السورة، وما أنسب ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية ، لقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: ١٠٢] ، وذكر فى أول التى تليها تنازعهم فى الأنفال ؛ تحذيرا لهم من أن يكونوا من الأكثر المذمومين فى هذه، هذا بخلاف المقصود من سياق قصص بنى إسرائيل فى البقرة ؛ فإنه هناك للاستحلاب للإيمان بالتذكير بالنعم ؛ لأن ذلك فى سياق خطابه سبحانه لجميع الناس بقوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] وما شاكله من الاستعطاف =

له ، على أنه مرسل من عنده سبحانه وتعالى ؛ لأن هذه مسألة فوق طاقه البشر.

= بتعداد النعم ودفع النقم . والله أعلم. [نظم الدر : ٨/٦٨- ٧٠]

وقال العلامة ابن كثير: يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ، فأتوا : أى فمروا على قوم يعكفون على أصنام لهم. قال بعض المفسرين : كانوا من الكنعانيين وقيل: كانوا من لخم . قال ابن جرير : كانوا يعبدون أصناماً على صور البقر ؛ فلهذا أثار ذلك شبهة لهم فى عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا : ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أى تجهلون عظمة الله وجلاله ، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل : ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩] أى هالك: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] ، وروى الإمام أبو جعفر بن جرير فى تفسير هذه الآية من حديث محمد بن إسحاق وعقيل ومعمر كلهم عن الزهرى عن سنان بن أبى سنان عن أبى واقد الليثى ؛ أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، قال : وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم ، يُقال لها : ذات أنواط ، قال : فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ، قال : فقلنا : يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط . كما لهم ذات أنواط فقال: قلتم والذى نفسى بيده ، كما قال قوم موسى لموسى : ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) [الأعراف:١٣٨، ١٣٩] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمرعن الزهرى عن سنان ابن أبى سنان الديلى عن أبى واقد الليثى قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلت : يا نبى الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبى ﷺ : « الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم»(٢) . [تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٣٣]

(١) تفسير الطبرى [٩/ ٤٥] .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند [٥/ ٢١٨] ، والنسائى فى الكبرى [١١١٨٥] .

* فرعون لحظة الغرق *

الحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾[1] [يونس: ٩٠] ؛ ولم يقل : اجتاز بنو إسرائيل البحر؛ لأن الاجتياز لم يتم بأسباب بشرية، وإنما تم بقدرة الله سبحانه وتعالى التى هى فوق الأسباب، فلو كان بنو إسرائيل قد حفروا خندقاً ، أو بنوا حائطاً ، أو أعدّوا بعض السفن؛ ليعبروا بها البحر. إذن هم قد اجتازوا البحر بأسباب البشر، ولكن قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا﴾ تدل على أن العملية تمت بقدرة الله ، وليس بأسباب البشر، ولكن الله سبحانه وتعالى أمر موسى أن يضرب البحر بعصاه، وكما نعرف فإن قانون الماء هو السيولة والاستطراق، والله تبارك وتعالى طلب من موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق وتجمد، ونحن نعرف أن الماء يملأ الأماكن المنخفضة قبل أن يصل إلى الأماكن العالية، وهذا هو الذى بنى عليه قانون صهريج[2] الماء، فنملأ الماء فى صهاريج عالية بالمضخات ثم

---

(١) يقول ابن عطية : وروى أن بنى إسرائيل الذين جاوزوا البحر كانوا ستمائة ألف، وكان يعقوب قد استقر أولاً بمصر فى نيف على السبعين ألفاً من ذريته ، فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور، وروى أن فرعون كان فى ثمانمائة ألف أدهم، حاشى ما يناسبها من ألوان الخيل، وروى أقل من هذه الأعداد.

[المحرر الوجيز : ٣/ ١٤٠]

(٢) الصِّهْرِى: لغة فى الصِّهْرِيج، وهو كالحوض، قال الأزهرى: وذلك أنهم يأتون أسفل الشُّعْبَة من الوادى الذى له مأزمان ، فيبنون بينهما بالطين والحجارة ، فيترادُّ الماء فيشربون به زماناً. [لسان العرب: ٤/ ٤٧٣]

نضع المواسير فيصل الماء إلى المساكن؛ ولذلك فعندما تكون هناك عمارة عالية فإن المياه لا تصل إلى الأدوار العليا؛ لأنها تعطى الأدوار المنخفضة أولاً.

موسى عليه السلام بمجرد أن ضرب بعصاه البحر ، تحول الماء من السيولة إلى جبلين بينهما وادٍ، لماذا تمت المعجزة بهذه الكيفية؟ لأنه لو انفلق البحر وأوجد لهم طريقاً يمرون فيه وحوله الماء من الناحيتين ، لخاف بنو إسرائيل أن يعبروا ، وقالوا: ربما أغرقنا الماء ونحن لم نتم العبور، والله سبحانه وتعالى يريدهم أن يطمئنوا ويعبروا بسرعة وبلا تردد، فجعل الماء على الناحيتين يجمد ؛ حتى يطمئنوا إلى أن عبورهم سيتم بسلام.

بعد أن عبر موسى وقومه البحر، أراد أن يضرب البحر بعصاه ؛ فيعود مرة أخرى إلى السيولة ؛ حتى لا يمر جنود فرعون ويلحقوا بهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى طلب منه ألا يفعل ذلك ، وقال له: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] ، أى اترك البحر كما هو، وفيه الممر اليابس الذى مر فيه موسى وقومه ؛ لأنهم سينخدعون وينزلون إلى الممر الموجود فى البحر ليتبعوكم، وبمجرد أن يكون أولهم قد اقترب من الشاطئ الآخر من البحر، وآخرهم فى أول البحر ، فيعيد الله سبحانه وتعالى للماء قانونه فيعود البحر مرة أخرى إلى السيولة ؛ فيغرق كل من هو موجود فى الممر ، فينجو موسى وقومه ، ويغرق فرعون وجنوده بنفس الشىء .

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ [يونس: ٩٠] ، فى هذه الحالة الاتباع لا يتم بفكر بشرى مرتب ، بل يتم بانفعال الشر ؛ لأن فرعون وجنوده حين رأوا موسى وأتباعه قد بعدوا عنهم، كان العقل يقول: لقد خلصنا من موسى وأتباعه ، وذهبوا

بعيداً ، ولكن نوازع الشر فى نفس فرعون، وفى أنه يريد أن يقتل موسى وقومه هى التى جعلته يتبعهم ؛ ذلك أن موسى ومن معه ماداموا قد بعدوا عن فرعون ومن معه ، يكون خطرهم على ملكه قد زال، وانتهت المسألة، هذا إذا كان فرعون يريد ذلك، ولكن فرعون يريد أن يثبت أنه إله، وأنه لا يفلت من قبضتة عدو، وأنه لابد أن يقتل موسى وقومه ليكونوا عبرة؛ حتى لا تقوم دعوة إصلاح بعد ذلك.

الشر داخل فرعون هو الذى دفعه أن يعبر بجيشه البحر، وإحساسه بقوة جيشه وضعف موسى وقومه ، هو الذى جعله يصمّم على أن ينكّل بهم، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ (1) [يونس: ٩٠] ؛ والبغى هو تجاوز الحد، والعدوان هو الإصرار على الباطل. وحينما نقرأ قول الله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠] ، نعرف أن الله سبحانه وتعالى كان قد أعد لفرعون وجيشه هذه النهاية؛ ليكونوا عبرة لكل طاغية يدّعى الألوهية ؛ ذلك لأن فرعون أخذ بأسباب الأرض ، ونسى قدرة الله المسبب. ولو أن البغى والعدوان لم يكن بداخله ، لعرف بمجرد أن رأى معجزة انشقاق البحر، أن إله موسى سينجيه ولن يتركه يهلك ، ولوقف أمام هذه المعجزة ليفيق من كفره، بل إن انشقاق البحر كان معجزة مرئية ، تكفى لكى يؤمن فرعون برسالة موسى؛ لأنه لا يقدر على هذه المعجزة إلا الخالق سبحانه وتعالى، فليس من قدرة البشر، ولا غير البشر، أن يشقوا البحر ويتحول الماء إلى

---

(1) قال البقاعى فى قوله تعالى : ﴿بَغْيًا﴾ أى : تعديا للحق واستهانة بهم ﴿وَعَدْوًا﴾ أى : ظلما وتجاوزًا للحد . [نظم الدرر : ٩/ ١٨٤]

وعن عكرمة رضى الله عنه قال : « العدو والعلو والعتو فى كتاب الله : تجبّر » . [الدر المنثور : ٤/ ٣٨٥]

جبلين بينهما ممر، ولكن غرور فرعون وعداونه لم يجعله يلتفت إلى هذه المعجزة التى وضعها الله أمامه ؛ علّه يفيق، لقد كان مشغولاً بألوهيته وجبروته، وكان الكفر يملأ قلبه ، فلم تؤثر هذه المعجزة الكبرى فيه.

ولذلك يقول الحق جل جلاله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ [يونس:٩٠] . والإدراك: أن يقصد المدرك أن يلحق بالشيء الذى يريد أن يدركه، ويبذل كل جهده فى ذلك ، والغرق هو أن يغطى الماء الإنسان فلا يستطيع أن يتنفس ، فيدخل إلى جسده بدلاً من الهواء، وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ [يونس:٩٠] ، كأن الغرق جندى من جنود الله وله عقل، وقد تلقى الأوامر من الله ؛ ليحيط بفرعون وجيشه ويغرقهم، ماذا قال فرعـــون عندمـا أدركه الغرق ؟ قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] ، الإيمان إذا أطلق يكون دائما إيماناً بالله سبحانه وتعالى؛ ولذلك تقول : آمنت ، فيعرف كل من يستمع إليك أنك آمنت بالله، والدليل على ذلك قول الله فى الآية الكريمة: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] ، لم يقل الحق : آمنا بكذا، إذن فالإيمان إذا أطلق نعرف أنه إيمان بالله [(١)] .

---

(١) آمن إنما يقال على وجهين :

أحدهما : مُتعديا بنفسه يقال آمنته أى جعلت له الأمن ، ومنه قيل لله مؤمن .

والثانى : غير مُتعد ومعناه صار ذا أمن .

والإيمان يُستعمل تارة اسما للشريعة التى جاء بها محمد ﷺ وعلى ذلك : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ﴾ [المائدة: ٦٩] ، ويوصف به كل من دخل فى شريعته، مُقرا بالله وبنبوّته ، قيل وعلى هذا قال تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ، وتارة يُستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق =

والإسلام إذا أطلق يعنى إسلاماً لله سبحانه وتعالى، وهكذا عندما تُطلق كلمة الإيمان تنصرف إلى الإيمان بالله، فإذا أطلقت على غير الإيمان بالله فلابد أن تُعرَّف، فتقول: آمنت أنك رجل كريم، أو رجل وفىّ، أو رجل طيب ، ولكن إذا لم تحدد ، ينصرف إلى الإيمان بالله ، ولكن فرعون لم يقل : آمنت فقط ، بل قال : ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٩٠] ، كل هذا يأتى لتأكيد المعنى؛ لأن فرعون كافر ومدّعٍ للألوهية، ولا يتوقع منه أن يعلن إيمانه بالله ، وخصوصاً أنه دُعِى أكثر من مرة إلى الإيمان، ورأى أكثر من معجزة ولم يؤمن، فلابد هنا من تأكيد المعنى، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿آلآنَ﴾، أى أتقول الآن: إنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وقد كنت تملأ الدنيا كفراً ؟! المردود هنا ليس الإيمان نفسه ، ولكن زمن الإيمان ؛ لأن هناك فرقاً بين إيمان الإجبار وإيمان الاختيار.

فرعون وهو يغرق كان فى إيمان الإجبار ؛ لأنه يواجه الموت ويرى نهايته، وإيمان الإجبار لا ينفع، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (1)[يونس: ٩١] ؛ أى أنك يا فرعون

= على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء : تحقيق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بحسب ذلك بالجوارح ، وعلى هذا قوله : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ ، ويقال لكل واحد من الاعتقاد والقول الصدق والعمل الصالح إيمان ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ ، أى صلاتكم . وجعل الحياء وإماطة الأذى من الإيمان ، قال تعالى : ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ، قيل معناه بمصدق لنا ، إلا أن الإيمان هو التصديق الذى معه أمنٌ .
[معجم ألفاظ القرآن : ٢٢]

(١) يقول السيوطى: عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما خرج آخر أصحاب موسى =

وأنت تواجه الموت تقول : آمنت، بينما كان عندك زمن طويل ؛ لتعلن إيمانك بعد أن أراك الله معجزات كثيرة على يد رسوله موسى، ولكنك

= ودخل آخر أصحاب فرعون، أوحى إلى البحر أن أطبق عليهم، فخرجت أصبع فرعون بلا إله الا الذى آمنت به بنو إسرائيل. قال جبريل عليه السلام: فعرفت أن الرب رحيم وخفت أن تدركه الرحمة فدمسته بجناحى، وقلت: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١]. فلما خرج موسى وأصحابه قال من تخلف فى المدائن من قوم فرعون: ما غرق فرعون ولا أصحابه ولكنهم فى جزائر البحر يتصيدون، فأوحى إلى البحر أن الفظ فرعون عرياناً، فلفظه عرياناً أصلع أخنس قصيراً، فهو قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢] ، لمن قال: إن فرعون لم يغرق، وكانت نجاته عبرة لم تكن نجاة عافية، ثم أوحى إلى البحر أن الفظ ما فيك. فلفظهم على الساحل ، وكان البحر لا يلفظ غريقاً يبقى فى بطنه حتى يأكله السمك، فليس يقبل البحر غريقاً إلى يوم القيامة.

وأخرج أبو الشيخ عن أبى أمامة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «قال لى جبريل: ما أبغضت شيئا من خلق الله ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد، وما أبغضت شيئا أشد بعضًا من فرعون، فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو، فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها فى فيه ، فوجدت الله عليه أشد غضبًا منى، فأمر ميكائيل فانبه وقال: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ . [الدر المنثور : ٤/٣٨٦ ، ٣٨٧]

وعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « لما أغرق الله فرعون قال : ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ ، فقال جبريل : يا محمد لو رأيتنى وأنا آخذ من حال (١) البحر ، وأدسُّه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة » . أخرجه الترمذى [٣١٠٧] ، وقال : حديث حسن . وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٨٣] : صحيح بما بعده . =

---

(١) الحال : التراب اللّيِّن الذى يُقال له السَّهْلَة . والحال : الطين الأسود والحَمْأة .
[لسان العرب : ١١/ ١٩٠]

عصيت وأصررت على الكفر؛ ولذلك فإن الإيمان لا يتقبل إذا بلغت الروح الحلقوم، وعرف الإنسان أنه سيموت يقيناً ؛ لأن هذا إيمان إجبار.

والله سبحانه وتعالى يريد إيمان الاختيار من البشر، ولو كان المطلوب إيمان الإجبار ، لقهر الله سبحانه وتعالى عباده على الإيمان ، وما استطاع واحد أن يكفر بالله ؛ لأن كل ما فى الكون خاضع لأمر الله سبحانه وتعالى (1) ، يستطيع أن يقهرهم على ما يشاء، ولكن الحق جل جلاله

= وعن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ، ذكر أحدهما عن النبى ﷺ : « أنه ذكر أن جبريل ﷺ جعل يدسُّ فى فِىِّ فرعون الطين ، خشية أن يقول لا إله إلا الله فيرحمه الله ، أو خشية أن يرحمه الله » . أخرجه الترمذى [٣١٠٨] ، وقال : حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وقال الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٤٨٤] : صحيح الإسناد .

(1) قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]

وقال ابن كثير : يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم فى الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] ، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١] ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ أى تلزمهم وتلجئهم ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى ليس ذلك عليك ولا إليك ، بل الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر: ٨] ، ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] ، ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣] ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦] ، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]=

يريد بإعطاء الإنسان الاختيار، أن يأتيه عن محبوبية، ولا يتم إيمان المحبوبية إلا إذا كان الإنسان مختارا أن يؤمن أو لا يؤمن، فالذى يأتى عن طريق الاختيار ، تكون له منزلة كبيرة عند الله، إذن فالمردود ليس القول، ولكنه زمن القول، يقول بعض الناس : إن الله ردّ إيمان فرعون ولم يقبله مع أنه قالها ثلاث مرات ؟ نقول : إن إيمان الإجبار لا يقبل ممن له اختيار، وفرعون حينما قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] كان بنو إسرائيل فى ذلك الوقت يجسمون الله سبحانه وتعالى، أنه جالس على صخرة من المرمر وقدماه فى الماء ، وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى حتى ساعة إعلان إيمان فرعون، أن يكون هذا الإعلان باطلاً، الحق يقول: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢]، ونحن نعرف أن الإنسان مكون من بدن وروح، البدن أو الجسد هو الهيكل المادى، والروح هى التى تعطى هذا الهيكل الحياة والحركة، إذن فقوله تعالى: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢] ؛ أى بجسدك مجرّدًا من الروح، وسليمان عليه السلام أُعطى ملكاً لم يُعطَ لأحد ، وعندما فُتِن بما أعطى من الملك ، جعله الله جسدا بلا روح : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ (1) [ص:٣٤] وهكذا نجد سليمان عليه السلام - وهو الذى أُعطى ملكاً لم يُعْطَهُ أحد - جالساً

= إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد ، الهادى من يشاء المضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله . [تفسير ابن كثير : ٢/٤١٤ ، ٤١٥]

(1) قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ .

ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثارا كثيرة عن جماعة من السلف ، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات ، وفى كثير منها نكارة شديدة ، =

على الكرسى جسداً بلا روح ولا حركة، وعندما عاد ورجع إلى صوابه، وعرف أن ملكه ليس من ذاته، ولكنه من نعم الله عليه، أعاد الله سبحانه وتعالى له روحه وملكه.

الحق سبحانه وتعالى يقول لفرعون: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: ٩٢] أى بجسدك المجرد عن الروح، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى البحر يلقى بجسد فرعون قبل أن يصبح جيفة (١) ؛ حتى يراه الذين عبدوه جسداً بلا روح ؛ ليعرفوا أنهم قد عبدوا إلهًا غير قادر على أن يعطى الحياة لنفسه، فكيف يعطى الآخرين الحياة؟! ولو أن فرعون غاص إلى أعماق البحر بعد غرقه، ربما قال أتباعه : إنه قد اختفى وسيعود، ولكن ظهوره كجسد بلا روح يجعلهم يرون نهايته ؛ علّها تكون عبرة لهم حتى لا يعبدوا بشرا بعد ذلك؛ ولذلك يقال: إن سبب حفظ أبدان الفراعنة ؛ أن الله سبحانه وتعالى أعطاهم أسرار تحنيط الجسد البشرى ؛ لكى تكون أجسادهم عبرة لمن يجىء بعدهم، ويرى الناس أولئك الذين ادّعوا الألوهية وهم أجساد لا حركة فيها ولا قدرة، وأراد الله أن يرى قوم فرعون جسد فرعون ، ذلك الطاغية الذى كان يدّعى الألوهية ويقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

= وقد نبهنا على ذلك فى كتابنا التفسير (١) ، واقتصرنا هاهنا على مجرد التلاوة .
ومضمون ما ذكروه، أن سليمان عليه السلام غاب عن سريره أربعين يومًا ثم عاد إليه، ولما عاد أمر ببناء بيت المقدس فبناه بناء محكما .[قصص الأنبياء: ٥٥٩ ، ٥٦٠]

(١) الجيفة : معروفة جثّة الميت . وقيل : جثة الميت إذا انتنت . وقد جافت الجيفة واجتافت والجافت : أنتنت وأروحت . وجمع الجيفة : وهى الجثّة الميتة المنتنة : جِيَف ثم أجياف . [لسان العرب : ٩/٣٧ ، ٣٨]

(١) تفسير ابن كثير [٤/٣٥ ـ ٣٧]

وقوله تعالى: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ [يونس: ٩٢] ؛ أى نجعلك بنجوى ؛ أى: مكان عالٍ ؛ حتى يراك الناس جميعاً وتكون ظاهرا لهم، لا يُخفى جسدَك رمالٌ أو تلٌّ أو أية عوامل طبيعية ، بل تكون عالياً أمامهم ؛ ليروك جميعاً، لماذا؟ لتكون لمن خلفك آية، والآية هى الشىء العجيب الذى يلفتنا إلى طلاقة قدرة الله وعظمتها.

* فانظر كيف كان عاقبة الظالمين *

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] ، أى أن الله تعالى عجل لهم العقاب فى الدنيا قبل الآخرة (١). والأخذ معناه : أن الآخذ عنده قدرة على أخذ المأخوذين جميعاً فى قبضته مرة واحدة ، ويلقيهم أينما شاء، وهذا ليس فى قدرة البشر، وإنما فى قدرة الله وحده. لذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (٢) [هود: ١٠٢] . أما فى أخذ المناهج فيريد منا الله أن نأخذ كل منهج من مناهج الخير بقوة ؛ قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣] .

---

(١) قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ وكانوا ألفى ألف وستمائة ألف .
﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ اى طرحناهم فى البحر المالح . قال قتادة : بحر من وراء مصر يقال له إساف أغرقهم الله فيه .
وقال وهب والسدى : المكان الذى أغرقهم الله فيه بناحية القُلْزُم يقال له بطن مُرَيْرَة، وهو إلى اليوم غضبان . وقال مقاتل ، يعنى نهر النيل . وهذا ضعيف والمشهور الأول . [تفسير القرطبى : ٢٨٩/١٣]

(٢) عن أبى موسى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته » . قال : ثم قرأ : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.
أخرجه البخارى [٤٦٨٦] واللفظ له ، ومسلم [٢٥٨٣] .

فمنهج الخير والنعمة الذى جاءك من عند الله، عليك أن تأخذه بقوة وتلتزم به. واليمّ: هو البحر ، فالله تعالى أخذ فرعون وجنوده ونبذهم فى البحر.

ويلفتنا هنا الحق سبحانه إلى أن نتعظ ونعتبر من هذه الحادثة ، فيقول تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] ؛ لأن هذه العاقبة كانت عجيبة [1]، ولأن الماء والبحر جندان من جنود الله التى تنصر الحق، وتهزم الباطل، ولذلك قلنا: إن موسى عليه السلام لما خرج بقومه واتبعه فرعون بجنوده، فلما وصل موسى وقومه إلى شاطئ البحر، ونظر القوم فرأوا فرعون يكاد يلحق بهم هو وجنوده ؛ ففزعوا وقالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] : أى أننا لا محالة ضائعون ، فردّ موسى بثبات المؤمن قائلاً: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] ؛ أى أن الله سيهدينى وينقذنى ، ولن يتركنى ، فلما ضرب البحر بعصاه انفلق البحر نصفين ، فخرج الماء عن استطراقه وأصبح كالجبل : ﴿كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]. وأصبحت فيه طريق يابسة فسار فيها موسى وقومه.

فالمياه السائلة خرجت عن قانونها، وأصبحت جامدة كالجبل، فلما سار موسى بقومه ووصل إلى الجانب الآخر من البحر، أراد موسى ببشريته أن يضرب البحر بعصاه مرة أخرى ؛ حتى يعود للماء استطراقه ، فلا يعبره فرعون وجنوده ، ويحول الماء بينه وبينهم فلا يلحقوا بهم ؛ فهنا يأمره الله أن يترك البحر كما هو ، مما يدل على أن الله معه يراه ويرقب حركته

---

(١) قال الشوكانى فى قوله تعالى : ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ : الخطاب لنبينا محمد ﷺ ، أى : انظر يا محمد كيف كان آخر أمر الكافرين ، حين صاروا إلى الهلاك؟ [فتح القدير : ٤/١٦٨]

ويرعاه، فالحق سبحانه أمر موسى أن يترك البحر على حاله ؛ حتى يغترّ فرعون وجنوده بالطريق اليبس، فيعبروا وراء موسى حتى إذا دخلوا جميعا وسط البحر ، أمر الله البحر أن يعود إلى طبيعته ، فيغرق فرعون وجنوده، وبذلك يكون الحق سبحانه قد أهلك وأنجى بالشىء الواحد.

ولا يتوقف الأمر عند حد إنجاء الرسول والذين آمنوا معه وإهلاك جند الباطل، ولكن الحق سبحانه أراد أن تكون هذه القصة عبرة لكل طاغية، يحارب الرسل والدعاة إلى الله، ويتعقب المؤمنين ليردّهم عن إيمانهم ، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢] ، وانظر إلى حكمة الخالق سبحانه ، فأم موسى تلقيه فى اليمّ فينجو، وفرعون وجنوده يدخلون فى اليم فيغرقون.

* فرعون يقدم قومه يوم القيامة إلى النار *

يعطينا الله سبحانه وتعالى الصورة المقابلة يوم القيامة؛ أى أن الله أتى بصورة فرعون وقومه فى الدنيا، وصورة فرعون وقومه فى الآخرة؛ فى الدنيا هم يتبعون فرعون بلا فهم ويعبدونه بلا فكر. وما داموا قد اتبعوه فى الأولى فلابد أن يتبعوه فى الآخرة ولابد أن يكون هو قائدهم؛ لذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾(1) [هود: ٩٨] ؛ فكما كان قائدهم فى الدنيا، فهو قائدهم فى الآخرة .

فى الدنيا كان قائدهم ومتقدمهم إلى المتعة والنعيم الدنيوى ، وهم سائرون كلهم وراءه ، لا أحد منهم يحاول أن يسأل نفسه : كيف يكون هذا إلهًا وهو مخلوق؟

القاف والدال والميم كلها تلتقى؛ لأنه قدم الشىء أى صار قديما ، ويقدم الشىء يصير قديما مرت عليه أزمنة فكان له قدوم.

---

(1) قال الشوكانى : عن ابن عباس فى قوله : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يقول : أضلهم فأوردهم النار. وعن قتادة فى الآية قال :فرعون يمضى بين أيدى قومه حتى يهجم بهم على النار . وأخرج عبد الرازق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ قال : الورود الدخول . [فتح القدير : ٢/ ٥٣٦]

وعن ابن عباس قال : الورود فى القرآن أربعة : فى هود : ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ وفى مريم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾ ، وفيها أيضا : ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ ، وفى الأنبياء : ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ ، قال : كل هذا الدخول . [الدر المنثور : ٤/ ٤٧٢]

قوله: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ ﴾ [هود: ٩٨] ، أى يسير أمامهم واتبعوه يوم القيامة، وفى القرآن آيات فى شرح هذا الموقف ؛ منها قول الله جل جلاله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ﴾ [مريم] ؛ يعنى نأخذ منهم القوى والزعيم فيهم، وكلمة ﴿ لَنَنزِعَنَّ ﴾ [مريم: ٦٩] : أى لنأخذنهم قصرا ونزعًا رغمًا عنهم، وترى هؤلاء الذين كانوا يفترون على الله فى الدنيا، وهم فى موقف الذل والهوان فى الآخرة، وفى آية أخرى يقول تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ (٨٥) ﴾ [النمل] ، ومعنى هذه الآية الكريمة : أن الله سبحانه وتعالى سيأتى بالجماعة الذين كانوا يكذبون بآيات الله.

وقوله تعالى: ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ [هود: ٩٨] ، أى أدخلهم النار، الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١] ، ولم يقل جل جلاله: إن منهم إلا واردها ؛ أى أننا جميعاً سنرد على النار، فكأنه تعالى خاطب بهذه الآية المؤمنين والكفار، فكيف يتأتى هذا المعنى؟ الحق سبحانه وتعالى تكلم عن الورود، ما هو الورود؟ قال زهير بن أبى سلمى:

فلما وردنَ الماء زرقاً جمامه وضعنَ عِصِىَّ الحاضر المتخيم(١)

ليصف الركب عندما رأوا الماء أزرق، قالوا: هذه منطقة تصلح للإقامة. «وضعنا العصى» ؛ يعنى وضعوا عصيهم التى يستعينون بها فى الطريق ؛

---

(١) هذا البيت من قصيدة لزهير بن أبى سُلمىَ - إحدى المعلقات : ومعنى وردن الماء : جئنه ، زرقة الماء : صفاؤها ، جمامه : ماؤه . [ديوان الخواطر: ٧٤]

دليلاً على أنهم قرروا الإقامة والراحة، أى أنهم بمجرد أن وردوا الماء أقاموا، إذن فلم يذهبوا للشرب ولم ينزلوا للماء.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾(١) [مريم: ٧١] ، ليس معناها أننا جميعاً داخلوها، وإنما معناها أن كل واحد منا سيرى النار؛ لأن العرب

---

(١) قال الشوكانى : عن ابن مسعود فى قوله : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾ قال: وإن منكم إلا داخلها . وأخرج هناد والطبرانى عنه فى الآية قال :ورودها الصراط.

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذى وابن أبى حاتم والحاكم وصححه والبيهقى وابن الأنبارى وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله :﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾ قال: قال رسول الله ﷺ : «ليرد الناس كلهم النار ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم ، فأولهم كلمح البرق ، ثم كالريح ، ثم كحضر الفرس ، ثم كالراكب فى رحله ، ثم كشدّ الرحل ، ثم كمشيه» (١) وقد روى نحو هذا من حديث ابن مسعود من طرق.

وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾ ، يقول : «مجتاز فيها » .

وأخرج مسلم وغيره عن أم مبشر قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية » ، قالت حفصة : أليس الله يقول : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا﴾ ؟ قالت : ألم تسمعيه يقول : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ (٢) ؟! =

---

(١) أخرجه الترمذى [٣١٥٩] بلفظ : « يرد الناس النار ، ثم يصدرون منها ... » وقال : حديث حسن ، وأحمد فى المسند [١/٤٣٣] مختصرًا ، والحاكم فى المستدرك [٢/٣٧٥] وقال : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى . وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٢٥٢٦] .

(٢) أخرجه مسلم [٢٤٩٦/١٣٦] وابن ماجه [٤٢٨١] بلفظ : عن أم مبشر، عن حفصة ؛ قالت: قال النبى ﷺ « إنى لأرجو ألا يدخل النار أحد ، إن شاء الله تعالى ، ممن شهد بدرًا والحديبية » ، قالت : قلت : يا رسول الله ! أليس قد قال الله : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ؟ قال : « ألم تسمعيه يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ .

حين يقولون : ورد الماء ؛ أى وصل إلى مكانه، ولكنه لم يشرب منه ولم

= وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم » ، ثم قرأ سفيان : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾(1). والأحاديث فى تفسير هذه الآية كثيرة جدًا . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله: ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ قال : قضاء من الله. وأخرج الخطيب فى « تالى التلخيص » عن عكرمة ؛ ﴿حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ، قال : قسمًا واجبًا. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ قال : باقين فيها. [فتح القدير ٣/٣٤٨-٣٤٩]

وقال الشنقيطى : اختلف العلماء فى المراد بورود النار فى هذه الآية الكريمة على أقوال :

الأول : أن المراد بالورود الدخول ، ولكن الله يصرف أذاها عن عباده المتقين عند ذلك الدخول .

الثانى : أن المراد بورود النار المذكور : الجواز على الصراط ؛ لأنه جسر منصوب على متن جهنم .

الثالث : أن الورود المذكور هو الإشراف عليها والقرب منها .

الرابع : أن حظ المؤمنين من ذلك الورود هو حر الحمى فى دار الدنيا ؛ وقد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك : أن من أنواع البيان التى تضمنها الاستدلال على أحد المعانى الداخلة فى معنى الآية ، بكونه هو الغالب فى القرآن، فغلبته فيه دليل استقرائى على عدم خروجه من معنى الآية ، وقد قدمنا أمثلة لذلك . فإذا علمت ذلك فاعلم أن ابن عباس رضى الله عنهما استدل على المراد بورود النار فى الآية بمثل ذلك الدليل ، الذى ذكرنا أنه من أنواع البيان فى هذا الكتاب المبارك .

وإيضاحه : أن ورود النار جاء فى القرآن فى آيات متعددة ، والمراد فى كل واحدة منها : الدخول . فاستدل بذلك ابن عباس على أن الورود فى الآية التى فيها النزاع هو الدخول ؛ لدلالة الآيات الأخرى على ذلك ؛ كقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ =

(1) أخرجه البخارى [١٢٥١] واللفظ له ، ومسلم [٢٦٣٢/ ١٥٠] .

يخضه، إذن فنحن جميعًا سنرى النار ، لماذا؟ لنحمد الله سبحانه وتعالى أن نجانا منها؛ لأن الله جل جلاله يقول: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٧٠] ، قبل أن يقول مباشرة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] ، فكأن هناك من سيصلى النار ومن

= الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] قال : فهذا ورود دخول ، وكقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩] ؛ فهو ورود دخول أيضا ، وكقوله : ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] ، وبهذا استدل ابن عباس على نافع بن الأزرق فى أن الورود الدخول.

واحتج من قال بأن الورود : الإشراف والمقاربة ، بقوله تعالى : ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] الآية . قال : فهذا ورود مقاربة وإشراف . وكذا قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ الآية . ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبى سلمى فى معلقته :

فلما وردن الماء زرقًا جمامه وضعن عصى الحاضر المتخيم

قالوا : والعرب تقول : وردت القافلة البلد ، وإن لم تدخله ، ولكن قربت منه

واحتج مَن قال بأن الورود فى الآية التى نحن بصددها ، ليس نفس الدخول ، بقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢)﴾ [الأنبياء] ، قالوا : إبعادهم عنها ، المذكور فى هذه الآية يدل على عدم دخولهم فيها ؛ فالورود غير الدخول .

واحتج من قال بأن ورود النار فى الآية بالنسبة للمؤمنين ، حر الحمى فى دار الدنيا، بحديث : « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » ، وهو حديث متفق عليه من حديث عائشة وأسماء ابنتى أبى بكر ، وابن عمرو رافع بن خديج رضى الله عنهم. ورواه البخارى أيضًا مرفوعًا عن ابن عباس [1]. [أضواء البيان : ٤/٣٧٦-٣٧٧]

---

(١) أخرجه البخارى [٣٢٦٣] ، ومسلم [٢٢١٠] .

سيمر فوق الصراط فيرى النار ولكنها لا تمسه.

واقرأ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦] ، إذن فمرة يطلق الورد على الشرب من الماء، ومرة يطلق الورد على نفس الواردين، والورد للماء ساعة يرى الإنسان الماء ويريد أن يرده ، وذلك من فرحته بالماء ، وهو يريد أن يشرب، لأن عنده ظمأ يريد أن يرويه، وجهنم حرارتها عالية جدا ولذلك فالإنسان يملؤه الظمأ عندما يرى الماء يحسبه خيرا ، وعندما يشربه يجد فيه حرارة كبيرة لا ترويه بل تزيده ظمأ. وقوله تعالى : ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ﴾ [هود: ٩٨] ؛ فيها تهكُّم عليهم؛ لأنهم حين يذهبون إلى النار تأتيهم حرارة شديدة ، فيريدون أن يذهبوا إلى الماء.

الله تعالى قال: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] ؛ فعندما يسمع الإنسان كلمة «ورد» يأتي في باله ما يذهب الظمأ ويرد الحرارة، ويستبشر أنه سيشرب الماء، وبعد ذلك يذهب إلى هناك فلا يجد إلا ماء مغليا يشوى الوجوه، إنها طريقة للتعذيب تماماً، وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ نقول: إن السجين حين يكون ظمآن ويطلب من حارسه كوب ماء، يأتي الحارس بالماء، ويعتقد السجين أنه سيشرب ويرتوى، فإذا وصل الحارس عنده ألقى الماء على الأرض ، فأصبحت الحسرة عند السجين حسرتين . قوم فرعون حين يسمعون كلمة «ورد» يعتقدون أن فيه نجاة، ثم بعد ذلك يعرفون أنه ورد في النار، وأنه عذاب ، وليس رحمة.

والحق سبحانه وتعالى في آية أخرى يقول جل جلاله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]، ساعة يسمع ليس لهم طعام، أى منع عنهم الطعام يحسون بالخزى ، فإذا قال: ﴿إلا﴾ ، فكأنه سيعطيهم بعض الطعام فيفرحون، فإذا قال: ﴿إلا مِن ضَرِيعٍ﴾ ،

تكون الحسرة حسرتين ، وهكذا ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ، الحق تعالى يقول: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ [هود: ٩٩] ، ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ أى أن اللعنة بقيت لهم ؛ لأنها تلعنهم حتى الآن: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1] [هود: ٩٩] ؛ أى هم ملعونون فى الدنيا، فإذا جاء يوم القيامة جاءتهم اللعنة الكبرى، وقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨] و﴿الرِّفْدُ﴾ هو العطاء ولكن هل سيعطيهم الله يوم القيامة؟ نقول : إن هذا تهكم أيضاً مثل: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].

---

(١) قال القرطبى: وقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ ، أى فى الدنيا : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى ولعنة يوم القيامة؛ وقد تقدم هـذا المعنى. ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ حكى الكسائى وأبو عبيدة : رفدته أرفده رفدًا ؛ أى أعنته وأعطيته . واسم العطية الرفد ؛ أى بئس العطاء والإعانة . والرفد أيضا : القدح الضخم ؛ قاله الجوهرى ، والتقدير : بئس الرفد رفد المرفود . وذكر الماوردى : أن الرَّفد بفتح الراء : القدح ، والرفد بكسرها : ما فى القدح من الشراب ؛ حكى ذلك عن الأصمعى ؛ فكأنه ذمّ بذلك ما يسقونه فى النار . وقيل : إن الرفد الزيادة ؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الغرق النارُ ؛ قاله الكلبى . [تفسير القرطبى : ٩/ ٩٤]

* هل فرعون موسى .. هو رمسيس ؟ *

بعض الناس يقولون : إن فرعون موسى هو «رمسيس » وبعضهم يقول إنه «تحتمس» [1] ، وإنهم حللوا جسده فوجدوا فيه مياها مالحة ، نقول: إن كلمة فرعون ذُكرت فى القرآن الكريم كوصف - وليس اسم - لكل من يدعى الألوهية،

---

(١) Ramses رمسيس: (رع - مس - سو) هو اسم لعدد من الملوك عرفوا باسم الرعامسة فى الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين فى النصف الثانى من الدولة الحديثة.

رمسيس الأول Ramses I: (١٣١٤-١٣١٢ ق.م) : هو أحد القواد الذين محوا الحكم الدينى الذى أنشأه أخناتون . تبوأ العرش وهو شيخ هرم ، وترك مقاليد الأمور لابنه سيتى ، الذى صار سيتى الأول .

رمسيس الثانى Ramses II : (١٣٠١-١٢٣٥ ق.م) : هو ابن سيتى الأول . كان كل شىء فى عهده على نطاق واسع . استمر فى الحكم مدة ٦٧ عامًا وتزوج بخمس أو ست زوجات عُظْميَات وكان أبًا لأكثر من مائة « ولد ملكى » . وأقام عددًا كبيرًا من التماثيل الضخمة ، وشيد كثيرًا من المدن الكبيرة فى جميع أنحاء مصر، وخلّدَ ذكرى انتصاره فى قادش ، فى نص طويل ، بل هو من أطول النصوص فى الأدب المصرى . وعندما مات كان عمره أكثر من مائة عام .

تحملُ آثار تانيس وجميع أنحاء الدلتا تقريبًا ، ومنف وكثير من أماكن مصر الوسطى، وأبيدوس وطيبة (الكرنك والراميسيوم) ، وستة معابد صخرية فى النوبة ، اسم رمسيس « الذى اصطفاه رع » مكتوبًا ومنقوشًا على نحو متكرر فى دأب بالغ وتباه بسلطانه الملكى .

رمسيس الثالث Ramses III : (١١٩٨-١١٦٦ ق.م) : رغم أنه كانت تفصل بينه وبين رمسيس الثانى عدة سنوات ، فقد حاكاه فى كثير من الأشياء وخصوصاً =

= في تصميم معبده بمدينة هابو . كما أنه حارب دفاعًا عن الإمبراطورية التى كانت مهددة أكثر من ذى قبل . ونجت المملكة فى عصره من غزوين قام بهما الليبيون ، ومن هجوم شنته « شعوب البحر » التى جاءت من منطقة بحر إيجة ؛ لتعيث فسادًا فى الشرق كله . غير أنه اغتيل بمؤامرة من الحريم .

أما بقية ملوك الأسرة العشرين ، من رمسيس الرابع إلى الحادى عشر ، فكان حكمهم خاملاً يرثى له (من سنة ١١٦٦ - ١٠٨٥ ق.م) ، وقد شهدوا انحلال مصر الذى اتسم بفضائح إدارية وشقاقات داخلية ، والسيادة الحربية على ممتلكات آمون، وتسريح الجنود الليبيين ، ونهب مقابر طيبة ، وبلغت الفوضى إلى حد الاعتداء على المومياوات الملكية أنفسها ، وارتفاع أسعار وسائل المعيشة . وأخيرًا تخلّت أسرة الرعامسة عن الحكم إلى « الملوك الكهنة » .

رمسيس (مدينة) Ramses: ذُكر فى سفر الخروج أن الإسرائيليين أُجبروا على صنع آجر لمدن التخزين الخاصة بيثوم Pithom ورمسيس .

يعترف معظم علماء الآثار المصرية بأن هذه الأخيرة هى « پر - رمسيس » ، أى: «بيت رمسيس ، العظيم بالانتصارات » ، المذكورة فى كثير من النصوص التاريخية والتى مدحها كثير من الكتاب المعاصرين . بيد أن موقع هذه المدينة العظيمة ، التى بناها رمسيس فى شرق الدلتا ، كان مثار مجادلات لا حد لها . وعلى العموم ، يُنسب شرف التسمية « پر رمسيس » إلى مدينة واحدة أو مدينتين . ويقول پيير مونتيه: إن تلك المدينة هى تانيس . أما محمود حمزة ، وقداسة الأب كوروايبه Couroyer ولبيب حبشى ، فيقولون إنها « قنطير » . والأدلة والحجج متعادلة عند كل من الطرفين .

ولن يبطل الجدل طالما كانت المسافة بين هذين الموقعين ، وقدرها ١٢ ميلاً ، لم تُحفر بعد. ومع ذلك ، فيجب ألا يغيب عن بالنا أن رمسيس الثانى بنى كثيرًا من المدن التى تحمل اسمه ، حتى صار من العسير علينا القطع بأن المدينة المذكورة فى التوراة هى « پر رمسيس » عاصمته الشهيرة .

[معجم الحضارة المصرية القديمة : ١٧٣-١٧٤] .

أما تحوتمس Thutmosis: هو اسم لأربعة ملوك فى الأسرة الثامنة عشرة . =

ويتجبر ويطغى فى الأرض ، وملوك مصر القديمة كانوا كلهم فراعنة ويدّعون الألوهية .

عندما ذكر سبحانه وتعالى فرعون، أطلق اللفظ على كل الفراعنة الذين حكموا مصر، ولكن فى قصة يوسف لم يقل الله سبحانه وتعالى فرعون،

= **تحوتمس الأول Thutmosis I**: (من سنة ١٥٣٠-١٥٢٠ ق.م.) ، هو ابن أمنحوتب الأول ، وهو أول الملوك الفاتحين العظماء فى الدولة الحديثة . أمتد نجاحه العسكرى من جنوب الشلال الرابع إلى ما بعد نهر الفرات . وهو أول من بنى لنفسه مقبرة فى وادى الملوك . ومع ذلك فلا يوجد سوى القليل من المعلومات عن حكمه، وعن حكم ابنه **تحوتمس الثانى** (١٥٢٠-١٥٠٤ ق.م.) الذى كان محاربًا كوالده ، وأول زوج لحتشبسوت .

تحوتمس الثالث Thutmosis III : (١٥٠٤-١٤٥٠ ق.م.) ابن تحوتمس الثانى، ووالد أمنحوتب الثانى ، وهو بطل الأسرة . بدأ حكمه بداية تعيسة ؛ لأنه لم يكن سوى الزوج التابه للملكة حتشبسوت . غير أنه لما ملك حريته بموت زوجته التى كانت زوجة أبيه ، أثبت أنه فاتح عظيم ومشيد معابد . فقد هزم عصبة من الأمراء السوريين فى مجد وبغير قتال تقريبًا ، وطوال العشرين سنة التالية ، قضى على مقاومة الممالك العظمى والصغرى فى فلسطين وسوريا فى حملات سنوية ، وأوقف زحف الميتانى ، تلك الدولة العراقية الشمالية التى زحفت حتى نهر الفرات ، وثبّت أقدام المصريين فيما بين الشلال الأول والرابع للنيل .

تحوتمس الرابع Thutmosis IV : (١٤٢٥-١٤٠٨ ق.م.) ، ابن أمنحوتب الثانى، ووالد أمنحوتب الثالث ، وظل يتمتع بالإمبراطورية التى كونها جده ، دون الحاجة إلى قتال كثير . وقد اشتهر بسبب حلم جاءه وهو شاب . فبينما كان فى رحلة للصيد ، استراح عند قدمى أبى الهول بالجيزة فسمع أبا الهول يقول له ، إنه ليحزنه أن يرى نفسه مغطى بالرمال . فلما تبوأ تحوتمس عرش مصر ، أمر بإزالة الرمال من على أبى الهول ، وسجل هـذه القصة على اللوحة التى لا تزال موجودة بين قدمى ذلك الإله . [معجم الحضارة المصرية القديمة : ٩٦:٩٧] .

وإنما قال: الملك، والعزيز، الذى هو مساوٍ لرئيس الوزراء.

إذن ففى أيام يوسف قال : الملك، والعزيز، وفى أيام موسى قال : فرعون. ما العلة فى هذا التغيير؟

نقول : إنه فى أيام الحملة الفرنسية حينما استطاع العلماء فك طلاسم لغة قدماء المصريين، وهذا أعطانا معلومات كثيرة جدا عن مصر القديمة، وعرفنا أشياء كنا نجهلها، من هذه المعلومات عرفنا أن مصر فى عهد يوسف لم تكن تحت حكم الفراعنة، وإنما كانت تحت حكم الرعاة أو الهكسوس، الذين أغاروا عليها وقتلوا الفراعنة ، وحكموا مصر حكما مَلَكيا بملك ورئيس للوزراء.

الله سبحانه وتعالى قال فى قصة يوسف: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤] ولم يقل: وقال فرعون، ووقت نزول القرآن كان العالم كله يجهل تاريخ الفراعنة، ولكن لأن الله سبحانه وتعالى هو القائل ، وهو العليم ، قص علينا فى القرآن القصص الحق عن عهد يوسف، وعهد موسى ، وهذه آية من آيات الله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢](١).

---

(١) راجع تفصيل ذلك فى قصة نبى الله يوسف عليه السلام فى المجلد الثانى من هذا الكتاب .

* لماذا بقيت آثار حضارة فرعون؟ *

الله تعالى يقول : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾(1) [الأعراف: ١٣٧] وقوله: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وبالزرع وبالثمار وبالحيوان ، وكل مقومات الحياة ، على أن الحق سبحانه وتعالى يقول:﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الاعراف: ١٣٧] ومعنى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أنها تحققت لهم، واكتملت لهم النعمة كما وعدهم الله سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] كأنما قد تم استخلافهم فى الأرض ليس بقوتهم الذاتية، فهم إذا قيسوا بقوة فرعون وجنوده ، كانوا هم الأضعف والأقل عدداً وعدة، ولكن الله استخلفهم بقدرته وقوته وحده ، دون أن يفعلوا شيئا ؛ فهم لم يدخلوا فى معركة مع فرعون وجنوده ، ولم يقاتلوا ولم يفعلوا من أسباب الدنيا ما يعطيهم أن يكونوا هم الخلفاء لفرعون وجنوده فى أرض مصر ، ولكن الله هو الذى أعطاهم بلا أسباب ، ويبقى بعد ذلك قوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] .

---

(١) ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ﴾ بالاستعباد وذبح الأبناء ، والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده ، والمراد بهم بنو إسرائيل ، وذكروا بهذا العنوان إظهارا لكمال اللطف بهم ، وعظم الإحسان إليهم ، حيث رفعوا من حضيض المذلة إلى أوج العزة ، ولعل فيه إشارة إلى إن الله سبحانه عند القلوب المنكسرة . [تفسير الألوسى : ٩/ ٣٧]

على أننا نلاحظ أن استخدام ﴿مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ فى هذه الآية الكريمة إنما هو استخدام للنسبيات ؛ ذلك أنه لا يوجد مشرق مطلق ولا مغرب مطلق، ولكن المشرق بالنسبة لنا هو المكان الذى تشرق منه الشمس ، فإذا انتقلنا إلى بلد آخر تغير المشرق والمغرب، فنحن مثلاً فى مصر بالنسبة لمن يعيشون فى الهند واليابان ، نحن بالنسبة لهم مغرب، والذين يعيشون فى أوروبا نحن بالنسبة لهم مشرق، وكلمة مشارق ومغارب تدل على أن لكل مكان مشرقاً ومغرباً، فإذا غربت الشمس فى مكان ، فهى فى نفس اللحظة تشرق فى مكان آخر. ونحن نتناول إفطارنا فى رمضان مثلاً عند الغروب فى القاهرة ، والذى يعيش فى الإسكندرية لا يفطر معنا ؛ لأن الشمس لم تكن قد غربت عنده، والذى يعيش فى أوروبا يفطر بعدنا بعدة ساعات، والذى يعيش مثلاً فى اليابان أو فى أمريكا ربما يتناول سحوره فى الوقت الذى نفطر نحن فيه، والحق سبحانه وتعالى قد جعل ذلك النظام لحكمة وهو أن يبقى ذكر الله بكل مطلوبات الله فى كل أوقات الله، فنحن حين نصلى الفجر فى القاهرة مثلاً ، بعدها بدقائق يصلونه فى طنطا ، وبعدها بدقائق يصلونه فى الإسكندرية، وبعدها بدقائق يصليه أناس فى اليونان أو تركيا، وبعد دقائق يصليه مسلمو إيطاليا ويوغوسلافيا. . وهكذا تبقى الصلاة ممتدة فى الأرض طوال الأربع والعشرين ساعة من الليل والنهار.

فإذا تتبعنا الصلوات الخمس ، وجدنا أننا ونحن نصلى الفجر هناك من يصلون فى دول أخرى صلاة الظهر فى الوقت نفسه، وهناك من يصلون صلاة العصر، ومن يصلون صلاة المغرب، ومن يصلون صلاة العشاء، فكأن الصلوات الخمس كلها قائمة فى اللحظة نفسها على الأرض، وهناك فى كل لحظة من الليل والنهار من يؤذن للفجر، وفى الوقت نفسه للظهر،

وفى الوقت نفسه للعصر، وفى الوقت نفسه للمغرب، وفى نفس الوقت للعشاء ، وهكذا يظل اسم الله تعالى مذكوراً على كل لسان، فى كل مكان، فى كل الأوقات ، وإذا حسبنا الزمن بجزء من الثانية ، نجد أنه فى كل جزء من الثانية لا يخلو كون الله ممن يقول :الله أكبر ، لا إله إلا الله.

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ والكلمة الحسنى التى تمت هى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦] هذه هى الكلمة التى وصفها الله بأنها الحسنى ؛ لأن الله أعطاهم نعمة الأمان، وأعطاهم الأرض ، وأهلك عدوهم كل ذلك بإحسان منه وليس لهم فضل فيه، أما قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى بصبرهم على إيذاء آل فرعون الذين كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم.

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] والتدمير هو أن تدك الشئ وتخربه .

وما كان يصنع فرعون وقومه هو تلك المعابد والآثار التى تدل على عظمة الحضارة، ونحن فى كل يوم نكتشف تحت الأرض آثاراً كثيرة ، ولكننا لا نكتشف شيئاً فوق الأرض؛ ولذلك يكون قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ معناها : أن هذه الآثار كانت عالية وهذه «الحضارة»[1] كانت ظاهرة فوق الأرض ، فأهلكها الله وأصبحت أثراً بعد

---

(١) حضارة : Civilisation (F.) Civilization (E) .

(أ) الحضارة ضد البداوة ، وتقابل الهمجية والوحشية ، وهى مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى . =

عين ، لم يبق منها شئ فوق الأرض أى أنها زالت من فوق سطح الأرض، ولكن الحق سبحانه وتعالى بالنسبة لآل فرعون ـ بالذات ـ قد هدى الناس إلى مكان آثارهم وحضارتهم، فأزالوا عنها التراب وأخرجوها ولم يحدث هذا بالنسبة لحضارات الشعوب الأخرى مثل: عاد، وثمود، وغيرهما، وربما كانت لهؤلاء الشعوب آثار وحضارات تفوق حضارة آل فرعون ، ولكن الله سبحانه وتعالى أبقاها مطمورة فى باطن الأرض لا يعرف أحد عنها شيئاً (١) .

= (ب) جملة مظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى التى تنتقل من جيل إلى جيل فى مجتمع أو مجتمعات متشابهة ، وهناك حضارات قديمة وأخرى حديثة ، شرقية وأخرى غربية، والحضارات متفاوتة فيما بينها . ولكل حضارة نطاقها وطبقاتها ولغاتها . [المعجم الفلسفى : ٧٣]

(١) قال فخر الدين الرازى: اعلم أن موسى عليه السلام كان قد ذكر لبنى إسرائيل قوله ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهنا لما بيّن تعالى إهلاك القوم بالغرق على وجه العقوبة ، بين ما فعله بالمؤمنين من الخيرات ، وهو أنه تعالى أورثهم أرضهم وديارهم فقال : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ والمراد من ذلك الاستضعاف أنه كان يقتل أبناءهم ، ويستحيى نساءهم ويأخذ منهم الجزية ، ويستعملهم فى الأعمال الشاقة، واختلفوا فى معنى مشارق الأرض ومغاربها ، فبعضهم حمله على مشارق أرض الشام ، ومصر ومغاربها؛ لأنها هى التى كانت تحت تصرف فرعون ـ لعنه الله ـ وأيضاً قوله : ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ المراد باركنا فيها بالخصب وسعة الأرزاق ، وذلك لا يليق إلا بأرض الشام.

والقول الثانى: المراد جملة الأرض ؛ وذلك لأنه خرج من جملة بنى إسرائيل داود وسليمان قد ملك الأرض، وهذا يدل على أن الأرض ههنا اسم الجنس . وقوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] ، قيل المراد من =

ولكن الحق سبحانه وتعالى قد وضع حب رؤية هذه الآثار فى قلوب البشرية كلها، فترى هناك من يأتى من آخر بلاد الدنيا ويقطع المسافات الطوال ليشاهد هذه الآثار.

أقول : إن لذلك حكمة ، فالله يريد منا جميعاً أن نأتى لنشهد آثار ذلك الذى ادّعى الألوهية وقد خلت من كل شئ إلا من قصة نحكيها لنعرف أنه لا إله إلا الله .

ولو أن فرعون كان إلها حقيقياً لبقيت دولته إلى اليوم وما زالت

= ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قوله : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ والحسنى تأنيث الأحسن صفة للكلمة، ومعنى تمت على بنى إسرائيل : مضت عليهم واستمرت، من قولهم تم عليك الأمر إذا مضى عليك. وقيل: معنى تمام الكلمة الحسنى إنجار الوعد الذى تقدم بإهلاك عدوهم ، واستخلافهم فى الأرض، وإنما كان الإنجار تماماً للكلام ؛ لأن الوعد بالشيء يبقى كالشيء المعلق، فإذا حصل الموعود به فقد تم لك الوعد وكمل ، وقوله : ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ أى إنما حصل ذلك التمام بسبب صبرهم، وحسبك به حاثاً على الصبر، ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر ضمن الله له الفرج، وقرأ عاصم فى رواية : « وتمت كلمات ربك الحسنى» ونظيره : ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨] وقوله : ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ قال الليث: الدمار الهلاك التام. يقال: دمر القوم يدمرون دماراً أى هلكوا، وقوله : ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ قال ابن عباس يريد الصانع. ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ قال الزجاج: يقال عرش يعرش ويعرش إذا بنى، قيل : وما كانوا يعرشون من الجنات ، ومنه قوله تعالى : ﴿جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١] وقيل: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ يرفعون من الأبنية المشيدة فى السماء، كصرح هامان وفرعون. وقرئ «يعرشون» بالكسر والضم، وذكر اليزيدى أن الكسر أفصح، قال صاحب الكشاف: وبلغنى أنه قرأ بعض الناس «يغرسون» من غرس الأشجار ، وما أحسبه إلا تصحيفاً منه.

[التفسير الكبير: ١٤/ ٢٢١: ٢٢٢]

وانتهت. ولكن هذا الزوال وهذه الآثار تنطق بأن لا إله إلا الله، وهكذا نرى ونحن نشاهد مدينة: «طيبة» (١) .

(١) طيبة Thebes: تحتوى طيبة القديمة، الواقعة فى مصر العليا على معظم تلك المجموعة الخيالية من الخرائب، التى يمكن رؤيتها على ضفاف النيل. وهذه المدينة هى اليوم أضخم مركز سياحى فى تلك الدولة: فبها على الضفة اليمنى معبدان مركبان، وإلى الجنوب تقع مدينة الأقصر الحديثة، بفنادقها ومحطتها وأهلها الصاخبين ، يقع معبد الدولة الحديثة فى هذا الموضع الحديث، وأبهاء أعمدته وفناؤه الذى لا يزال الحفر يجدّ فى الكشف عنه، ومسجد «أبو الحجاج» الجميل الموقر، والمدينة الرومانية. وعلى مسافة ثلاثة كيلو مترات شمالاً، تقع الكرنك بمبانيها العديدة، والقرى الصغيرة المحيطة بها، ونخيلها، وعرباتها التى تجرها الخيول. وعلى الضفة اليسرى تقع المعابد الجنائزية الملكية العظمى، ومدينة «هابو» إلى الجنوب، والراميسيوم فى الوسط، والدير البحرى، والقرنة إلى مسافة بعيدة جهة الشمال ؛ وعلى حدود الصحراء يوجد تمثالا ممنون الكبيران، وهما كل ما تبقى من معبد أمنحوتب الثالث. وعند سفح الجبل، تحت ظل قمة طيبة، تقع المقابر الخاصة، وهى: دير المدينة، وعرنة مرعى، والعساسيف، والشيخ عبد القرنة [قبور منا ونخت ورع موسى ورخميرع]. وأخيراً. يقع وادى الملكات فى بطن الأودية، ثم وادى الملوك على مسافة بعيدة غرباً. كل هذه الخرائب ومعابد الآلهة والملوك والمقابر، بقايا إحدى مدن العواصم العظمى فى العصور القديمة. . إنها طيبة هوميروس ذات المائة باب. ولا يعرف عن بداياتها المبكرة غير القليل، بيد أنه لا شك فى أن عصر مجدها قد بدأ فى عصر الدولة الوسطى. حلت طيبة محل منف، منذ الألف سنة الثانية، ولا سيما بعد طرد الهكسوس من مصر، بأن صارت المركز السياسى والدينى العظيم، ثم سرعان ما غدت عاصمة الإمبراطورية. فكان فيها عرش آمون «ملك الآلهة»، وبنى فيها الملوك قصورهم، ودفنوا فيها فى مقر راحتهم الأبدية.

ونتج عن قوة آمون العاتية، والغزو الأشورى وما جلبه من دمار، أضرار فادحة لطيبة فتدهورت تلك المدينة العظيمة بعد عام ٦٦٤ ق. م، فلم تقم لها بعد ذلك قائمة. ولكن رغم أن العاصمة السياسية قد انتقلت منذ ذلك الحين إلى مدينة فى الدلتا، ورغم زوال شهرة آمون وانتقالها إلى آلهة آخرين، فقد بقيت طيبة المخربة أضخم العواصم المعبرة عن مجد الماضى العظيم. ولا تزال المكان الذى يظهر فيه النبوغ =

أو «وادى الملوك»[(١)]، أن الله سبحانه وتعالى قد دمر حضارة الفراعنة

= المعمارى المصرى نتائجه الناجحة الخالدة. كما أن بها أحدث وأجمل مناظر القبور. ومازال السياح، منذ ألفى سنة، يذهبون إليها، وليس هناك أى أمل فى أن تخلف أية مدينة مصرية طيبة أو تبذها فى شهرتها العظيمة.

[معجم الحضارة المصرية القديمة :٢٢١-٢٢٢]

(١) وادى الملوك Valley of the Kings : إلى الشمال من قمة الجبل الغربى لمدينة طيبة، يبدأ واديان «يلتقيان بعد ذلك بمسافة طويلة» ممتدان فى حوضين شديدى الانحدار، ثم يتعرجان فى طريقهما خلال الهضبة المكونة من الحجر الجيرى. هناك قلب الجبانة، الذى أطلق عليه صواباً اسم «مكان الحقيقة»، وبسبب انحدار صخورهما التى لفحتها الشمس بحرارتها، ومنحدراتهما الصخرية، يمكن اعتبارهما رمزاً للفكرة المصرية عن التناسق العالمى، الذى يتذبذب دون أن يتحرك. وإذ يغمر الضوء الصخر الجيرى، يبدو وردى اللون، ويبهر عيون كل من يتسلق ذلك الممر السحيق، الذى كان يطرقه العمال الذين بنوا المقابر الملكية، والذين أتوا من دير المدينة، فقد أمرت ثلاث أسر من الفراعنة، بأن تنحت قبورها فى الصخر أسفل القمة المكونة لهرم طبيعى، كما سمحوا لبعض أقاربهم بمحاكاتهم فى ذلك. ثم اختار أمنحوتب الثالث وآى، مواضع فى الوادى الغربى، المسمى الآن «وادى القرود». والوادى الغربى هو وادى الملوك الحقيقى ، يسمى بالعربية «بيبان الملوك»، حيث دفن غيرهما من فراعنة الدولة الحديثة، من تحوتمس الأول إلى رمسيس الحادى عشر.
نعرف هناك واحداً وستين قبراً، وهذه أكثر عدداً من قبور طيبة نفسها، وتشير إلى الزائرين الرومان. وقد أمكن العثور بسهولة على القبور المقفلة بالأحجار؛ بينما كان هناك غيرها تحت أكوام ضخمة من الصخور فلم يمكن الوصول إليها إلا بمشقة وجهد بالغين «بواسطة بلزونى فى سنة ١٨١٨، ولوريه فى سنة ١٨٩٨، والأستاذ الأمريكى تيودور دافيز فى سنة ١٩٠٣ - ١٩١٣، وكارنارفون وكارتر فى سنة ١٩١٣ - ١٩٢٣» وقد وضع هؤلاء الملوك الأموات فى توابيت واحداً داخل الآخر، ثم وضعت هذه التوابيت داخل توابيت ضخمة من الحجر الصلب، وغطيت بأقنعة وصديريات وتمائم مصنوعة من الذهب السحرى.
دفن مع كل أمير ما يحتاجه فى حياته اليومية، ويشمل الأسلحة والعربات والأوانى والثياب الموشاة والصناديق وغيرها من الأثاث. فقد كانت معدات الميت الممجد كثيرة دائماً - الأوانى الكانوبية والتماثيل المجيبة والمصنوعة من شتى المواد، وتماثيل الآلهة =

= التى يجب أن يضاف إليها المقاصير المتنقلة، والتماثيل الخشبية المطلية بالأسود، التى استعملت فى الطقوس الجنائزية. كان كل شىء مع الملك ثميناً ولائقاً له. وإن حجرات قبر توت عنخ آمون الثلاث، التى بقيت محفوظة بمعجزة فلم تعبث بها يد اللصوص، هى التى أظهرت لنا كل هذه الأشياء. وإذا كانت كل هذه الكنوز العظيمة قد وجدت بمقبرة توت عنخ آمون، وليس هو من الفراعنة العظيمى القوة، فما بالك بالكنوز التى دفنت مع رمسيس الثانى أو أمنحوتب الثالث! لابد أنها كانت بالغة الروعة يضطرب لوصفها الخيال.

لما كانت تحرس وادى الملوك قلاع صغيرة، فلابد أنه كان ممنوعاً على عامة الشعب. ولقد أعدت القبور الملكية «ولا أحد يرى، ولا أحد يسمع». وأقفلت مداخلها بالحوائط، وسدت بالحجارة غير المنتظمة، ومع ذلك، فلم تكن فى الواقع سرية.

فبدأت السرقات إبان الأزمة التى حدثت فى نهاية الدولة الحديثة «انظر المومياوات الملكية». والمقبرتان الوحيدتان اللتان يطلب من السياح أن يراعوا فيهما حرمة الموتى، هما مقبرتا توت عنخ آمون وامنحوتب الثانى. فقد وجد هذان الملكان فى تابوتيهما، وسمح لهما بالبقاء فيهما بكل وقار. وإذ نقلت المومياوات الملكية الأخرى عدة مرات فى العصور القديمة، فهى موجودة الآن فى متحف القاهرة. وتعتبر كنوز توت عنخ آمون، التى لم تمتد إليها يد العابثين، وكذلك كنوز الأمير ماحريرع، وأثاث حمى أمنحوتب الثالث وحماته الذى لم يأخذ اللصوص منه إلا المعدن الثمين الصالح للبيع، وكل شىء خاص بتحوتمس الرابع وأمنحوتب الثانى فقد نجا من عبث اللصوص والمخربين، ويعتبر اليوم من أثمن كنوز متحف القاهرة. وبوسعك اليوم أن تسـير كيفما تشـاء خلال القبـور المنقـورة فى الصخـر التى وصفها سترابو فى سنة ٢٧ ق. م. بأنها أعمال ممتازة وتستحق الزيارة: إنها سلسلة من الحجرات مختلفة الأطوال ، محفورة تحت منحدر الجبل.

وقد زُخرفت الأعمدة والممرات بالمناظر الضخمة التى توضح مقابلة الملك للآلهة العظام، أما السقوف والحوائط فمزينة بأشكال غريبة . وسواء أكانت هذه المناظر رسوماً خطية بسيطة «كما فى مقبرتى تحوتمس الثالث وامنحوتب الثانى» ، أم نقوشاً بارزة قليلة الارتفـاع وملونة «كما فى قبور حور محب ورمسيس الأول وسيتى الأول»، أو نقوشاً غائرة ملونة بالألوان الزاهية «كما فى مقبرتى رمسيس الثالث =

أولئك الذين ادعوا الألوهية وكانوا يُعبدون الناس لهم فى الأرض، وإذا قرأنا قول الحق : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝﴾ [الفجر] ونظرنا آثار فرعون وهى شامخة كالجبال مرتفعة إلى أعلى ، ارتفاعاً كبيراً ، نعرف لماذا قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ على أننا إذا توقفنا عند قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ نعرف أن حضارة قوم عاد كانت أقوى وأكبر من حضارة الفراعنة، ولكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يبقيها سرا مغلقا، لا يطلعنا عليها، فبقيت مطمورة فى الرمال، لا يعرف مكانها أحد، مع أن عوامل التعرية التى أثرت على حضارة آل فرعون هى العوامل نفسها التى أثرت على حضارة قوم عاد، فعوامل التعرية تنقل الرمال من مكان إلى آخر، وأنت حين تترك بيتك عدة أسابيع، تعود فتجده امتلأ بالتراب، رغم أنك أحكمت إغلاق الأبواب والنوافذ، ولو نظرت إلى

= ورمسيس الرابع» فإنها تعيد إلى الأذهان أبهى أعمال النحت والتصوير.

يتحرك أسطول إله الشمس، من حجرة إلى حجرة، وسط ضفتين غاصتين بصفوف من الشياطين المرعبة. و «حجرة الذهب» فى مقبرة رمسيس السادس مغطاة جدرانها بحشود بطيئة مائجة من الكائنات والأشكال والظواهر الشمسية. ومن بين السائحين الإغريق سائح كتب على حوائط المقابر فأقسم على أنه كان ينظر إلى أعمال خالية من المعنى. واعتقد آخر أنه حظى بفهمها ورأى نفسه يجتاز عتبة الحياة الآخرة. وسواء أكانت هذه الأشكال تسير على وتيرة واحدة أم تتوقف، فإنها تفعل أكثر من كونها تصف رحلة خلال العالم السفلى. فعن طريقها شُبِّه القبر بالمنطقة تحت الأرضية الغربية حيث تغوص الشمس عند الشفق. إنها من أغنى النصوص بالمعلومات والرموز الجنائزية ، وتمدنا بذلك الوصف التصويرى الذى يفسر العملية العويصة التى تستعيد بها الشمس - التى يشبَّه بها كل ملك يموت - قوتها الحيوية فى كل ليلة.

[معجم الحضارة المصرية القديمة : ٣٥٨- ٣٦٠]

القرى القديمة، التى لم ترصف طرقها، تجد أن طرقاتها قد أصبحت عالية قليلاً عن مستوى البيوت؛ بحيث يجب أن تنزل درجة أو درجتين.

وكل آثار الدنيا لابد أن ننقب عنها، فإذا طمس الله هذه الآثار رغم علوها وارتفاعها، فكأنه دمرها: أى أزالها .

رغم الحضارة التى كانت عند الفراعنة والتى لم نصل إليها حتى الآن، فلا أحد يعرف يقينا حتى الآن سر بناء الهرم، ولا كيف أن صخوره متماسكة مع بعضها البعض، رغم أنه لا توجد بينها أية مادة تساعد على التماسك مثل الأسمنت مثلاً، بل إنها متماسكة بتفريغ الهواء بينها، ولا يوجد من يستطيع أن يقول لنا يقينا كيف وضعت الصخرة التى فى قمة «الهرم» (١) فى مكانها.

---

(١) الأهرام Pyramids: للأهرام أثر أعمق فى خيال العالم كله أكثر من جميع آثار قدماء المصريين. ولا يعرف أصل هذه الكلمة على وجه التحقيق، ولكن يبدو أنها كانت من ابتكار الإغريق الذين أطلقوا عليها، مزاحاً، الكلمة الإغريقية Pyramis ومعناها «كعكة من القمح». وتذكرها النصوص المصرية دائماً باسم «مر» التى لا يعرف نطقها الصحيح بالضبط. كانت الأهرام، بغير استثناء، مقابر للملوك، وأحياناً مقابر للملكات أيضاً، من الأسرة الثالثة «حوالى سنة ٢٧٥٠ ق.م.» إلى الأسرة السابعة عشرة «حوالى سنة ١٦٠٠ ق.م»، ثم أقامها فيما بعد حكام مصر الأثيوبيون فى الأسرة الخامسة والعشرين «حوالى سنة ٧٥٠ - ٨٥٠ ق. م» وخلفاؤهم الذى حكموا شمال السودان حتى القرن الرابع للميلاد.

يمكن تتبع نشأة القبر الهرمى الشكل، فى جميع الاحتمالات، إلى كوم الرمل المستطيل الشكل ، الذى كانوا يكومونه فوق القبر البسيط «حفرة» الذى استخدمه سكان مصر فى عصر ما قبل الأسرات. وأظهر الحفر فى سقارة وفى جبانة منف أمثلة لأكوام الرمل فوق المصاطب المبنية بالآجر للأسرة الأولى «حوالى سنة ٣٠٠٠ ق. م» وأقدم مثل معروف عبارة عن أساس من الرمل مغطى باللبن. غير أنه نشأ قبل نهاية هذه الأسرة بناء من الآجر أكثر صلابة، ترتفع جوانبه الأربعة بشكل درجات. وقد بنى كل من هذين البناءين «الكومين» داخل هيكل المصطبة ؛ ولذا لا تمكن رؤيتهما عندما يصعد البناء الخارجى بالتدريج ، ويوضع السقف . وبما أنه ليست لتلك =

. . . .

= الأكوام وظيفة معمارية، فلابد لنا أن نعتقد أن بقاءها كان لأسباب دينية سحرية.

لم يكن هناك ـ حتى بداية الأسرة الثالثة ـ أى فارق بين قبر الموظف الكبير وقبر النبيل، وبين قبر الملك من حيث التخطيط ، غير أنه منذ ذلك الوقت ظل الموظفون والنبلاء يدفنون فى مصاطب ، بينما يدفن الملوك فى قبور هرمية الشكل. ثم أنشأ زوسر، الذى ربما كان أول ملوك تلك الأسرة، شكلا جديدا للقبور، وكان هذا بلا شك من وحى مهندسه المعمارى الشهير إمحوتب. وإن قبره الفخم فى سقارة لمن العجائب المعمارية للعصور القديمة. لم يكن هرماً بالمعنى الهندسى الصحيح، ولكنه يتدرج فى ست درجات ضخمة من جوانبه الأربعة، إلى ارتفاع نحو ٦٠ متراً. وطول قاعدته ١٠٩ م تقريباً من الشمال إلى الجنوب وحوالى ١٢١ متراً من الشرق إلى الغرب. وهناك برهان معمارى على أن هذا الهرم صار بتلك الأبعاد بسلسلة من التكبيرات، وأن الهرم المدرج موضوع فوق مصطبة مربعة، مثلما وضعت مصطبة الآجر فوق «الكوم». توجد حجرات دفن الملك وأعضاء أسرته الأحد عشر أسفل الهرم على عمق كبير فى الصخر الذى تحت سطح الأرض، كما أن هناك عدداً من الحجرات والممرات الأخرى بعضها مزين بالفيانس الأزرق محاكاة لحصير الغاب، والأحجار المنقوشة نقشاً بارزاً، تصور الملك وهو يقوم بشتى الاحتفالات الدينية. أما الحوائط المسلوبة التى تحيط بالكوم فى مصاطب الأسرة الأولى، فيفصلها عن القبر، فى حالة الهرم المدرج مسافات واسعة من الجوانب الأربعة ؛ لتكون سوراً مستطيلا يحيط بالهرم ارتفاعه حوالى ١٠ أمتار ومحيطه نحو ١٦٥٠ متراً تقريباً. وهناك ظاهرة غريبة فى هذا السور، وهى أنه يضم عند قطاعه الجنوبى مصطبة تشبه حجراتها السفلية، حجرات الهرم المدرج، إذ أن بها نقوشاً منحوتة للملك، وتبطن حوائطها الداخلية بالقيشانى الأزرق. ولا نعرف حتى الآن الغرض الذى بنيت من أجله هذه المصطبة. ويشمل الفضاء الذى بين الهرم المدرج والسور أفنية مكشوفة، ومبانى للاحتفالات بعضها مصمت من الحجز وليس به حجرات داخلية. وفضلاً عن الفناء ذى الأعمدة الواقع أمام المدخل، فإن المبانى التى على الجانبين الشرقى والجنوبى مخصصة للملك ؛ كى يحتفل فى حياته الثانية ببعض الأعياد الرئيسية، كالعيد اليوبيلى الذى كان يحتفل به فى حياته على الأرض. ومن المبانى التى على الجانب الشمالى للهرم ، والتى لم تكن مصمتة ، سرداب به تمثال من الحجر للملك وهو جالس ، ومعبد جنازى قام =

= الكهنة بالخدمة فيه لمدة ربما تبلغ عدة سنوات بعد موت الملك، وكذلك بالطقوس الدينية نيابة عن الملك.

وأعظم ما يسرّ العين أن تراه من كل التجديدات المعمارية فى هذا السور الرائع، هو الأعمدة المتصلة بالحوائط، وكذلك بالواجهات فى حالة المبانى المصمتة. فهى تمثل، بدون استثناء، إما حزماً من سيقان النباتات، أو سيقان النباتات مفردة، ومن أمثلة هذه النباتات البردى الذى تكون أزهاره تيجان الأعمدة.

بنى ثلاثة على الأقل من الملوك الذين خلفوا زوسر على العرش أهراماً مدرجة، بيد أنه ما من واحد منها يمكن أن يقارن بهرم إمحوتب الرائع، حتى ولو عملنا حساب حالتها المتداعية. وينسب أحد الأهرامات إلى ملك يدعى سخم خت، وقد أثار اهتماماً عالمياً عندما عثر عليه أثناء الحفر «فى سنة ١٩٥٤» إذ كان به تابوت من المرمر فى حجرة الدفن، بدا عند العثور عليه أن أيدى اللصوص لم تعبث به، غير أنه ما إن رفع غطاؤه حتى وجد خاوياً.

يمكن رؤية المرحلة الثانية فى تطور بناء الأهرام، فى الهرم القائم فى ميدوم الواقعة على مسافة ٨٠ كم جنوبى الجيزة. وربما بناه حونى آخر ملوك الأسرة الثالثة، ثم أكمله سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة «حوالى سنة ٢٦٧٠ ق.م» ، الذى بناه أولاً هرماً مدرجاً ثم ملأ الثمانى درجات ؛ لتكون جوانب الهرم الأربعة مستقيمة مائلة من القاع إلى القمة، وربما أمكننا التخمين بأن قمته كانت مدببة، غير أنه لا يمكن البرهنة على ذلك ؛ لأن قمته قد تهدمت. ثم اتبع هذا الشكل فى الأهرامات التالية ؛ لتبدو على الصورة الجديدة «الهرمية»، ويوضح نظام المبانى المجاورة لهذا الهرم تطوراً استمر بعد ذلك ، مع بعض تغييرات فى التفاصيل إلى نهاية تاريخ بناء الأهرام. وقد بنى إلى جانبه هرم صغير، ربما لتدفن فيه الملكة على الجانب الجنوبى للهرم الأصلى، بينما بنى عند الجانب الشرقى، وفى خط مستقيم تقريباً، معبد جنازى وممر مكشوف يصل هذا المعبد بمعبد ثانٍ ، يقع على بعد ٢٠٠م تقريباً عند الحدود بين الصحراء والأرض الزراعية.

هناك هرمان فى دهشور ينسبان إلى الملك سنفرو من الأسرة الرابعة «على مسافة قريبة جنوبى سقارة» جديران بالذكر بسبب منظرهما الفذ. ففى الجنوبى منهما يزداد ميل زاوية الانحدار فجأة عند نقطة بعد منتصف ارتفاعه، ولذا سمى «بالهرم المنحنى» أو «الهرم المنبعج» . أما جاره الشمالى ، فمبنى بزاوية انحدار مقدارها ٤٣,٣٦ =

. . . .

= «تساوى تقريباً زواية ميل الجزء العلوى من الهرم المنحنى»، على نقيض زاوية الانحدار العادية التى تبلغ ٥٢ تقريباً.
أما خوفو ابن سنفرو، فهو الذى بنى هرم الجيزة الأكبر الذائع الصيت، ويشغل مساحة أكثر من ١٣ فداناً، وكان يصل إلى ارتفاع ١٤٦م تقريباً، وقد فقد منه جزؤه العلوى البالغ ارتفاعه حوالى ٩م. وتواجه جوانبه الأربعة المائلة بزاوية ٥٢، ٥١، الجهات الأربع الأصلية تماماً. وقد بنى جزؤه الداخلى من الحجر المحلى ، وكسى كله بطبقة لامعة من الحجر الجيرى، من أجود نوع من محاجر طرة، ولكن لم يبق من هذه الكسوة الخارجية إلا جزء بسيط. ويقع مدخله الوحيد على الجانب الشمالى، على ارتفاع حوالى ١٦ م فوق مستوى سطح الأرض. يدل الدليل المعمارى على أن التصميم الداخلى غُيِّر مرتين أثناء التشييد.
قُصد بالتغيير الأول وضع جحرة الدفن على عمق كبير تحت الأرض، وعندما كاد تنفيذ هذا التصميم يتم، عدل عنه وبنيت حجرة أخرى يوصل إليها مم مائل إلى أعلى داخل جسم الهرم. وبعد ذلك مد الممر بشكل دهليز كبير يوصل إلى حجرة أخرى ، مبنية كلها من حجر الجرانيت حيث لا يزال تابوت الملك موجوداً بها بغير غطاء. وبالحائطين: الشمالى والجنوبى فتحتان هما فوهتا ثقبين ، يخترقان البناء إلى السطح الخارجى. ويتكون سقف الحجرة المسطح من تسع كتل من الجرانيت تزن حوالى ٤٠٠ طن، وفوقها خمس مقصورات منفصلات، لأربع منها سقف مسطح، أما سقف العليا فمائل مدبب ؛ ليقلل من خطر التداعى تحت ثقل البناء الذى فوقه، وبعد أن وضعت جثة الملك فى التابوت، أقفل باب الحجرة، أولاً بثلاث لوحات ضخمة وضعت على هيئة أبواب منزلقة بين تلك الحجرة والطرف العلوى للدهليز الكبير، ثم بكتل ضخمة من الجرانيت وضعت فى الممر المائل العلوى. ولكى يخرج العمال الذين وضعوا هذه الكتل فى أماكنها، ثُقب مم إلى أسفل من قمة الممر العلوى إلى الممر تحت الأراضى المؤدى إلى حجرة الدفن الأصلية ، التى سدت بعد ذلك بالحجر أيضاً.
موضع الهرم الأكبر عجيب كالهرم نفسه، فيوجد إلى الشرق مباشرة وأمام منتصف الهرم تقريباً، معبد جنائزى متصل بممر طويل بمعبد آخر على حدود الصحراء. وبنيت ثلاثة أهرامات صغيرة مقابر للملكات ، على الجانب الجنوبى لهذا الممر =

الأخير عند موضع اتصاله بالمعبد الجنازى. ودفنت خمسة قوارب خشبية فى حفر قطعت فى الصخر تحت الأرض، ثلاث منها على الجانب الشرقى، واثنتان على الجانب الجنوبى للهرم . وبنى صف واحد من المصاطب موازياً للجانب الجنوبى لهرم الملك، كما بنيت صفوف متوازية من المصاطب المماثلة لتتألف منها جبانة كبيرة عند الجانبين: الشرقى والغربى. وقد بنيت كل هذه المقابر لأعضاء الأسرة الملكية والنبلاء، وأجيال من الكهنة الذين كرسوا حياتهم للقيام بالطقوس الدينية فى المعبد الجنازى.

من جميع الملوك الذين خلفوا خوفو على العرش، لم يحاول أحد بناء هرم يعادل فى ضخامة حجمه الهرم الأكبر، غير ابنه خفرع. أما منكاورع صاحب هرم الجيزة الثالث، فبنى طرازاً جديداً على مساحة أقل من نصف المساحة التى يشغلها الهرم الأكبر. ويتكون تصميم داخل هذه الأهرامات، كقاعدة عامة، وأهرامات خلفائهم حتى الأسرة الثانية عشرة «حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م» من ممر يمتد من الوجه الشمالى للهرم، إلى حجرة أمامية صغيرة، ثم إلى حجرة الدفن. وقد راعوا فى القيود المفروضة على نظام البناء، أن يبنوا معبداً جنائزياً وممراً ومعبداً بالوادى إلى شرق كل هرم، مع إجراء بعض تعديلات فى التفاصيل المعمارية. كما أن المناظر المنقوشة على جدران هذه المبانى، التى ظهرت لأول مرة فى الأسرة الرابعة، تعالج نطاقا واسعاً من الموضوعات. ولم يعثر على نقوش داخلية بالأهرامات التى شيدت من بعد هرم زوسر المدرج حتى هرم أوناس Unas فى نهاية الأسرة الخامسة، الذى وجدت به النصوص المسماة بنصوص الأهرام ، على جدران حجرة الدفن والممرات والحجرات المجاورة لها .

أدخل منتوحوتب الشهير - أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة - نظاما خارجا على النظام الموروث، عندما بنى معبداً للموتى بالدير البحرى، ذا شرفة ومتصلاً ومندمجاً فى هرم أمامه فناء زرعت فيه أشجار الأثل Tamarisk والجميز. وقد بنى ملوك الأسرة الثانية عشرة ، الذين تقع مقابرهم فى اللشت ودهشور والفيوم وأهرامات ذات طراز أكثر قدماً، ولكنها تتضمن براعة فى التصميم الداخلى لتضليل لصوص المقابر. ويمكننا أن نرى مثل هذه المهارة فى الأسرة الثالثة عشرة، كما فى هرمى الملكين الوحيدين لتلك الحقبة اللذين تأكد الباحثون منهما. ولم يكتشف حتى الآن أى هرم من الأسرة الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة ، إلا أنه توجد فى طيبة أهرامات =

= صغيرة مبنية بالآجر، بناها ملوك الأسرة السابعة عشرة. وليست أهرامات الملوك والملكات الأثيوبيين فى نباتا ومروى، إلا إحياء لطراز بناء المعابد القديم، مع تغيير طفيف فى الشكل.

هناك بعض اختلافات فى آراء العلماء فى الطريقة المتبعة فى بناء الأهرام. ويلوح أن الأمر غير القابل للجدل هو أن مداميك الأحجار الأولى وضعت فى الوسط أولاً، ثم مدت إلى الخارج. واستعمل الحجر المحلى فى بناء الجزء الأوسط الداخلى، واستعمل حجر طرة الجيرى، الأجود نوعاً، أو حجر الجرانيت فى بعض الأحيان؛ لبناء الكسوة الخارجية. كما أنه مما لا جدال فيه أن سطوح الكسوة الخارجية صقلت من القمة إلى القاعدة بعد إتمام البناء. والأمر صعب الاكتشاف هو الطريقة التى رفعت بها الأحجار، من مستوى الأرض إلى مواضعها الصحيحة. ويبدو أن الدليل الأثرى يشير إلى استخدام طرق صاعدة من الآجر تمد عند وضع كل مدماك جديد، تجر فوقها كتل الأحجار، وقد يكون ذلك على زحافات. ومع ذلك فقد وجد أن بناء مثل هذه الطرق الصاعدة يستغرق وقتاً طويلا ومقداراً عظيماً من الجهد، ولابد أن طريقة أخرى عملية أكثر من هذه قد استعملت فى بناء الطرق الصاعدة، كالسقالات أمام سطوح الهرم. غير أن هذا التفسير المبنى على أسس نظرية ضعيف واهٍ ، إذ لا توجد أية آثار لهذه الطرق الصاعدة الجانبية «السقالات»؛ بينما عثر على منحدرات طويلة فى ميدوم وفى اللشت.

عند تفسير العادات الجنائزية المصرية، يتضح أنها كانت ذات أهمية دينية سحرية، ومما لا شك فيه أن بناء المقابر الملكية على صورة هرمية لم يشذ عن هذه القاعدة. حقيقة إن هذه الأهمية كانت عرضة للتغير بتقدم الزمن، إذا ما اندمجت فيها معتقدات أخرى مغايرة لها. وفضلا عن التعاويذ المكتوبة أو المتلوة، فإن السحر المصرى كان يعتمد كثيراً على الرمزية؛ وهكذا تصبح المسألة معرفة أية معتقدات يمكن تقديمها رمزياً بواسطة الكوم، والمصطبة، والهرم المدرج، والهرم الحقيقى. وليس من الصعب أن نتصور أن المصريين قد اعتقدوا أن الكوم، رغم أنه استخدم لأسباب عملية فى نشأته، يشبه التل الذى برز من المياه الأولية عندما جاءت الدنيا إلى حيز الوجود، وبذا مثَّل الوجود. ويمكن مقاومة الموت سحريا بوجود هذا الرمز القوى. ولما كانت المصطبة «القبر» نسخة من البيت المعاصر، فقد زودت صاحبها الميت بمسكن. وفى وقت مبكر من التاريخ اعتقد المصريون ـ عندما استعملت الحفرة قبراً ، وأقيمت =

إذن فالفراعنة كانوا على علم واسع ، ما زلنا نجهل منه مثلا طريقة «تحنيط» الجثث [1] ، ولقد كان القائمون على هذه الحضارة هم الكهنة،

= فوقها المصطبة ـ أن أرواح الموتى تعيش فى القبر وحوله. ومع ذلك فقد كانت هناك فكرة أخرى ترتبط بالملك، يؤمن بها أنصار عبادة الشمس التى كان مركزها فى هليوبوليس، على مسافة غير بعيدة من العاصمة فى منف. وتبعاً لعقيدتهم هذه، يقضى الملك حياته الثانية إما فى صحبة إله الشمس، أو بصفته إله الشمس نفسه، ولكن يجب عليه أن يصل أولاً إلى المنطقة الشمسية. ومن بين طرق الصعود العديدة المذكورة فى نصوص الأهرام، تسلق سلم وأشعة الشمس. ولا شك أن الهرم المدرج الذى اخترعه إمحوتب «كاهن هليوبوليس»، كان القصد منه تمثيل ذلك السلم. وليست أهمية الهرم الحقيقى واضحة هكذا مباشرة؛ ولكن لا شك أنه يعكس منظر أشعة الشمس النازلة ؛ لتضئ الأرض خلال فرجة فى السحب.

فإذا ما كان فى حوزة الملك الميت أحد هذين النوعين من الأهرام، استطاع أن يصعد إلى السماء ويعوذ ـ تبعاً لمشيئته ـ إلى قبره ؛ كى يتناول من تقدمات الأطعمة التى يضعها الكهنة يومياً فى المعبد الجنازى. [الحضارة المصرية القديمة : ٦٥- ٧٠]

(١) تحنيط الموتى من « الأسرار الغامضة » المحيرة ، التى اشتهرت بها مصر القديمة . لماذا بذل مثل هذا المجهود لحفظ الأجسام، التى خرجت منها الروح ، لآلاف السنين ؟ السبب هو أنهم لم يعتبروا الموت هو النهاية ، وإنما هو رحلة خطرة تتناثر خلالها شتى العناصر المكونة للشخص الحىّ ، بينما يحتفظ كل منها بتكامله الفردى . فإذا أمكن إعادة اتحادها ووضعها فى الجسم ثانية ، أمكنه أن يحيا حياة جديدة مشابهة جدًا للحياة التى قضاها على الأرض . ومع ذلك ، فلتحقيق هذه النتيجة ، يجب حفظ الجسم الذى هو أضعف كل هذه العناصر وأكثرها عطبًا .

فإذا تُرك الجسم ليتعفن ، ضاع كل أمل فى اتحاد القوى الحيوية وهيكلها الجسدى ، فى العالم الآخر ، فيُحكم على الروح بأن تظل تبحث عبثًا إلى الأبد ، عن جسم لم يعد له وجود .

وإذ جمع هيرودوت معلومات طيبة عن هذا الموضوع ، يصف طريقة التحنيط هكذا: « أولا يُنزع المخ ، عن طريق الأنف ، بخطاف معدنى . ورغم هذا ، فلا يُنزع بهذه الطريقة سوى جزء من المخ ، أما الجزء الباقى فيذاب بعقاقير معينة ، بعد ذلك يشق الجانب بواسطة حجر قاطع إثيوبى. وتنزع الأحشاء من الجسم «استئصال الأحشاء».=

وهؤلاء منسوبون للدين، وكان لدى الكهنة أسرار كثيرة لم نصل إليها حتى الآن، فكأن الله قد هدى الناس من أول الخلق إلى أسرار كونه، ولكنهم كفروا بهذا العلم ونسبوه إلى أنفسهم فحق عليهم الدمار: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧] أى أنهم كانوا يزرعون ، ليس على سطح الأرض فقط، وإنما يقومون بعمل تعريشة للزرع الذى له ساق لينة ونحن نسميها تكعيبة[1].

= ثم يوضع زيت النخيل وبعض المساحيق العطرية فى البطن الفارغ . وبعد ذلك تملأ المعدة بالمر النقى المطحون وبهارات أخرى ، ولكن لايوضع بها أى بخور (لُبان) ، وتخاط » .

والغرض من كل هذه العمليات هو أن يُنزع من الجسم كل شيء يمكن أن يؤدى إلى سرعة تعفنه . لا يبقى من الجسم فى هذه المرحلة من العمل سوى جزء قليل علاوة على الجلد والعظام والغضاريف . بعد ذلك ، كان من الضرورى نزع الماء من هذه العناصر الأخيرة ، فاستعملوا لهذا الغرض ملح النطرون . « فتشبع الجثة بالملح ، وتنقع فى النطرون لمدة سبعين يومًا » .

أثبت الكيمائيون أن أسلوب المعالجة بالنطرون الجاف ، كان يزيل جميع الرطوبة الباقية فى المومياء « بعد سبعين يومًا ، يُغسل الجسم ويُلف بأربطة من الشاش مدهونة بالصمغ الذى كان المصريون يستعملونه بدل الغراء » (التخفيف فالغسيل فاللف) .

الحقيقة أن سبعين يومًا كانت تشمل جميع مراحل التحنيط . وكانت المدة بين يوم الوفاة ويوم الدفن. ولماذا حددت هذه المدة بسبعين يومًا ؟ ربما كان ذلك لأسباب دينية مبنية على الأرصاد الجوية .

فإن نجم الشعرى اليمانية ، تبعًا لجداول معرفة الوقت ليلاً بمواقع النجوم ، كان يختفى من السماء بعد أن يضىء فى ليل مصر ، فيحتجب تحت الأفق مدة سبعين يومًا . فكانت فترة السبعين يومًا هذه تفصل بين موتهم وبعثهم، وربما حاكى المصريون دورة الزمن هذه ؛ ليستخدموها مع موتاهم فيضمنوا بعثهم .

[معجم الحضارة المصرية القديمة : ٣٢٤-٣٢٥]

(١) قال الحسن فى قوله تعالى : ﴿يَعْرِشُونَ﴾ هو : تعريش الكرم .

[تفسير القرطبى : ٧/ ٢٧٢]

* نزول التوراة بعد هلاك فرعون وملئه *

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٣] فكأن موسى عليه السلام جاء برزخا (١) وواسطة بين رسل كذبتهم أممهم، فأُخذوا بالعذاب، ورسل جاهدوا من وقف فى طريق دعوتهم حتى بلغوها.

قبل موسى لم يكن هناك رسول قاتل أعداء دعوته لينشر دين الله، ولكن كان على الرسول أن يبلغ قومه فقط، ويدعوهم إلى ماجاءهم به من عند الله، وبعد ذلك هم يطلبون المعجزة، التى تدلهم على صدق رسالته، وصدق بلاغه عن الله، فإن أجابهم الله إليها وكذّبوا بها، يتولى الله سبحانه عقابهم وتعذيبهم فى الدنيا قبل الآخرة، ولذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢) [العنكبوت: ٤٠] فكل هذا كان عذاب

---

(١) يقول صاحب اللسان: البرزخ : ما بين كل شيئين، وفى الصحاح : الحاجز بين الشيئين، والبرزخ ما بين الدنيا والآخرة، قبل الحشر من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ . [لسان العرب : ٣/٨]

(٢) ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ : وهم عاد .
﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ : وهم ثمود .
﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ : وهو قارون .
﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ : وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم .

استئصال للقوم الذين كذبوا رسلهم، وحاربوا دعوة الله ، حدث ذلك مع قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم.

فلما جاء موسى عليه السلام صار برزخا، بين فترة استئصال بالعذاب من الله، لمن كذب رسله دون تدخل من الرسل، وبين مجاهدة الرسل لمن وقف فى طريق دعوتهم ؛ حتى يبلغوها للناس، إلى أن جاءت الرسالة الخاتمة ، وفيها الأمر لرسول الله ﷺ [1] بالقتال ، فموسى كان برزخا، والبرزخ يأخذ شيئا مما سبق ومما سيأتى؛ ولذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا

(١) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » .
أخرجه البخارى [٢٥] واللفظ له ، ومسلم [٢٢] .
وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها، وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا، فقد حرمت علينا دماؤهم ، وأموالهم إلابحقها، وحسابهم على الله».
أخرجه الترمذى [٢٦٠٨] وقال : حديث حسن صحيح غريب ، وأبو داود [٢٦٤١] وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود [٢٣٠٠] ، والحديث أصله فى البخارى [٧٢٨٤ ، ٧٢٨٥] بلفظ : عن أبى هريرة قال : لما تُوفى رسول الله ﷺ واستُخلف أبو بكر بعده ، وكفر من كفر من العرب ، قال عمر لأبى بكر : كيف تُقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله فمن قال : لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » فقال : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق .

﴿وَمَا لَنَا أَلا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فهؤلاء الناس الذين طلبوا القتال، كانوا على دين موسى، ولكن بعد وفاته لم يكن القتال قد كُتب عليهم بعد، ولكنهم هم الذين طلبوه، فخاف نبيّهم أن يكتب عليهم القتال ، فينكصوا عنه، ولكنهم أصروا على مطلبهم، فلما كُتِب عليهم القتال ﴿تَوَلَّوْا إِلا قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ :أى إن أغلبهم ترك هذا الأمر ولم ينفذه، وهو أول قتال يكتب على أتباع الرسل(١) .

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(٢) [القصص: ٤٣] الكتاب: هو التوراة، آتاه الله لموسى بعد أن أهلك القرون الأولى ، الذين

---

(١) قال ابن كثير ، قال قتادة: هو يوشع بن نون وهذا القول بعيد. وقال السدى:هو شمعون وقال مجاهد:هو شمويل عليه السلام. وهو بمعناه، وذلك أنه لما انقطعت النبوة من بنى إسرائيل، ولم يبق من سبط لاوى الذى يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل، فأخذوها فحبسوها ببيت واحتفظوا بها، لعل الله يرزقها غلاما يكون نبيًا لهم، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاما، فسمع الله لها ووهبها غلاما فسمته شمويل، أى سمع الله دعائى، ومنهم من يقول : شمعون. وهو بمعناه، فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأنبته الله نباتا حسنا ، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه ، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده. [تفسير ابن كثير: ١/ ٢٨٤]

(٢) قال ابن كثير :يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه . وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ﴾ يعنى أنه بعد إنزال التوراة لم يعذب أمة بعامة، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين، كما قال تعالى : ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن عبد الوهاب قالا: حدثنا عوف عن =

كذبوا رسله، وحاربوا دعوته، هذا الكتاب أنزله الله على موسى ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ ليعطيهم البصيرة والنور ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ لهم من ربهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ فضل الله عليهم؛ فيؤمنون به. قال رسول الله ﷺ: «ما عذب الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية منذ أنزل الله التوارة على موسى »[1] فالله عز وجل منذ بعث موسى عليه السلام لم يهلك قوما عاندوا الرسل وصدّوهم، بل تولى الرسل وأتباعهم أمر مقاومة من

= أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال: «ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء، ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوا قردة بعد موسى ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾» الآية.
ورواه ابن أبى حاتم من حديث عوف بن أبى حبيبة الأعرابى بنحوه ، وهكذا رواه أبو بكر البزار فى مسنده عن عمرو بن على الفلاس، عن يحيى القطان عن عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد موقوفا. ثم رواه عن نصر بن على عن عبد الأعلى عن عوف عن أبى نضرة عن أبى سعيد ، رفعه إلى النبى ﷺ قال: « ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا قبل موسى » ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ الآية . وقوله : ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أى من العمى والغى، وهدى إلى الحق ورحمة، أى إرشادا إلى العمل الصالح ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى: لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه.
[تفسير ابن كثير :٣/٣٧٧]
وانظر : [الماوردى:٤/ ٢٥٤] ، و[تفسير ابن جرير الطبرى: ٢٠/ ٨٠] .

(١) عن أبى سعيد قال : « ما أهلك الله قوما قط بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا بعدما أنزلت التوراة ، يعنى : ما مسخت قرية » .
قال البزار : هكذا رواه يحيى موقوفًا ، ورفعه عبد الأعلى .
[مختصر زوائد البزار : ١٤٩٦].
وعنه رضى الله عنه رفعه إلى النبى ﷺ قال : « ما أهلك الله تبارك وتعالى قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض إلا بعد موسى ، ثم قرأ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ . قال البزار : إن شاء الله مثله .
[مختصر زوائد البزار:١٤٩٧]

يحاربون دعوة الله ويتصدون لها، ويمنعون وصولها إلى الناس، وهناك استثناء فى قرية واحدة هى «أيلة» [1] التى كانت بين مدين والأردن. ويوم الفتح كان أبو أمامة رضى الله عنه يسير مع رسول الله ﷺ ممسكًا رحل

---

(١) أَيْلَة : بالفتح : مدينة على ساحل بحر القُلْزُم مما يلى الشام ؛ وقيل : هى آخر الحجاز وأول الشام ، واشتقاقها قد ذكر فى اشتقاق إيلياء بعده ؛ قال أبو زيد : أَيْلَة مدينة صغيرة عامرة بها زرعٌ يسيرٌ ، وهى مدينة لليهود الذين حرَّم الله عليهم صيد السمك يوم السبت ، فخالفوا فَمُسِخوا قِرَدَةً وخنازير ، وبها فى يد اليهود عهد لرسول الله ﷺ ؛ وقال أبو المنذر : سُمِّيَت بأَيْلة بنت مَدْيَنَ بن إبراهيم عليه السلام؛ وقال أبو عبيدة : أيلة مدينة بين الفُسْطاط ، ومكة على شاطئ بحر القُلْزُم تُعَدُّ فى بلاد الشام، وقدم يُوحَنَّةُ بن رُؤْبَةَ على النبى ﷺ من أيلة وهو فى تبوك ، فصالحه على الجزية ، وقرَّر على كل حالم بأرضه فى السنة دينارا ، فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار، واشترط عليهم قِرَى مَنْ مَرَّ بهم من المسلمين ، وكتب لهم كتابا أن يُحفَظوا ويُمنعوا ، فكان عمر بن عبد العزيز لا يزداد على أهل أيلة عن الثلاثمائة دينار شيئا؛ وقال أُحَيْحَة بن الجُلاح يرثى ابنه :

ألا إن عَيْنى بالبُكاء تهــلَّلُ ... جزوعٌ صَبُورٌ كلَّ ذلك يفعلُ
فإن تَعترينى بالنهار كآبـــة ... فلَيلى إذا أمْسَى أمَرُّ وأطــوَلُ
فما هِبرِزِىٌّ من دنــانير أيْـلَةَ ... بأيْدى الوُشاة ناصـعٌ يَتَأكّـلُ
بأحْسن منه يومَ أصْبَحَ غادياً ... ونَفَّسَنى فيه الحِمامُ المعجّـلُ

الوُشاة الضَّرَّابون ، وناصع مشرق ، ويتآكل أى يأكل بَعْضُه بعضا من حسنه ؛ وقال محمد بن الحسن المهلبى : من الفسطاط إلى جُبِّ عُمَيرة ستة أميال ، ثم إلى منزل يقال له عجرود ، وفيه بئر ملحة بعيدة الرشاء ، أربعون ميلا ، ثم إلى مدينة القُلْزُم خمسة وثلاثون ميلا ، ثم إلى ماءٍ يُعرف بِتَجْر يومان ، ثم إلى ماءٍ يعرف بالكُرْسىّ فيه بئر رواءٌ مرحلة ، ثم إلى رأس عقبة أيلة مرحلة ، ثم إلى مدينة أيلة مرحلة ؛ قال : ومدينة أيلة جليلة على لسان من البحر الملح ، وبها مجتمع حج الفسطاط والشام، وبها قوم يذكرون أنهم من موالى عثمان بن عفان ؛ ويقال : إن بها برد النبى ﷺ ، وكان قد وهبه ليُوحَنَّةَ بن رُؤبة لما سار إليه إلى تبوك ؛ وخراج أيلة ووجوه الجبايات بها نحو ثلاثة آلاف دينار ، وأيلة : فى الإقليم الثالث وعرضها ثلاثون درجة ؛ وينسب إلى أيلة جماعة من الرُّواة ، منهم : يونس بن يزيد الأَيْلى =

ناقته، فقال: إنى لتحت رحل رسول الله يوم الفتح فسمعته يقول كلامًا حسنًا جميلاً، وقال: فقال فيما قال: «أى رجل من أهل الكتاب يؤمن بى فله أجران، أجر إيمانه بموسى أو عيسى ، وأجر إيمانه بى، له ما لنا ، وعليه ما علينا»(١).

فالله تعالى آتى موسى الكتاب ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أى بصيرة ونورًا، والبصيرة: هى نور القلب، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ والتذكر معناه الرجوع والعودة إلى قضية قد نُسيت ، وليس الإتيان بشىء جديد ؛ لأن الإنسان متدين بالفطرة ، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] فالعبودية لله مفطورة فى النفس، ولكن الإغراءات والمفاسد وشهوات النفس والنسيان، تحدث غفلة عند الإنسان عن هذه الفطرة الأصيلة ؛ فيأتى الرسل ليذكروا الناس بهذه الفطرة،

= صاحب الزُّهْرى ؛ توفى بصعيد مصر سنة ١٥٢ ؛ وإسحاق بن إسماعيل ابن عبد الأعلى بن عبد الحميد بن يعقوب الأيلى ، وروى عن سفيان بن عُيينة وعن عبد المجيد بن عبد العزيز بن روَّاد ، حدَّث عنه النسائى ؛ مات بأيلة سنة ٢٥٨ ، وحسَّان بن أبان بن عثمان أبو على الأيلى ولى قضاء دمياط ، وكان يفهم ما يحدِّث به ؛ وتوفى بها سنة ٣٢٢ . [معجم البلدان : ١/ ٢٩٢]

(١) عن أبى أمامة قال : إنى لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح فقال قولاً حسنًا جميلاً وكان فيما قال « من أسلم من أهل الكتاب فله أجره مرتين ، وله ما لنا وعليه ما علينا ، ومن أسلم من المشركين فله أجره ، وله ما لنا وعليه ما علينا ».
أخرجه أحمد فى المسند [٥/ ١٥٩] ، وذكره الهيثمى فى [مجمع الزوائد: ١/ ٩٨] ، وعزاه لأحمد ، والطبرانى فى الكبير. قال: وفيه القاسم أبو عبد الرحمن ضعفه أحمد وغيره .

وكونهم مذكِّرين معناه أن الفطرة [1] السليمة فيها كل شىء يدعو إلى الإيمان بالله [2].

---

(١) يقول صاحب اللسان : الفطرة : الابتداء والاختراع، وهى ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به، قال ابن عباس: ما كنت أدرى ما ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر ، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أى أنا ابتدأت حفرها. [لسان العرب : ٥/ ٥٦]

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه وينصِّرانه كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ؟ » . قالوا : يارسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: « الله أعلم بما كانوا عاملين ».
أخرجه البخارى [٦٥٩٩] واللفظ له ، ومسلم [٢٦٥٨/ ٢٢].
وعن عياض المجاشعى فى حديث طويل أوله : « ألا إن ربى أمرنى أن أعلِّمكم ما جهلتم مما علَّمنى ، يومى هذا ، كلُّ مالٍ نَحلْتُه عبدًا حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم .... » .
أخرجه مسلم [٢٨٦٥/ ٦٣]

* لقاء موسى بربه *

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥١، ٥٢] ولقد عرفنا من قبل كيف أن من خرج مع موسى من القوم لم يكونوا كلهم من المؤمنين، لقد أرسل الله موسى بالآيات المعجزات الأولى إلى فرعون وآله عندما آنس من جانب الطور ناراً ، وبعد ذلك تجلى له الله بالكلمات؛ ليرسله رسولاً؛ ليخلص بنى إسرائيل من عذاب فرعون .

وبعد نجاة موسى ومن معه كان لابد من أن ينزل منهج الحق على موسى؛ ليهدى به القوم، ذلك أن قوم موسى بعد أن أخرجهم الله من البحر، وشقّ لهم طرقاً مرّوا بقوم يعبدون الأصنام ، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنما يعبدونه ؛ فيوبّخهم موسى عليه السلام وفى ذلك يقول الحق : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨ : ١٤٢] ولنا هنا أن نتأمل أن آيات القرآن من فرط

الدقة عندما تذكر الزمن تبدأ بالليلة.

مثال ذلك أننا ندخل شهر الصوم بدخول ليلة ظهور الهلال(١) ؛ ذلك أن الليل فيه علامة مميزة للتأريخ هى الهلال، صحيح أن الشمس تشرق كل صباح وتغرب، لكن الليل يمكن أن نعرف منه الشهر ؛ حيث إن حساب الشروق يتطلب قدرا من الحسابات المتباينة، أما الغروب وظهور الهلال فيمكن أن نعرفه بالعين المجردة، نحن نصلى التراويح مثلا عند بدء ظهور هلال رمضان، ولا نصلى التراويح عند ظهور هلال شوال، ولا توجد ليلة فى ديننا تتبع النهار، إلا يوم عرفة ، وفى تلك الليلة يذهب المسلمون ضيوف الرحمن إلى مزدلفة، ثم يروحون ليوم الجمع، إذن الليلة هى ابتداء الزمن يراد به التدرج لمعرفة الشهور، والزمن عند البشر كما أراده الله ، عدته السنة وهى اثنا عشر شهراً: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾(٢) [التوبة: ٣٦] والسنة الهجرية تختلف عن السنة الميلادية وتقلُّ عنها أحد عشر يوماً ؛ وذلك رحمة من الله بالمؤمنين؛ لأن التوقيت الشمسى تثبت فيه مواقيت

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُبِّى عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين» . أخرجه البخارى [١٩٠٩] واللفظ له ، وفى رواية مسلم [١٠٨١/١٩] : « ... فإن غُمِّى عليكم ... » .
وقال الإمام النووى : وأما قوله ﷺ : « فإن غمَّ عليكم » فمعناه : حال بينكم وبينه غيم ، يقال : غم وأغمى وغُمِى وغُمِّى بتشديد الميم وتخفيفها ، والغين مضمومة فيهما ، ويُقال : غَبِّى بفتح الغين وكسر الباء، وكلها صحيحة ، وقد غَامَتْ السماء وغَيَّمت وأغَامَت وتَغَيَّمت وأغْمَت. [صحيح مسلم بشرح النووى : ٢٠٧/٤]

(٢) عن أبى بكرة عن النبى ﷺ قال : «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر : الذى بين جمادى وشعبان».
أخرجه البخارى [٤٦٦٢] واللفظ له، ومسلم [١٦٧٩/٢٩]

الشهور لأعوام طويلة، والتوقيت الشمس القمرى يجعل رمضان على سبيل المثال يأتى مرة فى الصيف، وبعد سنوات يأتى فى الربيع، وبعد سنوات يأتى فى الشتاء، وبعد سنوات يأتى فى الخريف، وكذلك الحج إلى بيت الله الحرام، وهكذا تدور المواسم الدينية على كل الفصول ، وبذلك يختلف صيام القوم من عام لعام آخر فى عدد الساعات التى يصومون فيها، وبذلك يختلف أيضا توقيت الحج من فصل إلى فصل آخر.

ولنا فى العلوم الحديثة المثل الواضح ، فعلوم البحار تأخذ بالتوقيت القمرى ؛ لأنه أدق، وكذلك الإنسان ، وأراد الله بالأربعين ليلة التى ذهب فيها موسى لتلقى المنهج عن الله أن يختبر بنى إسرائيل اختباراً جديداً . . فما الذى حدث ؟ لقد أضلّهم السامرى ، صنع لهم عجلا له خوار من الذهب والحلى التى أخذوها بالخداع من آل فرعون، وكأن الله أراد بذلك أيضا أن يوضح لنا أن ما يأتى من ضلال يذهب إلى ضلال ، لقد كان بنو إسرائيل يعلمون أنهم سوف يخرجون مع موسى ؛ لذلك أخذ كل منهم بعضًا من حلى سادته ؛ بدعوى التزين بها واختلسوها من آل فرعون ورغم أن فرعون وآله من الكافرين إلا أن الله لم يحلّل قط أن يختلس أحد مال الكافر أو غير المؤمن .

لقد ترك موسى قومه ليتلقى عن الله المنهج: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[1] [الأعراف: ١٤٤، ١٤٥]

---

(١) قال ابن كثير : أخبر تعالى أنه كتب له فى الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلاً لكل شئ، قيل: كانت الألواح من جوهر، وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً=

لقد أبلغ الله موسى المنهج فى ألواح التوراة ، بالأحكام المفصلة الواضحة التى تسير عليها حياة الناس بالعدل، وأن يأخذ موسى ما جاء بالألواح بقوة؛ لأن من يخرج عن منهج الله هو الفاسق، والفاسقون يصنعون خراب ديارهم بأيديهم وأفعالهم.

ما الذى حدث لقوم موسى عندما ذهب ليتلقى المنهج من الله؟ أضلّهم السامرى ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [1] إن الحلى

= مفصّلة ، مبيّنة للحلال والحرام ، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التى قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣] وقيل : الألواح أعطيها موسى قبل التوراة فالله أعلم ، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤيا ومنع منها ، والله أعلم، وقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ اى بعزم على الطاعة، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ قال سفيان ابن عيينة ثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه وقوله: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ اى سترون عاقبة من خالف أمرى، وخرج عن طاعتى كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب. قال ابن جرير : وإنما قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمرى ، على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره. نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصرى . وقيل : معناه ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ اى من أهل الشام وأعطيكم إياها. وقيل : منازل قوم فرعون والأول أولى والله أعلم؛ لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر ، وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه. والله أعلم. [تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٣٦]

(١) قال ابن كثير : يذكر تعالى ما كان من أمر بنى إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ، ويسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة ، وهو تعالى يجيبه عنها ، فعمد رجل منهم يقال له هارون السامرى فأخذ ما كان استعاره من الحلى، فصاغ منه عجلا وألقى فيه قبضة من التراب ـ كان أخذها=

التى أخذوها من آل فرعون ضاعت فى الضلال أيضا كما جاءت من ضلال[1] ، وكأن الله يوضح لنا أن طاعته تمنع المؤمن أن يعصى الله فى تعامله مع غير المؤمن، إن المؤمن إذا عامل غير المؤمن بما يرضى الله فهذا عمل له أثره. فإن المؤمن هو من يقدر على نفسه؛ ولذلك قال أبو الدرداء عندما أبلغوه أن واحدًا قد وجّه إليه فى غيابه السباب والشتم فأرسل له أبو الدرداء خطاباً يقول فيه: يا أخى لا تسرف فى شتمنا واجعل للصلح موضعًا؛ حتى لا تخجل عندما يجمعنا الناس، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه، هكذا الإيمان الحق ألا يعصى المؤمن الله

= من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه ـ فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى . ويقال إنه استحال عجلاً ، جسداً أى لحماً ودما حيا يخور. قال قتادة وغيره : وقيل : بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه ، فيخور كما تخور البقرة ، فيرقصون حوله ويفرحون ﴿فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أى فنسى موسى ربه عندنا ، وذهب يتطلبه وهو ههنا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وعداته.

[البداية والنهاية : ١/٢٦٨]، وانظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير [١/١٨٩]، وتاريخ الطبرى [١/٢٩٧] .

(١) قال القرطبى : وكان موسى وعد قومه ثلاثين يوما ، فلما أبطأ فى العشر الزائد ومضت ثلاثون ليلة ، قال لبنى إسرائيل وكان مطاعا فيهم: إن معكم حُليا من حُلىّ آل فرعون ، وكان لهم عيد يتزينون فيه ويستعيرون من القبط الحُلىّ ، فاستعاروا لذلك اليوم؛ فلما أخرجهم الله من مصر وغرّق القبط بَقِيَ ذلك الحُلىّ فى أيديهم ، فقال لهم السامرى: إنه حرام عليكم، فهاتوا ما عندكم فنحرقه. وقيل : هذا الحلى ما أخذه بنو إسرائيل من قوم فرعون بعد الغرق، وأن هارون قال لهم : إن الحلى غنيمة، وهى لا تحل لكم؛ فجمعها فى حفرة حفرها فأخذها السامرى ، وقيل : استعاروا الحلى ليلة أرادوا الخروج من مصر، وأوهموا القبط أن لهم عرسا أو مجتمعاً، وكان السامرى سمع قولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ .

[تفسير القرطبى : ٧/ ٢٨٤، ٢٨٥]

فى تعامله مع غير المؤمن؛ لأن طاعة الله واجبة وهى الأساس فى الإيمان.

وهكذا صهر السامرى الذهب الذى أخذه بنو إسرائيل بالخداع من آل فرعون وتفنّن فيه، وصنع منه العجل، وكان له صوتاً يصدر بمرور الهواء ، كأنه خوار العجل ، وهكذا نرى أن ما جاء من حرام لا يأتى منه أى خير ؛ لذلك فالمؤمن هو من يتنبه إلى أن خلايا جسده يجب ألا تتغذى من أى حرام ؛ لذلك يقول رسول الله ﷺ ما معناه : «إن الواحد منكم يدعو الله ومطعمه من حرام ومشربه من حرام ولباسه من حرام فأنّى يستجاب له، والأبعاض نفسها مكونة من حرام» (١) وبعد أن عاد موسى إلى قومه نبههم إلى سوء ما فعلوا؛ ولذلك غفر الله لهم. لماذا تاب الله

---

(١) أخرجه مسلم [١٠١٥/٦٥] عن أبى هريرة بلفظ: «أيها الناس إن الله طيّب لا يقبل إلا طيّباً . وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢] . ثم ذكر الرجل يطيل السفر . أشعث أغبر. يمد يديه إلى السماء . يارب ! يارب ! ومطعمه حرام، ومشربه حرام ، وملبسه حرام، وغُذّى بالحرام . فأنّى يستجاب لذلك؟».

وعن كعب بن عُجرة قال : قال لى رسول الله ﷺ : « أعيذك بالله يا كعب ابن عجرة ، من أمراء يكونون من بعدى ، فمن غشى أبوابهم فصدّقهُم فى كذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فليس منى ولست منه ، ولا يرد علىَّ الحوْضَ ، ومن غشى أبوابهم أو لم يغش ولم يُصدِّقهُم فى كذبهم ، ولم يُعنهُم على ظلمهم فهو منّى وأنا منه ، وسيرد علىَّ الحوضَ .

يا كعب بن عجرة : الصلاة برهان ، والصوم جُنَّةٌ حصينة، والصدقة تُطفىء الخطيئة، كما يُطفىء الماء النار .

يا كعب بن عجرة : إنه لا يربو لحم نبت من سُحت ، إلا كانت النّار أولى به » .

أخرجه الترمذى [٦١٤] وقال : حديث حسن غريب من هذا الوجه ، واللفظ له ، وأحمد فى المسند [٣٢١/٣] ، وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى [٥٠١] .

عليهم؟ لأن المنهج لم يكن قد وصل إليهم، ولأن الخالق الأكرم يريد أن يستبقى عنصر الخير فى الناس، ويريد أن يعلم خلقه أنه رب رحيم.

إن التوبة هى حصار لخلايا الشر فى النفس الإنسانية، ذلك أن كل إنسان حين يرتكب ذنباً ثم يتوب ، يتوب الله عليه، إن باب التوبة يقلب السيئة إلى حسنة، ويجازى الله العبد التائب بالخير، ويفرح به؛ ولذلك يقول بعض الصالحين : إن كثيرا من أعمال الخير تصدر من بشر أسرفوا على أنفسهم من الذنوب ، يرجون عفو الله.

والله يريد المجتمع المتكافل؛ لذلك يروى عن النبى ﷺ أنه قال : تجاوزوا عن عثرات ذوى المروءة فإن الله يأخذ بيد أحدهم كلما عثر[1]، إن الرسول يأمرنا بأن نستر عثرات الكريم؛ لأن الله يأخذ بيد الكريم إذا تعثر.

عاد موسى إلى قومه ؛ ليجد السامرى قد أغواهم ، السامرى هذا الذى ربّاه جبريل ، وقد كان جبريل عليه السلام يأتيه على فرس فيطعمه ، بعد أن أخفته أمه فى كهف أيام قتل فرعون لأبناء بنى إسرائيل ، ولذلك عرف جبريل [2] هذا السامرى ورأى أن كل خطوة من حافر الفرس تجعل الأرض

---

(١) ذكره الألبانى فى ضعيف الجامع [٢٣٩٢] بلفظ : «تجاوزوا لذوى المروءة عن عثراتهم فوالذى نفسى بيده إن أحدهم ليعثر، وإن يده لفى يد الله تعالى» وقال: ضعيف جداً.

(٢) قال القرطبى : روى فى قصص العجل : أن السامرى ، واسمه موسى بن ظفر، ينسب إلى قرية تدعى سَامِرة . ولد عام قتل الأبناء ، وأخفته أمه فى كهف جبل فغذّاه جبريل فعرفه لذلك؛ فأخذ حين عبر البحر على فرس وَديق [1] ـ ليتقدم فرعون فى البحر ـ قبضة من أثر حافر الفرس . وهو معنى قوله : ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ [طه: ٩٦] .

[تفسير القرطبى: ٧/ ٢٨٤]، وانظر [تفسير الطبرى: ١/ ٢٨١]

---

(١) أى تشتهى الفحل .

تخضر، فأخذ أثراً من حافر الفرس ، وخلطها بالعجل فجاء له صوت الخوار؛ لذلك لا تتعجب من أن صاحب الفتنة قد يجد معونة من الأسباب التى خلقها الله.. لماذا؟ لأن الفتنة هى: اختبار للإنسان ؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ولذلك كان صبر موسى عليه السلام عليهم ؛ ولهذا كان وعد الله أن يأتيهم بكتاب فيه فرقان بين الحق والباطل، وليكون ذلك الكتاب منهاجًا لهم ؛ يتبعونه فى سلوكهم، وضرب الله ذلك الميعاد أربعين ليلة.

ذلك هو مجمل الميعاد أربعون ليلة، وقد جاء تفصيله فى آية أخرى هى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وهكذا يوضح الخالق الأكرم لنا تفاصيل الوعد. إن موسى يذهب إلى مناجاة ربه، ويمنحه الحق عز وجل التوراة عند تمام الثلاثين يوماً، ويتم الوعد بعشر ليال ، يستكمل فيها موسى العبادة؛ فصارت المدة أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون قبل أن يذهب لمناجاة ربه : كن خليفتى فى قومى وعليك بإدارة الأمور بصلاح وعدل، ولا تتّبع أهواء من يرغب فى الإفساد .

ولنا أن نسأل: لماذا أوضح الله فى آية سورة الأعراف بالتفصيل أن وعد الرحمن كان ثلاثين ليلة ، ثم أتمها موسى بعشر ليال أخرى ؟ ولماذا جاءت آية سورة «البقرة» بإجمال أن الوعد كان أربعين ليلة ؟ إن لنا أولا أن نتعرف على طبيعة ما حدث. لقد صام موسى ثلاثين ليلة استعداداً لأن يتلقى عن ربه المنهج الحق، ولكن موسى ببشريته اشتاق أن يلقى الله ورائحة فمّه طيبة، ذلك أن الصيام يجعل رائحة الفم من الناحية البشرية غير مقبول.

إن موسى ببشريته قد ظن أن الأحوال المتغيرة، التى تأتى وتحدث من البشر وعلى البشر، يتأثر بها الحق سبحانه وتعالى، ولم يكن موسى عليه السلام فى حدود بشريته يعلم أن أغيار البشر لها مقاييس تختلف عن مقاييس الحق جل وعلا، إن الطعم المتغير فى الفم بالصيام قد يكون كريه الرائحة عندما يتكلم إنسان مع إنسان، أو عندما يقترب إنسان من إنسان، ولكن موسى كأى صائم قد أمسك عن الطعام فى طاعة لله ، يذهب إلى ميقات ربه بخلوف فمه الذى هو كالمسك ، وصدق رسول الله ﷺ الذى قال عن خلوف فم الصائم : «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» (١)، كأن الحق سبحانه وتعالى قد أراد لموسى أن يجمع بين الميزتين، الميزة الأولى: أن يتلقى ما وعده الله به من المنهج وهو التوراة، والميزة الثانية: أن يلقى موسى ربه وفى فمه خلوف الصيام ؛ فيكون عند ربه أطيب من ريح المسك، ويمد موسى ميعاد الصيام عشرة أيام أخرى؛ ليستبقى خلوفها فى فمه ويتلقى موسى المنهج عن الله، كأن آية سورة «البقرة» حينما تحدثت عن الوعد من إجماله، إنما شملت الوعد بالصيام للمدة كلها، وكأن آية سورة «الأعراف» إنما فصّلت الوعد؛ لنعرف منه حقيقة الاختلاف بين استقبال الخلق، واستقبال الخالق.

ولنا الآن أن نقف عند معنى ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فبعض القراءات : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ وبعض القراءات تنطق هاتين الكلمتين

---

(١) أخرجه البخارى [١٨٩٤] عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «الصيام جنة ، فلا يرفث ولا يجهل. وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم - مرتين - والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، الصيام لى وأنا اجزى به، والحسنة بعشر أمثالها» .

(وَوَعَدْنَا مُوسَى)[1] ، وذلك يتطلب منا أن نتعرف على مادة الوعد. إن

(١) قال ابن جرير الطبرى : اختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأ بعضهم (وَاعدنْا) بمعنى أن الله تعالى واعد موسى ملاقاة الطور لمناجاته، فكانت المواعدة من الله لموسى ، ومن موسى لربه ، وكان من حجتهم على اختيارهم قراءة: (وَاعدنْا) على وعدنا أن قالوا: كل إيعاد كان بين اثنين للالتقاء أو الاجتماع ، فكل واحد منهما مواعد صاحبه ذلك ؛ فلذلك زعموا أنه وجب أن يقضى لقراءة من قرأ : (واعدنا) بالاختيار على قراءة من قرأ : (وعدنا) وقرأه بعضهم : (وعَدنْا) بمعنى أن الله الواعد موسى ، والمنفرد بالوعد دونه، وكان من حجتهم فى اختيارهم ذلك ، أن قالوا: إنما تكون المواعدة بين البشر، فأما الله جل ثناؤه فإنه المنفرد بالوعد والوعيد فى كل خير وشر قالوا : وبذلك جاء التنزيل فى القرآن كله، فقال جل ثناؤه : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وقال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] قالوا: فكذلك الواجب أن يكون هو المنفرد بالوعد فى قوله : (وإذ وعدنا موسى).
والصواب عندنا فى ذلك من القول ، أنهما قراءتان قد جاءت بهما الأمة ، وقرأت بهما القراء، وليس فى القراءة بإحداهما إبطال معنى الأخرى، وإن كان فى إحداهما زيادة معنى على الأخرى من جهة الظاهر والتلاوة؛ فأما من جهة المفهوم بهما فهما متفقتان، وذلك أن من أخبر عن شخص أنه وعد غيره اللقاء بموضع من المواضع، فمعلوم أن الموعود ذلك واعد صاحبه من لقائه بذلك المكان، مثل الذى وعده من ذلك صاحبه إذا كان وعده ما وعده إياه من ذلك عن اتفاق منهما عليه، ومعلوم أن موسى صلوات الله عليه لم يعده ربه الطور إلا عن رضا موسى بذلك ، إذ كان موسى غير مشكوك فيه أنه كان بكل ما أمر الله به راضيا ، وإلى محبته فيه مسارعا، ومعقول أن الله تعالى لم يعد موسى ذلك إلا وموسى إليه مستجيب، وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن الله عز ذكره قد كان وعد موسى الطور، ووعده موسى اللقاء، وكان الله عزّ ذكره لموسى واعدا ومواعدا له المناجاة على الطور، وكان موسى واعدا لربه مواعدا له اللقاء، فبأى القراءتين من وعد، وواعد قرأ القارئ، فهو الحق فى ذلك من جهة التأويل واللغة ، مصيب لما وصفنا من العلل قبل ، ولا معنى لقول القائل : إنما تكون المواعدة بين البشر، وأن الله بالوعد والوعيد منفرد فى كل خير وشر ؛ وذلك أن انفراد الله بالوعد والوعيد فى الثواب والعقاب والخير والشر والنفع والضر الذى هو بيده، وإليه دون سائر خلقه، لا يحيل الكلام الجارى بين الناس فى=

(وَعَدَ) تأتى عن الإخبار بشئ ما، فإذا كان هذا الشئ خيرًا قيل: (وعد) كأن يقول قائل: (وعدتك خيرًا)، وإذا كان هذا الشئ شرًا قيل: (أوعد)، مثلما يقول قائل: (أوعد الأب ابنه بالعقاب إن لم يقم بما عليه من مسئوليات)؛ ولهذا فعلينا عندما نسمع كلمة (وعد) أن نعلم أن ما يجئ بعدها هو الخير، وإذا سمعنا كلمة (أوعد) فلنعلم أن ما يجئ بعدها هو شر ، لكن بعض العلماء حاولوا الاستدراك على هذه القاعدة عندما قرأوا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[1] [الحج: ٧٢]

= استعمالهم إياه عن وجوهه ولا يغيره عن معانيه، والجارى بين الناس من الكلام المفهوم ما وصفنا ، من أن كل إيعاد كان بين اثنين فهو وعد من كل واحد منهما صاحبه ، ومواعدة بينهما ، وأن كل واحد منهما واعد صاحبه مواعد ، وأن الوعد الذى يكون به الانفراد من الواعد دون الموعود ، إنما هو ما كان بمعنى الوعد الذى هو خلاف الوعيد. [تفسير الطبرى : ١/٢٧٩، ٢٨٠]

(١) قال الشوكانى : وهكذا ترى أهل البدع المضلة إذا سمع الواحد منهم ما يتلوه العالم عليهم من آيات الكتاب العزيز، أو من السنة الصحيحة مخالفاً لما اعتقده من الباطل والضلالة ، رأيت فى وجهه من المنكر ما لو تمكن من أن يسطو بذلك العالم ، لفعل به ما لا يفعله بالمشركين، وقد رأينا وسمعنا من أهل البدع مالا يحيط به الوصف ، والله ناصر الحق ومظهر الدين ، وداحض الباطل ودامغ البدع ، وحافظ المتكلمين بما أخذه عليهم، المبينين للناس ما نزل إليهم، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم . فقال : ﴿ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم ﴾ أى أخبركم ﴿ بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ﴾ : الذى فيكم من الغيظ على من يتلو عليكم آيات الله، ومقاربتكم للوثوب عليهم ، وهو النار التى أعدها الله لكم ، فالنار مرتفعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف، والجملة جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل : ما هذا الأمر الذى هو شر مما نكابده ونناهده عند سماعنا ما تتلوه علينا؟ فقال: هو: ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ =

إن المشركين الذين يستمعون لآيات الله الواضحة ومنهجه الحق يستقبلون تلك الآيات بالحنق والغيظ، ويكاد الغيظ والحنق أن يدفعا هؤلاء المشركين إلى الفتنة بمن يتلو آيات الحق، ويأمر الله رسوله أن يخبر هؤلاء المشركين بأن هناك شرًا أكبر من الغيظ والحنق، إنه النار التى سوف يدخلها من يكفر بالله ويشرك به . ذلك وعد من الله.

إن العلماء حاولوا هنا أن يفهموا وعد الله بالنار للمشركين على أنه شر إنه شر بالنسبة للمشركين ، ولكنه أيضا خير بالنسبة للنار، إذن. . فالنار هنا هى الموعودة بالخير بالنسبة لها؛ وهو دخول المشركين فيها إنه وعد الخالق.

وفى ذلك يقول الحق عن مثل هذا الموقف: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] ولهؤلاء العلماء الأجلاء نقول: إن الوعد هنا هو خير بالنسبة للنار المسخرة بأمر الله، إنها تستزيد بدخول المزيد من الكافرين إليها ؛ ذلك أنها مسخّرة وطائعة لله ، والنار ككل ما خلقه الله مسخر وطائع لمنهج الله، الجماد فى طاعة الله تسخيرًا وتسبيحا، النبات فى طاعة الله تسخيرا وتسبيحا، الحيوان فى طاعة الله تسخيرا وتسبيحا، قال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]

إن كل شئ فى السماوات والأرض يسبح له ، وهو مسخّر لأمر الله الخالق الأكرم، الذى خلق كل شئ بدقة واكتمال، كأن كل ما فى الوجود

= كَفَرُوا﴾ وقيل : إن ﴿النَّارُ﴾ مبتدأ ، وخبره جملة : ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقيل : المعنى : أفأخبركم بشر مما يلحق تالى القرآن منكم من الأذى ، والتوعد لهم والتوثب عليهم؟ وقرئ : «النار» بالنصب على تقدير : أعنى . وقرئ بالجر بدلا من شر . ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى الموضع الذى تصيرون إليه ، وهو النار .

[فتح القدير: ٣/ ٤٦٦]

مسيّر على الطاعة، وكأن تسخير الجماد والنبات والحيوان يثبت قدرة الحق، وكأن اختيار الإنسان يثب محبوبية الحق لعباده الطائعين، ولنا أن نقيس عواطف الكائنات الأخرى العابدة لله المسبحة بحمده تجاه الإنسان العاصى، إنها تكره العاصى وتلفظه. صحيح أنها مسخرة بأمر الله له ، لكنها سوف تأتى يوم الحساب وتنفك من إسار(1) التسخير، وفى ذلك يأتى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وتتضح أكثر صورة شهادة أبعاض الإنسان وكل شئ مسخر للإنسان على الإنسان نفسه حين يقول الحق: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥] إن الأفواه لا تنطق لكن أبعاض الإنسان تنطق(2) ، إن الإنسان قد يقول: إنه ارتكب المعاصى

---

(١) الإسار : القيد ويكون حبل الكِتاف ، ومنه سمى الأسير ، وكانوا يشدّونه بالقدّ ؛ فسُمى كل اخيذ اسيراً ، وإن لم يشدّ به . يقال : أسرت الرجل أسْراً وإساراً، فهو اسير ومأسور ، والجمع أسرى وأسارى. [لسان العرب : ١٩/٤]

(٢) عن أبى هريرة قال : قالوا: يا رسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال: «هل تضارون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ، ليست فى سحابة؟» قالوا: لا . قال: «فهل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر، ليس فى سحابة؟» قالوا: لا . قال: «فوالذى نفسى بيده لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما. قال: فيلقى العبد فيقول : اى فُلْ (1) ! الم أكرمك ، واسوِّدك(2) ، وازوِّجك، وأسخِّر لك الخيل والإبل ، وأذرك تراس (3) وتربع (4) ؟ فيقول : بلى . قال فيقول: أفظننت =

---

(١) أى فل : معناه : يا فلان ، وهو ترخيم على خلاف القياس . وقيل : هى لغة بمعنى فلان، حكاها القاضى .

(٢) «أسودك» أى : اجعلك سيداً على غيرك .

(٣) «تراس»: اى تكون رئيس القوم وكبيرهم.

(٤) «تربع» اى تأخذ المرباع الذى كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة ـ وهو ربعها – ومعناه: الم اجعلك رئيساً مطاعاً.

= أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول: أى فل ! ألم أكرمك ، أسوِّدك ، أزوِّجك ، وأسخِّر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . أى رب ! فيقول : أفظننت أنك ملاقى؟ فيقول : لا. فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك. فيقول: يارب ! آمنت بك وبكتابك وبرسلك ، وصليت وصمت وتصدقت ، ويثنى بخير ما استطاع . فيقول : ههنا إذًا [1] . قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد علىّ ؟ فيختم على فيه . ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطقى . فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله . وذلك ليعذر [2] من نفسه. وذلك المنافق . وذلك الذى يسخط الله عليه » .

أخرجه مسلم [٢٩٦٨/١٦]

وعن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : «هل تدرون مم أضحك؟» قال قلنا : الله ورسوله أعلم . قال «من مخاطبة العبد ربه . يقول : يارب ! ألم تجرنى من الظلم ؟ قال يقول : بلى . قال فيقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى . قال فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال فيختم على فيه . فيقال لأركانه[3]: انطقى . قال فتنطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام . قال فيقول : بعدًا لكنّ وسحقاً . فعنكنّ كنت أناضل [4] ». أخرجه مسلم [٢٩٦٩/١٧]

عن حكيم بن معاوية ، عن أبيه، أنه جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد : إنى حلفت بعدد أصابعى ألا أتبعك ولا أتبع دينك، فأنشدك الله ما الذى بعثك الله به ؟ قال : «الإسلام» شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة ، أخوان نصيران، لا يقبل الله من أحد توبة أشرك بالله بعد إسلامه» قال : فما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال : «تطعمها إذا طعمتَ ، وتكسوها إذا =

(١) «ههنا إذاً» معناه : قف ههنا حتى يشهد عليك جوارحك ، إذ قد صرت منكراً.

(٢) «ليعذر» من الإعذار . والمعنى : ليزيل الله عذره من قبل نفسه ، بكثرة ذنوبه وشهادة أعضائه عليه ، بحيث لم يبق له عذر يتمسك به.

(٣) «لأركانه» أى : جوارحه.

(٤) «أناضل» أى : أدافع وأجادل.

بواسطة تلك الأبعاض، فلماذا لم تمتنع تلك الأبعاض عن تنفيذ المعاصى؟ والإجابة: إن الكون كله مسخر لطاعة الإنسان، وأبعاض الإنسان مسخرة للإنسان ، ولذلك فالتسخير يفترض أن تفعل هذه الأبعاض ما يأمرها به الإنسان، وهكذا تخدم الإنسان كل عناصر الوجود. فإن كان مؤمنا فإن عناصر الوجود تخدم الإنسان بمحبة ؛ لأنه يحرك هذه العناصر فى طاعة الله، وذلك أمر تحبه تلك العناصر ، وإذا فعل بها الإنسان ما يعصى الله، فإن هذه العناصر تنفذ ما يريده، ولكنها تلعنه فى الوقت نفسه ؛ لذلك تشهد عليه يوم القيامة وليقس كل منا ذلك الأمر على نفسه، لا شك أنك عندما تجد إنسانا مستقيما تفرح به؟ ولا شك أنك عندما تجد إنسانا منحرفا فأنت تحزن له، وقد تعانى منه . وإذا كان الكون المسخر للإنسان يفرح بطاعة الإنسان ويطيعه، ويكره العاصى ويلعنه ، فلا شك أن النار تفرح لما هى مأمورة به وهو إحراق العصاة، وهذا وعد الخير بالنسبة للنار(١) .

= اكتسيتَ، ولا تضرب الوجه، ولا تقبحه ، ولا تهجر إلا فى البيت - وأشار بيده إلى الشام، فقال : ههنا إلى ههنا تحشرون ركبانا ومشاة وعلى وجوهكم يوم القيامة، على أفواهكم الفِدامُ ، توفون سبعين أمة، أنتم أخيرهم وأكرمهم على الله ، وإن أول ما يُعرِب على أحدكم فخذه». أخرجه النسائى فى الكبرى [١١٤٣١]

وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُم﴾ [فصلت: ٢٢] قال : «إنكم تدعون ، مفدما على أفواهكم بالفدام . فأول شئ يُبين على أحدكم : فخذه وكفه» .

أخرجه النسائى فى الكبرى [١١٤٦٩]

(١) عن أنس بن مالك قال النبى ﷺ : «لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع ربّ العزة فيها قدمه فتقول : قَطْ قَطْ وعزتك ، ويزوى بعضها إلى بعض» .

أخرجه البخارى [٦٦٦١ ، ٤٨٤٨]

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «اختصمت الجنة والنار إلى ربهما فقالت الجنة: يارب مالها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار يعنى أوثرت =

وهكذا نفهم أن كلمة (وعد) تأتى دائما للخير ، ونفهم أن كلمة (أوعد) تأتى للشر ، وبعضنا قد يسأل وماذا عن (واعد)؟ ونحن نقول إن (واعد) تأتى من جانب من يملك إيقاع الخير لك؛ لذلك هى دائما من جانب واحد، وتتطلب وجود موعود، وعندما يكون الله جل وعلا الذى (واعد) موسى ، فموسى ليس له فى أمر ذلك الوعد من شئ، وإذا كان الإنسان فى حياته العادية قد يكون واعداً لابنه بأن يهديه شيئا، فذلك يتطلب قدرة من الأب وقبولاً من الابن، وإذا واعد الإنسان فى حياته العادية أن يكون واعدا لصديق له بهدية ، فذلك يتطلب وجود صفقة بين الاثنين: قدرة من الإنسان على العطاء وقبولاً من الطرف الثانى. إذن.. فالمسألة على المستوى البشرى تأخذ طابع الصفقة، أما على مستوى اختيار الحق فالأمر يختلف، إن الله هو الذى وعد؛ لذلك فليس لموسى رأى إنما عليه الطاعة، هل رأى أحد أو علم أن للرسل رأيًا فى اختيارهم كرسل؟ إننا لم نجد رسولاً قد اختاره الله فقال لله: لا . ذلك الأمر شاق على نفسى.. لماذا؟ لأن الذى خلق هو الله ، والذى يعد الرسول هو الله، والله أعلم بخلقه.

لذلك نجد الرسول ، أى رسول ، عندما يختاره الله، فهو يقبل ما وعده الله به ، تماماً كفرح المؤمنين حين يتلقون قوله تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣] إن الذى كتب الصيام هو الله، ولم يكتبه على كل

= بالمتكبرين ، فقال الله تعالى للجنة : أنت رحمتى ، وقال للنار : أنت عذابى أصيب بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها قال : فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً، وإنه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول : هل من مزيد ؟ ثلاثاً حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعض وتقول : قط قط قط ».

أخرجه البخارى [٤٨٥٠ ، ٧٤٤٩]

إنسان ، إنما كتب الله الصيام على المؤمنين به، كأن الإيمان تعاقد ارتضى به المؤمن الخالق الأكرم إلهًا ومشرعا ومكلفا، فكأن الله لم يقتحم على الإنسان اختياره بالتكليف، لكن الإنسان يدخل إلى التكاليف الإيمانية من باب الإيمان بالله، هكذا نفهم أن الإنسان شريك بالقبول لما فرضه الله وكتبه على المؤمنين، وفى ذلك المعنى، معنى ﴿كُتِبَ﴾، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] إن الله الذى له مطلق القوة والقدرة قد كتب وقضى أن ينتصر هو والرسل على كل ناكر أو جاحد، وكتب الحق أيضا الرحمة على نفسه فيقول تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] [الأنعام: ٥٤].

إن التكريم من الله والبُشرى بالرحمة الواسعة التى أوجبها الله على نفسه تفضّلاً منه، تلك الرحمة تقتضى أن من أتى عملاً سيئاً غير متدبر لنتائجه، ثم رجع إلى الله نادمًا ، تائبا ، وأصلح من أعماله؛ فإن الله يغفر له لأنه واسع الرحمة كبير المغفرة . هكذا نجد أن الله لا يقتحم على الإنسان بالتكليف إلا إذا آمن به، وقد آمن موسى بالله واختاره الحق رسولاً ؛ لذلك فإن وعد الله عندما جاء إلى موسى ، كان موسى قد تقبل التكليف بالرسالة من الحق، وكان ذلك القبول التزاما من موسى وعليه التنفيذ، هكذا كان وعد الله لموسى ، وكان تكريمه له بأن كلّمه تكليما، وعندما

(١) يقول صاحب اللسان: الكتاب يوضع موضع الفرض. قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨] وقال عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] ؛ معناه : فرض ، وقال : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ [المائدة: ٤٥] أى : فرضنا . [لسان العرب : ١/٦٩٩، ٧٠٠]

ذهب موسى إلى وعد الله ؛ ليتلقى التكليف الإيمانى، ماذا فعل قوم موسى؟ لقد اتخذوا العجل إلها ، عجلاً صنعه السامرى لهم من الحلى التى أخذوها من آل فرعون ، وكما جاءت من حرام ذهبت إلى حرام ، ولأن الله يريد أن يثبت للناس أن الإيمان اختيار. وهكذا كان السامرى الذى رباه جبريل عليه السلام كافرا، وكان موسى الذى رباه فرعون مؤمناً؛ لذلك صنع السامرى العجل ، فاتخذه قوم موسى إلها.

واتخاذهم لهذا العجل إلها هو معصية يظلمون بها أنفسهم؛ لأنهم لم ينتظروا عودة موسى من موعده، إنما سارعوا إلى عبادة عجل صنعه لهم السامرى، وقد يقول قائل : لماذا لم يقل الله إن قوم موسى اتخذوا العجل إلهًا؟ لماذا لم تنص الآية على أنهم عبدوا العجل؟ وإذا تأملنا الآية نجد أنها تؤكد هذا المعنى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١] إن اتخاذ العجل هو المعصية ؛ ذلك أن الاتخاذ غير الصنعة، الاتخاذ يعنى فى تلك الآية التخصيص بالعبادة؛ ولذلك أصبحوا ظالمين ، من هو الظالم؟ الظالم أنواع: ظالم لنفسه فى القمة ، وذلك هو من يشرك بالله ويتخذ أى كائن آخر معبودا من دون الله، ونوع آخر ظالم لنفسه فى مطلوب القمة أى أن يؤمن بالله ، ولكن يخالف التكاليف الإيمانية كأن لا يؤدى الفروض الدينية أو لا يعامل الآخرين بما يرضى الله، ولنتوقف عند هذين النوعين من الظلم.

قلنا إن الظالم فى القمة هو الذى يجعل لله شريكا؛ ولذلك قال الحق تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1] [لقمان: ١٣] ولنا أن نلاحظ أن الحق قد وصف الشرك

---

(١) عن عبد الله رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٢]شق ذلك على أصحاب النبى ﷺ وقالوا : أينا لم =

به بأنه ظلم عظيم.. لماذا؟ لأن الذى يشرك بالله يعبد من لم يخلق ومن لم يرزق ، ولم تكن له أوامر ونواهٍ، واتخذه معبودًا من دون الله أو شريكا لله، فالذين عبدوا الشمس مثلا اتخذوا إلهًا لا يخلق، ولا منهج يعطيه ليهتدى الإنسان به، الذين اتخذوا الأصنام آلهة لم تعطهم الأصنام منهجا يعبدونها على أساسه، أو يديرون حياتهم بواسطته؛ لذلك يقع الذين يشركون بالله فى الظلم العظيم لأنفسهم ولغيرهم؛ لأنهم يسيرون بلا هدى، ولا منهج عبادة تسير عليه حركة الحياة . إن من يشرك بالله يترك من خلق ومن رزق، ومن بيده الحياة والموت والبعث، ومن كلّف بالعبادة، ويذهب إلى من لا يقدر على أى شئ، إن هذا ظلم فى القمة.

والظلم الآخر هو: الظلم فى تطبيق منهج الله ، مثلما ينقص التاجر فى ميزان البيع، أو مثل شاهد الزور ، أو مثل الكذب والغش والخداع ، أو عدم القيام بتكاليف الإيمان ، هذا ظلم موجّه للنفس.. لماذا؟ لأن المراد من الظلم أن واحدًا يأخذ حق إنسان آخر ويعطيه لمن لا حق له، وينسى الظالم أنه لن يأخذ شيئا من ذى الحق أبدا.. لماذا؟ لأن هناك رقيبًا حسيبًا قيومًا لا تأخذه سنة ولا نوم.

إن الحق تبارك وتعالى هو مالك الملك، لا يقبل ظلم أحد لأحد ، إنه القادر على كل كائن فى سلطانه أو سلطته، فى صحته أو مرضه فى غناه أو فقره؛ لذلك فالإنسان الذى يظن أنه يظلم إنسانا آخر هو غبى لا يعرف أنه يظلم نفسه، والإنسان مهما بلغ من قوته لن يتطاول أو يستطيع أن يظلم الخالق؛ لأن الإنسان له ميلاد بإرادة الحق، ونهاية بإرادة الحق، وحساب

= يظلم نفسه، فقال رسول الله ﷺ : «ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ » [لقمان: ١٣] .
أخرجه البخارى [٣٢، ٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٦٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧]

بين يدى الحق ، وطلاقة قدرة الله فوق كل إنسان ظالم أو مظلوم ، قادر على القصاص من الظالم، وقادر على رد الاعتبار للمظلوم [1]، ولنا حين نقرأ القرآن أن نتفهم المعنى وراء كل كلمة؛ لأن المتكلم هو الله، نحن إذن لا نقرأ القرآن على أنه أسلوب أدبى ننفعل به. فالقرآن أرقى من ذلك؛ لأن المتكلم هو الله ، لذلك فعلينا أن نصفى النفس تصفية تناسب استقبال الخالق الأكرم، وهو يتكلم. ولنا فى المعالجة التى قالها جعفر الصادق رضى الله عنه المثل وهو يقول: عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] فإنى سمعت الله يعقبها بقوله : ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[2] [آل عمران: ١٧٤] هذه هى حيثيات قراءة القرآن.

إننا نسمع قول الخالق الأكرم ؛ لذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]

إن السماع لقول الحق وتدبر معانيه ، يجعل المؤمن يفوز بالرحمة، ولذلك فعلينا أن نتدبر قـول الحق حين يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « الظلم ظلمات يوم القيامة » . أخرجه البخارى [٢٤٤٧] واللفظ له ، ومسلم [٢٥٧٩] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال : « اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب » . أخرجه البخارى [٢٤٤٨] .

(٢) عن عكرمة قال : كانت بدر متجراً فى الجاهلية ، وكان رسول الله ﷺ واعد أبا سفيان أن يلقاه بها، فلقيهم رجل فقال له : إن بها جمعاً عظيماً من المشركين، فأما الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ أهبة التجارة وأهبة القتال. ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ثم خرجوا حتى جاؤوها فتسوّقوا بها، ولم يلقوا أحداً فنزلت: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ إلى قوله : ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ . [الدر المنثور : ٢/ ٣٨٩]

أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] . إن فعل الفاحشة ظلم للنفس والحق يريد الدقة المطلقة؛ لذلك يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ وفعل الفاحشة فيه شئ من المتعة الحرام، إنها متعة ذات توقيت عاجل يعقبها عذاب آجل، وفى ذلك ظلم للنفس، وهناك من يفعل الفاحشة لسواه ، وغيره يستمتع بها ، بينما هو يصطلى بنارها ، وهذا ظلم للنفس؛ لأن الذى قام بتلك الفاحشة لم يأخذ متعتها فى الدنيا ويصطلى بها فى الآخرة، مثل شهادة الزور ، إن شاهد الزور، يحقق النفع لغيره ويظلم نفسه فى الدنيا وفى الآخرة ، هذا هو ظلم النفس.

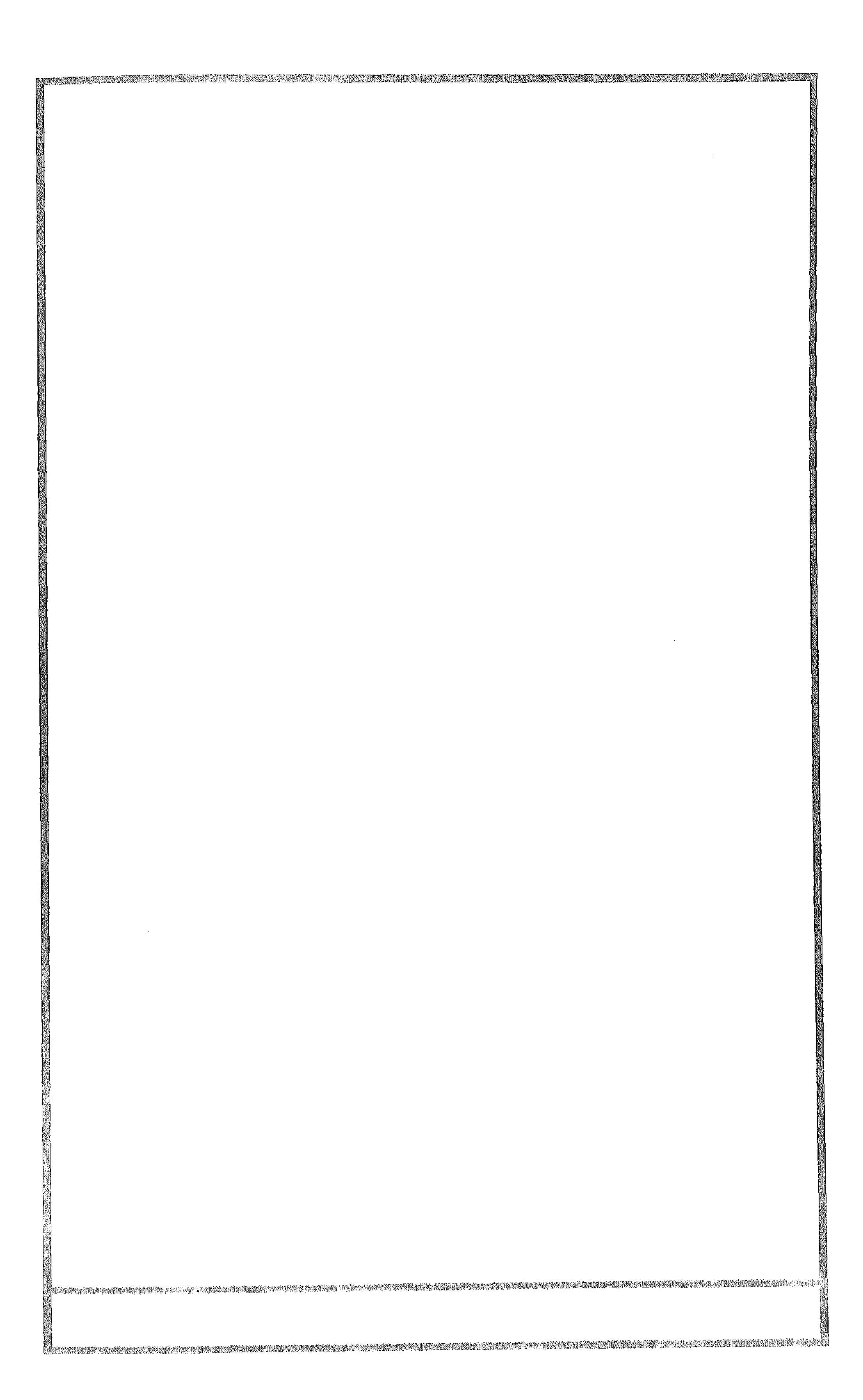
ولذلك يروى فى الأثر : «شركم من باع دينه بدنياه وشر منه من باع دينه بدنيا غيره» (١) هكذا يظلم الإنسان نفسه ، البعض يظلم نفسه عندما يبيع الدين بأعراض الدنيا، والبعض يزداد شرًا من نفسه عندما يبيع دينه بدنيا غيره .. إذن لن يكيد أحد لله شيئا، والظلم يعود من العبد إلى نفسه، فليس فى مقدور أحد أن يأخذ شيئا من ملك الله، بل سيظل الملك لله بدأه وينهيه ، حينما يريد ، ولا يفلت أحد من قدر الله عليه؛ لأن أحدًا لا يستطيع أن يجد حماية من أى أحد سوى الله؛ لذلك ظلم بنو إسرائيل أنفسهم عندما عبدوا العجل.

تم بعون الله تعالى المجلد الثالث

ويليه إن شاء الله المجلد الرابع

---

(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا». أخرجه مسلم [١١٨/١٨٦].



فهرس موضوعات المجلد الثالث

الموضوع	الصفحة